

مَوْسُوعَةٌ

مَوْصِلُ الْحَضَرَةِ

الْجُلْدُ الثَّالِثُ

٣



جامعة الموصل
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

موسوعة الموصل الحضارية

المجلد الثالث

٣

دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل

حقوق الطبع محفوظة لدار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل

الطبعة الاولى ١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م

٣ / ٤٠٠٠ / ٩١٠٢٥



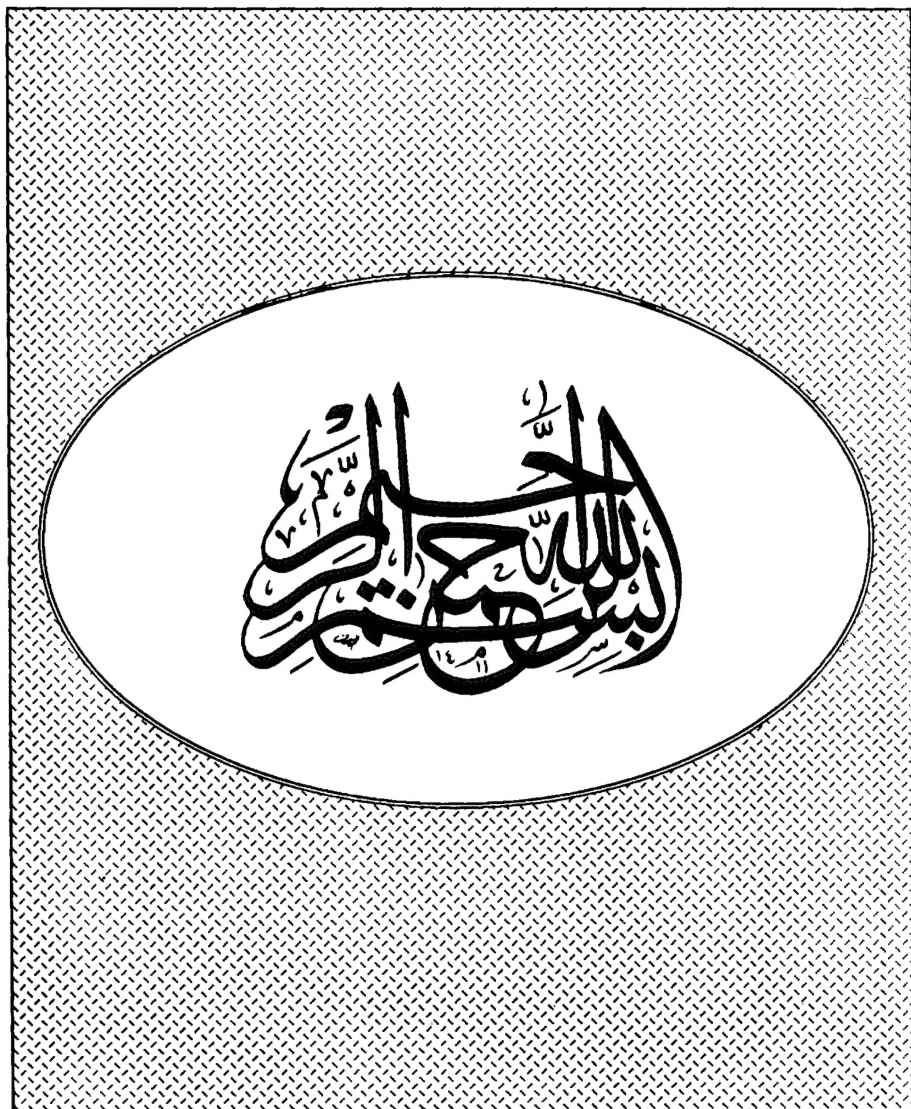
نشر وطبع وتوزيع :

دار الكتب للطباعة والنشر - جامعة الموصل

شارع ابن الاثير - الموصل - جمهورية العراق

هاتف ٧٦٣٢٣١

فلكس ٨٠٩٢



هَيْئَةُ التَّحْرِيقِ وَتَوْصِيَةُ التَّوَصُّلِ الْخُصَّةِ لَزَيْتِهَا

| | |
|----------------------|--|
| رَبِيلُ التَّحْرِيقِ | الْأَسْتَاذُ الذَّكُورُ هَاشِمُ بَيْحِي الْمَلَايِجِ |
| عَضْوًا | الْأَسْتَاذُ الذَّكُورُ عَمَامُ بْنُ سَيْلَمَانَ |
| عَضْوًا | الْأَسْتَاذُ الذَّكُورُ أَحْمَدُ قَانِمُ الْجُمُعَةِ |
| عَضْوًا | الذَّكُورُ بَرَاهِيَةُ خَلِيلُ أَحْمَدَ |
| عَضْوًا وَمَعْرُفًا | الذَّكُورُ أَحْمَدُ عَبْدُ اللَّهِ الْحَسُونُ |

الْأَسْتَاذُ الْفَتْحِيُّ : يُوسُفُ دَنْوْنُ

توطئة

إذا كان قد اتضح من خلال مباحث الجزء الثاني من الموسوعة ان الحضارة العربية الاسلامية قد عبرت عن هويتها الحضارية من خلال الأمصار التي مضرتها والبلدان التي شملتها بإدارتها وحكمها فإن الثقافة العربية الاسلامية التي يتولى هذا الجزء ، الحديث عن نشأتها وتطورها في الموصل كانت الأساس الذي انطلقت منه تلك الحضارة .

ان الكلمة الالهية التي تجسدت في آيات القرآن الكريم الذي نزل بلسان عربي مبين ، كانت المنطلق الأول لتلك الثقافة ، وجاءت السنة النبوية شارحة ومفصلة لما أجمله ، مقدّمة النموذج الحي لتجسيد أحكامه من خلال سيرة الرسول الأمين محمد ﷺ .

وفي خضمّ الأحداث والتطورات التي مرّت بها الأمة ، وهي تنمو وتمتد لتوحد أقواماً شتى ، وأقاليم متنوعة في إطار دار الإسلام أجهد الفقهاء بتقديم الأحكام الشرعية لمعالجة الأوضاع المستجدة في جوانب الحياة المختلفة ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية .

وقد ارتبطت بالعلوم الدينية «القرآن والسنة والفقه وغيرها» دراسات اللغة والأدب ، وذلك لأن اللغة العربية كانت الوعاء الذي جمع هذا الميراث وتطوّرت في إطاره الثقافة العربية الاسلامية ، فمن لم يحسن هذه اللغة ويتشبع بأدبها ومثلها كان من الصعب عليه أن يساهم مساهمة خلاقة ومبدعة في هذه الثقافة .

ولم تتخلّف الدراسات التاريخية والجغرافية عن مواكبة هذه الثقافة منذ نشأتها الأولى ، إذ ارتبطت الدراسات التاريخية بدراسة الأحاديث والسيرة النبوية ، وتولّت تسجيل تجارب الأمة عبر حقب التاريخ المختلفة ، أما الجغرافية فقد اتجهت نحو دراسة أحوال الأمصار الاسلامية وما جاورها من البلدان ، وبذلك تداخلت مع الدراسات التاريخية وتكاملت معها .

أما العلوم العقلية كالطب والرياضيات والهندسة والفلك والفلسفة فقد أحتلت مكاناً بارزاً في إطار الثقافة العربية الاسلامية ، مما حدا ببعض الفلاسفة والعلماء الى تقسيم العلوم عند العرب الى علوم نقلية وعلوم عقلية .

وقد واكبت الفنون حركة التقدم الثقافي والحضاري التي مرّ بها المجتمع ، فقدّمت إسهامات متميزة في مجالات فنية متنوعة ، كفنون العمارة والزخرفة والتصوير وبعض الصناعات اليدوية كصناعة التحف المعدنية والفخارية والأنسجة فضلاً عن الموسيقى والغناء .

وهكذا نلاحظ أن الحركة الثقافية التي شهدتها الحضارة العربية الإسلامية لم تحصر نفسها في إطار العلوم الدينية على الرغم من أنها كانت القاعدة التي انطلقت منها هذه الحركة ، وإنما اتسعت لتشمل العلوم والمعارف والفنون التي كانت معروفة في ذلك الزمان .

وإذا كانت الموصل قد غدت في ظل الحضارة العربية الإسلامية أحد أهم مراكز الثقافة والمعرفة ، فإن الحركة الثقافية فيها لم تحصر نفسها في إطار ضيق ، وإنما سعت إلى إقامة روابط عضوية حية مع جميع مراكز العلم والمعرفة في دار الإسلام من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق . وقد تجسدت الصلات الثقافية بين علماء الموصل وغيرهم من خلال الرحلة في طلب العلم التي كانت أحد معالم الحياة الثقافية في عموم ديار الإسلام . فكان العلماء وطلبتهم ينتقلون بين جميع المدن الإسلامية طلباً للعلم والمعرفة من غير أن تحد حركتهم أية حدود إقليمية أو سياسية ، وذلك لأن دار الإسلام كانت داراً واحدة من الناحية الشرعية ، وكان أبنائها يكوّنون أمة واحدة على الرغم من اختلاف الأسر الحاكمة لأقاليم دار الإسلام .

في ضوء ما تقدّم فإن دراسة التاريخ العربي الإسلامي تتطلب عدم التركيز كثيراً على الهياكل السياسية التي أقامتها الأسر الحاكمة هنا وهناك والتي أطلقوا عليها اسم دول أو دويلات ، وإنما ينبغي توجيه الجهود لدراسة المعطيات الحضارية والثقافية التي أبدعتها الأمة الواحدة في إطار دار الإسلام التي لم يكن يفصل بين مدنها وأقاليمها أية حدود سياسية أو ثقافية معترف بها ، حيث أن مثل هذه الحدود لم تظهر إلا في العصور الحديثة .

إن هيئة تحرير موسوعة الموصل الحضارية لتأمل أن تساهم من خلال هذا العمل الذي قام بإنجازه عدد كبير من الأساتذة والباحثين أن تلفت الأنظار إلى أهمية اعتماد وحدة الأمة والدار والحضارة منطلقاً أساساً لدراسة وفهم التاريخ .

رئيس هيئة تحرير الموسوعة

المحتويات

الموصل في التاريخ العربي الاسلامي

(٢)

الحياة العلمية والأدبية والفنية في الموصل منذ التحرير العربي وحتى السيطرة العثمانية

العلوم العربية الاسلامية

- | | | |
|------|-----------------------------|---|
| ١٣ . | علوم القرآن | أ. د. كاصد ياسر الزبيدي كلية الآداب / جامعة الموصل |
| ٣٧ . | علوم الحديث | أ. د. كاصد ياسر الزبيدي |
| ٥٨ . | علوم الفقه | أ. د. كاصد ياسر الزبيدي |
| ٨٣ . | العلوم التاريخية والجغرافية | أ. د. عبد الواحد ذنون طه كلية التربية / جامعة الموصل |
| ٩٩ . | علوم النحو والعربية | د. طارق عبد عون الجنابي كلية التربية / جامعة الموصل |

الحياة الأدبية

- | | | |
|-------|---|---|
| ١١٤ . | الحياة الأدبية حتى نهاية القرن الثالث الهجري | د. غانم سعيد حسن كلية التربية / جامعة الموصل |
| ١٢٢ . | الحياة الادبية في القرن الرابع الهجري | د. غانم سعيد حسن |
| ١٣٦ . | الحياة الأدبية في القرن الخامس الهجري | د. محمد قاسم مصطفى كلية التربية / جامعة الموصل |
| ١٥٠ . | الحياة الأدبية في القرنين السادس والسابع الهجريين | أ. د. ناظم رشيد كلية الآداب / جامعة الموصل |

| | | |
|---|---|-------|
| د. احمد عبدالله الحسو كلية الآداب / جامعة الموصل | الحياة الأدبية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين | ١٨٢ . |
| العلوم | | |
| د. دريد عبد القادر نوري كلية الآداب / جامعة الموصل | العلوم العقلية | ١٩٩ . |
| د. محمود الحاج قاسم محمد | العلوم الطبية | ٢٠٦ . |
| الفنون | | |
| يوسف ذنون | الخط العربي | ٢٢١ . |
| أ. د. عادل نجم عبو كلية الآداب / جامعة الموصل | مدرسة التصوير في الموصل | ٢٣٦ . |
| د. عادل البكري كلية الطب / الجامعة المستنصرية | الموسيقى والغناء | ٢٥٢ . |
| العارة وفنونها | | |
| سميد الديوبه جي | خطط المدينة | ٢٦١ . |
| أ. د. احمد قاسم الجمعة كلية الآداب / جامعة الموصل | المنشآت المعمارية | ٢٧٣ . |
| أ. د. احمد قاسم الجمعة | المآذن | ٢٩٦ . |
| أ. د. عادل نجم عبو | القباب الوترية | ٣٠٦ . |
| أ. د. احمد قاسم الجمعة | الدلالات المعمارية وتجديدها الحضاري | ٣١٩ . |
| الفنون الزخرفية | | |
| أ. د. احمد قاسم الجمعة | الزخرفة الرخامية | ٣٣٨ . |
| أ. د. احمد قاسم الجمعة | الزخرفة الآجرية | ٣٦٢ . |
| أ. د. عبد العزيز حميد صالح كلية الآداب / جامعة بغداد | الزخرفة الجصية | ٣٨٢ . |
| الفنون التطبيقية | | |
| أ. د. احمد قاسم الجمعة | المنسوجات والملابس | ٣٩٣ . |
| أ. د. صلاح حسين العبيدي كلية التربية / جامعة الانبار | التحف المعدنية | ٤١٠ . |
| أ. د. عبد العزيز حميد صالح | الحجاب الفخارية | ٤٢٨ . |

المَوْصَلِي فِي التَّلَاحِ الْغَرَنِي الْإِسْلَامِي
(٢)

الحياة العلمية والادبية والفنية في الموصل منذ الفتح العربي - وحتى السيطرة العثمانية

١٦ - ٩٢٢ هـ / ٦٢٧ - ١٥١٦ م

العلوم والفنون الإسلامية

أ. د. كاصد ياسر الزيدي

موطن للعلم والعلماء أيضاً، حتى قيل: الموصلان للتعبير عنها، كما قيل: البصريتان، للبصرة والكوفة^(١). ومعلوم في أساليب العربية أن الاسم الذي يغلب على نظيره، إنما يغلب - في إحدى صوره - لأفضليته على ذلك النظير. ومن هنا نشعر بأن تغليب الموصل على الجزيرة إنما جرى وفق هذا المعنى، مع ما للجزيرة أيضاً من مكانة وشهرة. وبذلك يمكن القول: إن مدينة لها مثل هذا الموقع النادر، لا بد أن تحظى في العلم بمكان رفيع متميز، وهو ما حصل فعلاً؛ إذ ضمت من رجال العلم وطلبته ومدارسه الشيء الكثير. وكان للدراسات الإسلامية فيها شأن وأثر، حتى إنها اشتهرت بذلك، فصارت الرحلة إليها من الأمصار والمدن الإسلامية المختلفة، القريبة والبعيدة على السواء. وامتازت هذه الدراسات بالتنوع والشمول، فلم تقف في سعتها وبراعتها عند الدراسات القرآنية فحسب، من قراءات وتفسير ونحوها، وإنما تجاوزتها إلى الدراسات الفقهية،

تعد الموصل - قديماً - إحدى مدن الإسلام الكبرى، شهرة ومكانة وسعة، ولذلك وصفها ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م) بـ «المدينة المشهورة العظيمة». وبأنها «إحدى قواعد بلاد الإسلام»، وأنها «قليلة النظير كثيراً وعظماً وكثرة خلق وسعة رقعة»^(٢). كما تمتاز بموقعها الجغرافي المتميز الذي سميت به (الموصل)، من حيث إنها تصل الجزيرة بالعراق، أو دجلة بالفرات، أو مدينة سنجار بمدينة حديثة^(٣)، على أقوال متعددة في سبب تسميتها بهذا الاسم. فهي إذن مركز التقاء القادمين من مناطق شتى، كما أنها مركز لانتشارهم إلى جهات متعددة.

ومدينة لها مثل هذه المزايا، لا بد أن تكون ملتقى العلماء، وطلبة العلم، والتجار، والمتحاربين. ولذلك قال عنها ياقوت^(٣) بعد كلامه الذي ذكرناه آنفاً: «فهي محط رحال الركبان، ومنها يقصد إلى جميع البلدان».

وقد غلب اسم الموصل على الجزيرة، التي هي

والدراسات الحديثة ، فضلاً عن دراسات أخرى لها وشيجة بالدراسات الإسلامية ، كأصول الدين وعلم الكلام . ولكن هذه الدراسات الأخيرة ، لم تنل من العناية والشهرة والكثرة ، مانالته تلك العلوم الثلاث الرئيسة التي ذكرنا آنفاً . ولذلك ضاق القسم الذي خصّ به ياقوت الموصل ، من معجمه الذي أفرده للبلدان ، عن الاتساع لجميع علمائها في علوم الدين ، واكتفى بالقول : « فأما من ينسب الى الموصل من أهل العلم ، فأكثر من أن يحصى » ولكن تذكر من أعيانهم وحفاظهم ومشهورهم ، ما ربما احتيج الى أكثر من الوقت عند الكشف عنهم . ثم انبرى يذكر عدداً من مشاهير علمائهم مفتتحاً بأبي القاسم الأزدي الموصلية (٥) .

ولا كانت الموصل قد افتتحت في سنة (١٦٦ هـ / ٦٣٧ م) ، في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٦) ، فإن ذلك أتاح لها فرصة نشوء الدراسات الإسلامية وازدهارها ، وخاصة القرآنية منها ؛ إذ كانت الأمصار التي تفتح تنال حظها من هذه الدراسات بسرعة ، بعد استقرار جماعة من الصحابة فيها ؛ إذ أن ذلك منعم للغاية التي افتتحت من أجلها ، وهي نشر الاسلام ، وشريعته ، وعلومه ، متمثلة بالقرآن والحديث ، وما يستنبط منها بأدلة النقل والعقل من فقه وأصول .

وحين نبحث في أحوال الموصليين من علماء الدين نجدهم صنوفاً متعددة ومتباينة في منشئهم ، وذلك :

(١) فمنهم من ولد بالموصل ونشأ بها ، وحصل مبادئ العلم بها ، ثم رحل طلباً للعلم والرواية ، وعاد إليها شيخاً فذاً ، أو قاضياً مرموقاً ، أو مدرساً مفيداً .

(٢) ومنهم من سافر ولم يعد إليها ، بل استوطن غيرها من المدن والأمصار ، وتوفي في أحدها ، مما يؤمه أهل العلم عادة ، وخاصة

بغداد ، والشام ، ومصر .

(٣) ومنهم من ولد في غير الموصل كإبريل مثلاً ، ثم نشأ في الموصل ، وتلقى علومه فيها ، ثم مكث فيها ، أو ارتحل عنها وعاد إليها بعد تحصيل العلم والرواية ، أو ارتحل ولم يعد إليها ، بعد أن صار من العلماء الأعلام والأئمة الكبار . فمثلاً منصباً علمياً كمشيخنة الإقراء أو التحديث في بلد آخر ، وخاصة دمشق أو منصباً قضائياً ، بأن يصير قاضياً ، أو قاضياً للقضاة ، بعد رسوخ قدمه في القضاء والإفتاء . وهنا يلحظ أمر لفت الباحث في دراسة ومتابعة لأحوال هؤلاء العلماء الموصلة ، وهو أن كثيراً من الولاة والأمراء ، بل الخلفاء ، كانوا شديدي الحرص على الاستمسك بأهل العلم من الموصلة عند التقائهم إياهم أو مرورهم في ديارهم ، ومحاولة استبقائهم ، للقضاء والفتيا ، أو للتدريس والتصنيف ، أو للمؤازرة والاستشارة ، حتى إن منهم من تقلد منصب الوزارة في غير بلده الموصل .

(٤) ومن هؤلاء العلماء المنسوبين الى الموصل ، من لم يكن في الأصل من أهلها ، ولكنه وفد إليها بعد عمر مهاجراً لسبب من الأسباب ، أو قاضياً ، أو والياً ، أو غير ذلك . فتصدر للتعليم فيها ، أو استكمل علمه فأخذ من أئمتها ماتياً له أخذ من علوم القرآن والحديث والفقه ، فلم يحل المنصب أو الجاه دون ذلك ، وهذا ما يلحظ لدى بعض الأمراء والولاة وأولادهم .

وإذ يتناول هذا البحث بالدرس (العلوم الدينية) ، متمثلة بعلوم القرآن ، والحديث ، والفقه ، فسيعرض أولاً لدراسة علوم القرآن ، إذ هي أقدم هذه العلوم الدينية ، لأنها صحبت ظهور الإسلام بتزول النص الكريم .

علوم القرآن

العلمي، لاتصالها اتصالاً وثيقاً بالنص القرآني ومعانيه. فعلم القراءات يتعلق بأداء هذا النص الكريم، وبه يرتبط - من بعض الوجوه - علم آخر عملي أيضاً هو (علم التجويد)، لتعلقه بالأداء الصوتي لا النصي. وأما علم التفسير فيتعلق بمعاني القرآن الكريم في نصه وقراءاته، إذ كثيراً ما يترتب على اختلاف القراءة اختلاف في المعنى، وإن كان ذلك لا يخرج عن ملائمة سياق الآية مهما تعددت القراءة.

على أن علوم القرآن أصاب كثيراً منها بعد الغزو المغولي لبغداد سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) فتور في التأليف في العراق بعامة^(٨)، «غير أن العلمين اللذين بقيا مستمرين نشيطين طوال العهد المغولي وما بعده، هما علم القراءات وعلم التفسير»^(٩)، وقد بقي هذان العلمان - برغم كل الكوارث - حين دأبوا في الموصل، إذ «أن المنتبج لحركة القراءات والتفسير بعد سقوط بغداد مثلاً، يجد بروز مدينتي الموصل وواسط بشكل يلفت النظر، فوق ما بقي من بغداد نفسها من علماء بعد الإرهاب المغولي الدموي»^(١٠).

علم القراءات :

يعد علم القراءات أقدم العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم، لأنه صاحب النص المنزل، كما صاحبه علم التفسير. فهو بحق «من آصل المناهج العملية في الدراسات القرآنية»^(١١). وعناية أهل العلم بالقراءات تنفق ووثوقهم بحرفية النص القرآني، إذ أن علم القراءات يتوخى قبل كل شيء صيانة الكتاب العزيز من التحريف والتغيير، فضلاً عن «ثمرات كثيرة»، كما يقول الديباطي^(١٢).

تعد علوم القرآن من أقدم العلوم الإسلامية التي ظهرت بعد بزوغ فجر الإسلام؛ لأنها واكبت نزول الكتاب العزيز، فكان القرآن ينزل وهذه العلوم تظهر آناء بعد آن، كلما جد من الآي جديد.

ويراد بعلم القرآن في الاصطلاح: جملة مباحث تتعلق بالقرآن الكريم، من ناحية نزوله، وترتيبه، وجمعه، وتدوينه، وقراءاته، وتفسيره، وإعجازه، وناسخه ومنسوخه، ومحكمه، ومتشابهه، ومكيه ومدنيّه، ورسمه، ونحو ذلك^(٧).

فعلم القرآن إذن بدلالاتها الاصطلاحية، تضم علوماً متنوعة، لكل منها صفته وخصائصه. ولكننا لا نجد في تراث الموصل القرآني - في الواقع الذي دلّ عليه البحث - ما يُعتدّ به في الدرس والتنويه، سوى علمين بارزين مهمين استأثرا بعناية الموصليين القداسي كثيراً، وهما: (علم القراءات) و (علم التفسير)، وعلم آخر عُني به بعض أهل العلم كالكواسي المتوفى سنة (٦٨٠هـ / ١٢٨١م)، إذ ورد في بعض كتب الطبقات أنه صنف كتاباً أو كتابين في (علم الوقف والابتداء)، كما سنرى ذلك عند الكلام على مصنفاته. ومع هذا فهما مفقودان، إذ لا أثر يذكر لهما الآن.

ومن هنا يصح القول: إن الجهود العلمية المتعلقة بالدراسات القرآنية، قد دارت - رواية ودرساً وتصنيفاً - على علمي (القراءات) و (التفسير) بصورة واضحة جداً، كما دارت عليها منازرة وتحققاً.

ولعل سبب ذلك هو أن هذين العلمين هما العلمان العمليان - من علوم القرآن - في حياة الإنسان المسلم، فصار طلبهما جزءاً من تعبه



(ت ١١١٧ هـ / ١٧٠٥ م)، وهي مع ذلك تناسب اتجاه أهل الموصل الفقهي والأصولي، وهو اتجاه تركي سنرى إن شاء الله. ولذلك كان كثير من أهل العلم مقرئاً وفقياً، أو مقرئاً وأصولياً، أما المفسرون المشهورون فغير واحد منهم كان مقرئاً، وخير دليل على ذلك أبو بكر النقاش (ت ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م) وموفق الدين الكواشي، الذي سبقت الإشارة إليه.

على أن هذه الوشيجة التي استوفقت بين علم القراءات وعلمي الفقه وأصوله، إنما ترجع أيضاً إلى أن القراءات المشهورة أثرت هذين العلمين بالوجوه المتعددة في استنباط الأحكام الشرعية، حتى إن الدمياطي^(١٣) قال: «لم تزل العلماء تستنبط من كل حرف يقرأ به قارئ معنى لا يوجد في قراءة الآخر»، وقال^(١٤): «والقراءة حجة الفقهاء في الاستنباط ومحبّتهم في الاهتداء، مع ما فيها من التسهيل على الأمة».

مكانة الموصل في الإقراء:

يتبين للباحث في القراءات القرآنية في الموصل، ملاحظ وأنطباعات ذات أهمية في تقويم مكانة هذه المدينة في الإقراء، وذلك:

(١) إن هذه المدينة كانت مركزاً دولياً قديماً مرموقاً في الإقراء؛ إذ كانت تشد إليها الرحال طلباً للعلم الديني، وبخاصة علم القراءات. ولهذا كانت لها مشيخة للإقراء تسنمها قراء كبار مشهورون، كعبد الله بن إبراهيم بن ربيعة المتوفى سنة (٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م)، الذي وصف بأنه «أستاذ ماهر»^(١٥) في هذا العلم. والدليل على الارتحال إليها لهذه الغاية كثير، من ذلك رحلة تقي الدين أبي العباس أحمد ابن نوفل النصيبيني الحُرقي المتوفى سنة (٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م)، قرأ على عز الدين

محمد بن عبد الكريم البوازيجي بن حرمة مقرئ أهل الموصل، وسمع عليه (كتاب التجريد) لابن الفحام عن أخيه لذلك عن يحيى بن سعدون القرطبي الموصل، ثم انتصب بعد هذا التعلّم لتعليم القراءات في الموصل، فعلم ابن بدر الدين - صاحب الموصل - القراءات^(١٦). وقرأ عليه القراءات أبو الحسن علي بن أحمد بن موسى الجزري المقرئ، قال الذهبي: «وروى لنا عنه (كتاب التجريد) بالإجازة شيخنا أبو بكر المصنّائي»^(١٧).

على أن من علماء القراءات من اجتذبتهم الوظيفة إلى هذه المدينة، وهي وظيفة دينية على الأغلب، ثم لم يلبث أن استقرّ فيها زمناً، فصار علماً من أعلامها في الإقراء والإفادة، وإن لم يكن في الأصل من أهلها. وخير مثال على هذا الاتجاه إمام كبير قديم في القراءات هو العباس بن الفضل بن عمرو بن عبيد الواقفي الأنصاري البصري قاضي الموصل المتوفى سنة (١٨٦ هـ / ٨٠٢ م)، الذي يوصف بأنه «أستاذ حاذق ثقة»^(١٨)، وقد كان من أكابر تلامذة المقرئ البصري الكبير أبي عمرو بن العلاء المتوفى سنة (١٥٤ هـ / ٧٧٠ م)، ضبط عنه الإدغام فأفاد به من أخذ عنه من الموصليين. كما روى الواقفي القراءة عن خارجة بن مصعب عن نافع بن أبي نعيم أحد القراء السبعة، وعن أبي عمرو بن مطرف بن معقل عن ابن كثير قارئ بلاد الشام، أحد السبعة أيضاً. كما أن له اختياراً في القراءة رواه عنه شمس الدين محمد بن محمد بن الجزري المتوفى سنة (٨٣٣ هـ / ١٤٢٩ م) في كتابه (الكامل). وقد أخذ الرواية عن هذا الإمام المقرئ الكبير غير واحد من المواصل من حمزة بن

القاسم ، وعامر بن عمر الموصلي المعروف بـ (أوقية) المتوفى سنة (٢٥٠هـ / ٨٦٤م) ، الذي أخذ قراءة أبي عمرو بن العلاء البصري بعدة طرق وأسانيد ، منها طريق الواقي ، ومنها طريق اليزيدي ، وسيرد الحديث عن ذلك .

وكان العباس أكفأ تلامذة أبي عمرو ، وقد ناظر الكسائي المقرئ الكوفي الكبير (ت ١٨٩هـ / ٨٠٤م) ، ونال فخر أبي عمرو به ، حتى إنه قال : لو لم يكن في أصحابي - يقصد تلاميذي - إلا عباس لكفاني . غير أنه لم يشتهر شهرة القراء الكبار من أمثاله . وقد علل الذهبي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) ذلك بأنه لم يجلس للإقراء ويتصدر له كما جلس وتصدر غيره ، وأنه لم يقرأ عليه - حسب علمه - إلا عامر بن عمر المعروف بأوقية . ومهما يكن من أمر فإن هذا الامام لم يغادر الموصل بعد انتقاله إليها من البصرة الى أن مات .^(١٩)

ومن رحل الى الموصل مكّي بن ريان بن شبة الماكسيني المولد الموصلي الدار ، وردّها طالباً للعلم ، وروى القراءات فيها عن أئمة هذا العلم ، حتى صار إماماً عالمياً بها ، ثم أقرأ مدة طويلة في الموصل حتى توفي سنة (٢٠٠هـ / ٦٠٣م) .

(٢) وكانت الموصل فوق ذلك مركزاً لمدّ الأمصاّر بالقراء والمقرئين ، فكان كثير من أهلها اذا أخذوا علم القراءات عن أئمتهم وشيوخهم في الموصل يعمّوا نحو مدن الشرق والغرب الإسلامي ، يقرؤون الناس كتاب الله المجيد ، بما سمعوه من روايات ، على نحو ما وصف به أبو بكر النقاش المقرئ الإمام ، من أنه «سافر شرقاً وغرباً»^(٢١) .

وحين أحكم محمد بن الحسين الموصلي

المعروف بابن وحشي هذا العلم ، وبرز فيه حتى شهد له بالامامة ، أقام بميتافارقين^(٢٢) يقرئ الناس فنون القراءات .

ومنهم من أخذ علم القراءات في بلده الموصل ، حتى إذا استوفى ما عند الشيوخ فيها من الرواية والعلم ، انتقل الى بلد آخر ليتم درسه على شيخ أو أكثر من شيوخ الإقراء مشهور ، ليتصدّر بعد ذلك إماماً في القراءات ، يقرئ الناس بما شافه به شيوخه ، وأتقنه من وجوهها . فهي رحلة في طلب القراءات دون سواها من علوم الدين ، على نحو ما نرى في صنيع أبي بكر محمد بن أبي بكر الموصلي المولود في الموصل سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ونيف ، والراحل الى دمشق ليقراً بها على الشيخ عبدالسلام الزواوي المالكي «شيخ مشايخ الإقراء بدمشق»^(٢٣) ، الذي يوصف بأنه «إمام بارع صالح . محقق فقيه ثقة» ، وأنه قد قرأ عليه كثيرون ، منهم صاحبنا الراحل إليه : «التقي أبو بكر الموصلي»^(٢٤) ، وبعد أن أتم هذا الراحل دروسه ، جلس الى جانب محراب الصحابة في الجامع الأموي مقرئاً للقرآن الكريم ، حتى «ختم عليه خلق كثير»^(٢٥) ، الى أن توفاه الله سنة (٧١٦هـ / ١٣١٦م) .

ومنهم الحسين بن الحسن الخولاني الموصلي الإسكاف ، الذي وصف بأنه «مقرئ ضابط معروف» ، نزل بغداد وأخذ عن غير واحد من مقرئيه ، ثم صار يقرئ الناس بعد ذلك فيها^(٢٦) . وارتحل جعفر بن مكّي بحب الدين أبو موسى الموصلي الى شيراز واستوطنها ، وقد وصف بأنه «شيخ شيراز ونزيلها» ، وأنه «إمام فاضل كامل صالح» ، له مصنفان في القراءات . وقد أنشأ هذا

الشيخ في هذا البلد الثاني حلقة علمية للإقراء ،
 فقرأ عليه كثيرون منهم محمود بن محمد السمرقندي
 والامام قوام الدين عبد الله بن نجم وجماعة . وبقي
 على هذا النهج الى أن توفي هناك (٢٧) سنة
 (٧١٣هـ / ١٣١٣م) .

ونزل أبو الصقر الموصلي الإسكندرية ، بعد أن
 أخذ علم القراءات رواية في مدينته الموصل ، عن
 إبراهيم بن كعب عن أوقية ، ثم نقل علمه إلى
 إسكندرية مصر ، حين استوطنها ، فقرأ عليه بعض
 علمائها . وكان يوصف بأنه «مقرئ متصدر» (٢٨) .
 ويلحظ أن عدداً من هؤلاء الذين نزلوا
 الأمصار ، من أهل الموصل ، تسنم مناصب إقراطية
 عالية ، كمشيخة الإقراء ، أو الإقراء في المساجد
 الكبرى ، أو الترب ذات الشهرة ، فمثلاً أخذ محمد
 ابن علي الموصلي المعروف بابن الخروف الحنبلي ،
 المولود سنة (٦٤٠هـ / ١٢٤٢م) ، القراءات عن
 كبار مقرئي عصره من المواصله مثل موفق الدين
 الكواشي ، ثم تصدّر للإقراء زماناً في الموصل ، ثم
 قدم دمشق سنة (٧١٧هـ / ١٣١٧م) ، فروى
 فيها (التجريد) لابن الفحام ، وسمعه شمس الدين
 الذهبي ، ثم ولي مشيخة الإقراء بالترتبة الأشرفية ،
 وعاد الى بلده الموصل بعد ذلك ، فتوفي بها سنة
 (٧٢٧هـ / ١٣٢٦م) (٢٩) .

(٣) ويلحظ أن أكثر من برع في القراءات من
 أهل الموصل برع في علم آخر من العلوم
 الإسلامية الأساس والإضافية . فالقيصري
 الموصلي المتوفى سنة (٦٣١هـ / ١٢٣٣م) ،
 وصف بأنه «خطيب ، مقرئ ، إمام ،
 مجود ، فقيه» ، ووصف أيضاً بأنه «من القراء
 المجودين ، ومن أعيان الفقهاء» (٣٠) . كما
 وصف الفخر الموصلي المتوفى سنة
 (٦٢١هـ / ١٢٢٤م) ، بأنه «إمام فقيه»
 و«مقرئ كامل» ، «برع في المذهب وتصدر

للإقراء ، فأخذ عنه غير واحد من البغداديين
 بعد رحلته اليها ، ومزاوته التدريس فيها
 معيداً بالمدرسة النظامية . وهو - فوق كونه
 فقيهاً ومقرئاً - نحوي «قرأ العربية على الكمال
 عبد الرحمن بن محمد الانباري» ، فجمع
 الى ذلك إذن علم العربية ، ولذلك قال عنه
 ابن النجار : «كانت له معرفة تامة بوجوه
 القراءات وفي العربية» (٣١) .

ويبدو أن العناية بالنحو الى جانب القراءات
 لمّا غني به أهل العلم المواصله ، إذ نجد أكثر من
 نحوي فيها برع في القراءات . ومنهم مكّي بن ريان
 الماكسيني المولد ، الموصلي الدار ، فهو «إمام عالم
 بالقراءات والنحو» (٣٢) ، وكان أبو الفتح بن جني
 الموصلي المتوفى (٣٩٢هـ / ١٠٠١م) عالماً
 بالقراءات ، وخاصة الشواذ منها ، وكان كذلك
 نحويّاً لغويّاً كبيراً ، وصرفياً بارعاً . تدل على ذلك
 مصنفاته في القراءات الشواذ ، واللغة ، والنحو ،
 والصرف ، فضلاً عن براعته في تفسير القرآن
 الكريم ، كما سنرى .

وأما أبو بكر النقاش ، فقد جمع الى التبحر في
 القراءات ، علم التفسير والفقه والحديث ، فكان له
 في كل منها تلامذة ومصنفات .

وكان غير واحد من أئمة القراءات النحاة ،
 أديباً مبدعاً أو شاعراً مجيداً ، وآية ذلك محمد بن
 الحسين الموصلي المعروف بابن وحشي ، فقد «كان
 إماماً في القراءات ، والنحو ، والعروض ، ومبرزاً في
 الأدب» (٣٣) ، وقد ذكرنا آنفاً أنه كان مقيماً
 بميتافارقين .

وكان أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الحسين
 الموصلي الحنبلي المتوفى سنة (٥٥٦هـ /
 ١١٦٠م) ، «مقرئاً محققاً» ، وذا «معرفة تامة في
 العربية» كذلك ، كما أنه «شاعر مجيد» حتى أنه

«نظم في الفقه وفي التاريخ وغيره» ، وقد لقب بـ (شعلة) (٣٤) .

صور رواية القراءات :

تعددت صور الرواية من المشافهة والسباع المباشر لدى الرعيل الأول من الرواة في الإسلام ، أي السلف ، الى أخذ الحديث بطرق أخرى لدى الخلف ، استحدثها العلماء وأفاد منها الطلبة ، تبعاً لتطور الحياة الفكرية والعلمية وحاجاتها المستمرة ، وهي القراءة ، والإجازة والمناولة ، والمكانبة ، والإعلام ، والوصية ، والوجادة .

وهذه الطرق السبع مع اضافة السماع إليها ، تمثل صور التحمل الثمان التي تحدد مناهج الخلف في التعلم (٣٥) . وهذا يتعلق بالقراءات ، والحديث ، والفقه ، وما إليها من العلوم الدينية .

ولقد عرفت القراءات في الموصلي من طرق التحمل - كما في سائر الأمصار الإسلامية - أكثر من صورة من هذه الصور العلمية . ويدلنا الاستقراء على أن أكثرها شيوعاً وظهوراً وملاءمة لتلقي القراءة ، ثلاثة هي : السماع ، والعرض (القراءة) ، والإجازة .

١ - السماع :

وعليه اعتمد كبار علماء القراءات في الموصلي ، مثل موفق الدين الكواشي ، الذي روى الحروف عن عبد المحسن بن خطيب الموصلي بسماحه من يحيى بن سعدون القرطبي المتوفى سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) ، نزير الموصلي (٣٦) ، وأحد أئمة الإقراء بها . وأكثر ابن خروف شمس الدين محمد بن علي الموصلي الحنبلي المتوفى سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م) ، من السماع في القراءات ، من أئمتها في الموصلي وبغداد . فسمع في الموصلي من محمد بن مسعود بن العجمي ، وموفق الدين الكواشي .

وسمع ببغداد من علي بن عبد الصمد بن أبي الجيش الحنبلي (٣٧) البغدادي ، شيخ القراء في بغداد ، الذي يوصف بأنه «إمام عارف أستاذ محقق زاهد ثقة ورع» ، والذي سمع هو كتباً كثيرة في القراءات على الفخر الموصلي وغيره (٣٨) . ثم تصدر ابن خروف للإقراء زماناً في الموصلي . وحين قدم دمشق كان ممن سمع منه شمس الدين الذهبي (٣٩) .

٢ - القراءة :

وبراد بها القراءة على الشيخ حفظاً أو من كتاب ، ويسميه الجمهور (العرض) ، وهو ما ورد في اصطلاح كثير ممن ترجم لعلماء القراءات في الموصلي وغيرها .

والرواية بالقراءة سائفة عند جمهور العلماء ، الا من لا يعتد بخلافهم ، وهم قلة . وقد بالغ بعضهم في اعتبارها حتى رجحها على السماع (٤٠) ، غير أن السماع من لفظ الشيخ أعلى منها . وقيل : هما سواء (٤١) .

وصورة القراءة أن يعبر بالفاظ دالة عليها ، كأن يقول : (قرأت) أو : (قرأ على فلان وأنا أسمع) ، أو (أخبرنا) ، أو (حدثنا قراءة عليه) (٤٢) . فإذا قيل ، (قرأ) أو (عرض) كان المعنى سواء ، إذ العرض يعني القراءة كما ألعنا .

ونحسب أن القراءة - أو كما تسمى : العرض - أكثر شيوعاً في تلقي القراءات القرآنية ، إذ يقرأ الطالب على الشيخ القرآن الكريم ، على قراءة من القراءات المشهورة ، أو أكثر ، والشيخ يسمع منه ، أو يقرأ في كتاب من كتب القراءات ، والشيخ يسمع قراءته ، وبها أخذ جمهرة علماء القراءات في الموصلي وأدوا أيضاً ، فضلاً عن السماع . والأمثلة على ذلك كثيرة ، نذكر منها على سبيل التمثيل الآتي :

قرأ عامر بن عمر المعروف بأوقية الموصلي المتوفى

وغيرهم»، ثم تفقه بعد ذلك على مرتضى الشهرزوري وغيره من الأعلام^(٤٨).

٣- الإجازة:

والرواية بها جائزة عند الجمهور^(٤٩)، ويراد بها: إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته، وإن لم يسمعها منه ولم يقرأها عليه، ولذلك يعترض ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦هـ / ١٠٦٣م) على الإجازة، ويرأها بدعة، وغير جائزة. وهذا فيه مافيه من التشديد والمبالغة، فإن إجازة كتب معينة أو كتاب معين لشخص معين أو أكثر يروها، ليس بالشئ المستنكر، وهي جائزة لدى الجماهير حتى الظاهرية منهم، إذا كان المجيز والمجاز معلومين^(٥٠).

والإجازة اما مشافهة أو مكتابة، والأولى أعلى^(٥١). وقد رويت القراءات القرآنية بالإجازة في جملة مارويت به من صور الأداء. فثلاً روى عبد الصمد بن أبي الجيش قراءات بالإجازة عن كمال الدين القبيصي الموصلي المتوفى سنة (٦٣١هـ / ١٢٣٣م)، على حين رواها عنه قراءة النظام بن مسلم، وبذلك اختلفت صور تحمل الرواية عنه، وكان يوصف بأنه «من القراء المجودين»^(٥٢).

ويلحظ في هذا المقام أمر، هو أن قارئاً واحداً قد يسلك في رواية القراءات عن أحد علمائها الموصلة، أكثر من صورة، كالسماع والقراءة معاً. وذلك ما يتجلى في أخذ أبي علي الحسن بن سعيد الصفار الموصلي، القراءة عن عامر الموصلي عَرَضاً وسماعاً. ثم إن من أئمة القراء من أخذ عن الصفار بعد ذلك حين صار إماماً في علم القراءات، فكان ممن أخذها عنه أبو بكر بن مجاهد، بطريقة القراءة^(٥٣)، أو كما تسمى: العرض.

أسانيد عالية في القراءات:

لما كان الإسناد أحد الخصائص العلمية التي

سنة (٢٥٠هـ / ٨٦٤م)، على الزبيدي المتوفى سنة (٢٠٢هـ / ٨١٧م)، ختمتين باختيار أبي عمرو بن العلاء^(٥٤) المتوفى سنة (١٥٤هـ / ٧٧٠م). وكان الزبيدي قد روى عن أبي عمرو القراءة، وكان يقول: «كان أبو عمرو قد عرف القراءات، فقرأ من كل قراءة بأحسنها، وبما يختار العرب»^(٥٥). فهذه القراءة إذن موصولة بأحد كبار القراء السبعة، ولهذا عني بها عامر الموصلي، حتى أنه احتفظ بنسخة لديه من رواية الزبيدي لها^(٥٦). وكان الزبيدي يحیی بن المبارك العدوي البصري «نحوي مقرر ثقة علامة كبير، نزل بغداد وعُرف بالزبيدي لصحبة يزيد بن منصور الحميري خال المهدي، فكان يؤدب ولده». وكان أبو بكر بن مجاهد (ت ٣٢٤هـ / ٩٣٥م)، صاحب (كتاب السبعة في القراءات، يرى أن يحيى الزبيدي أنصبت أصحاب أبي عمرو لقراءته «لأجل أنه انتصب للرواية عنه وتجرد لها ولم يشتغل بغيرها»^(٥٦).

وحين تصدر عامر بن عمر أوقية للإقراء، أخذ عنه كثير من أهل الموصل وغيرهم القراءات (عَرَضاً)، فرواها عنه بهذه الطريقة محمد بن الحسين أبو بكر الموصلي المتوفى في القرن الثالث للهجرة، وكان من خيرة تلامذته، وهو من شيوخ الحسن بن سعيد المطوعي المتوفى سنة (٣٧١هـ / ٩٨١م)، الذي قال في بيان قراءته عليه: بلغت عليه الى آخر قصة نوح في سورة هود^(٥٧).

ويلحظ أن بعض من نبغ في القراءات من الموصلة، قد تلقاها وهو صبي على شيوخ عصره، على نحو ما نجد في أخبار أبي سعيد عبد الله بن أبي عصرون التميمي الحديثي الموصلي المتوفى سنة (٥٨٥هـ / ١١٨٩م)، فقد «قرأ في صباه القرآن بالعشر على أبي الغنائم السلمي السروجي، والبارج أبي عبد الله الدباس، وأبي بكر المَرْزُفِي

امتازت بها هذه الأمة ، من حيث « إنه ليس أمة من الأمم يمكنها أن تسند عن نبيها إسناداً متصلاً غير هذه الأمة » ، لذا كان الحرص على الأسانيد غرضاً أساساً لأهل العلم ، وخاصة (الإسناد العالي) ، إذ كان طلب هذا الإسناد مُرَغَّباً فيه ، ولذلك قال الامام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م) : « الإسناد العالي سُنَّةٌ عن سلف » . ومن هنا رحل كثير من أئمة القراءات والحديث ، من النقاد ، والجهابذة الحفاظ ، الى أقطار مختلفة ، طلباً لعلو السند ، وذلك لبعده عن الخطأ ، إذ أن السند العالي يعني قلة الوسائط ما بين الراوي وآخر من روي عنه ، وكلما قلت الوسائط قلَّ احتمال الخطأ . وأعلى الأسناد ما كان قريباً من رسول الله (ص) .

وقد تبين لنا من البحث أن من أئمة الإقراء من كان يحرص على علو الإسناد في روايته ، ولذلك صار مقصد الراغبين في السند العالي من كل مكان . ومن عرف بعلو الإسناد أبو بكر محمد بن الحسن النقاش الموصلي البغدادي ، إذ كان يقصد لقراءة ابن كثير المتوفى سنة (١٢٠ هـ / ٧٣٧ م) ، وهو أحد القراء السبعة ، وذلك لعلو إسناده فيها (٥٤) .

ولعل أهم ما تنبغي الإشارة إليه هنا ، هو أن الموصليين احتفظوا بأسانيد عالية لقراءة أبي عمرو ابن العلاء ، أحد السبعة ، وقارئ البصرة ، النحوي اللغوي الراوية الشهير . وهي أسانيد تنسم أيضاً بالوثاقة ، الى جانب قلة الوسائط بين الراوي الموصلي وبين أبي عمرو ، التي هي سمه السند العالي في القراءة ، فمن ذلك سند قراءة أبي علي الصفار الحسن بن سعيد الموصلي المتوفى في القرن الثالث للهجرة ، عن عامر بن عمر الموصلي المعروف بأوقية المتوفى سنة (٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م) ، عن يحيى بن المبارك الزبيدي البصري المتوفى سنة (٢٠٢ هـ / ٨١٧ م) ، عن أبي عمرو بن العلاء

المتوفى سنة (١٥٤ هـ / ٧٧٠ م) ، وقد أشرنا سالفاً الى هذا السند العالي ، وهو سند ذو قيمة علمية عالية ، لأن رجاله ثقات ضابطون ، وعامر الموصلي الذي روى عن الزبيدي يعد من جلة تلامذة الزبيدي وحذاقهم (٥٥) .

وثمَّ سند آخر عال لقراءة أبي عمرو بن العلاء رواه بعض المواصل ، وبدأ هذا السند برواية ابراهيم بن علي العمري المتوفى في القرن الثالث للهجرة عن أبي بكر عبد العزيز بن عبد الله بن الزبير الموصلي عن عباس بن الفضل الأنصاري قاضي الموصل عن أبي عمرو (٥٦) .

وثمَّ سند آخر ذو قيمة علمية أيضاً مؤاخ لهذا السند ، وهو رواية أبي قبيصة حاتم بن اسحق بن حاتم الموصلي المتوفى بعد (٣٠٠ هـ / بعد ٩١٢ م) ، عن عامر بن عمر الموصلي ، الذي ينتهي سنده عن طريق الزبيدي الى أبي عمرو كما قدّمنا . ومثله اسناد أبي الصقر الموصلي عن ابراهيم بن كعب عن عامر الموصلي عن الزبيدي عن أبي عمرو (٥٧) . وهناك سند آخر عال لقراءة أبي عمرو ، أوله عامر الموصلي ، عن العباس بن الفضل الواقفي الأنصاري البصري قاضي الموصل المتوفى سنة (١٨٦ هـ / ٨٠٢ م) ، عن أبي عمرو بن العلاء . وقد تقدمت الإشارة الى ذلك عند الكلام عن مكانة المواصل في الإقراء . ومن الأسانيد العالية (٥٨) : أبو يعلى محمد بن أحمد الموصلي المتوفى سنة (٣٠٧ هـ / ٩١٩ م) عن روح بن عبد المؤمن المتوفى سنة (٢٣٣ هـ / ٨٤٧ م) ، عن يعقوب الحضرمي المتوفى سنة (٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م) . أحد القراء العشرة المشهورين .

ألقاب القراء :

هناك قراء مواصل لا يكادون يعرفون إلا بألقابهم أو كُناهم ، فهي ألصق بهم وأدل عليهم من أسمائهم . والألقاب التي يلقب بها أهل العلم عادة

قسمان: مَرَضِيَّةٌ، ومَكْرُوهَةٌ. وقد بَيَّنَّ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري^(٥٩) المتوفى سنة (٤٠٥هـ / ١٠١٤م)، أن الثانية غلبت على جماعة من أهل العلم، وأظهروا لها الكراهية، كلقب (البطين)، وألقاب التصغير ونحوها.

ولا نكاد نجد مقراً موصلياً له لقب مكروه لم يرتضه صاحبه، بل الذي تبيَّن لنا هو العكس تماماً، إذ منهم من اكتسب لقباً يُشعر بعلو منزلته العملية، أو أُلِيعته وحدة ذكائه. وهي إما صفات أَوْكَسَى. ولنضرب لذلك بعض الأمثلة: إذا كان في بلاد الري (فخر الدين)، وهو أبو عبد الله الرازي المفسر الأصولي المتوفى سنة (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م)، فإن في الموصل آخر له نفس اللقب، وقد اختصر بلفظة (الفخر) كما اختصر لقب أبي عبد الله أيضاً فقيل: (الفخر الرازي). أما الفخر الموصلي فهو: محمد بن أبي الفرج أبو المعالي فخر الدين الموصلي المرقى الفقيه الشافعي المتوفى سنة (٦٢١هـ / ١٢٢٤م)، فبعد أن تلقى علومه الأولى في الموصل، قدم بغداد، وأعاد في المدرسة النظامية، وتصدر للإقراء، فأخذ عنه كثيرون، وصار يلقب هناك بـ (الفخر الموصلي)^(٦٠)، كأنما لقب بذلك تمييزاً له من معاصره (الفخر الرازي)، فضلاً عما في هذا اللقب من معنى الاعتزاز بعلمه، واقتخار مدينته به.

ولقب المرقى الفقيه الأديب شمس الدين محمد ابن أحمد بن الحسين المتوفى سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) بلقب جميل هو: (شُعْلَةٌ). وأغلب الظن أن هذا اللقب لزمه لما وصف به في كتب الطبقات من توقد ذهنه وحدة ذكائه، حتى إن الذهبي^(٦١) قال عنه: «كان شاباً فاضلاً، ومقرئاً محققاً، ذا ذكاء مفرط، وفهم ثاقب». فهو في هذا على غرار أبي يحيى محمد بن عبد الرحيم الحافظ، الذي كان يروي عن البخاري وغيره، فقد لقب بـ (الصاعقة)، «لشدّة حفظه ومذاكرته

ومطالبتها»^(٦٢). إلا أن لقب (شعلة) أدلّ على الصفة التي حملها هذا اللقب، من تلك التي حملها لقب (الصاعقة)، كما هو واضح.

فهذا ضرب من الألقاب، وهو المتعلق باسم المرقى. وثُمَّ ضرب آخر من ألقاب المرقين، وهو المتعلق بالناحية العلمية مدحاً لهم وتزكية، أو ذمّاً لهم. وهي كثيرة، متنوعة، ذات مداليل واسعة.

١- فن ألقاب المدح: ما يدور على الضبط، والانتقان، والتجويد، والإمامة، والحذق، والعالية، والفضل، والكمال، والإقراء، وما إليها. وهي ألقاب تتعلق بالجانب العلمي للمرقى. ومنها ما يدور على الأمانة، والثقة، والصدق، والصلاح، والكياسة، والوقار، وما إليها، وهي ألقاب تتعلق بجانب العدالة، وهي: الاستقامة في الدين.

فن أمثلة النوع الأول المتعلق بعلمية المرقى، قولهم في الحسين بن الحسن الخولاني الموصلي نزيل بغداد بأنه «مرقى ضابط معروف»^(٦٣)، وقولهم في محمد بن علي بن الحسن بن الجلندا أبي بكر الموصلي المتوفى سنة (بضع و ٣٤٠هـ / بضع و ٩٥١م)، إنه «مشهور بالضبط والانتقان»^(٦٤). ومنه قولهم في أبي بكر بن محمد الموصلي، نزيل دمشق، المتوفى سنة (٧١٦هـ / ١٣١٦م): «إمام مجوّد»^(٦٥). وقولهم في عامر ابن عمر الموصلي (ت ٢٥٠هـ / ٨٦٤م): «مرقى حاذق»^(٦٦). وكذلك قولهم في مكّي بن ريان الماكسيني: «إمام عالم بالقراءات»^(٦٧).

ومن أمثلة النوع الثاني المتعلق بعدالة المرقى: قولهم في أبي الشتاء محمود بن أبي منصور اللبان المرقى الموصلي: «شيخ صالح»^(٦٨)، وقولهم في عبد الرحمن بن أحمد الدقوقي المرقى التاجر السّيار الموصلي المتوفى سنة (٧٣٥هـ / ١٣٣٤م)، بأنه: «شيخ دين وقور متواضع»^(٦٩).

على أن أغلب ألقاب المدح التي لقب بها قراء الموصل تجمع النوعين معاً: ما يتعلق بالناحية العلمية، وما يتعلق بالناحية العدالية، كقولهم في أحمد بن موسى أبي القاسم الموصل الحنبل نزيل دمشق المتوفى سنة (٧١٠هـ / ١٣١٠م)، بأنه: «صالح، عارف، مجود، فصيح»^(٧٠) وقولهم في عبد الله بن محمد بن أبي عصرون المتوفى سنة (٥٨٩هـ / ١١٨٩م) إنه «كان إماماً كبيراً علامة فقيهاً مقرئاً خيراً»^(٧١).

٢- ومن ألقاب اللد: وهي قليلة جداً: (الضعف)، ومن المؤسف أن يوصف به إمام جليل في القراءات، وصف بصفات قل أن يوصف بها مقرئ ثناء وتركية، وهو أبو بكر محمد بن الحسن النقاش الموصل البغداد المتوفى سنة (٣٥١هـ / ٩٦٢م)، الذي وصفه الذهبي^(٧٢) بأنه «انفرد بالإمامة في صناعته»، والذي كان «يقصد في قراءة ابن كثير وابن عامر لعلو إسناده فيها»، كما بينا آنفاً. «وقد روى القراءة عنه غرضاً خلق لا يحصى عددهم»، كما يقول الذهبي أيضاً، وأخذ عنه من أكابر الثقات: ابن أشتة، والدارقطني الناقد الحديثي المعروف. وسمع منه من شيوخ الإقراء وأئمة: الداجوني، وابن مهران، والنهرواني^(٧٣). وكان آخر من روى القراءات عن النقاش شيخ من أهل البيت، وصف بأنه «شيخ مقرئ صالح ثقة، قرأ الروايات على النقاش.... وهو آخر من رآه، وآخر من قرأ عليه». وهذا الشيخ العلوي هو علي بن محمد بن علي من أبناء الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو أبو القاسم العلوي الحسيني الزيدي الحارثي المتوفى سنة (٤٣٣هـ / ١٠٤١م)^(٧٤)، وحرّان من نواحي الموصل عند جبالها.

ولانحسب أن أمر النقاش يخفى - لو كان ضعیفاً كما وصفوه - على هذا الشيخ الصالح

الجليل، ولكن قد ترك روايته.

ومن العجيب أنهم ينسبون هذا التضعيف إلى الدارقطني، مع أنه أحد من أخذ عنه كما أسلفنا!، وإنما نسبة إليه الذهبي^(٧٥).

ومن ألقاب اللد (عدم الثقة)، وبها وصف الذهبي^(٧٦) النقاش أيضاً، مع أن من هو أفضل من الذهبي وأوثق قد زكاه، حتى أن ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ / ٧٥٠م)، قال: «وبالغ الذهبي فقال: وهو مع علمه وجلاله ليس بثقة»، ثم قال ابن الجزري: «وخيار من أثنى عليه الداني قبله وزكاه. وناسيك بالداني سبياً في رجال القراءة»^(٧٧). والداني: هو أبو عمرو الإمام الكبير في القراءات، الأندلسي المتوفى سنة (٤٤٤هـ / ١٠٥٢م) صاحب كتاب (التيسير في القراءات السبع) وغيره من كتب القراءات.

والسبب الذي حمل الذهبي وغيره على تضعيفه، ما تناقله أصحاب الطبقات من وصف الخطيب البغدادي^(٧٨) له بأن «في أحاديثه من أكبر بأسانيد مشهورة!». وهذا التجريح لا يتناول القراءات على وجه التحديد، بل هو بالحديث ألصق، لأن هذا الوصف إنما يصدق على ما روى من أخبار لا ما يروى من قراءات. وسيرد الحديث عنه إن شاء الله في المبحث المتعلق بالدراسات الحديثة في الموصل. وبذلك يبقى النقاش ذلك الثقة في علم القراءات، المنفرد بالإمامة في صناعته، المشهود له بـ «ظهور نسكه، وورعه، وصدق لهجته، وبراعة فهمه، وحسن اضطلاعاه....»^(٧٩)، وما إليها من ألقاب المدح والتعديل، التي لم تمنح الذهبي من بيانها، مع قولهم الذي ذكرناه آنفاً في تبريحه. ونكاد لا نتردد في أن ما أصابه من ذلك، لم يكن بمنأى عن المبالغة والترديد.

ووصف أحد القراء المواصلة بصفات تقدر في عدالته، إذ نال أكثر من صفة ذم، فقد قيل عنه

إنه: «خييب اللسان»، «هجاء»، «سني العقيدة»، «كثير الاستهزاء بالأمور الدينية»^(٨٠). وهذا ما لم يوصف به أي من القراء من قبل. وهذا المقرئ أبو حفص عمر بن محمد بن علي المعروف بابن الشحنة الموصل، المتوفى محبوساً سنة (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م). فقد ورد إربل، ولكنه صار يقرأ بالقراءات المستعملة والشاذة، مع أن القراءة بالشاذ غير جائزة بلا خلاف، لأنه لم يؤخذ عن إجماع. ولم نجد من قراء المواصلة من ناله التجريح غير هذا القارئ، وغير ما ذكرناه عن النقاش ودفعناه عنه. فيبين لنا أن القراء من أهل الموصل كانوا مناط تعديل أهل العلم، من الناحيتين العلمية والعقيدية أو السلوكية، إلا الكلمات تشذرت على البعض منهم باطلاً أو حقاً، كما أوضحناه في ما تقدم.

المصنفات في القراءات:

تُلّف مصنفات القراءات في الموصل الباحث بكثرتها وشهرتها وتنوعها، فهي لم تقف عند حدود المشهور من القراءات، بل تجاوزته إلى غير المشهور أيضاً، وهو الذي يطلق عليه اسم (الشواذ). كما أنها لم تقتصر على التأليف، بل تعدته إلى التلخيص والشرح، فضلاً عن العناية بالتجويد، وهو علم ذو وشيجة بعلم القراءات. غير أن التأليف في القراءات لم تظهر معاملة بوضوح إلا في القرن الرابع للهجرة، ثم استمر في نمو وتنوع طوال القرون التالية، ما بين مطوّل وموجز، وقد كثرت في العصور المتأخرة الشروح والتلخيصات وما إليها، فضلاً عن ظهور كتب في طبقات القراء وعملها.

ويلحظ أن كثيراً من هذه المصنفات ليس لها في فهراس المكتبات اليوم ذكر، فلا يستبعد ضياعها، أو أنها ماتزال مطمورة في المكتبات الخاصة، والأخرى غير المفهرسة، أو التي لم تصل

إلينا فهرسها لبعدها عنا أو غير ذلك. كما أن هناك مصنفات لا نعلم أسماءها، إذ نسبت إلى مؤلفيها جملة من دون بيان أو تفصيل، كقولهم: «وله مصنفات» أو «كثير التأليف» وأمثال ذلك.

القرن الرابع:

- صنف الإمام أبو بكر محمد بن الحسن النقاش الموصل البغدادي المتوفى سنة (٣٥١هـ / ٩٦٢م)، في القراءات وعملها ثلاثة كتب هي^(٨١):
- ١- كتاب السبعة بعلمها، الكبير.
- ٢- كتاب السبعة الأوسط.
- ٣- كتاب السبعة الأصغر.
- كما صنف في طبقات القراء ثلاثة كتب أيضاً هي^(٨٢):
- ١- المعجم الكبير في أسماء القراء وقراءاتهم.
- ٢- المعجم الأوسط.
- ٣- المعجم الصغير.

- وقد ذكر أصحاب الطبقات على وجه الإجمال أيضاً أنه ألف في القراءات وغيرها، فقال الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣هـ / ١٠٧٠م): «وله تصانيف في القراءات وغيرها من العلوم».
- أبو العباس أحمد بن محمد الموصل النحوي المعروف بالأخفش، قرأ عليه أبو الفتح بن جني الموصل المتوفى سنة (٣٩٢هـ / ١٠٠١م)، عند إقامته ببغداد، له كتاب في تحليل القراءات السبع^(٨٣).
- عبدالله بن محمد بن جرو الأسدي النحوي العروضي الموصل المتوفى سنة (٣٨٧هـ / ٩٩٧م)، له كتاب: (الأمد في علوم القراءات)^(٨٤). وكان قد قدم بغداد وقرأ على شيوخها ووصف بأنه كان «ذكياً،

حاذقاً ، عارفاً بالقراءات والعربية .

- أبو الفتح عثمان بن جني النحوي الموصلي البغدادي المتوفى سنة (٣٩٢هـ / ١٠٠١م) ، له كتاب : (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها) . وهو كتاب قيم يتعلق بتوجيه القراءات التي عُدَّت من الشواذ في عصره ، بعد ظهور كتاب أبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد المتوفى سنة (٣٢٤هـ / ٩٣٥م) ، المسمى : (السبعة في القراءات) ، إذ عدَّ الناس في أيام ابن جني ما تجاوز السبعة في القراءات شاذاً^(٨٥) ، فسَمَّى كتابه بهذا الاسم ، وإن لم يكن مقتنعاً بهذا التصور الذي ذهب إليه الناس . وهو في هذا حق ، إذ أن الثلاثة التي بعد السبعة ليست من الشواذ بلا خلاف ، ولكنها لم تكن قد صارت من القراءات المشهورة (العشر) إذ ذلك . والكتاب في (توجيه القراءات) التي سَمَّاها : (الشواذ) ، وهذا العلم - كما قال الزركشي^(٨٦) (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م) بحق : « فن جليل ، وبه تعرف جلالة المعاني وجزالتها » . إذ أن هذا العلم يبحث في حجة كل قارئ في قراءته : من معنى ، أو لغة ، أو نحو ، أو سياق أو غير ذلك . وقال الزركشي^(٨٧) بعد ذلك مشيراً إلى كتاب ابن جني : « وقد صنفوا في توجيه القراءات الشواذ ، ومن أحسنها كتاب (المحتسب) لابن جني » .

ومؤلف هذا الكتاب - ابن جني - أحد نوابغ النحاة واللغويين ، تلقَّى علومه الأولى في مدينته : الموصل ، وأخذ عن أحمد بن محمد الموصلي المعروف بالأخفش - وهو خامس الأخفاش - ثم لزم أبا علي النحوي المعروف بالفارسي عند مروره

بالموصل وهو في طريقه إلى حلب ، فأفاد منه فائدة كبيرة خلال أربعين عاماً ، ثم تصدَّر بعد وفاة أستاذه في بغداد ، فأخذ عنه كثير من أهلها النحو واللغة والصرف . وكتابه (المحتسب) ذو قيمة علمية كبيرة ؛ إذ ضمَّ من القراءات ما لم يرد في كتاب معاصره ابن خالويه المتوفى سنة (٣٧٠هـ / ٩٨٠م) ، صاحب (البدیع في القراءات الشواذ) الذي وصل إلينا مختصره المطبوع بتحقيق المستشرق المعروف برجسترأسر . والمحتسب مطبوع بجزأين ، وتحقَّق تحقيقاً جيداً^(٨٨) . وهو المصدر المعوَّل عليه لدارسي القراءات غير المشهورة اليوم .

القرن السادس :

- لقاضي القضاة عبدالله بن محمد بن هبة الله بن أبي عصرون التميمي الموصلي الشافعي المتوفى سنة (٥٨٥هـ / ١١٨٩م) ، عدة تصانيف في القراءات وفي الفقه . قال عنه ابن الجزري^(٨٩) : « وكان إماماً كبيراً علامة فقيهاً مقرئاً خيراً ألف التواليف » .

القرن السابع :

- أبو عبدالله أحمد بن محمد بن الحسين الموصلي الحنبلي الملقب بـ (شعلة) ، المتوفى سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) ، له كتابان :
١- (الشعلة في القراءات السبعة)
ذكره بهذا الاسم الذهبي^(٩٠) ، وكذلك ابن الجزري ، ووصفه الأخير بأنه قصيدة رائعة جمع فيها القراءات ، وأنها في نحو نصف الشاطبية^(٩١) . على حين ورد اسمه في مصادر أخرى : الشعلة المضية بنشر قراءات السبعة المرضية .

٢- (كتر المعاني في شرح حرز الأمان) . وهو شرح للشاطبية القصيدة الشهيرة في القراءات السبع ، يبيِّن فيه شُعلة أسباب شرحه لهذه

القصيدة ، التي أثنى على مؤلفها الشاطبي الرعيني المتوفى سنة (٥٩٠ هـ / ١١٩٣ م) ، مبيناً أن شرحه هذا وسط بين ماهو موجز مخل ومطلب ممل ، وهو مطبوع بمصر^(٩٢) .

- علي بن يعقوب بن شجاع بن العماد أبو الحسن الموصلي المتوفى سنة (٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م) ، وصفه الذهبي^(٩٣) بأنه « كان محققاً ، رأساً في التجويد ، بصيراً بالعلل ، خبيراً بغوامض المسائل » . وله من الكتب :
١- (شرح قصيدة الشاطبي) في أربعة مجلدات ، لم يكمله ولم يبيضه^(٩٤) .

٢- (التجريد في التجويد) وصفه ابن الجزري^(٩٥) بأنه « حسن في بابه » .
- فخرالدين محمد بن أبي الفرج أبو المعالي ، المقرئ ، الفقيه الشافعي المتوفى سنة (٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م) ، الملقب بـ (الفخر الموصلي) ، صنف في : وجوه القراءات وطرقها وعللها / ذكر ذلك ابن النجار بعد أن أثنى عليه ، مبيناً أن له المعرفة التامة^(٩٦) بذلك .

- موفق الدين الكواشي الموصلي الإمام المقرئ المفسر المتوفى سنة (٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م) عن تسعين سنة له :

١- (المواقف في القراءات) ذكره حاجي خليفة^(٩٧) . وقد أشكل اسم هذا الكتاب على باحث عراقي هو الدكتور أحمد نصيف الجنابي ، فقال : « ولا أدري ما يقصد بالمواقف ، فإن هذا العنوان غريب في ميدان القراءات » . ثم بين أنه « يؤخذ من كتاب (إيضاح المكنون) ، أن الكتاب مختصر كتاب الوقوف » فعلى هذا يكون الكتاب مؤلفاً في وقوفات القرآن ، كما يشعر بذلك اسمه أيضاً . وإنما أراد بالمواقف : المواضع التي يوقف عليها عند قراءة القرآن الكريم ،

فيكون على هذا ، جمع (موقف) الذي هو اسم مكان ، كما قيل : موضع وموطن . هذا إذا صححنا نسبة الكتاب للكواشي ، ولم نذهب الى ماذهب إليه الدكتور الجنابي فيه ، من ترجيح كونه (وقوف القرآن) للسجاوندي أبي جعفر محمد بن طيفور المتوفى سنة (٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م) .

٢- (المطالع في المبادئ والمقاطع) وهو في موضوع الوقف والابتداء في القرآن^(٩٨) .

القرن الثامن :

- عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالرحمن أبو محمد الدقوقي المقرئ ، التاجر السيار ، المتوفى سنة (٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م) ، له كتاب : (الحواشي المفيدة في شرح القصيدة) وهو شرح لقصيدة الشاطبي في القراءات العشر . قال الذهبي^(٩٩) : « ومن خطه نقلت . وقفت على السفر الأول منه فرائته ينشئ بإمامته » . وأثنى أبو شامة المقدسي على جهده العلمي في هذا الشرح بقوله : « وتعاطى شرح القصيدة ، فحاض بحراً عجز غيره عن سباحته » .

- أبو موسى محب الدين جعفر بن مكّي الموصلي المتوفى سنة (٧١٣ هـ / ١٣١٣ م) ، وصفه ابن الجزري بالفضل والصلاح ، له :

١- (شرح الشاطبية) بيّن ابن الجزري^(١٠٠) أنه وقف على شرحه لها . وقد عدّه الدكتور أحمد نصيف الجنابي بأنه أول من شرح الشاطبية من علماء العراق^(١٠١) . والحق أنه مسبق ؛ إذ قد تقدمه عمادالدين علي بن شجاع الموصلي الذي ذكرنا كتابه آنفاً .

٢- (الكامل الفريد في التجويد والتفريد) وهو كتاب كبير يقع في ٢٣٠ ورقة .

٣- مفردة لكل قارئ من السبعة : أي مفردة نافع ، ومفردة ابن كثير ، ومفردة ابن عامر ، ومفردة عاصم ، ومفرد الكسائي ، ومفردة حمزة ، ومفردة أبي عمرو. قال ابن الجزري (١٠٢). «وأفرد السبعة أيضاً». والمراد بالمفردة قراءة كل واحد من هؤلاء القراء ، إذ من المعلوم أنهم يتفقون في بعض الحروف ، ويختلفون في أخرى.

علم التفسير:

يعد علم التفسير رأس علوم القرآن وسنامها ، بل هو ياجع أهل العلم أجل العلوم الثلاثة الشرعية (١٠٣). التفسير ، والحديث ، والفقه. كما أنه من أقدم علوم القرآن بخاصة ، وعلوم الشريعة بعامه ؛ لأنه - كما هي حال علم القراءات - صاحب النص الكريم منذ بدء نزوله ، على النبي محمد (ص) ، وتلاوته. فقد كان الصحابة لا يجاوزون قراءة عشر آيات حتى يكونوا قد أحكوها قراءة وفهماً ، إذ «القرآن كله لم يترّك مثزله - تعالى - إلا ليفهمه ، ويعلم ويُفهم» ، ولذلك خاطب به أولي الألباب الذين يعقلون ، والذين يعلمون ، والذين يفقهون ، والذين يتفكرون ، ليذبروا آياته ، ولتذكر أولو الألباب ، كما يقول الزركشي بق (١٠٤).

وكانت مدرسة التفسير في العراق قد نشأت في عهد الصحابة والتابعين في الكوفة ، وكان أصحابها تلاميذ الصحابي الجليل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه (ت ٦٣ هـ / ٦٨٢ م) ، كعامر الشعبي (ت ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م) وعلقمة بن قيس (ت ١٠٢ هـ / ٧٢٠ م) ، وقتادة بن دعامة السدوسي (ت ١١٧ هـ / ٧٣٥ م) ، والحسن البصري (ت ١٢١ هـ / ٧٣٨ م) (١٠٥). ومعلوم أن قتادة والحسن وغيرهما كانوا يسكنون البصرة ، وآخرون من تلامذة ابن مسعود يسكنون الكوفة.

على حين لانجد في الأخبار من يذكر أن منهم من سكن الموصل ، مع أنها فتحت - كما بيّنا في أول البحث - سنة (١٦ للهجرة / ٦٣٧ م).

على أن التفسير انتشر بعد ذلك في بقية الأمصار؛ إذ صار هؤلاء المفسرون ، من التابعين وتابعيهم ، يقصدون للأخذ عنهم ، أو يسألون عن معاني آي من كتاب الله المبين حين يخرجون من ديارهم لحج أو غزو أو علم أو غير ذلك. وبذلك انتشر علم التفسير في مدن عراقية أخرى ، كالموصل وواسط ، فضلاً عن البصرة ، التي كان فيها أصحاب معاني القرآن كأبي عبيدة معمر ابن المثنى المتوفى سنة (٢١٠ هـ / ٨٢٥ م) ، والأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة المجاشعي المتوفى سنة (٢١٠ هـ / ٨٢٥ م).

غير أننا لانكاد نجد مفسرين قد عُرفوا وصنفوا تفاسير وصلت إلينا قبل القرن الرابع للهجرة - العاشر للميلاد -. إذ لانكاد نجد تفسيراً اشتهر وعرف ودرس ، قبل تفسير أبي بكر النقاش الموصلية المتوفى سنة (٣٥١ هـ / ٩٦٢ م).

وإذا كانت «المدرسة البغدادية في التفسير هي حصيلة كل اتجاهات التفسير ، والبحر الزاخر الذي صبت فيه آراء جمهرة علماء البصرة ، ففيها من الاتجاه اللغوي ، والاتجاه الاجتهادي ، والاتجاه الفقهي ... وفيها نزل كوفيون وبصريون وموصليون وغيرهم ، في حين غلبت على مدرسة التفسير البصرية النزعة الحديثة ، وغلبت على مدرسة الكوفة النزعة الفقهية» ، في رأي باحث معاصر (١٠٦). وأذاصح هذا التقسيم والتخصيص ، وهو مطابق أو قريب في أقل تقدير ، فإن الذي يتبين لنا مما بين يدينا من تفاسير ، وما ذكرته كتب الطبقات عن مفسرين ، أن (الاتجاه اللغوي) هو الغالب على المدرسة الموصلية في التفسير. ولدينا - لصداقية ذلك - تفسيران مشهوران هما : (شفاء

الصدور) للنقاش و (التلخيص في التفسير للكواشي.

غير أننا - في الواقع - لانعدم مع هذا ألوان التفسير الأخرى في تفاسير ذكرتها لنا بعض كتب الطبقات، وهي: التفسير بالمأثور، وتفسير المشكل.

مناهج المفسرين المواصله:

يتبين للباحث أن مفسري الموصل فريقان: فريق اشتغل بالتفسير تدریساً وتصنيفاً فترك آثاراً علمية ذكرتها المصادر، منها ماوصل إلينا - وهو للأسف - قليل. ومنها ما لم يصل إلينا.

وفريق اشتغل بالتفسير تدریساً، ولم يصنف فيه. وهذان الفريقان جميعاً يؤلفان طبقات المفسرين من أهل الموصل. ونحن لانجد بداية واضحة في تدريس التفسير مع التأليف فيه في الموصل قبل القرن الرابع للهجرة. ولعل ماضع من كتب التراث، فيه مما صنف قبل هذا القرن شيء كثير.

وقد تبين لنا أن مناهج التفسير الموصلية مرتبة بحسب شيوعها على الوجه الآتي:

١) التفسير اللغوي: وهو إما لغوي عام، يتناول التفسير اللغوي عموماً، بما فيه من عناية باللغة، والنحو، والإعراب، والصرف، والبلاغة. وهذا يصح انطباقه على تفسير الكواشي. وإما أن يكون لغوياً خاصاً، يتعلق بتفسير غريب المفردات القرآنية، ولا يتناول القضايا اللغوية بعامة، إلا من خلال تفسير المفردة القرآنية الغريبة، وهي بحسب الاصطلاح: لفظة تحتاج إلى بيان وشرح وإيضاح. ولدينا في هذا المضمار (الإشارة في غريب القرآن) للنقاش. كما لدينا كتاب (الوجوه والنظائر في القرآن) للواقفي.

٢) تفسير مشكل القرآن: وهذا النوع من التفسير تصح نسبته إلى (اللغوي الخاص) إذا تناوله المفسر من ناحية (الإشكال المعنوي) للألفاظ والعبارات، على نحو ما صنع ابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ / ٨٨٩م) في كتابه الشهير: (تأويل مشكل القرآن)، المطبوع، وإن لم يعدم الإشارة إلى النوع الثاني، وهو الذي لا يتصل بهذا النوع من التفسير، لتعلقه بشرح (المعاني) لا (الألفاظ)، وذلك بأن يتناول ما أشكل من معاني الآي، كالغموض، وتوهم الاختلاف، أو نحو ذلك. ولدينا في هذا المجال كتاب لابن منعة الموصلي، سيرد ذكره.

٣) التفسير بالمأثور: وهو يعتمد على ما أثر من تفسير عن النبي (ص) وأصحابه والتابعين. وقد عني به عز الدين الرسعني المتوفى سنة (٦٦٠هـ / ١٢٦١م).

٤) معاني القرآن: لدينا في هذا النوع من التأليف كتاب ينسب للنقاش صاحب (شفاء الصدور في التفسير)، واسمه: (الموضح في القرآن ومعانيه). فالظاهر من عنوانه أنه يتعلق بمعاني القرآن. ومنهج كتب المعاني - كما هو معروف - يختلف في عدد من الجوانب عن كتب التفسير، إذ تعني هذه الكتب بالنواحي المتعلقة باللغة والنحو والصرف والبلاغة والقراءات كثيراً، فضلاً عن عنايتها بالمعنى الذي تستمد غالباً من أقوال المفسرين من السلف خاصة.

طبقات المفسرين المواصله ومصنفاتهم: القرن الثالث:

- صنف العباس بن الفضل الواقفي الأنصاري البصري قاضي الموصل المتوفى سنة

(١٨٦هـ / ٨٠٢م)، كتاب: (الوجوه والنظائر في القرآن) (*)، وبذلك يكون كتابه هذا ثاني كتاب في موضوعه بعد كتاب مقاتل ابن سليمان المتوفى سنة (١٥٠هـ / ٧٦٧م)، المسمى: (الأشباه والنظائر)، كما قد يكون سابقاً لمعاصره هارون بن موسى الأزدي القرني، المتوفى في أواخر القرن الثاني للهجرة/ الثامن للميلاد، إذ لم تحدد المراجع وفاته بدقة، مما حمل محقق كتابه الدكتور حاتم الضامن الأستاذ في كلية الآداب بجامعة بغداد على الاكتفاء بالإشارة، إلى أنه متوفى في أواخر القرن الثاني، في صفحة غلاف هذا الكتاب الموسوم بـ (الوجوه والنظائر في القرآن الكريم). وإن كان قد ذكر بعد ذلك في المقدمة أنه متوفى نحو سنة (١٧٠هـ / ٧٨٦م)، على حين اكتفى ابن الجزري في (غاية النهاية) بالقول: إنه «مات فيما أحسب قبل المتيين».

أما ماعدا هذين الكتابين من الكتب المؤلفة في هذا الموضوع، فكلها تالٍ له، وهي كتاب الحكم الترمذي المتوفى سنة (٣٢٠هـ / ٩٣٢م)، وكتاب الثعالبي المتوفى سنة (٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)، وكتاب الدماغاني المتوفى سنة (٤٨٧هـ / ١٠٩٤م)، وكتاب ابن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧هـ / ١٢٠٠م)، وكتاب ابن العماد المصري المتوفى سنة (٨٨٧هـ / ١٤٨٢م).

فيكون الواقفي رائداً من رواد التأليف في موضوع: الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ولكن الكتاب للأسف مفقود.

القرن الرابع:

- صنف أبو بكر محمد بن الحسن النقاش القرني المفسر الموصل، نزيل بغداد، المتوفى سنة (٣٥١هـ / ٩٦٢م) تفسيره الشهير:

١- (شفاء الصدور المذهب في تفسير القرآن) ويعد النقاش إمام أهل العراق في عصره في القراءات والتفسير^(١٠٧). وقد ذكره الخطيب البغدادي^(١٠٨)، ووصفه بأنه «كان عالماً بحروف القرآن حافظاً للتفسير»، كما ذكره الذهبي^(١٠٩)، ويبين أنه صنف في القراءات والتفسير والحديث والسنن، كما ذكره بقية من ألف في الطبقات وأجمعوا على فضله وإمامته في علمي القراءات والتفسير. ويبدو أن تفسيره ضخم، إذ ذكروا أنه يقع في إثني عشر ألف ورقة^(١١٠)، غير أن الموجود منه الآن، وهو الجزء الثاني، يقع في ٢٧٥ ورقة فقط. ويبدأ من قوله تعالى: (وبرأ بالذي) في سورة مريم، الآية: ٣٢، وينتهي بسورة (الناس). فمن المحتمل والحال هذه، أن يكون النقاش قد أفاض في تفسير السور الأولى، وخاصة السبع الطوال، ثم غير منهجه بعد ذلك فأوجز في بقية السور لئلا يطول التفسير، فيقتضي العمر قبل إنجازها. وهذا يلحظ لدى غير واحد ممن تقدمه أو تلاه من المفسرين كالطبري (ت ٣١٠هـ / ٩٢٢م)، والسطوسي (ت ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م)، والزمخشري (ت ٥٣٨هـ / ١١٤٣م) وغيرهم. والتفسير ما يزال مخطوط^(١١١)، لم تنله يد الطبع، ولا نعلم أنه تام.

كتب (شفاء الصدور)، في النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية، بخط مغربي دقيق قديم، غير منقوط ولا مشكول. ويبدو أنها نسخة قديمة، بدليل خطها وورقها.

وقد أفاد غير واحد، من قدامى المفسرين العراقيين خاصة، من تفسير النقاش، كأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي شيخ الامامية المتوفى سنة

(٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م) في تفسيره (البيان)، وأبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي المتوفى سنة (٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) في تفسيره (مجمع البيان). وقد نقل منه الطوسي أكثر ما نقل - التفسير وأسباب النزول، والمبهمات (١١٢) : وكذلك الطبرسي (١١٣). كما نقل منه الذين صنفوا في علوم القرآن كالزركشي، صاحب (البرهان) (١١٤).

٢- (الإشارة في غريب القرآن) أشار إلى هذا الكتاب ابن خلكان (١١٥)، ويبدو من عنوانه أنه يعني بتفسير المفردات الغريبة في القرآن، وهي تلك التي تحتاج إلى إيضاح وشرح وبيان. وقد سبقه إلى ذلك غير واحد من القراءين، كأبي عبيدة وابن قتيبة، وأبي بكر محمد بن عبدالعزيز السجستاني (ت ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م)، وهو معاصر له.

٣- (الموضح في القرآن ومعانيه) ذكره ابن خلكان (١١٦) أيضاً، ولا نعلم شيئاً عنه، غير أن اسمه - كما أسلفنا - يشعر بأنه يتعلق بمعاني القرآن، فقد يكون مؤلفاً على غرار (كتب المعاني)، ككتاب الأخفش والكسائي والقراء والزجاج والمفضل بن سلمة وغيرهم.

ومن المؤلف حقاً أن يتعرض تفسير النقاش (شفاء الصدور) للتجريح، فزعموا تارة أنه ليس فيه حديث صحيح (١١٧)، وتارة فيه مناكير بأسانيد مشهورة (١١٨). ونبزه بعضهم فسماه: (أشنم الصدور) (١١٩)، أي: أزال الشفاء منها! و- أن بعضهم سماه: (شفاء الصدور)! بالقاء بدل القاء، وهي أقوال بعض أصحاب الطبقات عن بعض يردوها من دون ثبت - في ماتبين لي -؛ إذ لم يوردوا مثلاً واحداً على ما يزعمون. وأكثر من تبى هذه الأقوال وردد ها في مصنفاته شمس الدين الذهبي، مع أنها منقولة عن الخطيب البغدادي وغيره، في ما هداني إليه البحث. مع أن عدالة هذا الرجل قد ثبتت لدى

نقاد الحديث القدامى الكبار، ومنهم أبو الحسن الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥ هـ / ٩٩٥ م)، إذ كان معاصراً له يلتقيه ويسمع الحديث منه، فكان يستعلي له ويتقي للناس من حديثه (١٢٠).

٤- (الأبواب في القرآن) ذكره ابن خلكان (١٢١)، ولا نعلم عن مادته شيئاً، وأثرنا أن نذكره هنا.

- وصنف أبو القاسم عبدالله بن محمد بن جرو الأسدي النحوي العروضي الموصلية المعتزلي المتوفى سنة (٣٨٧ هـ / ٩٨٨ م)، تفسيراً للقرآن الكريم، وليس لهذا التفسير وجود في ما وصل إلينا من فهارس المكتبات. وقد أشار إليه ياقوت الحموي، فذكر أن الأسدي من أهل الموصل، وأنه قدم بغداد وقرأ على شيوخها، ووصفه بالذكاء والحنق والمعرفة بالقراءات والعربية، وذكر أنه «صنف تفسير القرآن»، وأنه «ذكر في بسم الله الرحمن الرحيم مائة وعشرين وجهاً» (١٢٢). وهذا يشعرنا أن هذا التفسير كبير وفيه تفصيل، لأن هذا العدد من الوجوه في البسملة وحدها؛ لا بد أن يستغرق صفحات كثيرة، فما بالك ببقية الآي؟ وكان قد مر علينا في بحث القراءات كتابه الذي ألفه فيها.

- ولأبي الفتح بن جني الموصلية البغدادية المتوفى سنة (٣٩٢ هـ / ١٠٠١ م) آراء وأقوال في تفسير القرآن الكريم بثا في كتبه الكثيرة: اللغوية كالخصائص، أو القرآنية كالاحتساب، أو الأدبية كالفسر. وقد هيأت لنا الندوة المتخصصة التي أقامتها كلية التربية في جامعة الموصل سنة ١٩٨٩ فرصة إظهار هذا الجانب غير المبحوث من سيرة وعلم هذا العالم الجليل. فكان لنا فيها بحث عنوانه: (ابن جني مفسراً) (١٢٣).

ويتلخص منهج ابن جني في التفسير، كما ألتقطناه من كتبه وخاصة كتابه القيم الرائع: (الخصائص)، الذي ندر أن ألفت كتاب مثله في موضوعه، يتلخص بالآتي:

أ- العناية بالتفسير العقلي والتأويل: وهو انعكاس لعصر المؤلف المعطاء في فكره وحرية تفكيره، وهو القرن الرابع للهجرة - العاشر للميلاد - إذ ظهرت فيه، وخاصة في الربع الأول منه عيون تفسير المعتزلة، كأبي علي الجبائي المتوفى سنة (٣٠٣هـ / ٩١٥م)، وأبي القاسم البلخي الكعبي المتوفى سنة (٣١٩ / ٩٣١م)، ومحمد بن بحر الأصفهاني المتوفى سنة (٣٢٢هـ / ٩٣٣م). فضلاً عن تفسير كثيرة لأهل السنة عنيت بالتفسير العقلي والتأويل، مثلما عنيت به تفسير المعتزلة. وفي هذا الوقت ظهر تفسير أبي بكر النقاش الموصلي، ليثقل نغماً جديداً من التفسيرات المنسوبة إلى أهل السنة، الأمر الذي جعل كثيراً من الناس يتلقونه بتحفظ، بل بنكير وجدنا صده - كما أوضحنه سالفاً - في تلك التهم التي وجهت لهذا التفسير ولصاحبه الجليل! وهذا يذكرنا بحال خلفه فخر الدين الرازي (ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م)، إذ أن التجديد الذي في تفسيره حمل بعض الناس على القول: «فيه كل شيء إلا التفسير»! وهي مبالغة تم عن استشعار الغربة في هذا العمل العلمي المبدع.

ويدور تأثير أبي علي النحوي المعروف بالفارسي في تلميذه ابن جني كبيراً من ناحية اعتماد العقل في فهم كثير من النصوص القرآنية، إذ كان أبو علي رجلاً عقلياً في آرائه وأقواله اللغوية، فكان يتزعج إلى القياس في كثير من مسائل النحو والصرف واللغة، ويدور أن ميل ابن جني إلى الاعتزال^(١٢٤) أثر فيه أيضاً، فمال إلى التأويل العقلي في كثير من الأحيان. ونلاحظ ذلك في بحثه عن نظرية نشأة اللغة، أهى إلهام، أم تواضع، أم الأمران معاً؟

فكان يقول في تأويل قوله تعالى: (وعلم آدم الأسماء كلها) [البقرة: ٣١]: جائر أن يكون معناه: أن الله سبحانه أقدر آدم على أن واضع على اللغة (١٢٥).

ومضى ابن جني يؤول آيات الصفات أيضاً، والآيات المتشابهات الأخرى. فيذكر من المعاني ما يبعد به نسبة الجبر أو الجوارح والأعضاء، إلى الله سبحانه، لئلا يؤدي ذلك إلى التشبيه والتجسيم ونحوهما مما لا يليق بالإله الأحد الذي ليس كمثله شيء. وهو يعتمد في ذلك إلى اللغة، وإلى المجاز خاصة في كثير من الأحيان، ونراه يفرد له في كتابه (الخصائص) باباً سماه: «فما يؤيده علم العربية من الاعتقادات الدينية»، وبين أن الانتفاع به ليس وراءه من نهاية، وأن الضلال من وجه الصواب في فهم الآيات المتشابهات يعود إلى الضعف في العربية التي خطوط بها الكافة. وبين أن سوء الفهم الذي ابتلي به المجسمة هو الذي حملهم على تفسير هذه الآيات على ظواهرها، كقوله تعالى: (يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله) [الزمر: ٥٦] وقوله: (فاينما تولوا فثم وجه الله) [البقرة: ١١٥]، ونحوهما، وأن السبيل القوية في فهمها يقوم على الذهاب بها إلى جهة المجاز لا الحقيقة. ثم يؤول مثل هذه الآيات على هذا الأساس، الذي ينأى بها عن فهمها على ظواهرها (١٢٦).

ب- تفسير الغريب: وعناية ابن جني بتفسير غريب المفردات القرآنية، لما ينسجم وقدرته اللغوية الفذة. على أنه لم يقصد إلى تفسير الغريب كله، إذ لم يكن ذلك من غرضه، وإنما كان يفسر من تلك الألفاظ الغريبة ما اقتضاه المقام ودعت إليه الضرورة في كتبه، وخاصة كتابه (الفسر) الذي شرح فيه شعر أبي الطيب المتنبي، إذ كان يفسر غريب هذا الشعر، ثم يحتاج له أو ينظر له

بألفاظ من آي القرآن. والأمثلة على ذلك كثيرة
لسنا بصدد حصرها هنا، ويمكن لمن شاء معرفة
شيء منها الرجوع الى مواضع من التفسير^(١٢٧) مثلاً.

ج- التفسير النقلي: ويتناول تفسير القرآن
بالقرآن، وتفسيره بالأخبار الماثورة عن السلف.
وكلاهما أفاد منه ابن جني. فأما تفسير القرآن
بالقرآن فهو المنهج الأمثل في فهم الآي لو أحسن
استعماله. ولقد استعمله ابن جني استعمالاً حسناً في
الاحتجاج لآيات وردت فيها قراءات متنوعة،
وذلك في كتابه القيم: (المحتسب)، كاحتجاجه
لقراءة الآية ٢٧ من سورة الملك، بالآية ١ من سورة
المعارج^(١٢٨).

وأما التفسير بالمأثور فقد عني فيه بما أثر عن
النبي (ص) وأصحابه رضي الله عنهم، وأفاد منه
في فهم عدد من الآي^(١٢٩).

د- مباحث لغوية وبلاغية في اطار التفسير:

عرض ابن جني لمباحث لغوية متعددة في أثناء
كلامه على بيان معاني طائفة من الآي، لفظاً
وتركيباً، فأشار في بعضها الى التضاد في اللغة،
وذكر من آي القرآن ماهو حجة لذلك^(١٣٠)، كما
عرض لمباحث لغوية تتناول بيان (الدلالة الصوتية)
في الفاظ قرآنية، مشيراً الى اختلاف الدلالة
بأختلاف الصيغة كما في (قَدَر) و (اقتدر)
و (كسب) و (اكتسب)^(١٣١) وما إليها من ألفاظ
تنبئ بأن زيادة المبنى تؤدي الى زيادة المعنى.

كما نبه على قضايا نحوية وصرفية وبلاغية،
جاعلاً معاني الآي ميداناً لها، فهماً وتنظيراً.
وقد نقل الزركشي في (البرهان^(١٣٢)) ملاحظ
نفسية بلاغية تتعلق بالقرآن الكريم، وردت في
كتب ابن جني، كتعليل الإطناب في الآية ١١٥
من سورة الأعراف بعلتين: لفظية: وهي

(المزاوجة) بين رؤوس الآي على سياق خواتمها من
أول السورة الى آخرها، ومعنوية: وهي أنه
سبحانه أراد أن يخبر عن قوة أنفس السحرة
واستطالهم- عند أنفسهم- على موسى عليه
السلام، فجاء عنهم باللفظ، أتم وأوفى منه في
إسنادهم الفعل إليه، حين قالوا: (ياموسى إما أن
تلقى وإما أن نكون أول من ألقى)، بدلاً من قولهم
مثلاً: وإما أن تلقى.

القرن السادس:

- صنف المبارك بن محمد الجزري المشهور بابن
الأثير مجد الدين أبو السعادات المتوفى سنة
(٦٠٦هـ / ١٢٠٩م):

١- (الإنصاف في الجمع بين الكشف
والكشف) في أربعة مجلدات، جمع فيه
بين تفسير أبي اسحق الثعلبي المتوفى سنة
(٤٢٧هـ / ١٠٣٥م)، المسمى:
(الكشف والبيان)، وبين تفسير جارا الله
محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة
(٥٣٨هـ / ١١٤٣م)، المسمى
(الكشاف^(١٣٤)). وقد أورده
السيوطي^(١٣٥) بعنوان:

الإنصاف بين الثعلبي وصاحب
الكشاف. وهذا المنهج في الجمع بين
تفسيرين عرف لدى غير واحد من المفسرين
الذين سبقوه كالطبرسي، أو تلوه كأبي
السعود العامدي المتوفى سنة (٩٨٢هـ /
١٥٧٤م).

- سعيد بن المبارك بن الدهان النحوي الموصل
المتوفى سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م)، ثلاثة
مصنفات في التفسير هي^(١٣٦):

- ١- (تفسير القرآن) في أربع مجلدات.
- ٢- (تفسير سورة الفاتحة) في مجلد.
- ٣- (تفسير سورة الإخلاص) في

مجلد.

وذكر ابن (١٣٧) خلكان أنه رأى الناس يشتغلون في تصانيفه بالموصل اشتغالاً كبيراً.

القرن السابع :

- المعافى بن اسماعيل بن الحسين أبو محمد الموصلي الحنفي المتوفى سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م)، له تفسير سَمَاه : (البيان في تفسير القرآن) قرئ عليه بالصالحية سنة (٦٠٣هـ / ١٢٠٦م). وقد وصف هذا التفسير بأنه كبير (١٣٨).

- كمال الدين ابو الفتح موسى بن يونس الموصلي المعروف بأبن منعة المتوفى سنة (٦٣٩هـ / ١٢٤١م)، وصف بأنه متبحر في العلوم الشرعية والعقلية، له :

(كشف المشكلات وإيضاح المضلات) وهو كتاب في تفسير القرآن الكريم، يبدو من اسمه أنه تفسير لما غمض وأشكل من الآي. وقد ذكره الداودي باسم (تفسير القرآن) (١٣٩).

- عزالدین عبدالرزاق بن رزق الله الرسعي الموصلي الحنبلي المتوفى سنة (٦٦٠هـ / ١٢٦٣م) بسنجار. وهو «الإمام الفقيه، الحافظ، المفسر» (١٤٠) له :

١- (رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز) في أربع مجلدات ضخمة. قال عنه (١٤١) الداودي (ت ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م) : «وفيه فوائد حسنة، يروي فيه الأحاديث بأسانيد». وكان لما قدم بغداد فأكرمه الخليفة المستنصر بالله، صنف هذا التفسير ببلدة الموصل، وأرسله إليه (١٤٢). وتذكر بعض كتب الطبقات (١٤٣) أنه ناقش فيه الزمخشري. ومنه نسخ مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق، بالأرقام : ٥٢٨

تفسير، ٥١٠ و تفسير، ٥١١ تفسير (١٤٤)

٢- (القمر المنير في علم التفسير) ذكره ابن الشعار في عقود الجمان (١٤٥).

- موقف الدين أحمد بن يوسف الكواشي المقرئ المفسر المتوفى سنة (٦٨٠هـ / ١٤٨١م)، وصفه السبكي (١٤٦) بأنه «مفسر صالح زاهد ورع...»، له ثلاثة تفاسير :
١- (التبصرة في التفسير) وهو تفسيره الكبير.

٢- (التلخيص في تفسير القرآن) وهو تفسيره الصغير.

٣- (كشف الحقائق في التفسير).

١) فأما (التبصرة في التفسير) : فهو الكتاب الذي ذاع صيته في الآفاق، حتى أن غير واحد من أهل العلم قرأه على مصنفه الجليل. ومنهم تقي الدين أبي بكر المقصّاني (١٣٥)، المتوفى في (القرن ٧هـ / القرن ١٣م)، قال : فلما بلغت في القراءة عليه الى سورة الفجر، معني من إتمام الكتاب، وقال : أنا لا أجزيه لك، ولا تقول : قرأته كله على المصنف. قال المقصّاني : يعني أن للنفس في ذلك حظاً.

وقد وُصفَ هذا التفسير بصفات عالية : منها أنه جود فيه الاعراب، وحرر أنواع الوقوف (١٤٧). وهاتان الصفتان واضحتان جيداً في مختصره الذي سنذكره. وقد أراد مصنفه الكواشي إفادة العالم الإسلامي منه، فأرسل منه نسخاً الى مكة والمدينة والقدس. ويبدو أن نسخة أو أكثر وصلت الى مصر، إذ اعتمد على هذا التفسير بعد نحو قرنين الجلالان الحلبي (٨٦٤هـ / ١٤٥٩م)، والسيوطي (٩١١هـ / ١٢٨١م)، في تأليف تفسيرهما الشهير. وهو أمر خفي على كثير من الدارسين، ومنهم كاتب هذا البحث حين كتب عن تفسير الجلالين سنة ١٩٧٤م و ١٩٧٧م (١٤٨).

وقد صرح بإفادته من تفسير الكواشي السيوطي نفسه في كتابه (بغية الوعاة)، عند ترجمته الشيخ الكواشي، إذ ذكر تفسيره ثم قال: «وعليه اعتمد الشيخ جلال الدين المحلي في تفسيره، واعتمدت عليه أنا في تكلمته مع الوجيز وتفسير البيضاوي وابن كثير»^(١٤٩). كما اعتمد عليه السيوطي في دراساته، فذكره في أول كتابه: (الاتقان في علوم القرآن)، في جملة مصادره التي أطلق عليها عبارة (الجامعة بدائع الفوائد)^(١٥٠)، كما نقل ماسبق أن نقله قبله الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن)^(١٥١) من بيان الفرق بين التفسير والتأويل.

٢) وأما (التلخيص في تفسير القرآن): فهو تفسيره الوجيز، الذي هو تلخيص لتفسيره الكبير، ويقع في جزأين كبيرين. ومنه نسخة نادرة مكتوبة بخط جيد، محفوظة في مكتبة الأوقاف في مدينة الموصل برقم (٩/٣ الحاج حسين).

وقد تبين لنا من دراسة هذا التفسير أن مصنفه عُني فيه عناية فائقة بالناحية اللغوية والنحوية. وعلى هذا يصح عدّه من التفسيرات اللغوية. وقد حرّر فيه مصنفه - كما وصفوا المطول - أنواع الوقوف، مع عناية واضحة بالقراءات المشهورة، وبتفسير الألفاظ الغريبة في القرآن، وبيان المعنى اللغوي لها، وما يتعلق بها من اشتقاق. فضلاً عن العناية الواضحة بالأعراب، والبلاغة.

وقد أشار الكواشي - رحمه الله - في مقدمة تفسيره (التلخيص) إلى ثلاثة وقوف رئيسة عُني بها، هي: التام، والحسن، والكافي؛ إذ هي في رأيه: «أحسن الوقوف» وأعجبها إليه^(١٥٢).

وكانت روحه الصوفية العرفانية تجعله يرى أن التفسير ليس عملاً علمياً محضاً، يحصل بالدرس والقراءة والرواية وحدها، بل هو إلهام ربّاني أيضاً.

يقول في مقدمة تفسيره: «فلما رأيت الكتاب العزيز في غاية الإعجاز ونهاية الإيجاز، وأن لا سبيل إلى معرفته إلا بتوفيق إلهي، وتوقيف نبوي، لخصت مختصراً في تفسيره، ملتجئاً إلى الله تعالى في تيسيره، يكون عوناً لطالبي هذا الشأن...».

ثم لخص منهجه في تحريره بالآتي:

- ١) بيان الوقف التام والحسن والكافي.
- ٢) بيان القراءات المشهورة والشاذة، فإذا قال (القراءة) كذا وكذا، فهي السبعة، وإذا قال (قرئ) بكذا فهي الشاذة. ثم يبيّن منهجه في الاعتداد بالسبعة واعتبارها، ذاكراً الأسس الثلاثة المعتمدة لدى المحققين من المقرئين الذين سبقوه في ذلك، كأبن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) والزجاج (ت ٣١١هـ) ومكي بن أبي طالب (ت ٤٣٧هـ/ ١٠٤٥م)، وهي: موافقة خط المصحف، وموافقة العربية ولو بوجه، وصحة الرواية^(١٥٣). قال مكي^(١٥٤): «فإذا اجتمعت فيه هذه الخلال الثلاث، قرئ به وقطع بصحته وصدقه». فهذا ماأقره المحققون في علم القراءات قبله، فلما صنف مختصره اعتمده أساساً لقبول القراءة، فقال: «والسبعة ماصحّ سنده، واستقام وجهه في العربية، ووافق لفظه خط المصحف، وما لم يوجد فيه مجموع هذه الثلاثة، أو التواتر، أو موافقة خط الإمام فهو شاذ».

ولاشك أن التواتر حجة في قبول القراءة، ولذلك عدّ أكثر أهل العلم القراءات السبع متواترة، بل الثلاثة المتممة للثلاثة في الصحيح المختار المشهور، كما يذكر الديمياطي^(١٥٥)، ونقل القسطلاني الاتفاق على تواترها^(١٥٦). وعلى هذا لا إشكال في قول الكواشي: (أو التواتر)، لأن التواتر وحده كاف لقبول القراءة، كما بيّنا. ولكن

فقال : « وبعضد هذا ماقرى : وغير الضالين » (١٥٨).

وبذا يتبين لنا أنه يحتج بالقراءات الشاذة في النحو، وإن لم يُجز القراءة بها. وهذا ماعليه أهل العلم من المفسرين كافة.

ونراه يربط النحو بـ (المعاني)، وفق منهج الأفذاذ من النحاة، حين يعرضون لإعراب القرآن، فيذكر أن (الحمد لله) في الفاتحة : « مبتدأ وخبر »، وأنها « خبر بمعنى الأمر، وكذا كل ما في القرآن من هذا » (١٥٩). فأراد بالخبر الذي بمعنى الأمر : الخبر البلاغي الذي يقابل الانشاء، لا الخبر النحوي الذي يقابل المبتدأ.

فهذا بعض مايلقي ضوءاً على منهج الكواشي عموماً في تفسيره.

ونظراً لشهرة تفسير الكواشي الكبير، وكذلك التلخيص، فقد تدارسه الذين صنفوا في علوم القرآن، ونقلوا منه كثيراً من الأقوال والآراء، في التفسير والتأويل، وإعراب القرآن، ومعانيه، والتناسب بين الآي والسور، واللغة، وما الى ذلك.

ولهذه القول قيمة علمية، إذ أن التفسير المطول المسمى (التبصرة في التفسير)، هو في عداد المفقود. وهذه القول التي أوردها الزركشي في (برهانه) تحييه، وتجعل تصور مادته أمراً قريباً ميسراً، وإن كان ماالتقطه منه وانتقاه، هو بما امتاز به من كثير من المفسرين التقليديين، كقوله مثلاً بأصالة (الكاف) (١٦٠) في قوله تعالى : (ليس كمثل شيء) [الشورى : ١١]، وعدم القول بزيادتها الذي ذهب إليه أكثر النحاة والمفسرين، فهو في هذا على منهج المحققين من المفسرين كأبي جعفر الطوسي المتوفى سنة (٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م)، إذ وجد وجهاً معنوياً ذكياً لاستبعاد زيادتها (١٦١)، الأمر الذي أثار استحسان أستاذه الشريف المرتضى

الإشكال قد يبدو في قوله : « أو موافقة خط الامام ». ذلك أن ما لم تصح روايته، فضلاً عن موافقة العربية، لا يقرأ به وإن وافق خط المصحف، إذ لاشك أن كثيراً من الشواذ يوافق خط المصحف، ولكنه يخالف الجمع عليه من القراءات، كالسبعة أو العشرة، أو لكونه لا سند له من رواية، أو صحة لغة. ومنه في محتسب ابن جني كثير.

وأغلب الظن أن الكواشي رحمه الله أراد : موافقة خط المصحف بعد صحة الرواية في الأقل دون شرط العربية، إذ كثيراً ما يخطئ النحاة واللغويون بعض القراء في حروف يقرأونها، كحمزة وابن عامر، في حين لا يرى القراء والفقهاء ذلك، بل يعدونها صحيحة لصحة روايتها، وإجماع مصر من الأمصار على قارئها.

وفرق الكواشي بعد هذا بين التفسير والتأويل، مبيناً أن التفسير يحتاج الى الوقوف على أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها. ولا يجوز ذلك عنده إلا بالسماع. وأما التأويل فهو ما يرجع في كشفه الى معنى الكلمة. ثم ضرب لذلك مثلاً (الرب) في قوله تعالى : (ذلك الكتاب لارب فيه) [البقرة : ٢]، فبين أنه يقول : « معناها : لاشك، فإن قيل : قد نفيت الرب، وقد ارتابوا؟ فإذا قلت : إنه في نفسه صدق. وإذا تَوَلَّى وجد ذلك، فانتفى عنه الرب، فهذا تأويل. ثم قال : « وتلخيصه : التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية » (١٥٧).

وتتجلى عنايته بالإعراب من أول التفسير، إذ نجده يعرب قوله تعالى (أنعمت عليهم) في سورة الفاتحة، مبنياً مفعول (أنعمت)، وأن (لا) في (غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، بمعنى (غير)، يقول : « ولذلك جاز العطف »، ثم احتج لهذا الإعراب بإحدى القراءات غير المشهورة،

العالم اللغوي المعروف المتوفى سنة (٤٣٦هـ / ١٠٤٤م).

كما نقل منه الزركشي مايدل على عنايته بالوحدة الموضوعية في القرآن المجيد ، متمثلة بما تعرف عليه في اصطلاح علوم القرآن بـ (التناسب بين الآي والسور) ، الذي عُني به غير واحد من القدماء الذين سبقوه كالطوسي والطبرسي والزمخشري والرازي وغيرهم . فالزركشي ينقل عنه التناسب بين خاتمة سورة النساء ، و فاتحة سورة المائدة (١٦٢) .

كما نقل من (التبصرة) أقوالاً بلاغية تدل على تحقيق وفهم عميق للبلاغة العربية (١٦٣) ، والتفان رائعة في معاني المفردات القرآنية ، مقرونة بالتعليل الذكي الدقيق (١٦٤) . وما الى ذلك من مادة تدل على قيمة هذا التفسير في مجال الدراسات القرآنية بعامة ، وعلم التفسير بخاصة .

القرن الثامن :

- صنف محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان شمس الدين البعلبي الموصلبي المتوفى سنة (٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) في التفسير مصنفين (١٦٥) :

١- (بهجة المجالس ورواق المَجالس) في خمس مجلدات ، يتضمن الكلام على معاني آيات من القرآن الكريم .

٢- (تفسير : غاية الإحسان في قوله تعالى (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) . فهو على هذا تفسير لآية واحدة من كتاب الله .

الهوامش :

(١) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، دار الكتاب العربي ، بيروت ٢٢٣ / ٥ .

(٢) و (٣) المصدر نفسه : المكان نفسه .

(٤) المصدر نفسه ٢٢٤ / ٥ .

(٥) معجم البلدان ٥ / ٢٢٤ .

(٦) ابن الأثير الجزري : الكامل في التاريخ ، دار صادر- بيروت ٥٢٣ / ٢ .

(٧) الزرقاني : مناهل العرفان في علوم القرآن- دار إحياء الكتب العربية- القاهرة ٢٠ / ١ .

(٨) أحمد نصيف الجنابي : علوم القرآن في عهد المغول ، بحث في موسوعة حضارة العراق ، سنة ١٩٨٥م ١١ / ٧ .

(٩) و (١٠) المصدر نفسه ١١ / ٨- ٩ .

(١١) مصطفى الصاوي الجويني : مناهج في التفسير ، شركة الاسكندرية للطباعة- الاسكندرية ١٩٧١م ص ٥٠ .

(١٢) إنعام فضلاء البشر في قراءة الأربعة عشر، مطبعة عبدالحليم احمد حنني- مصر ١٣٥٩هـ ص ٥ .

(١٣) و (١٤) المصدر نفسه : المكان نفسه .

(١٥) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، بتحقيق برجستراسر ، مصر ١٩٣٢ ، ١ / ٤٠٣ .

(١٦) و (١٧) الذهبي : معرفة القراء الكبار على الطبقات والأصناف ، بتحقيق محمد سيد جاد الحق ، ط ١ ، القاهرة ١٩٦٩ ، ١ / ٥٤٤ .

(١٨) غاية النهاية في طبقات القراء ١ / ٣٥٣ .

(١٩) المصدر نفسه ١ / ٣٥٤ .

(٢٠) المصدر نفسه ٢ / ٣٠٩ .

(٢١) معرفة القراء الكبار ١ / ٢٣٩ ، الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد . دار الكتاب العربي بيروت ٢ / ٢٠١ .

(٢٢) الصفي : الوافي بالوفيات ، باعتناء س . ديدريغ ٣ / ٥ وينظر : السيوطي : بنية الوعاة ، ط ١ ، بتحقيق أبي الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٤م ، ١ / ٩٣ .

(٢٣) و (٢٤) غاية النهاية في طبقات القراء ١ / ٣٨٦ .

(٢٥) المصدر نفسه ٢ / ٣٠٩ .

(٢٦) المصدر نفسه ١ / ٢٤٠ .

(٢٧) المصدر نفسه ١ / ١٩٨ .

(٢٨) المصدر نفسه ١ / ٢٣٦ .

(٢٩) المصدر نفسه ٢ / ٢٠٦- ٢٠٧ .

(٣٠) غاية النهاية في طبقات القراء ١ / ٤٦٧ .

(٣١) غاية النهاية ٢ / ٢٢٨ .

(٣٢) غاية النهاية ٢ / ٣٠٩ .

(٣٣) السيوطي : بنية الوعاة ١ / ٩٥ .

(٣٤) معرفة القراء الكبار ١ / ٥٣٦ .

(٣٥) صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، ط ٥ ، دار العلم للناشرين- بيروت ١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م ص ٨٨ .

(٣٦) غاية النهاية ١ / ١٥١ .

(٣٧) معرفة القراء الكبار ٢ / ٥٨٠ ، وغاية النهاية ٢ / ٢٠٦- ٢٠٧ .

(٣٨) معرفة القراء الكبار ٢ / ٥٨٠ .

(٣٩) نفسه ٢ / ٥٨١ .

(٤٠) ابن كثير : الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث دار الفكر- بيروت ص ٥٧ .

- (٤١) الباعث الحديث ص ٥٧-٥٨ .
- (٤٢) الباعث الحديث ص ٥٨ .
- (٤٣) غاية النهاية ١/ ٣٥١ ، ٢/ ٣٧٦ .
- (٤٤) معرفة القراء الكبار ١/ ٨٤ .
- (٤٥) غاية النهاية ١/ ٣٥١ .
- (٤٦) غاية النهاية ٢/ ٣٧٧ .
- (٤٧) غاية النهاية ٢/ ١٣٤ .
- (٤٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان بتحقيق إحسان عباس ، دار الثقافة - بيروت ١٩٧٢ م ٣/ ٥٣ .
- (٤٩) الباعث الحديث ص ٦٢ .
- (٥٠) نفسه ص ٦٢-٦٣ .
- (٥١) الباعث الحديث ص ٦٣ ، وابن حجر الملقاني : شرح نخبه الفكر ، مطبعة الباني - مصر ١٩٣٤ م .
- (٥٢) غاية النهاية ١/ ٤٦٧ .
- (٥٣) غاية النهاية ١/ ٢١٥ .
- (٥٤) معرفة القراء الكبار ١/ ٢٣٧ .
- (٥٥) غاية النهاية ١/ ٦٠٨ .
- (٥٦) غاية النهاية ١/ ٢٠ ، و ٣٩٧ .
- (٥٧) غاية النهاية ١/ ١٣٨ .
- (٥٨) معرفة القراء الكبار ١/ ١٧٥-١٧٦ .
- (٥٩) معرفة علوم الحديث ، المكتب التجاري للطباعة والنشر - بيروت ط ٢ ، ١٩٧٧ م ص ٢١٠ .
- (٦٠) غاية النهاية ٢/ ٢٢٨ .
- (٦١) معرفة القراء الكبار ١/ ٥٣٦ .
- (٦٢) ابن الصلاح : مقدمة في علوم الحديث ، دار الحكمة - دمشق ١٩٧٢ م ١٧٠ ص .
- (٦٣) غاية النهاية ١/ ٢٤٠ .
- (٦٤) غاية النهاية ٢/ ٢٠١ .
- (٦٥) غاية النهاية ١/ ١٨٣ .
- (٦٦) غاية النهاية ١/ ٣٥١ .
- (٦٧) غاية النهاية ٢/ ٣٠٩ .
- (٦٨) ابن المستوفي : تاريخ إربل ١/ ١٢٦ ، تحقيق سامي نخاس الصقار ، وزارة الثقافة - بغداد ١٩٨٠ م ١/ ١٢٦ .
- (٦٩) غاية النهاية ٢/ ٣٦٣ .
- (٧٠) غاية النهاية ٢/ ٤٣ .
- (٧١) غاية النهاية ١/ ٤٥٥ .
- (٧٢) و (٧٣) معرفة القراء الكبار ١/ ٢٣٧ .
- (٧٤) غاية النهاية ١/ ٥٧٣ .
- (٧٥) العبر في خبر من غير تحقيق صلاح الدين المنجد - الكويت ١٩٦٠ م ٢/ ٢٩٣ .
- (٧٦) معرفة القراء الكبار ١/ ٢٣٧ .
- (٧٧) غاية النهاية ٢/ ١٢١ .
- (٧٨) تاريخ بغداد ٢/ ٢٠٢ .
- (٧٩) معرفة القراء الكبار ١/ ٢٣٧ .
- (٨٠) غاية النهاية ٢/ ٢٢٤ .
- (٨١) ابن النديم : الفهرس ، دار المعرفة - بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م ص ٥٠ ، وفيات الأعيان ٤/ ٢٩٨ .
- (٨٢) الفهرس ص ٥٠ .
- (٨٣) بنية الرواة ١/ ٣٨٩ ، وكشف الظنون ط ١ مطبعة العالم ، ١٣١٠ هـ ١/ ٤٢٤ . وعلي شواخ : معجم مصنفات القرآن الكريم ٤/ ٤٤ .
- (٨٤) بنية الرواة ٢/ ١٢٨ .
- (٨٥) ابن جني : المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والايضاح عنها ، بتحقيق علي التجدي ورفيقه - القاهرة ١٣٨٦ هـ ١/ ١٣٢ .
- (٨٦) و (٨٧) البرهان في علوم القرآن ١/ ٣٣٩ .
- (٨٨) حققه علي التجدي ناصف وآخرون ، وطبع في مصر سنة ١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م .
- (٨٩) غاية النهاية ١/ ٤٥٥ .
- (٩٠) معرفة القراء الكبار ١/ ٥٣٦ .
- (٩١) غاية النهاية ٢/ ٨٠-٨١ .
- (٩٢) وله عدة نسخ مخطوطة في جامعة الملك سعود برقم عام هو ٤٤١ .
- (٩٣) معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٤٩ .
- (٩٤) نفسه ٢/ ٥٥٠ .
- (٩٥) غاية النهاية ١/ ٥٨٤ .
- (٩٦) غاية النهاية ٢/ ٤٨٩ .
- (٩٧) كشف الظنون ٢/ ١٨٩٤ . وينظر : الجنابي : علوم القرآن الكريم ج ١١ من حضارة العراق .
- (٩٨) الجنابي : المصدر نفسه .
- (٩٩) معرفة القراء الكبار ١/ ٣٦٣ .
- (١٠٠) غاية النهاية ١/ ١٩٨ .
- (١٠١) الجنابي : علوم القرآن الكريم ، ضمن : حضارة العراق ١١/ ٢٠ .
- (١٠٢) غاية النهاية ١/ ١٩٨ .
- (١٠٣) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ، ط ٣ ، مطبعة الباني الحلبي - مصر ١٩٥١ م ٢/ ١٧٥ .
- (١٠٤) البرهان ١/ ١٤٥ .
- (١٠٥) عبدالله محمود شحاته : القرآن والتفسير . الهيئة المصرية العامة للكتاب - مصر ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ص ٩٦ .
- (١٠٦) هو الزميل الدكتور أحمد نصيف الجنابي ، ينظر : حضارة العراق ٧/ ٦٣ .
- (*) كشف الظنون ٢/ ٢٠٠١ . وينظر : علي شواخ : معجم مصنفات القرآن الكريم ، دار الرفاعي - الرياض ٤/ ٢٦١ .
- (١٠٧) الداودي : طبقات المفسرين ، بتحقيق علي محمد عمر ، مطبعة الاستقلال - القاهرة ١٣٩٢ هـ ٢/ ١٣٢ .
- (١٠٨) تاريخ بغداد ٢/ ٢٠١ .
- (١٠٩) معرفة القراء الكبار ١/ ٢٣٧ .
- (١١٠) طبقات المفسرين ٢/ ١٣٢ .
- (١١١) وهو في دار الكتب المصرية ، برقم ٥٢ تفسير ، وهي النسخة

التي اطلعت عليها سنة ١٩٧٥ م. وله نسخ مخطوطة أخرى في جنسيتي، ومكة المكرمة، والمتحف البريطاني. ينظر: علي شواخ: معجم مصنفات القرآن الكريم ٣/ ١٠٠.

(١١٢) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، طبعة النجف ١٩٥٧ م ٨/ ١٨٧. وينظر: شفاء الصدور ج ٢ الورقة ٧٥ ط، و ٣٧ ط، و ٩٩ ط، فهي مما نقله الطوسي في تفسيره.

(١١٣) ينظر تفسيره (جمع البيان) فقد نقل، في مواضع متعددة.

(١١٤) ١/ ٢٦٩.

(١١٥) وفيات الأعيان ٤/ ٢٩٨.

(١١٦) وفيات الأعيان نفس المكان.

(١١٧) ذكره بعض من ترجم له.

(١١٨) ذكره الخطيب: تاريخ بغداد ٢/ ٢٠٢، وتلقفه منه بعض من تلاه، كاتب خلكان والذهبي.

(١١٩) تاريخ بغداد ٢/ ٢٠٥.

(١٢٠) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٢/ ٢٠٥.

(١٢١) وفيات الأعيان ٤/ ٢٩٨.

(١٢٢) بنية الرعاة ١/ ٣٨٩.

(١٢٣) سينشري (مجلة التربية والعلم) في جامعة الموصل.

(١٢٤) السيوطي: الزهر في علوم اللغة وأنواعها، بتحقيق محمد أحمد جاد المولى ورفيقه ١/ ٧.

(١٢٥) الخصائص بتحقيق محمد علي النجار، ط ٢، دارالهدى - بيروت ١/ ٤٠ - ٤١.

(١٢٦) الخصائص ٣/ ٢٤٧.

(١٢٧) مثل ٢/ ٢٢، ٢٥٩، ٧٨، ١/ ١٩٨، ١٤٥... وينظر: بمشأ: (ابن جني مفسراً) عند الكلام على (تفسير الغريب).

(١٢٨) المحتجب ٢/ ٣٢٥.

(١٢٩) ينظر بمشأ: ابن جني مفسراً، ص ٥.

(١٣٠) القصر، دار الشؤون - بغداد ١/ ١٤٥.

(١٣١) الخصائص ٣/ ٢٦٥، واللفظتان في الآية ٤٢ من القصر.

(١٣٢) الخصائص ٤/ ٢٦٦ واللفظتان من الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.

(١٣٣) ٢/ ٤١٢.

(١٣٤) عبد الجبار حامد: الحياة العلمية في الموصل في عهد الأتابكة رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة، الموصل ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(١٣٥) بنية الرعاة ٢/ ٢٧٤ - ٢٧٥.

(١٣٦) بنية الرعاة ١/ ٥٨٧، والداودي: طبقات المفسرين ١/

١٨٤.

(١٣٧) وفيات الأعيان ٢/ ٣٨٣.

(١٣٨) الداودي: ٢/ ٣٢٣.

(١٣٩) الداودي: طبقات المفسرين ٢/ ٣٤٤.

(١٤٠) و (١٤١) طبقات المفسرين ١/ ٢٩٤. فوق.

(١٤٢) طبقات المفسرين: المكان نفسه.

(١٤٣) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة مطبعة السنة المحمدية -

القاهرة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م. ٢/ ٢٧٥، والداودي:

طبقات المفسرين المكان نفسه. وينظر: عبد الجبار حامد:

الحياة العلمية في الموصل في عهد الأتابكة ص ٢٣١ - ٢٣٢.

رسالة ماجستير.

(١٤٤) أحمد الجاني: علوم القرآن/ حضارة العراق ١١/ ٢٦ - ٢٧.

(١٤٥) الحياة العلمية في الموصل ص ٢٣٢.

(١٤٦) طبقات الشافعية الكبرى تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود

الططاحي، ط ١، مصر ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٦ م ٨/ ٤٢.

(١٤٧) الداودي: طبقات المفسرين ١/ ٩٩.

(١٤٨) نشر في مجلة آداب الرافدين، في جامعة الموصل في المدين

الخامس والثامن.

(١٤٩) بنية الرعاة ١/ ٤٠١.

(١٥٠) الأختان في علوم القرآن ١/ ٨.

(١٥١) ٢/ ١٥٠.

(١٥٢) مقدمة التلخيص في تفسير القرآن للكواشي، مخطوط بمكتبة أوقاف الموصل، برقم ٣/ ٩ ص ١.

(١٥٣) و (١٥٤) مكى: الإبانة عن معاني القراءات. بتحقيق عبد الفتاح اسماعيل، مطبعة الرسالة - القاهرة ص ١٨ - ١٩.

(١٥٥) تحف فضلاء البشر ص ٩.

(١٥٦) القسطلاني: الطائفت إشارات لفنون القراءات. دار الهلال -

القاهرة ١٩٧٢، ص ٧٧.

(١٥٧) و (١٥٨) مقدمة التلخيص في تفسير القرآن ص ٢.

(١٥٩) المصدر نفسه: المكان نفسه.

(١٦٠) الزركشي: البرهان ٢/ ٢٧٧.

(١٦١) التبيان في تفسير القرآن ٩/ ١٤٩.

(١٦٢) البرهان ١/ ١٨٦.

(١٦٣) البرهان ٣/ ٣٥١.

(١٦٤) البرهان ٣/ ٣٤٥.

(١٦٥) بنية الرعاة ١/ ٢٢٨، وطبقات المفسرين ٢/ ٢٤٠.

عُلُومُ الْحَدِيثِ

أ. د. كاسد ياسر الزبيدي

السلام. وقد تكون رحلته الى بلد آخر كإربل والشام ومصر لماتين الغايتين.

فاذا كان عالماً معروفاً في مدينته الموصل، وخرج الى بغداد مثلاً، سطع نجمه في عاصمة الخلافة العباسية، واتسع نفوذه العلمي، واجتمع لديه من طلبة العلم أكفؤهم، ومن أهل الدين أرضاهم وأتقاهم، على نحو ما اجتمع لعمر بن أبيوب الموصل أحد كبار قداسي المحدثين وأتمتهم (ت ١٨٨ هـ / ٨٠٣ م).

فاذا خرج لطلب العلم وأخذته، عاد الى بلده عالماً، أو قصد بلداً آخر لبث علمه فيه، كدمشق، وحلب، ثم عاد الى الموصل، على نحو ما صنع محمد بن علي الموصل الحنبلي المكنى بابن خروف المتوفى سنة (٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م)، اذ ارتحل الى بغداد في طلب العلم، وهو في مقتبل عمره، فأخذ عن كبار محدثيها، وقرأ كتباً كباراً منها جامع أبي عيسى علي ابن العجمي المحدث، ثم قصد الشام ليحدث فيها، فسمع منه كثير من أهل العلم، ومنهم شمس الدين الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م)، قال: «قدم علينا وسمعنا منه». ثم عاد الى الموصل، فأقرأ بالموصل وحدث حتى وفاته^(١).

ومثله علي بن مسعود بن نفيس الموصل، اذ سمع بحلب، ثم مصر، ثم دمشق، ومات فيها سنة (٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م)، مكثراً من الحديث عن كبار محدثيها، كالكرماني وغيره. وقد روى عنه الذهبي فيها سنة (٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م)^(٢).

ومثلها يوسف بن أحمد أبو المحاسن الأسدي المعروف بالحافظ اليمصوري، اذ «سمع الكثير بالموصل، ودمشق، ومصر، والاسكندرية»

بعد علم الحديث من العلوم التي لها أهمية كبرى في حياة المسلمين الدينية: العقيدية والسلوكية؛ ولذلك قال عنه المبارك بن الأثير الجزري المتوفى سنة (٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) إن «علم الحديث من العلوم الشرعية وإنه من أصول الفروض»، لذا «وجب الاعتناء به والاهتمام بضبطه وحفظه»^(٣).

وعند دراستنا لعلم الحديث في الموصل، تبين لنا أن هذا العلم حظي بعناية كبيرة من لدن أهل العلم المواصلة وتلاميذهم، فأقبلوا عليه بشغف كبير، ينهلون منه سماعاً وقراءة وتدويناً وتصنيفاً ونشراً، حتى نشأت في هذه المدينة العريقة في القدم، حوزة علمية ضمت طائفة من المحدثين المرموقين الذين صاروا يقصدون من الأمصار الاسلامية البعيدة والقرية للرواية عنهم، على نحو ما فعل أبو علي القالي صاحب الأمالي المتوفى سنة (٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م)؛ إذ قصد الموصل - كما صرح هو - لسماع أبي يعلى محمد بن أحمد بن النخعي الموصل المتوفى سنة (٣٠٧ / ٩١٩ م).

خصائص الحديث والمحدثين:

وإذا أردنا أن نتعرف على خصائص المحدثين، ودراسة الحديث في الموصل، يتبين من الدراسة العقيقة والاستقراء الدقيق الآتي:

١) الدراسة ثم الرحلة الى الأمصار:

فالملاحظ أن أكثر المحدثين الموصلين، كان يأخذ علم الحديث في بلده: الموصل، عن كبار المحدثين في أيامه، وبعد أن يستوثق من ضبط هذا العلم، ينحدر الى بغداد لتحديث أهلها بمالديه، أو لاستكمال روايته ودرسه على جهابذة العلم في مدينة

وغيرها، من جماعة من المشايخ، وحصل الأصول والفوائد وتوفي بمصر^(٤).

واقترنت رحلات المحدثين في كثير من الأحيان بالتعليق، وضبط أسماء الرواة، وسنن ولادتهم ووفياتهم، وبلدانهم، ومعرفة شيوخهم وتلامذتهم... ويتبين لنا ذلك على سبيل المثال في صنيع أبي عمر بن جلدث الموصلي المتوفى سنة (٥٩٢ هـ / ١١٩٥ م)، فهو «أحد من جد في جمع الحديث وكتبه، ولقي رواه، ورحل فيه الرحلة الواسعة»، فقد رحل الى بغداد، ودمشق، وأصبهان، وغيرها من الأمصار، «وسمع بغير هذه المواضع خلقاً كثيراً». وقد أفاد من رحلته الواسعة هذه بأن «علق التعليقات الكثيرة، وضبط الأسماء المشكلة»، قال ابن المستوفي^(٥): «رأيت من تقييداته بخطه ما يدل على إتقانه وحذقه».

وربما حدث العالم الموصلي عن محدث موصلي مرموق ثقة في بغداد أو غيرها، فيقصده لذلك الناس، كما فعل محمد بن اسماعيل بن الغصن الموصلي، إذ قدم بغداد وحدث بها عن كبار المحدثين المواصلة الذين أخذ عنهم فيها، مثل عبد الغفار بن عبد الله بن الزبير، فروى عنه كثيرون منهم الخطيب البغدادي^(٦) المتوفى سنة (٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م).

وبالمثل حدث علي بن ابراهيم أبو الحسن السكوني المؤدب الموصلي المتوفى سنة (٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م)، عن كبار أهل الحديث الذين أخذ عنهم في مدينته الموصل، حين قدم بغداد، كأبي يعلى الموصلي المتوفى سنة (٣٠٧ هـ / ٩١٩ م)، وعبد الله بن أبي سفيان، وأحمد بن الحسين الحدادي. وقد وصف بأنه: «كان ثقة»^(٧).

٢- الرواية عن كبار المحدثين:

وهي ظاهرة واضحة جداً لدى محدثي الموصل، فكثير من قداماهم صحبوا كبار المحدثين

والأئمة من الحنابلة والشافعية وغيرهما. ومنهم من سمع من أهل البيت، في قُدسي الروايات التي أثرت عنهم. وأقدم ما وصل إلينا من هذه الروايات، رواية عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وهو الامام الصادق المتوفى سنة (١٤٨ هـ / ٧٦٥ م)، في المدينة المنورة، قال عنه ابن خلكان^(٨): «وكان من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه في مقاله. وفضله أشهر من أن يذكر...». وهذه الرواية أخذها عن الامام جعفر الصادق محمد بن اسحق أبو نوفل البجلي الموصلي، قال عنه أبو جعفر الطوسي المتوفى سنة (٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م): «من أهل الموصل»، وعده من أصحاب الامام الذين روى عنه^(٩). وروى أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان البغدادي الملقب بـ (المفيد) المتوفى سنة (٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م)، شيخ الامامية في عصره، بسنده عن داود بن رشيد عن محمد بن اسحق البجلي أبي نوفل الموصلي عن جعفر الصادق^(١٠). فهذه الرواية من أقدم ما ذكرته كتب الطبقات والحديث من الروايات التي رواها محدث موصلي عن علم من أعلام الحديث، إذ هي تنسب الى النصف الأول من القرن الثاني، وتمتاز بعلو السند، إذ ليس بين أول راو لها وهو الشيخ المفيد، وبين راويها عن الامام جعفر إلا واسطة واحدة، كما هو ظاهر في رجال سندها الذي ذكرناه آنفاً، فضلاً عن وثاقة من رويت عنه.

أمّا الحنابلة، فلمهم روايات قديمة تنسب الى الإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة (٢٤١ هـ / ٨٥٥ م)، المحدث الفقيه، الذي طلب علم الحديث صغيراً في بغداد، ثم رحل الرحلة الواسعة لأخذه، حتى اشتهر فيه وفي الفقه والعقائد وما إليها، وأخذ عنه طلبة العلم من بلاد مختلفة، فكان لأهل الموصل القدامى نصيب حسن من

هذا الأخذ وذلك العطاء. ومن صحبه منهم فروى عنه ما يتعلق بالأخبار والسنن، بغير واسطة، إبراهيم بن أبان الموصلي، قال عنه القاضي أبو يعلى الفراء المتوفى سنة (٥٢٦ هـ / ١١٣١ م) في كتابه: (طبقات الحنابلة): «عنده عن إمامنا- يقصد الإمام أحمد- مسائل، منها قال: سمعت أبا عبد الله...» (١١).

ومن أخذ عن الإمام أحمد بواسطة، علي بن محمد الموصلي، كان بينه وبين الامام أحمد واسطة واحدة، فقد روى أحاديث بسنده عن يزيد بن هارون المتوفى سنة (٢٠٦ هـ / ٨٢١ م)، عن أبي عبد الله أحمد بن حنبل، في العارية، أجاب أبو عبد الله بأنها: مؤداة. كما روى عن أبي القاسم القلاس عن أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين المتوفى (٢٣٣ هـ / ٨٤٧ م) بسندهما عن ابن سيرين المتوفى سنة (١١٠ هـ / ٧٢٨ م)، حديثاً في ثلاث خصال هي من أخلاق النبوة: الصيام، والسواك، والصلاة من آخر الليل (١٢).

وكان أحمد بن إبراهيم الموصلي، ممن يحضر مجلس الخليفة المأمون المتوفى سنة (٢١٨ هـ / ٧٣٦ م)، وقد روى عنه حديثاً معتمداً إلى النبي ﷺ، والذي روى الحديث عن أحمد الموصلي بسنده هو محمد بن الحسين الموسوي الملقب بالشرif الرضي المتوفى سنة (٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م)، وذلك في كتابه الفريد من نوعه في علم الحديث وأدبه: (المجازات النبوية)، فقد روى بسنده عن أبي القاسم عيسى بن علي بن عيسى بن داود بن الجراح، عن أبي القاسم عبد الله بن محمد البغوي سنة (٣٠٧ هـ / ٩١٩ م)، قال: «حدثنا أحمد ابن إبراهيم الموصلي، قال: سمعت المأمون في الشامية، وقد أجرى الخلعة، فجعل ينظر إلى كثرة الناس، فقال ليحيى بن أكرم- قاضيه-: أما ترى إلى هذه الأمم؟ ثم قال: حدثنا يوسف بن عطية عن ثابت عن أنس أن النبي صلى الله

عليه وآله قال: (الخلق عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله) (١٣). وأورد الحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م)، ما يدل على علم المأمون بالحديث وروايته وطرقه.

ومن قدامى أهل الحديث الموصلة، الذين رويوا عن أئمة الحديث القدامى، عفيف بن سالم أبو عمرو الموصلي، كان من كبار المحدثين في عصره، وقد روى عن الامام مالك بن أنس المتوفى سنة (١٧٩ هـ / ٧٩٥ م)، وشعبة بن الحجاج المتوفى (ت ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م)، والليث بن سعد المتوفى سنة (١٧٥ هـ / ٧٩١ م)، وغيرهم (١٤).

ومنهم أبو الحسن علي بن حرب بن محمد بن العضوية الطائي الموصلي المتوفى سنة (٢٦٥ هـ / ٨٧٨ م)، الذي روى عن كبار محدثي عصره، مثل عمر بن أيوب الموصلي، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة (١٩٨ هـ / ٨١٣ م)، وحفص بن غياث المتوفى سنة (١٩٤ هـ / ٨٠٩ م)، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة (١٩٧ هـ - ٨١٢ م) ويزيد بن هارون المتوفى سنة (٢٠٦ هـ - ٨٢١ م) وأحمد بن حنبل، ومن هم في طبقتهم (١٥).

ومن خيارهم المعافى بن عمران أبو مسعود الأزدي الموصلي المتوفى سنة (١٨٤ هـ / ٨٠٠ م)، كان قد لازم سفيان الثوري المتوفى سنة (١٦١ هـ / ٧٧٧ م)، ففقه به، وتأدب بأدابه، وأكثر الكتابة عنه وعن غيره، وحدث عنه، فكان سفيان كثير الاعتزاز به، وكان يقول له: «أنت معافى كأمك!»، ويلقبه بـ (الباقوتة) أو (باقوتة العلماء) (١٦).

٣- أخذ كبار المحدثين عنهم:

وإذا كان المحدثون الموصلة قد رويوا عن كثير من أئمة الحديث كما رأينا فإن العكس قد حصل أيضاً، وهو أن المحدثين الموصلة، أخذ عن غير

واحد منهم محدّثون كبار. فالحسن بن علي بن الحسن المعروف بابن عمار الموصلّي المتوفى سنة (٥٢٩هـ / ١١٣٤م)، كان من شيوخ ابن الصلاح محدّث أهل الشام الشهير المتوفى (١٧) سنة (٦٤٢هـ / ١٢٤٤م). والمعافى بن اسماعيل أبو محمد الموصلّي، سمع منه ابن الحاجب النحوي المتوفى (١٨) سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م).

أما عمر بن أيوب العبدّي الموصلّي المتوفى سنة (١٨٨هـ / ٨٠٣م)، فقد سمع منه كبار محدّثي بغداد عند قدومه إياها. فقد روى عنه من أهلها أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وغيرهما. كما روى عنه من الكوفيين أبو بكر بن أبي شبة، وعبد الله بن عمر الجعفي. وكان هذا المحدث الموصلّي محل ثناء أئمة الحديث الذين سمعوا منه، كالإمام أحمد ويحيى بن معين وأبي داود (١٩).

وسمع الدار قطني المتوفى سنة (٣٨٥هـ / ٩٩٥م) من ثوبة بن أحمد الموصلّي المتوفى بمصر سنة (٣٥٨هـ / ٩٦٨م)، عند قدومه بغداد. وكان محدّث عن أبي يعلى الموصلّي المتوفى سنة (٣٠٧هـ / ٩١٩م)، وغيره من المواصلة. وقد وصفه الخطيب البغدادي بأنه «كان صدوقاً» (٢٠).

وحين ارتحل علي بن حرب أبو الحسن الطائفي الموصلّي المتوفى سنة (٢٦٥هـ / ٨٧٨م)، إلى بغداد وحّدث بها، أخذ عنه كثير من علمائها، مثل عبد الله بن محمد البغوي ويحيى بن صاعد، وأبو جعفر الطبري، وكتب عنه ابن أبي حاتم الرازي مع أبيه وثوقه الدارقطني الناقد الحديثي الكبير. وحين وفد هذا المحدث على الخليفة المعتز بسامراء سنة (٢٥٤هـ / ٨٦٨م)، «كتب عنه المعتز بخطه، ودقّق الكتاب» كما يقول خطيب بغداد (٢١).

وكان الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي المتوفى سنة (٤٦٣هـ / ١٠٧٠م)، إماماً في

الحديث «من الحفاظ المتقنين والعلماء المتبحرين» (٢٢)، وكان غير واحد من شيوخه مواصلة مبرزين في علم الحديث، سمع من بعضهم، وكتب عن آخرين، عند ورودهم بغداد مثل أبي بكر عبد القاهر بن محمد الموصلّي المتوفى سنة (٤٠٧هـ / ١٠١٦م)، كان من أحفاد ذهل ابن شيان، سكن بغداد وحّدث بها، فأخذ عنه الخطيب، مع من أخذ من طلاب الحديث، قال: «كتب عنه، وكان ثقة» (٢٣).

ومثله أبو طاهر محمد بن الحسين بن سعدون البزار الموصلّي المتوفى في القرن الرابع للهجرة - العاشر للميلاد - قال فيه الخطيب: «كتب عنه وكان صدوقاً» (٢٤).

وسمع من المعافى بن عمران الأردّي الموصلّي الزاهد غير واحد من كبار المحدثين المواصلة، ولما قدم بغداد وحّدث بها، روى عنه غير واحد من كبار محدّثيها، كعبد الله بن المبارك المتوفى سنة (١٨١هـ / ٧٩٧م)، وبشر بن الحارث الزاهد الكبير المعروف بالحافّي المتوفى سنة (٢٢٧هـ / ٨٤١م)، الذي كان يقصد دار المعافى للأخذ عنه (٢٥) وكان عبد الله بن المبارك كثير الإجلال للمعافى، فكان يلقبه بـ «الرجل الصالح» (٢٦).

٤ - الرحلة إلى الموصل طلباً للحديث :

وكثيراً ما كانت الرحال تشدّ إلى الموصل طلباً لسماع الحديث أو قراءته على أحد الأئمة هناك. وكثيراً ما يكون القصد لمحدّث واحد فذ شهر عرف بالإمامة، أو علو الاستاد، فضلاً عن العدالة كالصدق والتقوى وما إليها. فمن ذلك ورود أبي علي اسماعيل بن القاسم القالي اللغوي المعروف، المتوفى سنة (٣٥٤هـ / ٩٦٥م)، إلى الموصل طلباً لذلك. فقد «أقام بالموصل لسماع الحديث من أبي يعلى الموصلّي» (٢٧) المتوفى سنة (٣٠٧هـ /

٩١٩م). وكان قد ورد بغداد، ثم قصد الموصل لهذا القصد.

وكان مجد الدين أبو الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي الخطيب بالموصل المتوفى سنة (٥٧٨هـ / ١١٨٢م)، مشهوراً بالرواية، حتى إنه ليقتصد إليها من الآفاق، فأخذ عنه كثير من طالبي الحديث، ومنهم أبو المحاسن بن شداد الموصل المتوفى سنة (٦٣٢هـ / ١٢٣٤م)، الفقيه المحدث الكبير (٢٨).

٥- كثرة الحفظ والحفاظ :

امتاز كثير من محدثي الموصل بكثرة الحفظ، وتلك سجية ترفع من منزلة صاحبها بين أهل العلم. وقد شهد لكثير من المواصلة بذلك كبار المحدثين ونقاد الحديث. وإذا كثّر حفظ المحدث فبلغ القدر المتعارف عليه في اصطلاح أهل هذا العلم، سُمّي (حافظاً)، وتلك شهادة علمية يحملها المحدث، ويمنحها له الثقات والعارفون من العلماء.

ولقد عرفت الموصل في تاريخها الحديثي كثيراً من هؤلاء الحفاظ، الذين نالوا لقب (الحافظ) بجدارة، فمنهم على سبيل التمثيل محمد بن عمر بن محمد أبو بكر التميمي قاضي الموصل المعروف بأبن الجعابي المتوفى سنة (٣٦٥هـ / ٩٧٥م). قال عنه الخطيب (٢٩) البغدادي: «كان أحد الحفاظ الموجودين، صاحب أبا العباس بن عقدة، وعنه أخذ الحفظ». ثم روى الخطيب بسنده عن أبي علي المعدّل الحافظ أنه قال: «... ولا رأيت في اصحابنا أحفظ من أبي بكر بن الجعابي». ووصفه بأنه كان يحفظ حديثاً كثيراً، وأنه لما اختبره في أنواع الحديث حيرة حفظه! فكان أبو علي المعدّل يصفه بأنه «أستاذة على الحقيقة».

وما يدل على غزارة هذا الحافظ الكبير أبي بكر الجعابي، أنه لما ضاعت كتبه وأغتم لضياعتها

غلامه، قال: «يا بني لاتغتم فإن فيها متني ألف حديث لايشكل عليّ منها حديث، لاستنداً ولامتناً» (٣٠). ولستنا نستبعد ذلك فقد كان من أصحاب الحديث من يحفظ أكثر من ذلك بكثير، على نحو ما يروى عن الإمام البخاري المتوفى سنة (٢٥٦هـ / ٨٦٩م)، إذ روي أنه يحفظ ست مئة ألف حديث (٣١). بل إن الجعابي نفسه يروي عنه أنه كان يحفظ نحو ذلك.

ومن نال لقب (حافظ) يوسف بن أحمد أبو المحاسن الأسدي المشهور بالحافظ البغموري المتوفى في القرن السابع للهجرة - القرن الثالث عشر للميلاد. قال عنه اليونيني: «سمع الكثير بالموصل، ودمشق، ومصر، والاسكندرية، وغيرها عن جماعة من المشايخ، وحصل الأصول والفوائد... وكان عنده فهم وثيقظ... وجمع جموعاً مفيدة، وكتب بخطه الكثير. وكان كثير البحث والتتقير» (٣٢)...

ومن عرفوا بكثرة الحفظ عفيف بن سالم أبو عمرو الموصل (من علماء القرن الثالث للهجرة/ القرن التاسع للميلاد)، كان هذا المحدث رحالاً في طلب العلم، سمع من الإمام مالك بن أنس، وشعبة وقرّة بن خالد وأبي عوانة وغيرهم. وروى عن كافة المواصلة، ثم قدم بغداد وحديث بها، فروى عنه من أهلها كثيرون. وقد وثقه يحيى بن معين، وكذلك أبو داود، ووصف بكثرة الحفظ، حتى إن ابن عمار الموصل كان يراه أحفظ من المعافى ابن عمران (٣٣).

أما المعافى بن عمران هذا، فهو أبو مسعود الأزدي الموصل المتوفى سنة (١٨٤هـ / ٨٠٠م)، الذي سبقت الإشارة إليه في من أخذ عن كبار أهل العلم من المواصلة، فذكرنا هناك أنه أخذ عن سفيان الثوري ومالك بن أنس وآخرين كثيرين، كلهم أئمة في الحديث، ورواة كبار فيه. وهو الذي

قال عنه ابن عمار الموصلي : « لم أر قطُّ بعدُ أفضل منه » (٣٤).

٦- غلبة الزهد :

ويلحظ أن كثيراً من محدثي أهل الموصل كانوا زهاداً متعافين ، يقنعون من العيش بالقليل ، ويدّخرون مالههم من المال القليل ، لشراء ما يعرض لهم من كتب الحديث وأجزائه . فيذكر (٣٥) الذهبي أن علي بن مسعود الموصلي : « كان يجوع ويشترى الأجزاء ، ويتعفف ، ويقنع بكسرة ... مع التقوى والصلاح ».

وكذلك كان عبد الكريم بن منصور الموصلي الأثري المتوفى سنة (٦٥١هـ / ١٢٥٣م) ، إذ ورد إربل « وسمع الكثير من الحديث » ، قال ابن المستوفي (٣٦) : « ولم يُر مثله في انقطاعه وقناعته ، على ماعنده من ميسس الحاجة » . وبذلك شهد له أيضاً : المبارك بن أبي بكر بن حمدان الموصلي له (٣٧).

وكان عمر بن أيوب العبدي الموصلي المتوفى سنة (١٨٨هـ / ٨٠٣م) ، ممن عرف بالزهد والانصراف عن عرض الحياة الدنيا ، ولذلك وصفه ابن عمار الموصلي بأنه « أكثر الناس زهداً وفقراً ، وأكثرهم حياءً » . وكان قد وثقه أئمة الحديث كالامام أحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين والدارقطني (٣٨).

ووصف أبو علي الحسن بن سعيد الصفار الموصلي المتوفى سنة (٢٩٤هـ / ٩٠٦م) ، بأنه « كثير الكتاب ، وكان متعافياً » (٣٩) . فهذه من صفات الزهد أيضاً ؛ إذ التعفف يعني الإعراض عن كثير مما يقع فيه الناس ، من الجري وراء المال ، الذي قد يؤدي بهم الى ملاسة الباطل ، والتجافي عن العدل .

صفات المحدثين :

المعروف في علم الحديث أن الصفات التي يوصف بها المحدثون إما صفات تعديل ، وإما صفات تجريح ، أو بعبارة أخرى : إما صفات مدح وإما صفات ذم . فنشأ عن ذلك علم من علوم الحديث المهمة جداً هو (علم الجرح والتعديل) ، وهو علم يبحث عن الرواة من حيث ماورد في شأنهم مما يشينهم أو يركبهم بألفاظ مخصوصة (٤٠) . وهو كما قال الحاكم النيسابوري (٤١) في بيان مكانته من علم الحديث : « ثمة هذا العلم والمراقبة الكبيرة منه » وقد عني بهذا العلم كثير من القدامى ، فصنفوا فيه الكتب التي تبحث في الثقات فقط ، كالعجلي (ت ٣٦١هـ / ٩٧١م) ، أو في الضعفاء والمتروكين مثل كتاب البخاري ، وكتاب النسائي ، وكلاهما مطبوع .

ولم تعد الموصل وهي مدينة علم في الحديث أيضاً ، من صنف في هذا العلم ، بل نجد محمد بن الحسين الأزدي الموصلي البغدادي المتوفى سنة (٣٧٤هـ / ٩٨٤م) ، له كتاب في الجرح ، وصفه الذهبي بأنه « مصنف كبير في الضعفاء » ، ووصف مؤلفه الأزدي بأنه « قوي النفس في الجرح » ، وأنه « وهّاه جماعة بلا مستند » (٤٢) !

وحين نبحث في أحوال المحدثين المواصلة ، نجد أن صفات التعديل - أي المدح - هي الغالبة عليهم الى الحد الذي لا نجد وصفاً بالذم ، إلا لأفراد معدودين لا يجاوزون عدد الأصابع . ومن هذا العدد القليل من لا يكاد يسلم من التحامل ، والبعد عن المستند الذي أشار إليه الذهبي في كلامه الذي ذكرناه آنفاً ، وإن كان قد وقع - في مازي - بما عاب عليه غيره ! ، كما سئرى . بل لاستبعد أن يكون للتعصب المذهبي دخل في ذلك ، في تصورتنا .

وتشعرنا ألفاظ وعبارات القسم الأول من ألقاب المحدثين، وهو التعديل، بالمكانة الممتازة التي نالها محدثو الموصل في مختلف العصور، وخاصة القدامى منهم، محدثي القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة، إذ كانوا مناط ثناء جهابذة الحديث ونقاده من البغداديين والشاميين وغيرهم.

فأما عبارات وألفاظ الـدم، فع قللة الموصوفين بها من المحدثين، كما أشرنا، فإنها لاتهدم عدالتهم أو تنفيها نفيًا قويًا، كوصفهم مثلاً باللين، أو بكونهم ليسوا من أهل الحديث، وما إليها.

صفات الملح:

وهي ضربان: أحدهما يتعلق بالناحية العلمية للمحدث، إذ تدل على مدى تحصيله العلمي، ودرجته في سُلّم الحديث. والآخر يتعلق بعدالته، أي استقامته في الدين والمروءة. والأول يتعلق عموماً بألقاب المحدثين.

أ) وحين نبحث في الضرب الأول نجد ثمة ألقاباً ثلاثة رئيسة يوصف بها عدد من المحدثين، وهي: المسند، والمحدث، والحافظ.

١- المسند: وهو لقب لمن يروي الحديث بأسناده، سواء أكان عنده علم به أم ليس له إلا مجرد روايته^(٤٣). وقد وصف غير واحد من محدثي الموصل به، فكما وصف عدد من المحدثين مثلاً بأنه مسند العراق، أو مسند مصر، أو مسند الشام، وصف عدد من المواصله من أهل الحديث بأنه (مسند الموصل).

فمن وصف بأنه (مسند العراق) من الموصليين أحمد بن جعفر بن حمدان الحافظ المتوفى سنة (٩٧٨هـ / ٩٧٨م)، وقد روى عنه كبار المحدثين

ونقاد الحديث كالدارقطني وابن شاهين والحاكم النيسابوري.

ومن وصف بأنه (مسند الموصل) أبو الوليد طريف بن عبدالله مولى بني هاشم المتوفى سنة (٤٠٣هـ / ١٠١٢م)^(٤٤).

ومنهم سمار بن عمر أبو بكر المقرئ، المتوفى سنة (٦١٩هـ / ١٢٢٢م)، فقد وصف أيضاً بأنه «مسند الموصل»^(٤٥).

٢- المحدث: وهو أرفع من المسند، بحيث عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال، والعالي والنازل من الأسانيد، وحفظ جملة مستكثرة من المتون الحديثية، وسمع الكتب الستة، ومسند أحمد وكتب أخرى واجزاء.

وقد وصف بصفة (المحدث) كثير من الموصليين الذين غنوا بدراسة الحديث، وصفاً عاماً مقابلاً للقب (الفقيه) أو (المفسر) أو (المقرئ) ونحوها مما كان يلقب به المشتغلون بالدراسات الإسلامية. إلا أن الذي لا يشك فيه، هو أن كثيراً ممن لقب بالمحدث، أريد به من وصفنا آنفاً من أهل العلم، أي: أريد به اللقب العلمي.

ويمكن أن نجد ذلك مثلاً في ترجمة آبن نفيس الموصلي علي بن مسعود، فقد وصفه الذهبي^(٤٦) بأنه «الإمام الفقيه المحدث...». كان حنبلياً في فقهه، وقد توفى سنة (٧٠٤هـ / ١٣٠٤م)، كما وصف به علي بن حرب فقال عنه الذهبي^(٤٧) «المحدث الأبحاري».

ويطلق لقب (أصحاب الحديث) على أولئك الذين يعنون عناية كبيرة بدراسته، وحفظ متونه، وتقنيده، وتحقيق نصوصه، وما الى ذلك مما يدل على عناية وفضل. ويشعرنا بذلك ما دار بين اسحق ابن ابراهيم الموصلي المتوفى سنة (٧٣٥هـ / ٨٤٩م)، فقد كان برغم غلبة الغناء عليه مشتغلاً

وكان ابن عقدة أبو العباس من كبار الحفاظ ،
حتى إن الخطيب^(٥٤) يذكر أن الجعالي أخذ عنه
الحفظ .

وكان عفيف بن سالم أبو عمرو الموصلي من
الحفاظ أيضاً ، وقد شهد له بذلك البغداديون
الذين رويوا عنه ، فضلاً عن الموصلة . وقد تقدمت
الإشارة الى هؤلاء الحفاظ في كلامنا على الحفظ .

فهذه صفات مدح بها محدثون موصلة ،
بقولهم : مسند ، أو محدث ، أو حافظ . وهي
صفات - كما قدمنا - تتعلق بالناحية العلمية
للمحدث . فضلاً عن صفات علمية أخرى مثل :
(كثرة الكتابة) ، فانها ترد في سياق الثناء على
المحدث ، وهي صفة نالها كثير من أهل الحديث
الموصلة .

(ب) أما صفات المدح المتعلقة بالعدالة فهي
كثيرة ، أظهرها :

١- ثقة : وهي إحدى صفات المدح
العالية^(٥٥) ، وقد عدّها الخطيب البغدادي المتوفى
سنة (٤٦٣هـ / ١٠٧٠م) ، أعلى عبارات
التعديل^(٥٦) . وبها وصف كثير من المحدثين
الموصلة ، مثل علي بن إبراهيم السكوني الموصلي
المتوفى سنة (٣٧٣هـ / ٩٨٣م) ، الذي وصف بأنه
« كان ثقة »^(٥٧) ، كما وصف بذلك عمر بن أنس
أبو بكر الحداد الموصلي ، الذي سكن بغداد
وحديث بها ، وتوفي سنة (٣٦٣هـ / ٩٧٣م) ، وقد
روى عنه الخطيب البغدادي بالوساطة ، وحكى
تركيزه ابن أبي الفوارس له بقوله : « كان شيخاً
ثقة ، جميل الأمر »^(٥٨) . كما وصف بها إبراهيم بن
علي الموصلي المتوفى سنة (٣٠٦هـ / ٩١٨م) ، قال
عنه الدارقطني المتوفى سنة (٣٨٥هـ / ٩٩٥م) :
« إبراهيم بن علي العمري موصلي ثقة » ، كما ذكره
ابن إياس الأزدي في كتابه : (طبقات العلماء

بالحديث ، كاتباً له عن كبار المحدثين كسفيان بن
عيينة وهشيم بن بشر ومن في طبقتهم ، وحدث أن
كتب مرة عن سفيان بضعة أحاديث سماعاً منه ،
فلما أتم تدوينها اقترح على سفيان أن يقرأ عليه
ما كتبه للاستيثاق من صحته ودقة نقله ، فأعجب
ذلك ابن عيينة وقال له : « وددت أن سائر
أصحاب الحديث كانوا مثلك »^(٥٩) .

٣- الحفاظ : وهو أعلى درجة من المسند ومن
المحدث ، فن صفاته أن يكون ذا معرفة بسنن
رسول الله ﷺ ، بصيراً بطرقها ، مميزاً لأسانيدھا ،
مع حفظ ما أجمع العلماء على صحته ، ومعرفة
الفرق بين ألقاب المحدثين ، والتمييز بين الروايات
بتغاير العبارات ، مثل : عن فلان ، وأن فلاناً ، الى
صفات أخرى ينبغي أن يتسم بها^(٦٠) .

ويرى كثير من نقاد الحديث أن الذين يصح
وصفهم بـ (الحفاظ) قليلون ، في كل زمان
ومكان^(٦١) . وحين ينسب الى أحد الحفاظ
أحاديث كثيرة تعد بعشرات الألوف كتبها بيده ، أو
أملأها على غيره ، فهي غالباً مما حفظه عن ظهر
قلبه^(٦٢) . فكان الحاكم النيسابوري المتوفى سنة
(٤٥٥هـ / ١٠١٤م) ، يذكر أن الواحد من
الحفاظ يحفظ خمس مئة ألف حديث ، ويرى
غيره أن الحد الأدنى لا ينبغي أن يقل عن عشرين
ألف^(٦٣) .

وقد نال لقب (الحافظ) غير واحد من محدثي
الموصل ، فاشتهر به . فمنهم يوسف بن أحمد أبو
الحاسن الأسدي المشهور بـ (الحافظ البغموري)
الذي نوهنا به في حديثنا عن كثرة الحفظ . ومنهم
محمد بن عمر التميمي الجعالي قاضي الموصل ،
الذي تصوره بعض الأخبار بأنه كان يحفظ أربع مئة
ألف حديث أملاها من حفظه على إخوة أربعة لمدة
ستين^(٦٤) .

والحدثين من أهل الموصل^(٥٩) ، ووثقه .

٢- مستقيم الرواية : وبها وصف حمدان بن يحيى الشحام الموصل ، الذي سكن بغداد ، وحدث بها عن كبار من سمع منه ، قال الخطيب^(٦٠) : « وكان مكفوف البصر ، ورواياته مستقيمة » .

٣- لا بأس به : وهو لقب ينصرف لدى كثير من الحدثين الى قبول رواية المحدث ، وعدم ردّها أو تركها ، إلا أن هذا يعني أيضاً أن المحدث ليس بالمستوى المطلوب في مثله ، وإنما قصر عن قبله قليلاً^(٦١) . وهذا ماوصف به أبو جعفر محمد بن الحسن بن دينا الموصل المتوفى سنة (٣٧٣هـ / ٩٨٣م) ، الذي سكن بغداد ، وحدث بها . وقد روى الخطيب البغدادي^(٦٢) بسنده عن الدارقطني أنه قال فيه « لا بأس به ، وما علمت إلاخيراً » . فالعبارة تعني أنه ثقة مقبول عنده ، بدليل ما بعدها ، وهو : وما علمت إلاخيراً .

وكان يحيى بن معين إذا قال : « لا بأس به » فهو ثقة عنده . وعدّ ابن أبي حاتم الموصوف بهذه العبارة مقبول الرواية ، يكتب حديثه وينظر فيه^(٦٣) .

وهذا الفهم للعبارة يلائم دلالتها في العربية ويصدر عنها ، إذ هي تنفي البأس عن الشخص ، وهذا يعني نفي النقص والضرر . وقد تسالم الفقهاء على أن عبارة (لا بأس به) في الأمور التشريعية تعني الجواز وعدم الحرمة أو الكراهة ، فكذلك ينبغي أن تكون في الرواية ، وإلاخرجت عن مفهومها اللغوي والعرفي .

٤- مستور : وهو من عُرِفَ أنه عدل في ظاهره ، ولم يعرف منه ذلك في باطنه ، فهو يعدّ عدلاً أبداً حتى يتبين جرحه . وهذا لقب وصف به أيضاً علي ابن ابراهيم السكوني - الذي ذكرناه آنفاً - المتوفى

سنة (٣٧٣هـ / ٩٨٣م) ، فقد وصفه المحدثون بأنه « ثقة » - كما بيّنا - على حين زاد في وصفه أبو الحسين بن الفرات بأنه « ثقة مستور » . وهذا يعني أن توثيقه بني على ظاهر عدالته ، لا على باطن حاله ، وأيضاً زيد عليه وصف آخر هو أنه « جميل المذهب »^(٦٤) .

٥- صاحب سُنّة : وهو وصف ولقب لمن يُعني بالسنن من الحدثين ، وقد وصف به من المواصل المعافى بن عمران الازدي^(٦٥) المتوفى سنة (١٨٤هـ / ٨٠٠م) .

٦- ليس بالليّن : وهو - في مايدو - شبيه باللقب الذي ذكرناه آنفاً ، وهو (لا بأس به) ، إذ اللين ليس صفة محمودة في المحدث ، لأنه قرين الضعف ، أو شبهه . فإذا نفاه عنه ، فقال : (فلان ليس بالليّن) ، فقد نفى عنه الضعف . ولكنه مدح بالسلب ، وهو أقل قيمة من المدح بالإيجاب ، أي أقل من قوله مثلاً : فلان قوي ، أو ثبت ، أو ثقة .

وقد وَصَفَ بذلك عمر بن أيوب العبدى المتوفى سنة (١٨٨هـ / ٨٠٣م) ، الامام أحمد بن حنبل ، فقال : « عمر بن أيوب ، ليس بالليّن ، قدم علينا من الموصل »^(٦٦) .

وبما يعضد ما ذكرناه آنفاً ، من أن هذا الوصف لا يعني الضعف بحال ، هو أن غير الإمام احمد وثقوه صراحة ، كـيحيى بن معين ، والدارقطني^(٦٧) .

٧- الاشتهار بالخير : وهذا الوصف من أمارات عدالة الراوي والمحدث ، ولذلك قال ابن كثير^(٦٨) : « وثبتت عدالة الراوي باشتهاره بالخير والثناء الجميل عليه ، أو بتعديل الأئمة » .

فمن مدح بالاشتهار بالخير أبو بكر نجم الدين الموصل المتوفى سنة (٦٩٣هـ / ١٢٩٣م) ، نزيل

دمشق، فقد وصفه الذهبي^(١٩) بأنه «شيخ خيّر حسن السميت متين الدين»، وكذلك عفيف بن سالم الموصلي المتوفى في القرن الثالث للهجرة- التاسع للميلاد، إذ وصف بأنه «من خيار الناس»^(٢٠).

٨- **الصلاح**: وهي صفة تدل على عدالة المحدث. وقد وصف بها كثير من أهل الحديث الموصلة، مثل عبدالواحد بن محمد بن الشعار الموصلي، قال عنه معاصره ابن المستوفي المتوفى سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م)، «شيخ صالح حنبلي المذهب». ومثله أحمد بن إبراهيم بن خالد أبي علي الموصلي المتوفى سنة (٢٣٥هـ / ٨٤٩م)؛ الذي روى عن أئمة الحديث في عصره، وروى عنه أئمة أيضاً كأحمد بن حنبل ويحيى بن معين، والذي ترجم له محمد بن إياس الأزدي في كتابه (طبقات العلماء والمحدثين من أهل الموصل)، واصفاً إياه بأنه «ظاهر الصلاح والفضل»^(٢١). وكان ابن المبارك يلقب المعافي بن عمران بـ (الرجل الصالح)^(٢٢).

٩- **الورع والنسك والزهد**: وهي صفات لقب بها كثير من محدثي الموصل، إذ كان الزهد والتقشف- كما لاحظنا وذكرنا سالفاً- مهيمناً على حياة وسلوك طائفة كبيرة منهم. فكانت هذه الصفات إحدى فضائلهم التي وردت في الكتب التي ترجمت لهم، وكذلك الورع، الذي هو التقوى والتحرز من الحرام والمكروه من الأعمال. فمن وصف بالورع علي بن سعادة أبو الحسن الجهني الموصلي السراج المتوفى سنة (٥٢٩هـ / ١١٣٤). فقد قيل عنه إنه: «إمام، ورع، عامل بعلمه»^(٢٣). والعمل بالعلم من أعلى صفات المدح، وهو مما كان السلف يتواصى به.

ووصف أبو بكر النقاش المقرئ المفسر المحدث «بالإمامة في صناعته، مع ظهور نسكه وورعه، وصدق لهجته، وبراعة فهمه....»^(٢٤).

أما علي بن مسعود بن نفيس الموصلي الحنبلي المتوفى سنة (٧٠٤هـ / ١٣٠٤م)، فقد وصف بأنه «الإمام الفقيه المحدث الصالح الزاهد»، فكان من زهده وتقشفه، أنه «كان يجوع ويشترى الأجزاء- الحديثية- ويتعفف ويقنع بكسرة»^(٢٥).

فهذه أكثر الألقاب، التي لقب بها المحدثون الموصلة، دوراناً. وهي تتعلق- كما هو واضح- بألقاب المدح التي تتعلق بالعلم أو بالعدالة.

صفات الذم: وهي تلك الصفات المتعلقة بالجرح، وهي مع قلة الموصوفين بها كما قدمنا، تدور على ألقاب الكذب، والضعف، أو الضعف وترك الحديث، واللبن، وكونه ليس من أهل الحديث، أو ممن يورد المناكير، أو ممن يتساهل... وقد أشرنا سالفاً إلى أن طائفة من هذه الألقاب الدالة على التجريح، ليست حقيقية، بمعنى أنها لم تصدر كلها عن موضوعية، وإنما وراءها أسباب خاصة، في ما يدولنا، وذلك ظاهر جداً في إمام مجمع على فضله، وهو النقاش، الذي وصف بما يثلم أهليته في الحديث. ولننظر في هذه الصفات أو أكثرها، وهي:

١- **الكذب**: وهو لاشك مسقط لعدالة المحدث، ولو تاب، إن كان كذباً متعمداً، لدى كثير من أهل العلم. بل منهم من كفر متعمد الكذب في حديث النبي (ص)، بل منهم من أوجب قتله^(٢٦).

ويلحظ أن وصف محدثي الموصل بالكذب قليل جداً، بل نادر. فمن جرح بالكذب علي بن محمد أبو سعيد الموصلي، تزيل بغداد، مع أن عامة المحدثين ونقاد الحديث يوثقونه. إلا أن الذي وسمه بالكذب هو أبو نعيم الأصبهاني الحافظ المتوفى سنة (٤٣٠هـ / ١٠٣٩م)، الذي كان يتاجر بالحديث، فلا يحدث إلا بدفع مال^(٢٧)، مع أنه إمام حافظ ثقة^(٢٨). وقد قال عن أبي سعيد الموصلي هذا: «المسكين لا يحسن الكذب»^(٢٩).

فوصفه بالكذب المكشوف.

ومن الغريب حقاً أن يوصف الإمام محمد بن عمر المعروف بابن الحجاجي المتوفى سنة (٣٥٦هـ / ٩٦٦م)، بالكذب أيضاً، إذ تجنى عليه بذلك الحسين ابن أبي الفوارس بقوله: «إنه كان كذاباً»^(٨١)، مع إجماع أهل العلم على امامته وعدالته، ولا بد أن يكون لتشيعه علاقة بذلك، فقد قال الخطيب البغدادي^(٨٢):

«ومذهبه في التشيع معروف». كما ذكر ابن النديم أنه «كان من أفاضل الشيعة».

٢- ليس بمحبة.

٣- لم يكن ثقة.

٤- كان واهياً.

٥- فيه تساهل.

وهذه الألقاب الترجيحية وصف بها محدث موصلي واحد، ولكنها اجتمعت عليه من عدة مصادر، وهذا المحدث هو محمد بن النضر أبو الحسين النخاس الموصلي المتوفى سنة (٣٧٩هـ / ٩٨٩م)، فقد توالى على ترجمته اثنان: هما أبو بكر البرقاني، والعتيقي. فأما البرقاني فوصفه بالصفات الثلاث الأولى، وأما البرقاني فوصفه بالتساهل^(٨٤).

٦- رواية المناكير بأسانيد مشهورة.

٧- ضعيف.

٨- متروك الحديث.

٩- يأتي دائماً بالأعاجيب.

وهذه الصفات الأربع عُصبت بإمام كبير في القراءات والتفسير هو أبو بكر النقاش. وقد أشرنا إلى ذلك غير مرة. ولسنا ندري كيف تسوغ هذه الألقاب والنعوت، مع القول بجلال الرجل، والاجماع على ورعه وزهده ونسكه، كما تقدم ذلك؟! ومن العجيب أن يتولى ذلك محدث كبير كالذهبي فيسمه تارة بأنه «مع جلالاته في العلم ونبله، فهو ضعيف، متروك الحديث»^(٨٥)، ويسمه تارة أخرى بأنه «يأتي دائماً بالأعاجيب»!

أو يأتي بالعجائب والموضوعات»^(٨٦)، وكأنه يُتهم في هذا بالوضع بطريق غير مباشر، أو يرتضي في الأقل التحديث بها وإيرادها في مصنفاته، وخاصة تفسيره الذي قدمنا الحديث عن توهين أحاديثه في نظر البعض. وقد بينا سلفاً أن تهمة المناكير تلقفها كثيرون عن الخطيب البغدادي، من دون أن يشيروا ولو بمثال إلى ما ثبت دعواهم.

ومن وصف بالضعف طريف بن عبدالله أبو الوليد الموصلي المتوفى سنة (٣٠٤هـ / ٩١٦م)، إذ وصفه الدارقطني بذلك، ثم وصفه بصفة أخرى هي أنه: «لم يكن من أهل الحديث»^(٨٧). ولا شك أن لأهل الحديث هيئاتهم، وعلمهم، وسلوكهم، وطريقة تفكيرهم في الحياة، وتعاملهم مع المجتمع. فإذا لم يصب هذا الرجل منها هذه الصفات أو أغلبها في الأقل، فليس من الهين احتسابه من أهل الحديث. ولذلك رد الخليفة المأمون شخصاً ادعى أنه من أهل الحديث المقطعين، وكان بيده محبرة، فلما سأله عن جملة أحاديث لم يجبه عنها، وصار المأمون هو الذي يجيب، فأنكر عليه أنه من أصحاب الحديث، وأمر له بثلاثة دراهم فقط!، وصرفه.

١٠- التخليط: وهو عدم الدقة في الرواية، الأمر الذي يؤدي إلى خلل في رواية المتن والأسانيد. وهذا يحدث غالباً لدى المستن، أو الذين يعرض لهم عارض من مرض ونحوه. وبذلك وصف علي بن محمد بن سعيد المتوفى سنة (٣٥٩هـ / ٩٦٩م)، إذ روى الخطيب البغدادي بسنده عن أبي الحسين بن الفرات أنه «كان مخطئاً». على أن هذه الصفة لا تسقط العدالة، وإن كانت مسقطاً للرواية.

معاهد الحديث:

امتازت الموصل بوجود معاهد للحديث، يطلق

عليها إذ ذلك (دور الحديث). فكانت كلي دار من هذه الدور الحديثية معهداً علمياً عالياً، يؤمه الطلبة، ويسمع فيه العلماء، ويدرس فيه أئمة الحديث وجهابذته. وأشهر هذه الدور:

١- دار الحديث المهاجرة:

أنشأها أبو القاسم علي بن مهاجر الموصلي، ودرس فيها كبار أهل العلم، مثل موفق الدين البغدادى المتوفى سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م)، وأبو إسحق إبراهيم بن البرقي الواعظ الفقيه الحنبلي (٨٩) المتوفى سنة (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م)، الذي سمع الحديث في بغداد، ثم قدم الموصل، واتصل بأبي القاسم علي بن مهاجر الموصلي، فأناط به مشيخة دار الحديث المهاجرة. وبقي يحدث بها حتى وفاته (٩٠). كما درس بها أبو عبدالله محمد بن يوسف الكنجسي الشافعي المتوفى سنة (٦٥٨هـ / ١٢٥٨م)، الذي تصدر مشيخة هذه الدار سنة (٦٤٧هـ / ١٢٤٩م)، والذي كان يحضر مجلسه كبار الفقهاء وأهل الحديث (٩١).

٢- دار الحديث المظفرية:

أوقف هذه الدار بالموصل الملك مظفر الدين كوكبورى صاحب إربل المتوفى سنة (٥٦٣هـ / ١١٦٧م). وقد درس فيها وتصدر لمشيختها الحافظ عبدالقاهر الزهاوي المتوفى سنة (٦١٢هـ / ١٢١٥م)، وأبو عبدالله محمد بن عمر بن سعد المقدسي المتوفى سنة (٦١٦هـ / ١٢١٩م)، الذي سمع الحديث عن شيوخ بغداد وواسط وإربل، ثم سكن الموصل وتولى مشيخة دار الحديث المظفرية إلى حين تركه لها وسفره إلى دمشق (٩٢). كما درس فيها أبو رسلان مودود بن كسي رسلان المتوفى سنة (٦١٩هـ / ١٢٢٢م)، الذي تولى مشيخة هذه الدار، وبقي يحدث بها حتى توفي في الموصل. ومن تولى التدريس بدار الحديث المظفرية أبو عبدالله الحسين بن عمر الموصلي المتوفى سنة

(٦٢٢هـ / ١٢٢٥م)، الذي تصدر لمشيخة هذه الدار والتحديث بها. فأخذ عنه كثيرون منهم الضياء المقدسي والزكي البرزالي. وقد نال المنزري أبو محمد المتوفى سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، الاجازة منه، وكان قد كتبها إليه من الموصل في شهر ربيع الأول من سنة (٦٠٨هـ / ١٢١١م).

صور تحمل الحديث:

روي الحديث في الموصل بأكثر الطرق شيعياً في التحميل، وهي: السماع، والقراءة، والإجازة، والكتابة.

١- السماع: وهو من صور التحمل المشهورة الشائعة في الأمصار، وأعلاها لدى أهل العلم، وعليه دار أكثر الأخذ، وهو إما أن يكون من لفظ الشيخ حفظاً أو من كتاب، فيصح أن يقول السامع عندئذ: (حدثنا) أو (أخبرنا) أو (سمعت) (٩٣) ..

ولقد سمع كثير من علماء الموصل الحديث من جهابذته وأهل العلم به، وقد تقدم أن الإمام أحمد ابن حنبل مثلاً سمع منه غير واحد من قدامى الرواة العلماء من الحنابلة، كابراهيم بن أبان الموصلي، الذي كان يقول في روايته عنه: «سمعت أبا عبدالله...» (٩٥).

وكانت (كثرة السماع) صفة مميزة لكثير من محدثي الموصل، فقد وصف بها أبو الحسن الأسدي الحافظ اليعقوبي، قال اليونيني (٩٦): «سمع الكثير بالموصل ودمشق ومصر والإسكندرية وغيرها من جماعة من المشايخ وحصل الأصول والفوائد....».

وكان كثير منهم لا يكتفي بمجرد السماع، بل كان يشفعه بالكتابة، صوّماً لما سمع من النسيان أو الوهم. فكان أبو الفضائل محمد بن أحمد الموصلي المتوفى سنة (٤٩٤هـ / ١١٠٠م) قد تفقه على

الماوردي أبي الحسن البصري الشافعي المتوفى سنة (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م)، وعلى غيره من أهل العلم، وكان يجمع بين هاتين الصورتين، قال عنه الأستوي^(١٧): «سمع، وكتب الكثير بخطه، وحُدث».

ويقول ابن خلكان^(١٨) عن ابن الفقيه الموصلبي عبد الواحد بن ابراهيم المتوفى سنة (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م): «سمع من أبي الفضل ابن الطوسي حضوراً، وكتب».

ويقول الذهبي^(١٩) عن نجم الدين الموصلبي المتوفى سنة (٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م) إنه «سمع كثيراً ونسخ».

وكما سمع أهل الموصل سمعوا، وذلك بعد أن صاروا شيوخاً يؤخذ عنهم، فيرحلون إلى الأمصار تارة، وتشد إليهم الرحال تارة. فضلاً ارتحل ابن الخروف الموصلبي إلى بغداد، فأخذ عن كبار محدثيها، ثم قدم دمشق وأسمع كثيراً ممن فيها، قال الذهبي: «وسمنا منه، وأقرأ بالموصل»^(٢٠).

وسمع أبو عبد الله الحاكم النيسابوري من أحمد ابن سليمان الموصلبي، فأشار إلى ذلك بكتابه (معرفة علوم الحديث)، وذكر سماعه منه بصيغة (أخبرنا)، وهي إحدى صيغ السماع، واحتفظ لنا بسند عال ينتهي إلى رسول الله (ص). إذ تبين من هذا السند أن أحمد الموصلبي أخذ من علي بن حرب الطائي الموصلبي، الذي «سمع ابن عيينة» كما ذكر ذلك الذهبي^(٢١) في ترجمة الطائي، وأخذ ابن عيينة وهو سفيان الهلالي أبو محمد المتوفى سنة (١٩٠ هـ / ٨٠٥ م)، عن الإمام الزهري^(٢٢)، في من أخذ عنهم من أهل الحديث الأوائل. وهو مادل عليه سند هذه الرواية أيضاً، وروى الزهري عن الصحابي أنس بن مالك الذي روى الخبر عن النبي (ص). وهو: «إذا وضع العشاء وأقيمت الصلاة فابدأوا بالعشاء»^(٢٣).

وسمع أبو عبد الله الحاكم أيضاً من علم آخر من أعلام الحديث الموصلة هو أبو بكر محمد بن عمر

الجماعي الحافظ، وذكر ذلك في كتابه (معرفة علوم الحديث)^(٢٤).

غير أن أكثر السماع عن الجماعي أهمية في رأينا، هو سماع إمام كبير من أئمة الحديث والفقه لدى الشيعة الإمامية، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان العسكري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد المتوفى سنة (٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م)، في أماليه المعروفة بـ (أمالي الشيخ المفيد)، إذ تضمن هذا الكتاب (٥٧) رواية، سمعها المفيد من أبي بكر الجماعي سماعاً مباشراً، مما يشعرون بوضوح أنه كان من تلامذه هذا المحدث. وكان المفيد شيخ الإمامية في عصره، «فقيهاً متقدماً... له قريب من مئتي مصنف كبار وصغار» كما يقول تلميذه أبو جعفر محمد ابن الحسن الطوسي المتوفى سنة (٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م)، في فهرسه^(٢٥).

وتنتهي أسانيد المفيد عن شيخه الجماعي الموصلبي إلى النبي (ص)، وأهل البيت^(٢٦)، والصحابة^(٢٧)، والتابعين^(٢٨).

والجماعي شيعي نص على ذلك الخطيب البغدادي حين قال: «ومذهبه في التشيع معروف»^(٢٩). كما نص على ذلك ابن النديم حين وصفه بأنه «من فضلاء الشيعة». وهو إمام في الحديث، وأحد كبار الحفاظ، وحفظه كما صرح معاصروه، نادر في كثرته ودقته، وقد سُمع أنه كان يقول: «أحفظ أربع مئة ألف حديث». وروى الخطيب بسنده عن رفيق له في العلم أن الجماعي كان «يُحلى بمجلسه فتمتلئ السكة التي يحلى فيها والطريق، ويحضره ابن المظفر- الشهرزوري- والدراقطني. ولم يكن الجماعي يحلى الأحاديث كلها بطرقها إلا من حفظه»^(٣٠).

ويشعرون بتشيعه أيضاً ترجمة أبي جعفر محمد ابن الحسن الطوسي له في كتابه (فهرس كتب الشيعة)، إذ بين أنه «أحد الحفاظ والناقلين للحديث» وأن له كتباً في هذا العلم. ثم انبرى يذكر تلك الكتب. وبين أن الشيخ المفيد وابن عبدون

أخبراه عنه بلا واسطة بهذه الكتب^(١١٢). كما ذكره في فهرسه محمد بن علي بن شهر آشوب المازندراني^(١١٣) المتوفى سنة (٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م). ويشعرنا نص لياقوت الحموي في (معجم البلدان) أن هناك ثلاث فئات من المحدثين المواصل، أساسها الهجرة الى مدينة الموصل واستيطانها، ثم التحديث فيها. فكان الذين يطلبون الحديث يسمعون من هذه الفئات العلمية، وخاصة أبناء المدينة نفسها، فيذكر الحموي أن ابن اياس الأردني ذكر في كتابه (طبقات محدثي أهل الموصل) عبدالعزيز بن حيان بن جابر بن حريث الميعولي، ومعولة من الأزدي، وأن هذا المحدث «سمع من المواصل الكوفيين، والحرائيين، والجزيريين، وغيرهم»^(١١٤)....

وهكذا يتعدد السماع بتعدد الأمصار التي يفد منها العلماء ليستقروا في الموصل، إذ لاشك أن لكل مصر طابعه العلمي ومنهجه في دراسة الحديث ورجاله وأسانيده. وهذا كله لاشك كان له أثره في مناهج التحديث وأساليبه في هذه المدينة، كما كان له أثره في تلوين ثقافة طالب الحديث، لأنه يستقي من هذه المدارس الحديثية والروائية المتعددة. ولابد أنَّ للمدرسة البصرية مكاناً في الموصل، إذ لا يعقل أن يفد إليها كوفيون ولا يفد إليها بصريون. وأما بغداد فهي الرافد الأساس الذي كان يمد علم الحديث في الموصل، سواء برحيل مواصل إليها ثم عودتهم الى بلدهم علماء، أم بهجرة عدد من العلماء من بغداد واستيطانهم في هذه المدينة، مدرسين بدور الحديث وغيرها.

٢- القراءة: وهي كما ذكرنا عند الكلام على القراءات القرآنية، تعني: القراءة على الشيخ حفظاً أو من كتاب، وأن الرواية بها سائغة عند جمهور العلماء، إلا من لا يعتد بخلافهم، وهم قلة، وأن هناك من يرجحها على السماع. وقد ذهب جمع كثير من أهل العلم الى أن السماع من لفظ الشيخ والقراءة عليه سواء في الصحة^(١١٥) والقوة.

ومن برع في قراءة الحديث على الشيخ، علي ابن مسعود بن نفيس الموصلي ثم الحلبي المتوفى سنة (٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م)، فقد ارتحل الى حلب، ثم الى مصر، وحصل الحديث فيها بالسماع من مشاهير المحدثين، ثم زادت عنايته بالحديث، حتى صار همه تدريب الطلبة على قراءته، وتفسير ما يقرأون منه. وهذا ازدوجت الفائدة، وعم النفع، ومن هنا وصفه الذهبي بأنه «مفيد الطلبة»، وأنه «عني بالحديث، ودرب قراءته، وكانت مفسرة نافعة»^(١١٦).

ومن روى الحديث قراءة محمد بن علي بن الخروف الموصلي الحلبي المعروف بابن الوراق، الذي ارتحل الى بغداد في طلب العلم، فأخذ عن كبار محدثيها، وقرأ كتباً كباراً منها (جامع أبي عيسى علي بن العجمي)، ثم ذهب الى دمشق، وعاد منها الى الموصل ليقرئ الناس فيها، وليصل في علمه وإمامته منزلة يوصف فيها بأنه «الإمام الكبير بقية السلف»، وهذا وصف الذهبي له^(١١٧).

وربما قرأ طالب الحديث على الشيخ ما أملاه الشيخ عليه؛ استيثاقاً مما سمع منه وكتب، على نحو ما نرى في قراءة اسحق بن ابراهيم الموصلي ما أملاه عليه سفيان بن عيينة من أحاديث، حتى إنه نال ثناء هذا المحدث الكبير، متمنياً لو أن «أصحاب الحديث» كانوا كلهم مثله^(١١٨).

٣- الإجازة: وبعد السماع يحق للشيخ إجازة مروياته لمن يثق فيه، ويراه أهلاً لذلك. وقد أجاز أبو بكر بن عبد الرحمن نجم الدين الموصلي المتوفى في حدود سنة (٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م)، مروياته لشمس الدين الذهبي، قال: «أجاز لي مروياته، وكنت أسلم عليه وأجلس معه، ونشذكر الرويات»^(١١٩).

وقد يميز المحدث الموصلي شخصاً في غير بلده، يكتب إليه طالباً أن يميزه ببعض مروياته، كما أجاز أبو المظفر محمد بن علوان بن مهاجر الملقب بالشرف المتوفى سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م)، أجاز المندري

زكي الدين أبا محمد عبد العظيم بن عبد القوي المتوفى سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، بهذه الطريقة، قال: «وحدث بالموصل عن أبي عبد الله الحسين الموصلي المقرئ، ولنا منه إجازة كتب بها إلينا من الموصل في شهر ربيع الأول سنة ٦٠٨هـ (١٢٠)». وهذه إجازة عن طريق المكتبة وهي من صور التحمل (١٢١).

وروى بالإجازة عن عز الدين عبد الرزاق الرسعني الحنبلي المتوفى سنة (٦٦١هـ / ١٢٦٢م) «الامام الفقيه الحافظ» ثلاثة هم: أبو المعالي الأبرهوي، وأبو الحسن ابن البتندنجي الصوفي، وزينب بنت الكمال (١٢٢)، أي كمال الدين بن منعة.

ومن حكي له رأي في (الإجازة) وشروطها وصورها، القاضي أبو يعلى بن الفراء الحنبلي، والد صاحب (طبقات الحنابلة)، إذ كان يرى جواز الإجازة يقول القائل: «أجزت لمن يوجد من بني فلان»، نقل ذلك عنه الخطيب (١٢٣) البغدادي.

المصنفات في الحديث:

كثرت المصنفات الحديثية في الموصل كثرة تشعر بالناية الكبيرة به لدى أهل هذه المدينة، وتشعر بالقدرة العلمية العالية لعلماء الحديث فيها. وقد تنوعت تلك المصنفات، فمنها ما يتعلق بالحديث بعامة، ومنها ما يختص بالسنن والمسانيد، ومنها ما يتناول طبقات محدثي الموصل، أو غريب الحديث، أو الجمع بين الأحاديث التي تبدو في الظاهر متعارضة، ومنها شروح لكتب أومسانيد، كشرح مسند الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ومنها أحاديث بلدانية معدودة، من أمصار وشيوخ مختلfi الأمصار. وهناك من غني بالأجزاء الحديثية، أو صنف في (علل الحديث)، أو جمع بين كتب الحديث المشهورة، كالصحيح الستة، أو صنف في الأبواب، أو في فئة معينة من الرواة والمحدثين، كالوالي.. إلى ما هنالك من ألوان

التأليف، وتنوعاته، مما يدل على شمولية فيه، أدت دورها في رفد علم الحديث في الموصل، بكل ما يفيقه. وسيتبين ذلك كله إن شاء الله في ما هوأت من كلام.

القرن الثاني:

- صف المعافي بن عمران أبو مسعود الأزدي الموصلي المتوفى سنة (١٨٤هـ / ٨٠٠م)، كتباً في السنن، لا تعرف - للأسف - أسماءها، إذ لم يزد من نبّه على تأليفه على القول: «رحل في الحديث إلى البلدان النائية، وجالس العلماء، ولزم سفیان الثوري، ففقه به وتأدب بأدابه، وأكثر الكتاب عنه وعن غيره، فصنف كتباً في السنن والزهدي والأدب...» (١٢٤).

القرن الثالث:

- علي بن حرب أبو الحسن الطائفي الموصلي «المحدث الاخباري» المتوفى سنة (٢٦٥هـ / ٨٧٨م)، له كتاب: (المسند) (١٢٥).
- أحمد بن ابراهيم بن خالد أبو علي الموصلي المتوفى سنة (٢٣٥هـ / ٨٤٩م)، له: (طبقات العلماء من أهل الموصل) (١٢٦).
- أبو جعفر محمد بن عبد الله بن عمار الموصلي المتوفى سنة (٢٤٢هـ / ٨٥٦م)، له: (علل الحديث ومعركة الشيوخ) (١٢٧).

القرن الرابع:

- أحمد بن محمد بن المثنى أبو يعلى الموصلي المتوفى سنة (٣٠٧هـ / ٩١٩م)، له:
١- (معجم شيوخه). ويتضمن أسماء الشيوخ الذين روى عنهم.
٢- (مسند)، قرأه عليه محدثون مواصلة وغير مواصلة. وقرأه ابن شداد الأسدي المتوفى سنة ٦٣٢هـ علي فخر الدين الشهرزوري المتوفى سنة (٥٧٦هـ /

١١٨٠م). وله كتب أخرى في الحديث، لم نعر على اسمائها، ويبدو أنها أصيلة في موضوعات، وذات قيمة علمية عالية. بدلنا على هذا مؤاخذه ابن كثير لابن الصلاح صاحب المقدمة المشهورة في الحديث، لعدم ذكره أبا يعلى الموصلي مع من ذكرهم من مصنفين الحديث الكبار الأوائل، إذ كان ابن الصلاح قد ذكر أصحاب الصحاح الخمسة وحدهم^(١٢٨). فبين ابن كثير أن الحافظ أبا يعلى أحد القدامى الذين صنفوا كتباً في الحديث حري بها أن تذكر ويعرف بها^(١٢٩).

١- محمد بن إياس الموصلي (من علماء القرن الرابع للهجرة/ العاشر للميلاد)، له كتاب: (طبقات العلماء والمحدثين من أهل الموصل)^(١٣٠)، وذكره ياقوت^(١٣١) بأسم: (طبقات محدثي أهل الموصل)، والكتاب على أية حال مفقود، ولكن نقل عنه غير واحد من أهل العلم، وخاصة أصحاب الطبقات الذين تلوه. وممن رآه ونقل منه الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م)، وياقوت الحموي المتوفى سنة (٦٦٦هـ/ ١٢٧٨م)، في معجم البلدان.

٢- أبو بكر محمد بن عمر بن سالم الجعالي المتوفى سنة (٣٦٥هـ/ ٩٧٥م)، له عدة كتب ذكرها أبو جعفر الطوسي في فهرس كتب الشيعة^(١٣٢)، وذكر الأول منها ابن شهر آشوب في فهرس كتب الشيعة المسمى (معالم العلماء)^(١٣٣).

١- (تسمية من روى الحديث).

٢- (من كانت له صناعة ومذهب ونحلة).

٣- (الموالي من الرواة والعلماء)، والقصد من هذا النوع من التأليف بيان حقيقة نسب المحدث «فرمما نسب أحدهم إلى القبيلة، فيعتقد السامع أنه منهم صليبة، وإنما هو من مواليهم، فيميز ذلك ليعلم، وإن كان قد ورد

في الحديث: (مسولى القوم من أنفسهم)^(١٣٤). وقد بين الطوسي أن شيخة محمد بن محمد بن النعمان المفيد، وشيخة ابن عبدون أخبراه بهذه الكتب.

٤- روايات عن النبي (ص) والصحابة وأهل البيت والتابعين، رواها عنه بالسماع المباشر محمد بن محمد بن النعمان المكبري البغدادي، الملقب بالمفيد، شيخ الإمامية ورئيسهم في عصره، المتوفى سنة (٤١٣هـ/ ١٠٢٢م)، في كتابه (الأمالي)^(١٣٥). وقد أحصينا هذه الروايات فوجدناه (٥٧) رواية، في اثنين وأربعين مجلساً من مجالس التحديث التي حدثت بها المفيد عن شيخة الجعالي وعن شيخ آخرين وكان قد سمعها منه في بغداد. ولاشك أن لهذه الروايات قيمة علمية كبيرة، لأنها عالية السند- كما ذكرنا سالفاً- من جهة، ولأنها تعبر عن مكانة هذا المحدث العلمية، وتدل على مذهبه الفقهي. كما أنها تحتفظ لنا بجزء من تراث الموصل الحديثي المفقود. وقد هدتنا إشارتنا ابن التديم محمد بن اسحق والخطيب البغدادي إلى تشييعه، في الوصول إلى رواياته، إذ كانت (أمالي المفيد) إحدى المظان في ذلك، كما هدتنا إلى كتبه التي لم نجد لها ذكراً صريحاً في كتاب، فكان فهرس الطوسي وابن شهر آشوب من مظان وجودها، إذ وردت بأسمائها الصريحة.

١- محمد بن النضر بن محمد أبو الحسين النخاس الموصلي المتوفى سنة (٣٧٩هـ/ ٩٨٤م)، له: كتاب (معجم شيوخه). وهذا حظينا في هذا القرن- الرابع- بمجمعين عن محدثي الموصل، أحدهما كتاب ابن إياس الذي سبقت الإشارة إليه.

٢- محمد بن الحسن الأزدي الموصلي البغدادي المتوفى سنة (٣٧٤هـ/ ٩٨٤م)، له كتاب: (الضعفاء)، وصفه الذهبي بأنه كبير، وقال عن مصنفه الأزدي: «وهو قوي النفس في الجرح، وهما جماعة بلا مستند

عمه عائشة ابنة العباس بن محمد، وفخر النساء شهدة ابنة الآبري وغيرهن (١٣٩). وهذا يشعرنا أن في الموصل محدثات كان يؤخذ منهن، وأنهن لسن قليلات في ما يبدو. لأن الأنصاري إنما تهابت له فرصة سماع قريباته المحدثات في الأغلب، ولابد أن هناك غيرهن.

٣- عيون الأخبار: روى فيه أحاديث، نقد المنذري عليه طائفة منها لضعفها في رأيه (١٤٠).

القرن السابع:

- عبد القادر الرهاوي المتوفى (سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥ م)، له كتاب نادر أيضاً في الحديث على غرار كتاب أبي الحسن الأنصاري الشافعي، الذي ذكرناه آنفاً، جمع فيه (أربعين حديثاً متبينة الأسناد والبلاد) لا يتكرر فيها رجل واحد، من أولها إلى آخرها، مما سمعه في أربعين مدينة، وهو في مجلدين (١٤١).

وعلى هذا فإن محدثين قاما بهذا النوع من التصنيف الذي يتميز بالطرافة، ويحتاج إلى رحلة واسعة وبراعة. ويكون الرهاوي على هذا مسبقاً، وليس أول من قام به.

- عمر بن بدر أبو محمد الحنفي الموصلي المتوفى سنة (٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م)، ذكر ابن المستوفي أن (له تواليف)، غير أننا لانعلم عن هذه التاليف شيئاً. مع أن مؤلفها المذكور ممن عني بالحديث سماعاً وكتابة، وكان معيداً بمدرسة بني بلدجي في الموصل (١٤٢).

- عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الشيباني المعروف بإبن الأثير الجزري المتوفى سنة (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م)، سمع الحديث من أبي الفضل الطوسي ومن هم في طبقة في الموصل، ثم سمع في بغداد من كبار المحدثين كأبي القاسم بن صدقة وأبي أحمد الصوفي، ثم رحل إلى الشام والقدس وسمع هناك من

القرن الخامس:

- القاضي أبو الحسن علي بن الحسن المعروف بالخَلَمي الموصلي المتوفى سنة (٤٩٢ هـ / ١٠٩٨ م)، له: (الأجزاء الخَلَميات)، وهي عشرون جزءاً.

القرن السادس:

- أبو عمر بن جلدك الموصلي المتوفى سنة ٥٩٢ هـ، له في الحديث: (تعاليق كثيرة على كتب الحديث)، ذكر ذلك ابن المستوفي فقال: «علق التعاليق الكثيرة المفيدة، وضبط الأسماء المشككة. ورأيت من تقييداته بخطه ما يدل على إتقانه وحذقه». وكان قد وصفه بأنه «أحد من جد في جمع الحديث، وكتبه، ولقي رواته، ورحل فيه الرحلة الواسعة» (١٣٧).

- أبو الحسن علي بن محمد بن علي الأنصاري الشافعي المتوفى بأسبوط سنة (٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م)، له: أربعون حديثاً جمعها برحلاته العلمية الكثيرة، وجعلها كتاباً سماه: (أربعون حديثاً، عن أربعين شيخاً، في أربعين مدينة) (١٣٨)، ويعد من نوادر كتب الحديث؛ إذ هو وليد الرحلة الواسعة، والتفنن في التأليف.

٢- معجم النساء:

وهو من نوادر المعجمات العلمية، وقد ذكر مصنفه الأنصاري فيه أنه سمع بالموصل، بلده الذي ولد فيه ونشأ، من والده أبي الحسن علي، ومن علماء كبار آخرين كابن سعدون القرطبي والقاضي محمد بن أبي القاسم الشهرزوري وغيرهم. كما سمع في بغداد والبصرة وحمدان وحلب ودمشق وديماط وأسبوط وأسوان. وذكر أيضاً أنه سمع من عمته فاطمة بنت محمد بن محمد، وابنة

جماعة ، وعاد الى الموصل ليتفرغ للتأليف ، قال عنه ابن خلكان^(١٤٣) : «كان إماماً في حفظ الحديث ومعرفة ، وما يتعلق به » . وله كتاب (اللباب في تهذيب الأنساب) ، وهو اختصار لكتاب (الأنساب) لعبدالكريم بن محمد السمعاني المتوفى سنة (٥٦٢هـ / ١١٦٦م) ، «استدرك عليه فيه ، ونبه على أغلاط ، وزاد أشياء أهملها - السمعاني - وهو كتاب مفيد جداً» كما وصفه ابن خلكان^(١٤٤) ، ولكن المتداول بين الناس منه المختصر الذي هو في ثلاث مجلدات ، على حين أن الأصل في ثمان ، قال عنه ابن خلكان^(١٤٥) : «وهو عزيز الوجود ، ولم أره سوى مرة واحدة بمدينة حلب ، ولم يصل الى الديار المصرية سوى المختصر المذكور» .

وقد أمدّه بمادة هذا الكتاب علمه الواسع بالتاريخ - وقد ألف فيه كتابه (الكامل) - وبالأنسب وغيرها ؛ إذ كان ، كما وصفه ابن خلكان^(١٤٦) أيضاً : «خبيراً بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم ...» .

- ضياء الدين محمد بن محمد بن عبدالكريم الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري المتوفى سنة (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) ، ولد بالجزيرة وانتقل مع والده الى الموصل ، وبها حصل العلوم ، فحفظ القرآن الكريم وكثيراً من الأحاديث النبوية وطرفاً من علوم العربية ، وبعد اكتمال قدرته العلمية صنف الكتب القيمة المفيدة وهي كما قال ابن خلكان «دالة على غزارة فضله وتحقيق نبذه»^(١٤٧) . وقد تمخض عن حبه لكتابة الحديث وحفظه ومدارسته كتاب سماه :

(المجرد من الأخبار النبوية) ذكره في كتابه الشهير (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) ، يبين فيه أنه كان قد جرد من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف

خبر ، كلها تدخل في الاستعمال ، ويبين أنه كان مواظباً على مطالعته مدة عشر سنين ، مرة في كل أسبوع ، حتى تم له حفظه . ويبين أن ما أورده في كتابه (المثل السائر) هو من ذلك الكتاب^(١٤٨) .

- المبارك بن محمد بن عبدالكريم مجد الدين ابن الأثير الجزري المتوفى سنة (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م) ، ذكره ابن خلكان - وكان معاصراً له ولأخويه المذكورين آنفاً - مبيناً فضله وعلمه ، وتصانيفه ونبذة من حياته ، ونقل عن ابن المستوفي أنه «سمع الحديث متأخراً ، ولم تقدم روايته»^(١٤٩) ، كما نوه به المنذري ، مبيناً أنه سمع في الموصل من يحيى ابن سعدون القرطبي ومن خطيب الموصل الطوسي ، وسمع في بغداد ، وروى عنه ولده والشهاب القوسي وجماعة ، وآخر من روى عنه بالإجازة فخرالدين الموصل ، ثم ذكر تصانيفه^(١٥٠) ، وهي دالة على فضله وعلمه .

وللمبارك الجزري عدة مصنفات في الحديث ، منها ما يتعلق بالتون وشرحها ، ومنها ما يتعلق بالطبقات ، ومنها ما يعني بالغريب . وهي في مجملتها تؤولف تراثاً حضارياً قيماً :

١- (أسد الغابة في معرفة الصحابة) ، وهو يعني بأسماء الصحابة الذين روي عنهم الحديث ، فهو مما يتعلق بـ (علم رجال الحديث) ، وهو العلم الذي يعرف به رواة الحديث من حيث إنهم رواة للحديث^(١٥١) . غير أنه - كما لاحظ دارسه - خلط بهم غير^(١٥٢) الصحابة ، وكأن كتاب ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م) ، جاء لتفادي هذا الأمر ، ولذلك سمّاه : (الإصابة في تمييز الصحابة) .

٢- (منال الطالب في شرح الغرائب) : وهو في

شرح الأحاديث المطولات ، وقد أشار إليه غير واحد ممن ترجم له باسم (شرح غريب الطوال) (١٥٣) .

٣- (الشافعي في شرح مسند الشافعي) ، وهو شرح لمسند الامام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤هـ / ٨١٩م) ، صاحب المذهب المعروف . وقد أبدع- كما ذكر ياقوت - في تصنيفه ، وهو في نحو مئة كراسة ذكر فيه أحكامه ولغته ونحوه ومعانيه (١٥٤) .

٤- (المعجم الأوسط) .

٥- (الجواهر اللآلئ) .

٦- (جامع الأصول في أحاديث الرسول) : وهو الكتاب القيم الذي جمع فيه مجد الدين بن الأثير الصحاح الستة ويقع في عشرة أجزاء ، وقد بناه على كتاب رُزين ، متفادياً ما فيه من نقص في المنهج والمادة ، كإبداع أحاديث في غير أبوابها ، أو عدم ذكر الأحاديث أصلاً ، إما إيجازاً ، أو لغرض وقع له ، فضلاً عن أن في ذلك الكتاب أحاديث لم يجدها في الكتب الستة التي قرأها وسمعها ونقل منها . ولذلك عمد الى تهذيب الكتاب بما يسد هذا الخلل فيه ، مع اعترافه بأن كتاب (رُزين) أعم الكتب التي اختصرت كتب الحديث ، وأكثرها فائدة ، وقد عمد أيضاً الى حذف الأسانيد ، إذ لا حاجة لها بعد أن كفانا من الحاجة إليها الأولون بإثباتهم صحة تلك الأحاديث أو حسنها . وبين أنه اعتمد على مصادر متنوعة ، في بيان أصول الأحاديث وأحكامها ، وشرح أقوال الفقهاء وأئمة الحديث ، وذكر مذاهبهم واصطلاحاتهم .

ورتب مادة الكتاب حسب حروف الهجاء مبتدئاً بالهمزة ، وراعى أيضاً في ترتيبه

(الأبواب) أو كما سماها (الكتب) ، وجعلها عشرة ، أولها : في الإيمان والاسلام ، مورداً في كل كتاب ما يتعلق به من أحاديث (١٥٥) .

٧- (النهاية في غريب الحديث) : وهو الكتاب الذي وصفه ابن حجر العسقلاني بأنه أسهل كتب الغريب تناولاً ، وأنه جمع جميع كتب الغريب التي تقدمته (١٥٦) . وكان كتاب أبي عبد القاسم بن سلام المتوفى سنة (٢٢٤هـ / ٧٣٨م) أول كتاب في غريب الحديث نال ثناء أهل العلم من معاصريه كيجي بن معين ويزيد بن هارون وغيرهما ، ثم صنف ابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة (٢٧٦هـ / ٨٨٩م) . كتاباً ، وتلاه أبو عبيد الهروي أحمد بن محمد بن عبد الرحمن المتوفى سنة (٤٠١هـ / ١٠١٠م) في كتابه الذي جمع فيه : غريب القرآن وغريب الحديث وسماه : (الغريبين) ، وبعده وضع الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨هـ / ١١٤٣م) كتابه (الفاثق في غريب الحديث) . فقال الاستحسان «ثم جمع الجميع ابن الأثير في النهاية» ، فكان بحق زبدة تلك المصنفات وخلاصتها ، غير أن ابن حجر العسقلاني ، برغم استحسانه له ، يرى أن فيه إغوازاً قليلاً (١٥٧) . وقد ذُبل الأرموي كتاب النهاية هذا ، واختصره جلال الدين السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ / ١٥٠٥م) ، في كتابه (الدر النثير تلخيص نهاية ابن الأثير) (١٥٨) .

وقد تبين لنا من مقدمة (النهاية) أن الدافع لتأليفه هو إيجاد كتاب في غريب الحديث ، يسهل على من يطلب هذا العلم الرجوع إليه ، ولا يجد مشقة في العثور على اللفظة التي يريد معرفة معناها . ولذلك عمد ابن الأثير الى كتابي الحافظ أبي موسى المدني الأصفهاني ، وأبي عبيد أحمد الهروي ،

فجمع ما فيها من غريب الحديث ، مجرداً
كتاب أبي عبيد من غريب القرآن ، مع
إضافة ألفاظ أخرى لم ترد فيها مستقاة من
عيون كتب الحديث .

القرن الثامن :

- محمد بن محمد الموصلي الشافعي ، كان حياً
سنة (٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م) له : (لوامع
الأنوار في نظم غريب الموطأ ومسلم) ، وهو في
غريب الحديث في هذين الكتابين .
- علي بن محمد الموصلي الشافعي المعروف بابن
الدرهم المتوفى سنة (٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م) ،
له كتاب :

(نقح الجدوى في الجمع بين أحاديث (١٥٩)
العدوى) ، والكتاب يوفق بين أحاديث
العدوى التي تبدو في ظاهرها متضادة ، فهو
يتعلق بعلم (مختلف الحديث) .

- أبو الحسن علي بن مسعود بن نفيس الموصلي
المتوفى سنة (٧٧٤ هـ) نصف جزء سمعه من
أبي القاسم بن رواحة ، ظهر هذا الجزء بعد
وفاته . وكان ابن نفيس من شيوخ الذهبي ،
وقد أثني عليه كثيراً ، فلقبه بأنه « الشيخ
الامام المحدث مفيد الجماعة » (١٦٠) .

الهوامش

- (١) ابن الجزري : جامع الأصول من أحاديث الرسول (ص) ، ط
١ ، القاهرة ١٣٦٨ هـ - ١٩٤٩ م ١ / ١٤ .
- (٢) الذهبي : المعجم المختص بالحدثين ، تحقيق محمد الحبيب -
ط ، الطائف ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .
- (٣) المصدر نفسه ص ١٧٦ - ١٧٧ .
- (٤) البيهقي : ذيل مرآة الزمان ، ط ١ ، حيدرآباد الدكن ، الهند
١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م ٣ / ١٠٦ .
- (٥) تاريخ إربل ١ / ١٨٢ .
- (٦) تاريخ بغداد ٢ / ٤٦ .
- (٧) تاريخ بغداد ١٢ / ٣٤٦ .

- (٨) وفيات الأعيان ١ / ٣٢٧ .
- (٩) الطوسي : الرجال ، تحقيق بحر العلوم ، ط ١ ، المطبعة
الحيدرية - النجف ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م ص ٢٨٢ .
- (١٠) القيد : أمالي الشيخ المفيد ، ط ٣ ، المطبعة الحيدرية - النجف
١٣٨١ هـ - ١٩٦٢ م ص ١٨٩ - ١٩٠ .
- (١١) أبو يعلى القراء : طبقات الحنابلة . مطبعة السنة المحمدية -
القاهرة ١ / ٩٣ .
- (١٢) طبقات الحنابلة ١ / ٤٢٢ - ٤٢٣ .
- (١٣) الشريف الرضي : المجازات النبوية ، بتحقيق الزيني ، مطبعة
الفضالة الجديدة - القاهرة ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م ص ٢٤١ .
- (١٤) ينظر الحاكم : معرفة علوم الحديث ص ٢٥٠ .
- (١٥) تاريخ بغداد ١٢ / ٣١٢ - ٣١٣ .
- (١٦) تاريخ بغداد ١١ / ٤١٨ .
- (١٧) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٢٨ .
- (١٨) طبقات الشافعية الكبرى ٧ / ٦٥ .
- (١٩) الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ط ١ ، دار إحياء التراث ١ / ١٤٥٧ .
- (٢٠) تاريخ بغداد ١١ / ١٨٦ .
- (٢١) تاريخ بغداد ١١ / ٤١٩ .
- (٢٢) وفيات الأعيان ١ / ٩٢ .
- (٢٣) تاريخ بغداد ١١ / ١٣٩ - ١٤٠ .
- (٢٤) تاريخ بغداد ٢ / ٢٥٥ .
- (٢٥) وفيات الأعيان ١ / ٢٧٥ . وتاريخ بغداد ١٣ / ٢٢٩ .
- (٢٦) تاريخ بغداد : المكان نفسه .
- (٢٧) وفيات الأعيان ١ / ٢٢٧ .
- (٢٨) وفيات الأعيان ٧ / ٨٥ .
- (٢٩) و (٣٠) تاريخ بغداد ٣ / ٢٧ .
- (٣١) الداودي : طبقات المصنفين ٢ / ١٠٤ .
- (٣٢) ذيل مرآة الزمان ٣ / ١٠٦ .
- (٣٣) تاريخ بغداد ١٢ / ٣١٢ - ٣١٣ .
- (٣٤) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٢٨ .
- (٣٥) المعجم المختص بالحدثين ص ١٧٦ .
- (٣٦) و (٣٧) تاريخ إربل ١ / ٤٤٨ - ٤٤٩ .
- (٣٨) تاريخ بغداد ١١ / ١٨٦ .
- (٣٩) تاريخ بغداد ٨ / ٨٧ - ٨٨ .
- (٤٠) علوم الحديث ومصطلحه ص ١٠٩ .
- (٤١) معرفة علوم الحديث ص ٥٢ .
- (٤٢) حطشان الدوري : علوم الحديث الشريف ، ضمن كتاب :
حضارة العراق ٧ / ١١١ .
- (٤٣) علوم الحديث ومصطلحه ص ٧٥ .
- (٤٤) تذكرة الحفاظ ٣ / ٨٨٩ .
- (٤٥) تذكرة الحفاظ ٤ / ١٤٠٣ .
- (٤٦) المعجم المختص بالحدثين ص ١٧٧ . وهي في تذكرة الحفاظ
١٥٠٠ / ٤ .
- (٤٧) العيتر ٢ / ٣٠ .

- (٩٢) نفسه ص ١٥٩ .
- (٩٣) المنذري: التكلفة لوفيات الفعلة ، تحقيق بشار عواد ، النجف ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م . ٤ / ٣٠٩ - ٣١٠ . وعبدالجبار: الحياة العلمية في الموصل ص ١٦٠ .
- (٩٤) الباعث الحديث ص ٥٧ .
- (٩٥) طبقات الحنابلة ١ / ٩٣ .
- (٩٦) ذيل مرآة الزمان ٣ / ١٠٦ .
- (٩٧) طبقات الشافعية ، تحقيق عبدالله الجبوري ، بغداد ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ م ٢ / ٤١٧ .
- (٩٨) وفيات الأعيان ١ / ٤١٣ .
- (٩٩) المعجم المختص بالهديثين ص ٣٠٦ .
- (١٠٠) المعجم المختص بالهديثين ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .
- (١٠١) العبر ٢ / ٣٠ .
- (١٠٢) ينظر: وفيات الأعيان ٢ / ٣٩١ .
- (١٠٣) الحاكم: معرفة علوم الحديث ص ١٢٩ .
- (١٠٤) ص ١٥٤ .
- (١٠٥) الطوسي: الفهرس ، تصحيح بحر العلوم ، ط ٢ ، النجف ١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م ص ١٨٦ .
- (١٠٦) يُنظر مثلاً ص ١٥ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٥ ، ٢٩ ، ٣١ .
- (١٠٧) ينظر مثلاً ص ٢٠ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩ ، ٣٢ ، وهي عن عبد الباقر وجعفر الصادق وعلي بن الحسين ، وزينب بنت علي بن ابي طالب ...
- (١٠٨) كما في ص ٣٨ ، ٣٩ .
- (١٠٩) كما في ص ٢٣ .
- (١١٠) و (١١١) تاريخ بغداد ٣ / ٢٨ .
- (١١٢) الطوسي: الفهرس ، ص ١٧٨ .
- (١١٣) معالم العلماء ص ١٠٧ . كما ذكر ابن النديم في الفهرس أنه من فضلاء الشيعة .
- (١١٤) معجم البلدان ٥ / ٢٢٥ .
- (١١٥) الباعث الحديث ص ٣٥ .
- (١١٦) المعجم المختص بالهديثين ص ١٧٦ .
- (١١٧) نفسه ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .
- (١١٨) تاريخ بغداد ٦ / ٣٣٨ .
- (١١٩) المعجم المختص بالهديثين ص ٣٠٦ .
- (١٢٠) المنذري: التكلفة ٤ / ٣٠٩ - ٣١٠ .
- (١٢١) الباعث الحديث ص ٦٦ - ٦٧ .
- (١٢٢) طبقات المفسرين ، تحقيق علي محمد علي ، مطبعة الاندلس الكبرى - القاهرة ١٩٢٢ هـ - ١٩٧٢ م ١ / ٢٩٥ .
- (١٢٣) الباعث الحديث ص ٦٤ .
- (١٢٤) تاريخ بغداد ٣ / ٢٢٩ .
- (١٢٥) تاريخ بغداد ١١ / ٤١٩ ، والعبر ٢ / ٣٠ .
- (١٢٦) تاريخ بغداد ٤ / ٦٥ - ٦٠ .
- (١٢٧) قحطان الدوي: علوم الحديث الشريف ، بحث في كتاب: حضارة العراق ٧ / ١٢٧ .
- (١٢٨) الباعث الحديث ص ١٣٤ - ١٣٥ .
- (١٢٩) الباعث الحديث ص ١٣٦ .
- (٤٨) تاريخ بغداد ٦ / ٣٣٨ .
- (٤٩) علوم الحديث ومصطلحه ص ٧٦ .
- (٥٠) و (٥١) المصدر نفسه ٧٦ و ٧٨ .
- (٥٢) علوم الحديث ومصطلحه ص ٧٩ .
- (٥٣) نفسه ص ٧٧ .
- (٥٤) تاريخ بغداد ٣ / ٢٦ .
- (٥٥) معرفة علوم الحديث ص ٥١ .
- (٥٦) نفسه ص ٥٢ .
- (٥٧) تاريخ بغداد ١١ / ٣٤١ .
- (٥٨) تاريخ بغداد ١١ / ٢٥٣ .
- (٥٩) تاريخ بغداد ٦ / ١٣٣ .
- (٦٠) تاريخ بغداد ٧ / ٢١٢ .
- (٦١) علوم الحديث ومصطلحه ص ١٣٧ .
- (٦٢) تاريخ بغداد ٢ / ١٩٢ .
- (٦٣) الباعث الحديث ص ٥٥ .
- (٦٤) تاريخ بغداد ١١ / ٣٤١ .
- (٦٥) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٢١ .
- (٦٦) و (٦٧) تاريخ بغداد ١١ / ١٨٦ .
- (٦٨) الباعث الحديث ص ٤٥ .
- (٦٩) المعجم المختص بالهديثين ص ٣٠٦ .
- (٧٠) تاريخ بغداد ١٢ / ٣١٣ .
- (٧١) تاريخ إيرل ١ / ٢٩٨ .
- (٧٢) تاريخ بغداد ٤ - ٥ - ٦ .
- (٧٣) تاريخ بغداد ١٣ / ٢٢٨ .
- (٧٤) طبقات الشافعية الكبرى ٧ / ٢٢٤ .
- (٧٥) غاية النهاية ٢ / ١٢٠ .
- (٧٦) المعجم المختص بالهديثين ص ١٧٦ .
- (٧٧) الباعث الحديث ص ٥٠ .
- (٧٨) علوم الحديث ومصطلحه ص ٦٣ .
- (٧٩) تذكرة الحفاظ ١ / ٣٧٢ .
- (٨٠) تاريخ بغداد ١٢ / ٨٢ - ٨٣ .
- (٨١) تاريخ بغداد ٣ / ٣٢ .
- (٨٢) تاريخ بغداد ٣ / ٢٦ .
- (٨٣) الفهرس ، داء المعرفة - بيروت ١٣٩٨ هـ - ١٩٤٨ م ، ص ٢٧٩ .
- (٨٤) تاريخ بغداد ٣ / ٣٢٦ .
- (٨٥) معرفة القراء الكبار ٢ / ٢٩٢ - ٢٩٣ .
- (٨٦) نفسه ١ / ٢٣٨ .
- (٨٧) تاريخ بغداد ٩ / ٣٦٥ - ٣٦٤ .
- (٨٨) تاريخ بغداد ١٢ / ٨٣ .
- (٨٩) ابن الشعار: عقود الحان في شعراء هذا الزمان ، مخطوط مصور عن مكتبة أسعد أفندي في استانبول برقم ٢٣٢٣ - ٢٣٣٠ ، ج ١ و ٢ .
- (٩٠) عبدالجبار حامد: الحياة العلمية في الموصل في عهد الأتابكة ص ١٥٦ .
- (٩١) نفسه ص ١٥٨ .

- (١٣٠) تاريخ بغداد ٦ / ١٣٢ .
 (١٣١) معجم البلدان ٥ / ٢٢٥ .
 (١٣٢) ص ١٧٨ .
 (١٣٣) ص ١٠٧ .
 (١٣٤) الباحث الحديث ١٤٠ .
 (١٣٥) طبع الكتاب في العراق عدة طبعات ، آخرها الثالثة في النجف سنة ١٩٦٢م - ١٣٨١هـ .
 (١٣٦) قحطان الدوري : علوم الحديث الشريف ، ضمن كتاب حضارة العراق ٧ / ١١١ فرق .
 (١٣٧) تاريخ إربل ١ / ١٨٢ .
 (١٣٨) و (١٣٩) التكملة ٣ / ١٦ - ١٨ .
 (١٤٠) التكملة ٣ / ١٨ .
 (١٤١) التكملة ٣ / ١٨ .
 (١٤٢) التكملة ٤ / ١٦٣ ، وعبدالجبار حامد : الحياة العلمية في الموصل في العهد الأتابكي ص ٢٣٨ .
 (١٤٣) وفيات الأعيان ٣ / ٣٤٨ .
 (١٤٤) و (١٤٥) وفيات الأعيان ٣ / ٣٤٨ - ٣٤٩ .
 (١٤٦) وفيات الأعيان ٣ / ٣٤٨ .
 (١٤٧) وفيات الأعيان ٥ / ٣٩١ .
 (١٤٨) التل السائر تحقيق الحوفي وطبابة ، ط ١ ، القاهرة ١٩٥٩م .
 ١ / ١٩١ . وينظر : رسائل ابن الأثير ، تحقيق نوري القيسي وعلال ناجي ص ٤٨ .
 (١٤٩) وفيات الأعيان ٤ / ١٤١ .
 (١٥٠) التكملة ٨ / ٣٦٦ - ٦٦٧ .
 (١٥١) و (١٥٢) علوم الحديث مصطلحه ص ١١٠ - ١١١ .
 (١٥٣) التكملة ٨ / ٦٦٧ .
 (١٥٤) معجم الأدباء : نشر مرجليوث ، دار المشرق - بيروت . ١٧ / ٧٦ ، وينظر : الحياة العلمية في الموصل ص ٢٣٦ .
 (١٥٥) ابن الأثير : جامع الأصول ط ١ ، مطبعة السنة المحمدية - القاهرة ١٩٤٩م . ١ / ١٧ - ٣٣ .
 (١٥٦) ابن حجر : شرح نغمة الفكر ص ٢٣ .
 (١٥٧) شرح نغمة الفكر ص ٢٣ .
 (١٥٨) علوم الحديث ومصطلحه ص ١١٣ .
 (١٥٩) قحطان الدوري ، علوم الحديث الشريف ، ضمن كتاب حضارة العراق ١١ / ٦٦ .
 (١٦٠) تلذذة الحفاظ ٤ / ١٥٠٠ .

(٣)

عُلُومُ الْفِقْهِ

أ.د. كاسد ياسر الزبيدي

المعاصرون اسم (الفقه / المقارن) ويطلق عليه القدامى اسم (خلاف الفقهاء) ، وقد يوجزونه بلفظة (الخلاف) فحسب . كما أن مادة الفقه تضمنت في دراستها (أصول الفقه) . فكان كثير من الفقهاء يعنون بالخلاف ، كما أن كثيراً منهم كانوا أصوليين . وخير من يضرب مثلاً لذلك العالم النابه عبدالله بن أبي عصرون التميمي الموصلية الفقيه الشافعي المتوفى سنة (٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م) ، الذي وصفه ابن خلكان^(١) بأنه «من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره ، ومن سار ذكره وانتشر أمره» ، وأنه «أخذ الأصول عن أبي الفتح ابن برهان الأصولي ، وقرأ الخلاف» . كما وصفه السبكي^(٢) بأنه «كان من أعيان الأمة وأعلامها ، عارفاً بالذهب ، والأصول ، والخلاف» . فدل

تعد مدينة الموصل إحدى مواطن الفقه في العالم الإسلامي القديم ، وقد هيا لها ذلك موقعها الجغرافي الذي أشرنا إليه في أول هذه الدراسات الإسلامية ، كما أن ازدهار الدراسات القرآنية ، وخاصة القراءات والتفسير ، وازدهار الدراسات الحديثية ، كان لها جميعاً أثر لا يخفى في ازدهار الدراسات الفقهية لتعلق بعضها ببعض . وإذا بحثنا في خصائص وميزات الدراسات الفقهية في الموصل ، ألفيناهما تتسم بالآتي :

تنوع المادة الفقهية :

تنوعت المادة العلمية في الفقه في الموصل ، ما بين دراسة الفقه دراسة عامة ، أو دراسة خصوص الخلاف فيه ، وهو الذي يطلق عليه

بهذا الوصف على أن هذا الامام الفقيه كان متمكناً من مواد الفقه الاسلامي الثلاثة التي قل أن تجتمع لأحد، وهي الفقه، وهنا حدده بالفقه الشافعي حين قال «بالمذهب»، وأصول الفقه، والخلاف في الفقه.

وربما وصف الفقيه الموصلي بـ (الفقيه الأصولي) لجمعه بين علمي الفقه وأصوله، على نحو مانري في ترجمة زين الدين علي بن الحسين الموصلي المتوفى سنة (٣٠٠ هـ / ١٣٥٤ م).

١- الفقه: وهو أول ما يتدارسه المتفقه، اذ لا يمكن لدارس الأصول والخلاف الفقهي ان يتجاوز دراسة مبادئ الفقه الاسلامي، ثم يتدرج بعد ذلك بالانخذ عن أئمة الفقه في غير المذهب، ثم يترقى لدراسة اختلاف الفقهاء، فيتناول اختلاف فقهاء الأمصار، واختلاف فقهاء المذاهب المشهورة، فالفقه اذن يسبق الخلاف الفقهي، لأنه لايعنى يجمع الآراء المختلفة في المسائل الفقهية وموازنتها، بل يعنى بعرض رأي خاص وأدلة معينة من دون بيان الخلاف بينها وبين غيرها من الآراء والأدلة. وهذا هو الفرق بين الفقيه والخلافي^(١).

ومع أن العناية بدراسة الفقه كانت عامة تتناول أكثر من مذهب، إلا أن العناية بالفقه الشافعي كانت هي الغالبة، وذلك لكثرة انتشاره في الموصل. ولذلك كانت أغلب مدارس الموصل قد أنشئت لدراسة الفقه الشافعي، على الرغم من أن معظم ملوك الأتابكة كانوا على المذهب الحنفي^(٢).

وبلي المذهب الشافعي في الدرس المذهب الحنبلي، فالحنفي ولايكاد المذهب المالكي يذكر في المدينة درساً وتفقهاً. وهذا يرجع في الواقع الى أن هذا المذهب إنما شاع في أفريقيا، وانتشر في مصر. وكان من هذه المذاهب الثلاثة، وخاصة المذهبين الشافعي والحنبلي، علماء يعنون كثيراً

بتدريسه ونشره والتأليف فيه.

ومن أشهر فقهاء الشافعية القدسي جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي، الذي وصف بأنه «من أهل الرياسات في الموصل»، وأنه ألف عدة كتب في الفقه الشافعي، وأنه كان «متقدماً في الفقه، معروفاً به»^(٣).

ومن أشهر فقهاء الشافعية، من الأسر العلوية في الموصل آل الشهرزوري، وهي أسرة مشهورة بالرياسة والفضل، كما يقول السبكي^(٤)، بهم «قضاة الشام والموصل والجزيرة»^(٥). وجد هذه الأسرة الفاضلة أبو أحمد القاسم بن المظفر بن علي الشهرزوري، المتوفى سنة (٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م)، وأولاده: علي وعبدالله ومظفر ومحمد. كلهم فقهاء وقضاة، وكذلك أكثر أولادهم وأحفادهم. فمن لم يكن منهم قاضياً فهو فقيه. وقد دلنا إحصاء شجرتهم بعد تنظيمها وترتيبها في ضوء ما ذكرته عنهم كتب التراجم على (٢٤) فقيهاً. وكان جدهم الأكبر المظفر بن علي الشهرزوري قد ولد بإربل ونشأ في الموصل، فكانت منه هذه الشجرة المباركة في الفقه الاسلامي الشافعي.

ومن الأسر الفقهية الشافعية في الموصل (آل منعة)، وعميدهم رضي الدين أبو الفضل يونس ابن محمد بن منعة المتوفى سنة (٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م). وولده أبو الفتح كمال الدين موسى المتوفى سنة (٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م)، وأبو حامد حماد الدين محمد المتوفى سنة ٦٠٨ هـ، فقيهان، وكان كمال الدين الملقب بـ (الكمال) «أحد الأعلام»^(٦)، متبحراً في العلوم الاسلامية بعامة والفقه بخاصة، «ولما اشتهر فضله اثنال عليه الفقهاء»^(٧). ومع أنه فقيه شافعي، إلا أنه كان عالماً بالفقه الحنفي أيضاً، فكان «جاعة من الحنفية يشتغلون عليه بمذهبهم، ويحل لهم مسائل (الجامع الكبير) أحسن حل، مع ما هي عليه من الإشكال المشهور»^(٨).

واحفظ بعض الفقهاء الشافعية بسند عال
لفقه الإمام الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤هـ / ٨١٩م)، وهو سند وثيق ليس بينه وبين الشافعي
إلا واسطة واحدة، ويتمثل هذا السند برواية عبد
الله بن أبي سفيان الموصلي المتوفى في القرن الثالث
للهجرة - التاسع للميلاد، عن الربيع بن سليمان
المتوفى سنة (٢٧٠هـ / ٨٨٣م) عن الإمام
الشافعي. والربيع هو راوي (كتاب المبسوط)
للشافعي، وقد أورد ابن النديم أبواب هذا
الكتاب الفقهي^(١٢)، الذي يعد أصلاً من أصول
الفقه الشافعي.

واعتمد الشافعية في الفقه على الكتب المصنفة
في فقه المذهب، وأشهرها في القرن الخامس
كتاباً: (المهذب في المذهب)، و(التبيين)^(١٣)،
لأبي إسحق إبراهيم بن علي الشيرازي (ت
٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م) متبوعي المدرسة
النظامية وإمام وقته في العراق. كما اعتمدوا على
كتاب (الوجيز في الفقه) لأبي حامد الغزالي،
ولذلك تعاهدوه بالشرح كما سئرى.

أما المذهب الحنبلي، فأتباعه في الموصل ليسوا
قليلين فيما يبدو، ولكنهم كما أوضحنا أقل من أتباع
الشافعي، وقد ذكرنا في مبحث الحديث أن من
قدامي المواصلة من صحب الإمام أحمد بن
حنبل، فسمع منه روايات تعد من الأسناد
العالية. أما بعد تلك الطبقة، فقد اشتهر كثير من
أئمة هذا المذهب، ومنهم أبو يعلى محمد بن الحسين
ابن محمد بن خلف الفراء المتوفى سنة (٣٩٠هـ /
٩٩٩م)، وهو والد صاحب (طبقات الحنابلة)،
الذي وصفه ابنه في ترجمته له بأنه «عالم زمانه،
وفريد عصره، ونسج وجده»^(١٤)... وكان
الحنابلة في الموصل قد اعتمد مبتدئهم في عصور
مختلفة على كتاب (مختصر الخرق) في الفقه
الحنبلي. ومؤلفه متوفى سنة (٣٣٤هـ / ٩٣٥م)،
وهو «من أعيان الفقهاء الحنابلة... وصنف في

مذهبهم كتباً كثيرة»^(١٥).

ومن مشاهير الحنابلة المواصلة أبو المحاسن محمد
ابن عبد الباقي المتوفى سنة (٥٧١هـ / ١١٧٥م)،
أخذ عن ابن أبي يعلى الفراء ببغداد، وصنف كتاباً
في طبقات الحنابلة، سنذكره في المصنفات، وكتاباً
في شرح ألفاظ الخرق^(١٦).

ومنهم عبد الرزاق بن رزق الله الرسعني الحنبلي
المتوفى سنة (٦٦١هـ / ١٢٦٢م)، صنف كتاباً في
شرح مختصر الخرق، سنذكره.

ومنهم علي بن مسعود بن نفيس الموصلي المتوفى
سنة (٧٠٤هـ / ١٣٠٤م)، وصفه الذهبي^(١٧)
بأنه «الامام الفقيه المحدث الصالح الزاهد...».

ومن فقهاء المذهب الحنفي محمد بن إبراهيم أبو
جعفر الرازي نزيل الموصل المتوفى سنة (٦١٤هـ /
١٢١٧م)، له مصنفات كثيرة منها: (شرح
مختصر القدوري) في الفقه، لم يتمه^(١٨). ومنهم
الفقيه إبراهيم بن عبد الله بن عبد الكريم أبي
الغارات أبو إسحق الموصلي المتوفى سنة (٦٢٨هـ /
١٢٣٠م). وكذلك الفقيه عبد الله بن محمد بن
مولود الموصلي المتوفى سنة ٦٨٣هـ، له
تصانيف^(١٩).

وقد اعتمد فقهاء المذهب الحنفي في الموصل
على كتاب أبي الحسين أحمد بن محمد بن حمدان
الفقيه الحنفي المعروف بـ (القدوري)، إذ صنف
مختصراً في هذا الفقه، اشتهر وتداوله. وكان هذا
الفقيه المتوفى سنة (٤٢٨هـ / ١٠٣٦م) في
بغداد، قد «انتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق...
وكان يناظر الشيخ أبا حامد الاسفراييني الفقيه
الشافعي»^(٢٠). كما اعتمدوا على كتاب (الجامع
الكبير) لأبي الحسن الكرخي المتوفى سنة
(٣٤٠هـ / ٩٥١م)، حتى إنهم - لصعوبته -
كانوا يرجعون فيه إلى كمال الدين بن منعة - لينحل
ما أشكل منه عليهم.

٢- **الخلاف في الفقه** : وهو كما ألقنا سالفاً شبيه بما يسميه المعاصرون ^(٢١) : (الفقه المقارن) ؛ إذ يُعنى بجمع الآراء الفقهية المختلفة وتقويمها والموازنة بينها، بالتماس أدلتها وترجيح بعضها على بعض ^(٢٢) . وقد ترتب عليه علم فقهي عرف باسم : (علم الخلاف) أو (علم الخلافات) ^(٢٣) . غير أنه لوحظ من تعريف القدامى للخلاف أنه ذو صفة جدلية ؛ إذ يقوم الخلاف من الفقهاء بوظيفة الجدلي الذي يهيم الانتصار لآرائه في مقام المجادلة والخصومة ، أو هو أشبه بوظيفة محام يضع نفسه طرفاً في الدعوى للدفاع عن وكلاءه . على حين يأخذ المقارن وظيفته القاضي الذي يفحص الأدلة من دون انحياز الى طرف من طرفي الدعوى ، ليصدر بعد ذلك حكمه الذي يراه عادلاً ^(٢٤) .

أو بعبارة أخرى : إن الباحثين المعاصرين في (الفقه المقارن) يرون في تعريف القدامى (للخلاف الفقهي) شيئاً من الذاتية في الموازنة الفقهية ، وليس تجرداً تاماً عن هذه الذاتية . وبذلك نستطيع أن نقول : إن الفقيه إذا كان شافعياً مثلاً ، وهو يتقن (فنّ الخلاف) كما قد يوصف في كتب التراجم والطبقات ، فإن ذلك يعني أنه يتقن القدرة على الموازنة والانتصار بعدها لمذهبه الفقهي ، لا الموازنة المحضة المجردة وحدها . أما الفرق بين (الخلاف الفقهي) و (الفقه) ، فينبجلى بأن «الفقيه غير ملزم بعرض الآراء الأخرى ومناقشتها ، وإنما يكفي بعرض أدلته الخاصة التي التمس منها الحكم بخلاف المقارن والخلافي فهما ملزمان باستعراض مختلف الآراء والأدلة ، وإعطاء الرأي فيها . فالفارق بينها إذن فارق جذري ، وإن تشابهاً في طبيعة البحوث» ^(٢٥) .

ولقد برع كثير من فقهاء الموصل بعلم الخلاف ، فنصت كتب التراجم على إتيان طائفة منهم من كل مذهب له ، بل منهم من صنف فيه ،

بعد أن قرأه ، وناظر فيه ، على نحو ما نجد لدى شرف الدين عبد الله بن أبي عصرون القيمي الحديشي الموصلي المتوفى سنة (٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م) ، إذ تفقه في الموصل ، ثم في بغداد ، ثم «قرأ الخلاف» في بغداد أيضاً ، ثم في واسط على قاضيه أبي علي الفارقي ، ثم تنقل ما بين سنجار وحلب ودمشق ، ثم عاد الى حلب وأقام بها فصنف كتاب (التيسير في الخلاف) في أربعة أجزاء ^(٢٦) . وكان لذلك يوصف بأنه «كان من أعيان الأمة وأعلامها ، عارفاً بالمذهب والأصول والخلاف» ^(٢٧) ، فجمع في هذا الوصف : الفقه وأصوله والخلاف فيه .

ومن وصف بإتقان الخلاف أبو الفتح كمال الدين بن يونس بن محمد بن منعة المتوفى سنة (٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م) ، الذي يذكر عنه الفقهاء أنه كان يدري أربعة وعشرين علماً دراية متقنة ، فكان يوصف بالتبحر ، والانفراد ، وأن أهل الموصل وما والاها كانوا يرجعون إليه في الفقه وغيره ، وقد امتاز بأنه «كان يتقن فن الخلاف العراقي والبخاري» ^(٢٨) . وهذا يعني أن ثمّ فارقاً في أصول هذا الفن بين العراقيين والبخاريين ، وإلا لما عطف البخاري على العراقي ، لأن التعاطف - كما هو معلوم في اللغة - يعني التغاير بين المتعاطفين .

٣- **أصول الفقه** : ويراد به في الاصطلاح : «القواعد الممهدة لاستنباط الأحكام الشرعية الفرعية» ^(٢٩) ، أي : استنباط القواعد والأحكام الفقهية من أدلتها الأصلية ، وهي : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس والرأي عند فريق من الفقهاء ، والعقل عند فريق آخر .

ويطلق اصطلاح (الأصوليين) على (أصول الفقه) و (أصول الدين) . وإذا كان الأول يتعلق بالفقه الاسلامي ، فإن الثاني يتعلق بأصول العقائد الاسلامية ، وهي العقائد الأساس التي ينبغي أن يدين بها المؤمن ، من التوحيد ، والنبوة ، والإمامة ،

والبعث والنشور، وما إليها.

وقد وصف بعض علماء الموصل بأنه «فقيه أصولي» لجمعه بين معرفة الفقه، ومعرفة أصول الفقه، فهذا ما وصف بن زين الدين علي بن الحسين به القاسم المعروف بابن شيخ العونية المتوفى سنة (٧٥٥هـ / ١٣٥٤م) (٣٠).

كما وصف بعضهم بأنه يتقن «أصول الفقه وأصول الدين» (٣١)، على نحو ماورد في ترجمة أبي الفتح كمال الدين بن منعة الذي ذكرناه آنفاً.

وكان كمال الدين بن منعة قد دخل بغداد وقرأ الخلاف والأصول على السديد السلمي المعيد بالمدرسة النظامية، بعد قراءته على أبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي في الموصل.

ومن درس (الخلاف) وبرع فيه أبو المظفر محمد بن علوان بن مهاجر الموصل المتوفى سنة (٦١٥هـ / ١٢١٨م)، الذي تفقه بالنظامية في بغداد على مذهب الشافعي، ثم عاد إلى الموصل وتفقّه على الفقيه أبي البركات عبد الله بن الخضر ابن الشيرجي، حتى صار عالماً من الأعلام، إذ «لازمه حتى حصل معرفة المذهب والخلاف» كما يقول المنذري (٣٢).

الإفتاء والاستفتاء :

كان الإفتاء مرتبطاً بحياة المسلمين منذ أقدم العصور الإسلامية، وكان الصحابة رضي الله عنهم أول من استفتي، بعد رسول الله (ص). ثم استمرت الفتيا باستمرار الحياة الإسلامية وتطورها، إذ كانت المسائل والموضوعات المستحدثة تستدعي معرفة الشرع فيها. ولم يكن ثمّ مفرغ إلى غير الفقهاء، إذ هم مناط الفتوى، وعليهم الاعتماد فيها، لقدرتهم على استنباط الحكم الشرعي الفرعي من أدلته الأصلية، وهي: الكتاب والسنة والإجماع وما إليها.

وكانت الموصل كغيرها من المدن الإسلامية تستفتي فقهاءها في المسائل التي تعضل عليها، فكان أهلها - حكماً ومحكّمين - لا ينفكون عن ذلك. ولم تكن الفتيا تتجاوز فقهاء مدينتهم - وهم كثر - إلا في القليل النادر. ويبدو أن ذلك الاستفتاء - الخارجي إن جاز التعبير - لا يطلبونه من مظانّه الفقهية الشهيرة في العالم الإسلامي، الا عند اشتجار الخلاف فيه بين فقهاء المذاهب الإسلامية، في هذه المدينة. كما حدث في استفتاء العزيز بن عبد السلام المتوفى سنة (٦٦٠هـ / ١٢٦١م)، حين كان بدمشق، أو حين ارتحل إلى مصر، فكان كتاب (الفتاوى الموصلية) (٣٣).

ولقد نال غير واحد من فقهاء الموصل لقب (المفتي) لاضطلاعهم بالإفتاء كثيراً، على نحو ما ناله الفقيه رضي الدين يونس بن منعة الموصل الشافعي المتوفى سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م)، والد الفقيين كمال الدين أبي الفتح، وعبد الدين أبي حامد. كان هذا الفقيه من أهل إربل، وقدم الموصل فتقّه بها على تاج الاسلام ابن خميس الكعبي الجهني المتوفى سنة (٥٥٢هـ / ١١٥٧م)، ثم على أبي منصور بن الرزّار مدرس النظامية ببغداد ثم رجع إلى الموصل واستوطنها، «فكان يدرس ويفتي وينظر» (٣٤)، ولذا وصفه اليافعي (٣٥) بأنه: «الفقيه المفتي».

وأما شرف الدين بن أبي عصرون التميمي الحديثي الموصل المتوفى سنة (٥٨٥هـ / ١١٨٩م)، فقد تفقه في الموصل على كبار فقهاءها كالمترضى عبد الله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥١١هـ / ١١١٧م) وابن خميس الجهني، وأخذ الفقه والأصول والخلاف ببغداد، وانتقل من بلد إلى آخر - كما أشرنا سالفاً - مدرساً ومصنفًا وقاضياً، حتى توفي في دمشق، وقد وصفه العماد الأصفهاني صاحب (الخريدة) بأنه «ختمت به الفتاوى» (٣٦).

ومن كان الحكام يرجعون إليه في الفتاوى عباد الدين أبو حامد محمد بن يونس المعروف بابن منعة الفقيه الموصلية المتوفى سنة (٦٠٨ هـ / ١٢١١ م)، الذي وصف بأنه «إمام وقته في المذهب والأصول والخلاف»، وأنه قصده الفقهاء من البلاد الشاسعة للاشتغال، وتخرج عليه خلق كثير صاروا كلهم أئمة يشار إليهم، فقد «كان نور الدين صاحب الموصل كثير الاعتدال عليه، يرجع إليه في الفتاوى، ويشاوره في الأمور»^(٣٧). وقد بينا آنفاً أن ابنه رضي الدين لقب بالفتي، لما كان يضطلع به من مهمة الإفتاء.

هذا في الإفتاء أما الاستفتاء، فقد عرف به الموصليون كما ألعنا، فكان من عنايتهم بالفقه، ومعرفة الحكم الشرعي في المسائل المختلفة: أن استفتوا الإمام عز الدين بن عبد السلام الشافعي «الملقب بسلطان العلماء وشيخ الاسلام»، الذي «درّس وأفتى وصنف وبرع في المذهب وبلغ رتبة الاجتهاد»^(٣٨). فصنف في بيان ذلك: (الفتاوى الموصلية) التي تجمع فتاواه في استفتاء أهل الموصل له. وهو الذي كان يقول فيه، حين وفد الى مصر، فقيها ومفتيها في أيامه الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري، المتوفى سنة (٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م)، وصاحب (التكلمة لوفيات النقلة) المطبوع: «كنا نفتي قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فتصب الفتيا متعين فيه»^(٣٩).

ويتبين للباحث في المراجع القديمة، أن المستفتين من الموصل قد لا يكونون جميعاً من المذاهب الثلاثة السائدة في مدينتهم، وهي المذهب الشافعي والحنبلي والحنفي، بل قد يكون منهم بعض الإمامية، يشعرون بذلك استفتاءهم في القرن الخامس الفقيه الأصولي الأديب علي بن الحسين الموسوي المعروف بالشيخ المرتضى المتوفى سنة (٤٣٦ هـ / ١٠٤٤ م)، الذي كان

من كبار علماء الإمامية في عصره، وغيره من العصور، والذي كان يسكن بغداد نقيباً للطالبيين بعد وفاة أخيه الشريف رضي.

ونستشف من استفتاء أهل الموصل للشريف المرتضى شغفهم بالأصولين: أصول الدين وأصول الفقه، وتوجههم الى معرفة الغامض من مسائلها. إذ يذكر أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة (٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م)، في فهرسه ثلاثة مجاميع من المسائل العقيدية والفقهية التي بعث بها مواصلة الى أستاذه المرتضى يستفتونه، وهي:

- ١- المسائل الموصلية الأولى الثلاثة، وهي: مسألة الوعيد، ومسألة في إبطال القياس، ومسألة في الاعتدال. والمعروف أن الشيعة الإمامية لا يأخذون بالقياس في الفقه، الا بما سمّوه (القياس الجلي)، وهو الذي وردت علته في النصوص، كتحريم الخمر، فيكون كل مسكر حرام. فهم في عدم الأخذ بالقياس كالظاهرية أصحاب داود الظاهري وابن حزم الأندلسي.
- ٢- المسائل الموصلية الثانية.
- ٣- المسائل الموصلية الثالثة^(٤٠).

ولانعرف شيئاً عن ماهية الثانية والثالثة من هذه المسائل. وكان الشريف المرتضى قد وردت إليه مسائل من مدن أخرى أيضاً تستفتيه، فأجاب عنها. فكانت هناك: المسائل الطرابلسية الأولى والثانية، والمسائل الحلبية، والمسائل الصيداوية^(٤١) وغيرها. فهو إذ كان ممن يُستفتى فيفتي، ولذلك استفتاء أهل الموصل.

كثرة المدارس الفقهية:

يلفت الباحث حقاً في تاريخ الموصل الحضاري هذه الكثرة الكاثرة من المدارس

الفقهية ، وكان ابن خلكان المتوفى سنة (٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، قد لاحظ ذلك ، فذكر أن في الموصل عدة مدارس^(٤٢) ، وذلك حين زار هذه المدينة ، قبل سفره الى دمشق فصر ، والتقى فيها كمال الدين ابن منعة الأمام الفقيه المتبحر ، الذي تولى عدة مدارس ، والذي كان ابن خلكان لا يفتأ يبيدي إعجابه الشديد بعلمه المتنوع الذي لم يجمع لفقيه من الفقهاء قبله في رأيه^(٤٣) .

ويلحظ أيضاً أن المدارس كثرت في العهد الأتابكي ، فيذكر عز الدين بن الأثير المتوفى سنة (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) أن زين الدين علي بن بكتكين نائب قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي المتوفى سنة (٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م) ، « بنى مدارس ورُبطاً بالموصل وغيرها » ، وكذلك مجاهد الدين قايماز المتوفى سنة (٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م) ، الذي بنى عدة مدارس في هذه المدينة^(٤٤) .

وقد تبين لنا من مصادر هذه الدراسة صدق هذه المقولة ، إذ عرفنا عشرين مدرسة تعنى بالفقه الاسلامي ، ونحسب أن هناك غيرها ، لم يذكر في مصدر وصل الينا ، وهذه المدارس هي :

١- دار العلم : منشئها الفقيه جعفر بن حمدان أبو القاسم الموصل المتوفى سنة (٣٢٣ هـ / ٩٣٤) ، في بلده الموصل . وقد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وخاصة علم الفقه ، الذي كان لابن حمدان تصانيف حسان فيه ، أشار إليها ابن النديم في (الفهرس) . وقد أوقف هذا الفقيه جميع كتب هذه الدار على طلاب العلم ، فكان لا يمنع أحداً من دخولها ، فإذا جاء مفسر أو أديب ، أعطاه ما يحتاج إليه من ورق ومال ، حتى ينتهي من قراءة ما قصده منها ! .

وكانت هذه الدار العلمية النادرة تفتح كل يوم ، فيحضر الفقيه ابن حمدان ، فيجتمع إليه الناس ، يلجئ عليهم من مصنفاته وأشعاره وغير

ذلك^(٤٥) .

ويمكن القول : إن هذه المدرسة من أقدم المدارس العلمية في الموصل ، ومعلوم أن في بغداد دار علم أيضاً ، كانت حافلة بالكتب القيمة ، حتى قبل إن فيها ثمانين ألف كتاب ، من عيون التراث . وقد صار الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي المتوفى سنة (٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م) مشرفاً عليها . وهي التي نزل فيها أبو العلاء المعري حين زار بغداد .

غير أن دار العلم الموصلية التي ذكرناها ، تمتاز منها بأن منشئها فقيه ، وأنه هو الذي ينفق عليها ويحاضر فيها . وكان جعفر بن حمدان من ذوي الرياسات في الموصل ، ومن وجوهها المعروفين .

٢- المدرسة البدرية : وقد سماها ابن الشعار الموصل^(٤٦) : (المدرسة المولوية البدرية) ، وهي من أهم المدارس الموصلية . ومنشئها في أغلب الظن الأمير أبو الفضل لؤلؤ بن عبد الله البدري ، النائب على أمر الموصل ، الذي استقل بها بعد ابتعاد التتار عنها سنة (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) . وقد تولى هذه المدرسة - بعد توليه المدرسة القاهرية - كمال الدين أبو الفتح موسى المتوفى سنة (٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م) وذلك في سنة (٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) . الذي « كان مواظباً على إلقاء الدروس والافادة . وقد حضر دروسه في بعض الأيام جماعة من المدرسين أرباب الطيالس » ، كما يذكر ابن خلكان^(٤٧) . وهذا يشعرنا أن للمدرسين في المدارس الموصلية زياً علمياً خاصاً بهم ، هي عبارة عن (طيالس) يلبسونها ليميزوا بها من غيرهم ، وتكون لهم كذلك شعار علم وتعليم . وحضور هؤلاء دروس الشيخ كمال الدين يدل بلا شك على غزارة علمه وكبير مكانته . حتى أن أحد الشعراء نظم أبياتاً بهذه المناسبة .

ومن المدرسين بهذه المدرسة أحمد بن الحسين ابن أحمد النحوي الضرير ، اللغوي ، المعروف بأبن

الخباز الموصل. كان يدرس في المسجد الذي بسكة أبي نجيج، الذي أنشأه محمد بن علي بن مهاجر الموصل. ثم انتقل إلى المدرسة البدرية، فلم يزل مقيماً بها إلى أن توفي. كما درس فيها محمد بن علوان بن مهاجر.

ومن المعيددين في المدرسة البدرية عبد الرحيم^(٤٩) بن محمد بن محمد بن يونس بن منعة المتوفى سنة (٦٧١هـ / ١٢٧٢م). وكذلك أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري صاحب (التعليق في الخلاف) والتصانيف المشهورة في أيامه. وكان هذا الفقيه من أتبه طلاب كمال الدين ابن منعة، وقد قصد الموصل للتحقق والتعلم عليه، فكان يقول: «ما تركت بلادي وقصدت الموصل إلا للاشتغال على الشيخ»^(٥٠).

على أن هناك مدرسة في دمشق تسمى البدرية أيضاً بناها بدر الدين ابن الداية، من أكابر أمراء نور الدين محمود زنكي، وذلك في سنة ٦٣٨هـ. ثم بنيت مدرسة أخرى بالاسم نفسه سنة (٨١٤هـ / ١٤١١م)^(٥١).

٣- المدرسة القاهرية: لم نجد أحداً قد صرح باسم بانيتها. ونرى أنه عز الدين أبو الفتح مسعود الملقب بالملك القاهر. وكان قد ولي أمر الموصل وأعمالها بعد وفاة أبيه نور الدين أرسلان شاه، المتوفى سنة (٦٠٧هـ / ١٢١٠م) بوصية منه. فبنى بها مدرسة، جعل له فيها تربة^(٥٢)، دفن بها عند وفاته سنة (٦١٥هـ / ١٢١٨م). فيكون تأسيسها ما بين سني (٦٠٧هـ) و (٦١٥هـ). ومن المعقول جداً أن يسمى هذه المدرسة باسم يدل عليه، فسمّاها: (المدرسة القاهرية)، أو سميت له كذلك، تمييزاً لها من غيرها من المدارس، فهذا ما نرجحه.

وقد تولى أمرها عند فتحها الفقيه كمال الدين موسى بن يونس بن منعة، ثم فوّض أمرها لابنه أحمد عند قدومه من إربل إلى الموصل سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م)، وأقام بها ملازماً للاشتغال

والإفادة إلى حين وفاته^(٥٣) سنة (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م). كما درس فيها عبد الكريم بن محمد بن علوان بن مهاجر الموصل، والشيخ عبد الوهاب الخزرجي المتوفى سنة (٦٦٠هـ / ١٢٦٢م)^(٥٤).

٤- المدرسة العلّائية: يرى داود الجلي أن بانيتها علاء الدين خرمشاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود^(٥٥). غير أن الذي يشكل في هذا القول هو أن عز الدين هذا لم يخلف سوى ولد هو نور الدين أبو الحارث أرسلان شاه المتوفى سنة (٦٠٧هـ / ١٢١٠م)، الذي بنى مدرسة للشافعية، عرفت بالمدرسة (النورية)، والتي ستتكمّل عليها، في حين بنى هو (المدرسة العزّية).

تولّى المدرسة العلّائية ودرس فيها الفقيه عماد الدين محمد بن يونس بن منعة المتوفى سنة (٦٠٨هـ / ١٢١١م)، ثم تولاها بعد وفاته أخوه الفقيه كمال الدين أبو الفتح موسى^(٥٦)، المتوفى سنة (٦٣٩هـ / ١٢٤١م).

ويلحظ أن لآل منعة بدأ فضلى في تولي المدارس الفقهية في الموصل والتدريس فيها، ولهذا وصفهم ابن الشعار الموصلية بأنهم: «بيت القضاة والمدرسين».

٥- المدرسة العزّية: أنشأها أتابك عز الدين بن مسعود الأول بن قطب الدين مودود. قال ابن خلكان^(٥٨): «وكان قد بنى بالموصل مدرسة كبيرة وقفها على الفقهاء الشافعية والحنفية، فدفن بهذه المدرسة في تربة هي بداخلها»، ثم بين أنه رأى المدرسة والتربة، وأنها «من أحسن المدارس والترّب»، وأن «مدرسة ولده نور الدين أرسلان شاه في قبالتها، وبينها ساحة كبيرة»، مشيراً بذلك إلى المدرسة النورية.

درس في هذه المدرسة الفقيه عماد الدين بن منعة^(٥٩).

٦- المدرسة النورية: أنشأها الشافعية بالموصل أتاك نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود المتوفى سنة (٦٠٧هـ / ١٢١٠م)، بعد انتقاله من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي. ويبدو أنها من المدارس الممتازة، حتى أن ابن خلكان^(٦٠) يصفها بأنها «قُلٌّ أن يوجد مدرسة في حسنها». وهي غير (المدرسة النورية) الكبرى التي أنشأها نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكي في دمشق سنة (٥٦٣هـ / ١١٦٧م)، وغير النورية الخفية الصغرى التي أنشأها قبل ذلك بجامع قلعة دمشق^(٦١). تقع قبلتها المدرسة العزبية التي أنشأها والده عز الدين مسعود الأول في الموصل كما يبين آنفاً.

ومن درّس فيها عماد الدين بن منعة^(٦٢)، ويوسف بن إبراهيم الموصلي^(٦٣)، وتفقه فيها يوسف ابن إبراهيم بن نصر الموصلي ابن قاضي السلامة، قال عنه ابن الشعار الموصلي^(٦٤): «قرأ طرفاً من الفقه على مذهب الامام الشافعي رضي الله عنه بالموصل، بالمدرسة النورية...».

وعين يوسف بن عامر أبو سعد الموصلي المعروف بابن الشحامسي فقيهاً مرتباً في هذه المدرسة، وقد قرأ فيها طرفاً من فقه الامام الشافعي على أبي حامد محمد بن يونس بن منعة^(٦٥). ومن آثار هذه المدرسة الموجودة الى اليوم جامع الامام محسن في الموصل.

٧- المدرسة الكمالية: وهي في الأصل مسجد للأمرير زين الدين بن بكتكين، كان قد فوّض التدريس فيه للفقيه رضي الدين يونس بن محمد بن منعة المتوفى سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م). فكان يفتي وينظر ويدرس، فيقصده الطلبة للاشتغال عليه، والمباحثة مع ولديه: عماد الدين أبي حامد محمد، وكمال الدين أبي الفتح موسى، الى أن توفي^(٦٦)،

فتولى التدريس في هذا المسجد ولده كمال الدين، الذي صيّرَه بحكم ملازمته له مدرسة. قال ابن خلكان: «وهذا المسجد رأيتُه، وهو على وضع المدرسة، ويعرف الآن بالمدرسة الكمالية، لأنه نسب الى كمال الدين... لطول إقامته به»^(٦٨).

ومن درس في هذه المدرسة من غير آل منعة طاهر بن ثابت بن أبي المعالي القاضي البوازيجي المتوفى سنة (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م)، إذ أقام بها فترة من الزمن يدرّس ويفتي. وقد ذاكّر بها كتاب (الشامل) في الفقه، لأبي نصر الصباغ، في الدرس الى أن توفي^(٦٩). كما درّس بها محمد ابن الحسن بن عبد القاهر الشهرزوري المتوفى في منتصف القرن السادس للهجرة.

وتعرف الآن بمدرسة ابن يونس، واتخذت مسجداً يعرف بجامع الشهوان^(٧٠).

٨- المدرسة الزينية: بناها زين الدين ابو الحسن علي بن بكتكين متولى الموصل. ومن درّس فيها عماد الدين محمد بن يونس، وسكنها القاضي البوازيجي، مدرساً فيها^(٧١) وليس لدينا معلومات عن سبب تسميتها بهذا الاسم، وهل للزيني الوزير الفقيه جلال الدين، أو الوزير شرف الدين علي بن طراد الزيني^(٧٢) علاقة بهذه التسمية؟ ذلك ما لا نستطيع القطع به. ثم أليس من المناسب أن تسمّى: المدرسة (الزينية) بدلاً من الزينية نسبة الى منشئها؟ ذلك مانظنه وللتصحيح يد في مثل هذا.

٩- مدرسة بني بلدجي: وهم من كبار فقهاء الحنفية في الموصل، أنشأ المدرسة محمود بن مودود بن محمود بن بلدجي الموصلي المتوفى سنة (٦٢٣هـ / ١٢٢٦م)، الذي كان فقيهاً درس في بغداد، ثم درّس في هذه المدرسة التي أنشأها. وهي - في ما يبدو- لتدريس الفقه الحنفي، وكان من المعيدّين

فيها عمر بن بدر الفقيه الحنفي الموصل، رآه ابن المستوفي^(٧٢)، فقال: سمع معنا على أبي حفص عمر بن محمد بإربل، وكان مع ذلك شاعراً.

١٠- المدرسة المهاجرة: أنشأها الفقيه علوان بن مهاجر، ودرّس فيها كبار الفقهاء ومنهم ابنه أبو المظفر محمد بن علوان الملقب بالشرف، المتوفى سنة (٦١٥هـ / ١٢١٨م)، الذي تفقه بالموصل على أبي البركات بن السروجي، وبيّغداد على أبي الحسن يوسف بن بُندار، وبرع في المذهب الشافعي^(٧٤)، كما درس فيها موفق الدين عبد اللطيف البغدادي المعروف بابن اللباد الموصل الأصل المتوفى سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م)، وعاد الدين أبو نصر أحمد بن محمد علوان بن مهاجر، ومحيي الدين عبد الكريم بن محمد بن علوان بن مهاجر^(٧٥).

١١- مدرسة ابن الشيرجي: أنشأها الأمير عز الدين مسعود الثاني على مقربة من النهر، وترجى ابن الشيرجي أبا البركات عبد الله بن الخضر المتوفى سنة (٥٧٤هـ / ١١٧٨م) بالموصل، لأن يدرس فيها، فقصى بها مدة ثم عاد إلى مسجده^(٧٦).

وكان هذا الفقيه «عالماً زاهداً متقشفاً»، كما كان مشهوراً بعلمي الحديث والفقه^(٧٧)، وهما غاية ما تطمح إليه المدارس العلمية من العلماء.

١٢- المدرسة الكعالية الشهرزورية: وهي غير مدرسة كمال الدين بن منعة المسماة (الكعالية) أيضاً، التي ذكرناها آنفاً. إذ أن هذه أنشأها لتدريس الفقه الشافعي، الفقيه القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الحسن بن علي بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٦م). وقد درّس فيها الفقيه أبو الحسن يوسف بن شداد الأسدي المتوفى سنة (٦٣٢هـ /

١٢٣٤م). وكان هذا الفقيه معيداً بالمدرسة النظامية في بغداد نحو أربع سنين، بعد أن تفقه بالموصل على كبار فقهاء عصره. ثم أصعد بعد ذلك راجعاً إلى الموصل سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م)، فترتب مدرساً في المدرسة الكعالية المذكورة «ولازم الاشتغال، وانفع به جماعة»^(٧٨).

ومن درّس فيها من الشهرزوريين، ابن مؤسسها كمال الدين، وهو الفقيه أبو حامد محي الدين محمد الشهرزوري^(٧٩) المتوفى سنة (٥٨٦هـ / ١١٩٠م).

١٣- المدرسة النظامية: وهي إحدى المدارس المسماة بهذا الاسم التي أنشئت أيام الوزير أبي علي الحسن بن علي الملقب بـ (نظام الملك) المتوفى سنة (٤٨٥هـ / ١٠٩٢م)، ويقال إنه «أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس، وشرع في عمارة مدرسته ببغداد سنة سبع وخمسين وأربعائة»^(٨٠). وبنى غيرها بعد ذلك في مدن وأمصار متعددة كالموصل والجزيرة وبنسابلور وهراة. ولذا قال عز الدين ابن الاثير^(٨١) المتوفى (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) في تعداد مناقبه: «ومدارسه في العالم مشهورة، لم يخل بلد من شيء منها، حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الأرض لا يؤبه بها».

على أن البحث يدل على أن نظام الملك مسبق في إنشاء المدارس، إذ أنشئت قبل ذلك مدرسة بنسابلور^(٨٢). فإن لم تكن مدرسته النظامية التي أنشأها بنسابلور، فهو حقاً مسبق.

تقوم هذه المدرسة على تدريس الفقه الشافعي، وقد بناها في الموصل لأبي بكر السديد قاضي الموصل، بالقرب من الجامع التوري^(٨٣). ومن درس فيها محي الدين بن كمال الدين الشهرزوري، والشمس الدنيلي، وابن علوان بن مهاجر^(٨٤).

١٤- المدرسة الأتابكية العتيقة : بناها سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي المتوفى سنة (٥٤٤هـ / ١١٤٩م) ، لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي ، وقد وصف هذا المتولي بأنه كان «منطوباً على خير صلاح يحب العلم وأهله» ، فبنى بالموصل هذه «المدرسة المعروفة بالعتيقة»^(٨٥) .

وكانت هذه المدرسة من أفضل مدارس الفقه الموصلية وأوسعها ، وقد درس فيها أبو حامد محي الدين محمد بن محمد بن عبد الله الشهرزوري المتوفى سنة (٥٨٦هـ / ١١٩٠م) ، كما درس فيها ابن الشيرجي وابن أبي عُصرون المتوفى سنة (٥٨٥هـ / ١١٨٩م) ، وأبو المعالي الظهير المتوفى سنة (٥٩٦هـ / ١١٩٩م) ، ومحمد بن علوان بن مهاجر^(٨٦) وغيرهم . وهي غير المدرسة الأتابكية التي بدمشق ، والتي بنتها أخت نور الدين زنكي أو ابنته^(٨٧) .

١٥- المدرسة النفسية : لا يعرف على وجه التحقيق باني هذه المدرسة ، إلا أن اسمها ورد في المصادر ، بأنها في الموصل ، وأن الفقيه عماد الدين أبا حامد محمد بن يونس قد درس فيها . وقد اضطرب اسمها في المصادر القديمة ، فقبل (البقشبة) ، و(البغشبة) ، و(النقشبة) ، و(النفسية) ، و(والنفسبة) ، و(النفسية)^(٨٨) . وهذه ضروب من التصحيف سببها النسخ . غير أن السيد عبد الجبار حامد رأى أن من الأسماء التي يمكن الأخذ بها : (النفسية) ، لأنه قريب من اسم الست نفيسة التي لها مقام بالموصل^(٨٩) . على حين اتفق المؤرخون المعاصرون على اسم المدرسة (النفسية)^(٩٠) .

وأغلب الظن أن اسم المدرسة هو (النفسية) ، كما رجح الباحث المذكور . نسبة إلى السيدة نفيسة - كما احتمال - أو إلى شخص اسمه أو كنيته نفيس ، أو نفيس الدين . فيكون (النفسية) على

هذا من باب الغلط في نسبة (فعيلة) ، إذ كان علماً مشهوراً^(٩١) ، فبنبغي أن يكون (فَعَلِي) لا (فَعِيلِي) ، فنقول : (نَفِيسِي) لا (نَفِيسِي) ، فهي إذن (المدرسة النَّفِيسِيَّة) .

على أن في دمشق داراً للحديث تسمى (دار الحديث النفسية) ، نسبة إلى واقفها النفيس بن صدقة اسماعيل الحاراني المتوفى سنة (٦٩٦هـ / ١٢٩٦م) ، ناظر الأيتام هناك^(٩٢) . ولا نجد مسوغاً لنسبة المدرسة التي في الموصل إليه ، لعدم الارتباط الإداري بين المدينتين .

١٦- المدرسة الغربية : بناها عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه ، الملقب بالملك القاهر المتوفى سنة (٦١٥هـ / ١٢١٨م) ، الذي ملك الموصل بعد وفاة أبيه نور الدين ، كما ألعنا . وهي كما يذكر عز الدين ابن الأثير^(٩٣) : «مدرسة حسنة جعلها للفريقين : الحنفية والشافعية ، وقرر للفقهاء مائيس بمدرسة أخرى ، من الفواكه والحلواء ، والدعوات في المواسم والأعياد ، والشيرج والوقود والفحم ، وغير ذلك . وقرر في وقفها من الصدقات كل أسبوع ، وفي الأيام الشريفة والليالي المباركة شيئاً كثيراً» .

وهذا الوصف يشعرنا بالعناية الكبيرة التي أولاها عز الدين مسعود الثاني لهذه المدرسة ، إذ يكاد الانفاق عليها بهذه الدرجة من السعة ، يكون فرحاً ، لم يسبق إليه ، إذ يذكر ابن الأثير^(٩٤) أيضاً أنه «وقف عليها الوقوف الكثيرة ، وجعلها وقفاً على ستين فقهاً من الشافعية سوى مافيا من الصدقات الدارة للصوفية والفقراء» .

١٧- المدرسة الفخرية : درس فيها أبو المظفر محمد ابن علوان ، وأعاد بها يحيى بن سعد أبو المجد التكريتي لأبي المظفر ، كما أعاد بها موسى بن محمد حفيد ابن عمران الماكسيني المتوفى سنة (٦٠٦هـ / ١٢٠٩م)^(٩٥) .

يرفد دروسهم ومناظراتهم من الكتب والمصنفات ،
تأليفاً أو شرحاً ، أو اختصاراً ، أو تعليقا ، ونحو
ذلك . وسنرى ذلك جلياً عند الكلام على
المصنفات .

أسر فقهيّة :

امتازت الموصل من كثير من البلدان ، بوجود
أسر فقهيّة كبيرة ، توارث أبناؤها العلم جيلاً بعد
جيل ، كما اختصّوا بالقضاء في بلدهم وفي غيره
أيضاً . وأكبر هذه الأسر (آل الشهرزوري) و (آل
منعة) ، الذين اجتمع لهم من العلم والفضل
والرياسة ما لم يجتمع لغيرهم من الفقهاء وأهل العلم
بعامة .

١- آل الشهرزوري :

وهم أكبر أسرة علمية بالموصل ، بل وربما
بغيرها أيضاً . اشتهروا بالفضل والرياسة ، وكانوا
فقهاء ومحدثين وأدباء ، كما كانوا قضاة مشهورين ،
تولوا قضاء الموصل والجزيرة والشام ، بمدنه المتعددة
كدمشق وحماة وحلب .. ولا يعرف بيت في تاريخ
الاسلام تسنم أبناؤه منصب القضاء ، كما تسنمه
الشهرزوريون . حتى أن أحد أحفادهم ، وهو الفقيه
محمد بن عبد القاهر بن عبد الرحمن (من علماء
القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد) ، يذكر
أنهم جاوزوا في العد سبعين قاضياً ، وذلك في
قصيدته التي أجاب بها صلاح الصفدي المتوفى
سنة (٦٧٤هـ / ١٢٧٥م) ، حين أراد ترجمته في
كتابه (الوافي بالوفيات) ، فقد قال في أحد أبيات
تلك القصيدة :

وبيتنا فيه من قد جاوزوا عدداً

سبعين كانوا قضاء الناس في الحقب^(١٠٠)

ومع أن أبناء هذه الأسرة كثيرين ، كما هو
واضح من هذا العدد ، إلا أن الذين برزوا لنا في
البحث منهم أربعة وعشرون فقيهاً ومحدثاً ، وجلهم
كان قاضياً ، بل فيهم من شارك في تدبير الممالك ،

١٨- المدرسة العمادية : ذكرها ابن الشعار وحده ،
ولم يذكر مؤسسها ، أهو عماد الدين زنكي بن
آق سنقر ، مؤسس البيت الأتابكي ؟ أم عماد الدين
زنكي بن قطب الدين مودود ؟ ، أم عماد الدين
زنكي بن نور الدين أرسلان شاه^(٩٦) صاحب
المدرسة النورية .

درّس في هذه المدرسة أبو المظفر محمد بن علوان
ابن مهاجر الموصل المتوفى سنة (٦١٥هـ / ١٢١٨
م) ، وأبو عبد الله محمد البغدادي^(٩٧) .

١٩- مدرسة أم الملك الصالح : الملك الصالح
هو عماد الدين إسماعيل بن نور الدين محمود زنكي .
وهي في الأصل دار ، ثم أوقفها أم الملك الصالح
لتكون مدرسة^(٩٨) . وكانت زوجة لنور الدين محمود
زنكي المتوفى سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م) .

٢٠- المدرسة البرسقية : ذكرها الكمال ابن
الشعار ، من دون أن يعزو تأسيسها لأحد ،
ولا يعرف مؤسسها على وجه التحقيق . ولكن يرجح
أن مؤسسها آق سنقر البرسقي الذي تولّى الموصل
سنة (٥١٥هـ / ١١٢١م) ، وهو غير قسم الدولة
آق سنقر والد عماد الدين زنكي .

درّس في هذه المدرسة نصر الله بن علي أبو
الفتح المعروف بابن السمين ، وبقي يدرس ويفتي
حتى وفاته^(٩٩) .

هذه هي المدارس الفقهية ، التي ذكرت
المصادر أنها أنشئت في الموصل . وهي كما نرى
ليست قليلة ، وربما هناك غيرها لم تذكره المصادر
التي وصلت إلينا . الأمر الذي يدل بجلاء على
ازدهار الحركة العلمية الفقهية في هذه المدينة ، إذ
لا بد أن تكون هذه الكثرة حصيلة ، عدد وفير من
الطلبة والأساتذة .

ولقد ترتب على ذلك كله ازدهار التأليف
أيضاً ، إذ كانت هناك دافعية له ، أساسها الفقهاء
والمفتقون عليهم ، إذ كانوا جميعاً في حاجة الى ما

والمنشورة على الحكام والسلاطين والخلفاء، واتخذ رسولا بين الموصل ودار الخلافة في بغداد وغيرها مرارا.

وقد حظي كثير منهم في العهد الأتابكي بمكانة لدى أمراء وملوك ذلك العهد. وخاصة لدى عمادالدين زنكي وابنه نورالدين محمود زنكي وأبنائهما. وكان الشهرزوريون ذوي مجالس ومعروف، حتى أن القاصد الى عسكر عمادالدين زنكي «إذا كان عالما يقصد خيام القضاة بني الشهرزوري وجماعتهم والمتعلقين بهم من قضاة البلاد، فيحسنون إليه ويؤتسون غرته فيعود أهلا»، كما يقول معاصريهم عزالدين بن الاثير^(١٠١) المتوفى سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م).

وستتحدث بإيجاز عن هؤلاء الفقهاء البارزين بعلمهم ومناظراتهم ومصنفاتهم، من دون توخي الاستقصاء والإطالة:

١- فجددهم الكبير المظفر بن علي بن القاسم بن عبدالله الشيباني الشهرزوري^(١٠٢). ولد بإربل ونشأ في الموصل.

٢- أبو أحمد القاسم بن المظفر بن علي الشهرزوري المتوفى سنة (٤٨٩هـ / ١٠٩٥م)، وهو ابن المظفر الذي يعد جد الأسرة الشهرزورية، إذ تفرعت من أبنائه الخمسة، فكل الشهرزوريين إليه ينتسبون.

وكان القاسم فقيهاً محدثاً، عين حاكماً في إربل مدة، وفي سنجار مدة. قال عنه ابن خلكان: «وكان من أولاده علماء نخباء كرماء.. وإلى الآن من نسله جماعة من الأعيان والقضاة بالموصل»^(١٠٣). والآن الذي يتحدث عنه ابن خلكان هو القرن السابع للهجرة - الحادي عشر للميلاد.

وأولاد القاسم الشهرزوري الخمسة كلهم علماء فقهاء قضاة، وهم عبدالله، وعلي، ومظفر، ومحمد، وأحمد.

(أ) فأما عبدالله فهو أبو أحمد المرتضى

الشهرزوري المتوفى سنة (٥١١هـ / ١١١٧م)، «كان فقيهاً متميزاً»، أقام ببغداد مدة يشتغل بالحديث والفقه، ثم عاد الى بلده الموصل، وتولى بها القضاء. وهو شاعر له شعر حسن، أورد منه ابن خلكان نماذج^(١٠٤)، فوق أنه فقيه معروف.

(ب) وأما علي، فهو أبو الحسن بهاءالدين الشهرزوري، المتوفى سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٧م)، ولي قضاء واسط، ثم قضاء الموصل والجزيرة والشام^(١٠٥)، ولذلك وصفه عزالدين بن الاثير بأنه «قاضي الممالك الأتابكية»، وأنه: «كان أعظم الناس عند أتابك»^(١٠٦)، يريد عمادالدين زنكي الملقب بأتابك^(١٠٧)، المقتول سنة (٥٤١هـ / ١١٤٦م)؛ إذ كان يتخذ رسولا في كثير من الأحيان لقضاء بعض المهمات. ومن ذلك إرساله الى بغداد، قبل تولي عمادالدين الموصل، لمقابلة الخليفة المسترشد بالله^(١٠٨).

(ج) أبو منصور مظفر بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥٣٦هـ / ١١٤١م)، ولد بإربل، ونشأ بالموصل، وتفقه ببغداد علي أبي اسحق الشيرازي إمام الشافعية في بغداد، ثم رجع الى الموصل، ثم تولى قضاء سنجار على كبر سنه، وسكنها. روى عنه ابن السمعاني، ذكر ذلك السبكي.

(د) أبو بكر محمد بن القاسم الشهرزوري، المتوفى سنة (٥٣٨هـ / ١١٤٣م)، ولد بإربل، ونشأ بالموصل، وتفقه بها ثم ببغداد، وتولى بعد ذلك القضاء في عدة بلاد من الجزيرة والشام^(١٠٩). وكان يلقب بقاضي الخافقين.

(هـ) أحمد بن القاسم الشهرزوري، وهو أحد أبناء القاسم، إلا أننا لم نجد له أخباراً دالة على علمه وفقهه، في مارجعنا إليه من مصادر.

٣- ولأبي أحمد عبدالله بن القاسم بن المظفر الشهرزوري خمسة أولاد أيضاً، هم محمد، والقاسم، ويحيى، وسعيد، وأحمد.

(أ) فأما محمد، فهو كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥٧٢هـ / ١١٧٦م)، ولد بالموصل وسمع بها، ثم في بغداد، وكان فقيهاً، أدبياً، شاعراً، يتكلم في الخلاف والأصوليين^(١١٠)، وقد تولى القضاء في الموصل، وبنى بها مدرسة للشافعية. وكان من أشهر الشهرزوريين؛ إذ كان فوق كونه فقيهاً، يحسن التدبير والمشاركة في أمور الدولة. قال عنه ابن خلكان: «كان عظيم الرئاسة، خبيراً بتدبير الملك، لم يكن في بيته مثله...»^(١١١).

وقد لقي هذا الفقيه قبولاً وتقريباً لدى عماد الدين زنكي، فكان يقول لمن يستكثر عطائه عليه: «إن شغلاً واحداً يقوم به كمال الدين خير من مئة ألف دينار»^(١١٢). وكان قد ذهب الى بغداد رسولاً من لدن نور الدين زنكي الى الخليفة المقتني لأمر الله، فكتب هناك بخلع الراشد ومبايعة المقتني^(١١٣).

(ب) وأما القاسم فهو أبو طاهر بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥٧٥هـ / ١١٧٩م). كان فقيهاً له مصنفات، سنذكرها في محلها.

(ج) وأما يحيى، فهو تاج الدين أبو طاهر بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري.

(د) وأما سعيد، فهو أبو الرضا فخر الدين بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م)، قال عنه السبكي: «من البيت المشهور بالرياسة والفضل» سمع في الموصل وبغداد، ثم تفقه في خراسان^(١١٤). فكان فقيهاً محدثاً. ومن أخذ عنه أبو المحاسن بن شداد الأسدي^(١١٥).

(هـ) وأما أحمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري، فلم نعث له على مايدلنا على علمه ومكانته. غير أن له ابناً فقيهاً هو عبداللطيف بن أحمد المتوفى سنة (٦١٤هـ / ١٢١٧م)، تفقه على عمه القاضي فخر الدين سعيد، ولي قضاء الموصل عدة مرات^(١١٦).

٤- ولعلي بن القاسم بن المظفر الشهرزوري المتوفى سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٧م)، ولدان هما الحسن والحسين.

(أ) فأما الحسين، فهو أبو عبدالله بن علي بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥٥٧هـ / ١١٦١م)، استوطن بغداد فولاه الخليفة المستنجد بالله القضاء بحريم داره الخلافة^(١١٧).

(ب) وأما الحسن فهو أبو علي بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م)، تفقه على أبي منصور الرزاز ودرس بالموصل. وله ولد فقيه هو عبدالقاهر، توفي سنة (٥٧١هـ / ١١٧٥م)، صنف مختصراً في الفرائض، سنذكره.

٥- ولكال الدين أبي الفضل محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري ولدان هما:

(أ) يحيى الدين أبو حامد محمد بن محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥٨٦هـ / ١١٩٠م)، تفقه في الموصل على والده وغيره، ثم تفقه في بغداد على أبي منصور وتميز، ثم ذهب الى الشام ولي قضاء دمشق ثم حلب، وعاد الى الموصل بعد ذلك، فتولى قضاءها، ودرس بمدرسة والده وبخطامية الموصل. وهو شاعر مجيد^(١١٨)، وقد رثى والده كمال الدين.

(ب) عماد الدين أحمد بن كمال الدين محمد الشهرزوري المتوفى سنة (٥٦٩هـ / ١١٧٣م).

٦- ولأبي طاهر تاج الدين يحيى بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري ثلاثة أولاد هم :

(أ) ظهير الدين أبو الفتح المبارك بن يحيى بن عبدالله الشهرزوري المتوفى سنة (٥٨٧هـ / ١١٩١م) قاضي الجزيرة. ولد بالجزيرة وتفقه بالموصل وتوفي بها (١١٩).

(ب) ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبدالله الشهرزوري المتوفى سنة (٥٩٩هـ / ١٢٠٢م)، ولي قضاء دمشق والموصل، وقلده الخليفة قضاء القضاة شرقاً وغرباً، وقُرض إليه النظر في أوقاف الشافعية والخنفية (١٢٠)، وأوصى له عمه كمال الدين بولايته بعد وفاته، فأنفذ السلطان وصيته، وقُرض القضاء بدمشق إلى أن اعتزل هولاً بن أبي عصرون الفقيه الكبير (١٢١).

(ج) الفضل، الذي لا نعرف عنه شيئاً، فقد سكنت عنه المصادر. غير أن له ولداً فقيهاً هو يحيى بن الفضل بن يحيى بن عبدالله الشهرزوري المتوفى سنة (٦٢٩هـ / ١٢٣١م)، كان قاضياً بالجزيرة ثلاث عشرة سنة، ثم استعفى وتوجه إلى الموصل وسكنها إلى أن توفي. وقد وصف بالزهد والتسك وكثرة الصلاة، وكان مع ذلك شاعراً، وقد التقاه ابن الشعار الموصلي وروى شيئاً من شعره (١٢٢).

٧- وللقاسم بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥٧٥هـ / ١١٧٩م)، ولد فقيه هو عبدالله أبو القاسم الشهرزوري، له مصنفات سنذكرها في موضعها إن شاء الله.

أسرة آل منعة :

وهي ثاني الأسر العلمية الفقهية في الموصل منزلة، وهي من الأسر الشافعية. وقد ارتقى أبنائها العلماء الأعلام مناصب العلم في الفقه والحديث، والعلوم العقلية، التي تميز بها جميعاً أحد أفذاذها وهو كمال الدين موسى بن منعة.

١- ورأس هذه الأسرة ومؤسسها الذي عرف بعلمه وفضل هورضي الدين أبو الفضل يونس بن محمد ابن منعة الإربلي المتوفى سنة (٥٧٦هـ / ١١٨٠م). ولد بإربل، وقدم الموصل طالباً للعلم، فتفقه بها على تاج الإسلام ابن خميس الكعبي الجهنّي، ثم انحدر إلى عاصمة العلم بغداد، فتفقه بها على أبي المنصور الرزاز مدرس النظامية، ثم عاد إلى الموصل ليكون مدرساً في مسجد زين الدين أبي الحسن علي بن بكتكين، والد الملك مظفر صاحب إربل (١٢٣).

٢- ولرضي الدين يونس ولدان فقيهان، هما :

(أ) كمال الدين أبو الفتح موسى المتوفى سنة (٦٣٩هـ / ١٢٤١م)، الذي تفقه في الموصل على والده، وعلى أبي بكر يحيى بن سعدون القرطبي، ثم انحدر إلى بغداد، فأقام بالمدرسة النظامية ليدرس على المعبد بها السيد السماسي. فقرأ الخلاف والاصول، وبحث في الأدب على أبي البركات بن الأنباري المتوفى سنة (٥٧٧هـ / ١١٨١م)، ثم أوصد إلى الموصل، وعكف على البحث والمناظرة، يقول ابن خلكان: «ولا اشتهر فضله انثال عليه الفقهاء».

وكان كمال الدين موسوعياً في معرفته، فلم يقف في الدرس والبحث عند علم من العلوم، بل ولا العلوم العقلية الدينية وحدها، وإنما امتدت همته إلى العلوم العقلية، فأجاد فيها، وقُصد للأخذ عنه من عدة أمصار، إذ ذكروا أنه كان يتقن أربعة وعشرين علماً. وقد أشرنا في كلام سابق إلى إتقانه الفقه، والخلاف، والأصولين: أصول الفقه وأصول الدين، إلا أن الثمر في علم هذا الفقيه إتقانه عدة علوم عقلية ليست هينة، كالمنطق الطبيعي، والمنطق الإلهي، والرياضيات، والفلك، والهندسة (الخروطات، والمتوسطات) (المجسطي)، أي: الترتيب، والطب... فكان - في ما يبدو - كما قال ابن خلكان بحق: «بحر في

جميع الفنون، وجمع من العلوم ما لم يجمعه أحد^(١٢٤). وكان قد رآه في الموصل، وتردد عليه، ولكن وقته لم يعنه على الأخذ منه، إذ كان يتجهز للسفر الى مصر.

وكان الحافظ تقي الدين بن الصلاح المتوفى سنة (٦٤٢هـ / ١٢٤٤م)، يعظمه كثيراً، ويشهد بفضل وعلمه، فيراه نسيج وحده، وفريد عصره. بل كان يرى أن كمال الدين هذا قد خلقه الله عالماً، لأنه لم يتلق كثيراً مما أتقنه على أحد من أهل العلم المعروفين. وكان ابن الصلاح على صلة به، فأراد أن يدرس على يديه المنطق سراً، فلم يشجعه عليه خوفاً من أن يزهد فيه العامة^(١٢٥)، وهو رجل فقيه! ويبدو أن كمال الدين نفسه قد عانى من ذلك، إذ ذكروا أن هناك من لم يعرف قدره جيداً. في حين كان تلميذه الفقيه أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري يفضل على أبي حامد الغزالي^(١٢٦). وكان الياقعي^(١٢٧) يصفه بأنه «كان يتوقد ذكاء وبعوج بالعلوم». وهذا تقويم صادق للرجل؛ إذ ليس في طوق كل إنسان أن يتقن كل هذه العلوم: الدينية والعقلية، بل والفنية - وهي الموسيقى - من دون أن يملك ذكاء عالياً، وانفتاحاً فكرياً ونفسياً على تلوين مابعلم وتنويعه.

وهكذا تمتاز الثقافة الدينية بالثقافة العقلية التي تخدم علوم الدين كالمنطق، أو التي هي محض ثقافة عامة، وإن لم تعدم في كثير من الأحيان خدمة الدين، كالطب والهندسة والفلك... وما إليها.

أ- ولكمال الدين ابن فقيهه أيضاً، هو شرف الدين أحمد المتوفى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م)، الذي تفقه على والده، وبرع في الفقه الشافعي، ثم حفظ كتاب (إحياء علوم الدين) لأبي حامد الغزالي المتوفى سنة (٥٥٥هـ / ١١١١م)، واختصره. وقد

وصف بأنه «كان كثير المحفوظ، غزير المادة، متفتناً في العلوم، وتخرج عليه خلق كثير»، كما يقول السبكي^(١٢٨). وله تصانيف في الفقه سنذكرها في موطئها بإذن الله.

(ب) - وأما الابن الثاني ليونس بن منعة، فهو عماد الدين أبو حامد محمد بن يونس المتوفى سنة (٦٠٨هـ / ١٢١١م). وصفه ابن خلكان بأنه: «كان إمام وقته في المذهب، والأصول والخلاف». وكان له صيت عظيم في عصره، بحيث إن الفقهاء قصدوه من بلاد بعيدة للاشتغال عليه، «وتخرج عليه خلق كثير صاروا كلهم أئمة بشار إليهم».

وكان عماد الدين هذا قد تفقه في الموصل، ثم في بغداد بالمدرسة النظامية على المعيد بها السديد محمد السماسي، وسمع من كبار المحدثين في بغداد، ثم عاد الى الموصل، ودّرس بها في عدة مدارس، وصنف كتباً في المذهب الشافعي، وتقدم في دولة نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل كثيراً، فتوجه رسولاً عنه غير مرة الى بغداد، وناظر في ديوان الخلافة، ثم تولى القضاء بالموصل سنة (٥٩٢هـ / ١١٩٥م). وقد ذكرنا في كلام سابق أن نور الدين كان كثير الاعتماد عليه، يرجع إليه في الفتاوى ويشاوره.

ولهذا الفقيه الكبير مصنفات في الفقه، سنذكرها، وكذلك في العقائد^(١٢٩).

٣- ولعماد الدين محمد ولد هو رضي الدين محمد، وله حفيد فقيه كبير هو تاج الدين أبو القاسم عبد الرحيم بن رضي الدين محمد، له كتب فقهية، سيأتي الحديث عنها مع المصنفات الفقهية في الموصل. توفي هذا الفقيه سنة (٦٧١هـ / ١٢٧٢م) بالموصل.

هؤلاء أشهر من عرّفنا بهم المراجع من الشهرزوريين ومن آل منعة. وهم كما رأينا علماء

رضي الدين أبو الفضل يوسف بن محمد بن منعم الإربلي المصري

محمد
عمار الدين (١٠٨٠هـ / ١٢١٠١)

موسى
كامل الدين أبو الفتح (١٢٤٩هـ / ١٢٤٩)

محمد
رضي الدين

زبيب

أحمد
شرف الدين (١٢٤٥هـ / ١٢٤٥)

عبد الرحيم
قاسم الدين أبو القاسم
(١٢٧١هـ / ١٢٧١)

(الفقهاء المشهورون من آل منعم)

فقهاء ، وفيهم قضاة ، ورجال دولة وسياسة . ولعلَّ الأيام القادمة نعرفنا بمزيد منهم ، فتزاد معرفة بمكانتهم وفضلهم في تسطير أحرف الحضارة ، فقهاً وعلماءً وعملًا .

المصنفات الفقهية :

كثرت المصنفات الفقهية في الموصل وتنوعت . فكانت تأليف ، وشروحاً ، ومختصرات ، وتعليقات ، وأجزاء . وأراجيز . . كما تنوعت من حيث مادتها العلمية ، فكانت كتباً عامة في الفقه ، أو خاصة في مذهب معين ، كالشافعي والحنبلي والحنفي ، كما أن منها ما كان في أصول الفقه ، أو في الخلاف الفقهي ، أو في طبقات الفقهاء ، أو في الفتاوى الفقهية .

وقد تمخض عن هذا كله تراث فقهي ضخم ، حتى لهذه المدينة العريقة في القدم ، أن تعتز به وتفخر . غير أن أكثره - للأسف - مفقود ، ولعله مطوي في ثنابا المكتبات الخاصة ، أو في مكتبات العالم النائية ، أو غير المفهرسة بدقة ، أو التي لم تنلها يد الفهرسة .

ويلحظ أن حركة التأليف بدأت في الموصل في النصف الثاني من القرن الثاني ، إذ ألف المعافي بن عمران الأزدي الموصلية المتوفى سنة (١٨٤هـ / ٨٠٠م) كتباً في السنن ، إلا أننا لا نعرف عنها شيئاً ؛ لأن كتب الطبقات لم تبين ذلك ، ولأنها لم تصل إلينا . ومثله كتاب (الوجوه والنظائر) للعباس ابن الفضل الأنصاري البصري قاضي الموصل ، المتوفى سنة (١٨٦هـ / ٨٠٢م) . وقد مريان ذلك عند الكلام على مصنفات التفسير ، ومصنفات الحديث .

أما في الفقه ، فإن التأليف فيه بدأ واضحاً في القرن الرابع للهجرة ، أو على وجه التحديد في بداية هذا القرن ، فهذا ما ندلنا عليه كتب الطبقات ،

والمصادر الأخرى . غير أن هذه الحركة صارت تتنامى بعد ذلك ، وتنوع ، حتى وصلت الى أوج ازدهارها في القرون : الخامس والسادس والسابع ، على الرغم مما أصاب العالم الاسلامي بعامة والعراق بخاصة من دمار وجور على أيدي المغول والتتار . ولا أحد يجهل أن ماضع من كتب التراث الديني وغير الديني ، إنما كان بسبب تلك الهجمة الوحشية الكافرة على عاصمة الخلافة بغداد ، وعلى مدن العراق المهمة ومنها الموصل ، إذ ألقي عشرات الألوف من الكتب في دجلة ، حتى أن النهر جرى بالمداد ، كما ذكروا .

القرن الرابع :

- صنف أبو القاسم جعفر بن حمدان الموصلية ، الفقيه الشافعي المتوفى سنة (٣٢٣هـ / ٩٣٤م) ، كتباً في الفقه ، وذكر ابن التديم أنه كان « حسن التأليف عجيب التصنيف » متفقه على مذهب الشافعي ، وأنه سيذكر هذه الكتب عند كلامه على الفقهاء (١٣٠) . ولكننا لم نجدها في النسخة المتداولة من الفهرست . وكان ابن التديم معاصراً لابن حمدان .

وذكر ياقوت الحموي أن « له عدة كتب في الفقه على مذهب الشافعي » ، ثم حكى عن علي ابن أبي الزمزم أن ابن حمدان « من أهل الرياسات بالموصل ، ولم يكن بها في وقته من ينظر إليه ويفضل في العلوم سواه » ، وأنه كان « متقدماً في الفقه معروفاً به » ، وذكر علوماً أخرى كان ابن حمدان يعرفها ، كالكلام والجدل واللغة والرواية والنجوم (١٣١) .

وقد ذكرنا عند الكلام على المدارس الفقهية في الموصل (دار العلم) التي افتتحها جعفر بن حمدان هذا ، وما كان من تمكين الباحثين والتعلمين من الافادة منها ، وبذل الورق والمال لهم ، وإلقاء

الدروس عليهم.

- أبو بكر محمد بن الحسن النقاش الموصل

المقرئ المفسر المتوفى سنة (٣٥١هـ /

٩٦٢م)، له كتابان في الفقه :

١- المناسك (١٣٢).

٢- فهم المناسك.

وكنا قد ذكرنا مصنفاته في القراءات والتفسير

في موضعها.

القرن الخامس :

- القاضي أبو الحسين علي بن الحسن بن

الحسين بن محمد الموصل المعروف

بالخلعي، المتوفى سنة (٤٩٢هـ /

١٠٩٨م)، نزيل مصر. ذكروا أن له تأليف

في الفقه (١٣٣)، وغيره ومنها :

(الخلعيات)، وهي أجزاء عشرون في

الحديث، ذكرناها في المصنفات الحديثة.

القرن السادس :

- مجد الدين أبو عبدالله الحسين بن نصر

المعروف بابن خميس الكعبي الموصل المتوفى

سنة (٥٥٢هـ / ١١٥٧م) الملقب بـ (تاج

الاسلام)، الفقيه الشافعي، الذي أخذ

عن أبي حامد الغزالي وغيره في بغداد، له :

١- مناسك الحج (١٣٤).

٢- أخبار المنامات.

- القاضي أبو الحسين محمد بن محمد بن

الحسين بن محمد الفراء أبو يعلى المقتول سنة

(٥٢٦هـ / ١١٣١م) له كتاب (طبقات

الحنابلة). أخذ عن والده أبي يعلى محمد بن

الحسين الفراء، الذي وصفه بأنه «عالم

زمانه، وفريد عصره، ونسيج

وحده» (١٣٥)، فهو شيخ الحنابلة وفقههم في

عصره، ولذلك قال عنه ابن رجب (١٣٦)

بأنه : «شيخ المذهب». وكان قاضياً أيضاً،

وكذلك ابنه صاحب الطبقات.

- هبة الله أبو المحاسن محمد بن عبد الباقي

المجمعي الموصل المتوفى سنة (٥٧١هـ /

١١٧٥م)، له :

١- طبقات الفقهاء من أصحاب

أحمد، فالكتاب إذن في طبقات الحنابلة.

٢- شرح غريب ألفاظ الخرق، وهو

شرح مختصر الخرق أبي القاسم عمر بن

الحسين الفقيه الحنبلي المتوفى سنة (٣٣٤هـ /

٩٤٥م)، وهذا المختصر اشتهر لدى الحنابلة

المتفقيين، فكان «يشغل به أكثر

المتبذئين» (١٣٧) منهم، ولذلك عمد أبو

المحاسن إلى شرح غريب ألفاظه تيسيراً على

دارسيه، والغريب في الاصطلاح : ما احتاج

إلى تفسير وبيان من الألفاظ لقلّة دورانه على

الأسنة وتداوله. وهي مسألة نسبية تختلف

من عصر إلى عصر.

ويوصف أبو المحاسن بأنه «أحد فقهاء الحنابلة

المواصلة» (١٣٨). وقد ورد بغداد وتفقه على ابن أبي

يعلى الفراء المتوفى سنة (٥٢٦هـ / ١١٣١م)،

صاحب الطبقات.

- عبدالله بن محمد المعروف بابن أبي عصرون

قاضي القضاة التميمي الموصل، الملقب

بشرف الدين «نزيل دمشق وقاضي قضاتها

ورئيسها»، كما يقول تقي الدين

السبكي (١٣٩). تفقه في الموصل وبغداد

وواسط، وعاد إلى الموصل بعلم كثير، واستقر

في دمشق بعد ذلك قاضياً، ثم قاضياً

للقضاة. وكان غزير التأليف، حتى أن

السبكي وصفه بأنه «ملأ البلاد تصانيف

وتلامذة». وتزيد مصنفاته الفقهية التي

ذكرتها المصادر على اثني عشر، وهي :

١- (صفوة المذهب على نهاية المطلب) في سبع مجلدات.

٢- (الانتصار)، في أربع مجلدات. وقد أورد النووي في (شرح المذهب) أقوالاً من كتابه هذا تتعلق بأحكام فقهية^(١٣٩)

٣- (المُرشد)، في مجلدين^(١٤٠)

٤- (الذريعة في معرفة الشريعة).

٥- (مختصر في الفرائض).

٦- (الإرشاد المغرب في نصره المذهب)، لم يكمله، وقال عنه السبكي: «ذهب فيما نهى بحلب. وسماه: (الإشارة في نصره المذهب)، والأول أظهر. وقد ذكره ابن خلكان.

٧- (فوائد المذهب)، وهو يدور على كتاب (المذهب في المذهب) لأبي إسحق الشيرازي المتوفى سنة (٤٧٦هـ / ١٠٨٣م)، إمام الشافعية في عصره. وقد شرح النووي المذهب، فأورد فيه أقوالاً فقهية لابن أبي عصرون، وردت في كتابه (الانتصار)، كما أشرنا آنفاً.

٨- (التيسير في الخلاف)، في أربعة أجزاء.

٩- (النتيجه في معرفة الأحكام).

١٠- (الموافق والمخالف).

١١- (جواز قضاء الأعمى)، وصفه ابن خلكان بأنه «جزء لطيف»، وكأنه تسويغ لبقائه على القضاء، إذ كان عمي في آخر عمره، واستمر عليه. وهو في هذا على خلاف مذهب الشافعي، إذ كان لا يميز قضاء الأعمى^(١٤١). فكان تجويزه له ضرباً من الاجتهاد في هذا الحكم.

- عبد القاهر بن الحسن بن علي بن القاسم الشهرزوري المتوفى سنة (٥٧١هـ / ١١٧٥م)، له (مختصر في الفرائض).

القرن السابع :

- عباد الدين أبو حامد محمد بن يونس بن محمد

ابن منعة المتوفى سنة (٦٠٨هـ / ١٢١١م)، الإربلي الأصل، الموصلية النشأة، وصف بأنه «إمام وقته في المذهب الشافعي». له عدة كتب في الفقه، هي: ^(١٤٢)

١- (المحيط في الجمع بين المذهب والوسيط)، وهو كتاب يجمع بين كتابي (المذهب في المذهب) لأبي إسحق الشيرازي، الذي ذكرناه آنفاً، و(الوسيط) في الفقه لأبي حامد الغزالي، وكلاهما من أئمة الشافعية.

٢- (شرح الوجيز)، وهو شرح لكتاب (الوجيز في الفقه) لأبي حامد الغزالي.

٣- (تعليقة في الخلاف)، وهي في الخلاف الفقهي. وقد ذكروا أنه لم يمتها.

- محمد بن إبراهيم أبو جعفر الرازي المتوفى (٦١٤هـ / ١٢١٧م)، له كتاب: (النوري في مختصر القُدوري)، وهو يتعلق بمختصر أبي الحسين أحمد بن محمد القُدوري المتوفى سنة (٤٢٨هـ /

١٠٣٦م)، إمام الحنفية في عصره في العراق، المشهور بمختصر القُدوري، الذي صنّفه في الفقه الحنفي^(١٤٣)، والذي كان الأحناف يعنون به في الدرس الفقهي. والقُدوري حفيد لجعفر بن حمدان الموصلية المتوفى سنة (٣٢٣هـ / ٩٣٤م) صاحب (دار العلم) التي ذكرناها في أول المدارس الفقهية.

- أبو المظفر محمد بن غُلوان بن مهاجر الموصلية الفقيه الشافعي، الملقب بـ (الشرف)، المتوفى سنة (٦١٥هـ / ١٢١٨م)، الذي تفقه في الموصل وبغداد على كبار الفقهاء كالسروجي وابن بُندار، وبرع في المذهب، ودرّس في المدرسة التي أنشأها والده غُلوان،

ويعادرس آخر. ذكروا له :

(تعليقة في الفقه) ^(١٤٤) ، ولابد أنها تلور على الفقه الشافعي الذي يتبناه .

أحمد بن موسى بن يونس بن محمد بن منعة الموصلي شرف الدين المتوفى سنة (٦٢٢هـ / ١٢٢٥م) ، الفقيه الشافعي ، الذي يوصف بأنه «كان إماماً فاضلاً عاملاً» ^(١٤٥) له :

١ - (اختصار إحياء علوم الدين) ، لأبي حامد الغزالي ، وهو اثنان : كبير وصغير .

٢ - (شرح التنبية) في الفقه ، قال ابن خلكان : «أجاد شرحه» ، ويبر أن شرحه في شرح (التنبية) ياريل ، قبل قدومه الى الموصل سنة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) وتوليه المدرسة القاهرية ، وأنه استعار من ابن خلكان نسخة (التنبية) ، وعليها حواش مفيدة بخط بعض الافاضل ، ويبر أن وجدته قد نقل تلك الحواشي كلها في شرحه . وبين أن هذا الفاضل الذي كانت النسخة والحواشي بخطه ، هو الشيخ رضي الدين داود سليمان بن المظفر بن غانم بن عبدالكريم الجيلي ، الشافعي المقتي بالمدرسة النظامية ببغداد ، وأنه كان من فضلاء عصره وقد توفي سنة (٦٣١هـ / ١٢٣٣م) .

وأورد تقي الدين السبكي المتوفى سنة (٧٥٦هـ / ١٣٥٥م) ، وجوهاً فقهية وقعت في هذا الشرح ، وعلق عليها مبيناً أن فيها غرائب فقهية كثيرة لم ترد في ماتقدم من كتب الشافعية ^(١٤٦) . وهذا يعني أن الإمام السبكي وهو من كبار علماء الشافعية في عصره ، قد اطلع على هذا الكتاب عن كتب ، فتبين له منه ماوصف .

إبراهيم بن عبدالكريم بن أبي الغارات ابو اسحق الموصلي المتوفى سنة (٦٢٨هـ /

١٢٣٠م) ، الفقيه الحنفي ، له :

(شرح قطعة كبيرة من كتاب القُدوري) ^(١٤٨) ، أي المذهب ، في الفقه الحنفي .

أبو المحاسن يوسف المعروف بابن شداد الأسدي القاضي المتوفى سنة (٦٣٢هـ / ١٢٣٤م) ، الذي أشرنا الى علمه وفقهه في كلام سابق ، له كتب منها :

١ - (ملجأ الحكام عند التباس الأحكام) ، وهو في مايتعلق بالأقضية ، في مجلدين .

٢ - (دلائل الأحكام في أحاديث الرسول عليه السلام) ، تكلم فيه على الأحاديث المستنبط منها الأحكام ، في مجلدين .

٣ - (الموجز الباهر للملك الظاهر) ^(١٤٩) ، في الفقه .

المعاني بن إسماعيل بن سنان بن الحسين أبو محمد الموصلي الحنفي ، المتوفى سنة (٦٣٠هـ / ١٢٣٢م) ، كان يدرس الحنفية والشافعية في الموصل ، له كتاب : (الكامل في الفقه) ، وصفه الداودي بأنه «مطول ، جمع فيه كتب الطريقتين» ، وقد رآه السبكي بخطه في مجلدات عديدة ، يحسب أنها عشرة ^(١٥٠) .

كمال الدين ابو الفتح موسى بن يونس بن منعة الموصلي المتوفى سنة (٦٣٩هـ / ١٢٤١م) ، الإمام الجامع للعلوم الكثيرة المتنوعة ، كما ذكرنا ذلك سالفاً . له كتاب في (أصول الفقه) ^(١٥١) . وهو مع كثرة فضله وتبحره قليل التأليف في مايدو .

تاج الدين عبدالرحيم بن محمد بن محمد بن يونس بن منعة المتوفى سنة (٦٧١هـ / ١٢٧٢م) ، المكنى بأبي القاسم الموصلي ، قال عنه اليونيني : «كان عالماً فاضلاً شافعي المذهب» ، له كتب فقهية كثيرة ، تدل على غزارة علمه وسعة فهمه . وأكثرها اختصار

والتي اطلع عليها أهل العلم في عصره والعصور التي تلتها ، دلت على قدرة متميزة على الاختصار. وليس الاختصار في الواقع بالأمر الهين ، وإنما يحتاج الى تمكّن من أداء المعنى تاماً ، بأوجز عبارة دالة عليه بكفاية. ولهذا عرف أهل العلم له هذه الكفاية فوصفه السبكي بأنه : «كان آية في القدرة على الاختصار» ، حتى أن الحنفية سأله اختصار كتاب القدوري لهم ، فقام بهذه المهمة على خير مايرام^(١٥٤).

ولنلاحظ مما تقدم أن القرن السابع للهجرة/ الثالث عشر للميلاد ، كان يزخر بالمصنفات الفقهية القيمة المتنوعة في الموصل . وهو أمر يلفت النظر حقاً ويسترعي الانتباه. فكان هذا القرن المتأخر نسبياً عن عصور الأزدهار العلمي ، هو عصر هذا الازدهار ، لما تضمنته من مصنفات تعد بالعشرات في العلوم الدينية بعامه ، وهي : القراءات ، والتفسير ، والحديث ، والفقه .

- عماد الدين أبو المجد إسماعيل بن هبة الله بن باطيش الموصل ، من فقهاء القرن السابع أيضاً ، ومن أصحاب ابن خلكان المتوفى سنة (٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) ، له كتابان أشار إليهما ابن خلكان : وهما

١- كتاب (المغني) على (المهذب) في الفقه لأبي اسحق الشيرازي ، فسّر فيه غريبه ، وتكلم على أسماء رجاله^(١٥٥) . فسماه (المغني) ، وقد تتبع ابن خلكان التراجم في هذا الكتاب ، ونقد على ابن باطيش بعضها ، مبيناً أنه وهم في أسماء أصحابها . وكان يعبر عن هذا الفقيه بكلمتي : «صاحبنا» ، وهذا التعبير يعني لدى القدامى المصاحبة للدراسة والأخذ ، فيبدو أنه أفاد منه .

٢- (شرح التنبيه) في الفقه لأبي اسحق الشيرازي ، في عشر مجلدات^(١٥٦) .

لمصنفات فقهية عالية . وهي :

١- (التعجيز في اختصار الوجيز) ، وهو اختصار لكتاب الوجيز في الفقه الشافعي لأبي حامد الغزالي . ولفظه (التعجيز) تدل على أنه سلك في اختصاره مسلكاً دقيقاً . ويشعرنا بذلك أيضاً وصف ابن خلكان^(١٥٧) له بأن اختصاره كان «اختصاراً حسناً» ، كما يشعرنا قول السبكي^(١٥٨) بأنه «مختصر عجيب في غاية النفاة» . وكلاهما يوحى بعارته أنه رآه ، وقراه . كما أشار إليه الذهبي .

٢- (مختصر المحصول في أصول الفقه) ، وهو اختصار لكتاب فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٩ م) .

٣- (مختصر طريقة ركن الدين الطاووسي في الخلاف) .

٤- (النبه في اختصار التنبيه) ، وهو اختصار لكتاب (التنبيه) في الفقه الشافعي ، لأبي اسحق الشيرازي .

٥- (شرح التعجيز) ، وهو شرح لكتابه : (التعجيز في شرح الوجيز) ، الذي ذكرناه آنفاً ، ولم يكمله .

٦- (التنويه بفضل التنبيه) . وواضح من اسمه أنه يبين ميزة كتاب أبي اسحق الشيرازي المذكور ، وهو (التنبيه) في الفقه الشافعي ، إذ أن معنى تنوّه بالشيء في فصيح اللغة : اثنى عليه ، وبين محاسنه .

٧- (نهاية النفاة) ، وهو مختصر فقهي ، عدّه السبكي «من أحسن ما اختصره في الفقه» ، ثم قال : «قل أن رأيت مثله في عذوبة منطقته وكثرة المعنى» .

٨- (مختصر القدوري) ، وهو مختصر لكتاب أبي الحسين أحمد بن محمد القدوري ، إمام الحنفية في عصره . وكان لدى السبكي نسخة منه . وهذا المختصر وغيره من المختصرات التي مرّت ،

٣- (طبقات الفقهاء)، ذكره في أحد المواضع، مبيناً أن ابن باطيش وهم فيه ب وفاة ابن الحداد^(١٥٧). ومع هذا فإن كلامه على مؤلفه يدل على اجلاله له. وقد اشار إليه ابن الشعار الموصل، واصفاً إياه بلفظة (الإمام)^(١٥٨).

القرن الثامن :

- زين الدين أبو الحسن علي بن الحسين الموصل الشافعي المعروف بابن شيخ العونية، المتوفى سنة (٧٥٥هـ / ١٣٥٣هـ) له كتاب :

(الحاوي في الفقه) منظوماً رجزاً. وهو ضرب من التأليف ظهر في العصور المتأخرة كثيراً، غرضه تيسير استظهار المادة على الطلبة، يجعلها أرجوزة^(١٥٩).

وأصل الكتاب من تصنيف أبي الحسن علي بن محمد البصري المعروف بالماوردي، الفقيه الشافعي الذي وكان من وجوه الشافعية وكبارهم^(١٦٠). قال ابن خلكان^(١٦١) عن هذا الكتاب : «وله فيه كتاب (الحاوي) الذي لم يطالعه أحد إلا وشهد له بالتبحر والمعرفة التامة بالذهب».

ويبدو أن هذا الكتاب لقي عناية وقبولاً لدى المتفقيين والفقهاء المواصل، ولذلك عمد ابن شيخ العونية الى تيسيره لهؤلاء بنظمه رجزاً.

- محمد بن عبدالله شمس الدين بن أبي السنان الموصل المتوفى سنة (٧٧١هـ / ١٣٦٩م)، له كتاب في الفقه الشافعي هو : (الكامل في فروع الشافعية)^(١٦٢).

الهوامش :

(١) وفیات الأعيان ٥٣/٣.

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ١٣٥/٧.

(٣) بغية الوعاة ١٦١/٢.

(٤) عمد تني الحكم : الأصول العامة للفقه المقارن، دار الأندلس - بيروت ١٩٦٣م ص ١٣ فوق، ١٥.

(٥) عبد الجبار حامد : الحياة العلمية في الموصل في عهد الأتابكة ص ٢٣٦.

(٦) معجم الأدباء ١٩٢/٧.

(٧) طبقات الشافعية الكبرى ٩٣/٧.

(٩) مرآة الجنان، مؤسسة الأعلي - بيروت، ط ٢، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، ٤/١٠١.

(١٠) و (١١) وفیات الأعيان ١٤/٤.

(١٢) الفهرس ص ٢٩٥، ٢٩٧.

(١٣) ينظر الكتابان في وفیات الأعيان ١/٢٩.

(١٤) ذيل طبقات الحنابلة ٢/١٩٣.

(١٥) وفیات الأعيان ٣/٤٤١. وقد جاء فيه أن (المختصر) يشتغل به أكثر المتدين من الحنابلة.

(١٦) ذيل طبقات الحنابلة ١/٣٣٥.

(١٧) المعجم المختص بالحنبلين ص ١٧٦.

(١٨) ابن الشار: عقود الحنابلة ج ١، ٤٥١.

(١٩) ينظر في هذا : الحياة العلمية في الموصل ص ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢٠) وفیات الأعيان ١/٧٨ - ٧٩.

(٢١) وفیات الأعيان ٥/٣١٢.

(٢٢) و (٢٣) الأصول العامة للفقه المقارن ١٣.

(٢٤) المصدر نفسه ص ١٣ - ١٤.

(٢٥) نفسه ص ١٥.

(٢٦) وفیات الأعيان ٣/٥٣ - ٥٤.

(٢٧) طبقات الشافعية الكبرى ٧/١٣٥.

(٢٨) وفیات الأعيان ٥/٣١١ - ٣١٢.

(٢٩) علي تني الحيدري : أصول الاستنباط. شركة النشر والطباعة - بغداد ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠ ص ٣٣.

(٣٠) بغية الوعاة ١٦١/٢.

(٣١) وفیات الأعيان ٥/٣١٢.

(٣٢) التكملة ٤/٣٠٩ - ٣١٠.

(٣٣) طبقات المفسرين ١/٣١٤.

(٣٤) وفیات الأعيان ٧/٢٥٤ - ٢٥٥.

(٣٥) مرآة الجنان ٤/٥٠ - ٥١.

(٣٦) وفیات الأعيان ٣/٥٤ - ٥٥.

(٣٧) وفیات الأعيان ٤/٢٥٤.

(٣٨) طبقات المفسرين ١/٣٠٩.

(٣٩) نفسه ١/٣١٤.

(٤٠) الطبري : الفهرس ص ١٢٥، وابن شهر آشوب : معالم العلماء، المطبعة الحيدرية - النجف ١٩٦١م ص ٦٩ - ٧٠.

(٤١) معالم العلماء ص ٧٠.

(٤٢) وفیات الأعيان ٤/٢٥٣.

(٤٣) وفیات الأعيان ٥/٣١١ وما بعدها.

(٤٤) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، دار الكتب الحديثة

- بالقاهرة ومكتبة المفتي ببغداد- ١٩٦٣ م. ص ١٣٦ و ١٩٣ - ١٩٤.
- (٤٥) معجم الأدباء ١٩٢٧ - ١٩٣، وذكره ابن النديم في الفهرست ص ٢١٣.
- (٤٦) عقود الجمان في شمره هذا الزمان ٢٥٨/٣.
- (٤٧) وفيات الأعيان ٣١٦/٥.
- (٤٨) عقود الجمان ١/١٣٥.
- (٤٩) عقود الجمان ٣/٢٥٨.
- (٥٠) وفيات الأعيان ٥/٣١٣.
- (٥١) التميمي: الدارس في تاريخ المدارس، تحقيق جعفر الحسني، مطبعة الترقى - دمشق ١٩٤٨ م، ٢/ ٢٣٤.
- (٥٢) وفيات الأعيان ٥/ ٢٠٧ - ٢٠٨.
- (٥٣) وفيات الأعيان ١/ ١٠٨.
- (٥٤) الحياة العلمية في الموصل ص ١٤٤.
- (٥٥) داود الجلي: مخطوطات الموصل ص ١٠ نقلاً عن الحركة العلمية في الموصل ص ١٤١.
- (٥٦) وهي غير المدرسة التورية التي بناها بلمشق نور الدين محمد زنكي، سم أبيه.
- (٥٧) وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٣.
- (٥٨) وفيات الأعيان ٥/ ٢٠٧.
- (٥٩) وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٣.
- (٦٠) وفيات الأعيان ١/ ١٩٣.
- (٦١) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ٦٠٦ - ٦٠٧.
- (٦٢) وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٣.
- (٦٣) الحياة العلمية في الموصل ص ١٣٩.
- (٦٤) عقود الجمان ١٠/ ١١٤.
- (٦٥) عقود الجمان ١٠/ ٢٢١ ب.
- (٦٦) الديوه جي: جوامع الموصل، ص ٢٥٦، وينظر: الحياة العلمية في الموصل ص ١٤٠.
- (٦٧) وفيات الأعيان ٧/ ٢٥٥.
- (٦٨) وفيات الأعيان ٥/ ٣١١.
- (٦٩) عقود الجمان ٣/ ١٠٨ ب.
- (٧٠) الحياة العلمية في الموصل ١٢٠ - ١٢٣.
- (٧١) وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٣، وعقود الجمان ١/ ١٠٨ ب.
- (٧٢) أخباره في وفيات الأعيان ٦/ ٥٧ - ٥٨.
- (٧٣) تاريخ إربل ١/ ٢٣٨ - ٢٣٧.
- (٧٤) طبقات الشافعية الكبرى ٨/ ٨١.
- (٧٥) الحياة العلمية في الموصل ١٣٤ - ١٣٦.
- (٧٦) نفسه ص ١٣٠.
- (٧٧) وفيات الأعيان ٧/ ٨٥ و ٨٦.
- (٧٨) نفسه ٧/ ٨٧.
- (٧٩) نفسه ٤/ ٢٤٦.
- (٨٠) وفيات الأعيان ٢/ ١٢٩.
- (٨١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ص ٩٥.
- (٨٢) الحياة العلمية في الموصل ص ١١٣.
- (٨٣) نفسه ص ١١٤.

- (٨٤) نفسه ص ١١٤ - ١١٥.
- (٨٥) وفيات الأعيان ٤/ ٤.
- (٨٦) الحياة العلمية في الموصل ص ١١٨.
- (٨٧) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١٩٠.
- (٨٨) الحياة العلمية في الموصل ص ١٤٠.
- (٨٩) و (٩٠) للمصدر نفسه ص ١٤١.
- (٩١) مصطفى جواد: المباحث الثورية في العراق معهد الدراسات العربية - القاهرة ١٩٥٥ م ص ٢٣. وينظر كتابنا: قه اللغة العربية، مديرية دار الكتب - الموصل ١٩٨٦.
- (٩٢) الدارس في تاريخ المدارس ١/ ١١٤.
- (٩٣) التاريخ الباهر ص ١٨٦.
- (٩٤) نفسه ص ١٨٩.
- (٩٥) الحياة العلمية في الموصل ص ١٤٦ - ١٤٧.
- (٩٦) نفسه ص ١٤٤.
- (٩٧) نفسه ص ١٤٤ - ١٤٦.
- (٩٨) نفسه ص ١٣٢ - ١٣٣. والذي ذكر ذلك هو عز الدين بن الأثير في: التاريخ الباهر ص ١٧٧.
- (٩٩) نفسه ص ١٥٣ - ١٥٤.
- (١٠٠) الوافي بالوفيات ٣/ ٢٧٦.
- (١٠١) التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ص ٨٣.
- (١٠٢) شهرزور: بلدة كبيرة معنودة من أعمال إربل. معناها في العربية: الرعية: بلدة زور. ويذكرون أنها سميت باسم بانها زور بن الصفاك. ينظر وفيات الأعيان ٤/ ٧٠.
- (١٠٣) وفيات الأعيان ٤/ ٦٨ - ٦٩.
- (١٠٤) وفيات الأعيان ٣/ ٤٩.
- (١٠٥) طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٢٢٨.
- (١٠٦) وفيات الأعيان ٢/ ٣٢٧ - ٣٢٨.
- (١٠٧) الأتابك، معناها: مربي أولاد الملك، وهي ليست حرية. وكان السلطان محمود قد سلم ولديه إلى نور الدين زنكي ليربها، فسمي أتابكاً لذلك. ينظر: وفيات الأعيان ٢/ ٢٣٨.
- (١٠٨) طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٣٠١.
- (١٠٩) تاريخ إربل ١/ ٢٠٣.
- (١١٠) طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٩٣.
- (١١١) وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٤ - ٢٤٥.
- (١١٢) التاريخ الباهر ص ٦٣.
- (١١٣) التاريخ الباهر ص ٥٤.
- (١١٤) طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٧٥.
- (١١٥) وفيات الأعيان ٧/ ٨٥.
- (١١٦) ليلقات الشافعية الكبرى ٨/ ٣١١.
- (١١٧) طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٧٥.
- (١١٨) وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٦ - ٢٤٧.
- (١١٩) طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٢٧٦.
- (١٢٠) نفسه ٧/ ٢٧٢ - ٢٧٣.
- (١٢١) وفيات الأعيان ٤/ ٢٤٤.
- (١٢٢) عقود الجمان ١/ ٢٢٢ ب و ٢٢٣.
- (١٢٣) وفيات الأعيان ٤/ ٢٥٤ وما بعدها.

(١٤٤) التكلفة ٣٠٩ / ٤ - ٣١٠ ، وطبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٨١ .
 (١٤٥) وفيات الأعيان ١ / ١٠٨ .
 (١٤٦) وفيات الأعيان ١ / ١٠٩ .
 (١٤٧) طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣٩ - ٤٠ .
 (١٤٨) الحياة العلمية في الموصل ص ٢٤٢ .
 (١٤٩) وفيات الأعيان ٧ / ٩٩ - ١٠٠ ، عقود الجمان ١٠ / ١٧٨ أ .
 (١٥٠) والحركة العلمية في الموصل ١٣٠ .
 (١٥١) طبقات القسرين ٢ / ٣٢٢ - ٣٢٣ .
 (١٥٢) الحياة العلمية في الموصل ص ٢٤١ .
 (١٥٣) وفيات الأعيان ٤ / ٢٥٥ .
 (١٥٤) طبقات الشافعية الكبرى ٣ / ١٤ .
 (١٥٥) ينظر في كتبه : وفيات الأعيان ٤ / ٢٥٥ ، وذيل مرآة الزمان ٣ / ١٤ ، وطبقات الشافعية الكبرى ٨ / ١٩٢ .
 (١٥٦) وفيات الأعيان ٢ / ٥٤١ ، ٥ / ٢١٠ .
 (١٥٧) الحياة العلمية في الموصل ص ١٤٩ .
 (١٥٨) وفيات الأعيان ٢ / ٥٤١ .
 (١٥٩) عقود الجمان ج ١٠ ، و ٢٢ .
 محي هلال السرحان : الفقه ، ضمن كتاب (حضارة العراق) ٩٢ - ٩١ / ١١ .
 (١٦٠) و (١٦١) وفيات الأعيان ٣ / ٢٨٢ .
 (١٦٢) محي هلال السرحان : المصدر نفسه ٩٤ / ١١ .

(١٦٤) وفيات الأعيان ٥ / ٣١١ وما بعدها .
 (١٦٥) وفيات الأعيان ٥ / ٣١٤ .
 (١٦٦) وفيات الأعيان ٥ / ٣١٣ .
 (١٦٧) مرآة الجنان ٤ / ١٠١ .
 (١٦٨) طبقات الشافعية الكبرى ٨ / ٣٩ .
 (١٦٩) وفيات الأعيان ٤ / ٢٥٣ .
 (١٣٠) ابن النديم : الفهرست ص ٢١٣ .
 (١٣١) طبقات الشافعية الكبرى ٧ / ١٩٠ - ١٩١ .
 (١٣٢) وفيات الأعيان ٤ / ٢٩٨ - ٢٩٩ .
 (١٣٣) نفسه ٣ / ٣١٧ .
 (١٣٤) نفسه ٢ / ١٣٩ .
 (١٣٥) طبقات الخنابلة ٢ / ١٩٣ .
 (١٣٦) ذيل طبقات الخنابلة ١ / ١٧٦ .
 (١٣٧) وفيات الأعيان ٣ / ٤٤١ .
 (١٣٨) ذيل طبقات الخنابلة ١ / ٣٣٥ .
 (١٣٩) طبقات الشافعية الكبرى ٧ / ١٣٥ .
 (١٤٠) طبقات الشافعية الكبرى ٧ / ١٣٥ .
 (١٤١) وفيات الأعيان ٣ / ٥٤ ، وطبقات الشافعية الكبرى ٧ / ١٣٥ .
 (١٤٢) ينظر في هذا : وفيات الأعيان ٤ / ٢٥٣ ، وطبقات الخنابلة ٨ / ١٠٩ ، و مرآة الجنان ٣ / ١٤ .
 (١٤٣) وفيات الأعيان ١ / ٧٩ . والفقه : نسبة الى جمع القلود وهو الذي يبيعها . ولا يعلم سبب نسبة اليها .

العلوم التاريخية والجغرافية

أ. د. عبد الواحد ذنون طه

علم التاريخ ، منها الاتجاه الذي ركز على علم الحديث ، واتخذ مركزه في المدينة المنورة ، وعُرف بما يُسمى بمدرسة المدينة . ومن هذا الاتجاه الذي عكس التيار القبلي ، أو اتجاه (الايام) الذي استمر في مجتمع صدر الاسلام ، واتخذ من الكوفة والبصرة مركزاً له وعرف بمدرسة العراق^(١) .

وعلى الرغم من أهمية هاتين المدرستين في نشأة علم التاريخ والاهتمام به فقد ظهرت مراكز أخرى في الدولة العربية الاسلامية أثرت على سير علم التاريخ وساهمت في نشأته بشكل أو بآخر ، ولكن دورها مع ذلك كان محدوداً ، لهذا فقد أطلق عليها اسم المدارس الصغرى^(٢) تمييزاً لها عن المدرستين الكبيرتين في المدينة والعراق . وتأتي مدرستا الحن

اهتم العرب بالتاريخ منذ أزمان تعود الى ما قبل ظهور الاسلام ، حيث كانوا يروون أخبار القبائل وایامها التي تدور على حروبهم ومعاركهم ، كما اهتمت القبائل بالأنساب التي كانت مجالاً خصباً للتفاخر والتباهي بآباء بقية القبائل الأخرى . وبعد ظهور الاسلام ازداد هذا الاهتمام بالتاريخ نتيجة ظهور عوامل عدة ، منها العناية بدراسة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودراسة الحديث النبوي الشريف ، فضلاً عن مسائل اجتماعية واقتصادية وسياسية وإدارية أخرى ظهرت على مسرح الأحداث ، لاسيما مسألة الخلافة وإدارة المناطق المحررة ، وطرق تنظيمها وحكمها . وقد ظهرت نتيجة لهذه الاهتمامات اتجاهات أساسية في بداية

وبلاد الشام في مقدمة هذه المدارس الصغرى . ولكن هذا التخصيص في ذكر الاماكن التي شهدت الاهتمام بالتاريخ ودراسته والتأليف فيه ، لا يعني وجود مراكز محلية اخرى صغيرة ظهرت فيها محاولات أولية للمساهمة في هذا العلم . ويمكن الاشارة في هذا المجال الى عدة من المدن المختلفة في الدولة العربية الاسلامية ، التي برز فيها كتاب ومؤرخون أسهموا في رفد الحركة التاريخية العامة في العالم الاسلامي ، وأصبحو جزءاً لا يتجزأ من هذه الحركة في سيرها وتطورها العام .

وتأتي مدينة الموصل ومنطقتها في طليعة هذه الاماكن التي شهدت اهتماماً بالتاريخ ، ومحاولات جادة للاسهام في التأليف فيه ، والكتابة ضمن اختصاصاته المتعددة . ولقد تدرج هذا الاهتمام من المحاولات الأولية اليسيرة في العصور الاسلامية المبكرة ، الى مراحل النضوج في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ثم الوصول الى قمة التطور في القرنين السادس والسابع للهجرة / الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، حيث برز في هذه الحقبة أعظم مؤرخي الموصل عز الدين ابن الأثير ، الذي يُعد في الوقت نفسه من كبار المؤرخين في العالم الاسلامي ، الذين رقدوا الحركة التاريخية باسهامات متنوعة شملت معظم مجالات المعرفة التاريخية .

ولعل من المحاولات الأولية التي ظهرت في منطقة الموصل ما ينسب الى حفص بن أشيم ، أحد فقهاء الخوارج من أهل قرية بافخارى الواقعة على دجلة شرقي الموصل^(٣) ، الذي ألف كتاباً في الفرق والرد عليهم ، رواه كما يذكر ابن النديم^(٤) ، عن جبير بن غالب ، الذي كان بدوره فقيهاً شاعراً وخطيباً فصيحا ألف في السنن والاحكام والفقه ، وهو من أهل الكار الأسفل في الموصل . ويرجع زمن هذه المحاولات الى النصف الاول من القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي ، حيث كان الصراع على أشده بين الخوارج في منطقة الجزيرة الفراتية ، وكل

من السلطتين الأموية والعباسية . وكان حفص بن أشيم يتولى العقود للخوارج اذا خرجوا على السلطة ، وهو خال حسان بن مجالد الهمداني الموصل الذي خرج من قرية بافخارى على الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي سنة ١٤٨هـ / ٧٦٥م^(٥) .

ويبدو أن الموصل لم تكن في هذه الحقبة المبكرة بمعزل عن أحداث العالم الخارجي ، فقد اهتم أحد مثقفيها ، وهو حبيب بن بهريز مطران الموصل بتأليف كتاب عن أخبار اليونانيين في أيام الخليفة المأمون في مطلع القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي^(٦) . كما اهتم أيضاً بعض ادبائها بالأخبار وروايتها ، ومنهم جعفر بن محمد بن حمدان الموصل (توفي سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٤ - ٩٣٥م) ، الذي كان من اكابر أهل المدينة ووجهائها ، وله اهتمام بالعلوم الشرعية ، ورواية الاخبار ، والاطلاع على علوم الأوائل . وقد ألف كتاباً في الاخبار ، عارض به كتاب الروضة لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد (توفي سنة ٢٨٦هـ / ٨٩٩م) ، ولقبه بـ الباهر^(٧) . كما ألف ابو بكر محمد بن الحسن المعروف بالقاش الموصل (توفي سنة ٣٥١هـ / ٩٦٢م) كتاباً عن اخبار القصاص^(٨) ، وهو من الكتب القلائل التي وضعت عن تاريخ الوعظ والواعظين الذين كانوا يعرفون يومئذ بالقصاص^(٩) .

ويجدر بالذكر ان جميع الكتب المشار اليها آنفاً مفقودة ولم تصل اليها ، ولكن لحسن الحظ فقد تبقى لنا أحد اجزاء مؤلف مهم في تاريخ الموصل ذاتها ، كتبه ابو زكريا يزيد بن محمد بن ايباس الأزدي (توفي سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م) ، الذي كان قاضياً للمدينة ، وأحد المحدثين المعروفين^(١٠) . وقد ألف أيضاً كتاباً عن طبقات المحدثين ، أو العلماء من أهل الموصل ، يتردد ذكره في كثير من مؤلفات رجال الحديث ، كما أشار اليه الأزدي نفسه^(١١) ، وهو من الآثار المفقودة التي استفاد منها من جاء بعده من المؤرخين^(١٢) . وقد أشار الأزدي^(١٣) ، الى

تأليفه لكتاب آخر بعنوان القبائل والخطط ، ضمنه معلومات واسعة عن القبائل العربية وانسابها وأخبارها وخطط بعضها ، لاسيما مالك بن فهم وولده ، كذلك الاحرار والفرسان في عصر ما قبل الاسلام ، ومن له وفود على الرسول صلى الله عليه وسلم . والفقه والعلم والرواية في الاسلام . وهذا الكتاب ايضا من الكتب المفقودة ، ولم تشر اليه المراجع التي نعرفها^(١٤) .

بتألف كتاب تاريخ الموصل من ثلاثة اجزاء ، وتشير صفحة العنوان في الجزء المتبقي منه الى انه «المجلد الثاني من تاريخ الموصل» . ومن المؤسف اننا لانعرف شيئاً عن الجزئين الأول والثالث^(١٥) . ويعالج الجزء الثاني فترة طويلة نسبياً من تاريخ الاسلام من سنة (١٠١ - ٧٢٤هـ / ٨٣٨ - ٧١٩م) ، وقد تناول هذه الحقبة ضمن تاريخ حولي ممتاز تطرق فيه الى الاحداث السياسية العامة للدولة العربية الاسلامية ، مع اهتمام بارز بالموصل وولاتها واعمالهم ، وتواريخ وفيات العلماء فيها ، كما حرص على تسجيل الاحداث الاقتصادية والاجتماعية في المدينة ، فضلاً عن التركيز على انساب القبائل التي سكنت الموصل وما حولها ، وبين دورهم في الحركات السياسية التي قامت في الدولة العربية الاسلامية في العهدين الأموي والعباسي . وعلى الرغم من عنوان الكتاب الخاص بالموصل «فليس من الصواب» ، كما يقول محقق الكتاب ، «أن نقول انه تاريخ خاص بالموصل أو تاريخ عام للدولة الاسلامية ، لأن ابا زكريا يعالج تاريخ بلده ضمن الاطار العام للتاريخ الاسلامي ولعل الأقرب الى الصواب ان نقول : انه تاريخ عام من وجهة نظر مواطن موصل يثير اهتمامه بعض حوادث التاريخ التي أثرت في حياة بلده ، فسجلها بتفصيل واسهاب وفي صدق وحاس»^(١٦) .

سار الأزدي في تنظيم مادة كتابه على طريقة الحوليات (Annals) ، ويشير هذا النظام ، كما يدل عليه اسمه ، الى تعاقب السنين المفردة . ويُعد

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (توفي سنة ٣١٠هـ / ٩٢٢م) أول مؤلف مسلم دَوّن التاريخ على هذه الطريقة ، وبقي لنا كتابه . ومن المرجح ان الأزدي أخذ هذه الطريقة عن الطبري وتأثر بها . وان كان هناك اشارات الى مؤلفين آخرين سبقوا الطبري في هذا المجال ، ولكن فقدت مؤلفاتهم ، من امثال كتاب تاريخ سني العالم لأحمد بن علي ابن يحيى المعروف بابي عيسى المنجم ، وكتاب التاريخ على السنين ، للهيثم بن عدي (توفي سنة ٢٠٦هـ / ٨٢١م)^(١٧) . ومما يزيد احتمال تأثر الأزدي بطريقة الطبري ، التشابه الواضح بين كثير مما كتبه أبو زكريا والطبري ، حيث اتبع الأول الطبري وتأثر به ، لكنه لم يشر اليه في الجزء الثاني ، وربما أشار اليه في الجزء الأول ، كما يرى محقق الكتاب^(١٨) ، ولكن لا يمكن الجزم انه نقل كل مادته من كتاب تاريخ الرسل والملوك ، لاسيما وان ابا زكريا يروي بعض الحوادث التاريخية المهمة عن رواة غير رواة الطبري .

وتُعد الرواية الشفهية المصدر الرئيس لمادة الأزدي ، لكنه مع ذلك انتفع من كتب السابقين أو المعاصرين له ، ويشير الى هذا الأمر بقوله : «ولم أعمل هذا التاريخ من كتاب معمول مؤلف اعتمدت فيه على امر الموصل خاصة ، وانما جمعته من كتب شتى ، وقد ذكرت ما وجدت ، ولم أعدل عن الصدق»^(١٩) . ولكن الأزدي لا يذكر عناوانات الكتب التي أخذ منها ، بل يشير فقط الى اسماء المؤلفين ، أو يقول : قرأت في كتاب قديم ، أو قرأت في تاريخ ، ولا يزيد على ذلك . وقد استخدم في بعض الحالات النادرة الوثائق الأصلية في تاريخه ، من ذلك مثلاً ، اعتماده على كتاب وجده في بعض كتب قاضي الموصل الحارث بن الجارود العتكي ، في عهد الخليفة ابي جعفر المنصور العباسي ، في تقرير أنه كان على خراج المدينة أيضاً ، فيقول : «ووجدت في بعض كتب الحارث بن الجارود القديمة : بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب

للحارث بن الجارود عامل امير المؤمنين اكرمه الله على خراج الموصل كتبه سليمان بن عبد الله ونوح بن شهاب وقزط بن مأمون^(٢٠).

اتبع الأزدي بالنسبة للرواية الشفهية خطوات المحدثين، أو المؤرخين السابقين له، ولا ننسى انه كان محدثاً بالأساس، لهذا فقد اتبع طريقته في الاشارة الى الراوي الذي نقل له الحديث، ثم تدرج في ذكر الرواة وصولاً الى الراوي الأول للخبر، وقد تطول سلسلة الرواة أو تقصر تبعاً لطريقة وصول الخبر اليه. ونجد في بعض الاحيان الخبر مسنداً الى شيخه، أو الى أحد تلاميذه فقط^(٢١). وكان يتحرى أن يكون الرواة ثقات، ويحرص على اختيارهم، كما يبحث عن صحة الخبر ايضاً. ولا يتدخل كثيراً في الروايات اللهم الا اذا تضاربت، فيبدي رأيه أحياناً، وهذا قليل وهو يمثل أقل مجهود ممكن في النقد والتحجيص^(٢٢). فهو لا يبعد النقد مباحاً، حسب قول محقق الكتاب، مادامت سلسلة الرواة غير مطعون فيها، وإن مهمة المؤرخ في نظره أن يسجل ماوجده بدقة وأمانة، وعلى القارئ أن يستنتج مايريد، وبطبيعة الحال، لا يمكن أن يُوجه اللوم الى الأزدي لهذا الموقف، فهو ابن عصره، ومعظم المؤرخين المعاصرين له ساروا على هذا النهج وفي مقدمتهم الطبري.

ويعود الفضل لأبي زكريا الأزدي انه كان المصدر الأصلي لكل المعلومات التاريخية الخاصة بالموصل لمن كتب بعده تاريخاً لهذه المدينة، حيث انتفع منه المؤرخون اللاحقون بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وإن لم يذكروه بالاسم. فلقد نقل عنه ابن الأثير الشيء الكثير، ولم يزد عليه شيئاً في السنوات من (١٠١ - ٢٢٤هـ / ٧١٩ - ٨٣٨م)، وهي السنوات التي يعالجها الجزء المتبق من الكتاب. أما بالنسبة للفترة التي سبقتها من كتاب أبي زكريا فلا نجد شيئاً كثيراً عنها في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير، مما يشير الى احتمال فقدان هذا الجزء

قبل ايام ابن الأثير. أما الفترة التي اعقبت سنة ٢٢٤هـ / ٨٣٨م ففيها معلومات كثيرة في كتاب الكامل في التاريخ، مما يشير الى وجود الجزء الثالث في ايام ابن الأثير، واعتاده عليه، فضلاً عن استعانة ببعض المعلومات الشفهية، لاسيما بالنسبة للفترة القريبة منه^(٢٣). ومع ذلك فإن المعلومات الواردة في كتاب الكامل قريبة الشبه مما أورده الأزدي، كما أنه اشار اليه في مقدمة كتابه أسد الغابة في معرفة الصحابة، باعتباره من المصادر الاولى التي اعتمد عليها في تأليفه لهذا الكتاب^(٢٤). ولكنه لا يشير بالتحديد الى أي كتاب من كتب الأزدي كان اعتماده، ويغلب على الظن، حسب رأي محقق الكتاب (تاريخ الموصل)^(٢٥)، انه يشير الى كتاب طبقات محدثي الموصل المفقود.

وشهدت الموصل ومنطقها في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي نشاطاً ملحوظاً في التأليف في مجالي التاريخ والجغرافية ايضاً وينسجم هذا الأمر جداً مع حالة الازدهار الثقافي التي عمت معظم اجزاء العالم الاسلامي في المشرق والمغرب. وقد بدأت بواكير هذا الازدهار في مجال التأليف في الموصل بكتاب الأزدي المشار اليه آنفاً، ثم استمرت بعده، ولاجيال عدة. فقد قام ابو بكر محمد بن عمر بن سلم، المعروف بابن الجعابي (توفي سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٦م) بتأليف كتاب في تاريخ الموصل ايضاً. وعلى الرغم من ان هذا الرجل لم يكن من اهل الموصل. لكنه عاش فيها حقبة من الزمن حيث عمل قاضياً للمدينة، كما يشير ابن الخطيب البغدادي^(٢٦) ولانتوافر لدينا معلومات عن هذا الكتاب سوى ما نقله ابن حجر العسقلاني^(٢٧)، منه في احدى تراجمه الخاصة بمحمد بن داود بن صبيح المصيصي، ويبدو انه خاص بالتراجم عن علماء ومحدثي المدينة، اسوة بكتاب ابن الجعابي الآخر الخاص بمحدثي بغداد. كذلك قام ابو الحسن علي بن محمد بن المطهر

العدوي السميساطي او الشميشاطي ، مؤبد ناصر الدولة ابا تغلب بن حمدان واخيه (توفي سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م) ، بكتابة تاريخ الموصل الذي هو على الأرجح تذييل لتاريخ الموصل لابي زكريا الازدي من سنة ٣٢٢هـ / ٩٣٣ - ٩٣٤م حتى زمان المؤلف . وقد أشار ابن الأزرقي الفارقي الى هذا الكتاب ، ونقل عنه في كتابه تاريخ ميفارقين^(٢٨) . كما ألف ايضاً مختصراً لتاريخ الطبري ، وكتاباً عن الديارات ،^(٢٩) الذي يعد اكبر كتاب كتب في هذا الموضوع ، وصف فيه اكثر من ثلاثين ديراً ، وقد نقل ابن العديم في بغية الطلب ، حيث يسميه بكتاب الديرة ، وينص على رؤيته بخط المؤلف^(٣٠) .

وبرز في هذا العصر ايضاً الاخوان ابوبكر محمد وابو عثمان سعيد الخالديان ابنا هاشم بن ولة الخالدي (توفي الاول سنة ٣٨٠هـ / ٩٩٠م والثاني سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م) ، ويعود اصلهما الى قرية من قرى الموصل تعرف بالخالدية ، وكانا شاعرين اديبين ألفا في موضوعات متعددة ، اشتهر منها كتاب اخبار الموصل^(٣١) ، او تاريخ الموصل ،^(٣٢) الذي يشبه حسب رأي فرانز روزنتال^(٣٣) ، تاريخ الموصل لابي زكريا الأزدي ، حيث وضع فيه هذان المؤلفان الموصل في مكانها ضمن نطاق جغرافي ، وربما تأريخي أوسع . وذلك لاتساع افقهما واتصالهما الوثيق بالمناطق المحيطة بالموصل ، ثم خدمتها في حاشية سيف الدولة الحمداني ، حيث أصبحت خازني كتبه^(٣٤) . ثم عاشا بعد ذلك في كنف الوزير المهلهبي أبي محمد الحسن بن محمد بن هارون وزير معز الدولة البويهبي (توفي سنة ٣٥٢هـ / ٩٦٣م) . وقد ألف هذان الاخوان ايضاً كتاب الديارات وكتاب التحف والهدايا ، الذي يعد ديواناً لختارات من الشعر والنثر في الهدية ، ومجموعة من الاخبار تشبه ما جاء في كتب القرن الثالث والرابع الهجريين / التاسع والعاشر للميلاد ، من نوادر وأقاصيص وحكايات تزيد من ثروتنا الأدبية والتأريخية والاجتماعية واكثر هذه الاخبار ، كما يقول

محقق الكتاب ، لم يقع في كتب الأدب المعروفة المتداولة ، ولم تصل اليها في المصادر المطبوعة ، لهذا فإن كتابها يكمل كتب الادب ويحتل مكاناً خاصاً لا يقل عن غيره من امهات الكتب في الاخبار وال نوادر والامالي^(٣٥) .

وقبل أن نختم حقبة القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، لابد من الاشارة الى أحد الجغرافيين العرب المتميزين في هذه المنطقة ، ذلك هو محمد بن علي بن حوقل ، الذي ولد في مدينة نصيبين بالجزيرة ، وتوفي بعد عام ٣٦٧هـ / ٩٧٧م ، والذي يلقب بالنصيبى ، والموصلي^(٣٦) . بل أن ياقوت الحموي^(٣٧) ، يشير اليه دائماً باسم التاجر الموصلي . وقد ألف هذا الرجل كتاباً جغرافياً يقوم على الملاحظة ، والتعرف المباشر على احوال البلدان والشعوب . وتركزت مساهماته الشخصية في ميدان الكتابة على نحو رئيس على مناطق الجزيرة والموصل التي كان يعرفها معرفة جيدة ، وكذلك على الشطر الغربي من العالم الاسلامي الذي خصه بالرحلة والاستكشاف . ويبدو أن ابن حوقل لم يكن يضع جداً فاصلاً بين اسباب تأليفه للكتاب ، التي اشار اليها في مقدمته ، والتي تتضمن شغفه بكتب المسالك ، ومحاولة التعرف على المسافات بين البلدان ، وبين قيامه بالرحلات وجبه للتعرف على الحقائق على نحو مباشر ، وعدم اقتناعه بالكتب المتيسرة في ذلك الوقت ، وقلة ثقته بروايات الرواة . وقد امتزج ذلك كله مع رغبته في ترك الأوطان لتفشي الجور والفساد وجبه للاستكشاف والمغامرات وما يصاحب ذلك من مزاوله التجارة وكسب الرزق.^(٣٨)

ومن المرجح ان العامل الاخير كان طاعياً على ابن حوقل ، حيث يمكن ملاحظة اهتمامه بالفعاليات التجارية من خلال وصفه لهذه الفعاليات التي يذكرها غالباً بالارقام عن الاسعار والمنتجات والشؤون الاقتصادية بعامة . فالتجارة اذاً هي الدافع الاساس في رحلات ابن حوقل ،

ولشغفه باخبار البلدان كان يجمع في اثناء رحلاته معلومات وفيرة ، هذا فضلاً عن قراءته لكتب من سبقوه من الجغرافيين من امثال ابي القاسم عبيدالله ابن عبدالله المعروف بابن خرداذبة (توفي نحو سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م) ، وابي عبدالله محمد بن أحمد الجيهاني (توفي في اواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي) ، وقدامة بن جعفر (توفي سنة ٣٣٧هـ / ٩٤٨م) ، واتصاله بابي اسحق بن ابراهيم الاصطخري (توفي سنة ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) ، الذي طلب منه مراجعة كتبه وخرائطه ، فتولدت لديه فكرة اعادة كتابة موضوع المسالك والممالك للاصطخري ، بعد اضافة تجاربه الخاصة اليه ^(٣٩) فاصبح كتاب ابن حوقل صورة الارض مخططاً حقيقياً واضحاً للانتاج في العالم الاسلامي ، لأن مؤلفه هو الجغرافي العربي الوحيد في عصره الذي اولى هذا الامر مثل ذلك الاهتمام ، فكان كتابه بحث يمثل الدررة التي بلغها العرب في وصف البلدان في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ^(٤٠) .

وعلى الرغم من ان كتاب صورة الارض هو كتاب جغرافي بالدرجة الاولى ، فانه مع ذلك يحوي الكثير من المعلومات التاريخية ، فضلاً عن الحقائق الخاصة بالحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للبلاد التي يتحدث عنها . وتتجلى مقدرة ابن حوقل في تحليل العوامل والاسباب الاقتصادية ، وربطها بمقدرات البلد السياسية لاسيما في المقارنات التي يعقدها بين مختلف المناطق التي زارها ، والتي سبر أغوارها عن قرب . ولعل اوضح مثال على ذلك ، اشارته الى اثر السياسة الاقتصادية السيئة التي اتبعها الحمدانيون في منطقة الجزيرة والموصل على تردّي الاحوال فيها ، لاسيما على تناقص الانتاج الزراعي ، وتعطل الماطن القائمة على دجلة ^(٤١) . كذلك تجدر الاشارة الى مقارنته الطريقة بين كل من الحمدانيين في الموصل وحلب والامويين بالاندلس ، واعتبارهما ، حسب رأيه ، سواء في

اتباع الاساليب غير المشروعة في جمع الاموال والطريقة التي انتهت بها الثروة اليهم . ولعل افضل ماختم به حديثنا عن هذا الموضوع الاشارة الى النص الآتي ، الذي يوضح وجهة نظر هذا الجغرافي عن توفر الاموال في عهد الخليفة الحكم المستنصر الاموي (٣٠٠-٣٦٦هـ / ٩٦١-٩٧٦م) :

«ولم يكن لهذا المال في وقته في بلد الاسلام شبه الا ما كان في يد الغضنفرابي تغلب بن الحسن بن عبدالله بن حمدان ، فانه كان مما يتعامله خاصتهم بالجزيرة والعراق ، ومقداره يزيد على ذلك حتى قيل انه كان خمسين الف الف دينار ، وأدال الله منه فأخرجه عن يده وبحقه وبدهه : وكذلك عادة الله تعالى في كل ما كسب من حرام واجتمع بالبغي والظلم والاثام . وصورة ما بالاندلس من المال الذي قدمت ذكره صورة ما للشقي بن الشقي . وقد استحوذ عليه ابو عامر بن ابي عامر صاحب السكة بالاندلس وقتنا هذا ، فهو يذلّ تفرقه وشقي به من جمعه وباء باثمه من لم يحظ به » ^(٤٢)

واذا ما انتقلنا الى الحقبة الممتدة على مساحة القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادي عشر والثاني عشر للميلاد ، نجد سكوت المصادر عن الاشارة الى جهود التأليف التاريخي او الجغرافي في الموصل ومنطقها ، ويستثنى من ذلك الحقبة التي تقع في أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر للميلاد ، حيث ظهر فيها نشاط ملحوظ في مجال التأليف التاريخي ، من ذلك مثلاً ، كتاب تاريخ الموصل لابني اسحق ابراهيم بن محمد بن يزيد الموصل (توفي سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م) ^(٤٣) . ولم يصل هذا الكتاب النيا ، لهذا لا يمكن الحكم على مجاء فيه ، او طريقته في التأليف . ولكن هذه الحقبة ، اي اواخر القرن السادس وبداية القرن السابع للهجرة ، شهدت تطوراً كبيراً جداً في مجال التأليف ببروز أبي الحسن عزالدین علي بن ابي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد الشيباني ، المعروف بابن الاثير الجزري ، الذي ولد

في جزيرة ابن عمر،^(٤٤) في الرابع من جمادى الاولى سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م، وتوفي في الموصل في شعبان سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٤ م.

كان والد ابن الاثير يعمل موظفاً عند حكام الموصل منذ عهد عباد الدين زنكي، ويرجع عبدالقادر احمد طليحات،^(٤٥) انه كان عاملاً للوزير جمال الدين، وزير عباد الدين، على جزيرة ابن عمر، ويستند في هذا الترجيح على ما ذكره ابن الاثير نفسه من ان والده كان نائباً لجمال الدين، وانه كان يتولى ديوان جزيرة ابن عمر وخزانها^(٤٦). وكان عز الدين احد ثلاثة اخوة في الاسرة، اهتم والدهم بتربيتهم جميعاً، وتعليمهم حسب عادة أهل العصر، حيث حفظوا القرآن الكريم منذ الصغر، وتعلموا مبادئ القراءة والكتابة في المكاتب، ثم انتقلوا الى مرحلة الدراسة المعمقة، وتلقى العلم على الشيوخ. وقد اتجه كل واحد من الاخوة الثلاثة اتجاهاً خاصاً في حياتهم العلمية، فقد اختار عز الدين التاريخ، واختار مجد الدين ابو السعادات المبارك العلوم الدينية، واختار ضياء الدين الادب، واشتهر كل منهم في ميدانه.^(٤٧)

عاش عز الدين ابن الاثير، كما لاحظنا، في بيئة تتوافر فيها مقومات البحث والاهتمام العلمي، فضلاً عن ان أسرته كانت مرفهة ايضاً من الناحية الاقتصادية، حيث كانت تمتلك عدة بساتين بقرية العقبة من اعمال جزيرة ابن عمر^(٤٨).

كذلك كانت تمتلك قرية في جنوبي الموصل تسمى قصر حرب.^(٤٩) وبالإضافة الى عمل والده في الدولة فقد كان يشتغل ايضاً بالتجارة، لاسيما مع مصر، حيث ترد اشارات الى وجود اموال، وقوافل، وسفن، كانت تعمل له في هذا المجال^(٥٠). وقد انتقل عز الدين مع والده واخوته الى الموصل في رجب سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م، وذلك بعدما أعني والده من منصبه في جزيرة ابن عمر^(٥١). واستكمل تلقى العلم في الموصل على يد شيوخ متعددين، كما قدم بغداد مراراً، وسمع بها،

ورحل الى الشام والقدس، وسمع هناك من جماعة من العلماء، ثم عاد الى الموصل ولزم بيته منقطعاً الى العلم والتصنيف^(٥٢)، حيث ألف معظم اجزاء كتابه الكامل في التاريخ في قرية قصر حرب^(٥٣). وقد التقى ابن الاثير بابن خلكان في مدينة حلب سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م، حينما كان الاول ضيفاً على شهاب الدين طغرل اتابك الملك العزيز بن الملك الظاهر صاحب حلب، ثم سافر الى دمشق، وعاد الى حلب. وبعد ذلك رجع الى الموصل حيث توفي فيها، كما أسلفنا سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م^(٥٤).

اهتم ابن الاثير بفروع التاريخ المختلفة، فكرس كتابه الكامل في التاريخ للتاريخ العام، ونحصر كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة للتراجم، كما ألف كتاب اللباب في تهذيب الانساب، الذي يهتم بالانساب. كذلك ساهم في كتابة التاريخ المحلي الخاص، فأرخ لاحدى الأسر الحاكمة في الموصل، وهي الاسرة الزنكية، التي خصها بكتاب التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، الذي يعد بحق المصدر الاول والاصيل لتاريخ هذه الاسرة، واحداث ذلك العصر، ولكن يبقى كتابه الكامل في التاريخ قمة ما وصل اليه في مجال التأليف التاريخي من حيث التجديد، والابداع، وسعة الافق، والشمول، ووضوح المنهج، والرصانة التاريخية. ولعل هذه الرصانة، او «نفاذ البصيرة التاريخية» هي اهم ما يميز عمل ابن الاثير، ويقرنه بكتاب الطبري المتمثل بتاريخ الرسل والملوك، حتى اصبح مؤلفاهما التاريخيان الكيبران مقترنين في الأذهان اقتراناً شديداً، فكانما يتحتم اذا ذكر تاريخ الرسل والملوك للطبري، ان يذكر بعده بديهة الكامل في التاريخ لابن الاثير.^(٥٥)

كان الدافع لتأليف كتاب الكامل في التاريخ، رغبة ابن الاثير في تأليف كتاب جامع شامل لاجبار ملوك الشرق والغرب وما بينهما، حيث يشير الى انه لم

يجد في عصره مثل هذا الكتاب الذي يمكن ان يشفي غليل القاري والباحث، على الرغم من كثرة متابعته لمطالعة الكتب وتقصيه عنها. وكل ما واجده ان معظم المؤرخين الذين سبقوه ارحوا الى زمانهم، ثم ذبل من جاء بعدهم عليهم، ومع ذلك، فقد أدخل الشرقي منهم باخبار المغرب، واهمل الغربي منهم اخبار المشرق، ولهذا لم يعد بالامكان الوقوف على تاريخ متصل لاخبار العالم الاسلامي، اللهم الا اذا قرأ المطالع مجلدات كثيرة، وكتباً متعددة قد لا تخلو من الاخلال، واثارة الملل. ولم يدع ابن الاثير، مع ذلك انه اتى على ذكر جميع الحوادث المتعلقة بالتاريخ «فان من هو بالموصل لابد أن يشذ عنه ما هو باقصى الشرق والغرب» كما يقول، ولكنه يستدرك فيذكر انه جمع في كتابه الكامل مالم يجتمع في كتاب واحد، ومن تأمله علم صحة ذلك.^(٥٦) وعلى الرغم من هذا فهو يقر بالتقصير متواضعاً ومعترفاً بعدم الكمال: «فلا أقول ان الغلط سهو جرى به القلم، بل اعترف بأن ما أجهل أكثر مما أعلم»^(٥٧)

اعتمد ابن الاثير على الطبري في الروايات التي أوردها عن القرون الثلاثة الاولى في الاسلام، فأشار الى أتم الروايات التي أضاف اليها ما ليس منها، وجمع الجميع في سياق متكامل. كذلك اعتمد على غيره من التواريخ التي أضاف منها ما ليس في تاريخ الرسل والملوك للطبري، باستثناء ماجرى بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يضيف شيئاً الى ما ذكره الطبري. ولقد لاحظ ابن الاثير ان بعض المؤرخين السابقين يذكر الحادثة الواحدة في سنين، ويذكر منها في كل شهر أشياء، فتأتي الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض، ولا تفهم الا بعد إتمام النظر، فججمع الحادثة في موضع واحد، وذكر كل شيء منها في اي شهر أو سنة كانت، فأتت، حسب قوله، متناسقة متتابعة. وقد جمع الحوادث الصغار في

نهاية كل سنة تحت عنوان «ذكر عدة حوادث»، كما ذكر في نهاية كل سنة من توفي فيها من العلماء والاعيان المشهورين، وضبط الاسماء المشتبهة المتنوعة في الخط المختلفة في اللفظ^(٥٨).

إستفاد ابن الاثير من التراث التاريخي السابق له في تكوين حس تاريخي، قاده الى الحكم الصائب على الاحداث، واستنتاج النتائج، وادراكها مستقبلاً. كما تميز بتعليل الاحداث تعليلاً يدل على وعيه وحسن تفهمه، وقدرته على النقد يضاف الى ذلك اعراضه عن التهويل والمبالغة، وميله الى الموضوعية في كتابه الكامل^(٥٩). ويمكن ملاحظة قدرة المؤلف على النقد والتحليل على نحو واضح في اثناء تعرضه لكتابة تاريخ الحقبة التي عاصرها أو كان قريباً منها، لاسيما وأنها كانت تتميز بظهور احداث عظيمة الخطورة على الأمة العربية الاسلامية، مثل الحروب الصليبية والغزو المغولي. وقد عدّ ابن الاثير الهجوم الصليبي على الوطن العربي جزءاً لا يتجزأ من هجوم يشنه الغرب المسيحي على العالم الاسلامي، وأشار الى عدة حلقات في سلسلة واحدة تبين خطر الغزو الأجنبي الفرنجي على العالم الاسلامي. فذكر في حوادث سنة ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م حين ابتدأ حديثه عن الحروب الصليبية النص الاتي الذي يؤكد هذا الموقف: «كان ابتداء ظهور دولة الفرنج، واشتداء أمرهم، وخروجهم الى بلاد الاسلام، واستيلائهم على بعضها، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فلكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس... ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها... وتطرقوا الى اطراف افريقية فلكوا شيئاً وأخذ منهم، ثم ملكوا غيره على ماتراه. فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا الى بلاد الشام...»^(٦٠).

استوفى ابن الاثير أحداث الغزو الصليبي التي ابتدأت منذ عام ٤٩١ هـ / ١٠٩٨ م، واستمرت طيلة حياته، مستعيناً بمصادر وثيقة اعتمد عليها،

فغطاها تغطية يُعتد بها ، لما تميزت به من سعة ودقة وشمول . لذلك فإن الحقبة التي أُرْخها ، وتبلغ مئة وسبعة وثلاثين عاماً ، تُعد من أفضل الحقب التي عولجت تاريخياً ضمن فترة الحروب الصليبية ، بفضل تصدي هذا المؤرخ الفذ لها ، وتناوله اياها بما هو معهود عنه من دقة ، وموضوعية ، وبعد نظر^(٦١) . ولقد عاصر ابن الأثير أيضاً جانباً مهماً من بدايات تعرض العالم العربي الاسلامي للغزو المغولي ، وأرخ ذلك حتى نهاية تاريخه الكامل في سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣٠م . ولقد هزت احداث هذا الغزو ابن الأثير ، فبدأ كلامه عنه في احداث سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م قائلاً : «لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظماً لها ، كارهاً لذكرها ، فأنأ أقدم اليه رجلاً وأؤخر أخرى ، فن يسهل عليه أن يكتب نعي الاسلام والمسلمين ، ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ، فيألت أمي لم تلدني ، وبألتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً...»^(٦٢) . ولا ينسى ابن الأثير أن يربط في خضم هذه الاحداث بين الغزو الصليبي من الغرب ، والخطر المغولي من الشرق ، فيقول عن انتصار المسلمين على الصليبيين ، واسترجاع دمياط ، في احداث سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م : «فرزقهم الله اعادة دمياط ، وبقيت البلاد بأيديهم على حالها ، فالله الم محمود المشكور على ماأنعم به على الاسلام والمسلمين من كف عادية هذا العدو ، وكفاهم شر التتر....»^(٦٣) ويعمل ابن الأثير ابتلاء المسلمين بهذه الاخطار واستمرارها نتيجة الفتنه والخلاف الذي استحكم بين مختلف فئات الامة ، وعدم وجود حكام اقوياء متضامنين يقفون في وجههم^(٦٤) .

أما كتاب التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ، فقد تناول فيه ابن الأثير تاريخ الاسرة الزنكية ، اي اسرة الأتابك عماد الدين زنكي بن قسم الدولة آقسنقر الحاجب ، حيث أمدنا بمعلومات قيمة عن الزنكيين لم يذكرها في كتابه الكامل ، لاسيما عن

مصير عماد الدين بعد مقتل والده ، وتنقله في خدمة امراء الموصل ، وحياة نور الدين الخاصة والعامة ، ونظم الزنكيين ، واحوال الموصل الاجتماعية والاقتصادية والعلمية في عهدهم ، كذلك أبدع في وصف المعارك التي دارت بين الصليبيين ، وكل من عماد الدين ونور الدين^(٦٥) . ولكن يلاحظ على هذا الكتاب ان ابن الأثير لم يلتزم في بعض الاحيان بالموضوعية ، وعدم المبالغة والتحويل ، التي تجنبها في كتابه الكامل . لأنه في هذا الكتاب الأخير ، كان يكتب بأسلوب المؤرخ الذي تهمة المادة التاريخية أكثر مما تهمة البلاغة والأساليب البيانية ، بينما جمع في الباهر بين المؤرخ والأديب ، فاستعمل السجع بتوسع كبير ، واستشهد كثيراً بالشعر ، وضرب الامثال في بعض المناسبات ، لاسيما عند سخرته بالصليبيين وهزأتهم أمام المسلمين^(٦٦) . ولما كان كتاب الباهر بالأساس مؤلفاً للإشادة باخبار الدولة الأتابكية ، وما قدمته من خدمات للمنطقة ، ومُهدى الى أحد امرائها ، وهو القاهر مسعود بن ارسلان شاه بن مسعود بن مودود زنكي ابن آقسنقر ، فقد اضطر فيه ابن الأثير الى اتباع منهج خرج به بعض الشيء عن مبدأ الحيادة التاريخية ارضاءً للامير القاهر ، وتجنب اثبات بعض الاخبار التي قد تفرح أصحابها لثلاث لم يحدش كبريائه ، مثل الصراع بين الزنكيين وصلاح الدين الأيوبي وخلفائه ، كما ضغط بعض الاحداث والتفاصيل وأحال القارئ الى كتاب الكامل^(٦٧) . أما مصادره ، فذكر أنه اعتمد على ماسمعه من والده الذي قال ابنه عنه : «كان رواية حسناتهم ، وعين الخبر بحركاتهم وسكناتهم ، وقد فأنني كثير مما سمعته منه ، لأنني جمعت هذا القدر من حفظي بعد وفاته ، ولم أثبتة بقلمي في حياته»^(٦٨) . وأشار ابن الأثير أيضاً الى مصادر أخرى رجع اليها في مناسبات قليلة ، منها تاريخ دمشق لابن عساكر^(٦٩) ، واخبار حلب لابن العديم^(٧٠) ، والعماد محمد بن حامد الكاتب في بعض

مصنفاته^(٧١). كما نقل عن بعض الشخصيات المعاصرة للحوادث، فضلاً عن أن مادة الباهر هي نفس مادة الكامل، مع فارق الأسلوب.

ويختلف منهج ابن الأثير في كتابيه أسد الغابة في معرفة الصحابة، واللباب في تهذيب الأنساب، حيث إنه حاول فيها أن يختصر، أو يجمع بين ما كتبه السابقون له، ويقدم مادة أسهل من حيث تناول والشمول. ويشير ابن الأثير، وهو يتحدث عن الكتاب الأول، إلى وجود الكثير من التصنيفات في هذا الموضوع قائلاً: «فأريت أن أجمع بين هذه الكتب وأضيف إليها ما شئت منها...»^(٧٢). وقد صنف كتابه على حروف الهجاء، شارحاً بعض الألفاظ الغريبة التي ترد في الأحاديث في آخر كل ترجمة. وقد ذكر فضلاً يتضمن الحوادث المشهورة للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، كالهجرة إلى الحبشة، وإلى المدينة المنورة، وبيعة العقبة، وكل حادثة قتل فيها أحد الصحابة، كما ذكر فضلاً ضمنه أسانيد الكتب التي كثر تخريجها منها حتى لا يكرر الأسانيد في الأحاديث طلباً للاختصار^(٧٣). وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لا يُعد عملاً متفرداً في هذا الميدان، لكنه مع ذلك يقدم مادة سهلة تشمل تراجم نحو سبعة آلاف وخمسمئة صحابي، وهو يدل بلا شك على سعة اطلاع ابن الأثير، وشمول مصادر ثقافته.

وقد دفع اهتمام ابن الأثير بالأنساب إلى التفكير في تأليف كتاب فيها، لاسيما وأنه كان يعتقد أن التصنيف في هذا الموضوع قد قل، أو اندثر إلى حد كبير، مما حمل الناس على ترك الاهتمام بالأنساب وجهلها، والخطأ والتحريف فيها. ويشير ابن الأثير إلى أن نفسه نازعته كثيراً لتأليف كتاب يحوي الأنساب ويجمع ما فيها من المعارف والآداب، وفي أثناء بحثه عن المصادر التي تصلح مادة لمثل هذا الكتاب، عثر على كتاب الأنساب لأبي سعد عبد الكريم السمعاني (توفي سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٦ م)، فاعجب به كثيراً وعده

«غاية في الملاحاة ونهاية الجودة والفصاحة...»^(٧٤)، فشرع في اختصاره والتنبيه على بعض ما فيه من غلط أو سهو من غير أن يقلل من قيمة الكتاب. وقد اعتمد ابن الأثير في أكثر ما نقله على ما ذكره هشام الكلبي، لأنه أشهر علماء النسب وأحفظهم وأقلهم وهماً، ولم يكن من نقل الأقاويل لئلا يطول الكتاب، ولم يستدرك عليه إلا بما كان قبله أو في أيامه، أما بعده، فيعد تذيلاً وليس استدراكاً^(٧٥). وبطبيعة الحال لا يُعد كتاب اللباب عملاً مبتكراً، أو جهداً جديداً، كما اعترف المؤلف نفسه، لكنه مع ذلك حظي بتقدير العلماء اللاحقين، وطفى على الأصل في سعة الانتشار، واختصره جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (توفي سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) بدوره في كتاب جديد سماه لب اللباب^(٧٦).

لم تتوقف منطقة الموصل التي انجبت ابن الأثير، وهو بلا شك من أبرز مؤرخي العالم الإسلامي في القرنين السادس والسابع للهجرة/ الثاني عشر والثالث عشر للميلاد، عن العطاء، فقد ظهر فيها أيضاً مؤرخون وكتاب آخرون، كان لهم دور كبير في هذه الحقبة من الزمن. واشتهر منهم ثلاثة اختصوا بكتابة فروع مختلفة من المعرفة التاريخية، منها السيرة الذاتية أو المذكرات، التي نبغ فيها بهاء الدين ابن شدّاد، ومعاجم التراجم، التي يمثلها أصدق تمثيل ابن الشعار الموصل في كتابه عقود الجمان، وأخيراً التاريخ المحلي، أو بالأحرى تاريخ الموصل بالذات لابن باطيش الموصل.

ولد بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم في الموصل ليلة العاشر من رمضان سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٥ م. وتوفي أبوه وهو صغير السن، فنشأ عند أخواله بني شدّاد فنسب إليهم، وكان شدّاد جدّه لأمه. درس ابن شدّاد في الموصل، وحفظ بها القرآن في صغره، ثم تعلم فن القراءات، وقرأ بالطرق السبع على الشيخ أبي بكر يحيى بن

معلمه من حسننا، ومنهجه في ترتيب الكتاب قائلاً: «رأيت أن اختصر ذلك على ما أملاه عليّ العيان، أو الخبر الذي يقارب مظهره درجة الاقتان، وذلك جزء من كل، وقُل من جُل، ليستدل بالقليل على الكثير... وأسميت هذا المختصر من تاريخها: «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» وجعلته في قسمين: أحدهما في مولده - رحمه الله - ومنشئه، وخصائصه، وأوصافه، وأخلاقه المرضية، وشماله الراجعة في نظر الشرع الوافية. والقسم الثاني: في تقلبات الأحوال به، ووقائمه وفروحه، وتواريخ ذلك إلى آخر حياته، قدس الله روحه...» (٧٩).

وعلى الرغم من أن حياة صلاح الدين الأولى لم يُخصص لها إلا نحو عُشر الكتاب، لكننا نجد أنه ظل محور الأحداث التي استطرد ابن شداد في روايتها، وظلت شخصية صلاح الدين الإنسانية واضحة للقارئ (٨٠). ولقد نجح ابن شداد في الوصول إلى دقائق حياة هذه الشخصية الفذة، بفضل صلته الوثيقة والقرية بها. فقد لازمه طوال الحقبة الأخيرة من حياته التي قضاها في الشام من سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨ م إلى ٥٨٩هـ / ١١٩٣ م، وخاطله مخالطة تامة، ولم يكتب إلا ما شاهده أو أخبر به الثقة. ويعبر ابن شداد عن هذا الأمر بوضوح قائلاً: «... وما سطرت إلا ما شاهدته، أو أخبرني الثقة به وحققته، وهذا بعض ما طلعت عليه زمان خدمتي له...» (٨١)، ويضيف أيضاً «وجميع ما حكيت قبل إنما هو روايتي عن أثق به ممن شاهده، ومن هذا التاريخ ما سطرت إلا ما شاهدته أو أخبرني به من أثق به خبراً يقارب العيان» (٨٢).

ومع جميع هذه الاحتياطات التي أشار إليها ابن شداد في تحريره للأخبار الصحيحة نجد أحد المستشرقين (٨٣)، يشير إلى احتمال عدم تمحيصه للأخبار. ولكنه يستدرك قائلاً، إن بهاء الدين لم يعدد إلى إخفاء أي حقيقة أو تحريفها. وهو عتيق في

سعدون القرطبي إحدى عشرة سنة، كما تتلمذ عليه في معظم مارواه من كتب القراءة، ورواية الحديث وشروحه والتفسير. وقد انحدر إلى بغداد بعد أن تأهل بالعلم ونزل بالمدرسة النظامية، وعمل فيها معيداً نحو أربع سنين، ثم رجع إلى الموصل عام ٥٦٩هـ / ١١٧٣ م، وأصبح مدرساً في المدرسة التي أنشأها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزوري. وحج بيت الله الحرام عام ٥٨٣هـ / ١١٨٨، وور في طريق عودته على دمشق حيث قابل السلطان صلاح الدين الأيوبي، والتحق بخدمته في مستهل شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨، حيث ولاه قضاء العسكر في بيت المقدس. وتوجه ابن شداد بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي إلى حلب، فعمل على القضاء والأوقاف، كما تولى الوزارة والمشاورة، وكان له نفوذ بارز في عهدي الظاهر غياث الدين بن صلاح الدين، وابنه أبي المظفر العزيز. وقد استغل نفوذه هذا في تأسيس المدارس، ووقف عليها الأموال الكثيرة. وقد قضى ابن شداد بقية حياته معتكفاً في داره يجتمع إليه العلماء والفقهاء لسماع الحديث إلى أن توفي عام ٦٣٢هـ / ١٢٣٤ م (٧٧).

كتب ابن شداد مؤلفات عدة في الفقه والاحاديث والأقضية، مثل كتاب دلائل الاحكام، وكتاب ملجأ الحكام عند التباس الاحكام، وكتاب فضائل الجهاد، الذي أهداه إلى صلاح الدين الأيوبي، وكتاب الموجز الباهر في الفقه، وكتاب النوادر السلطانية أو سيرة صلاح الدين الأيوبي ويتبوأ الكتاب الأخير مكانة ممتازة في مؤلفات ابن شداد، حيث يمكن اعتباره من كتب المذكرات، كما يمكن عده أيضاً سيرة حقيقية لصلاح الدين الأيوبي كتبها «باسلوب سهل لا التواء فيه، وصور فيها شخصية صلاح الدين الانسان تصويراً يعز أن يبلغه أي مصنف تاريخي عام» (٧٨). ويشير ابن شداد في مقدمة كتابه إلى الطريقة التي اتبعها في تدوين هذه السيرة ورواية

هذا ، فمن الواضح جداً أنه التزم التزاماً تاماً بالأمانة العلمية في الكتابة. وكان ينص على بعض الاحداث التي لم يشاهدها بأنه لم يكن حاضراً. مثال ذلك ما ذكره عن وقعة الرمل سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م ، فقد عَقِبَ على وصفها بالقول : «وهذه الوقعة لم أحضرها فإني كنت مسافراً...» (٨٤) . ولهذا السبب غُدت هذه السيرة من أوثق المراجع للتأريخ لحياة صلاح الدين ، وعليها اعتمد جل المؤرخين اللاحقين من عرب ومستشرقين ، لاسيما الحقبة الاخيرة من هذه الحياة ٥٨٤ - ٥٨٩هـ / ١١٨٨ - ١١٩٣م ، وهي فترة حافلة بالنضال ضد الصليبيين (٨٥) .

وتجلى أهمية هذه السيرة أيضاً في انها تقدم وصفاً تفصيلياً دقيقاً للاحداث التاريخية ، وللمعارك الحربية ، ولأدوات القتال والحرب المستخدمة بين المسلمين والصليبيين ، مما لانجده في مصدر آخر ، حيث وصفت هذه الادوات وصفاً دقيقاً ، مثل الدبابات الجروح ، والكبش ، والسُنُور ، والابراج ، والمنجنيق (٨٦) . كما ينفرد الكتاب أيضاً بذكر الكثير من الأوضاع الاجتماعية والادارية في المجتمعين الاسلامي والصليبي (٨٧) . فضلاً عن احتوائه على عدد من الوثائق المهمة التي تلقي اضواء على العلاقات بين صلاح الدين والدول المسيحية المجاورة ، مثل الكاغيكوس مقدم الأرمن ، وامبراطور بيزنطة (٨٨) .

أما الشخصية الأخرى التي برزت في هذه الحقبة فتتمثل في جبال الدين أبي البركات المبارك ابن أبي بكر أحمد بن حمدان ، المعروف بابن الشعار الموصل ، الذي ولد بالموصل في مستهل شهر صفر سنة ٥٩٥هـ / ١٢٠١م . وقد زار ابن الشعار مدينة أربل في مقتل شبابه سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧ - ١٢٢٨م . والتقى هناك بشرف أبي المبارك ابن أحمد اللخمي الأربلي المعروف بابن المستوفي (توفي سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) . وقد كتب الأخير ترجمة مختصرة في كتابه تاريخ أربل ، أشار فيها الى

قدمه الى أربل ، وهو شاب مغرم بجمع الاشعار ، ويحفظ جملة من تاريخ وحكايات وأشعار واسماء شعراء وانسابهم ومواليدهم ووفاتهم ، وأنه كان شعاراً يعمل آلة الجمل وغيرها من عمل الشعر (٨٩) . وقد أشار اليه أيضاً عبد الرزاق بن أحمد الشيباني البغدادي المعروف بابن الفوطي (توفي سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) في اماكن عديدة من موسوعته تلخيص مجمع الآداب في معجم اللقاب ، كما ترجم له في الجزء الخامس من هذه الموسوعة (الترجمة رقم ٤٨٥) (٩٠) . حيث يشير ابن الفوطي الى انه كان من الادباء الذين عنوا بجمع الشعر وكتابته مدة خمسين عاماً ، وأنه ذُيِّلَ كتاب معجم المرزباني ، وذكر فيه كل من نظم شعراً بعد وفاة المرزباني الى سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٣م ، ثم صنف كتاب عقود الجمان ، وذكر فيه الشعر الى آخر أيامه ، وتوفي سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م (٩١) .

ويشير ابن الفوطي ايضا الى استفادته شخصياً من تصانيف ابن الشعار ، وارتباحت الى مؤلفاته ، وهي شهادة لها قيمتها العلمية ، اذا ما أخذنا بنظر الاعتبار مكانة وأهمية ابن الفوطي البارزة في مجال العلم والتدوين التاريخي . وقد انتفع ابن خلكان أيضاً بكتاب عقود الجمان للشعار ، ونقل عنه في مواضع عديدة من كتابه وفيات الاعيان (٩٢) ، حيث يشير اليه على الدوام بكلمة «صاحبنا» ، لانه كان صديقاً شخصياً له ، فقد تعاصر الاثنان ، وأقاما حقبة من الزمن في أربل ، ومن المرجح انها كانا زميلين في الدراسة على ابن المستوفي (٩٣) .

ولتعد الآن الى كتاب عقود الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان ، لنطلع على أهم ما يحتويه من موضوعات ، حيث انه يُعد من أوسع معاجم التراجم وأغناها ، وقد تناول فيه المؤلف شعراء العالم الاسلامي ممن عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد ، وادركوا القرن السابع / الثالث عشر للميلاد . ويقع هذا الكتاب في عشرة أجزاء تزيد صفحاتها على خمسة آلاف صفحة ، فهو

أشبه بموسوعة للشعراء المسلمين. وهناك مخطوطة الكتاب الفريدة بالمكتبة السلطانية باستانبول (رقم ٢٣٢٣ - ٢٣٣٠ خزنة أسعد أفندي)، وهي تنقص المجلدان الثاني والثامن وقد أعد سامي الصقار دراسة قيمة عن هذا الكتاب، وحقق مقدمة المؤلف، وأشار الى أسماء التراجم الواردة فيه، فأدى بذلك خدمة كبيرة ساعدت على اطلاع الباحثين على أهمية هذا الكتاب وما يحويه من موضوعات متعددة^(٩٤).

يشير ابن الشعار في مقدمته الى منهج التأليف والطريقة التي اتبعها في جمع مادته قائلاً: «... فأخذت الى أن اجمع من الشعراء الذين دخلوا في المائة السابعة وأدولوها، وانخرطوا في سلك فريقها وجاوزوها. على حسب ماصار لديّ حصوله، واتفق اليّ وقوعه ووصوله، من شعراء عصري، ومحاسن فضلاء دهري، وأفرد لذلك كتاباً بسيطاً حاوياً لشوارد كلامهم محيطاً بشتل الفث والسمين والقشيب والرت، ليكون أجمل في العميون وأهبي، وأحلى في النفوس وأشهى... فبادرت بمحمد الله وفضله السابغ وطوله، التقطه من الشفاء، وائلقفه من الأفواه... وقد وسمت هذا الكتاب بـ «قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان» اعني بذلك زماني ومن أدركه من الشعراء عياني...»^(٩٥).

ويلاحظ على هذا النص، ان ابن الشعار قد أسمى كتابه بـ «قلائد الجمان»، في حين عُرف واشتهر باسم عقود الجمان، عند الذين ذكروه وأشاروا اليه من القداسي والمحدثين. وعلى الرغم من أن هذا العنوان بصيغته الاثنتين يشير الى إهتمام المؤلف بالشعراء بنحو خاص، لكنه مع ذلك يضم بين دفتيه عدداً كبيراً من هؤلاء ممن ينتمون الى طبقة رجال العلم، وارباب الدولة، والقضاة، وأهل الدين. لذلك فإن أهمية هذا الكتاب لا تقتصر على وصف الحياة الأدبية حسب، بل تبرز أيضاً في تدوين النواحي السياسية والدينية والاجتماعية^(٩٦). ولقد وصفه قطب الدين أبي

الفتح البويني (توفي سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م) بالمؤرخ الموصلي^(٩٧)، كما أورد بروكلمان^(٩٨)، كتابه عقود الجمان، ضمن تواريخ الرجال وكتب الأنساب، وأشار شاكرك مصطفى^(٩٩)، الى مشاركة ابن الشعار الواسعة في التاريخ من خلال كتبه المختلفة، والتي يأتي في مقدمتها هذا الكتاب.

وفي محاولة لابراز الأهمية التاريخية لكتاب عقود الجمان، يحسن أن نشير الى ما ذكره سامي الصقار في هذا الشأن بقوله: «ولعل البعض يظن أن هذا الكتاب ألصق بتاريخ الأدب، ولا قيمة له من ناحية التاريخ العام. وهنا يهمني أن أوضح لمن قد يظن مثل هذا الظن، بأن من ترجم لهم ابن الشعار لم يكونوا مجرد شعراء، بل أن من بينهم أناساً من مختلف الطبقات، ولكن القاسم المشترك بينهم هو قول الشعر، اذ نجد بينهم عدداً غير قليل من رجال الدولة، فهناك مثلاً ترجحات لعدد من الملوك، بينهم الملك الكامل الأيوبي، وعبد الرحيم بن عمر بن شاهنشاه الايوبي المعروف بالملك الفايز، والملك الايوبي غازي بن يوسف بن أيوب، والأمير سنجر ابن المقلد بن سليمان العقيلي ملك العرب، ولؤلؤ بن عبد الله الأفضلي النوري حاكم الموصل^(١٠٠). وفضلاً عن هؤلاء يحتوي كتاب ابن الشعار على عدد آخر من تراجم الوزراء والقضاة، وأهل العلم، والمؤرخين والجغرافيين، من امثال مؤرخ أربل الشهير ووزيرها ابن المستوفي، ومؤرخ بغداد محب الدين النجار، والبلداني المؤرخ ياقوت الحموي^(١٠١).

ولم يختص ابن الشعار بأهل حرفة معينة، او طبقة واحدة من الناس، كما لم يختص بأهل بلد واحد، او قطر معين، على الرغم من كونه موصلياً من أهل العراق، فقد جاء كتابه حصيلة لقاءاته العدة، وأسفاره الكثيرة الى مختلف المناطق، مثل واسط، ودمشق، واربل، وحلب. يضاف الى ذلك ان كتابه يحوي تراجم لختلف الشعراء من اقطار العالم الاسلامي، بما فيها الاندلس. ولكن

الهجرية الأولى ، وإلى منتصف القرن السابع ، مدى الاسهام الكبير الذي قدمته في مجال الدراسات التاريخية والجغرافية التي ضمت مختلف فروع هذه التخصصات ، لاسيا في التاريخ ، حيث قدمت المدينة عدداً لا بأس به من ابرز المؤرخين المعروفين على نطاق العالم الاسلامي ، والذين ساهموا في كتابة التاريخ المحلي ، والعالمي ، ومعاجم التراجم ، والانساب ، والمذكرات الشخصية . ولا يمكن للباحث ان يتحدث عن التاريخ العربي دون أن يشير الى اساطين المؤرخين الذين برزوا في الموصل ، كل في عصره ، ومجاله ، وتخصصه ، كأبي زكريا الأزدي ، وعزالدين بن الاثير ، وبهاء الدين بن شداد ، وهي اسماء لامعة في مجال المعرفة التاريخية التي تميز بها الفكر العربي الاسلامي على مر العصور.

الهوامش

- (١) عبد العزيز الدوري ، بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٠ ، ص ١٩ ، ٦١ ، ١١٨ ، ١١٩ ، شاكر مصطفى ، التاريخ العربي والمؤرخون ، ط ٢ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٧٩ : ١ / ١٤٩ ، ١٦٩ .
- (٢) المرجع نفسه : ١ / ١١٨ .
- (٣) ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٧٧ : ١ / ٣٢٦ .
- (٤) ابو الفرج محمد بن اسحق ، الفهرست ، بيروت ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، عن طبعة القاهرة ، ١٣٤٨ هـ ، ص ٢٥٩ ، ٣٣٠ .
- (٥) ابو زكريا يزيد بن محمد بن اباس الأزدي ، تاريخ الموصل ، تحقيق ، علي حبيبة ، القاهرة ، ١٩٦٧ : ٢ / ٢٠٥ - ٢٠٦ ، وينظر ايضاً : مصطفى ، المرجع السابق : ١ / ١١٢ .
- (٦) ابو عبد الله حمزة بن الحسن الأصفهاني ، تاريخ سني ملوك الأرض ، بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة (دون تاريخ) ، ص ٧٢ .
- (٧) ينظر : ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق ، محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ٤ ، القاهرة ، مطبعة السعادة ، ١٩٦٤ : ١ / ١٦ ، ابن التيم ، المصدر السابق ، ص ٢١٣ ، ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم الادباء ، بيروت ، دار المستشرق (دون تاريخ) : ٧ / ١٩٠ - ١٩٤ ، محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، الاعلان بالتوبيخ لن ذم اهل التاريخ ، نشر مع

من الطبيعي ان يكون للعراقيين لاسيا اهل منطقة الموصل وأربل نسبة اكبر من التراجم . كذلك ترجم لشعراء غير مسلمين من يهود ونصارى ، ولم يقصر اهتمامه على الجانب الشعري في حياة مترجميه ، بل كان يشير الى الجوانب الاخرى من حياتهم (١٠٢) واخيراً برز من علماء القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، عماد الدين ابو المجد اسماعيل ابن ابي البركات هبة الله بن ابي الرضى بن باطيش الموصل ، الفقيه الشافعي (المتوفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م) ، الذي كتب عدة مؤلفات ، منها كتاب التمييز والفصل بين المتفق في الخط والنقط والشكل ، وكتاب طبقات الفقهاء ، او اخبار الفقهاء الشافعية ، وهو احد الاصول التي اعتمدها السبكي ، وكتاب المغني ، الذي وضعه على كتاب المهذب في الفقه ، وفسر غريبه ، وتكلم على اسماء رجاله ، وقد نقل ابن خلكان من معظم هذه الكتب وأشار إليها في كتابه وفيات الاعيان (١٠٣) .

كما يحتمل انه نقل ايضاً من كتابه الاخر في التاريخ المسمى بتاريخ الموصل ، واعتمده في تاريخ وفاة الشيخ ابن عقيل الأربلي سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م (١٠٤) . ويبدو ان ابن باطيش كان صديقاً لابن خلكان ، حيث يشير اليه الاخير غالباً بعبارة «صاحبنا عماد الدين بن باطيش» (١٠٥) . ويحتمل انه التقى به في أربل ، لانه كان كثير التنقل للدراسة على الشيوخ ، لاسيا في الحواضر العلمية المعروفة ، مثل الموصل وبغداد ، وحلب . ومن المؤسف ان كتاب تاريخ الموصل لابن باطيش من الكتب المفقودة في الوقت الحاضر ، وقد أشار السخاوي ، (١٠٦) اليه باسم الموصل فقط ، ومن المرجح انه كان في التراجم ، على طريقة الخطيب البغدادي وغيره ، لاسيا وان ابن باطيش كان من كبار المحدثين (١٠٧) .

وهكذا يتبين من استعراض هذه المسيرة الطويلة في تاريخ الموصل ومنطقها منذ القرون

- (٣١) ابن التديم، المصدر السابق، ص ٢٤٠ - ٢٤١
- (٣٢) كارل بروكلمان، تاريخ الادب العربي، ترجمة، عبدالحليم النجار، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٩: ٧١/٣.
- (٣٣) علم التاريخ عند المسلمين، ص ٢١٢.
- (٣٤) ينظر: ابو العباس احمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، وفيات الاميان وانباء الزمان، تحقيق، احسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٦٨: ٣/ ٤٠٤ - ٤٠٥. وينظر: مصطفى، المرجع السابق: ٣٠٨/١، ٧٢/٢ - ٧٣.
- (٣٥) كتاب التحف والمدايا، تحقيق، سامي الدهان (مقدمة المحقق)، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٦، ص ٢١م - ٢٢م.
- (٣٦) ينظر عنه: اغناطيوس بوليانوفتش كرانسكوفسكي، تاريخ الادب الجغرافي العربي، ترجمة، صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، ١٩٦٣، ٢٠٠/١: نفيس احمد، جهود المسلمين في الجغرافية، ترجمة، فحسي عثمان، القاهرة، سلسلة الألف كتاب، ص ٥٤: دائرة المعارف الاسلامية، ١، الترجمة العربية، مادة: (ابن حوقل).
- (٣٧) معجم البلدان، الطبعة الاوربية بناية أوورد وستفلد، لايزيك، ١٨٦٦: ١/ ٣٢٠، ٣٧٥، ٤٤٣، ٤٠٩/٣، ٥٩/٤.
- (٣٨) ابو القاسم محمد بن علي بن حوقل، صورة الارض، بيروت، دار مكتبة الحياة، ١٩٧٩، ص ١٠.
- (٣٩) المصدر نفسه، ص ٢٨٤.
- (٤٠) بشار: آدم متر، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري. ترجمة محمد عبدالمهدي ابو ريدة، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧: ١٠/٢.
- Encyclopaedia of Islam, new edition. article: "Ibn Hawqal".
- (٤١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٩٨.
- (٤٢) المصدر نفسه، ص ١٠٧ - ١٠٨: ويقارن: عبدالواحد ذنون طه، الاندلس من خلال كتاب صورة الارض لابن حوقل، مجلة الموزع العربي، المبد ٢٣، بغداد، ١٩٨٣، ص ٥٥.
- (٤٣) السخاوي، الاعلان بالتبويب، ص ٦٥١: وينظر: مصطفى، المرجع السابق: ٢١/٢: علي حبيبة في مقدمة التحقيق لتاريخ الموصل للأزدي، ص ٢٠.
- (٤٤) جزيرة ابن عمر بلدة تقع فوق الموصل، وبينها ثلاثة ايام، اول من عمرها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي: ياقوت، معجم البلدان: ١/ ١٣٨.
- (٤٥) في مقدمة التحقيق لكتاب: التاريخ الباهر في الدولة الاتابية بالموصل، القاهرة، دار الكتب الحديثة، ومكتبة المتن ببغداد، ١٩٦٣، ص ٧.
- (٤٦) ابن الاثير الباهر، ص ١١٨. ١٤٧
- (٤٧) ابن خلكان، المصدر السابق: ١٤١/٤ - ١٤٣، ٣٨٩/٥ - ٣٩٧، وينظر: الباهر (مقدمة المحقق، ص ٩)
- (٤٨) ابن الاثير، الباهر، ص ١٤٧.
- (٤٩) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، بيروت، دار صادر، ١٩٧٩: ٥٧٢/٥.
- (٥٠) المصدر نفسه: ٨٢/١٢: ابن الاثير الباهر، ص ١٥٥

- كتاب: علم التاريخ عند المسلمين، تأليف: فرائز روزنتال، ترجمة: صالح احمد الملي، بغداد، مكتبة المتن، ١٩٦٣، ص ٦٨٨، وينظر أيضاً: مصطفى، المرجع السابق: ١/ ٩٣/٢، ٢٢٢.
- (٨) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول، ١٩٤١، أعادت طبعة بالافيسيت مكتبة المتن ببغداد: ٢٨/١.
- (٩) مصطفى، المرجع السابق: ٨٦/٢.
- (١٠) ابو عبد الله شمس الدين محمد الذهبي، تذكرة الحفاظ، ط ٤، حيدر آباد الدكن، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٨٨هـ: ٨٩٤/٣.
- (١١) تاريخ الموصل: ٣١٠/٢.
- (١٢) ينظر: الذهبي، المصدر السابق: ٢٨٧/١، ابو الحسن علي بن ابي الكرم المعروف بابن الاثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، طهوان، انتشارات اسماعيليان، عن طبعة جمعية المعارف بالقاهرة، المطبعة الوهية، ١٢٨٦ هـ: ١١/١.
- (١٣) تاريخ الموصل: ٩٦/٢.
- (١٤) ينظر: المصدر نفسه (مقدمة المحقق)، ص ١٥.
- (١٥) المصدر نفسه (مقدمة المحقق)، ص ١٥.
- (١٦) المصدر نفسه، (مقدمة المحقق)، ص ١٩.
- (١٧) ينظر: ابن التديم، المصدر السابق، ص ٢٠٧، ١٤٦، ويقارن: فرائز روزنتال، علم التاريخ عند المسلمين، ترجمة، صالح احمد الملي، بغداد، مكتبة المتن، ١٩٦٣، ص ١٠١ - ١٠٥، السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ٨٧ - ٨٨.
- (١٨) تاريخ الموصل (مقدمة المحقق)، ص ٢٤.
- (١٩) المصدر نفسه: ٢٥٠/٢.
- (٢٠) المصدر نفسه: ١٩٩/٢.
- (٢١) المصدر نفسه (مقدمة المحقق)، ص ٢٨ - ٢٩.
- (٢٢) المصدر نفسه (مقدمة المحقق)، ص ٢٩ - ٣٠.
- (٢٣) المصدر نفسه (مقدمة المحقق)، ص ٢٢.
- (٢٤) ابن الاثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة: ١/ ١١.
- (٢٥) مقدمة المحقق، ص ١٣.
- (٢٦) ابو بكر احمد بن علي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي (دون تاريخ): ٢٦/٣.
- (٢٧) شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي، تهذيب التهذيب، ١، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف النظامية، ١٣٢٥ - ١٣٢٧ هـ (اعادت نشره بيروت دار صادر): ٩/ ١٥٤.
- (٢٨) مخطوط التحف البريطاني، الورقة ٣٥ وجه (تقلاً عن: مصطفى، المرجع السابق: ٢٠/٢).
- (٢٩) ابن التديم، المصدر السابق، ص ٢٢٠.
- (٣٠) ابن التديم، بغية الطلب، مخطوط احمد الثالث باستانبول، ج ٨، الورقة ٢٢٠ ظهر، والورقة ٩١ وجه، والورقة ١٧٠ ظهر (تقلاً عن: مصطفى، المرجع السابق: ٣٠٨/١ - ٣٠٩).

الدين، تحقيق، جمال الدين الشيال، القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٤، ص ٤.

(٨٠) روزنثال، علم التاريخ عند المسلمين، ص ١٤٦.

(٨١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٣٤.

(٨٢) المصدر نفسه، ص ٨٧.

(٨٣) جب، المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٨٤) ابن شداد، المصدر السابق، ص ١١٦.

(٨٥) ينظر: المصدر نفسه، (مقدمة التحقيق، ص ١١).

(٨٦) المصدر نفسه، ص ٢٦-٢٧، ٤٢، ٩٥، ١٢٠، ١٣٦، ١٤٢، ينظر أيضاً مقدمة التحقيق، ص ١٢.

(٨٧) المصدر نفسه، ص ١٢، ١٣، ٨٩، ٩٧، ١٢٦، وينظر أيضاً مقدمة التحقيق، ص ١٢.

(٨٨) المصدر نفسه، (مقدمة التحقيق، ص ١٣).

(٨٩) ابن المستوفي، تاريخ أربيل، تحقيق، سامي بن السيد خماس الصقار، بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠، ١/ ٣٨٤.

(٩٠) ينظر: ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، تحقيق، مصطفى جواد، دمشق، ١٩٦٢-١٩٦٧: ٤/ ٢١٨، ٢٤٨. وقد إطلعت على الترجمة التي أوردتها المحقق في الجزء الرابع هامش (٣)، ص ٢١٨-٢١٩. كما أوردتها أيضاً محقق ابن المستوفي، تاريخ أربيل: ٥٩٧/٢ (التعليقات).

(٩١) يشير قطب الدين أبي الفتح موسى بن محمد بن أحمد البرزيني، إلى أنه ولد سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦م، وتوفي بحلب في آخر سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م. ينظر: ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٤: ١/ ٣٣.

(٩٢) ينظر: ابن خلكان، وفیات الاعيان: ٤/ ١٥٠، ٦٥/٦، ١٣٨، ٣٨/٧، ٩٣، ٢٣٦.

(٩٣) المصدر نفسه: ١٤٧/٤.

(٩٤) ينظر: سامي الصقار، ابن الشعراء، ابن الشعر الموصلي مؤرخ الشعراء وكتابه عقود الجمان في شعراء هذا الزمان، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، م ٦، ١٩٧٩، ص ٢١٧-٣١٢.

(٩٥) ابن الشعراء، مقدمة عقود الجمان، نقلاً عن المرجع السابق، ص ٢٤٥-٢٤٦.

(٩٦) الصقار، المرجع السابق، ص ٢١٨.

(٩٧) ذيل مرآة الزمان: ١/ ٣٣.

(٩٨) تاريخ الأدب العربي: ٦/ ٤٧.

(٩٩) التاريخ العربي والمؤرخون: ٢/ ١٣٦.

(١٠٠) الصقار، المرجع السابق، ص ٢٣٢.

(١٠١) المرجع نفسه، ص ٢٣٣.

(١٠٢) المرجع نفسه، ص ٢٣٣-٢٣٥.

(١٠٣) ابن خلكان، المصدر السابق: ١/ ٢٠٣، ٥٤١/٢، ٤/ ١٩٧، ٢١٠/٥.

(١٠٤) المصدر نفسه: ٢/ ٢٣٨.

(١٠٥) المصدر نفسه: ١/ ٢٠٣، ٤/ ١٩٧.

(١٠٦) الاعلان بالتوبيخ لمن ذم اهل التاريخ، ص ٦٥١.

(١٠٧) مصطفى، المرجع السابق: ٢/ ١٣٧.

(٥١) قطب الدين موسى بن محمد البرزيني، ذيل مرآة الزمان، حيدر آباد الدكن. مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٥: ٦٤/١.

يقارن أيضاً: ابن خلكان، المصدر السابق: ٣٨٩/٥. كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة السيد يعقوب بكر، القاهرة، دار المعارف، ١٩٧٧: ١٣٥/٦-١٣٦.

(٥٢) ابن خلكان، المصدر السابق: ٣٤٨/٣-٣٤٩. وينظر: دائرة المعارف الإسلامية، ط ١، ١٩٣٣، الترجمة العربية، مادة «ابن الأثير» فيصل السامر، ابن الأثير، بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٣، ص ١٣-١٤، ٥٣-٥٤، ٥٧.

(٥٣) ابن الأثير، الكامل، ٥/ ٥٧٢.

(٥٤) ابن خلكان، المصدر السابق: ٣٤٩/٣.

(٥٥) السامر، المرجع السابق، ص ٦-٥.

(٥٦) ابن الأثير، الكامل: ١/ ٢-٣.

(٥٧) المصدر نفسه: ١/ ٦.

(٥٨) المصدر نفسه: ١/ ٣-٤.

(٥٩) يقارن، السامر، المرجع السابق ص ٨٤-٨٥.

(٦٠) ابن الأثير، الكامل: ١٠/ ٢٧٢.

(٦١) يقارن: السامر، المرجع السابق، ص ٣٤.

(٦٢) ابن الأثير، الكامل: ١٢/ ٣٥٨.

(٦٣) المصدر نفسه: ١٢/ ٣٣١، ويقارن: السامر، المرجع السابق، ص ٤٠-٤١.

(٦٤) ابن الأثير، الكامل: ١٢/ ٣٦٠-٣٦١، ويقارن: السامر، المرجع السابق، ص ٨٥.

(٦٥) الباهر، (مقدمة التحقيق، ص ١٨).

(٦٦) المصدر نفسه، ص ١٤٤، ١٧٥ (وينظر مقدمة التحقيق أيضاً، ص ١٨-١٩).

(٦٧) المصدر نفسه (مقدمة التحقيق، ص ١٧).

(٦٨) المصدر نفسه، ص ٣.

(٦٩) المصدر نفسه، ص ٨٩.

(٧٠) المصدر نفسه، ص ١٢٦.

(٧١) المصدر نفسه، ص ١٧٤.

(٧٢) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة: ١/ ٣-٤.

(٧٣) المصدر نفسه: ١/ ٥.

(٧٤) ابن الأثير، الباب في تذييل الأنساب، القاهرة، ١٣٥٨هـ. أعادت طبعه باللاتينية مكتبة المتحف ببغداد: ١/ ٧-٨.

(٧٥) المصدر نفسه: ١/ ١٢.

(٧٦) يقارن: بروكلمان، تاريخ الأدب العربي: ٦/ ٦٤، السامر، المرجع السابق، ص ١٥٥.

(٧٧) ابن خلكان، المصدر السابق: ٧/ ٨٤-٩٩، ويقارن: دائرة المعارف الإسلامية، ط ١، الترجمة العربية، مادة: (ابن شداد)، بروكلمان، المرجع السابق: ٦/ ١١-١٢.

(٧٨) هامنون جب، دراسات في حضارة الإسلام، ترجمة، احسان عباس ورفاقه، ط ٢، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٧٤، ص ١٢٣.

(٧٩) ابن شداد، التوادر السلطانية والحامان البيوسفية أوسيرة صلاح

عِلْمُ النُّحْوِ الْعَرَبِيَّةِ

د. طارق عبد عون الجنابي

(١)

هذا الفتى الألمي من تسجيل آرائه ومتابعته بالسؤال والاستفسار، ولعله كان يرى ويسمع، ويُسرُّ بما يرى وبما يسمع، ويزيده ذلك اطمئنانه بأن علمه سيحفظ في ألواح سيبويه وستجد سبلها الى الدارسين فيغنيه من أن يضع كتاباً، فقد كان زاهداً في الشهرة، حريصاً على العلم، كانت الدنيا تأكل بعلمه، وهو في خُصٍّ لا يشعر به.

وقد كان الخليل محجة أهل العلم، أخذ عنه سيبويه فأكثر وكان عالم أهل البصرة ونحوها الذي لا يشق له غبار، وكتابه (الكتاب) الورد الذي استقى منه طلاب العربية.

وعن الخليل أخذ علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٠ هـ) أحد قُرَّاء الكوفة الثلاثة، وأحد السبعة الكبار، يوم يم وجهه شطر البصرة، ليتبصر طريق العربية، يقيم بها لسانه، ويمتحن من علم الخليل ما يكون به السبيل الى الدارسين، واختار طريق الخليل في مشافهة الأعراب والرواية عن القبائل في بوادي نجد والحجاز، والكسائي شيخ نخبة الكوفة ومقدمهم عند الرشيد الخليفة العباسي الذي ازدهرت في عصره بغداد لتصبح سيدة الدنيا.

وعن الخليل أخذ أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر صاحب الكتاب الذي طُبِّقت شهرته الآفاق، وصار قبلة الدارسين، ولم يكن أحدهم ليكون نحوياً حتى يقرأه على شيخ من شيوخ العصر، فإذا أطلق الكتاب عرف أنه كتاب سيبويه.

وهكذا كانت البصرة مؤصلة علم النحو وواضحة أسسه وموطئة منهجه، وكانت مصدر العلم بالعربية، إليها وفد الدارسون، ومنها انتشر هذا العلم الى الآفاق عن طريق الخليل الذي صار رأس العلماء في الامصار، وكان كتاب سيبويه بدء الدرس

بدأ النحو عربياً فطرياً، دوافعه عربية محض هي صيانة نص المصحف الشريف من الزيغ والزلل، ودرء اللحن والالتواء عن اللسان العربي الفصيح، وكان صنيع أبي الاسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) وتلامذته في نقط المصحف نقط إعراب يمثل صنيعاً منهجياً في وضع أولى ضوابط النحو، ثم مضى التالون يضيفون الى ذلك ملاحظ وأفكاراً انتهت عند عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي (ت ١١٧ هـ) نظاماً نحوياً واضح المعالم والسمات فهو «أول من بعج النحو، ومد القياس والعلل»^(١)، ولارب في أن القياس النحوي مستمد من القياس الفقهي الذي نشأ عربياً صرفاً أملت ضرورات تتصل بالشرعة الاسلامية.

ثم تلا الحضرمي علماء أثبات من الرواة واللغويين والنحاة والقراء كان موثلهم البصرة كما كانت موثل السابقين، وفيهم عيسى بن عمر الثقفي (ت ١٤٩ هـ)، وأبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) مقرئ أهل البصرة، وهما من شيوخ الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ - ١٧٥ هـ) عالم العربية الفذ، وهو عربي الأرومة من أزد عمان الثمانية الأصول، وقد كان عالم العربية غير منازع، فهو الرائد في علم الصوت اللغوي، وواضع المعجم العربي، ومبتدع علم العروض، ومؤسس علم النحو، ومؤصل أصوله، وقد استقرت عنده آراء الدارسين وملاحظتهم علماً راسخاً به عرف، وإليه نسب، نجد ذلك في كتاب سيبويه الذي تُبَيَّنُّ فيه آراء الخليل ومحاوراته جملته وتفصيله.

ولم يدع لنا الخليل كتاباً في النحو مستقلاً، ويعود السبب - فيما أرى - الى أنه كان مطمئناً الى ما كان يأخذه عنه تلميذه النابه سيبويه، والى ما هو مقدم عليه من صنيع وأنه قد أحسن بما كان يقوم به

اللغوي ومنتهاه منذ عصره الى يومنا هذا.

وإذا كان الأمر على هذا ، فأين الموصل ، وهي يومذاك مدينة عامرة ، ورجاً رجب من أرجاء الدولة العربية الاسلامية ، وكانت ثغراً تجارياً تحربه وتصدر عنه ، وتعود إليه القوافل بالجلب والميرة ، كما أنها ليست بمنأى عن مراكز العلم .

ومن عجب أن الموصل قد سبقت أختها بغداد والكوفة كما سبقت مصر والشام والأندلس في التلمذة على البصرة ، وإن كانت الطرائق شتى ، فقد استقبلت البصرة أولئك التلامذة النجباء ليرتضعوا لبان العربية فيها ، والخليل فيها سيد أهل العربية ، في حين استقبلت الموصل وافتدأ بصرياً في وقت مبكر جداً لعله كان أول من فتح باب النحو في الموصل هو أبو عبد الله مسلمة بن عبد الله بن سعد بن محارب الفهري .

ومسلمة ابن أخت عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي ، أخذ عن خاله مع عيسى بن عمر الثقفي كما أخذ بعد ذلك مع يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء ، وقد عده القفطي في (إنباه الرواة) ^(١) في الطبقة الرابعة مع عيسى وأبي عمرو وحجاج بن سلمة وحجاج بن الزبرقان ، وذكر بن سلام الجمحي أن حجاجاً هذا ويونس يفضلانه ^(٢) . وكان لمسلمة اختيار في القراءة ^(٣) ، وقال ابن مجاهد : «كان من العلماء بالعربية ، وكان يقرأ بالادغام الكبير كأبي عمرو ، وروى حروفاً لم يدغمها أبو عمرو» ^(٤) .

وقد قرأ عليه شهاب بن شريقة .

أما كيف وفد على الموصل فلذلك خبر ذكره الزبيدي في طبقاته ^(٥) ، ونقله عنه السيوطي في البغية ^(٦) ، مفاده أن علمه قد بلغ مقاماً محموداً ، وانتهت شهرته الى الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، فطلب أن يُرْعَجَ إليه في بغداد ليكون مؤدياً لابنه جعفر حتى صار جعفر والياً لأبيه على الموصل فصحب معه مسلمة ، وقد طاب لمسلمة المقام فيها حتى وفاته ، ومن ثمة كان مبدأ علم النحو فيها .

على أننا لانعلم بعد مسلمة ، وهو من رجال القرن الثاني للهجرة ، نخوياً منسوباً الى الموصل ، كما لم نعرف شيئاً من آراء مسلمة في النحو ما يمكن عده مذهباً أو فكراً نخوياً واضحاً ، ومضى زهاء قرنين من الزمن دون أن نقف على ذكر نخوي ، وإن كان هذا ليس بمانع من إغفال كتب التراجم لسبب نهله للنحاة المواصله ، ونفاجاً في أول القرن الرابع أن يرد ذكر أبي جعفر محمد بن سعيد البصير الموصلي العروضي النحوي الذي كان ذا قدم سابقة في النحو ، وقد أعجب به أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١ هـ) نخوياً وعروضياً ، وقال له يوماً ؛ لو رأك الخليل لفرح بك .

ومما يروى عن تمكنه في العربية أنه التقى بأبي علي الفارسي (ت ٣٧٧ هـ) ، عند أبي بكر بن شقير (ت ٣١٧ هـ) فكان يلقي عليه مسائل من التصريف حتى ضجر أبو علي وترك المجلس ^(٨) .

ومن وفد على الموصل مصعداً إليها من بغداد في هذه الحقبة أحمد بن الحسين بن حمدان أبو العباس التميمي الشمشاطي ^(٩) ، وهو أديب فاضل شاعر ، دخل حلب أيام سيف الدولة ، وأملى فيها ، ثم دخل بغداد ، وأخذ فيها عن أبي بكر ابن الانباري (ت ٣٢٨ هـ) النحوي اللغوي الكوفي ، وعن أبي بكر بن دريد (ت ٣٢١ هـ) اللغوي صاحب الجمهرة ، وإبراهيم بن عرفة المعروف بفظويه (ت ٣٢٣ هـ) ، وقد حدث ببغداد ، وكان شيخاً ثقة ، يمم وجهه شطر بغداد سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة ^(١٠) . يضاف الى هؤلاء أحمد بن محمد الموصلي المعروف بالانخفش شيخ ابن جني .

(٢)

لقد مرت المرحلة السابقة بالدرس النحوي في الموصل وهي مشوبة بشيء من الغموض ولكنها - دون شك - تضطرب بمحركة نخوية تنسبها في تبادل الوافدين من شدة النحو وعلمائه ^(١١) بين

الموصل وسائر الحواضر العربية، ولعلها كانت ترهص بنضج الدرس النحوي واتضح معالمة في المرحلة الثانية التي تبدأ بأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ)، وقد أشار إليها ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) في مقدمته^(١٣)، وهو يتحدث عن علم النحو، قال:

«فالتأليف في هذا الفن أكثر من أن تحصى أو يحاط بها، وطرق التعليم فيها مختلفة، فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين، والكوفيون والبصريون والبغداديون والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك، وقد كادت هذه الصناعة تؤذن بالذهاب، لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصنائع بتناقص العمران.

ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين بن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الأعراب جملة ومفصلة، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها، وسماه بالمعني في الأعراب، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظم سائرها، فوفقتنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته منها، وكأنه ينحو في طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني، واتبعوا مصطلح تعليمه، فأنى من ذلك بشيء عجيب دال على قوة ملكته وأطلاعه».

فإذا كان ابن خلدون قد سمع بابن هشام (ت ٧١٥ هـ) نحويًا له مذهب يميزه، وأن هذا المذهب النحوي هو مذهب أهل الموصل، فإنه يعني أن ثمة مذهبًا آخر في النحو لم يعرف به الدارسون له آراؤه، ومنهجه، وطريقته التي هي طريقة ابن جني الذي نسبته دارسون إلى مدرسة أسعها مدرسة بغداد، ونسبه دارسون آخرون إلى مدرسة أهل البصرة.

وفي سيرة حياة ابن جني ما يشير إلى أنه قد تصدر للتدريس والاملاء في الموصل في حلقة يقرئ

النحو فر به أبو علي، فسأله عن مسألة من التصريف فقصر فيها، فقرّعه أبو علي ثم كان من أمر ابن جني أن يلحق به يتلمذ له، يفيد من علمه، حتى ليصير أخلص تلاميذه، وأكثرهم لصوقًا به، واعتنى بالتصريف حتى لم يكن أحد أعلم به منه^(١٤).

وهذا الذي ذكرناه لا يوضع ابن جني، وهو بعد فتى غرض الالهاب، لم يبلغ بعد مبلغ العلماء، موضع أصحاب المذاهب التي تنبني على أسس وأصول وآراء ومصطلحات، ويكون لها تابعون ومريدون وتلامذة.

ولم يكن ابن جني ليكون دارسًا صاحب رأي واجتهاد إلا بعد أن طلب العلم، واشتد في طلبه، ورسخت قدمه في البحث والتصنيف، وذلك أمر تأتاه-تفيا يبدو-بعد أن بارح الموصل إلى بغداد.

غير أن المؤكد أنه كان على علم جم، وأنه كان فتى نابه الذكر، يدلنا على ذلك أن ياقوتًا^(١٥) روى عنه أنه قال: «فحضرني قديمًا بالموصل أعرابي عقيلي جولي تميمي، يقال له محمد بن العساف الشجري، وقلما رأيت بدويًا أفصح منه، فقلت له يوماً شغفًا بفصاحته، والتذاذًا بمطاولته وجريًا على العادة معه في إيقاظ طبعه، واقتداح زند فطنته: كيف تقول «أكرم أخوك أبأك» فقال: كذلك، فقلت له: أفنقول (أكرم أخوك أبوك؟) فقال: لا أقول (أبوك) أبدًا. فقلت: فكيف تقول (أكرمني أبوك؟) فقال: كذلك، قلت: أأست تزعم أنك لا تقول (أبوك) أبدًا فقال: ابس هدا، اختلفت جهتا الكلام، فهل قوله (اختلفت جهتا الكلام) لا كقولنا نحن (هو الآن فاعل، وكان في الاول مفعولاً)، فأنظر إلى قيام هذا الأمر في أنفسهم وإن لم تقطع به عبارتهم».

إنّ هذا النصّ، وما تضمنته من هذه المسألة:

وسائر المسائل الأخرى^(١٥) لتؤمى إلى أمور:

الأول: أن عهد الرواية عن الأعراب لم ينته في

الموصل في القرن الرابع للهجرة ، وأن أهل العربية فيها كان يلتقون الأعراب ويشافهونهم .

والثاني : أن الموصل كانت معروفة بالعلم ، وأن العربية فيها شأنًا ، وأن فيها علماء كان ابن جني واحداً من أنه تلامذتهم وأكثرهم فطنة وجبا للعربية .

والثالث : أن ابن جني قد سبق الى العلم في مستقبل عمره ، وأن لحاقه بأبي علي لم يكن عن ضعف أو جهل ، ولكنه كان طلباً للمزيد ، وسعيًا وراء علم لم يكن قد تفقه .

ولا ينكر منكر أن ابن جني قد أضحى بعد ذلك من أصحاب المذاهب ، فقد كانت مصنفاته المعروفة دليلاً على تبحره وأصلاته ، وعلى قدراته اللغوية النادرة ، فهو رائد في الدرس الصوفي^(١٦) ، ومؤصل في فلسفة النحو ، وتصرفي من الطراز الأول ، ولغوي مفسر شارح ذو باع طويلة وعلم غزير ، وهو أيضاً معدود في الشعراء لما نفروا له من شعر حسن جميل .

ولا تعلم أن ابن جني آتب الى الموصل بعد أن بلغ من العلم ما بلغ لينشر مذهبه^(١٧) ، أولي تصدر حلقته يحضرها طلبة ودارسون ، وإن كان ذلك محتملاً . فن أين إذن صارت لأهل الموصل مذهبية في النحو ، مؤصلها وموطئ منهجها أبو الفتح بن جني ؟ لا جرم أن تشيع كتب ابن جني في الموصل ، ويشغف بها أهل العلم والطلب ، ثم يكون لآراء ابن جني ومنحاته فعل خاص في أذهان هؤلاء الدارسين وطريقتهم في البحث .

وليس من ريب في أن لابن جني منحة ومنهجاً ، ذلك أنه أول نحوي يضع كتاباً في فلسفة النحو وأصوله^(١٨) هو الخصائص ، وصنف اللمع في العربية الذي شهره عريضة ، وذاع صيته في الآفاق ، ولقي عناية من نخاة لهم قدم راسخة في العربية فشرحوه وتداوله الناس ، وعُتوا به ، فهل نحن واجدون لطريقته وأفكاره أثرًا في مؤلفات علماء موصليين تلوه نعرفهم ، ونعرف أنهم يمثلون تياراً متميزاً في النحو ، ثم نجدهم يقلون عنه ، فيكثرون

النقل ، ويلتمسون آراءه فيأخذون بها ، وتبهرهم منطلقاته في فلسفة النحو ، فيقتفون أثره وينسجون على منواله ؟

أما تلميذاه علي بن زيد القاشاني ، وعلي بن الحسن ابن الوحشي الموصلين فالأول ليس موصلياً ، وأنها جميعاً لانعلم لها رأياً في النحو أو تأليفاً .

أما ولداه علي وعلي فإن المصادر لا تذكر لها من الأقوال ما يفيد أن لها مقالة في النحو واجتهاداً . غير أن أول نحوي موصلي يلتقي بابن جني ، ويأخذ عنه تلميذاً ، ثم يتأثر به شارحاً لكتابه (اللمع) ومفيداً من آثاره هو (عمر بن ثابت الثمانيي) .

(٣)

وعمر بن ثابت الثمانيي هو :

أبو القاسم عمر بن ثابت بن إبراهيم بن عمرو ابن عبد الله الضرير ، أخذ عن أبي الفتح بن جني ، وأخذ عنه المعمر بن طباطبا العلوي (ت ٤٧٨ هـ) ، وقد رحل الى بغداد ، وفيها من النخبة عبد الواحد بن برهان العكبري (ت ٤٥٦ هـ) ، وكان يقرأ عليه خاصة الناس في الكرخ ، فصار عامتهم يقرؤون على الثمانيي^(٢٠) .

وقد انتفع به خلق كثير ، فقد «كان نحويًا فاضلاً»^(٢١) و«كان ماهراً في صناعة النحو»^(٢٢) ، وإليه انتهى هذا العلم ، ولكنه مع ذلك كان يأخذ عليه الأجر^(٢٣) .

وقد صنف الثمانيي :

١- شرح اللمع لابن جني ، ومنه نسختان مخطوطتان .

٢- شرح التصريف الملوكي لابن جني أيضاً .

٣- المفيد^(٢٤) في النحو .

٤- الفوائد والقواعد^(٢٥) ، ومنه نسخة مخطوطة فريدة^(٢٦) .

وقال ابن العماد : وهو أحد أئمة العربية بالعراق^(٢٧) .

توفي بالموصل في ذي القعدة سنة ٤٤٢ هـ^(٢٨) .

وتفيدنا الإشارة الى أن عوام الناس كان يقرؤون عليه في تفسير أسلوبه التعليمي الذي يمنح بشيء من الشطط أحياناً الى التعليقات ، والتأويلات ، والتخريجات وتقليب المسألة على وجوه شتى ، كما امتاز أسلوبه بالتفصيل الموضح بدءاً من العام الى الخاص ، ومن الكلي الى الجزئي ، وهو يعرض لمسائل العربية : نحوها وصرفها وهجائها ، وما يتصل بها من مسائل صوتية ، وبيان معان ، مع الاكثار من الأمثلة والتنبهات ، والاستشهاد بالقرآن الكريم والشعر وكلام العرب ، ثم لا يفوته أن يعرب من ذلك شيئاً ، ثم يعرب من أمثلته أكثر الأشياء ، تطبيقاً لقواعد يوردها ، وآراء يذكرها .

وفيما يأتي أمثلة من ذلك :

قال متحدثاً عن (ما) بعد (إن) وأخواتها :

«فإن وقع بعد هذه الحروف فعل ، وهي مكفوفة بـ (ما) ارتفع الاسم الذي بعد الفعل بها ، فقلت : إنما قام زيد ، ولعلما - يخرج بكر ، وفي التنزيل : «كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون» ، وفيه : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» ، وفيه : «إنما حرم عليكم الميتة والدم» ، قال الشاعر :

أعد نظراً يا عبد قيس لعلما

أضاءت لك النار الحمار المقيدا

فإن كان الاسم الذي بعد الفعل ليس بعلم ، جاز لك في (ما) وجهان :

أحدهما : أن تجعلها كافة ، وتكتبها متصلة بما قبلها ، وجاز أن تجعلها بمعنى (الذي) وتكتبها منفصلة عما قبلها ، وتكون (ما) اسماً لهذه الحروف ويكون الاسم الذي بعدها وما يتعلق به صفة لـ (ما) ، ويصير الاسم الذي كان يرتفع بالفعل ، لانه خبر (إن) وأخواتها ، تقول إذا جعلت (ما) كافة : (إنما سقُ الحمار) ، وإذا جعلتها بمعنى (الذي) قلت : (إن ما سقت الحمار) ، وتقديره إن الذي سقته الحمار... (٢٩)

وقال في موضع آخر : (٣٠)

«واختلف النحويون في الألف والياء والواو في الثانية والجمع ، فقال قوم من الكوفيين : هي إعراب بمترلة الحركات .

واختلف البصريون ، فقال الأخفش : الثانية والجمع ليس فيها حروف إعراب .

وقال الجرمي : الألف والياء والواو والياء حروف الاعراب ، والانقلاب من حال الى حال هو الاعراب (٣١) .

والصحيح مذهب سيبويه ، لأنها حروف إعراب ، وليس فيها إعراب لظاهر ولا مقدر ، ولكن الانقلاب من حال الى حال يدل على استحقاق الاعراب .

والذي يدل على مذهب سيبويه أن كل حرف زائد على كلمة لمعنى يحدث فيها بوجوده ، وعدم بعده صار هو حرف الاعراب ، ألا ترى أننا نقول : (قائم) ، فتكون الميم حرف الاعراب ، والاسم مذكر ، وإذا قلنا : (مسلمة) صار الاسم مؤنثاً بدخول التاء عليه ، وصارت التاء حرف الاعراب ، وكذلك إذا قلنا : (بغداد) ، فالدال حرف الاعراب ، فإذا نسبنا إليها وزدنا ياء النسبة قلنا : (بغدادية) ، فصارت الياء حرف الاعراب ، وهي زائدة للنسبة ، توجد النسبة بوجودها وتعدم بعدمها ، كما أنك إذا قلت : (قائمة) صار الاسم مؤنثاً بوجود التانيث وهي التاء ، يتأث الاسم بوجودها ويتذكر بعدمها ، كذلك إذا قلنا : (زيد) يدل على أنه واحد ، وإذا قلنا : (الزيدان) دلت الألف على الثانية ، فينبغي أن يصير حرف الاعراب

وقال في (شرح اللمع) ق ٩٣ : (٣٢)

«فأما (لا) التي تشبه بـ (إن) ، فإنها لا تدخل إلا على نكرتين ، ويكون الاسم ملاصقاً لـ (لا) ، ويجب أن تنصبه ، لأنها نقيضة (إن) ، لأنها تنفي ما تثبت (إن) ، إلا أنها وإن شُبهت بـ (إن) فإنها تنقص عن رتبة (إن) من أربعة أوجه :

أولها : أن (إن) - لقوتها - تعمل في المعرفة

والنكرة، و (لا) لضعفها تختص بالعمل في النكرة.

وثانيها: أن (إن) - لقوتها - يجوز الفصل بينها وبين منصوبها بالظرف وحرف الجر، و (لا) لضعفها، لا يجوز الفصل بينها وبين منصوبها.

وثالثها: أن (إن) - لقوتها - لا تتركب مع منصوبها، و (لا) - لضعفها - يحذف التنوين من منصوبها، وتتركب معها على الفتح ك (خمسة عشر) وبابه.

ورابعها: أن (إن) تنصب الاسم، وترفع الخبر، بلا خلاف بين البصريين، و (لا) - لضعفها - قويت على العمل في الاسم، لملاصقته لها وضعت عن العمل في الخبر، فقال سيبويه: الخبر يرتفع، لأنه خبر مبتدأ...»

وإنما أوردت هذه النصوص استدلالاً على أن الثمانيي نحوي واع، ضليع من العربية، متمثل للنحو: أصولاً، وآراء، وتعليلات، وأنه كان - بلاربية - أوعب تلامذة ابن جني علماً، وأكثرهم تمكناً، وأنه بذلك عرف نحويًا مبرزاً في بغداد، وأنه كان شيخ نخاة العصر في الموصل بعد أن أب إليها قبل أن تخزمره المنية.

وفي الذي أوردت أيضاً دفع لمقالة الاستاذ محمود الجومرد وأسفه، ل «أننا لم نحصل على ما ألقه النحاة الموصلة - على كثرتهم - بعد ابن جني، لتدرك بوضوح آراءهم في المسائل النحوية، لعلنا نجد لهم مذهباً نحويًا خاصاً بهم نضيفه إلى المذاهب النحوية الأخرى» (٣٣).

غير أننا لانجد في أقوال الثمانيي، وأسلوبه، ومنحاه ما يقفنا على نحو جديد كل الجدة: مصطلحاً ومنهجاً، يمثل مذهباً جديداً يضاف إلى المذاهب الأخرى، كما ذهب بعض الدارسين شغفاً بمسألة المدارس النحوية، وكثرة المذاهب المنسوبة إلى الأقاليم.

ولكننا مع ذلك نقف على مذهب نحوي من نوع مختلف هو مذهب الشرح والتعليل والتوجيه

لغرض تعليمي بحث، وهو مذهب التحليل والموازنة والحاكمة العقلية، مذهب يفيد من المتقدمين ينقل آراءهم، ثم يكون له بعد ذلك موقف هادئ بعيد عن التشدد في الإنكار، والتعصب في القول، لأنه يتسم بالتسامح وينأى عن الخلق المتمزمت، والإنكار المتعصب، وهو مذهب كان عاد آثار الثمانيي، وقد سرى من بعد إلى التالين.

أما الرؤى النحوية فهي بصرية الهوى والمآل. ولا تسعنا كتب التراجم بأسماء دارسين موصليين تلمذوا له، وليس تلميذه الوحيد الذي ذكرته جملة من هذه الكتب، وهو ابن طباطبا الألبغادي، لعل السبب يُعزى إلى أنه غادر الموصل ونزل ببغداد قبل أن ترسخ قدمه في العلم، وقبل أن يقعد للتدريس، وتكون له حلقة أو مجلس، ولكن يبعد ألا يتلمذ له أحد بعد أوفته إلى الموصل. لاندري ما إذا كان عوده بعد شيخوخة وعجز عن التأليف والتدريس، فلم يتسنّ لموصلي أن يسمع منه أو يفيد، كل هذا من الظنون، ولعل كتب التراجم لم تستقص، ولم تحط بذلك كله علماً.

(٤)

وإذا كان الثمانيي وابن وحشي قد أخذوا عن ابن جني، ولم تعرف للثمانيي تلميذاً موصلياً، فقد أفاد من ابن وحشي أبو الحسين علي بن ديبس النحوي الموصلي قرأ عليه النحو^(٣٤)، ثم تصدر للتدريس في الموصل^(٣٥)، وأخذ عنه زيد مزركة الموصلي^(٣٦).

ومها يكن من شيء، فقد استهوت الموصل قريباً من هذه الحقبة رجالاً من أهل قرطبة كان موصوفاً بالعلم، فاضلاً عارفاً بالنحو ووجوه القراءات هو (أبو بكر سابق الدين يحيى بن سعدون - ابن تمام بن محمد الأزدي).

قرأ سابق الدين بقرطبة على أبي القاسم خلف ابن إبراهيم الحصار، وسمع عن أبي محمد بن عتاب، ثم وجه وجهه قبل المشرق بعد أن بلغ من

العلم مبلغاً، مستزيداً، فتزل بمصر والاسكندرية وأخذ عن طائفة من علمائها، ثم أقبل على دمشق وسكنها زمناً، وأقرأ بها القرآن والنحو، ومضى إلى بغداد وأخذ القراءات والحديث عن جمهرة من أفاض علمائها، وفيهم القرئ أبو محمد عبد الله بن علي سبط أبي منصور الخياط، وأبو بكر البراز المعروف بقاضي المارستان، ثم رحل إلى اصفهان، وألقى عصا الترحال في الموصل فأقام بها أمناً مطمئناً، ثم جلس للعلم فانتفع به خلق كثير لما اتصف به من علم وخلق وسيرة حسنة، وقد أخذ عنه شيوخها منهم القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع المعروف بابن شداد، والمبارك بن محمد الشيباني مجد الدين أبو السعادات الجزري المشهور بابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) (٣٧)، وأبو المعالي محمد بن أبي الفرج الموصلي (ت ٦٢١ هـ) (٣٨).

وقد عاصر سابق الدين نحويًا موصليًا فاضلاً موصوفًا بالعلم أخذ عنه أكثر أبناء عصره وصنف لهم كتاباً في النحو لم يصل إلينا هو (المعونة) (٣٩).

أما الرجل فهو أبو الحسن علي بن خليفة بن علي المعروف بأبن المُنْقَى المتوفى سنة اثنتين وستين وخمس مئة، أي قبل وفاة سابق الدين بخمس سنوات (٤٠).

وإذا كان ابن المُنْقَى قد صنف المعونة، فإن سابقاً لم يكن قد صنف شيئاً، أو أن مصنفاته لم ترزق الشيوخ والشهرة، إذ لم يذكر له مترجموه، وأقرهم باقوت كتاباً كما لم تذكر مطولات النحو له أول صاحبه رأياً أو نظراً في النحو مما يُعزّز عزوفه عن التأليف (٤١)، وانصرافه إلى الاملاء والتدريس، ولكننا نعجب ألا نجد من تلازمته من يجمع عنه مسائل أو أمالي، ولعلنا نعتز فيما نستقبل بشيء ينبي عنه.

وأغلب الظن أن وجود ناصح الدين سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان النحوي المتوفى سنة ٥٦٩ هـ في الموصل آنذاك قد أحملها في النحو يدل على ذلك كراهة ابن المُنْقَى له، فقد ذكروا أنه دخل إليه رجل، فسأله: عن المكان الذي جاء منه، وقال له: من عند علامة الدنيا سعيد

ابن الدهان، فقال ارتجالاً:

وقالوا: الأعورُ الدجَالُ خَيْرُ

يفوقُ الناسَ في أدبٍ وكَيْسٍ
فقلت: بُحْبُسُ خَيْرٌ منه علماً

وَأَنَّ الكَلْبَ خَيْرٌ من بُحْبُسٍ
لقد كان ابن الدهان رابع ثلاثة نخاة كبار عمرت (٤٢) بهم مجالس الدرس في بغداد قبل أن يرحل مصعداً إلى الموصل، وهم ابن الشجري والجواليقي وابن الخشاب ولعله كان أشهرهم وأبعدهم صيتاً، فلما كان ابن الدهان بالموصل كان موثلاً الدارسين، قرأوا كتبه وحضروا مجالسه، وأفادوا من علمه شيئاً كثيراً، وهو صاحب المصنفات الكثيرة غير ما أغرقه فيضان دجلة، وهو ما يفسر لنا عناية مجد الدين بن الأثير بآثاره، فقد شرح (فصول) ابن الدهان، ثم عاد إليه بالاختصار في كتابه (التهذيب).

ومن هنا كان لابن الدهان أثر بارز في الدرس النحوي بالموصل.

كان ابن الدهان عالم أهل بغداد، خرج في سفر طالباً دمشق، وقد مر في طريقه بالموصل، وكان فيها الوزير جمال الدين الجواد صاحب الوزير شمس الدين بن نظام الملك فأكرمه، فطاب له المقام بها أربعاً وعشرين سنة وثلاثة أشهر حتى وفاته عن خمس وسبعين سنة، وهذا يعني أنه وصل الموصل وله من العمر خمسون سنة، وقد رسخت قدمه في التدريس والتصنيف، ومن ثمة كان للرجل أثر لا يمحى في الدرس النحوي في هذه المدينة العامرة بأهل العلم والأدب حتى ذكروا أنه صنف فيها كتابه (إزالة المراء في الغين والرءاء) لما رأى المواصلة يلغون بالرءاء.

وإذا كان ابن الدهان المفصل الذي يرجع إليه إذا أشكلت مسائل النحو، فلا شك أنه سيكون له شأن، وهو في الموصل، فيعمر مجلسه بطلبة العلم، ويتخرج به دارسون من اللغويين والنحاة.

ولقد ترك ابن الدهان لنا جملة صالحة من

الآثار، نذكر أهم تلك الآثار النحوية^(٢٣)

١ - شرح الدروس في النحو: والدروس كتاب تعليمي ميسر موضوع للناشئة على نحو موجز، ثم كان الشرح تفصيلاً وإيضاحاً^(٢٤).

٢ - الفصول في النحو: وهو الذي شرحه تلميذه مجد الدين بن الاثير بكتابه (البديع).

٣ - الغرة - شرح للمع لابن جني، والذي وصل إلينا منه جزءان من ثلاثة، هما الثاني والثالث.

وتلك آثاره وتوقعها على محصوله العلمي الجرم، حتى عُذَّ «من أعيان النحاة وأفاضل اللغوين»^(٢٥) والمفسرين والعروضيين.

وقد أخذ عنه سوى مجد الدين بن الاثير ياقوت الموصلي مذهب الدين (ت ٦١٨ هـ) وكان حسن الخط، وقد ذاع صيته في الآفاق، وهو غير ياقوت ابن عبد الله المستعصي.

ولابن الدهان فكر نحوي بارع، فقد أحاط بالنحو العربي في منطلقاته وأصوله الاولى، وتمثل بمذاهب النحاة الأولى بصريين وكوفيّين ولعل القراءة الأولى لشرحه على لمع ابن جني تقفنا على مدى استيعابه لآراء النحاة والموازنة بينها ومعالجة ما أشكل منها، وهو في كل ذلك صاحب عقل وفهم لغوي نافذ، وله في كل ما يعرض له آراء ناقدة، ودقيقة حرية بالنظر، فلم يكن متعصباً لأحد على أحد بل كان هادئاً رصيناً، وله بعد ذلك آراء واعية فيها أطراح للتعقيدات والجلد المغرب، من ذلك:

١ - ان المستثنى مشبه بالفعل^(٢٦).

٢ - جواز وقوع النكرة مبتدأ ما أفادت، إذ قال:

«إذا حصلت الفائدة، فأخير عن أي نكرة شئت، وذلك لأن الغرض من الكلام إفادة المخاطب، فإذا حصلت جاز الحكم سواء تخصص الحكم عليه بشيء أو لا»^(٢٧)، وبذلك أسقط الافتراضات الكثيرة التي تأولها النحاة في تقريب النكرة من التعريف.

٣ - إن (كي) ناصبة بنفسها عند دخول اللام عليها، لا بأن مضمرة^(٢٨).

٤ - أجاز قياساً تقدم الحال التي تسد مسد الخبر على المبتدأ نحو قولهم: (قامتاً ضربني زيداً)، ولأن خبر المبتدأ في هذه المسألة يتقدم على المبتدأ^(٢٩)، كما أجاز رفع (قامت) في موضعها.

٥ - إن العرب قد استغنت عن أفعال استوتت شروط التعجب، بأفعال أخرى بمعانيها عند إرادة التعجب، نحو: قام وقعد وجلس وتابعه ابن عصفور^(٣٠).

٦ - لم يجوز نحو قولهم: (ليس زيد قد ذهب)، ولا (قد يذهب)، لتعارض الحكم بين (ليس)، و (قد)^(٣١).

٧ - ذهب الى أن (حيث) وحدها التي تضاف من ظروف المكان الى الجمل، وجعل إضافة (لذن) في قول الشاعر:

صريع غوان راقهـن ورقتـه

لذن شب حتى شاب سود الدوائب
باضمار (أن) لتكون الإضافة الى المصدر المؤول، وعليه قول الشاعر:

أراني لذن أن غاب رهطي كأنما

يراني فيهم طالب الحق أرنبا^(٣٢)

٨ - لا يستعمل في موضع (دام): يدوم: لأنه جرى كالمثل عندهم^(٣٣).

وهو تخريج مناسب، إذ لم ينقل عن البصريين جواز التصرف، وذهب ابن الخباز الى أنها للتأييد والتوثيق^(٣٤).

٩ - أنكر مجي المعرفة منصوبة بعد (لاسيا)، وقال: «لأعرف له وجهاً»^(٣٥).

ومن أخذ عن ابن الدهان أبو الحرم صائن الدين مكّي ابن ريان الضرير الماكسيني المولد، الموصلي السكن والأقامة، ترك ماكسين، وارتحل الى الموصل يدرس فيها علوم القرآن والقراءات والأدب وأخذ عن علمائها، واختصّ بابن الدهان وأبي البركات الانباري وابن الخشاب، ثم عاد الى الموصل ليتفجع الناس ويفيدوا من علمه، ويقرأ

عليه أعيانهم ، ثم ليشيع صيته في الآفاق .
لقد أَلَمَّ الماكسيني الموصلي من كل علم بطرف ،
ولكن غلب عليه النحو والقراءات ، وقعد للقراءة
مقعد صدق ، وشغله التدريس عن التأليف ، وكان
في ذلك عالماً لا يبارى ، فقد ذكروا أنه كان يقرأ
عليه طائفة كل واحد بحرف ، وهو يستمع إليهم
جميعاً ، ويرد على كلِّ بما يجب ^(٥٧) .
وتوفي سنة ثلاث وست مئة .

ويكنى ان يكون أبو السعادات مجد الدين
المبارك بن محمد الجزري المشهور بابن الأثير تلميذاً
نجيباً لابن الدهان لتعلم مدى تأثيره في الحياة
العلمية بالموصل ، ومدى اهتمام الناس بالنحو
واقبالهم عليه ، وابن الأثير محدث أخذ عن عبد
الوهاب بن سكتية ، وهو معني بالقراءات أخذها
عن يحيى بن سعدون القرطبي ، ويرى في التأليف
فكان مبرزاً في علوم الحديث فشرح مسند
الشافعي ، ووضع جامع الأصول في أحاديث
الرسول ، وكان لغوياً فوق ذلك فوضع النهاية في
غريب الحديث والأثر ، وشرح طوال الغرائب ،
 ووضع الانصاف بين التقليدي وصاحب الكشف ،
والمصرع .

وسبق أن أشرنا الى عنايته بفصول ابن الدهان
شرحاً بكتابه (البديع) ، واختصاراً بـ
(التهذيب) ، ثم استقل بـ (الباهر) و(الفروق) في
النحو .

توفي في ذي الحجة سنة ست وست مئة .

ومن نخاة الموصل في هذه الحقبة الآخذين عن
أبي الحرم الماكسيني : عمر بن أحمد بن أبي بكر
ابن مهران أبو جعفر الضرير النحوي العسفي ، كان
مولده في سواد العراق ، وقدم الى قرية (عين
سفتة) من نواحي الموصل ، سكنها زمناً فنسب
إليها ، ثم انتقل الى الموصل ، ولزم أبا الحرم
الماكسيني ، وقرأ عليه حتى عد أربع معاصريه في
علم النحو والعروض والقوافي والتصريف واللغة
ومعاني الشعر ، وبرز في النحو حتى صار انحى أهل
زمانه ، ولما مات شيخه الماكسيني تصدر مجلسه ،

وانتفع به خلق كثير ، وهذه شهادة لاجمال لمدافعتها
أوردها ابن الشعار تثنى عما بلغته علوم العربية في
الموصل .

توفي العسفي بالموصل سنة ثلاث عشرة وست
مئة ^(٥٨) .

ومن هؤلاء الآخذين عن الماكسيني محمد بن
أبي الوفاء الموصلي المعروف بابن القيصي ^(٥٩) ، ولد
بعد (٥٥٠ هـ) وقدم بغداد سنة ٥٨٠ هـ ، وأخذ
عن شيوخها ، وتلمذ له أبو عبد الله محمد بن سعيد
ابن يحيى الواسطي الديلمي (ت ٦٣٧ هـ) ،
وكانت وفاة القيصي بمحذود (٦٢٠ هـ) .

لم تذكر له كتب التراجم مصنفات في النحو ،
غير أن له في مكنتات تركيا كتاباً في النحو هو
(المهدي في الاعراب الى طرق الصواب) ^(٦٠) ،
وآخر في التصريف أسمائه (التتمة في
التصريف) ^(٦١) .

وهذا دليل على إغفال أصحاب التراجم لكثير
من المصنفات التي لم يقفوا عليها ، أو على ذكرها .
ومن هذا الجيل من نخاة الموصل كان عبد
العزيز بن علي (ت ٦٠٣ هـ) ^(٦٢) . ألا يدل هذا
على أن النحو كان في الموصل بخير ، وأنها كانت
بحق إحدى حواضر العربية ، وكان مدى شوطها فيه
فسيحاً واسع الأرجاء ؟

(٥)

يشهد النصف الأول من القرن السابع بزوغ
نجم من أُلُع النجوم في سماء العربية وإن لم يلق
العناية التي يستحق من الباحثين ، وهو أبو العباس
شمس الدين أحمد بن الحسين المعروف بابن الخباز
الاريلي ^(٦٣) النحوي الضرير عالم أهل الموصل ،
ومقدمهم في علم النحو .

نشأ أبو العباس محباً للعلم منذ صباه فأكبَّ
عليه وحفظ أولاً الكتاب العزيز ، وأخذ عن طائفة
من علماء الموصل ويرى في الأدب والنحو واللغة
والعروض والقوافي وتصدر لتدريس العربية والأدب
ومعاني الشعر والفرائض والحساب ، وانتال عليه
١٠٧

الناس من كل فج ، وصار شيخ علماء العصر ، قال ابن الشعار : « ولم ير في زماننا أسرع حفظاً منه ، ولا أكثر استحضاراً للشعار والنوادر والحكايات واللطائف وهو غاية الذكاء والفهم ، سريع الخاطر في نظم الشعر » (٦٤) .

توفي ابن الخباز في العشر الأول من شهر رجب سنة (٦٣٩ هـ) (٦٥) .

وله في النحو مصنفات حسنة نفيسة ، منها :
١- شرح ألفية ابن معطي ، واسمه « الغرة المحففة » في شرح الدرّة الألفية ، ومنه عدة نسخ مخطوطة : (معهد المخطوطات ١١٧ ، ١١٨ مصورتان عن نسختي الاسكوريال والبلدية بالاسكندرية) (٦٦) ، المتحف العراقي (دار مخطوطات صدام) وهو شرح سيرد وصفه .

٢- النهاية في شرح الكفاية ، ولعله في شرح الكافية ، منه مخطوطة في جامعة برنستين بأمریکا ، وهو من مصادر أبي حيان في (ارتشاف الضرب) ٦٨٦/٣ - ٦٨٧ .

٣- شرح اللمع ، وسماه (توجيه اللمع) (٦٧) .

٤- شرح الابصاح لأبي علي (٦٨) .

٥- شرح الجزولية (٦٩) ، والجزولية مقدمة في النحو جمعها أبو موسى عيسى بن عبد العزيز ابن يلبخت الجزولي من حواشي شيخه ابن بري على الجمل وأحكم حدودها بالمنطق ، وسميت بالقانون .

وابن الخباز نحوي جليل القدر ، لسلامة في الاسلوب ورجاحة في العقل ، واقتدار في عرض مسائل النحو ومناقشتها بما يمتلك من حصافة في الموازنة نقضاً أو قبولاً ، مع الادلاء بالرأي والحجة والدليل ، وله آراء ذكرتها له المطولات ، وسواها ، مع جنوح أحياناً الى التعليلات والتأويلات سيراً على ما درج عليه علماء النحو ، ومنهم المواصل ، وبخاصة المتأخرون .

ومن أجل تبين وجهته النحوية وطريقته في البحث نستشير شرحه على ألفية ابن معطي ، وما نحن أولاً نعرض لذلك في هذا البيان :

١- بدأ بقضايا التصريف وهو أمر يتفق والمنطق اللغوي ، إذ يبدأ بالصوت فالبنية فالتركيب .

٢- يشير الى أوجه الخلاف النحوي ، من ذلك قوله : « الواو والياء من الثنية والجمع حروف إعراب عند سيبويه ، ووجهه أنها معربان ، ولا بد لكل معرب من حرف إعراب ، وقد أمكن . واختلف أصحابه والتابعون مذهبه في تقدير الاعراب فيهن ، فقال قوم : فيهن إعراب مقدر ، لثلاث يخلوهم من الاعراب لفظاً أو تقديرًا مع أن الاسم معرب . وقال قوم : ليس فيهن إعراب فيقدر ، لأن ياء الثنية قبالة اللفظ ، فلو قدرت الحركة ، لانقلبت ألفاً » .

(شرح الألفية ق ٢١ ب)

٣- يعرب أبيات ابن معطي أحياناً . (ق ٢٧ أ) .

٤- يكلل نقص عبارة ابن معطي وأحكامه . (ق ٣٢ ب) .

٥- يشير الى لغات القبائل . (ق ٣٥ ب) .

٦- يقف عند بعض مسائل الفقه . (ق ٢٥ ب ، ٣٥ ب) .

٧- يتقل في أثناء كلامه أشياء مستظرفة ، من ذلك ما ذكره من أنه قرأ بيتاً في الصحاح ، يدل على تأنيث (الحمام) ، قال الشاعر :

وَإِذَا دَخَلْتَ سَمِعْتَ فِيهَا رَنَةً

لَقَطَ الْمَعَاوِلَ فِي بَيْوتِ حَدَادٍ

وذكر أنه سمع بعض الكتاب كتب : هذه الحمام ، قليل له : الحمام مذكر ، قال : أردت حمام النساء . (ق ٢٤ ب) .

٨- يميل الى استعمال العبارة اللينة الرقيقة عند إيضاح مسائل النحو ، فقد ذكر في جمع نحو (طلحة) جمع مذكر سالماً مع أنه مختوم بالياء أن « مسوغ جمع هذا وأمثاله بالواو والنون جبر الوهن اللاحق بالنقص اللفظي والوهمي » (ق ٢٤ ب) .

ومن آرائه وتوجيهاته :

١- أن الثنية معربة بالحرف، لأنها أكثر من الواحد، فأعربت بالحرف الذي هو أكثر من الحركة (٧٠).

٢- ان (لن) تفيد التأكيد، وقد اختاره السيوطي دون التأييد (٧١)، نحو قوله تعالى: «فلن أكلّم اليوم إنسياً»، وقوله تعالى: «لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى». ٣- ربط بين الزمن النحوي والزمن الوجودي مستشهداً بقوله تعالى: «له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك»، ويقول زهير:

وأعلم ما في اليوم والامس قبله

ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي
وقال: «ولأن الزمان حركة الفلك، وقد علمنا بالضرورة أنه لا يد من حركة وجودية وأن أجزاءها لا توجد دفعة واحدة، فلا بد من تعاقبها».

ولهذا فالأزمنة عنده ماضٍ وحاضر ومستقبل، ولها صيغتان: للماضي واحدة، ويفترق المستقبل بالقرينة، وقد علل لحاق الفتحة بالماضي، بأنه كثر استعماله فأخذ الحركة الخفيفة (٧٢).

٤- أوجب ابن الخباز، وتابعه أبو عبد الله الجليش إعادة الجار عند العطف بـ (حتى) على المجرور فرقاً بينها وبين الجارة، نحو قولهم: مررت بهم حتى بزید. وحسنه ابن عصفور (٧٣).

٥- نقل ابن هشام عن النهاية لابن الخباز أن الكاف تأتي للمبادرة كما في (سَلَمَ كما تدخل) متبعة للسيرافي (٧٤).

٦- نقل ابن الخباز الإجماع على تركيب (كأنّ)، في قولهم: كأن زيدا أسد، إن زيدا كاسد، فقدم حرف التشبيه للاهتمام به (٧٥).

وقد ذكر في (شرح الإيضاح) أنه «ذهب جماعة إلى أن فتح هزتها لطول الحرف بالتركيب، لا لأنها معمولة للكاف، كما قال أبو الفتح، وإلا لكان الكلام غير تام، والاجماع على أنه تام» (٧٦)

وهذا يعني أن استحقاقه للفتحة كان للتخفيف. ٧- لا تدخل لام الابتداء على الجمل الفعلية إلا في باب (إنّ) (٧٧).

٨- ذكر ابن الخباز أن أقسام التنوين عشرة، جاعلاً من تنوين المنادى وتنوين غير المنصرف قسماً برأسه، ثم أضاف تنوين الحكاية وهو تنوين نحوليبة وعاقلة إذا سمي به رجل، فإنك تحكي اللفظ المسمى به، وذهب ابن هشام إلى أن ذلك إعراف منه بأنه تنوين الصرف (٧٨).

٩- قال ابن الخباز: أنه لم يرب في كتب النحو إلا حذف (لا) في جواب القسم (٧٩).

ولابن هشام مناقشات معه، لا مسوّج لا يرادها. ولابن الخباز كلام جميل في موضوع (الحقيقة والجاز) وهو موضوع دلالي بلاغي أوردّه أبو حيان في (الارتشاف ٣/٢٦٤) منقولاً عن (النهاية)، وكان معجباً به حتى قال: «ولم يصنع مثل ما صنع إلا أبو إسحاق البهاري».

وقد ذكر ابن الخباز فيما نقله عنه أبو حيان في (تذكرة النحاة ٤١١) ما بعدها أنه حاول تحصيل المعرفة بالعوارض التسعة للفظ المشتق التي ذكرها الفخر الرازي (ت ٦٠٦ هـ)، فلم يستطع، وحاول تعرفها بتسأل شيخه أبي حفص الفرغاني (ت ٦٣٢ هـ) تلميذ الرازي، فلم يتمثلها، غير أن ابن الخباز ظل مفكراً بها حتى اهتدى إليها، وهي:

١- ما زيدت فيه حركة، نحو ضَرَبَ، لأن المصدر ضرب، ومنه: علم، وظرف.

٢- ما زيد فيه حرف، نحو: طالب، لأن مصدرها طلب، متحرك العين.

٣- ما زيد فيه حركة وحرف، نحو: عالم.

٤- ما نقصت فيه حركة، نحو: القَرَس، لأنه مشتق من (القَرَس).

٥- ما نقص منه حرف، نحو: نبت، وخرج،

وصهل ، لأنها من النبات ، والخروج والصهيل .

٦- ما نقل منه حرف وحركة ، نحو: غلى ، ونزا ، وهذى ، لأنها من الغليان والنزوان ، والمهذيان .

٧- ما نقص منه حركة ، وزيد عليه حرف ، نحو: غضبي وعطشى ، لأنها صفتان مشتقتان من الغضب والعطش .

٨- ما نقص منه حرف وزيدت عليه حركة ، نحو: حرم ، لأنه مشتق من الحرمان .

٩- ما زيد فيه حركة وحرف ، ونقصت منه حركة وحرف ، نحو: استنوق الجمل ، فعين الناقة ساكنة وفي (إستنوق) متحركة ، وحلت الواو محل الألف ، فأما نقصان الحرف فهو حذف التاء .

وإنما أوردت هذا كله للاستدلال على ما بلغ ابن الخباز من ولع بالنحو وباللغة واهتمام بها ، وانصراف إليها ، حتى كان بآثاره وآرائه واحداً من كبراء النحاة في القرن السابع ، ومنه نستدل أيضاً على سمو مرتبة الدرس النحوي في الموصل حتى كان لها شأن لا ينكر على مدار الأعصر المختلفة (٨٠) .

وقد شاع إهتمام المواصلة بالقراءات فكانت الموصل مثابة المتعلمين وموئل العلماء القراء ، ولم يُشتهر ذلك عنهم إلا لأنهم كانوا ضابطين مجودين لما اتصفوا به من علم جَمَّ بالنحو واللغة وسائر علوم العربية ، ومن ثمة يعسر أن نفصل بين النحاة الذين انصرفوا للنحو خالصاً ، وبين أهل القراءات ، وقد كان شيوخ الاقراء في بغداد يأخذون عن علماء القراءات المواصلة منهم عبد الصمد بن أحمد الذي أخذ عن الفخر الموصلي (٨١) .

ونشير الى طائفة من هؤلاء نستكمل رحلتنا الممتعة النافعة لتعريف الدرس النحوي والدارسين في الموصل .

فمن هؤلاء :

أبو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بشعلة ،

وكان ذا معرفة تامة بالعربية ، قرأ القراءات على أبي الحسن علي بن عبد العزيز الإربلي (ت ٦٥٦ هـ) (٨٢) .

وأبو العباس تقي الدين أحمد بن المبارك بن نوفل النصيبي الخرفي (٨٣) ، وقد على الموصل في شببته ، فقرأ على الشيخ عز الدين محمد بن عبد الكريم البوازيجي ابن حرملة مقرئ أهل الموصل . أخذ العربية عن أبي حفص عمر بن البستيخي .

أخذ عنه القراءات أبو الحسن الجزري ، وابنا بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل .

تنقل بين سنجار والجزيرة وانتفع الناس بعلمه ، وصنف لهم شرح مقصورة ابن دريد ، وشرح ملحمة الاعراب للحري ، وكتاباً في العروض . (ت ٦٦٤ هـ) (٨٤) .

ومن نخاة الموصل الذين برعوا في العربية والقراءات والتفسير أحمد بن يوسف بن حسن بن رافع موفق الدين الكواشي الموصلي ، قرأ على والده ، وعلى السخاوي .

ألف تفسيرين كبيراً وصغيراً ، وقد أفاد منه الجلال المحلي في تفسيره ، والجلال السيوطي في تكملة ، كما صنف التبصرة في النحو ، وسواها . وقد عُني في تفسيره بوجوه الاعراب ، وأنواع الوقوف .

توفي بالموصل (٦٨٠ هـ) (٨٥) . ومنهم أيضاً الشيخ زين الدين علي بن الحسين الموصلي المعروف بابن شيخ العونية . ولد في الموصل ، وقرأ القراءات على الواسطي الضرير ، وأخذ النحو عن جمهرة من نخاة بغداد آتئذ ، وعلماء دمشق .

صنف شرح المفتاح للسكاكي ، وشرح التسهيل لابن مالك (ت ٧٥٥ هـ) بالموصل (٨٦) .

ومن نخاة الموصل في القرنين السابع والثامن أبو المعالي بن الخطيب بدر الدين محمد بن علي بن أحمد الاربلي الموصلي .

ونرجع עודا على بدء ، ونحن لانكاد ننهي من هذا الموضوع الطريف ، الى مقالة ابن خلدون في حديثه عن ابن هشام : « وكأنه ينحو في طريقته منحة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جني ، واتبعوا مصطلح تعليمه » .

و (كأن) في عبارة ابن خلدون تفيد التقريب^(٩٣) ، لانه لم يكن مطمئناً الى طريقة واضحة المعالم لابن هشام ، ولا للمواصلة ، ولا لابن جني ، لانه لم يحدد ماذا يقصد بالطريقة ، والمنحة ، والأثر ، ومصطلح التعليم .

والذي تعلمه يقينا فيما بين أيدينا من كتب ابن هشام أنه اختار أسلوباً تعليمياً صرفاً على مراتب ودرجات ، نجد ذلك بيتاً في (قطر الندى) وفي (شذور الذهب) وشرحها ، ثم يتضح أيضاً في (الاعراب عن قواعد الاعراب) ، وهو في هذا الكتاب ذو علم تربوي في النحو يتصدر به الطائفة المتأخرة من النحاة الذين نهجوا نهجاً تعليمياً .

أما في (مغني اللبيب) فقد ارتقى في التعليم مرتبة عُليا وهو يدرس الأدوات والتراكيب ليضع الدارس المتفحص على طريق التحليل اللغوي لنظام تأليف الجملة العربية .

ولا يكاد كتاب من شروحه على الشواهد أو الشعر يخلو من بيان صلة المعنى بالاعراب ، فإذا عدنا بهذا المحصول الذي اجتهدنا في تعرفة الى الفكر النحوي والتأليف فيه لدى النحاة المواصلة الألى وقفنا عند شيء من آرائهم ومصفاتهم ، ووازننا بين هذا وذلك وجدنا صلة ما في انتاج الاسلوب التعليمي ما بين النحاة المواصلة وابن هشام في العرض والتحليل ، وهو أكثر منهم رجوعاً الى النحاة المتقدمين وعرض آرائهم ومناقشتها وردّها أو قبولها ، وقد يشتد بعدد منهم ويقسو .

أما المواصلة فكانوا أقل منه رجوعاً الى المتقدمين ، وكثيراً ما يعالجون المسائل النحوية بروح هادئة متسمحة مع ميل ظاهر الى التعليقات .

كان معروفاً بالذكاء وسرعة الحفظ ، وضع شرحاً على كافية ابن الحاجب ، وآخر على شافيته في التصريف ، وله حواش على تسهيل ابن مالك . وقد ذكر له شعر جميل :

وقد شاع عني حب ليلي وأني
كلفت بها شوقاً وهمت بها وجدا
ووالله ما حسي لها جاز حده
ولكنها في حسننا جازت الحدا^(٩٤)

ولابد أن نذكر ، ونحن في آخر المطاف ، أن نخاطب من نخاطب الموصل جُولوا في الآفاق ، ومضوا الى حيث استقرت بهم النوى ، وألقوا عصا الترحال ، وكان ذلك في قاهرة المعز بمصر ، وقد انتفع بهم خلق كثير .

فنصر بن محمد بن المظفر بن أبي الفنون جال الدين أبو الفتح الموصلي الأصل ، البغداديّ النشأة ، النحوي اللغوي ، أخذ عن ابن الخشاب ، وابن القصار وأبي البركات الأنباري ، تصدر للتدريس بالأزهر الشريف ، ومات بمصر سنة ٦٣٠ هـ^(٩٥) .

وعلي بن عدلان عفيف الدين الموصلي ، أخذ النحو والعربية عن علماء الموصل ثم انتقل الى دار السلام ، وصحب أبا البقاء العمكيري حتى وفاته (٦١٦ هـ) ، وأجاز له أبو النعمان الكندي ، وكان معدوداً في الاذكياء المشاهير ، حسن الكلام في النحو صنف شرحاً على ديوان المتنبي^(٩٦) ، كان ملاك الشروح السابقة ، ومصدراً من مصادر الخلاف النحوي ، ووضع كتاباً في الالغاز النحوية سماه (الانتخاب)^(٩٧) .

جلس لتدريس النحو ، وأخذ عنه طائفة من المصريين^(٩٨) .

ونقل ابن الشعار الموصلي عنه أنه أخبره بأن ولادته كانت في الموصل في الخامس والعشرين من جمادى الأولى سنة (٥٨٣ هـ) .

توفي في القاهرة في تاسع شوال سنة ٦٦٦ هـ^(٩٩) .

أما أنهم إتبعوا مصطلح تعلم ابن جني، فإنما هوتمة لاقضاء الأثر، فهم مستفيدون منه بدءاً من الرائد الأول في القرن الخامس «الغساني» النحوي التلميذ البار بشيخه أبي الفتح بن جني، نهج نهجه التعليمي في اللمع، وسعى سعيه في فلسفة النحو وأصوله مفيداً من العلوم المختلفة، خاصة أصول الفقه، حتى آخر السلسلة من النحاة الموصلة.

ومهما يكن من أمر، فإن الحكم على منهج موحّد يصل بين الفتي الموصلي ابن جني عالم بغداد ومقدمها وبين من تلاه من نحاة الموصلي، وهم كثر، بحيث يمثل اتجاهها آخر، لموضوع من العسير الجسم فيه، لأننا حتى الآن نحيا في حالة دوار علمي في شأن المدارس النحوية التي يثور فيها جدل لم ينته إلى رأي حاسم على كثرة ماسير الدارسون من أقوال وآراء، ولكن بما لا ريب فيه أن ثمة إجتهدات وروى، وأفكاراً، فالاختلاف في العلم سمة على نشاط العقل، وكان للنحوم ذلك نصيب موفور. ومن هنا كان للموصل شأن بين سائر الحواضر في الدرس النحوي لا ينكره معاند أو غافل أو مدع علماً.

الهوامش

١. طبقات فحول الشعراء ١/ ١٥، وفيه: (شرح الملل)، وذكر ابن سلام أنه سمع أبيه يسأل يونس عن ابن أبي إسحاق وعلمه، قال: هو والنحو سواء - أي هو الغاية، كما أنه كان أشد تجريداً للقياس ١٠/ ١٤.
- (٢) ١٠٥/ ٢.
- (٣) طبقات فحول الشعراء ١/ ١٥، وأنباه الرواة ٣/ ٢٦٢.
- (٤) غاية النهاية في طبقات القراء ٢/ ٢٩٨.
- (٥) غاية النهاية ٢/ ٢٩٨.
- (٦) طبقات النحويين واللغويين ٣.
- (٧) بنية الرواة ٢/ ٢٨٧.
- (٨) البنية ١/ ١١٤.
- (٩) تاريخ بغداد ٣/ ١٠٦، وفي البنية ٤/ ٣٠٤: (السماسطي) بالمهملتين، تصحيف.
- (١٠) تاريخ بغداد ٣/ ١٠٦، وفي البنية ٤/ ٣٠٤ أنه انتقل إلى الموصل في هذا العام نفعاً عن الخطيب البغدادي، وهو ومعه.

- (١١) من هؤلاء أبو علي الفارسي النحوي المعروف الذي وفد على الموصل، عندما كان ابن جني يتصدر فيها مجلس الدرس، وكان لقاؤهما فرصة أفاد منها ابن جني.
- (١٢) المقدمة (ط ٥) من ٥٤٧.
- (١٣) ينظر معجم الأدباء ١٢/ ٩٠، ٩١.
- (١٤) معجم الأدباء ١٢/ ١٠٥.
- (١٥) المعجم ١/ ١٠٥ - ١٠٩.
- (١٦) ولا ننقل سبق الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأثره فيه.
- (١٧) ولا يمنع هذا من مروره بالموصل، أو إقامته فيها زمناً وهو في تطوافه بين بغداد والشام.
- (١٨) وليس كتاب (الاصول) لابن السراج كذلك، لأنه مبني على ما نبى عليه سيبويه كتابه، ولكنه أحكم نظامه وترتيبه، وليس خصائص ابن جني على مثاله.
- (١٩) النسبة إلى سوق (ثمانين) بليد صغير بأرض جزيرة ابن عمر بأرض الموصل يقال أنها أول مدينة بنيت بعد الطوفان، وسميت بذلك، لأن الذين نجوا من السفينة ثمانون رجلاً. ياقوت ١٦/ ٥٧.
- (٢٠) نزهة الألباء ٢٥٦.
- (٢١) وفيات الأعيان ٣/ ٤٤٣.
- (٢٢) البداية والنهاية ١٢/ ٦٢.
- (٢٣) المنتظم ٨/ ١٤٦.
- (٢٤) معجم الأدباء ١٦/ ٥٧، ٥٨، وفي البنية ٢/ ٢١٧ أنه (المفيد)، ولعله تصحيف.
- (٢٥) إيضاح المكنون ٢/ ١١.
- (٢٦) أنجزت أنا والزميل عبد الوهاب الكحلة تحقيق الكتاب على هذه النسخة.
- (٢٧) شذرات الذهب ٢/ ٢٦٩.
- (٢٨) البليغة ١٧١.
- (٢٩) القواعد والفوائد ق ٧/ ب.
- (٣٠) القواعد ق ٢٢/ ب.
- (٣١) وهو مذهب الخليل وسيبويه ومن تابعها. (الايضاح في علل النحو للزجاجي ١٣٠).
- (٣٢) نسخة دار الكتب المصرية ذات الرقم (١٥٧) نحو عن (اللمع) تحقيق حامد المؤن ١٠٨.
- (٣٣) اللهجة الموصلية ٢٥، وسنلني بتد بطفافة من نحاة الموصل وتعرف بعضاً من آثارهم وآرائهم.
- (٣٤) معجم الأدباء ٧/ ٢١٨.
- (٣٥) أنباء الرواة ٢/ ٢٧٥.
- (٣٦) معجم الأدباء ٧/ ٢١٨.
- (٣٧) البنية ٢/ ٢٧٤.
- (٣٨) قرأ القراءات بالموصل على يحيى بن سعدون القرطبي، والعربية على أبي البركات الأنباري (معرفة القراء الكبار ٢/ ٤٨٩).
- (٣٩) البنية ٢/ ١٦٥.
- (٤٠) معجم الأدباء ٢٠/ ١٤، ١٥.
- (٤١) ليس هذا الكلام على إطلاقه، لأن الغساني الذي وصل إلينا منه كتاباه اللذان أطلعتنا على أعوذجات منها لم تذكر له مطولات

النحو رأياً يعتد به سوى ما ذكره أبو حيان في (ارتشاف الضرب ٣/ ٧٩) من أنه نقل عن بعض العرب أنهم يُعملون القول إعمال الظن بشرط الاستفهام فقط، كان للمخاطب أو للغائب.

(٤٢) معجم الأدباء ١٣/ ٢١٥، ٢١٦.

(٤٣) ثمة تفصيلات في رسالة الماجستير التي أعدها فوزي نوري عبد الله عن (ابن الدهان النحوي) عام ١٩٨٣ بأداب جامعة الموصل، هذه هي كتب النحو التي وصلت إلينا، أما أكبر كتبه النحوية فهو (الشامل) في شرح إيضاح أبي علي، وهو من الكتب التي اعتمد عليه أبو حيان في (تذكرة النحاة).

(٤٤) أُنجزت تحقيقه مع الباحث فوزي نوري عبدالله.

(٤٥) معجم الأدباء ٦/ ٢٢٠.

(٤٦) الفرة (شرح الملح) ٢/ ٨٣، وينظر: ابن الدهان النحوي ٤٣.

(٤٧) شرح الكافية ١/ ٢٣١.

(٤٨) الفرة ٢/ ٦٨، والمغني ١/ ٢٤١، ٢٤٥.

(٤٩) تذكرة النحاة ٦٥١، ٦٥٢.

(٥٠) التذكرة ٦٥٥.

(٥١) ارتشاف الضرب ٣/ ٤٦، والفرة ٣/ ٩٨ (كما في الحاشية).

(٥٢) الارتشاف ٢/ ٧٩.

(٥٣) الارتشاف ٢/ ٢٦٥، ٢٦٦، وخزانة الادب ٤/ ٢٥، ٧/ ١١١.

(٥٤)، (٥٥) الملح ٢/ ٧٧.

(٥٦) الخزانة ٣/ ٤٤٦.

(٥٧) البنية ٢/ ٢٩٩.

(٥٨) عقود الجمان ٥/ ١٦٨، ١٦٩.

(٥٩) نسبة الى قرية من قرى الموصل تسمى (القيصة).

(٦٠) حققه محسن سالم العميري ونشره بمكة المكرمة.

(٦١) ذكرهما رمضان ششن في (توارد المحطوطات العربية في مكتبات

تركيا ١/ ١٤٧).

(٦٢) العقود ٤/ ٢.

(٦٣) كانت أربل والموصل رعية ومداراً واحداً ينتقل فيها علماء

الحاضرتين.

(٦٤) عقود الجمان ١/ ١٥٣ ب، ١٥٤ أ.

(٦٥) العقود ١/ ١٥٤ ب، وأشار ابن الشعار الى أن ابن الخباز قد

ذكر له أنه ولد في اليوم الثامن عشر من جمادى الاولى سنة

(٥٨٩ هـ).

(٦٦) الفصول الخمسون ٥٠.

(٦٧) ذكره في المغني ٢/ ٥٤١، وذكر ابن هشام نقله عن ابن

الحاجب في المغني ١/ ٢٩١.

(٦٨) ذكره في شرحه على ألفية ابن معط ٢/ ٢٦ أ، وخزانة الأدب

١٠/ ٥٧، والمغني ١/ ٢٥٩، ٢٥٢، ٣٤٠، ٢/ ٥٤٨.

(٦٩) الملح ٤/ ٤٠٨، والمغني ١/ ٣٧٩.

(٧٠) شرح الألفية ٢/ ١٧ ب.

(٧١) الملح ٤/ ٩٥.

(٧٢) شرح الألفية ٢/ ٢٦ أ.

(٧٣) ارتشاف الضرب ٢/ ٦٤٧، ٦٤٨، والمغني ١/ ١٣٦.

(٧٤) المغني ١/ ١٩٥.

(٧٥) المغني ١/ ٢٠٨.

(٧٦) المغني ١/ ٢٠٩.

(٧٧) المغني ١/ ٢٥٢.

(٧٨) المغني ١/ ٣٧٩.

(٧٩) المغني ٢/ ٧١٠.

(٨٠) من أراد التوسع والتفصيل والاستزادة فليرجع الى (ارتشاف

الضرب/ الفهارس) ففيها مواضع كثيرة، ولى خزانة الادب

٢/ ٧٩، ٤/ ١٩٧، ٦/ ٣٦١، ٧/ ٤١٨، ٩/ ٣٢٠،

١٠/ ٢٥٥، ٢٤٤.

(٨١) معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٣٠، ٥٣١.

(٨٢) معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٣٦.

(٨٣) نسبة خوفة من قرى نصيبين.

(٨٤) معرفة القراء الكبار ٢/ ٥٤٤، وينظر: معجم المؤلفين ٢/

٥٧٠.

(٨٥) البنية ١/ ٤٠١، ومعجم المؤلفين ٢/ ٢٠٩، ٢١٠.

(٨٦) البنية ٢/ ١٦١.

(٨٧) البنية ١/ ١٧٥، والدرر الكامنة ٤/ ٧٥.

(٨٨) البنية ٢/ ٣١٥.

(٨٩) نشر منسوباً خطأ الى المعكيري، وقد صحح نسبته الى ابن

عدلان المرحوم مصطفى جواد.

(٩٠) نشره الصديق حاتم الضامن.

(٩١) عقود الجمان ٥/ ٥٦، والبنية ٢/ ١٧٩.

(٩٢) عقود الجمان ٥/ ٥٩، ٦٠.

(٩٣) وهذا الأسلوب يصحح مذهب الكوفيين في هذا المعنى، ينظر:

الجنى الداني ٥٢١.

الحياة الأدبية

الحياة الأدبية حتى نهاية القرن الثالث الهجري

د. غانم سعيد حسن

قوله :

دار لقائلة الغرائق ما بها
غير الوحوش خلّت له وخلّاه
ظلتّ تسائل بالتمّ ما به
وهي التي فعلت به أفعالها
وهي أبيات من قصيدة يمدح بها مسلمة بن
عبد الملك^(١٠) ، وهي على رأي الآمدي من نادر
الشعر^(١١).

وله مدح في الوليد بن عبد الملك^(١٢) ، وبني
عبد المदान الحارثيين^(١٣) ومدرك بن عبد الله
الكناني ، أحد بني أقيش ، ثم اساء ثوابه
فهجاه^(١٤) . وله عتاب لملك بن قشعم^(١٥) لمعانيه
بني شيبان على بني تغلب^(١٦) ، وله قصيدة يصف
فيها القطا ، قدّم فيها صوراً قلما تقع في شبك
الشعراء ، فهي تشير الى دقة ملاحظته في متابعة
الطائر ورصد حياته في طبيعة عيشه ورسم سمات
خلقه فأكثر من الالوان المعبرة عن تقريب شكل
الطائر في قوله :

ثلاث مرورات يجاذبها القطا
ترئى الفرخ في حافاتها يتحرّق
يظل بها فرخ القطاة كأنه
يتيمّ يناجيه موالبه مطرّق
بدعومة قد بات فيها وعينه
على موته تغضي مراراً وترفق
شبيه بلا شيء ، هنالك شخصه
يواريه فنك حوله متفلق
له محجّر ناب ، وعين مريضة
وشدق يمثل الزعفران ، مُخلّق

ان وجود العرب في منطقة الموصل ، يرجع الى
حقب بعيدة من الزمن ، كما ان صلة أهلها بالجزيرة
العربية كانت قائمة على مدار التاريخ ، لذا فقد كان
طبيعياً ان يكون لها أسهامات شعرية ونثرية مبكرة .
وعلى الرغم من اننا لم نضع يدنا على نصوص كافية
تمكّننا من الحكم على واقع واتجاهات الحياة الادبية
في الموصل في القرون الثلاثة الاولى من الهجرة ،
الا أن التزّ القليل الذي وصل إلينا يؤشر بيّنة
أدبية ، كانت هي الاساس في ما وجدناه من
نضج واتساع في هذا المجال خلال القرن الرابع من
الهجرة ، كما سنتناوله في بحثنا التالي لهذا .
لقد برز من الشعراء خلال القرن الاول والثاني
الهجريين مجموعة من الشعراء وهم :

١ - اعشى تغلب

تختلف المصادر في اسم الشاعر وسنة وفاته ، قال
صاحب الأغاني : هو النعمان بن يحيى بن
معاوية^(١) ، وفي رواية أخرى : هو ربيعة بن
يحيى^(٢) ، وقال الآمدي في المؤتلف والمختلف هو
ربيعه بن نجوان^(٣) وفي تاج العروس هو النعمان بن
جاوان^(٤) ، وفي الزهر^(٥) نعمان بن نجران .^(٦)
عاش في أواخر القرن الاول واولئل القرن الثاني
للهجرة معاصراً للدولة الأموية في عهدي الوليد بن
عبد الملك (٨٦-٩٦ هـ) وعمر بن عبد العزيز
(٩٩-١٠١ هـ)^(٧) وقيل إنه مات سنة
(٩٢ هـ)^(٨) .

تنقل الاعشى بين بلاد قومه بنو احوي الموصل
وديار ربيعة^(٩) ونظم في اغراض شعرية متعددة ،
فدح ، وهجا ، ووصف ، ومن ابرز ما وصل إلينا

تساجيه كحلاء المدامع حُرّة
لها ذنبٌ ساج ، وجيدٌ مطوقٌ (١٧)
وقوله يصف روضة :

ما روضة من رياض الحزنِ معشبةٌ
خضراء جاد عليها مُسبلُ هَطلُ
يضاحك الشمس فيها كوكبٌ شرقُ
مؤدّرٌ بعميمِ الثَّبتِ مشتملُ
يوماً بأطيب منها نشر رائحةٍ
ولا بأحسن منها اذْ دنا الأُصلُ (١٨)

٢- محمد بن ذؤيب الراجز

شاعر من اطراف مدينة الموصل ، من اهل
الجزيرة ، وقيل من ديار مصر ، عرف بالعُماني لصفرة
تعلو وجهه فشبّهوه بالعُمانيين ، وقيل سمي بذلك لانه
زار عمان ولما عاد منها نسب إليها (١٩)

ولد في أواخر القرن الاول الهجري وقد كان
معمراً حيث امتد به العمر الى عهد الخليفة هارون
الرشيد وذاع صيته في هذا العهد حتى قيل إنه اشعر
الرجاز خلاله اربعة محمد بن ذؤيب اولهم (٢٠) ذكر
ابن النديم ان له ديواناً لا يتجاوز خمسين
ورقة (٢١) ، وقد نقلت لنا المصادر اعجاب معاصري
محمد بن ذؤيب بشعره كما أشادت بعلو منزلته ،
وسلاسة لفظه ورصانة لغته في نظم الرجز حتى أن
(شارية) (٢٢) غنت له هذين البيتين :

ياناعاش الجدّ اذا الجدُّ عشرُ
وجابر العظم إذا العظم انكسرُ
أنت ربيعِي والربيعُ ينتظرُ
وخيرُ أنواع الربيع ما بكرُ (٢٣)

وله قصة تفصح عن سرعة بديهته وتؤكد قدرته
على امتلاك الاداة الفنية في نظم الرجز ، روى
صاحب الاغاني عن يزيد بن عقّال أنه قال كنّا
وقوفاً والمهدي قد اجرى الخيل فسبقها فرس يقال
له الغضبان ، فطلب الشعراء ، فلم يحضر منهم أحد
إلا أبو دلّامة (٢٤) فقال له قلّده يازنّد ، فلم يفهم ما

أراد ، فقلّده عامته فقال له المهدي أنا اكثر عائم
منك ، إنما أردت أن تقلّده شعراً ، ثم قال بالهني
على العُماني فلم يتكلم حتى أقبل ، فقيل له هذا
العُماني قد اقبل الساعة ياأمير المؤمنين ، فقال
قدّموه ، فقدّم فقال قلّد فرسي هذا ، فقال غير
متوقف

قد غضب الغضبانُ إذ جدّ الغضبُ
وجاء يحمي حسباً فوق الحسبِ
من إرثِ عباسي بن عبدالمطلبِ
وجاءت الخيلُ به تشكو التعبِ
له عليها ما لكم على العربِ
فقال له المهدي أحسنت والله ، وأمر له بعشرة
آلاف درهم (٢٥)

والأخبار تشير الى أنه امتلك قلوب الخلفاء وأكابر
شخصيات عصره (٢٦) قال فيه معاصره الأصمعي
(ت ٢١٧هـ) (كان العُماني شاعراً قديماً مفلقاً
مطبوّعاً مقتدراً وكان جيد الرجز ، والقصيد) (٢٧)
وأبدى ابن المعتز الشاعر اعجابه به وأستحسن شعره
بل واختار منه ، وكان يوازنه بالعجاج (٢٨)
ورؤية (٢٩) بل عُدّ اطبع منها (٣٠)

٣- سلمة بن الحرين يوسف

سلمة ؛ هو ابن الحر (٣١) بن يوسف ؛ الشاعر
الفصيح ؛ ويبدو أنه أقام مع والده في الموصل ، ثم
فارقها ، والتحق بالبادية ، بنواحي الثعلبية على
طريق مكة . ومن شعره قوله متزلاً :

سأثوي ببحر الثعلبية ماثوثُ
حليلة منصور بها لا أريُّها
وارحل عنها إن رحلت وعندنا
إياد لها معروفة لا أدبها
وقد علمت بالغيب ألا أودها
إذا هي لم يكرم عليّ كريمها
نقرُ لعيني أن أراها بنعمة
وإن كان لا يجدي عليّ نعيمها (٣٢)

٤- الأشكل الحمامي

الحمامي ؛ نسبة إلى (حميم) ، وقد كانت الموصل إحدى مهاجرهم . وصفت المصادر شعره بالجودة ، ومن ذلك قوله :

أبلغ لؤيا بأنني إن قصدت لها
لم يلق شعري لدى الاقوام متحلا
لا اشركن ولا أغلب على أحد
ولا أقرظ مختالاً إذا جهلا

إني متى ابتدع نصري لغيركم
يستبدل القوم من أمصاركم بدلا
الشعر منتهب كل يهيم به
يمضي الغناء ويبقى صفوه قبلا (٣٣)
وعلى الرغم من ضآلة هذه الأبيات فإنها تنبئ
عن ذوق سليم وثقة بالنفس وقدرة عالية على نظم
الشعر.

٥- ابو المعافى المزني الموصل

هو يعقوب بن اسماعيل بن رافع مولى مزينة ؛
وقيل اسمه محمد ؛ والاول أصح . كان في صحابة
العباس بن محمد الهاشمي ، هو وابنه ؛ ابو
البداح (٣٤) ، شاعران ولأبي المعافى شعر يمدح فيه
رجلاً من قريش : قال :

فلم تحو الرئاسة من بعيد
ولم ترث السباحة من كلال
وما قصرت يدك عن المعالي
ولا طاشت سهامك في نضال
وله شعر غزلي يصف فيه السودان ، والشباب ،
والصبا (٣٥) وله مديح في بني هاشم ، وهو القائل
لأبي محمد بن ابراهيم الامام بمدحه لما كان خليفة
أبيه على المدينة :

إليك مديحتي ياخيرَ ، إلّا
رسول الله ، مَنْ وَلَدَ النساءَ
ستأنيك المدائح من رجال
وما كفّ اصابعها سواء (٣٦)
وهو شاعر مقل يتضمن ديوانه عشرين ورقة (٣٧) .

٦- جُبَيْر بن غالب الخارجي

شاعر من فقهاء الخوارج من حمير أو الى
حمير ، من اهل الكار الأسفل بالموصل ، يفخر في
قصيدة قالها في حفص الذي كان يتولى العقود
للخوارج :

فلما بلغنا خمس عشرة حجة
لقينا على الاسلام حفص بن أشيا (٣٨)
وله مصنفات في الفقه (٣٩)

٧- المعافى بن عمران الأزدي الموصل

هو ابو مسعود بن فليل ؛ من جبلة ، الفهمي
الفيلبي وقيل في نسبه غير ذلك (٤١) ، كان فقيهاً
محدثاً ، وقد ألف في الأدب فضلاً عن كتاباته في
ميدان تخصصه .

كان شديد الرغبة في الحديث حتى رحل في طلبه
الى البلدان النائية وجالس العلماء ولزم سفیان
الثوري (٤٢) فتفقه به ، وتأدّب بأدابه واكثر الكتابة
عنه وعن غيره ، وكان سفیان يسميه الباقره وياقوتة
العلماء (٤٣) وكان من جملة ما يقول له (أنت معافى
كاسمك) ويقول عنه ايضا مظهراً علو منزلته في العلم
(أمتحنوا اهل الموصل بالمعافى) (٤٤) .

أختلف في سنة وفاته كما اختلف في نسبه فقيل
إنه مات سنة ١٨٤ هـ (٤٥) وقيل سنة
١٨٥-١٨٦ هـ (٤٦) وانفرد العسقلاني بتاريخ بعيد
عن هذه المدة في روايته عن ابن قانع هو سنة
٢٠٤ هـ (٤٧) .

٨- الصقر بن نجدة بن الحكم الأزدي الموصل

كان فارساً شاعراً واكب بسيفه وشعره
الاحداث والزراعات السياسية التي جرت في ساحة
الموصل على الولاية والحكم فغلب على شعره
موضوعا الرثاء والهجاء ، فرثى بقصيدة من قتل من
وجوه اهل الموصل في حوادث سنة ١٣٣ هـ (٤٨) ،
ونشب قتال على السلطة والنفوذ في سنة ١٤٨ هـ

بين حسان بن مُجالد بن يحيى الحمداني الموصلي
وصالح بن مردود، أحد فرسان الموصل المعدودين
قَابِلُ بلاء حسناً وقاتل قتالاً شديداً ثم قتل فرقى
الصقر بن نجدة صديقه صالحاً بقصيدة^(٤٩)
ولمّا ولي يزيد بن أسيد الموصل كان الصقر على
روابطها، فحصل تداخل في النفوذ بينهما، فهجا
الصقر يزيد بقصيدة يقول فيها :
فا شجرات غيضاك في سُلَم
براسخة العُروق ولا عذاب^(٥٠)

٩- مغلّد بن بكار الموصلي

لعل ابرز شاعر ظهر في الموصل في القرن الثاني
الهجري هو مغلّد بن بكار من خلال ما قدّمه من
نتاج شعري كمّاً ونوعاً وجلّ شعره في المديح والثناء.
من شعره، مدحه لسليمان بن عمران، وقد كان له
بلاء حسن في موقعة عسكرية تدعى (وقعة
الميدان) التي حدثت سنة ١٩٨ هـ^(٥١) حيث
يقول :

وليوم الميدان منه ثناء
لا تعقّيه في الحياة الدهور
يوم آتت بنو زهير حُماة
ورحى الحرب بالنيايا تدور
فتلقاهم ببأس وجأش
ويد سمحة نداها يمور^(٥٢)
ومدح زريقاً بن علي احد المتنفذين، واصحاب
الضبايع في عصره فقال
لله دُرُ زريق حين قرطقتها
من قبل أن يلج البذين منصرفا^(٥٣)
وفي مدحه أحياناً مبالغة وخروج عن الحد المعقول مما
يؤشّر أنه كان رقيق الدين، من ذلك مدحه لوالي
المدينة :

اما الجبال فقد رأيت ملوكها
لا يحلفون إذا خلوا بسواكا
لو طوّفت بالبيت واعتمرت به
لم تخش خالقها كما تخشاك^(٥٤)

وبعد موت الوالي رثاه بأكثر من قصيدة ولاسيّما
قصيدته التي نظمها بعد مقتله على أثر النزاع الذي
دار بينه وزريق بن علي في قوله :
ما إن رأيت ولا سمعتُ بمثلِهِ
من فارس لقي الكتيبة أوّجدا^(٥٥)
وقوله أيضاً يرثيه :

بأيّ يد تسطو الليالي وسيّد
صرع ردى أوصاله ومفاصله
تمربه ربح وقطر كآنتها
كابّاه في الدنيا نداه وناقله^(٥٦)
وله مدح في بني تليد يقول فيه :
تليد في أناملها رماح
تلقظ في أسننها المنون^(٥٧)

وله مظلمة قدّمها الى والي الموصل مالك بن
طوق^(٥٨) بدأها مدحاً في قوله :
سموت الى الأصل الذي الحوت أشه
وأفراعه فوق السّياك سمالك
وبيت بناه كليب ووائل
وعمرؤ وكلثوم وطوق بن مالك
ثم يقول :

فالي وبستي في ذراك - ترعوني
مظالم قد مارت عليها الترائك^(٥٩)
كان مغلّد بن بكار ظريفاً يحب الدعاية يؤكد ذلك
ما حدّثنا به ابو بكر بن دريد^(٦٠) قال جلس كامل
الموصلي في المسجد الجامع يقرئ الشعر فصعد
مغلّد المنارة فصاح :
تأهبوا للحدث النازل
قد قرئ الشعر على كامل
وكامل الناقص في عقله
لا يعرف العام من القابل^(٦١)

نخلص من هذا الاستعراض الى أن شعر مغلّد بن
بكار الموصلي ينبيء عن اسلوب جزل ولغة رصينة

وقدرة عالية على نظم الشعر واحكامه ، إلا أنه في الوقت نفسه يبدو تقليدياً في بناء قصيدته يسير على خطى الأقدمين من شعراء ما قبل الاسلام وعصر بني أمية .

ولعل ابا تمام حبيب بن اوس الطائي الشاعر كان قاسياً وحدياً في حكمه على شعر مخلد بخاصة ، وشعر الموصلي بعامة ، وأبدى رأيه على أثر مغاضبة بينها لَمَّا قيل لأبي تمام (قد هجأك مخلد الموصلي ، فلو هجوت ، قال الهجاء يرفع منه إذ ليس هو شاعرٌ ، ولو كان شاعراً لم يكن من الموصلي ، يعني أن الموصلي لا يخرج فيها شاعر) (٦٢) .

ولو قال لم يظهر فيها شاعرٌ كبير مثله ومثل البحري وجريبر والفرزدق لاصاب الى حد كبير ، ولكنه جانب الصواب في هذا الاطلاق ، لان التماذج التي عرضناها لمخلد وغيره من شعراء الموصلي تحمل على ضآلتها ظلالاً شاعرية جميلة .

اما البارزون من الشعراء في القرن الثالث الهجري ، فيمكن ان نحصيهم بما يأتي :

١- أبو تمام الطائي

هو حبيب بن أوس الطائي ، شامي الاصل ولد سنة ١٨٨ هـ وتوفي في الموصلي سنة ٢٣١ هـ (٦٣)

لم يكن حظ مدينة الموصلي في ابي تمام الطائي كبيراً ، اذا أخذنا بنظر الاعتبار معيار التفاعل والتأثير والتأثر ، لأن أبا تمام قد نضج شعرياً قبل وصوله الى الموصلي ، وهو لا يبدو من خلال شعره انه ينتمي الى مدينة معينة ، لأنه كان كثير الترحال في البلدان ، يقول عن نفسه (فظهر العيس اوطاني) (٦٤) ورأيه الآنف الذكر في نقد الشاعر مخلد الموصلي يؤكد عدم اعترافه بمثل هذا الانتماء وطابع شعره عربي يمثل أنموذجاً خاصاً للعصر ، يرقى عن مستوى الأقلية والمحدودية الضيقة .

أقام في الموصلي اقل من ستين لما تولّى البريد فيها (٦٥) وفي هذه المدة القصيرة انشغل في إدارة البريد آخر حياته ، ومصادره لم تسعنا في بيان الشعر الذي قاله فيها .

وعلى الرغم من شهرته التي طبقت الآفاق ، وعمت أرجاء البلاد الإسلامية والضجة الأدبية التي أحدثها والخصومات النقدية والبلاغية التي أثارها شعره ، فلا يمكننا أن نحدد مدى تأثيره بالحياة الشعرية في الموصلي في عصره او اثرها فيه ، وربما جاء هذا التأثير بالقرون اللاحقة لاسيما القرن الرابع الهجري على يد أبي بكر الخالدي ، والسري الرفاء (٦٦) ، والخياز البلدي (٦٧) .

ومن إعجاب الأخوين الخالدين بشعره ألفا كتاباً في أخبار أبي تمام ومحاسن شعره (٦٨) وتأثر شعراء الموصلي هؤلاء ببعض مضامينه الشعرية ، وهذا التأثير يبدو طبعياً ، لأنه شاعر رصين أتى بما هو جديد في عالم الأدب ، فأصبح من هذه الناحية نبزاً لشعراء الموصلي وغيرهم على حد سواء .

٢- علي بن حرب بن محمد بن علي ، أبو الحسن

شاعر طائي آخر ، هو علي بن حرب بن محمد بن علي ابو الحسن المولود في سنة خمس وسبعين ومئة والمتوفى في سنة خمس وستين وميتين إلا أنه غلب عليه طلب الحديث ، ورحل من اجله الى البلاد ، وسمع وصنّف حديثه ، واخرج المسند ، وكان عالماً بأخبار العرب وانسابها أديباً شاعراً (٦٩) ، ووفد على المعتز بسر من رأى في سنة أربع وخمسين وميتين فكُتب المعتز بخطه ودقّق الكتاب فقال : علي بن حرب المحدث الشاعر اخذت يا امير المؤمنين في شؤم اصحاب الحديث فضحك المعتز (٧٠) . ومصادره لم تورد نماذج من شعره لنضع بدنا عليها ونعرف الى شعره الذي كتبه ولم تنشر أيضاً الى حجم ذلك التناج .

٣- الموصلي النصارى

افرد البيهقي بذكره ، ولم يعطنا معلومات عن سلسلة نسبه . ويدوانه عاش اواخر القرن الثالث ، واولائل القرن الرابع ، فذلك ما يفهم من كونه معاصراً للبيهقي الذي أرخ له . وقد أورد له اربعة ابيات في مدح بني هاشم قال فيها :

عدي ونعيم لا أحاول ذكرهم
بسوء ولكني محبٌ لهاشم
وهل تأخذني في عليّ وحبيبه
إذا لم اعش يوماً ملامة لآثم^(٧١)

٤- جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي

ذكر بنتونج ثقافته ، فقد كتب في الوان شتى من العلوم والآداب ، وغلب عليه الحديث والشعر . بل كان ناقداً للشعر ، كثير الرواية له . ومما كتبه في الأدب الى جانب كتاباته الأخرى كتاب (الباهر في الاختبار من اشعار المحدثين) عارض به الروضة للمبرد^(٧٢) وهو الكتاب نفسه الذي ذكره حاجي خليفة تحت عنوان الباهر في الأخبار^(٧٣) وله كتاب الشعر والشعراء ، وكتاب السراقات وكتاب محاسن اشعار المحدثين ، وله ديوان شعر يتضمن ميثقي ورقة^(٧٤) . التقى ببعض شعراء عصره وأدرك ابا العباس النامي^(٧٥) وتكاتب بالشعر وكانت بينه وبين البحري مراسلة ، ورثاه بعد وفاته^(٧٦) بقوله :

نعولت البدائع والقصيد
وأودى الشعرُ مذ أودى الوليد
وأظلم جانب الدنيا وعادت
وجوه المكرماتِ وهنَّ سود^(٧٧)
أما منزلته العلمية ومكانته الاجتماعية فقد كان كبير المحل من اهل الرياضات بالموصل ، ولم يكن بها في وقته من ينظر إليه ويفضل في العلوم سواه ، متقدماً في الفقه ، قوياً في النحو فيما يكتبه ، عارفاً بالكلام والجدل ، مبرراً فيه حافظاً لكتب اللغة

راوية للأخبار ، بصيراً بالنجوم ، عالماً مطلعاً على علوم الأوائل ، عالي الطبقة منها ، وكان صديقاً لكل وزراء عصره ، مدحاً لهم آنساً بالمبرد وثعلب وامثالهما من علماء الوقت ، وكانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفا على كل طالب للعلم وكان يجتمع إليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره^(٧٨) .

نظم في اغراض الشعر المختلفة وكان المدح طاغياً على موضوعه الشعري لعلاقاته الواسعة بأصحاب الرياسة والوزراء والخلفاء وله قصيدة تتضمن مئة وخمسين بيتاً فيها ، بعد مدح الخليفة المعتضد ، يشكو من اهل الموصل لما ناله منهم ثم يذكر ما يحسن من العلوم الدينية والأدبية ويتمثل بثعلب والمبرد وامثالهما ويتبجح بمعرفته إقليدس وأشكاله بقصيدة اولها :

اجدك ما ينفك طيفك ساريا
مع الليل مجتابا إلينا الفياض
يذكرنا عهد الجسمي وزماننا
بنعمان والأيام تعطي الأمانيا^(٧٩)
وله قصيدة بمدح فيها القاسم بن عبيدالله يديها متغزلاً بقوله :

ما شأن دارك بالليل نناجيا
فما تجيب ولا ترعى لداعيا
إننا عشيبة عُجنا بالمطسي بها
كُنَّا نخيبك فيها لانخيبها^(٨٠)

وكان عفيفاً في اختيار الفاظ غزله وربما العلوم الدينية التي اتقنها وثقافته الواسعة قد تركت آثارها واضحة على اتجاهه هذا ومثال ذلك قوله :

تمكن حبٌ علوة من فوادي
وملَّك أمرَ غني والرشادِ
فوالى بين دمعسي والمآقي

وعادى بين جفني والرقادِ^(٨١)
وله شعر يصف فيه الليل وموضوعات اخرى

اوردها صاحب معجم الأدباء يعبر عن حكمة وتجربة في أدراك الحياة المعيشة .

الخلاصة

نخلص مما تقدم ذكره الى ان الحياة الأدبية في الموصل في القرون الثلاثة الأولى من الهجرة كانت على ضالة نتاجها الأدبي كماً ، إلا أن ذلك النتاج من الناحية النوعية يبني عن إجادة فنية وقدرات شعرية جيدة وكان جزلاً قوياً في المواضع التي تتطلب الجزالة والقوة وعدباً رقيقاً في المواضع التي تتطلب العذوبة والركة ، وذلك مما يشجعنا على الاعتقاد بوجود أرض طيبة ولا يمكن أن ينشأ ذلك من فراغ وهذا ما يدعونا أيضاً الى ان نستنتج يقيناً ان قسماً كبيراً من ذلك النتاج قد أصابه الضياع والتلف ضمن ما ضاع من تراثنا الأدبي بسبب الأهمال والجهل الذي لقّهُ عبر القرون ، لأن بعضاً من نماذجهم الشعرية كانت بارعة وذات لغة رصينة وليس من المعقول أن يقتصر الشاعر على نظم تلك النماذج بعينها ، وإنما المرجح أنه كتب غيرها وضاع ، وما يؤكد هذا الرأي أن ذلك التراث الأدبي كان موغلاً في القدم وعماد حفظه الرواية الشفوية وما دون منه تعاونت الاحداث والازمات على النيل منه .

فضلاً عما ذكرنا كان الأتجاه العام للحياة الثقافية في البلاد الإسلامية في القرون الأولى دينياً ، لذا كثيراً ما نصادف في كتب الرجال أعداداً كبيرة من القراء والمحدثين في الموصل في تلك الحقب وقلماً نجد شاعراً أو كاتباً وربما يعود السبب الى التغير الذي أحدثته الاسلام في عموم الحياة فأصبحت المكانة الاجتماعية للانسان في ذلك العصر تقاس من خلال ما يتقنه من علوم الدين ومكانة الآخرين دون ذلك المستوى ، والانسان بطبعه يصبو الى تلك المكانة .

يضاف الى ذلك الأهتمام العام الذي تشرب في أوصال المجتمع الإسلامي فكان التفضيل والمسابقة بينهم على حفظ آيات الله وأحاديث رسوله تعلق على حفظ أي نص آخر ، لأن الحياة في بدايتها اتجهت اتجاهاً عملياً واهتم المسلم بما يمارسه في حياته اليومية من عبادات ومعاملات .

ولقد شغل الدين الجديد اذهان المسلمين بالنصوص الرائعة في بلاغتها وفصاحتها من كتاب الله وأحاديث رسوله ، فاخذت بالألباب ، وتمكنت في القلوب ، واصبحت الشغل الشاغل للمسلمين ، وماعداها اصبح لامحالة ثانوياً ، وهذه سنة التطور في التاريخ البشري ، ولأسف أن الثورة الكبرى التي أحدثها الاسلام في حياة العرب بخاصة والأنسانية بعامه ليست عادية .

الهوامش

- (١) الأصغفاني ، الأغاني ، تحقيق ، عبدالستار احمد فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٥٩ ج ١١/٢٨١ .
- (٢) نفسه ، ج ١١/٢٨١ ، انظر باقوت الحموي ، معجم الأدباء ، مطبوعات دار المأمون ١٣٥٥-١٩٢٤ ج ١٠/١٣٢٢ .
- (٣) الآدي ، المؤلف واختلف ، تحقيق عبدالستار احمد فراج ، دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٣٨١-١٩٦١ ص ٢٠ .
- انظر البصري ، الحامسة البصرية ، عالم الكتب بيروت ١٣٨٤-١٩٦٤ ، ج ١/٩٨ .
- (٤) الزبيدي ، تاج المعروس ، مطابع دار صايد بيروت ١٣٨٦-١٩٦٦ ، ج ١٠/٢٤٤ .
- (٥) السيوطي ، الزهر في علوم اللغة ، شرح وضبط محمد احمد جاد المولى ، دار احياء الكتب العربية ج ٢/٤٥٧ .
- (٦) لعل بين كلمتي نجوان ونجوان تحريفاً من النسخ .
- (٧) الاب لويس شيخو ، شعراء النصرانية بعد الاسلام ، مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين بيروت ١٩٢٢ ، القسم الثاني ، ص ١٢٢ .
- (٨) باقوت الحموي ، معجم الادباء ج ١١/١٣٢٢ .
- (٩) الاصغفاني ، ج ١١/٢٨١ .
- انظر محمد الخفزي ، مذهب الاغاني ، م مصر شركة مساهمة مصرية ، القاهرة ، ٤٠/٤٠ .
- (١٠) الاصغفاني ، ج ١١/٢٨٠ .
- (١١) الآدي ، ص ٢٠ .
- (١٢) الاصغفاني ، ج ١١/٢٨٣ .

- (١٣) ياقوت الحموي، معجم الأدياء، ج ١١/ ١٣٢.
- (١٤) الأغاني، ج ١١/ ٢٨٢.
- (١٥) ابن شيان البكري الرمي أبو عَسان (ت ٧٣هـ - ٦٩٣م) سيد ربيعة في زمانه ولد في عهد النبي (ص) ويقال ساد الاحنف بحمله وساد مالك بن مَسْمَع بمحبة العشيرة له.
- ابن حجر العسقلاني، الاصابة، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر القسم السادس القاهرة ١٩٧١، ص ٢٧٥.
- انظر الزركلي، الاعلام ٣، بيروت ١٣٨٩-١٩٦٩ ج ٦/ ١٤٢.
- (١٦) الأصفهاني، ج ١١/ ٢٨٢.
- (١٧) الاب لويس شيخو، القسم الثاني ص ١٢٨.
- (١٨) ياقوت الحموي، معجم الأدياء ج ١١/ ١٣٣.
- (١٩) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي بيروت، ج ٥/ ٢٧٠-٢٧١.
- انظر القفطي، المحدثون من الشعراء واشعارهم تحقيق عبدالحليم مراد مطبعة الحجاز بدمشق ١٣٩٥-١٩٧٥. ص ٤٤٢
- انظر ايضا الصفدي، الوافي بالوفيات باعتناء هلموت ريتز، ١٣٨١-١٩٦١ ج ٢ ط ٣/ ٦٧.
- (٢٠) القفطي، ص ٤٤٣.
- (٢١) ابن التديم، الفهرست تحقيق رضا تجمد ١٣٩١-١٩٧١ ص ١٨٥.
- (٢٢) مغنية في العصر العباسي نصحا ابراهيم بن المهدي الا تشبه بمخارفي في ترايدو الاصفهاني ج ١٨/ ٣٦٠.
- (٢٣) الأصفهاني، ج ١٨/ ٣١٠.
- (٢٤) هوزند بن الجرن كوفي اسود من موالى بني اسد من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية توفي سنة ١٦١ هـ، ابن قتيبة الشعر والشعراء تحقيق احمد محمد شاكر، دار المعارف القاهرة ١٣٨٦-١٩٦٧ ج ٢/ ٧٧٧-٧٧٧.
- الآمدي، ص ١٩٢، الاصفهاني، ج ١٠/ ٢٤٧؛ وانظر د. شوقي ضيف تاريخ الادب العربي العصر العباسي دار المعارف بمصر القاهرة ص ٢٩٥-٢٩٦.
- (٢٥) الاصفهاني ج ١٨/ ٢٣٩، انظر الصفدي، ج ٣/ ٦٧.
- (٢٦) ابن قتيبة، ج ٢/ ٧٧٥، انظر ابن المعتز طبقات الشعراء، تحقيق عبدالستار احمد فراج دار المعارف بمصر القاهرة ١٣٧٥-١٩٥٦ ط ٢ ص ١١٠.
- (٢٧) ابن المعتز، ص ١١٠.
- (٢٨) هو عبدالله بن روية بن ليث بن صخر السعدي التيمي (ت ٨٠٩-٧٠٨م) راجز عبيد ولد قبل الاسلام وعاش الى ايام الوليد بن عبدالملك. انظر الزركلي ج ٤/ ٢١٧.
- (٢٩) ابن عبدالله العجاج التيمي السعدي (ت ١٤٥هـ - ٧٦٣م) راجز، من الفصحاء المشهورين من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية، انظر الزركلي ج ٣/ ٦٢-٦٣.
- (٣٠) ابن المعتز ص ١١٢-١١٤.
- (٣١) ابن يمي بن الحكم الأموي (ت ١١٣هـ - ٧٣١م)؛ ولأه هشام ابن عبدالملك الموصل، فحفر فيها نهراً استغرق عدة سنين ونفى
- لسكناء داراً كانت تسمى (المقشوة) لكثرة ما فيها من نقوش الساج والرخام والقصص الملونة، واستمر في امارته عليها الى أن توفي. وكان عاقلاً فاضلاً محباً للخير والعمران، انظر الزركلي ج ٢/ ١٨٣.
- (٣٢) الأزدي، تأريخ الموصل، تحقيق علي حبيبة، القاهرة ١٣٨٧-١٩٦٧، ص ٢٩.
- (٣٣) نفسه، ص ٩٦.
- (٣٤) قبل ابو القُدّاح ولعله تحريف. انظر القفطي، ص ١٧٤.
- (٣٥) المرزباني، معجم الشعراء، تحقيق عبدالستار احمد فراج، دار احياء الكتب العربية ١٣٧٩-١٩٦٠ ص ٤٩٦-٤٩٧.
- (٣٦) القفطي، ص ١٧٤.
- (٣٧) ابن التديم، ص ١٨٥.
- (٣٨) الأزدي، ص ٢٠٦.
- (٣٩) نفسه، ص ٢٠٦.
- (٤٠) الخطيب البغدادي، ج ١٣/ ٢٢٦.
- (٤١) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت ١٩٦٨ ج ١٠/ ١٩٩.
- (٤٢) ابن سعيد بن مسروق بن بني ثور بن عبد مائة من مضر ابو عبدالله (٨٩٧-٧١٦م) و (ت ١٦١هـ - ٧٧٨م)؛ سيد زمانه في علوم الدين ولد ونشأ في الكوفة ومات في البصرة وله من الكتب (الجامع الكبير) و (الجامع الصغير) كلاهما في الحديث وكتاب (الفرائض) وكان آية في الحفظ، (انظر الزركلي، ج ٣/ ١٥٨).
- (٤٣) الخطيب البغدادي، ج ١٣/ ٢٢٦-٢٢٨.
- (٤٤) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١٠/ ٢٠٠.
- (٤٥) الخطيب البغدادي، ج ١٣/ ٢٢٩.
- (٤٦) نفسه، ج ١٣/ ٢٢٢؛ وانظر ابن حجر العسقلاني تهذيب التهذيب، ج ١٠/ ٢٠٠.
- (٤٧) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، ج ١٠/ ٢٠٠.
- (٤٨) الأزدي، ص ١٥٢.
- (٤٩) نفسه، ص ٢٠٤.
- (٥٠) نفسه، ص ٢١٧.
- (٥١) نفسه، ص ٣٣٣.
- (٥٢) نفسه، ص ٣٣٣.
- (٥٣) نفسه، ص ٣٥٧.
- (٥٤) نفسه، ص ٣٦٣.
- (٥٥) نفسه، ص ٣٧٤.
- (٥٦) نفسه، ص ٣٧٥.
- (٥٧) نفسه، ص ٤٢٣.
- (٥٨) ابن عتاب التلمي (ت ٢٥٩-٨٧٣)، كان والياً على الموصل في سنة ٢١٤ هـ من الفرسان الأجواد، وكان فصيحا وله شعر. انظر الأزدي، ص ٣٩٦، والزركلي ج ٦/ ١٣٧.
- (٥٩) الأزدي، ص ٣٩٦.
- (٦٠) هو محمد بن الحسن بن دريد ولد في البصرة سنة ثلاث وعشرين ويشتين من الهجرة كان من اكابر علماء العربية، شاعراً كثير الشعر، وله مصنفات عديدة مات في سنة احدى وعشرين

- ابن العاد الحنبلي، شذرات الذهب في اخبار من ذهب مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٠ ج ٢/١٥٠.
- (٧٠) نفسه، ج ٥/٥٢-٥٣.
- (٧١) الشبقي، المحاسن والمساويء دار صادر بيروت ١٣٩٠-١٩٧٠ ص ٦٩. انظر الأب لويس شيخو، ص ٢٥٤.
- (٧٢) ابن النديم، ص ١٦٦، انظر ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٧/١٩١.
- (٧٣) حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق محمد شرف الدين، وكالة المعارف الجليلية، المطبعة البية ١٣٦٠-١٩٤١، ج ١/٢١٩.
- (٧٤) ابن النديم، ص ١٦٦، ١٩٤، انظر ياقوت الحموي معجم الأدباء، ج ٧/١٩١.
- (٧٥) هواحد بن محمد الدارمي شاعر رقيق الشعر من اهل المصيبة (على ساحل البحر المتوسط) مات في حلب سنة (٣٩٩-١٠٠٩م)، انظر الزركلي ج ١/٢٠٣.
- (٧٦) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٧/١٩٢.
- (٧٧) نفسه، ج ٧/٢٠٢.
- (٧٨) نفسه، ج ٧/١٩٢-١٩٣.
- (٧٩) نفسه، ج ٧/١٩٤.
- (٨٠) نفسه، ج ٧/١٩٩.
- (٨١) نفسه، ج ٧/٢٠٣.

- وثلاثمائة من الهجرة، انظر أبو البركات الأنباري، نزهة الايام تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم دار نهضة مصر للطبع والنشر مطبعة المعارف القاهرة، ١٣٨٦-١٩٦٧ ص ٢٥٦ وانظر أيضاً الخطيب البغدادي ج ٢/١٩٧.
- (٦١) أبو علي الفاي الساملي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، ١٣٤٤-١٩٦٦، ج ٢/١٤٣.
- (٦٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق د. احسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٦٨ ج ٢/٢٥٢.
- (٦٣) أبو البركات الأنباري، ص ١٥٥-١٥٦.
- (٦٤) الصولي، شرح الصولي لديوان ابي تمام، دراسة وتحقيق د. خلف رشيد نعمان، دار الرشيد للنشر ١٩٨٢ ج ٣/٢٥.
- (٦٥) ابن خلكان ج ٢/١٦، انظر أبو البركات الأنباري، ص ١٥٦.
- (٦٦) الغالي يتيمة الدهر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحمد، دار الفكر بيروت ١٣٩٣-١٩٧٣ ج ٢/١٢٤، ١٢٨، ١٩١، انظر أبو هلال العسكري، ديوان المماني مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٢، ج ١/٢٢.
- (٦٧) الباسي، شرح شواهد التلخيص، مصر، ١٣١٦ ج ١/٣٥.
- (٦٨) ابن النديم، ص ١٩٥.
- (٦٩) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والامم مطبعة دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ط ١ ج ٥/٥٢-٥٣، وانظر

الحياة الأدبية في القرن الرابع الهجري

د. غانم سعيد حسن

الموصل، حيث إن مجلسه جذب كوكبة من كبار شعراء العصر، منهم شعراء الموصل. وعلى الرغم من انشغال ناصر الدولة واولاده في المنازعات والحروب حيث بقيت الموصل قلقة فإنهم اهتموا أيضاً بالثقافة والأدب ولا سيما في عهد عدة الدولة أبي تغلب بن ناصر الدولة، لما شهد نوعاً من الاستقرار والهدوء أخذ الشعراء يتطلعون الى بلاطه بعد وفاة سيف الدولة بخاصة^(١).

وما يؤكد اهتمام الحمدانيين في الموصل بالحياة الفكرية والثقافية أن أبا تغلب بن ناصر الدولة اقتنى نسخة من كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني بعشرة آلاف درهم، وعكف على دراسته فأعجب

ازدهرت الحياة الأدبية في الموصل في القرن الرابع الهجري، وكان لهذا الازدهار دواع كثيرة لعل اهمها ما قامت به الأسرة الحمدانية التي أسست لها دولة عاصمتها الموصل (٣١٧-٣٦٧)، فالحمدانيون قوم عرب كانوا يحبون الأدب ويطربون لسماع الشعر، يتذوقونه ويحسونه فضلاً عن ذلك ظهرت بين امراءهم مجموعة من الشعراء تميز شعرهم بالعذوبة والرفقة حتى أن المتنبي لما عوتب آخر حياته على تراجع شعره قال "قد تجاوزت في قولي وأعفيت طبعي منذ فارقت آل حمدان"^(١).

وعلى الرغم من أن رعاية سيف الدولة للشعراء كانت أكبر لديه مما هي عند أخيه؛ ناصر الدولة في

المجالس الأدبية :

كان للمجالس الأدبية واللقاءات بين الشعراء في الموصل الأثر الفعّال في اذكاء الحياة الأدبية وأحياناً تتم تلك اللقاءات وتعدّد المجالس عند سيف الدولة الحمداني في حلب .

يذكر الثعالبي في معرض حديثه عن السلامي أبي الحسن محمد الشاعر البغدادي أن السلامي خرج من مدينة السلام وورد الموصل وهو صبي حين رافق فوجد بها أبا عثمان الخالدي ، وأبا الفرج البيهقي ، وأبا الحسين التلعفري ، وشيوخ الشعراء ، فلما رآوه عجبوا منه وآثموه بأن الشعر ليس له ، فقال الخالدي : أنا أكفيكم أمره ، واتخذ دعوة جمع الشعراء فيها ، وحصل السّلامي معهم فلما توسطوا الشرب ، أخذوا في ملاحاته والتفتيش على قدر بضاعته فلم يلبثوا أن جاء مطرٌ شديد ، وبرّد ستر الأرض ، فألقى أبو عثمان نارنجاً كان بين أيديهم على ذلك البرد ، وقال يا أصحابنا هل لكم في أن نصف هذا ، فقال السلامي ارتجالاً :

لله درُّ الخالدي

الأوحد النّذب الخطيرُ

أهدى لماء المزن عند

د جموده نار السّعير

حتى إذا صدر العتّا

ب إليه من حنق الصدور

بعثت إليه بعذره

من خاطري أيدي السرور

لا تمذلّوه فإنّنه

أهدي الخدود الى الشغور

فلما رأوا ذلك أمسكوا عنه ، وكانوا يصفونه

بالفضل^(١١) . وأحياناً تتم اللقاءات عند سيف

الدولة ، حدّث أبو القاسم المنجم ، قال كنّا جلوساً

في دهليز سيف الدولة ، فوصف لنا السري دعوة ،

كان فيها ، فقال وكان فيها هريسة وكسر الهاء ثم

أنشدنا قصيدة أوحا :

بما حواه من طرائف الأدب حتى أمر أن تنسخ له نسخة ويكتب عليها اسمه^(١٢) .

كان التاج الأدبي لشعراء الموصل غزيراً في هذا القرن يذكر ابن النديم أن الأخوين الخالدين قد عملا شعرهما بثلاثمئة ورقة وعملا أيضاً شعر الخباز البلدي بثلاثمئة ورقة والسري الرفاء قد عمل شعره قبل موته بثلاثمئة ورقة ، وللبغداد ديوان يتضمن ثلاثمئة ورقة^(١٣) . وما يؤسف له أن هذه الدواوين قد ضاعت ضمن ماضع من كنوزنا الأدبية بإسثناء ديوان السري الرفاء .

هذا ما ينحصر الشعر ، اما المؤلفات فلو استثنينا الخباز البلدي الذي كان أمياً ، فإن الأخوين الخالدين تركا آثاراً أدبية كثيرة منها كتاب حاسة شعر المحدثين ، وكتاب في اخبار أبي تمام ومحاسن شعره ، وكتاب اخبار الموصل ، وكتاب في اخبار شعر ابن الرومي ، وكتاب اختيار شعر البحري ، وكتاب اختيار شعر مسلم بن الوليد^(١٤) . والتحفة والهدايا^(١٥) . وللسري الرفاء تصانيف منها كتاب الديرة ، وكتاب المحبّ والمحبوب والمشموم والمشروب ، وديوان شعر يدخل في مجلدين^(١٦) .

وللبغداد رسائل اخوانية وديوانية نهض بها بعد أن انضم الى بلاط أبي تغلب بن ناصر الدولة^(١٧) ورسالة في وصف بغداد^(١٨) وأورد له الفلقشندي عدة رسائل في الأجوبة عن التهاني بالولايات وغير ذلك من موضوعات الشكر والثناء على تقليد المناصب^(١٩) .

إن التقدّم الحضاري في البلاد العربية الاسلامية وصل الى أوج تألقه في القرن الرابع فترك آثاراً واضحة في كلّ الحواضر ، ولاسيما الموصل ، لما تتمتع به من موقع جغرافي ومناخ جميل ، فكانت منطقة جذب مختلف طبقات المجتمع من ضمنهم العلماء والمثقفون والشعراء الذين يبرون بها عند ترحالهم فيستقر بعضهم على قدر طيب مقامه فيها فيصيبها بذلك بريق العلم ونفحات الأدب .

أَفَحَوَانَا أَرْتَهُ أَمْ بَرْدَا
غِيدَاء يَهْتَز عَظْفُهَا غِيدَا
لَوِجِدْتَ لِلْفِرَاقِ مَاوِجِدَا
لَا فِتَقَدْتَ نَوْمَهَا كَمَا افِتَقَدَا
ثُمَّ خَرِجِ الْإِذْنَ ، فَدَخَلْنَا إِلَى سَيْفِ الدَّوْلَةِ ،
وَتَفَاوَضْنَا الْحَدِيثَ ، وَأَنْشَدَ السَّرِي الْقَصِيدَةَ ،
فَاسْتَطَابَهَا وَاسْتَحْسَنَهَا ، فَحَلَفَ بَعْضُ الْحَاضِرِينَ
أَنْ سَرِيًّا كَانَ يُحَدِّثُنَا السَّاعَةَ حَدِيثَ دَعْوَةٍ ، فَقَالَ
وَكَانَ فِيهَا هَرِيسَةٌ بِكَسْرِ الْهَاءِ ، فَقَالَ سَيْفُ الدَّوْلَةِ :
وَيْلَكَ مَنْ يَقُولُ هَرِيسَةً يَقُولُ مِثْلَ هَذَا الشَّعْرِ^(١٢) .

وَاجْتَمَعَ الشَّعْرَاءُ الشَّيْخُ ثَانِيَةً فِي دَهْلِيزِ سَيْفِ
الدَّوْلَةِ ، كَالنَّاسِمِيِّ وَالصُّنُورِيِّ ، وَمِنْ النَّاشِئِينَ
كَالْبَيْغَاءِ وَالْخَالِدِيِّينَ وَالسَّرِيِّ الرَّفَاءِ ، فَتَذَاكَرُوا
الشَّعْرَ ، وَأَنْشَدُوا قَصِيدَةَ أُمِّي الطَّيِّبِ :
فَدِينَاكَ مِنْ رَنْجٍ وَإِنْ زِدْتَنَا كَرْبَا
وَاسْتَحْسَنَ الْجَمَاعَةُ قَوْلَهُ :

نَزَلْنَا عَلَى الْأَمْكَورِ نَمُشِي كَرَامَةً
لَمْ يَنْ بَانَ عَنْهُ أَنْ نُلْمَ بِهِ رَكْبَا
فَقَالَ السَّرِيُّ لَوْلَا أَنْتُمْ بَعْدَ هَذَا إِذَا سَمِعْتُمْ
مَاقَلَتَهُ أَدْعَيْتُمْ أَنِّي سَرَقْتُهُ مِنْهُ لَأَمْسَكْتُمْ ثُمَّ أَنْشَدَ
لَامِيَةً فِيهَا :

نَحْنُ وَنَنْزِلُ وَهُوَ أَعْظَمُ حُرْمَةً
مَنْ أَنْ يُدَالَ بِرَاكِبٍ أَوْ نَاعِلٍ
فَحَكَمُوا لَهُ بِالزِّيَادَةِ فِي قَوْلِهِ نَحْنُ وَنَنْزِلُ^(١٣) .

وَقِصَّةٌ أُخْرَى تَذَكِّرُ لِلسَّرِيِّ الرَّفَاءِ مَعَ سَيْفِ
الدَّوْلَةِ بِسَبَبِ الْمُنْتَبِيِّ ، فَإِنَّهَا كَانَا مِنْ مَدَاحِهِ ،
فَجَرَى ذِكْرُ الْمُنْتَبِيِّ يَوْمًا فِي مَجْلِسِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ،
فَبَالَغَ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، فَقَالَ السَّرِيُّ اشْتَهَى أَنْ
الْأَمِيرُ يَنْتَخِبَ لِي قَصِيدَةً مِنْ غُرَرِ قَصَائِدِهِ لِأَعَارِضِهَا
وَيَتَحَقَّقَ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَرَكِبُهُ فِي غَيْرِ سَرَجِهِ ، فَقَالَ لَهُ
سَيْفُ الدَّوْلَةِ عَارِضٌ لَنَا قَصِيدَتَهُ الْقَافِيَةُ الَّتِي
مَطْلَعُهَا :

لَعَيْنِيكَ مَا يَلْقَى الْفَوَادُ وَمَا لَقِي
وَلِلْحَبِّ مَا لَمْ يَبْقِ مَنِي وَمَا بَقِيَ

قَالَ السَّرِيُّ فَكَتَبَتِ الْقَصِيدَةَ وَاعْتَبَرْتُهَا فَلَمْ
أَجِدْهَا مِنْ مَخْتَارَاتِهِ لَكِنْ رَأَيْتُهُ يَقُولُ فِيهَا :
إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهَوْ بِلَحِيَّةٍ أَحْمَقِ
أَرَاهُ غُبَارِي ثُمَّ قَالَ لَهُ الْحَقُّ
فَعَلِمْتُ أَنَّ سَيْفَ الدَّوْلَةِ إِنَّمَا أَشَارَ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ
فَأَحْجَمَتْ عَنْ مَعَارَضَتِهِ^(١٤) .

وَهَذِهِ الْحِكَايَةُ تَوْشِّرُ حَالَةَ الْحَسَدِ وَالتَّنَافُسِ
الْقَائِمَةِ بَيْنَ شُعْرَاءِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ
التَّنَافُسَ فِي الْأَدَبِ يَذْكِي الْحَيَاةَ الْأَدَبِيَّةَ مِنْ خِلَالِ
الْحَوَارِ وَالنَّقْدِ .

دِيَارَاتُ الْمَوْصِلِ وَالْحَيَاةُ الْأَدَبِيَّةُ :

اشْتَهَرَتِ الْمَوْصِلُ وَأَطْرَافُهَا بِكَثْرَةِ الْأَدِيرَةِ فَهِيَ
مَدِينَةٌ قَدِيمَةٌ سَكَنَهَا النُّصَارِيُّ مِنْ أَمَدٍ بَعِيدٍ وَكَانَتْ
هَذِهِ الْأَدِيرَةُ أَمَاكِنَ لِلْأَنْسِ وَالسَّمْرِ وَمَصْدِرَ الْإِهَامِ
لِلشَّعْرَاءِ بَيْنَ أَحْضَانِ الطَّبِيعَةِ السَّاحِرَةِ ، فَضْلًا عَنْ
كَوْنِهَا أَمَاكِنَ لِلْعِبَادَةِ .

وَشُعْرَاءُ الْمَوْصِلِ وَصَفُوا تِلْكَ الْأَدِيرَةَ وَالْجُلُوسَاتِ
الْأَدَبِيَّةَ فِيهَا حَيْثُ يَجْتَمِعُ النَّاسُ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ
فِيَجْرِي حَوَارٍ بَيْنَهُمْ ، يَدْلِي كُلُّ فَرِيقٍ بِمَا يَمْلِكُ مِنْ
أَلْوَانِ الثَّقَافَةِ وَمَنَاهِلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالشَّعْرِ وَلَقَدْ
أَجَادَ أَبُو بَكْرٍ الْخَالِدِيُّ فِي وَصْفِهِ لِرَهْبَانِ تِلْكَ
الْأَدِيرَةِ يَقُولُهُ :

قَدْ عُدِّلُوا ثِقْلَ أَوْزَانٍ وَمَعْرِفَةٍ
فِيهِمْ بِخَفَةِ أَبْدَانٍ وَأَرْوَاحٍ
وَوَشَحُوا غَرَرَ الْأَدَابِ فِلْسَفَةٍ

وَحِكْمَةٍ بَعْلُومِ ذَاتِ إِبْضَاحٍ
فِي طَبِّ بَقْرَاطِ لَحْنِ « الْمَوْصِلِيِّ » وَفِي

نَحْوِ « الْمَبْرَدِ » أَشْعَارِ « الطَّرْمَاحِ »^(١٥)
وَلَهُ عِدَّةٌ مَقْطُوعَاتٍ فِي دِيرِ سَعِيدٍ فِي الْمَوْصِلِ
الْمُنْسَوْبِ إِلَى سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ الَّذِي
كَانَ يَتَعَهَّدُهُ أَيَّامَ إِمَارَتِهِ بِالْمَوْصِلِ^(١٦) .

وَالسَّرِيُّ فِي هَذَا الدَّيْرِ :
وَقِلَالِي الدَّيْرِ الَّذِي لَوْلَا النُّوْيُ
لَمْ أَرْمَهَا بِقَلْبِي وَلَا بِعَقْوُقِ^(١٧)

ويصف في القصيدة نفسها البناء الشامخ للدير
والروابي الجميلة التي تحف به من كل جانب .
يقع الدير الأعلى بالموصل في أعلى جبل يُطل
على دجلة ، يضرب به المثل في رقة الهواء وحسن
المستشرف تحته . يقول فيه أبو بكر الخالدي :

واستشرفت نفسي الى مستشرف

للدير تاه بحسنه وبطيبه^(١٨)

ويقول فيه أخوه أبو عثمان الخالدي :

قر بدير الموصل الأعلى

أنا عبده وهواة لي مولى

لثم الصليب فقلت من حسد

قُبِلُ الحبيب في بها أولى^(١٩)

ولأبي بكر الخالدي شعر في دير مار ميخائيل وهو
على ميل من الموصل يركب دجلة في بقعة حسنة
يُطل على كروم وشجر يقول فيه :

بيا مخايل إن حاوتما طلي

فأنتما تجداني ثم مطروحا

ياصاحبني هو العمر الذي جُمعت

فيه المني فأغدوا للدير أو روحا^(٢٠)

دير الشياطين بالقرب من أوصل (بلد على قطعة

من الجبل على دجلة) في موضع حسن يشرف على

دجلة والجبل يقول فيه السري الرفاء :

عصى الرشاد فقد ناداه من حين

وراكض الغني في تلك الميادين

ماحن شبطانة العاني الى بلد

إلا ليقرب من دير الشياطين^(٢١)

وفي هذا الدير يقول الخباز البلدي :

رهبان دير سقوني الخمر صافية

مثل الشياطين في دير الشياطين

مشوا الى الراح مشي الرخ وانصرفوا

والراح تمشي بهم مشي الفرازين^(٢٢)

دير عمر الزعفران وهو على رأس جبل مظل على

نصيبين وديار ربيعة يقول فيه البيهقي :

صفحت لهذا الدهر عن سيئاته

وعددت يوم الدير من حسناته

وصبحت عمر الزعفران بصحبة

أعاشت سرور القلب بعد ماته^(٢٣)

حضور المدينة في الشعر الموصل :

من خصوصيات شعراء الموصل في القرن الرابع
للهجرة أننا بدأنا نلتبس حضور المدينة في
اشعارهم ، فضلاً عما ذكرناه في وصفهم للأديرة
ومواقعها الجميلة ، وما فيها من الفن المعماري
القديم ، فإننا نرى الشعراء يصفون القصور الفخمة
التي شيدها الحمدانيون في الموصل يقول السري
الرفاء :

قصور حلفت في الجوحى

لقصرت الكواكب عن مداها

مشرفة كأن بنات نعش

تناجيا إذا خفقت شفاها

يتوجها اصفرار الشمس تبرا

فتمسي وهي مذهبة ذراها^(٢٤)

ويصفح السري عن ذوقه الذي تكوّن في بيئة

الموصل المهرة فيقول :

لنا غرفة حسنت منظرأ

وطابت لساكنها مخبرا

ترى العين من تحتها روضة

ومن فوقها عارضاً مُطرا^(٢٥)

وقد يتميز عن شعراء عصره بلون طريف من

ألوان الطبيعة وهو وصف الأنهار والمياه ، ولم يذكر

الماء من أجل الوطن كالصنوبري ، وإنما ذكره من

أجل الفتنة الطبيعية المطلقة^(٢٦) .

ويصف الخباز البلدي الرياض والبساتين

المنتشرة في المدينة وأوقات الأوس التي يقضيها فيها

بقوله :

وروضة بات ظل الغيث ينسجها

حتى اذا نجمت أضحي يدبجها^(٢٧)

ونظم ابو عثمان الخالدي قصيدة في المهلي
الوزير، وقد عزم على الرجوع الى وطنه الموصل،
منها:

إننا لنرحل والاهواء اجمعها
لديك مستوطنات ليس ترتحل
لن من خلقك الروض الاريض ومن
نداك يغمرهن العارض الهطل
لكن كل فقير يستفيد غنى
دعاه شوق الى اوطانه عجل^(٣١)
ومن خصوصيات الموصل المحلية يصف السري الرفاء
(المزملة)^(٣٢) التي كانت مستعملة في الموصل الى
عهد قريب في قوله:

ومعطية صفو ما استودعت
مساعدة عند اعطائها
تسر لندمانها هيبة
على أنه عبيد آلائها
فتمنحه صفو مكنونها
وتكنمه جل اقدائها
وتحدث في الماء برد الشبال
اذا سُدَّ فوها على مائها^(٣٣)
وفي الديوان قصائد ومقطوعات متعددة يصف
فيها الرحي، والتكة^(٣٤) وقباب الشمع، والقدر،
والكانون، وصيد السمك، وحملاً مشوياً
ودجاجة عملها حراضية.

إن الناس بعامة والشعراء بخاصة يختلفون في
توجهاتهم واهدافهم وما يفضلون من ألوان الحياة
فمنهم من يحب الصخب وغيار المآرك والخوض في
المنازعات والأحداث السياسية ومنهم من يحب
الهدوء ويتعد ما يمكن عن أجواء الصخب ينشد في
حياته المتعة واللذة ويبحث ماشاء له البحث عن
اماكن الانس والشراب في ظل الطبيعة الساحرة
الفناء.

من هذا المنطلق اختلف شعراء الموصل عن
غيرهم فيما يخص الموضوع الشعري المفضل لديهم

ويصف في مقطوعة أخرى شرب الخمرة في
ظل تناغم الطبيعة الساحرة، حيث الطيور
كالقماري والبلابل تشدو فوق الأشجار الباسقة،
والأرض قد كسيت بالنور، والنسيم يداعب
الأوراق والغصون^(٣٥).

ويتسنى لأبي بكر الخالدي أن يصور بريشة الفنان
المدح سائر قصر سيف الدولة الحمداني، وإن لم
يكن قد شيده في الموصل بقوله:

وإن بدت الستور لنا رأينا
بُزاة قد قُصِرَ بطير ماء
واسداً في مرابضها ظباء
تقابلها على حين استواء
فلا هذا يرأغ لذا ولاذا
يُروغ ذا يجرور واعتداء
كأن الدار مكة وهي أمن
للك الوحش من سفك الدماء^(٣٦)

ويبرز غرض الحنين الى مدينة الموصل شاخصاً
في شعر السري الرفاء يعبر فيه عن صدق تجربته
الشعرية وعن حبه العميق لمدينته التي تركت في
نفسه انطباعات لا تنمحى من الذاكرة مهما طال
البعاد يشده الحنين ليصل إليها في اقرب فرصة
سائغة في قوله:

لا أنجزُ الدمع إن همت سواكيه
والنفس قد بعدت منها امانها
سقى رنى الموصل الزهراء من بلد
جود من الغيث يحكي جود اهليها
أندب العيش فيها ام أنوح على
ابامها ام اعزى عن لباليها
ارض يحسن إليها من يفارقها
ويحمد العيش فيها من يدانيها
تشق دجلة انوار الرياض بها
مثل الصفيحة مصقولاً حواشها
لأملك الصبر عنها إن نأيت ولو
عوضت من ظلها الدنيا بما فيها^(٣٧)

الموصل أن الشاعر ينقل لنا اللغة اليومية الدارجة
آنثذ في الموصل بخاصة أو البيئة التي عاش فيها
بعامة ، وهي تمثل العلاقة بين الفكر واللغة ، وأن
اللغة طريقة تفكير ، ولقد عبّر أبو بكر الخالدي
أحياناً عما هو مألوف في حياة الجماعة مثل (طعنة
وطاعونا) و (المني رؤوس أموال المفاليس) و (بلحن
تحل عليه التكد) في قوله :

لما تبدى الكوفي ينشدنا

قلنا له طعنة وطاعونا

تجمع بأحمت العباد لنا

شعرك في برده وكانونا^(٤٢)

وقوله :

ولا تكن عبد المني فالمني

رؤوس أموال المفاليس^(٤٣)

وقوله ايضاً :

غناء تشدُّ اليه الرحال

بلحن تحل عليه التكد^(٤٤)

الأمرء الشعراء في الموصل :

لعل خير من تحدث عن شعر آل حمدان هو
الثعالبي في بيتيمته فلقد عقد باباً في مدحهم وذكر
سبعة من العائلة الحمدانية ممن عاش شطراً من
حياته في الموصل ونظموا الشعر على تفاوت بينهم ،
وذكر نماذج لكل شاعر ويؤكد أن المتنبي كان
يعجب بقول أبي زهير مهلهل بن نصر بن حمدان
من الفخر :

وقد علمت بما لاقتته منّا

قبائل يعرب وبنو نزار

لقيناهم بارماح طوال

تبشرهم بأعمار قصار^(٤٥)

ويفتخر أبو العشائر الذي التقى به المتنبي قبل انضمامه
الى مجلس سيف الدولة بقوله :

أبأ الفوارس لو رأيت موافقي

والخيل من تحت الفوارس تحنط

لذا أكثرنا من الوصف ، وأجادوا فيه ، لاسيما
وصف الطبيعة الحية والجمادة والأديرة ، وأطعمة
المنزل وأدواته ، وجلسات الانس والشراب ، وإن
نظموا شعراً قليلاً في الأغراض الأخرى كالمدح
والفخر باستثناء السري الرفاء لكن براعتهم تكن في
الوصف حتى أن بعض شعراء العصر قد تأثر بهم
لاسيما الوائلي^(٣٥) في وصفه للثلج والجليد والنار
والفحم^(٣٦) والمأموني^(٣٧) في وصف الاترج المرنى ،
والرطب المعسل في برنية زجاج ، والليف ،
والمنشفة ، وحجر الحمام ، والزنبيل^(٣٨) .

وأكثر من خبر يؤكد وجود علاقة بين شعراء
الموصل وشعراء بغداد والشام وحصل بينهم تأثير
متبادل فيما يتعلق بالموضوع الشعري حتى قيل ان
الشاعر البغدادي ابن سكرة الهاشمي كتب الى أبي
عثمان الخالدي يسأله عن غلامه فكتب إليه
قصيدة منها هذه الأبيات :

ما هو عبد لكنه ولد

حولنيه المهيمن الصيد

وشدّ أزري بحسن صحبتته

فهو يدي والذراع والعصد

صغير سن كثير معرفة

تمازج الضعف فيه والجلد^(٣٩)

لقد عارض هذه القصيدة الشيخ
شهاب الدين محمود في غلام له عكس هذا المعنى
وأبدع في قوله :

ما هو عبد كلا ولا ولد

إلا أعناء يضني به الكبد^(٤٠)

وهناك قصيدة أخرى للأخوين الخالدين في
مدح الشريف محمد بن عمر الراوندي نالت
اعجاب الشاعر مهذب الدين أحمد بن منير
الطرلسي بعد قرن من الزمان ، فظم على أسلوبها
قصيدة في مدح الشريف الموسوي تقيب
الأشراف^(٤١) .

ومن الخصوصيات التي تتلمسها عند شعراء

لقرأت منها ماتحظ يد الوغى
والبيض تشكّل والأسنة تنقط^(٤٦)
ولأني زهير غزل رقيق يتغنى به :
وزعمت أني ظالم فهجرني
ورميت في قلبي بسهم نافذ
فنعم ظلمتك فاغتفر لي زلتني
هذا مقام المستجير العائد^(٤٧)
ومن غزل أبي العشائر قوله :
سطا علينا ومن حاز الجمال سطا
ظلي من الجنة الفردوس قد هبطا
له عذاران قد خطبا بوجنته
فاستوقفا فوق خديده وما انبسطا
وظل يخطو فكل قال من شغف
ياليته في سواد الناظرين خطا^(٤٨)
ويقول الثعالبي : وجدت بخط أبي بكر الخوارزمي
لحمدان الموصلي :

يارسول الحبيب وبحك قد الـ
في عليك الحبيب حسنا وطيبا
وتعلمت حسن ألفاظه تلـ
ك فظفرت بادئا وبجيبا
ولقد كدت أن اضمك لولا
أن يسيء الظنون او يستريب^(٤٩)
وما قاله أبو وائل تغلب بن داؤد بن حمدان لما
أسره المبرقع :

ياخليلي اسعداني فقد عيب
ل اصطباري على احتمال البلية
غربة قارضية^(٥٠) وغرام
عامري ومحنة علوية^(٥١)

لعل أغزر شعراء بني حمدان نتاجاً هو أبو المطاع
ذو القرنين بن حمدان بن ناصر الدولة الملقب وجيه
الدولة مثال قوله :

إني لأحسد ولاء في اسطر الصحف
إذا رايت اعتناق اللام للألف

وما اظنهما طال اجتماعهما
إلا لما لقيا من شدة الشغف^(٥٢)
وكان في غزله فارساً يمزج بين معاني الفروسية
والغزل في قوله :

اندى الذي زرته بالسيف مشتلا
ولحظ عينيه امضى من مضاربه
فما خلعت نجادي في العناق له
حتى لبست نجاداً من ذوائبه
فكان انعمنا عيشاً بصاحبه
من كان في الحب اشقاناً لصاحبه^(٥٣)
قال الثعالبي : أنشد أبو المطاع لنفسه في جارية
كانت معاجرها^(٥٤) تبلى بسرعة :

ارى الثياب من الكتان يلمحها
ضوء من البدر احيانا فيبليها
وكيف تنكر أن تبلى معاجرها
والبدر في كل حين طالع فيها^(٥٥)
ويعلق الثعالبي على الأبيات قائلاً : وقد احسن
غاية الاحسان والعرب تزعم أن البدر يبلى الثياب
الحلوة .

لقد اشرنا من قبل الى ان الغضنفر ابا تغلب بن
ناصر الدولة كان مولعاً بالأدب محباً للثقافة وله
ايات مكتوبة على حائط قصر العباس بن عمرو
الغنوي^(٥٦)

وأورد له الثعالبي هذه الأبيات :
لاوالذي جعل المو
لي في الهوى خدم العبيد
واصار في ايدي الظلما
ء قباد اعناق الاسود
واقام الوية المنية
بين امنية الصدود
مالورد احسن منظرا

من حسن توريد الخدود^(٥٧)
والمقطوعة نفسها نسبها الثعالبي الى أبي وائل تغلب
من العائلة الحمدانية^(٥٨) .

وإن كان هناك تفاوت في نتاج شعر الامراء الحمدانيين كمأ ونوعاً فإنهم جميعاً ساروا في نهج التقليد وما نظموه من الشعر كان بدافع التأثر بكمبار معاصريهم من الشعراء ولا سيما أن الشعر كان ينشد في مجالسهم والشعراء يقلون عليهم من كل صوب فتلك الأجواء قد فعلت فعلها في اذكاء الحياة الأدبية وما نظموا من الشعر، وشعرهم على ما فيه من لغة عذبة صافية ولحات شعرية لا يحد ذا قيمة أدبية عالية إذا ما قيس بشعر شعراء عصرهم الذين اتفخوا بمجالسهم بروائع الأدب، كالمتنبي والصنوبري وكشاجم والسري الرفاء والأخوين الخالدين والبيغاء.

لقد حفظ لنا التاريخ شعرهم لأنهم امراء متنفذون ولولم يكونوا كذلك لطمس أكثر شعرهم وضاع ضمن ماضع من تراثنا الواسع عبر تاريخنا العريق.

العلماء الشعراء في الموصل :

على الرغم من انصراف العلماء الى مجال تخصصهم كان لبعضهم نصيب في نظم الشعر وذلك يؤشر على ضالة انتاجهم الشعري حيوية الحياة الأدبية في الموصل في القرن الرابع للهجرة. ويبدو ذلك واضحاً من الطريقة التي قدم بها الثعالبي ابا الفتح عثمان بن جني النحوي اللغوي بقوله (هو القطب في لسان العرب، وإليه انتهت الرئاسة في الأدب، وصحب أبا الطيب دهرأ طويلاً، وشرح شعره، وكان الشعر اقلّ خلاله لعظم قدره وارتفاع حاله فمن ذلك قوله في الغزل :

غزال غير وحشي
حكى الوحشي مقلته
رآه السورد يحني السور
د فاستكساه حلتته
وشم بأنفه الريحا
ن فاستهداه زهرته

وذاقت ريقه الصهبا
ء فاختلسته نكهته^(٥٩)
وكان أبوه جني مملوكاً لسليمان بن فهد الأزدي الموصلي، ولقد ذكر ابن جني ذلك شعراً بقوله :

فإن أصبح بلا نسب
فعلمي في الوري نسي
على أني أوول الى
قروم^(٦٠) سادة نُجُبِ
أولاك دعا النبي لهم

كفي شرعاً دعاء نبي^(٦١)
وكان تلميذه ابو الفتح علي بن الحسن بن الوحشي النحوي الموصلي ينظم الشعر قال السلطي انشدني ابو الفرج هبة الله بن محمد بن المظفر بن الحداد الكاتب بغير أمد قال انشدني الوحشي لنفسه :

أبكي على الرّبع قد اقوى كآتي من
سُكّانه او كان ما زلت أعمُرهُ
لأتلحن في بُكائيه مساكينهُ

لم ألفه هاجري يوماً فاهجرهُ^(٦٢)
وكان لتلميذ تلميذه أبي الحسين علي بن ديس النحوي الموصلي اشعار حسان على حد قول ياقوت في معجمه^(٦٣).

ومن كان له دور في الحياة العلمية والأدبية في الموصل في القرن الرابع للهجرة ونشاط متميز أدى الى اعجاب معاصريه به من العلماء هو محمد بن سعيد أبو جعفر البصير الموصلي العروضي النحوي كان أبو اسحاق الزجاج معجباً به وكان في النحو ذا قدم ثابتة وله في الشعر رتبة عالية، كان اماماً في استخراج المعنى والعروض، قال له الزجاج يوماً وقد سأله عن أشياء من العروض يأبأ جعفر لو رآك الخليل لفرح بك^(٦٤) وعدّ الثعالبي عبيد الله بن احمد البلدي احد نخاة الموصل وقال (لم اسمع ذكره وشعره إلا من أبي الحسين المصيصي الشاعر وكان قد عاشه واستكثرت منه) وأورد له الثعالبي اربع

مقطوعات ، والغالب على موضوعه الشعري الغزل والخمرة منها :

يا ذا الذي في خدّه
جيشان من زنج وروم
هذا يغير على القلّو
ب وذا يغير على الجسم
إني وقفت من الهوى

في موقف صعب عظيم
كوقوف عارضك الذي
قد حار في ماء النعم^(٦٥)

ومن له نشاط يذكر في الحياة الأدبية والثقافية
في الموصل في القرن الرابع للهجرة علي بن محمد
الشمشاطي الذي كان معلم أبي تغلب بن ناصر
الدولة وأخيه . كان شاعراً مجيداً ومصنفاً مفيداً على
حد قول ياقوت ومن تصانيفه النزه والابتهاج ، وهو
مجموع يتضمن غرائب الاخبار ومحاسن الاشعار
كالأماشي ، وكتاب الانوار ، محبوب يجري مجرى الملح
والتشبيهات والأوصاف ، وكتاب الديارات كبير ،
وكتاب المثلث الصحيح ، وكتاب اخبار أبي تمام
والختار من شعره ، وكتاب القلم جيد ، وكتاب
تفضيل أبي نواس على أبي تمام^(٦٦) .

تحدث الشمشاطي في كتابه النزه والابتهاج
قال : أخذت من بين يدي أبي عدنان محمد بن
نصر بن حمدان رمانة فكسرتها ودفعت منها الى من
حضر من الشعراء والأدباء وقلت :

يا حسن رمانة تقاسمها
كل اديب بالظرف منعوت
كانها قبل كسرهما كره
وبعد كسر حبات ياقوت^(٦٧)
يقول الثعالبي لم يقع إلي من شعره إلا قوله في
البنفسج

اشرب على زهر البنف
سج قبل تأنيب الحسود

فكأنما أوراقه

آثار قرص في الخدود^(٦٨)

وقوله في الجلائر :

وبدا الجلائر مثل حدود
قد كساها الحياء ثوب عقار
صبغة الله كالعقيق تراه

احمرأ ناصعاً لدى الاخضرار^(٦٩)

يبدو من التماذج المقدمة أن الموضوع الشعري
المفضل لديه هو وصف الطبيعة ، وهو موضوع شاع
على أيدي شعراء الموصل والشام ، ولعله قد تأثر في
تلك الأجواء الشعرية التي عايشها شطراً من حياته
فرسمت معالم اتجاهه الأدبي .

آراء القدامى في شعراء الموصل :

لقد استحسنت القدامى شعر شعراء الموصل ،
وعبروا عن استحسانهم وأعجابهم بأساليب
مختلفة ، سنذكرها تباعاً ثم نستخلص من آرائهم
الخصائص الفنية العامة لشعرهم ، وبسبب كثرة
تلك الآراء أثّرنا أن ننتقي نماذج منها ، ولعل خير
من نبداً به الثعالبي لما يمتلك من تفاصيل شاملة في
وصف أشعارهم ، قال في السري الرفاء :

(ما أدرك من السري صاحب سر الشعر الجامع
بين نظم عقود الدر والنث في عقد السحر والله درّه
ما أعذب بحره واصفى قطره وأعجب امره وقد
أخرجت من شعره ما يكتب على جبهة الدهر ويعلق
في كعبة الفكر فكتبت منه محاسن وملحاً وبدائع
وظرفاً كأنها أطواق الحام وصدر البراة البيض
واجنحة الطواويس وسوالف الغزلان ونهود العذارى
الحسان^(٧٠) وقال في شعر الأخوين الخالدين
(إن هذان لساحران يغريان بما يجلبان ويبدعان فيما
يصنعان وكان ما يجمعهما من اخوة الأدب مثلاً
ينظمهما من اخوة النسب فهما في الموافقة والمساعدة
يحيان بروح واحدة ويشتركان في قرص الشعر

وينفردان فما منها إلا محسن ينظم في سلك الابداع
مافاق وراق ويكاثر بحاسنه وبدائعه الافراد من
شعراء الشام والعراق^(٧١).

ويورد الثعالبي رأي أبي اسحاق الصائفي في
الاخوين الخالدين شعراً:

ارى الشاعرين الخالدين سيرا

قصائد يفنى الدهر وهي تخلد
جواهر من ابتكار لفظ وعونه

يقصر عنها راجز ومقصد^(٧٢)
يقول الثعالبي: كتب المهلهي الوزير الى أبي عثمان
الخالدي يقول له وصلت القصيدة واعجبتي براعة
حسنها مع قصر رويتها فإن الوزن القصير على
المالجس اضيق من المجال الضنك على
الفارس^(٧٣).

ويقدم الثعالبي في يتيمة الخباز البلدي بقوله:
(من عجب شأنه أنه كان أمياً وشعره كله ملح
وتحف وغر وطرف ولا تخلو مقطوعة له من معنى
حسن^(٧٤)).

ويحس الثعالبي ما في شعر الخباز البلدي من
طرافة أدبية فيقول من غر امثاله السائرة قوله:

إذا استثقلت أو أبغضت خلقاً

وسررك بعده حتى التنادي
فشردّه بقرض دُرّهات

فإن القرض داعيةُ البعاد^(٧٥)
وعبر أيضاً عن اعجابه بالبيغاء شاعراً وناثراً

بقوله (نجم الآفاق وشمامة الشام والعراق وظرف
الظرف وينبوع اللطف واحد أفراد الدهر في النظم
والنثر له كلام بل مدام بل نظام من الباقوت بل
حب الغمام فتره مستوفٍ أقسام العذوبة وشروط
الحلاوة والسهولة ونظمه كأنه روضة منورة تجمع
طيباً ومنظراً حسناً^(٧٦)) ويفصح أبو هلال
المسكري عن اعجابه بشعر الموصل بمقولات
موجزة على طريقة القدامى في النقد منها (ومن
أجود ما قيل في التذكر على البعد ما قاله

السري^(٧٧)) (وقد أحسن السري القول في سواد
الشعر مع أوصاف آخر^(٧٨)) ويقول فيه أيضاً
(وليس فيمن تأخر من الشاميين أصنى ألفاظاً مع
الجزالة والسهولة وألزم لعمود الشعر من
السري^(٧٩)) ويقول (قد أحسن الخالدي في
قوله^(٨٠)).

ويورد القاضي الجرجاني مقطوعة من شعر
السري الرفاء منها هذان البيتان:

أقول لحنان العشي المفرد

يهز صفيح البارق المتوقد
تبسم عن ري البلاد صيبه

ولم يتبسم إلا لأنجاز موعده
ثم يقول معلقاً عليها فقد جاءك الحسن والاحسان
وقد أصبت ما اردت من احكام الصنعة وعذوبة
اللفظ^(٨١).

ويوجه ابن التديم نقداً حدياً قاسياً الى السري
الرفاء بقوله (كان السري شاعراً مطبوعاً كثير
الافتنان في الوصف والتشبيه ولم يكن له رواء ولا
منظر ولا يحسن من العلوم غير نظم الشعر^(٨٢))
ويتابعه الصفدي في رأيه هذا لفظاً ومعنى دون
تمحيص وروية^(٨٣).

قال البغدادى (كان البيغاء شاعراً مجوداً وكتاباً
مترسلاً مليح الالفاظ جيد المعاني حسن القول في
المدح والغزل والتشبيه والأوصاف وغير
ذلك^(٨٤)).

ويورد ابن الأثير قصيدة للخباز البلدي أولها:
العيش غضّ والزمان غرير

ثم يقول هذه الأبيات حسنة وخروجها من شدة
هذا الرجل الخباز عجيب ولو جاءت في شعر أبي
نواس لزانت ديوانه^(٨٥).

ويقول ابن الأثير في اللباب: كان السري
شاعراً مجوداً حسن المعاني رقيق الطبع^(٨٦) ويفصح
القفطي عن رأيه في الخباز البلدي قائلاً هو (من
حسنت بلد من بلاد الجزيرة ومن عجيب شأنه أنه

كان أمياً وشعره كله ملح وتحف وغرر ولا تخلو مقطوعة له من معنى حسن أو مثل سائر^(٨٧).

الخصائص الفنية العامة :

إن الخصائص الفنية العامة لشعر شعراء الموصل في ضوء ما سبق ذكره من آراء القدامى ، ومن خلال شعرهم الذي بين أيدينا هي أن شعرهم امتاز بالجزالة والعذوبة والفصاحة والسلاسة في حسن اختيار الألفاظ والتألق في الاداء . وذهبوا على سجيبتهم في ايراد المعاني اللطيفة وبرعوا في التصوير ومالوا الى استخدام الفنون البلاغية والمحسنات البديعية من غير تكلف .

كانت ألفاظهم عذبة سهلة رقيقة مأنوسة في الغزل والوصف والخمرات وجزلة قوية رصينة في المدح والفخر والهجاء .

لم نلاحظ في شعرهم الألفاظ الدخيلة التي شاعت في عصرهم لأنهم عاشوا نشأتهم الاولى بين الموصل وبلاد الشام وتلك البقاع تمتلك لغة صافية لبعدها عن بلاد العجم فجاءت قصائدهم سهلة المأخذ فلا حوشي ولا غرابة ولا تعقيد في تعابيرهم الشعرية .

وتأثر بعضهم بألفاظ القرآن الكريم وجمله لاسيا الخباز البلدي الذي كان أمياً حافظاً للقرآن ، والسري الرفاء ، فاقبسوا من آيات الله في مواطن مختلفة من شعرهما .

وكان التشبيه طاعياً في استخدامات شعراء الموصل ، فضلاً عن الجناس والطباق وغير ذلك من فنون البلاغة .

يلحظ تكرار المعاني بين شعراء الموصل انفسهم ، فإدراك المعنى الواحد بصيغ واساليب متنوعة ، والسبب لأنهم عاشوا عصراً واحداً وتربوا في بيئة واحدة ونهلوا من ينبوع ثقافي واحد واللقاءات والمجالس بينهم قد تركت اثرها في اعجاب احدهم بقصيدة الآخر أو ببسبب له فيحاول

أن يأتي بالمعنى نفسه بتعابير جديدة من عنده .

ونلاحظ في شعرهم إيقاعاً جميلاً من خلال الوزن الشعري الذي يركز على البحور التقليدية وقلماً يستخدمون البحور المجزوءة والمستحدثة وتناغماً وانسجاماً بين اصوات المفردات التي اختيرت بعناية فائقة مما يؤثر نضوجاً شعرياً ووعياً بمهمة الناقد الأدبي لاسيما عند الخالدين فيما يظهر من مؤلفاتهم .

وإن كنا قد تحدثنا عن الشعر بالموصل في القرن الرابع الهجري إلا أن هذا لا يعني خلو الساحة الأدبية من النثر وذلك لأن شعراء الموصل انفسهم كانوا كتاباً ولقد ذكر ابن النديم تصانيف متعددة للأخوين الخالدين وهي كتاب حاسة شعر المحدثين وكتاب في اخبار أبي تمام ومحاسن شعره وكتاب اخبار الموصل وكتاب في اخبار شعر ابن الرومي وكتاب اختيار شعر البحري وكتاب اختيار شعر مسلم بن الوليد^(٨٨) ولقد اضاف الصفدي ثلاثة كتب اخرى هي الأشباه والنظائر والهدايا والتحف والديارات^(٨٩) وله كتاب اختيار شعر ابن المعتز والتنبيه على معانيه^(٩٠) .

وما يؤسف له أن أكثر هذه الكتب قد ضاع ضمن ماضع من تراثنا الأدبي وما وصل إلينا كتاب التحف والهدايا^(٩١) الذي ذكر فيه محققه الدكتور سامي الدهان أنه كتاب يمثل ناحية هامة من نواحي عملها الأدبي لذلك الزمان صفاءً على غرار ما كان يصنع رواة الأدب ومؤلفوه وجمعاً فيه الأخبار على اسلوب العصر وجعلاه قصولاً مختلفة ليرسما فيه ما كان في الهدايا بين الشعراء والامراء والوزراء والخاصة ، وعند العامة وقد نقلنا فيه ما كان من شعر ونثر فيمن قبل الهدية اورفضها^(٩٢) وما وصل إلينا من اعمالها كتاب الأشباه والنظائر من اشعار المتقدمين والجاهلية والمتحضرين الذي تضمن منهجاً غاية في البساطة لا يبدو عرض قطعات مختارة من شعر المتقدمين والمتحضرين تتخللها

وآله)

الألفاظ للمعاني بمنزلة المعارض للجواري
فاجمعها لأقسام الجودة، وانظمها لأحكام
الاصابة، وامشأها في طريق البلاغة والبراعة،
آخذها بحسن السياق ولطف الافتنان في الخطابة
ماشفع الى التخرج السهل محاسن اللفظ الجزل وقرن
بدقة المعنى، اقتضاب البديع غموض المسلك،
ولطافة المدخل، وكان متناسباً في الرقة والسهولة
متشابهاً في حلوة النسيج والعذوبة بكسوة رشيقة
ودماعة تامة وخلاصة تسحر القلب^(٩٩).

كان أبو الفرج البيهقي كاتباً مترسلاً^(١٠٠) ولقد
لقب بالبيهقي لفصاحته^(١٠١) وما يؤكد براعته وعلو
منزلته أن أبا تغلب بن ناصر الدولة اعتمد عليه في
بلاطه بالموصل في تحرير الرسائل الديوانية^(١٠٢).

ومثال على ذلك قوله يهتشي بولاية عمل

(سيدي - ايده الله - ارفع قدرا وانبئ ذكرا واعظم
نبلا واشهر فضلاً من أن نهنته بولاية وإن جل
خطرها، وعظم قدرها، لأن الواجب تهتة الأعمال
بفائض عدله والرعية بمحمود فعله، والأقاليم بآثار
رياسته، والولايات بسبات سياسته، فعرفة الله
يؤمن ماتولاه، ورعاه في سائر ماسترعاه، ولا
أخلأه من التوفيق فيما يعاينيه، والتسديد فيما يُبْرِئُهُ
وَيُضْمِيهِ^(١٠٣).

إن هذه النماذج الثرية تمثل صورة صادقة لنثر
القرن الرابع في انجاز العبارة ورصانة اللغة والتزام
السجع وحسن اختيار المفردة المعبرة ضمن السياق
الذي اراده الكاتب. وفي تعابيرهم ذوق واصالة
على تفاوت بينهم فالاخوان الخالديان يمتلكان ثقافة
متنوعة وقدره عالية في مجال التأليف والسري الرفاء
على ما يمتلك من قدرات ادبية لا يصل مرتبتها.

أما أبو الفرج البيهقي فلقد اجاد في فن الرسائل
وكتب على وفق ما هو مؤلف في عصره ويتطلبه المقام
ومن يقرأ تلك الرسائل يحس أنه قد اكتسب خبرة
في هذا اللون من الكتابة الأدبية.

ايضاحات لبعض النقط الغامضة وتنبهات على
فوائد لاتخلو من الأهمية في ايراد الأشباه والنظائر كلما
عنت للمعاني التي تضمنتها تلك القطعات المختارة
وهذه الأشباه والنظائر هي الميزة الكبرى
للكتاب^(٩٣) ولقد عبر الخالديان عن منهجها بهذا
النص من الكتاب نفسه بعد أن حمدا الله ثم
قالا:

(وبعدُ فسح الله لنا في مدتك ووفقنا لما نؤثره
من خدمتك فإننا رأيناك بأشعار المحدثين كلفا وعن
القدماء والمخضرمين منحرفا وهذان الشريخان هما
اللذان فتحا للمحدثين باب المعاني فدخلوه وانهجوا
لهم طرق الابداع فسلكوه)^(٩٤).

وعبر أحد الباحثين المعاصرين عن إعجابه بهذا
الكتاب قبل أن يحقق قائلًا قد اردت أن اذكره
ها هنا بعد حاسمة أي تمام الطائي لأظهر الفرق
العظيم بين حاسمة كتبها الذبيوع والطبع والشرح
على ما فيها من عيب ففي ونقص علمي وبعد عن
التاريخ الأدبي والتقدم وبين حاسمة كتبها الخمول
وأن تظل في عتمة المخطوطات^(٩٥).

أما كتاب الديارات الذي لم يصل إلينا فقد
وصفه ابن خلكان وأبان عن قيمته قائلًا إن
الشابشتي ذكر في كتابه الديارات كل دير في العراق
والموصل والشام والجزيرة والديار المصرية وجميع
الاشعار المقولة في كل دير وما جرى فيه وهو على
اسلوب الديارات للخالديين^(٩٦).

وللسري الرفاء كتاب الديرة لم يصل إلينا
وكتاب الحب والمحبوب والمشموم والمشروب^(٩٧)
الذي قسّم الى اربعة اقسام في المحبين وأشعارهم
والأطياب والأزهار واسماء الخمر منه نسخة خطية
في فينا وأخرى في ليدن^(٩٨).

حقق الكتاب بأجزائه الأربعة من مصباح
غلاويجي وماجد حسن الذهبي وهذا نموذج من
مقدمة السري الرفاء لكتابه:

(الحمد لله على فضله والصلاة على النبي محمد

يتضح مما تقدم أن الحياة الأدبية في الموصل في القرن الرابع الهجري قد ازدهرت بسبب التطور الحضاري الذي وصل الى القمة في أرجاء العالم الاسلامي وحواضره فأخذت الحياة تتسع ومطالب المسلمين تكبر فلم تعد الناحية العملية كافية في حياتهم فاغتنوا الجانِب الترفي في الثقافة فالوا الى الأدب شعراً ونثراً لتكتمل بذلك مرتكزات الحضارة.

الهوامش

- (١) الثعالبي، يتيمة الدهر، تحقيق محمد محي الدين عبدالحاميد، دار الفكر بيروت ١٩٧٣ - ١٣٩٣ ج ١/ ٨٩.
- (٢) د. فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب مطبعة الايمان بغداد ١٩٧٠ ط ١ ص ٣٦٦.
- (٣) باقوت الحموي، معجم الأدياب، مطبوعات دار المأمون ١٣٥٥ - ١٩٢٤ ج ١٣/ ١٢٦.
- انظر د. فيصل السامر، ص ٣٦٦.
- (٤) ابن النديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدد ١٣٩١ - ١٩٧١ ص ١٩٥.
- انظر حاجي خليفة، كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون، تحقيق محمد شرف الدين، وكالة المعارف الجليية، المطبعة البية، ١٣٦٠ - ١٩٤١ ج ١/ ٧٧٣، ٧٧٢.
- (٥) نفسه، ص ١٩٥.
- (٦) اسماعيل باشا البغدادي، ايضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، المطبعة البية، ١٣٦٤ - ١٩٤٥ ج ٢/ ٧١٨.
- (٧) باقوت الحموي، معجم الأدياب، ج ١١/ ١٨٥.
- (٨) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ١/ ١٤٩.
- (٩) الثعالبي، لطائف المعارف تحقيق ابراهيم الاياري دار احياء الكتب العربية ١٣٧٩ - ١٩٦٠ ص ١٧٠.
- (١٠) القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، مطابع كوستانسوماس وشركاه القاهرة ج ٩/ ٢٢ - ٢٣.
- (١١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ٢/ ٣٩٦.
- (١٢) ابن خروالقه المعري، مهبل الاوياء وشرب الاصفاء من سادات الموصل الحديابه تحقيق سعيد الديوهجي، مطبعة الجمهورية، الموصل ١٣٨٦ - ١٩٦٧ ج ١/ ٢٠٧.
- (١٣) الصفدي، الوافي بالوفيات باعتناء بيرند راتكه، بيروت ١٣٩٩ - ١٩٧٩، ج ١٥/ ١٤٠ - ١٤١.
- (١٤) العباسي، شرح شواهد التلخيص، مصر ١٣١٦ ج ٢/ ١٩٣.
- انظر ابن حجة الحموي، خزنة الأدب وغاية الأرب، المطبعة الخيرية مصر ١٣٠٤، ص ١٨٦.
- (١٥) الخالديان ديوان الخالدين، جمع وتحقيق د. سامي الدغنان، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق ١٣٨٨ - ١٩٦٩، ص ٣٥ - ٣٦.

- انظر باقوت الحموي، معجم البلدان، مطبعة السعادة مصر ١٣٢٣ - ١٩٠٦ ج ٢/ ٤٩٩.
- (١٦) ابن فضل الله المعري مسالك الأيصار في ممالك الامصار، تحقيق احمد زكي باشا، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة ١٣٤٢ - ١٩٢٤، ص ٢٩٠ - ٢٩٢.
- (١٧) نفسه، ص ٢٩٢.
- (١٨) نفسه، ص ٢٩٣.
- (١٩) الخالديان، ديوان الخالدين، ص ١٤٥ - ١٤٦.
- (٢٠) نفسه، ص ٣٥ - ٣٦.
- انظر ابن فضل الله المعري، ص ٢٩٤، ٢٩٨.
- (٢١) السري الرفاء، ديوان السري الرفاء تحقيق د. حبيب حسين الحسني دار الرشيد للنشر ١٩٨١ ج ٢/ ٧٣٤.
- انظر ابن فضل الله المعري، ص ٣٠٣.
- انظر باقوت الحموي معجم البلدان ج ٢/ ٥١٨.
- (٢٢) الخباز البلدي شعر الخباز البلدي جمع وتحقيق صبيح رديف مطبعة الجامعة بغداد ١٣٩٣ - ١٩٧٣ ط ١ ص ٣٦.
- انظر الشاشي، الديارات، تحقيق كوركيس عواد مطبعة المعارف، بغداد ١٩٦٦، ط ٢ ص ١٨٤ - ١٨٥.
- (٢٣) ابن فضل الله المعري، ص ٣٠٥ - ٣٠٦.
- (٢٤) السري الرفاء، ديوان السري الرفاء، ج ٢/ ٧٦٤.
- (٢٥) نفسه ج ١/ ١٧٨.
- (٢٦) د. سيد نوزل شعر الطيبة في الأدب العربي مطبعة مصر القاهرة ١٩٤٥ ص ٢٢٢.
- (٢٧) الخباز البلدي، شعر الخباز البلدي، ص ٢٩.
- (٢٨) نفسه، ص ٣٢.
- (٢٩) الخالديان، ديوان الخالدين، ص ١٢.
- (٣٠) السري الرفاء، ديوان السري الرفاء ج ٢/ ٧٥٦.
- (٣١) الخالديان، ديوان الخالدين، ص ١٤٥.
- (٣٢) حجر محفور على شكل متوازي المستطيلات مفتوح من الاعلى يُحفظ فيه الماء.
- (٣٣) السري الرفاء، ديوان السري الرفاء، ج ١/ ٢٩٣.
- (٣٤) رباط السراويل.
- (٣٥) هو ابو محمد عبدالله بن عثمان من اولاد الواثق بالله امير المؤمنين يجمع ادب اللسان الى ادب البيان ويتفقه على مذهب مالك (انظر الثعالبي يتيمة الدهر ج ٤/ ١٩٢).
- (٣٦) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ٤/ ١٩٢.
- (٣٧) عبدالسلام بن الحسين ابو طالب المأموني (ت ٣٨٣ هـ - ٩٩٣ م) شاعر من العلماء بالأدب يتصل نسبه بالمأمون العباسي. ولد وتعلم ببغداد ومات قبل أن يبلغ الأربعين (انظر الزركلي ج ٤/ ١٢٨).
- (٣٨) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج ٤/ ١٧٣.
- (٣٩) الثعالبي، ثمار القلوب في الصفات والنسب، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم، مطبعة المدني، القاهرة ١٣٨٤ - ١٩٦٤، ص ٢٢٩.
- (٤٠) ابن شاعر الكتي، فوات الوفيات تحقيق د. احسان عباس دار الثقافة بيروت ١٩٧٤ ج ١/ ٣٤٨.

- (٤١) ابن معصوم المنفي ، انوار الريح في انواع البديع ، تحقيق شاكرو هادي شكر ، مطبعة النعمان النجف الأشرف ١٣٨٨ - ١٩٦٨ ط ١ ج ٣ / ٢٢٢ - ٢٢٣ .
- (٤٢) الخالديان، ديوان الخالدين ، ص ٩٨ .
- (٤٣) نفسه ، ص ٦٣ .
- (٤٤) نفسه ، ص ٧٧ .
- (٤٥) الثعالبي ، بنية الدهرج ١ / ٨٩ .
- (٤٦) نفسه ، ج ١ / ٨٩ .
- (٤٧) نفسه ، ج ١ / ٩١ .
- (٤٨) نفسه ، ج ١ / ٨٩ .
- (٤٩) نفسه ، ج ١ / ٩٠ .
- (٥٠) اي دأمة ابد الدهر وهو مأخوذ من قولهم في مثل (لأنفله حتى يژوب القارطان) .
- (٥١) الثعالبي ، بنية الدهر ، ج ١ / ٩١ .
- (٥٢) نفسه ، ج ١ / ٩١ - ٩٢ .
- (٥٣) نفسه ، ج ١ / ٩٢ .
- (٥٤) المعجرب ثوب تشله المرأة في وسطها .
- (٥٥) الثعالبي، بنية الدهرج ١ / ٩٢ .
- (٥٦) ابن شاكرو الكشي ، ج ٣ / ١٧٣ .
- (٥٧) د. فيصل السامر ، ص ٣٦٠ - ٣٦١ .
- (٥٨) الثعالبي بنية الدهرج ١ / ٩٠ .
- (٥٩) نفسه ، ج ١ / ١٠٨ - ١٠٩ .
- (٦٠) قروم جمع قروم والقروم من الرجال السيد المعظم (انظر ابن منظور لسان العرب دار صادر بيروت ١٣٠٠ مادة قروم) ج ١٢ .
- (٦١) ابو البركات الانباري ، نزعة الاياد تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار نهضة مصر للطبع والنشر مطبعة المعارف القاهرة ١٣٨٦ - ١٩٦٧ ص ٢٣٣ .
- (٦٢) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج ١٣ / ٣٢ .
- (٦٣) نفسه ، ج ١٣ / ٢١٨ .
- (٦٤) نفسه ج ١٨ / ٢٠٣ - ٢٠٤ .
- (٦٥) الثعالبي ، بنية الدهر ، ج ٢ / ٢١٤ .
- (٦٦) ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج ١٤ / ٢٤٠ - ٢٤١ .
- (٦٧) نفسه ج ١٤ / ٢٤٤ .
- (٦٨) الثعالبي، بنية الدهرج ١ / ١٠٩ .
- (٦٩) نفسه ، ج ١ / ١٠٩ .
- (٧٠) نفسه ، ج ٢ / ١١٧ .
- (٧١) نفسه ، ج ٢ / ١٨٣ .
- (٧٢) نفسه ، ج ٢ / ١٨٣ .
- (٧٣) الثعالبي ، خاص الخاص دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦ ص ٤٠ .
- (٧٤) ضياء الدين بن الاثير ، المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٥٨ - ١٩٣٩ ج ٢ / ٢٠٨ - ٢٠٩ .
- (٧٥) الثعالبي، خاص الخاص ، ص ١٤٢ .
- (٧٦) الثعالبي، بنية الدهر ، ج ١ / ٢٥٢ .
- (٧٧) ابو هلال العسكري ، ديوان المعاني ، مكتبة القدسي القاهرة

- ١٣٥٢ ، ج ١ / ٢٠٨ .
- (٧٨) نفسه ، ج ١ / ٢٤٥ .
- (٧٩) نفسه ، ج ١ / ١٧ .
- (٨٠) نفسه ، ج ١ / ٧٨ .
- (٨١) القاضي الجرجاني ، الواسطة بين المتنبي وخصمه ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٣٧٠ - ١٩٥١ ط ٢ ص ٣٩ .
- (٨٢) ابن النديم ، ص ١٩٥ .
- (٨٣) الصفدي ، ج ١٥ / ١٣٦ .
- (٨٤) الخطيب البغدادي ، تاريخ بغداد ، مطبعة السعادة القاهرة ١٣٤٩ - ١٩٣١ ج ١٤ / ١١ .
- (٨٥) ضياء الدين بن الاثير ، ج ٢ / ٢٧٦ - ٢٧٧ .
- (٨٦) ابن الاثير ، اللباب في تذييل الانساب ، مكتبة القدسي ، القاهرة ١٣٥٧ ، ج ١ / ٤٧٢ .
- (٨٧) الفغطي ، المحصلون من الشعراء واشعارهم ، تحقيق عبدالحميد مراد ، مطبعة الحجاز بدمشق ١٣٩٥ - ١٩٧٥ ص ٣١ .
- (٨٨) ابن النديم ص ١٩٥ .
- انظر اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين المطبعة البية استانبول ١٩٥١ ج ١ / ٣٩٠ .
- (٨٩) الصفدي ، ج ١٥ / ٢٦٤ .
- (٩٠) الخالديان، كتاب الاشياء والنظائر من اشعار المتقدمين والجاهلية والتخمين مقدمة المحقق د. السيد محمد يوسف مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٥٨ .
- انظر د. سامي الدهان ، قداما ومعاصرون ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٦١ ص ٣٢ .
- (٩١) الخالديان ، كتاب التحف والمدايا ، تحقيق سامي الدهان ، دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٥٦ .
- يلاحظ أن عنوان الكتاب ورد عند القادسي بـ (المدايا والتحف) .
- (٩٢) د. سامي الدهان ، قداما ومعاصرون ، ص ٣٢ .
- (٩٣) الخالديان، كتاب الاشياء والنظائر ، مقدمة المحقق .
- (٩٤) نفسه ج ١ / ١ .
- (٩٥) زكي المحاسني ، شعر الحرب في ادب العرب ، مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٤٧ ص ٢٨٧ .
- (٩٦) ابن خلكان، وفيات الاعيان ، حققه د. احسان عباس ، دار الثقافة بيروت ١٣٩٧ - ١٩٧٧ ج ٣ / ٣١٩ .
- (٩٧) الصفدي ، ج ١٥ / ١٤٠ .
- انظر اسماعيل باشا البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ / ٣٨٤ .
- (٩٨) جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، مطبعة الهلال مصر ١٩١٢ ج ٢ / ٢٥٣ .
- (٩٩) السري الرفاء، الهب والهيب والمشموم والمشروب المحققان مصباح غلايغني ومجاد حسن الذهبي دار الفكر للطباعة دمشق ١٤٠٦ - ١٩٨٦ ج ١ / ٣ .
- انظر السري الرفاء، الهب والهيب والمشموم والمشروب دراسة وتحقيق د. حبيب حسين الحسني مطبعة دار الرسالة ط ١ بغداد ١٤٠٢ - ١٩٨٢ ص ٣٤٧ .

دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ١٣٥٨ ط ١ ج ٧ / ٣٤١.

(١٠١) حاجي خليفة، ج ١ / ٧٧٣. انظر السمعاني ج ٢ / ٧٣.

(١٠٢) الثعالبي، بنية الدهر، ج ١ / ٢٥٦ - ٢٥٧.

(١٠٣) القلقشندي، ج ٩ / ٢٣.

لقد تم تحقيق القسم الأول من الكتاب وهو كتاب الجيوب.

(١٠٠) ابن التديم ص ١٩٥. انظر السمعاني الانساب، مطبعة مجلس

دائرة المعارف حيدر آباد الدكن الهند ١٣٨٣ - ١٩٦٣ ط ١

ج ٢ / ٧٣.

وانظر ايضاً ابن الجوزي، المتظم في تاريخ الملوك والأمم مطبعة

الحياة الأدبية في القن الخامس الهجري

د. محمد قاسم مصطفى

صارم، وبعضها الاخر لا يمكن الاجابة عنها فيه. ولا بأس أن أفترض أن النشاط الادبي في الموصل لم تصل الينا مدوناته كلها، ظناً أنه مد وجزر طوال ما يقرب من خمسة قرون. ولا أريد ان أكلف القرن الخامس وأدبه أكثر مما أستطيع، لأن كليهما أحوج ما يكونان الى منهج دقيق يجمع بين فهم التاريخ والادب وتقده.

وبعد استقراء تاريخ الموصل وأدبها، أرى أن يُقدّم البحث، في إطاره العام، فيتناول بعد هذه المقدمة الشعر ثم النثر ثم خاتمة تتضمن النتائج والتقوم.

ومن هنا، لابد لي من الاهتمام بأمراء الموصل من بني عقيل، ونشاطهم الادبي الذي أثاروه انتاجاً وحفزاً للشعراء الذين قالوا فيهم شعراً في المدح والثناء.

تلكم فئة، والفئة الاخرى تشمل المواصلة المقيمين، والفئة الثالثة تخصّ المواصلة المغتربين في أقاليم الإسلام. اما الفئة الاخيرة فهم الوافدون الى الموصل ممن قالوا شعراً فيها، او كتبوا نثراً فيها. وهذا التصنيف^(١)، تتضح الرؤية، ويسلم المنهج.

أ- في الشعر

إذا كان للثقافة الدينية أثر كبير في الموصل، فإن الادب لم يكن هذا شأنه من الحيوية والنشاط.

كان حظ أبرز المدن الاسلامية القديمة موفوراً من الدراسة الادبية، وأخصها البصرة^(٢)، والكوفة^(٣)، وبغداد^(٤).

ولعل عناية الدارسين بها لها أسبابها ودواعيها، وفي مقدمتها أنها المدن الأولى التي أسسها المسلمون، واستقرت بها مقومات الحضارة.

أما الموصل التي حررها المسلمون سنة ١٦ / ١٧ هـ فما تزال حتى الان تنتظر دراسات علمية جادة، وإن كانت محفوفة بوعورة الطريق وصعوبة المنهج، ذلكم أن الموصل توافرت لها أسباب الحضارة، شأنها شأن أية مدينة اخرى، على نحو آخر.

أليس الامر غريباً، إذ لم تدرس الحياة الادبية في الموصل بعد، على نحو ما درست به المدن الاخرى، وقد حررت منذ وقت مبكر من التاريخ الاسلامي؟

ودراستي لحياة الأدب فيها في القرن الخامس لها اشكالات تفصح عنها الاسئلة الاتية :

هل كان ثم أدب في الموصل في هذا القرن؟ مامدوناته، ومن أصحابها؟ وهل كان له مستوى يُلقى اليه نظر الدارسين، بل يحفز رؤى الناقد كماً ونزعات، لها نصيبها من التطور والتأثر والتأثير في الحياة الادبية في الموصل؟

وأزعم منذ الوهلة الاولى أن تلكم الاسئلة بعضها يمكن الاجابة عنها في هذا البحث بمجرد

واذ قَسَمْنَا الذين يشملهم البحث أربع فئات، فَإِنَّ الفئة الأولى تَأَلَّفَتْ من أمراء بني عقيل، من القبائل العدنانية النازحة إلى العراق والشام. وخطفوا الحمدانيين بعد انهيارهم، فأَسَسُوا إمارتهم التي اتسعت، ومركزها الموصل، فشملت حلب والانيار وسفَيَّ الفرات والحلَّة وتكريت وأطرافها من الجزيرة. ودام حكمهم نِتَقًا وقرنا من ٣٨٠ هـ - ٤٨٩ هـ^(٥).

فَمَنْ أمراء بني عقيل، الذين قالوا شعرا اوقيل فيهم شعرا؟ إنهم:

١- حسام الدولة المقلد بن المسيب

٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م

٢- معتمد الدولة أبو المنيع قرواش بن المقلد

٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م

٣- زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد

٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م

٤- أبو المعالي قريش بن بدران بن المقلد

٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م

٥- شرف الدولة ابو المكارم مسلم بن قريش

٤٥٣ هـ / ١٠٦١ م

ولنبداُ بهم واحدا من بعد آخر.

(١)

تولى إمارة بني عقيل المقلد بن المسيب في الفترة ٣٨٦ هـ - ٣٩١ هـ^(١)، وكانت إقامته في احيان كثيرة بالموصل^(٢).

وعرف بحبِّه للادب وأهله، ونظم الشعر^(٣)، وذكر الذهبي وابن تقي بردى أَنَّ له شعراً^(٤)، ولكن الثاني نَبَّه على أَنَّ فيه رفضاً فاحشاً^(٥).

وَأَسْأَلُ: أَيْنَ شعره؟ وَمَنْ الادياء الذين أَحْبَبَهُمْ؟ وَأَيْنَ شعره الرافضي؟ أَأَصَابَهُ الضياع والتلف؟

لم تصل الينا سوى مَدُونَةٌ بخطه^(٦) على حائط قصر العباس بن عمرو الغنوي (ت ٣٥٠ هـ) بين

سجّار ونصيبين سنة ٣٨٨ هـ، وهي:

ياقصرُ: ما فعل الألى

ضُربت قبايهمُ بعقرِكَ؟

أخنى الزَمَانُ عليهمُ

وطواهمُ بطويلِ نَشْرِكِ

أهأ لقاصرٍ عُمِرَ مَنْ

يُخْتَالُ فيكَ وطُولِ عُمُرِكَ

معارضاً بها ما كتبته على هذا الحائط قبله: الغضنفر

ابن الحسين بن عبدالله بن حمدان سنة ٣٦٦ هـ.

وفكرة الايات تتصل بمصير الانسان الذي

لامر منه ولا مهرب، وهو الفناء، مهما يكن هذا

الانسان، وعُمُرُ الانسان أي إنسان قصير إلى عمر

القصر.

على أَنَّ وفاة المقلد قد استتارت عاطفة

الشعراء، وروى ابن خلكان أَنَّ الشريف الرضي

رثاه بقصيدتين، فضلاً عن جماعة من

الشعراء^(١٢).

لم أعرف جماعة الشعراء ممن رَقَّوه، ولكني

وجدت المُرثيتين للشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ) غير

مُؤرختين، ولا أدري أيها أسبق من الاخرى:

أولاهما^(١٣) اثنان وستون بيتاً، مطلعها:

أعمرُ: لاليومِ أَنْتَ ولا الغدِ

تقلدْتُ ذل الدهر بعد المقلدِ

والشريف في المُرثية كلها لا يبيكي المقلد ولا يذكر

اسمه أو لقبه، وإنما يُعزَى أجداده، مبتدئاً بعامرين

صعصعة، ندباً وحيرة، ويحاورهم على فَقْدِ رجلهم

أُسَى، ولوعة. ولعلَّ الصدمة العنيفة جعلته ينحو

هذا المنحى.

ومن هنا، تختلف هذه المُرثية مع المُرثية الثانية

التي تأتي.

والثانية^(١٤) ستة وسبعون بيتاً، مطلعها:

ألا نأشداُ ذاك الجناب المُمْتَنَّا

وَجُرداً يُتَافَلَنُ الوُشيج المُرْعَزعا؟

وفيها ذكر لابي حسان المقلد، وآل المسيب،

وصورة المقلد البطل في إطار بني عقيل وأجدادهم.
ورثاء الشريف للمقلد دل على تأثره العميق
بفقدته ، وكيف لا وبينها من آصرة الصداقة
ما بينها؟^(١٥).

(٢)

أما معتمد الدولة أبو المنيع قرواش بن المقلد
فكان صاحب الموصل في الفترة ٣٩١هـ -
٤٤٤هـ ، والمدافع عنها كلما تعرضت لغزو أو
احتلال. ودفن في تل توة شرقي الموصل^(١٦).
ومن الصفات التي نقلتها عنه المراجع القديمة :
الكرم ، الذي كان يجري فيه على سنن العرب ،
والشجاعة والعقل اللذين عرف بها رجال
العرب^(١٧).

تلك صفات أهله للامارة ، أما صفاته
الآخرى التي تهّم البحث فكونه أديباً شاعراً فصيحاً
ظريفاً ، وله شعر حسن ، وأشعار سائرة^(١٨).

ورجل هذا مخبره تنتظر منه شعراً كثيراً ، ونتوقع
أن يثير مخيلة الشعراء في عصره الذي بلغ نيقاً
وخمسين سنة. لكن الذي وصل إلينا من مرويات
شعره أربع مقطوعات ، هي :

- ١ -

روى له البخارزي (ت ٤٦٧هـ) في دمية
القصر^(١٩):

من كان يحمّد أو يذمّ مؤزّناً
للحال من آبائه وجدوده
فأنا امرؤ لله أشكر وحده
شكراً كثيراً جالِباً لمزيد
لي أشقرّ سمح العنان مغاور
يُعطيكَ مايرضيك من مجهوده
ومهنّد غضب إذا جرّدته
خلت البروق تموج في تجريده
ومثقف لذّن السنان كأنها
أمّ المنايا رُكبت في عوده

ويذا حويتُ المال ، إلّا أنني

سلّطتُ جود يدي على تبديده

والآيات ففخر بالنفس : الشكر لله ،
والشجاعة ، والكرم ، وأفاد في البيت الاول من
قوله تعالى : «لئن شكرتم لأزيدنكم»^(٢٠) ، ولغة
الشعر فيها رصانة ، ولعل ابن خلكان وابن العماد
الحنبليّ كانا على حقّ حين قالوا : «ما أحسن هذا
الشعر وأمتنه»^(٢١) . - ٢ -

روى له البخارزي في دمية القصر^(٢٢)

لله درّ النائبات ، فإنها
صدأ اللثام ، وصيقل الاحرار
ما كنتُ إلّا زُبرةً ، فطعنني
سيفاً ، وأطلق صرْفَه غراري
والبيتان في الفخر ، أيضاً. فهو مثل قطعة
الحديد التي تكون منها صناعة السيوف ، والنايات
تصقل الاحرار أيها صقل.

- ٣ -

كتب قرواش على حائط قصر العباس بن عمرو
الغنويّ بين سنجار ونصيبين سنة ٤٠١هـ
بداية^(٢٣) :

ياقصراً : مافعل الكرا

مُ السّاكون قديمَ عصرِك؟
عاصرتهُم ، فبذّتهم
وشأؤتهم طرّاً بصبرك
ولقد أثار تفجّعي
- يا ابن المسيّب - رَقْمُ سَطْرِك
وعلمتُ أنّي لاحقٌ

بك دائباً في قفوَإِثْرِك

معارضاً هذه الايات نصّاً لايه : المقلد، سنة
٣٨٨هـ. وفيها حوار مع القصر الذي بقي شامخاً ،
ولم يخلد ساكنيه العظام ، وصولاً للإيمان المطلق
بمصير الانسان وقدره : الموت ، لآحالة.

وَأَلْفَةٍ لِلطَّيِّبِ لَيْسَتْ تُنْفِئُهُ

مَنْعَةُ الْأَطْرَافِ لَبَنَةِ اللَّمْسِ

إِذَا مَادَخَانُ النَّدِّ مِنْ جَبِّهَا عَلَا

عَلَى وَجْهِهَا أَبْصَرَتْ غَيْمًا عَلَى شَمْسٍ

وهذا وصف لامرأة جميلة ومتحضرة ، وغزل

رفيق بامرأة تنطيب دائماً.

ذلكم هو الشعر الذي روته المراجع ووثقته ،

وهو قليل إزاء ماوصفت به الأمير شخصية عربية

شجاعة ، على أَنَّ هذا القليل ينبيء بلا أدنى شك

عن صياغة وفنٍّ راسخين في الشعر: فخرًا

بالات ، ورناء لها ، وغزلًا رفيقًا.

ومها يكن من أمر ، فقد مدحه شاعران ، وذكره

شاعران في أثناء مدحها لغيره ، واقتخر به أمير من

بني عقيل.

مدحه الطاهر الجزري (٢٥) (ت ٤٠١ هـ) بيت

واحد (٢٦) سبقته ثلاثة أبيات بأحسن ما قيل في

الاستطراد (٢٧) ، تُخَصِّصُ لهجاء البرقيدي -

مغني قرواش ، وسليمان بن فهد الموصلي - من

رجالها ، وأبي جابر - حاجبه (٢٨) ، والبيت الرابع في

مدح الأمير :

إلى أن بدا ضوء الصباح كأنه

سنا وجه قرواش وضوء جبينه

وإذا عرفنا أَنَّ قرواشاً سخط على كاتبه الكبير

سليمان بن فهد الموصلي ، وحاجبه ، ووزيره أبي

القاسم المغربي أدركنا قيمة الفكرة التي ربط فيها

الليل بمن سخط عليهم ، على سبيل الاستطراد

الحسن من الهجاء الى المدح . ثم ، انتقل من الليل

الى ضوء الصباح الذي أشبه وجه قرواش : السنا ،

وجبينه : الضياء والليل (الظلم) لابد أن يسفر عن

صباح (الفرج) .

وقفخرا بن أبي حصينة (ت ٤٥٧ هـ) بصلته

بقرواش ، في أثناء مدحه له في معز الدولة شمال بن

صالح المرداسي (ت ٤٥٤ هـ) ، قال (٢٩) :

أعابوني بقرواشي ، وعيبي

بقرواشي جمالي في زماني

ومدحه أبو علي محمد بن الحسين ، ابن الشبل

البغدادي (ت ٤٧٢ هـ) بقصيدة ، إذ استنجد

قرواش بأبي الأعز (الأعز) ديبس بن علي بن مزيد

الاسدي (ت ٤٧٤ هـ) - صاحب الحلة وبادية

العراق ، واجتمعاً على محاربة الغز الذين عبثوا

بالموصل ، وانتصرا عليهم .

ووصف ابن الشبل شجاعة قرواش وسطوته

كسطوة الاسكندر ، وحسبه نسبته وعزه

الشامخان :

بأبي الذي أرست نزاراً بيتها

في شامخ من عزه المتخير (٣٠)

ومدح ابن حيوس (ت ٤٧٣ هـ) شرف الدولة

أبا الدولة المكارم مسلم بن قريش (٣١) ، مشيراً في

اثناها الى أميرين للغز : بوق ويكتاش اللذين

استوليا على الموصل وأساءا إلى أبنائها سنة

٤٣٥ هـ ، فحاربا قرواش ، وانتصر عليهما ، وأقذ

الموصل من شرهما .

وجمع بين قرواش وقريش اللذين بنيا البيت

العقيلي ، ورفعاً من شرفه :

ييت بنى قرواشه وقريشه

شرفاً أطل على محلّ المرزم

واقتخر به الامير أبو سلطان حسان بن رافع بن

مقبل ، من العقيليين ، في أثناء قصيدة له في

الفخر ، قال (٣٢) :

وقرواش منّا ، أين في الناس مثله ؟

فا من جوادٍ في المروءة سابقة

وكانت وفاته سنة ٤٤٤ هـ فجيعة كبيرة عبّرت

عنها قصيدة ابن أبي حصينة ، من شعراء الشام ،

قال (٣٣) :

أمثلُ قرواشي يذوق الردى؟

..... يا صاح : ما أقيح وجه الجِمام !
يا أنسفت الناس على ماجدٍ

مات ، فقال الناس : مات الكرام
ويتعجب الشاعر من حاله : كيف استقام له هذا
الشعر، والألم والامسى مما يشغله !

وهكذا ، بدا قرواش شاعرا لم تصل إلينا
مروياته كلها ، ورجلاً عربياً شجاعاً كريماً دلَّ على
صفاته تلك من مدحه وافتخربه ورثاه ، من شعراء
الموصل والعراق والشام.

وشعره لغةً وصورةً يجري في إطار شعر القرن
الخامس رصانةً وجالاً.

(٣)

كان زعيم الدولة أبو كامل بركة بن المقلد أميراً
شجاعاً مشاركاً لأخيه قرواش في مُلك الموصل.
وجرت أحداث حملت زعيم الدولة على حجر أخيه في
دار الامارة بالموصل سنة ٤٤٢ هـ . وتولى زعيم الدولة
إمارة بني عقيل ، ومالبث هذا أن مات بتكرت
سنة ٤٤٣ هـ (٣٤).

خلت المراجع التي اتصلت بها من مرويات له
او اهتمام بالادب والادباء ، لكنها روت لنا مرثية
لابن أبي حصينة في تسعة أبيات ، من قصيدة
طويلة ، مطلعها (٣٥) :

من عظيم البلاء موت الزعيم
ليتني مت قبل موت الزعيم
وصفه فيها بالكرم والشجاعة في حوار وصور
ضجّت بالبكاء والحيرة مما ألمّ به من سكنى التراب
وخلوّ القصور منه . وماذا يفعل الشاعر ، وانقراض
الكرام من شيم الزمان اللثيم؟

ولقد بكنه المذاكي (الخيال القوية) والنياق ،
وشكت غيبته إلى الله ، شأنها شأن الانسان، حيرة
ولوعة.

وافتخره الامير أبو سلطان حسان بن رافع بن
مقبل ، من رجال الجزيرة في القرن السادس ،
قال (٣٦) :

ومنّا زعيم الدولة بن مقلد
فتى طهّرت أذباله ومناطقه
(٤)

ولي الموصل علم الدين أبو المعالي قريش بن
بدران بن المقلد سنة ٤٤٣ هـ - ٤٥٣ هـ (٣٧).
لا شأن له بالادب ، ولكن ابن أبي حصينة منحه
جزاءً مألحسناً إليه ووصله به ، بقصيدة طويلة ، لم
يصل إلينا، سوى أحد عشر بيتاً، المقدمة منها أربعة
أبيات ، والمدح سبعة ، ومطلعها (٣٨) :

أبث عبراته إلا أنها لا
عشية أزعج الحسي ارتحالا

(٥)

تولى إمارة بني عقيل في الموصل شرف الدولة
أبو المكارم مسلم بن قريش بن بدران في الفترة
٤٥٣ هـ - ٤٧٨ هـ ، وامتد حكمه الذي بلغ ثقباً
وعشرين سنة إلى حلب والجزيرة.

وكان شجاعاً جواداً ذا همة وعزم ، وساس
بأحسن السير وأعدلها ، وساد الأمن والرخص في
عصره ، وكانت وفاته بداية النهاية للإمارة (٣٩).

وروي له شعر ، وعُقدت له صلات بالشعراء ،
وعده العباد الاصبهاني من الطبقة الاولى لشعراء
الشام.

وهأنذا أعرض مروياته التي وصلت إلينا.

- ١ -

له مطلع قصيدة في أهل البيت (رض) يوازن بها
قصيدة دعبل الخزاعي (ت ٢٤٦ هـ) (٤٠) :

سلام على أهل الكساء هذاني
ومن طاب محياي بهم وماتي (٤١)

وسرنا موجفين الى نمر
ولم نر من لقاء القوم بدا
وقد حسدت بأجمعها كلاب

وكان الضبح للعنين وعدا
فلما أن تواجهننا تولوا
كعين عابت في السرر أسدا
وغرق في الفرات بنو نمر
وقد كانوا لجمع القوم سدا
وأسلمت الطعائن، فاستغاثت

بخير العالمين أبا وجدا
قريشي الفخار، مُسيبي
من السحب العذاب نداه أندى
إذا عدّ الملوك يكون منهم

أجل جلاله وأعزّ منجدا
والآيات السبعة عشر قصيدة لها مكانتها في
الشعر، لأنها رسالة شعرية أرسلها شرف الدولة إلى
بهاء الدولة في الحلة مستنجداً به للدفاع عن الموصل
وأبنائها، ولكنه تأخر عليه. وفيها فخر بالشجاعة
والاستعداد للمقاومة الأعداء، وطلب النجدة في
المأزق الحرج.

فكتب بهاء الدولة منصور في جوابها قصيدة،
منها (١٤) :

أيا مُهدى المديح، وأني شيء
أجل من المديح إليّ يهدى؟
بدأت تفضلاً، والفضل حقاً
بدل على مكارم من تبدأ
ألسنا نحن للعجاج دُونا
أعاديكم، وأنقذنا معداً؟

لتعلم أن بيت بني علي
لكم وبكم يُعد، إذا استعدا
وهذه الرسالة الشعرية يصطلح عليها في الأدب
ونقده بالمجاجة، وهو مصطلح لم يلفت اليه
أصحاب معاجم المصطلحات الأدبية والنقدية

أشهد الله بصدق
ويقين وثبات
أن قنلي في هوى العز
ر الميامن حياني
- ٣ -

وكانت بينه وبين بهاء الدولة منصور بن ديبس
المزيدي (ت ٤٧٩ هـ) - صاحب الحلة،
مكاتبات ومخاطبات ومجاوبات، فيها ماروي العماد
الاصباهي لسلم، الذي استنجد بهاء الدولة
منصور (١٣) :

أمدرع الدجى خبياً ووخدا
ومزجي العيس إرقالا وشدا
إذا عابت من أسد جلالا
بها النعماء للوزاد تُسدى
فبلغ ما علمت من اشتياقي
بهاء الدولة الملك المُفدى

وقل - يا ابن الذين سموا وشادوا
مناقب زينت مضرا وأدا :
أنسيت الوفاء، وكنت قدماً
عقدت على الوفاء بهن عقداً؟

وأنت، فأشرف الامراء بيتا
وأعظم همة، وأعز مجدا
ترقبت السرية منك تأتي
بفرسان الوغى شيبا ومردا
عوائد قد عهدناها لعوف

فما يوفي بها المحصون عددا
فلما لم تُناجذنا السرايا
عزمنا عزمة سرت معدا
وحالفنا الصوامر والعوالي
وخيلنا كالظباء الحمر جردا

المعاصرة^(٤٥) ، وتتعدى الشعر إلى النثر، أيضاً. وقد عرفت على نحو ناضج بين أبي إسحاق الصالبي (ت ٣٨٤هـ) والشريف الرضي^(٤٦). وفيها تقاليد المعارضة الفنية، وما نحن أولاء نجدتها واضحة الملامح بين شرف الدولة وبهاء الدولة، ولعلها تقع في دائرة الاخوانيات^(٤٧) نمطاً من أنماطها.

- ٤ -

وله^(٤٨) :

الدهر يومان: ذا أمُر، وذا خطرُ
والماء صفان: ذا صافٍ وذا كَلْبُر
والبيت تصوير رائع لحالتي الأمير في أيام الامن
والخطر.

- ٥ -

وروي العماد الاصبهاني له^(٤٩) :

إذا قرعتُ رحلي الركبُ ترعزتُ
خراسانُ، واهترأ الصَّعيدُ إلى مصر
مرة أخرى، في البيت الواحد يستطع الأمير أن يعبر عن حالة من حالاته، لما يمتلك من قدرة على صياغة الشعر ولغة عالية، لا يختلف في مايقدم عن أي شاعر مجيد في القرن الخامس. فهو يفخر بنفسه، ويوحي بأشياء عديدة مما عُرف به من بأس واقدام وسطوة واسعة. وعدَّ العماد شعره هذا مما يقطر منه ماء المُلْك وتفوح منه رائحة المجد.

- ٦ -

وروي الصفدي له^(٥٠) :

سقى دارهم أيامَ نحن جميعُ
مُلبِثُ كدمعي للمفراق هَمُوجُ
وما كنتُ مجزاعُ الفؤاد، وإنَّا
فؤادي على بَيتي الحبيب جزوع
وكانت سليبي للمحبين روضةً

ووصلُ سليبي روضةً وربيع
وهذا غزل تقليدي في (سليبي) الرمز لكل امرأة عروساً من عرائس الشعر القديم. وفيه تصوير للمفارق الذي لا يصبر على البين. ولذلك دعا للدار بأن يسقيها مطراً غزيراً لما فيها من ذكرى (سليبي)

ووصلها.

فالامير يحب ويكي من أحبه ففارقه، وبقيت ذكره التي يحفظها، ولايستطيع أن ينساها.

- ٧ -

وروي الصفدي له^(٥١) :

غناءً ينقُـر عني الحزنُ
وشرسي ما بين كوب ودنْ
وإنسي لأحقرُ هذا الزمانَ
ولاسيا أهل هذا الزمن
يريدون نيلَ العُلا بالمُنَى

ونيلُ العُلا برغيب الثمن
هوم الأمير الشاعر كثيرة، يخفف من عبثها الغناء والشرب، وثم حوار غير منظور بعد البيت الثاني، يجب عنه في تاليه. والأمير يختلف عن الآخرين الذين يطلبون العلا بالتني، أمّا هو فيطلبه بالغالي والنفس.

وانفعال الشاعر واقعي يستمدّه من تجربته الخاصة بمنأى عن الخيال والأحلام.

- ٨ -

وقال^(٥٢) :

غلام أحور العينين صعبُ
أنى بعد العريكة أن يلبينا
وهذا نمط من الغزل الذي عرف في القرن الثاني للهجرة، على يدي أبي نواس، ومن النماذج السابقة، في أهل البيت والمجاوبة بين شرف الدولة وبهاء الدولة، والفخر، والغزل، نصل إلى حقيقة أن هذا الشعر بأفكاره ولغته الجزلة وإيقاعه لم يتخلص من أصول الشعر التي التزمها الشاعر في القرن الخامس، بل تمثّلها ويكثفها لواقعه.

وقد فتح شرف الدولة حلب سنة ٤٧٣هـ، فما كان من ابن حيّوس في آخر عمره إلا أن مدحه. وكافأه شرف الدولة فأقطعه الموصل، لكنّه لم يلبث أن وافاه الأجل، ومطلع قصيدته^(٥٣) :

مأدركَ الطَّلِيَّاتِ مثلَ مُصَمِّمٍ
 إنَّ أَقْدَمْتُ أَعْدَاؤُهُ لَمْ يُحْجِمِ
 والقصيدَةُ في الديوانِ مئةَ بيتٍ ، أمَّا العبادُ
 الأصهباني فقد علَّقَ منها ما استحسنته ، فكان ستة
 وأربعين بيتاً .

واستشرف صورةَ شرفِ الدولة . فكانت كرمًا
 وبأسًا ورفعَ جورَ ونشرَ أَمْنٍ ، ثم مدح أباه قريشاً
 وعمّه قرواشاً .

• • •

بعد أن تحدثت عن الفئة الأولى ، أذكر
 المواصلَة من الشعراء الذين أقاموا بالموصل ، وربما
 تركوا الموصل طلباً للعلم ثم عادوا إليها واستقروا بها .
 ولا أجد أمامي سوى أربعة أعلام ، حسب ،
 هم :

(١)
 أبو منصور أحمد بن محمد الموصلي^(٥٤) :
 ذكره الباخريزي بين فضلاء العراق ، وروى له
 من قصيدة في وصف الفرس ، بلغت أبياتها خمسة ،
 قال :

أطوي الفلاة ، إذا طويْتُ ، بجسرةٍ
 وإذا ثويت حللتُ في مثواكِ
 وبمُلجَمٍ بفناء بيتكِ مُسرَجٍ
 تدمي درادره من التَّغْلَاكِ
 ينقضُ كالنَّجْمِ انبري للرَّجْمِ أو
 كالسَّهْمِ طاح بملعب الأتراك

من نسل أعوج والوجه ولاحقٍ
 قيّد الأوبد سابقٍ معاك
 شَنِجِ النِّسَا زَغَلْ كَانَ سِرَانَهُ
 زُحْلُوفُ لُغَبِ أَوْ سِرَاةُ مَدَاكِ
 ووضفه هذا في غاية الجمال ، صور الفرس
 تصويراً دقيقاً حركة ونسباً ونشاطاً وسرعة .

(٢)
 الحسين بن إبراهيم بن طوق الموصلي^(٥٥) :

قال في رجل :
 يُسَهِّلُ كُلَّ مُتَمَنِّعٍ شَدِيدٍ
 ويأتي بالمُرَادِ على اقتصادٍ
 فلو كلفته تحصيلَ طيفٍ الـ
 خيالِ ضُحَى لَزَارَ بلا رُقَادٍ

وقال :
 ماساعفتك بطيفها هندُ
 إلّا لكى يتضاعف الوجودُ
 وله في مدح سعد الدولة أخيه شرف الدولة مسلم
 ابن قريش :

والوجدُ يَنمَى في الفؤاد كما
 يَنمَى لسعد الدولة السعدُ

(٤)
 زيد النحوي الموصلي المعروف بمُرَزَّكَة^(٥٦) :



تلميذ علي بن دُبيس النحوي الموصلي^(٦١) ،
صاحب ابن وحشي. ونقل السيوطي عن الصفدي
أنه كان نحوياً شاعراً ظريفاً أديباً^(٦٢) :
قال في رثاء الحسين (رض)^(٦٣) :
فلولا بكاء المُرزن حُزنًا لَفَقْدِهِ

لما جاءنا بعد الحسين غمًا
ولو لم يشقَّ الليلُ جلبابه أَسَى
لما انجاب من بعد الحسين ظلام

وطالما أنَّ علياً أخذ من ابن الوحشي ، صاحب
ابن جني (ت ٣٩٢هـ) وزيداً أخذ من عليّ ،
فإنها من علماء القرن الخامس في النحو ، بالموصل ،
وانها تركا لنا شعراً قليلاً ، في وصف رجل ، وغزل
بدوي ومدح في رجل من بني عقيل ، ورثاء أهل
البيت.

ولم أعر على علماء آخرين في الموصل لم يُروهم
شعر ، بمعنى ان العلماء قليلون ، سواء أكان لهم شعر
أو لم يكن .

أما الفئة الثالثة من المواصلة الذين غادروا
الموصل الى أقاليم الإسلام فيمثلها شاعر واحد ،
هو :

أبو سعد محمد بن حمزة الموصلي^(٦٤) :
ذكره الباخري بين فضلاء العراق ، ورد بغداد بعد
الموصل ، وانتقل الى خراسان.

قال عنه الباخري :
«.. وهو صديقي الصدوق منذ سنين ، وقد وجدته
في انواع العلوم من المحسنين ، ولم أُر في ذوي الفنون
مثله ، على أنَّ الدهر قد نجس حظّه ، وظلم
فضله»^(٦٥).

وقد أهدى أبو سعد الى الباخري قصيدة
نظامية ، منها^(٦٦) :

مُجدِّد ما يُفني الردى ، ومُعِيدُهُ
ومُتَلِف ما يُرْضي العدا ، ومُبيدُهُ

وهبَ على أكناف كِرْمانَ هبةً
فأسمع أهل الخافقين ويده
وبلغت القصيدة ثمانية عشر بيتاً ، فيها حكم ،
وفخر ومدح في نظام الملك (ت ٤٨٥هـ).

والفئة الأخيرة التي هي من شرط هذا
البحث ، تلك التي وردت إلى الموصل ، وألقت
بها عصاها. ويمثلها :

أبو محمد عبدالله بن القاسم بن المظفر
الشَّهْرزُوري^(٦٧) ، القاضي ، المعروف بالمرتضى ،
والد القاضي الشَّهْرزُوري في العراق والشام
والجزيرة.

ولد سنة ٤٦٥هـ ، وتوفي بالموصل ، ودفن فيها
سنة ٥١١هـ ، على الراجح^(٦٨).

وإذ استوطن أبوه : أبو أحمد القاسم بن المظفر
ابن عليّ الشَّهْرزُوري^(٦٩) ، الموصل ، واستقرَّ به
المقام فيها حتى وفاته سنة ٤٨٩هـ ، صحبه المرتضى
مع من صحبه من أفراد أسرته.

والمرتضى الشَّهْرزُوري - كما نصَّ العباد
الاصبھاني^(٧٠) - من أهل الموصل.

واقضاه طلب العلم أن يقيم ببغداد مدة ،
فانصرف الى تحصيل الحديث والفقه ، ومالبت أن
عاد الى الموصل ، وتولى بها القضاء ، ورواية
الحديث^(٧١).

وعُرف رجلاً مشهوراً بالفضل والدين ،
وواعظاً ، ومتصوفاً^(٧٢) وله شعر رائق ونثرٌ حسنٌ
لفظه وسجعه ، ولطيف طبعه ، وريقة عبارته^(٧٣) .
ووجد العباد من كلام المرتضى رسالة سلك فيها
مسلك أهل الحقيقة ، بل تميَّز عليهم بها وشحنها
بأبيات رقيقة^(٧٤).

وهذه الرسالة هي غير القصيدة الموصلية التي
جرى فيها على طريقة المتصوفة.

وقد أورد ابن خلكان القصيدة الموصلية بنهاها

لحُسْنها وجالها ، لأنّها قليلة الوجود في عصره ،
ومطلوبة آنذاك^(٧٥) ، ولها شأن عند الأدباء
والمصوّفة ، وإن أغفلها العباد الاصهبانيّ في مجموع
المرتضى الشعريّ ، الذي اجتمع لديه في خريدته ،
مما أعده أكثر شعراً ، وأقدم تاريخاً ، وأوثق
أسانيد ، ومطلعها^(٧٦) :

لمتْ نارُهم ، وقد عسعس اللّٰه
لُ ، وملّ الحادي ، وحاز الدليلُ
وبلغت ٤٤ بيتاً .

وقد حلّ لها الدكتور عبد الوهاب العدواني^(٧٧) -
بعد توثيقها - تحليلاً أدبياً دقيقاً ليس لأنّها من شعر
العلماء الذي توافرت له مقوّمات الفن الشعريّ
الرفيع ، وإنّما استقرى فيها الشاعر الصوفيّ بما
تملك قصيدته من رموز ، وعدّها « علامة واضحة
في ديوان الشعر الصوفيّ » .

أما مجموع المرتضى الشعريّ ، الذي أُلحِت
إليه ، فيقسم قسمين ، أولها^(٧٨) ليس ثم دليل على
أن المرتضى قاله في الموصل أو بغداد ، وبلغ ٢١
قصيدة ومقطوعة بما في ذلك اللامية (بيتان) التي
وردت في الوفيات^(٧٩) ، والبداية والنهاية^(٨٠)
وطبقات الاسنوي^(٨١) ، والشذرات^(٨٢) .

والقسم الثاني من المجموع^(٨٣) بلغ تسع قصائد
ومقطوعات ، وهوله ، استنتاجاً من أسانيد الشعر ،
فرواة شعره هذا أخوه أبو بكر محمد بن القاسم بن
المظفر الشهرزوري^(٨٤) (ت ٥٣٨ هـ) ، وأبو طالب
محمد بن هبة الله الضرير الموصلّي^(٨٥) ، وأبو
عبدالله الحسين بن علي السلّمانيّ الحاسب
الانصاريّ^(٨٦) .

وإذا كان الضرير موصلياً ، فإن أخا المرتضى وأبا
عبدالله قد وثّق ما أنشدهما المرتضى بالموصل^(٨٧) .
وموضوعات شعره في القسم الثاني فيها غزل
وشكوى ، ووصف شجرة ، ووصف للخمرة ، وهي
من رموز المتصوّفة ووسائل أدائهم الشعريّ .

ب - في النثر

لا بد من الكلام عن النثر في الموصل في القرن
الخامس ، لكونه من متطلبات المنهج ، على الرغم
من قلة مدوّناته وكتّابه .

وأسبق الأمور ، فأذكر مقولة الوزير المغربي في
كتّاب الموصل على أنهم « أثر بعد عين » .

وليس أمامي إلاّ الاقتصاد على ما يأتي من فنون
النثر المعروفة آنذاك ، وهي :

١ . خطبة

٢ . رسالة

٣ . تأليف كتاب

٤ . إشارات مبتورة إلى مكاتبات ومواظ .

واتلّبت عند كل مما مضى ، لأتبي فيه ضوءاً
ملائماً .

- ١ -

أقدّر أنّ الخطابة عوّل عليها الأمراء العقيليون
في مناسباتهم السياسية والدينية وغيرها ، وهي
كثيرة ، لكن الخطبة الوحيدة التي نقلتها المظان
تلك التي أعدها قرواش بن المقلّد سنة ٤٠١ هـ ،
تلّقت على أهل الموصل الذين لم يكونوا مقتنعين
بها ، في احتفال مهيب ، داعياً فيها للحاكم بأمر
الله العلوي ، صاحب مصر .

ومن دواعها ميلُ قرواش للحاكم ، مع رغبة
واضحة للإبقاء على علاقته بالخليفة القادر بالله .
وسرعان ما قطع الخطبة للحاكم وأعادها
للخليفة مع الاعتذار عما تورّط فيه^(٨٨) .

وكان ابتداء الخطبة في الموصل بالحمد لله ..
ووقعت في قسمين : أولها الدعاء الى الله والشهادة
والشكر له والاستعانة به والدعاء للرسول (ص)
وخلفائه والدعوة للتقوى والخلاص . والثاني وجوب
الطاعة للحاكم .
ومن سماتها اللغة المتينة والسجع .

والرسالة التي أنا بصدها حفظت لنا الذخيرة فصلا منها^(٨٩) ، وهي لأبي القاسم علي بن الحسين المغربي (ت ٤١٨ هـ) الذي وزر لقرواش ابن المقلد ، ثم سخط عليه هذا سنة ٤١١ هـ ، فهرب منه بذلك^(٩٠) .

ذكر المغربي الموصلي ، وقد امضى رداً من الزمن ، وعرف أهلها وطبيعتها فتركت في نفسه أثراً واضحاً ، انصب أغلبها على وصفها وصفاً دقيقاً ، وأهم مجالات وصفها ما يأتي :

- اعتدال هوائها وطيبته من جهتي الشمال والجنوب ، ورقة جوها ولطافتها .
- وعذوبة مائها وحلاوته .
- وأرضها الزينة بالخضرة والاقحوان الاحمر .
- وبنائها الحصن المحاط بالشيد المرد .
- ورجلها الاشدهاء أجساماً واحلاماً ، ويُعد نظره .
- ورقتهم شأنهم شأن أهل العراق ، وليس فيهم غلظة بداوة الشام .

- وألسنتهم الصادقة التي لاتنفوه بالباطل ، ومودتهم التي لاتعرف الغدر إن سلماً أو أن حرباً .
- واخلاصهم التي تنبذ التدليس والتناق .
- وكثرة شعرائهم وندرة كتابهم .
- وأدهم الحسن ، مع انصرفهم عن توطيد علاقاتهم بالحاكم .
- وعلمهم المتقن .

• واهلها بدت عليهم بقايا النعمة ، وبقيت منهم بقية نقية ، وسير مرضية ، ولهم قدرة على تدارك ما يُلمُّ بهم .

• وكثرة المحن التي نزلت بهم ، فهزبت أشراهم ، وأوهنت خباياهم ، وجعلت حالتهم محزنة ، فالقوى منهم يثن من ضعفه ، وضعيفهم يدفع عن نفسه ، ليُبقي على رمقه .

وَحُجِّم الفصل بأن الوزير المغربي يفصح عن نيته الحسنة إزاء المواصلة ، ورغبته في العيش بينهم ،

ولكن هيات بعد ما حل به من معاناة ، وهي ما عُبِّر عنها في مفتتح الرسالة : « وردت الموصلي التي خالف اسمها معناها ، وكانت مقطعةً بيننا لولا خُدَع الاماني ، وفصلاً لولا المرجو من عفو الليالي » .

وتتاز لغة الرسالة بالرصانة والسجع والجمل القصيرة ، والاهتمام بمعاني الكاتب ومقاصده على نحو دقيق .

أفترض أن كتباً ألفت بالموصل ، وأن نثرها جدير بالدراسة .

ولكن هذا الامر بدا عزيزاً ، والكتاب الوحيد الذي ذكرته المظان كان « تاريخ الموصل » من تأليف محمد بن علي الشمشاطي (ت ٤٤٤ هـ) لقرواش بن المقلد العقيلي حوالي سنة ٤٤٠ هـ .

والكتاب مفقود ، وبقيت منقولات منه عند ابن الازرق الفارقي (ت ٥٩٠ هـ) ، في تأريخه ، وعند الذهبي ، أيضاً^(٩١) .

وثمة رجال يذكر أنهم أدباء أو أن لهم نصوصاً من النثر ، أبرزها :

أ- مكاتبات بين مسلم بن قريش وبهاء الدولة منصور بن ديبس المزيدي^(٩٢) في مناسبات عديدة ، وهي تخط من الرسائل بين الامراء ، وأتساءل اين نصوصها؟ وما موضوعاتها؟

ب- الوعظ والنثر الصوفي عند المرتضى الشهرزوري ، قال عنه العماد الأصبهاني : « مليح الوعظ ، فصيح اللفظ ، حسن السجع »^(٩٣) وذكر ابن خلكان انه : « كان مليح الوعظ مع الرشاقة والتجنيس »^(٩٤) .

ووجد العماد رسالة للمرتضى سلك فيها مسلك أهل الحقيقة وهي مشحونة بالآيات الرقيقة^(٩٥) فأين مواعظ المرتضى؟ واين رسالته الصوفية؟ ليس ثم أثر لها .

وبما سلف ، أستنتج أن النثر جد قليل ، وأن أغلبه من فنون النثر : الخطبة والرسالة ونثر المؤلفات والمكاتبات والرسائل ، والمواعظ والنثر الصوفي ، لكن نصوصها لم تصل كلها إلينا ، ولم يدونها المؤرخون ، كما أنهم لم يدونوا شعر العقيليين كله ، ولم يحفظوه من الضياع .

الخاتمة : النتائج والتقييم

أدب الموصل جدير بعناية الدارسين لاستكشافه وتحليله ونقده .

وهذه الدراسة حلقة من حلقات الادب في الموصل في القرن الخامس الهجري .

لم أفتحها بأثر القرن الخامس ، ولم أقف بها في آخره ، وإنما اقتضت الدراسة أن أبدأ مع دولة بني عقيل (٣٨٠ هـ - ٤٨٩ هـ) وأن أنتهي مع المرتضى الشهرزوري (ت ٥١١ هـ) ، حتى أستكمل صورة الادب في هذا القرن .

ومن طبيعة المنهج الذي أخذت نفسي به ، أن أعني بجانين : أولاً - توثيق المدونات الادب ، والثاني - تحليلي ونقدي .

ومضت الدراسة مع الامراء العقيليين الذين كان لهم شعراً وقيل فيهم شعر ، وانضافت اليهم ثلاث فئات أخرى ضمن المواصلة المقيمين بالموصل والمواصلة المغتربين في أقاليم الاسلام ، ومن اتصل بالموصل وأقام فيها من غير المواصلة ممن قالوا شعراً في أثناء إقامتهم بها .

وإذ انهارت دولة بني عقيل ، لم أعر على شعراء أو كتاب لهم شأن يذكر إلا في مآلهم . ومن هنا ، اجتمع لدى مجموع شعري وثقتي ، وأغلبه مقطوعات ، وقد لا تروى من القصيدة الا قطعة منها .

واتضح لي أن أكثر الامراء العقيليين شعراً قرواش بن المقلد ومسلم بن قريش .

وأفكار الشعراء وأشعارهم ولغتهم وأساليبهم وصورهم مما يخضع للشعر العربي وحركته في القرن الخامس (٩٦) .

وإذا كان الشعر في ظل الحمدانيين مزدهراً ، فإنه على عهد العقيليين لم يكن كذلك . وأرجح ، مع الدكتور خاشع المعاصيدي (٩٧) ، أن الانحسار الادبي والثقافي معزواً الى النزاع السياسي بين رجال الاسرة العقيلية ، وبينهم وبين الخلافة العباسية وحاكم مصر . يضاف الى ذلك كثرة الحروب من الشام الى الانبار (٩٨) ، وعدم تشجيع الشعراء والكتاب (٩٩) إلا لئلا .

وكنتم أنتظر أن تؤلف هذه الحروب شعراً حاسياً له شأنه في الشعر العربي ، يصور الدفاع عن الموصل ، يُعني به شعراؤها وأبنائها ضد غزاتها ، بيد إني وجدت - على قلتي - لدى ابن الشبل البغدادي وابن أبي حصينة وابن حيوس .

ويوشك أن يكون الامراء أكثر غربة حين لا يكون للعقيليين شاعرهم الذي يغني أبحاثهم ، ولا يعقدون مجالس ادبية ، ولا تحس من مزيات أشعارهم بالموصل أو حنينهم اليها ، اللهم الا في رسالة للوزير المغربي عن الموصل وأهلها .

وقلت الملاحظ النقدية على الشعر ، عند ابن خلكان وابن شاعر الكتيبي وابن العماد الحنبل .

أما النثر في الموصل فقد صدقت فيه مقولة الوزير المغربي عن الموصل « وكتابهم أثر بعد عين » . وكلمة اخيرة :

لابد من المحاولات الجادة لتأسيس منهج علمي يدرس في ضوءه الادب بالموصل ، ويستوفيه ، ويمحص فكره وثقته ، بحيث تكون الجذور واضحة الملامح ، والتيارات محددة الابعاد .

الهوامش

- (١) ينظر: الحياة الادبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني الهجري ، للدكتور احمد كمال زكي ، دار المعارف بمصر ١٩٧١ .
- (٢) ينظر: حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني للهجرة ، للدكتور يوسف خليف : دار الكاتب العربي بالقاهرة ١٩٦٨ .
- (٣) ينظر: الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، للدكتور احمد عبدالستار الجوارري ، مط . الكشف ١٩٥٦ .

- (١٩) دمية القصر ١٣٠/١ - ١٣١ ، والكامل ٥٨٧/٩ ، والوفيات ٢٦٤/٥ ، والشذرات ١٣٨/٣ .
- (٢٠) سورة ابراهيم ، ٧ .
- (٢١) الوفيات ٢٦٤/٥ ، والشذرات ١٣٩/٣ .
- (٢٢) النص له ، في : دمية القصر ١٣٠/١ ، والكامل ٥٨٧/٩ ، والوفيات ٢٦٤/٥ ، والفوات ٢٠١/٣ ، والشذرات ١٣٨/٣ - ١٣٩ .
- وهو للشاعر أبي الحسن علي بن محمد التهامي (ت ٤١٦هـ) ، في ، ديوانه ، ط٢ ، منشورات المكتب الاسلامي بدمشق ١٩٦٤ ، ص ٦٣ ، وينظر : ص ٤٧-٥٧ .
- (٢٣) الوفيات ٢٦٤/٥ ، والفوات ٢٠٠/٣ .
- (٢٤) الوفيات ٢٦٤/٥ - ٢٦٥ ، والفوات ٢٠١/٣ .
- (٢٥) هوشدار بن ابراهيم ، من شعراء بني بويه . (معجم الادباء ٩/ ١٤٠)
- واللاح هو ابن الزمكدم ، في : الكامل ٣٢١/٩ ، ونهاية الأرب ، للتويزي (ت ٧٣٣هـ) مط . دار الكتب المصرية ١٩٢٩-١٩٥٩ ، ١٢٠/٧ .
- (٢٦) ورد البيت الرابع ، في : معجم البلدان ، لياقوت الحموي ، بيروت ، والكامل ، والوفيات ، والفوات ، ونهاية الأرب ، ولم يرد في : دمية القصر .
- (٢٧) الوفيات ٢٦٥/٢ ، ونهاية الأرب ١٢٠/٧ .
- (٢٨) دمية القصر ٢٠٠/١ ، ومعجم البلدان / برفقيد : والكامل ٩/ ٣٢١ ، والوفيات ٢٦٥/٥ ، ونهاية الأرب ١٢٠/٧ ، والفوات ١٩٩/٣ .
- (٢٩) ديوان ابن أبي حصينة ، تح : محمد أسعد طلس ، المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٦ ، ٢٦٤/٢ .
- بدمشق ١٩٥٦ ، ٢٦٤/٢ .
- (٣٠) الكامل سنة ٤٣٠هـ ، ٣٩١/٩ ، والوفيات ٢٦٦/٥ ، والشذرات ١٣٨/٣ ، وفيه : إن القصيدة طويلة .
- وينظر : خريدة القصر (قسم الشام) ، للهاد الاصمباني (ت ٥٩٧هـ) ، تح : الدكتور شكري فيصل ، المجمع العلمي العربي بدمشق ، الهامش الثالث للمحقق ، وفيه تصويب لوهم وقع فيه ابن خلكان وابن تغري بردي ٢٥٦/٥ . فلنستجده به حقاً هو ما لثنا ، وليس ديبس بن صدقة (ت ٥٢٩هـ) .
- (٣١) ديوان ابن حويس ، ط . صادر بيروت ١٩٨٤ ، ٥٧٦/٢ .
- (٣٢) خريدة القصر (القسم العراقي) ، تح : محمد بهجة الاثري ، المجمع العلمي العراقي ج ٣ مع ٤٤٨/٢ ، ٤٥١ .
- (٣٣) ديوان ابن أبي حصينة ٣٦٧/٢ .
- (٣٤) المختصر في اخبار البشر ، لابي الفداء (ت ٧٣٢هـ) ، مط . الحسينية بمصر ١٣٢٥ هـ ، ١٨٠/٢ ، والمبر ١٩٧/٣ ، ٢٣٠ . ودولة بني عقيل ٥٨ .
- (٣٥) ديوان ابن أبي حصينة ٣٦٧/٢ .
- (٣٦) خريدة القصر (القسم العراقي) ج ٣ مع ٤٥١/٢ .
- (٣٧) الكامل ١٧/١٠ ، والوفيات ٢٦٧/٥ ، ودولة بني عقيل ٦٠ .
- (٣٨) ديوان ابن أبي حصينة ٣٦٥/٢ .

- (٤) قسم الدكتور احمد كمال زكي ، في كتابه والحياة الادبية ص ١٩٩ ، الذين شغلتم دراسته خمس فئات ، غير اني لم اقف اثره في هذا التصنيف .
- أما الدكتور يوسف خليف ، في كتابه حياة الشعر ص ٣٢٧ وما بعدها ، والدكتور احمد عبدالستار الجوارري ، في كتابه ، الشعر في بغداد ... ص ٢١٤ ، فقد لزمنا الصمت فزاء هذه الاشكالية .
- (٥) ينظر : معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ، لزامبارو ، باخراج : الدكتور زكي محمد حسن وآخرين ، ص ٥٩ .
- وتاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسر الحاكمة ، لاحمد السعيد سليمان ، دار المعارف بمصر ١٩٧٢ ، ٢٤٨/١ ، ودولة بني عقيل في الموصل ، لخاشع الماضيدي ، مط . شفيق بغداد ١٩٦٨ ، ص ٦٠-٦١ ، وتاريخ الموصل ، لسليمان الصائغ الموصل ، مط . السلفية بالقاهرة ١٩٢٣ ، ١٣١/١ - ١٥٧ .
- (٦) وفيات الاعيان ، لابن خلكان (ت ٦٨١هـ) ، تح : الدكتور : إحسان عباس ، دار الثقافة ببيروت ١٩٧٣ ، ٢٦٠/٥ - ٢٦٩ ، والعبر في تاريخ من غير اللهجي (ت ٥٧٤هـ) ، تح : فؤاد سيد ، الكويت ١٩٦١ ، ٥١/٣ .
- ودولة بني عقيل ص ٥٥-٥٧ .
- (٧) الكامل في التاريخ ، لابن الاثير (ت ٦٣٠هـ) ، ط . صادر بيروت ١٩٦٦ ، ١٣٣/٩ - ١٣٥ .
- (٨) الوفيات ٢٦١/٥ .
- (٩) المبر ٥١/٣ .
- والنجم الزاهرة ، لابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) ، مط . دار الكتب المصرية ١٩٣٥ ، ٢٠٣/٤ .
- (١٠) النجم الزاهرة ٢٠٣/٤ .
- (١١) الوفيات ٢٦٢/٥ ،
- وفوات الوفيات ، لابن شاکر الكتي (ت ٥٧٤هـ) ، تح : الدكتور احسان عباس ، بيروت ١٠٠/٣ .
- (١٢) الوفيات ٢٦٣/٥ .
- (١٣) ديوان الشريف الرضي ، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ، بيروت ، ٢٨٥/١ - ٢٨٨ .
- (١٤) نفسه ٤٨٧/١ - ٤٨٧ .
- (١٥) ينظر : ديباجة القصيدة الاولى (الدالية) ، في : ديوان الشريف الرضي ٢٨٥/١ .
- (١٦) دمية القصر ، للبازخزي (ت ٤٦٧هـ) ، تح : الدكتور سامي مكّي العاني ، مط . المعارف ببغداد ١٩٧٠ ، ١٣٠/١ - ١٣١ . والمنظّم ، لابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) ، حيد آباد الدكن ١٣٥٩ هـ ، ١٤٧/٨ ، والكامل ٥٨٧/٩ ، والوفيات ٢٦٣-٢٦٧ ، والعبر ١٩٦/٣ ، والفوات ١٩٨/٣ - ٢٠١ ، والنجم الزاهرة ٤٩/٥ ، ودولة بني عقيل ٥٧-٥٨ .
- (١٧) الكامل ٥٨٧/٩ ، والوفيات ٢٦٤/٥ ، ٢٦٦ ، والمبر ٣/ ١٩٦ ، وشذرات الذهب ، لابن العماد الحنبل (ت ١٠٨٩ هـ) ، بيروت ، ١٣٩/٣ .
- (١٨) الوفيات ٢٦٤/٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، والمبر ١٩٦/٣ ، والفوات

- (٣٩) خريدة القصر (الشام) ٢٥٥/٢ - ٢٦٥ : والكامل ١٠/١٤٠ ، والوفيات ٢٦٧/٥ - ٢٦٨ : والنجوم الزاهرة ١١٩/٥ ، والشذرات ٢٩١/٣ ، والشعراء الشاميون ، لخليل مردم ، دار صادر بيروت ، ١٧٣ - ١٧٤ ، ودولة بني عقيل ٧١ - ٧٧ .
- (٤٠) قصيدة دعل التي أظها :
مدارس آيات خلّت من تلاوة
ومنزّل وحي شُفّرُ اقْرصات
شعر دعل بن علي الخزاعي ، صنعه : الدكتور عبد الكريم الاشتر ، دمشق (١٩٦٤)
- (٤١) خريدة القصر (الشام) ٢٦٥/٢ .
- (٤٢) نفسه .
- (٤٣) خريدة القصر (الشام) ٢٦٢/٢ - ٢٦٤ ، وينظر : خريدة القصر (القسم العراقي) ج ٤ مج ١/٥٨ .
- (٤٤) خريدة القصر (الشام) ٢٦٤/٢ .
- (٤٥) ينظر : معجم المصطلحات العربية في اللغة والادب ، لمجدي ودية وزيله ، ط ٢ ، مكتبة لبنان لبنان ١٩٨٤ .
- (٤٦) ينظر : رسائل الصابي والشريف الرضي ، تح : محمد يوسف نجم .
- (٤٧) معجم النقد العربي القديم ، للدكتور احمد مطلوب ، دار الشؤون الثقافية ببغداد ١٩٨٩ ، ١٢٠/١ .
- (٤٨) خريدة القصر (الشام) ٢٦٢/٢ .
- (٤٩) نفسه .
- (٥٠) الوافي (مخطوط) ، نقلًا عن الهامش الخامس من : خريدة القصر (الشام) ، ٢٦٥/٢ .
- (٥١) نفسه .
- (٥٢) خريدة القصر (الشام) ٢٦٥/٢ .
- (٥٣) ديوان ابن حويس ٥٦٩/٢ - ٥٧٧ ، وينظر : خريدة القصر (الشام) ٢٥٦/٢ - ٢٦١ .
- (٥٤) دمية القصر ٣٦١/١ - ٣٦٢ .
- (٥٥) دمية القصر ٣٦٤/١ .
- (٥٦) معجم الادباء ، لياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ) ، ط ١ دار المأمون ، ٢٠٨/١٣ ، وانباء الرواة على انباء النحاة ، للقفطي (ت ٦٤٦هـ) ، تح : محمد الي الفضل ابراهيم ، دار الكتب المصرية بالقاهرة ١٩٥٢ ، ٧٥/٢ .
- ونيفية الوعاة ، للسيوطي (ت ٩١١هـ) ، تح : محمد الي الفضل ابراهيم ، مط . عيسى الباني الحلبي بالقاهرة ١٩٦٥ ، ١٦٦/٢ .
- (٥٧) الايباء ٢٧٤/٢ (وفيه : الحسن) .
- (٥٨) الايباء ٢٧٥/٢ .
- (٥٩) معجم الادباء ٢١٨/١٣ .
- (٦٠) معجم الادباء ٢١٨/١٣ ، والبيغة ١٦٦/٢ (وفيه الاسم هكذا : زيد بن مزركة) .
- (٦١) معجم الادباء ٢١٨/١٣ ، والبيغة ١٦٦/٢ .
- (٦٢) البيغة ٥٧٤/١ .
- (٦٣) نفسه .
- (٦٤) دمية القصر ٣٦٢/١ - ٣٦٤ ،

- واحمدون من الشعراء وشعراهم ، للقفطي (ت ٦٤٦هـ) ، تح : رياض عبد الحميد مراد ، مطبوعات الجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٧٥ ، ٢٦٨ - ٢٦٩ .
- (٦٥) دمية القصر ٣٦٢/١ .
- (٦٦) دمية القصر ٣٦٢/١ - ٣٦٤ .
- (٦٧) خريدة القصر (الشام) ٣٠٨/٢ - ٣٢١ : والوفيات ٤٩/٣ - ٥٣ ، وطبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي (ت ٧٧١هـ) [تح : محمود الطناحي وزيله ، مط . عيسى الباني الحلبي بالقاهرة ١٩٧٠ ، ١٢٦/٧ ،
- وطبقات الشافعية ، للاستوي (ت ٧٧٢هـ) : تح : عبدالله الجبوري ، مط . الارشاد ببغداد ١٩٧١ ، ٩٧/٢ ، والبداية والنهاية ، لابن كثير (ت ٧٧٤هـ) ، ط ٢ مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٧ ، ١٨١/١٢ ، والنجوم الزاهرة ٢٣١/٥ ، والشذرات ١٢٤/٤ ، ولامية المرتضى الشهرزوري ، للدكتور عبدالوهاب المدواني ، مجلة آداب الراقدين ٧٤ ، سنة ١٩٧٦ ، ص ٤٧٧ - ٥١٢ ، وانباء الشهرزوري ودورهم ... ، لميدالجبار حامد أحمد ، مجلة آداب الراقدين ١٨٤ سنة ١٩٨٨ ، ص ١١٣ - ١٣٢ .
- (٦٨) وفاته في النجوم الزاهرة سنة ٥٢٠هـ .
- (٦٩) اللباب في تهذيب الانساب ، لابن الاثير (ت ٦٣٠هـ) ، مكتبة القدسي بالقاهرة ١٣٥٦هـ ، ٣٤/٢ : والوفيات ٩٦/٢ - ٧٠ : وطبقات الاسنوي ٩٦/٢ .
- (٧٠) الخريدة (الشام) ٣٠٨/٢ .
- (٧١) الوفيات ٤٩/٣ : وطبقات الاسنوي ٩٧/٢ .
- (٧٢) نفسها .
- (٧٣) الخريدة ، والوفيات ، والشذرات .
- (٧٤) الخريدة (الشام) ٢٠٩/٢٢ .
- (٧٥) الوفيات ٤٩/٣ - ٥١ .
- (٧٦) نفسه : والبداية والنهاية ١٨١/١٢ : والشذرات ١٢٤/٤ .
- (٧٧) لامية المرتضى الشهرزوري .. ص ٤١٩ - ٥١٢ .
- (٧٨) الخريدة (الشام) ٣٠٩/٢ - ٣١٦ ، ٣٢١ .
- (٧٩) ٥٢/٣ .
- (٨٠) ١٨١/١٢ .
- (٨١) ٩٧/٢ .
- (٨٢) ١٣٤/٤ .
- (٨٣) الخريدة (الشام) ٣١٧/٢ - ٣٢٠ .
- (٨٤) نفسه ٣٢٢/٢ .
- (٨٥) نفسه ٣١٧/٢ (مرتان) ، ٣١٨ (مرتان) .
- (٨٦) نفسه ٣١٩/٣ (ثلاث مرات) ، ٣٢٠ .
- (٨٧) نفسه ٣١٩/٢ ، ٣٢٠ .
- (٨٨) الكامل ٢٢٣/٩ ، والمنظم ٢٤٧/٧ - ٢٥١ ، والنجوم الزاهرة ٢٢٤/٤ - ٢٢٧ : والشذرات ١٦٠/٣ ؛ ودولة بني عقيل ٨٥ .
- (٨٩) تسة البيمة للثعالبي ، بناية عباس إقبال ، ط ١ طهران ١٣٥٣هـ ، ٢٤/١ ، والدمية ١٧٦/١ ،
- والذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، للشنتريني (ت ٥٤٢هـ) ، تح : إحسان عباس ، بيروت ١٩٧٩ ، ق ٤ مج ٢ ٤٧٥/٨ -

- (٩٥) الخريدة (الشام) ٢٠٣/٢.
 (٩٦) للدكتور المعاصيدي نتيجة غربية ص ٢٠١ : إن شعراء الموصل
 والشام اشعر شعراً من عرب العراق !
 (٩٧) دولة بني عقيل ٢٠٧.
 (٩٨) نفسه.
 (٩٩) وقع المعاصيدي في تناقض واضح ، قال ص ٢٠١ : «إن
 الحركة الادبية في عهد بني عقيل ظهرت بفضل تشجيع
 امرائهم...»
 ٥١٥ ، والمنظم ٣٢/٨ ، والكمال ٣٦٢/٩ ، والنجوم ٢٦٦/٤.
 (٩٠) الكامل ٢٢٣/٩.
 (٩١) تاريخ الفارابي ، لابن الأوزق الفارابي (ت ٥٩٠ هـ) ، تم :
 الدكتور بدوي عبداللطيف عرض ، القاهرة ١٩٥٩ -
 المائتين ص ١٧ ، ومقدمة الحق ٢٠ ، ٣٤.
 (٩٢) الخريدة (الشام) ٢٢٢/٢.
 (٩٣) الخريدة (الشام) ٢٠٣/٢.
 (٩٤) الرويات ٤٩/٣.

الحياة الأدبية في القرنين السادس والسابع الهجريين

أ. د. ناظم رشيد

المدينة المشهورة ، إحدى قواعد بلاد الاسلام ،
 قليلة النظر كبراً وعظمة وكثرة خلق وسعة رقعة ،
 فهي محط رحال الركبان ، ومنها يقصد الى جميع
 البلدان ، فهي باب العراق ، ومفتاح خراسان ،
 ومنها يقصد الى اذربيجان ، وكثيراً ما سمعت ان
 بلاد الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور ، لأنها باب
 المشرق ، ودمشق ، لأنها باب المغرب ، والموصل ،
 لأن القاصد إلى الجهتين قلما لا يمر بها » ويقول :
 « وكثيراً ما وجدت العلماء يذكرون في كتبهم ان
 الغريب إذا أقام في بلد الموصل سنة تبين في بدنه
 فضل قوة .. وما نعلم لذلك سبباً الا صحة هواء
 الموصل ، وعذوبة مائها^(١) . » وبلغت سمعة هذه
 المدينة مدى بعيداً وافاقاً رجة ، حتى ان كلمة
 « موصلين » أصبحت تطلق على نوع من القماش كان
 يصنع فيها واقتناه الكثيرون ، منهم الايطاليون وسموه
 Mosolina^(٢) ، وأصبحت الحدباء أغنية تصدح
 بها حناجر أبنائها ، ولا عجب من أن يقول ابن
 زلياق الموصل (ت ٦٥٦) فيها أبياته الآتية^(٣) :

ومحاسنُ الحدباءِ مشرقةٌ على
 كلِّ البلادِ ، لها الفخارُ الأفضلُ

في ظل الدولة العباسية التي بسطت سلطانها
 على العراق وفارس وما وراء النهر حتى حدود الصين
 شرقاً ، وديار الشام والجزيرة العربية ومصر وجزء من
 المغرب العربي غرباً ، برزت مدن كثيرة لا تقل شأنًا
 عن بغداد حاضرة الدنيا آنذاك ، وأصبح لها دور
 بارز في التجارة وال عمران والثقافة ، يؤمها القاصي
 والداني للتقوى في ظلها ، والتمتع في أكنافها ،
 والتزود ب زاد الثقافة من فضلاء علمائها ونبلاء أدبائها .
 وتعد الموصل واحدة من هذه المدن المشهورة
 العريقة في عمرانها وحضارتها ، وقد أصبحت
 تشارك بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة في الازدهار
 والارتقاء بمدارج العلوم والآداب ، ولاسيما في
 القرنين السادس والسابع للهجرة . شهد بذلك
 زائروها ، فهذا ابن جبير الرحالة المشهور (ت
 ٦١٤ هـ) يقول عن مدارسها : «إنها تلوح كأنها
 القصور المشرقة» ، ويقول عن سكانها : «وأهل
 هذه البلدة على طريقة حسنة ، يستعملون أعمال
 البر ، فلا تلقى منهم الا ذا وجه طلق وكلمة لينة ،
 ولهم كرامة للغرباء ، وإقبال عليهم ، وعندهم
 اعتدال في جميع معاملاتهم^(١) . » ويشيد بها
 ياقوت الحموي (ت ٦٢٦ هـ) ويقول : «إنها

ياساحة الحدياء تُرْبِكُ إثمَدُ

لِلناظرين. فما الدخولُ فحوملُ؟

إلامَ يراكَ المجدُّ في زِيِّ شاعرٍ
وقد نخلتُ شوقاً فروغَ المنايرِ

ونال أخوه نور الدين محمود أحد أبطال
الحروب الصليبية (ت ٥٦٩ هـ) شهرة كبيرة في حب
العلوم والمعارف، وهو الذي بنى في الموصل مسجداً
ومدرسة ورباطاً للفقراء. قال عنه أبو شامة
المقدسي: «كان حسن الخط، كثير المطالعة
للكتب الدينية، متبعاً للآثار النبوية، مواظباً على
الصلوات في الجماعات، عاكفاً على تلاوة القرآن،
حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج،
مقتصداً في الانفاق، متحريراً في المطامع
والملايس، لم تُسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا
في ضجره، وأشهى ماله كلمة حق يسمعا أو
إرشاد إلى سُنةٍ يتبعها»^(١٠).

ومن الوزراء الخيرين الكرماء الذين خدموا
الموصل في هذه الحقبة وأشاعوا المعرفة فيها ورعوا
أهلها أبو جعفر محمد بن علي بن أبي منصور
المعروف بجبال الدين الجواد (ت ٥٥٩ هـ)، كان
علماً أدبياً لبيباً «عادت به الموصل قبله الاقبال،
وكعبة الآمال، فأنارت مطالع سعوده، وسارت في
الآفاق صنائع جوده، عمّر الحرمين الشريفين،
وشمل بالبر أهلها، وجمع بالأمن شملها، وأجرى بحر
الساح، ونادى: حيّ على الفلاح، فصاحت
بأفضاله ألفاظ الفِصاح، وأتوا إليه من كل فج
عميق، وقُصدَ من كل بلد سحيق، فقصدته
العظماء، ومدحه الشعراء»^(١١)، منهم أحمد بن
منير الطرابلسي (ت ٥٤٨ هـ)، القاتل من
قصيدة^(١٢):

وكسم للموصلِ الحدياءِ مما

تُثِيلُ يده من ريفٍ ونيلٍ
برودُ الصفحِ ملتهبُ الحواشي
مهيبُ البطشِ قرأسُ الدخولِ

ويقول أبو نزار محمد بن حماد بن المبارك
الخزومي (ت ٥٦٠ هـ) على لسانه يخاطب
قاصديه^(١٣):

هَبْنِي أَحاولُ غيرها أو ابتغي
عوضاً عن الأوطان أو أتبدّلُ
فَعْنِي الذين عهدتهم بفنائها
أهلي وجيراني بمن أستبدّلُ؟
لقد أصبحت بفضل موقعها المتميز، ومن
تعاقب على إدارتها من الحكام، وكثرة مدارسها،
ووفرة دور القرآن والحديث فيها، مركزاً حضارياً
كبيراً «خرج منها جماعة من العلماء والأئمة في كل
فن» كما يقول ابن الأثير^(١٤). ومن أعظم الرجال
النجباء الذين خدموها، وقدموا لها فضلاً واسعاً،
وأحاطوها برعايتهم الكريمة البطل الغيور المجاهد عماد
الدين زنكي (ت ٥٤١ هـ) الذي عده أحد
المؤرخين آنذاك «قطباً يدور عليه فللك
الاسلام»^(١٥)، فهو الذي شجع الحركة العلمية،
وقرب إليه العلماء والادباء، وشملهم ببره وإحسانه،
وقد خلده الشعراء في نظمهم، منهم شرف الدين
أبو المجد مسلم بن الخضر بن مسلم بن قسم
الحموي (ت ٥٤١ هـ) في قصيدة مطلعها^(١٦):

تذلُّ لك الصعاب وتستقيمُ
وعرف سيف الدين غازي بن عماد الدين
زنكي (ت ٥٤٢ هـ) بميله الى خدمة لغة القرآن
الكريم والعلوم التي انبثقت منها «فبنى بالموصل
المدرسة الأتابكية العتيقة، وهي من أحسن
المدارس وأوسعها، وجعلها وفقاً على الفقهاء
الشافعية والحنفية، وبنى رباط الصوفية،
وهو الرباط المجاور لباب المشرعة، ووقف عليها
الوقوف الكثيرة، وكان كريماً، قصده شهاب
الدين حيص بيص، وامتحده بقصيدته المشهورة،
وهي من جيد شعره، فأجازها عنها ألف دينار أمير
سوى الإقامة والتعهد مدّة مقامه وسوى الخلع
والثياب»^(١٨)، والقصيدة طويلة في واحد وستين
بيتاً، تتميز برصانة الأسلوب، وقوة السبك،
وحسن الديباجة، مطلعها^(١٩):

وقال ابن خلكان : ومدحه بهاء الدين أبو المعالي أسعد بن يحيى السنجاري (ت ٦٢٢ هـ) بقصيدته المشهورة التي يُتغنّى بها ، ومن جملتها :
ياقلبُ تبا لك من صاحب
كان البلا منك ومن ناظري
للو أيامي على رامة
وطيب أوقاتي على حاجر
تكاد بالسرعة في مرها
أولها يعشر بالآخر
وقال أيضاً : وكان يحب الأدب والشعر ،
أنشدني بعض أصحابنا قال : كثيراً ما كان يُنشد
أبياتاً من جملتها :

إذا أدمت قوارصكم فؤادي
صبرتُ على أذاكم وانطويتُ
وجئتُ إليكم طلق المحيا
كأنّي ماسمعتُ وما رأيتُ (١٨)

ومن ملوك الموصل المشهورين في القرن السابع للهجرة عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه الاول (ت ٦١٥ هـ) ، فإنه قرّب العلماء والأدباء وآوهم وأحفهم بهداياه ، وقد أشاد به عز الدين ابن الأثير ومدحه بشعر من نظمه (١٩) . وكذلك مدحه العالم اللغوي النحوي الأديب أبو زكريا يحيى بن سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان البغدادي (ت ٦١٦ هـ) وألف له عدة مجاميع تحتوي على أشعار رقيقة إضافة إلى كتاب بعنوان نتائج القرائح (٢٠) .

ويعد أبو الفضائل بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله الزيني (ت ٦٥٧ هـ) الملقب بالملك الرحيم أبرز شخصية في القرن السابع للهجرة خدمت العلم والمعرفة في الموصل التي حكمها «سبعاً وأربعين سنة ، وكان كثير التجميل بالرسول ، والوافدين عليه» (٢١) ، يحني بهم ويهي لهم وسائل الراحة في إقامتهم كما صنع مع العالم الأديب المشهور شرف الدين أبي البركات المبارك بن أحمد المعروف بابن المستوفي (ت ٦٣٧ هـ) صاحب «تاريخ إربل» و

ليك ليك لاتعجل فإن لنا
جواداً نال به قوماً وإن بعدوا
فإن أئانا بفضل منهم أحد
فقد جاء بفضل عندنا الأحد
فقطب بذلك نفساً واغد في دعة
فقد أتاك بجود عندنا الصفد
وحظي كذلك بمدح الشاعر أبي الندى حسان ابن غير المعروف بعزلة الكلبي (ت ٥٦٧ هـ) ، ومن الأديب المشهور ذي البلاغتين عماد الدين الكاتب الأصبهاني (ت ٥٩٧ هـ) .

ومن الرجال الأفاضل الغياري الذين أحبوا مدينة الموصل وجعلوها بفنائهم وطيب أنفاسهم مجاهد الدين قايماز بن عبد الله الزيني (ت ٥٩٥ هـ) ، وكان نائباً للملك الأتابكة في هذه المدينة وما حوها ، قال ابن الساعي : «كان عاقلاً ديناً خيراً فاضلاً يعرف شيئاً من الفقه على مذهب الشافعي - رضي الله عنه - ويحفظ من الشواهد والأشعار والحكايات شيئاً كثيراً» (٢٢) . وقال ابن خلكان :

«وأثر بالموصل آثاراً جميلة ، منها أنه بنى بظاهرها جامعاً كبيراً ومدرسة وخانقاه ، والجمع متجاورة ، ووقف أملاكاً كثيرة على خبز الصدقات ، وأنشأ مكتباً للأيتام ، وأجرى لهم جميع ما يحتاجون إليه ، ومدّ على شط الموصل جسراً» (٢٣) . ولم يدع - كما يقول سبط ابن الجوزي - بيتاً فقيراً إلا وأغنى أهله (٢٤) . وقد نال بأعماله الجليلة وأفضاله الكثيرة ثناء المؤرخين ، وخصّه الشعراء بمدائحهم ، منهم شاعر العراق الكبير آنذاك سبط ابن التعاويذي (ت ٥٨٣ هـ) في قصيدة مطلعها (٢٥) :

عليل الشوق فيك متى يصح
وسكرانٌ بمجلك كيف يضحو
وخاتمها :

مددت على البلاد جناح عدل
فغش ما امتد للظلماء جُنج

« النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام » الذي خرج من إربل هارباً من التترسة أربع وثلاثين وستائة ، قال ابن الشعراء : « ولا سلم من التتر ، خرج من إربل ، سمع به لؤلؤ بن عبد الله الزيني ، فانتدب اليه جبالاً وابعالاً تحمل متاعه الذي كان تخلف معه ، فدخل الموصل ، فاستقبله الأمير المذكور بالاكرام الوافر والتبجيل والحرمة التامة ، وأنزله في دار هُيئت له برسمه (٢٢) » .

وكان بدر الدين لؤلؤ يحب الكتب ويقتنيها ويقرؤها ثم يودعها في مكتبة مدرسته التي أنشأها على جانب دجلة ليقف عليها الدارسون ، وما يُحمد له أنه طلب من المؤرخ المشهور عز الدين بن الأثير الإسراع في إنجاز كتابه « الكامل في التاريخ » ليحفظه في هذه المكتبة ، وكذلك كلف محمد بن أبي طالب البدري سنة ٦١٤ للهجرة ان يكتب له نسخة خزائنية مزوقة من كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني ، وطلب من عمر بن علي بن المبارك الموصل سنة ٦٥٤ للهجرة أن ينسخ له « المقامات » للحريري ، وقد تم له ما أراد . وكان الخازن على مكتبته والمشفرف عليها العالم الاديب يحيى بن سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان البغدادي . وكان يحنو على الشعراء ويكرمهم ، قال أحدهم فيه ، وهو أبو محمد عبد العزيز بن منصور الموصل المعروف بالغنمي (ت بعد ٦٣١ هـ) :

هو الملك الذي أضحى بصارمه

وعزيمه عسكر الاسلام يفتخر
لوحلاً بين ملوك الأرض مستتراً

سما عليهم فأضحى وهو مشتهر (٢٣)

وكانت له حكايات طريفة و نوادر طريفة مع عدد من الشعراء ، من ذلك انه رأى يوماً أحمد بن محمد المعروف بابن الخلاوي الموصل (ت ٦٥٦ هـ) « في روضة مُعشبة ، وبين يديه برذون له مريض يرعى ، فجاء اليه ، ووقف عنده ، وقال : ما لي أرى هذا البرذون ضعيفاً؟ فقام وقبّل الارض ، وقال : يامولانا

السلطان ، حاله مثل حالي ، وما تخلفت عنه في شيء ، يدي بيده في كل رزق رزقنا الله تعالى ، فقال : هل عملت في برذونك هذا شيئاً؟ قال : نعم ، وأنشدته بديهاً :

أصبح برذوني المرقع بالبد

زقات في حسرة يكابدها

رأى حمير الشعير عابرة

عليه يوماً فظلاً ينشدّها

(قفا قليلاً بها عليّ فلا

أقل من نظرة أروّدها) (٢٤)

فأعجبت السلطان بديته ، وأمر له بخمسين

ديناراً ، وخمسين موكراً (٢٥) من الشعير ، وقال

له : هذه الدنانير لك ، وهذا الشعير لبرذونك ، ثم

أمره بملازمة مجلسه كسائر الندماء ، وأقطعته

إقطاعاً ، ولم يزل يترقى عنده إلى أن صار لا يبصر

عنه (٢٦) . وهكذا كانت خلة هذا الملك ،

يستجيب للسائلين ، ويعطف عليهم ،

ويستميلهم ، ويتحب إليهم ، ويكسب ودهم ،

ويجعلهم من جلسائه ، ولاسيا أرباب الأقلام من

العلماء والأدباء . قال ابن الطقطقا : « انظر إلى كمال

الدين حيدرة بن عبيد الله الحسيني الموصل ، وكان

شيخ أهله ومقدمهم سناً وزهداً وفضلاً وورعاً ،

كيف استماله صاحب الموصل بدر الدين بما أسداه

إليه من الإنعام حتى مدحه وانخرط في زمرة

شعرائه ، فن شعره فيه :

هنيئاً يجِد ساعدتك سعوده

وتنمّ له يوم التفاخر عيده

وبشرى بإقبال أهل بشيره

كما وفدت عند الهناء وفوده

وأتى لبدر الدين ذي الفخر والعلّي

نديد وكلاً أن يصاب نديده

ومع انه صار من شعرائه ، وانخرط في زمرة

مُدّاحه ، كان بدر الدين بعد موت كمال الدين

حيدره إذا اجتاز على تربته ، وهي تربة مفردة ظاهر

الموصل جنوبية قبلية ، يترك العسكر ، ويدخل

إليه ، ويزوره ، ويدعو لنفسه عند ضريحه رحمهما الله (٢٧) .

وثمة شخصية طبية كريمة هو فخر الدين إبراهيم ابن عيسى بن هبة الله الموصل (ت ٧١٢هـ) ولي الموصل أكثر من عشرين سنة وقصده العلماء والأدباء ، فأحسن إليهم وأنعم عليهم ، ومن الذين قصده العالم النقيب صفي الدين محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا (ت ٧٠٩هـ) وصنف له كتابه «الفخري في الآداب السلطانية» جاء في آخره : «فرغ من تأليفه واستنساخه مؤلفه في مدة أولها جمادى الآخرة من سنة إحدى وسبعائة وآخرها خامس شوال من السنة المذكورة بالموصل الحلباء (٢٨)» .

وتجدر الإشارة في هذا المقام الى ان الحركة العلمية والادبية الناشطة في القرنين السادس والسابع للهجرة في ربوع الموصل لم يكن الفضل فيها للحاكمين من ملوك ووزراء فقط ، بل يعود الفضل ايضاً الى افراد بعينهم ، وسيرد ذكر الكثيرين منهم في اثناء البحث ، او الى أسر اشتهر افرادها بحب اللغة العربية وآدابها والتأليف في علومها وتشجيع المقلين عليهم على اتقان معارفها من خلال محاضراتهم في المدارس ومحاوراتهم في المجالس ومناظراتهم في المحافل ، ولعل من اكثر هذه الاسر شهرة وخدمة للعلماء والادباء ابناء الاثير ، كان ابوهم ابو الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم ابن عبدالواحد الشيباني المعروف بالاثير قد نزع من جزيرة ابن عمر واستوطن الموصل واشتغل في ديوان الانشاء في الدولة الانابكية ، وأنجب ثلاثة ابناء كل واحد منهم صار علماً من اعلام الفكر ، وهم : الفقيه المحدث مجد الدين ابو السعادات مبارك (ت ٦٠٦هـ) ، والمؤرخ عز الدين ابو الحسن علي (ت ٦٣٠هـ) ، والاديب البلاغي ضياء الدين ابو الفتح نصرالله (ت ٦٣٧هـ) .

واشتهر ابناء الشهزوري بالعلم والادب ، توفي

جدهم ابو القاسم بن المظفر سنة ٤٨٩ للهجرة «وكان من اولاده وحفدته علماء نجباء كرماء ، نالوا المراتب العلمية ، وتقدموا عند الملوك (٢٩)» ، وكان القادم الى الموصل يقصدهم «فيحسنون اليه ، ويؤنسون غرته ، فيعود آهلاً (٣٠)» .

وعُرف ابناء منعة بحب اللغة العربية وعلومها وآدابها والتصنيف فيها ، سكن منهم في الموصل ابو الفضل رضي الدين يونس بن محمد بن منعة (ت ٥٧٦هـ) ، وكان يُدرّس ويفتي وينظر ويقصده الطلبة من كل مكان ، اشتهر من ابنائه عماد الدين ابو حامد محمد (ت ٦٠٨هـ) ، وكمال الدين ابو الفتح موسى (ت ٦٣٩هـ) الذي قال فيه ابو علي عمر بن عبدالنور النحوي الصنهاجي (٣١) :

تجّر الموصل الأذبال فخرأ
على كلّ المنازل والرسوم
بدجلة والكال ، ها شفاء

لهيم او لذي فهم سقيم
فذا بحر تدفق وهو عذب
وذا بحر ولكن من علوم

ورعى ابناء بلديجي - احد امراء السلاجقة - العلوم والآداب في الموصل ، ومن اكثرهم شهرة ابوبمحمد محمود بن مودود بن محمود البلديجي (ت ٦٢٣هـ) الذي بنى مدرسة ودرّس فيها وتخرج على يديه ابناءؤه وكثير من اهل الموصل (٣٢) ، احدهم عبدالرحمن بن محمود البلديجي (ت ٦٤١هـ) .

وكان ابناء مهاجر معروفين آنذاك بمقامهم العلمي ومزلتهم الادبية ، وهم يتسبون الى جدهم ابي القاسم علوان بن مهاجر بن علي بن مهاجر ، وكان تاجراً ثرياً ، أنشأ مدرسة في الموصل ونخصص لها اوقافاً كثيرة ، وكان اولاده من العلماء الفضلاء (٣٣) ، ومن أشهرهم الشيخ شرف الدين ابو المظفر محمد بن علوان بن مهاجر (ت ٦١٥هـ) .

إنّ اعلام الفكر والأسر المشهورة في خدمة العلوم والمعارف كثيرة يصعب على الدارس

إحصاؤها وذكرها في بحث موجز، وحسب القارئ ان يلقي نظرة فاحصة على فهرس كتب التاريخ والادب والنحو والبلاغة والنقد وسواها من علوم اللغة العربية ليرى بنفسه العدد الهائل منهم ومقدار ما وضعوا من مصنفات قيمة في كل علم وفن.

الرحلة العلمية إلى الموصل :

لقد ازدهرت الحركة الثقافية في الموصل في القرنين السادس والسابع للهجرة ازدهاراً كبيراً، واقتبل عليها الكثيرون من أرباب الفكر وحمله الاقلام المبدعة واصحاب العقول النيرة من بقاء كثيرة واصقاع نائية في العالم العربي والاسلامي، نجد فيهم فقهاء ونحاة ولغويين وعروضيين ومفسرين وقراء وبلاغيين ومؤرخين وجغرافيين وأطباء ورياضيين وكيميائيين وفلكيين وموسيقين... منهم على سبيل المثال لا الحصر: الشاعر المشهور ابو اسماعيل بن علي الطغراني (ت ٥١٥هـ)، والشاعر المبدع محمد بن نصر القيسراني (ت ٥٤٨هـ)، والشاعر أبو الحسن علي بن عبدالله بن أبي جرادة (ت ٥٤٨هـ)، والشاعر ابو سعيد المؤيد بن علي الآلوسي (ت ٥٥٧هـ)، والشيخ الشاعر الاديب الكاتب ابو نصر محمد بن احمد بن محمود الفروخي الاواني (ت ٥٥٧هـ)، والشاعر الطيب علي بن يقظان السبي القائل من قصيدة مدح بها الوزير جمال الدين الجواد (٣٤١) :

فكم قد قطعنا من مفاوز بيدهم

وخضنا بها الصعب المرام من الوهد

الى أن وصلنا الموصل الآن فانتهت

بنا لجمال الدين راحلة القصيد

والشيخ الواعظ ابو النجيب ضياء الدين

عبدالقاهر بن عبدالله السهروردي (ت ٥٦٣هـ)،

وابوبكر يحيى بن سعدون بن تمام الازدي القرطبي

(ت ٥٦٧هـ)، احد الائمة الكبار في القراءات،

والشيخ ابو محمد سعيد بن المبارك بن علي بن الدهان النحوي البغدادي (ت ٥٦٩هـ)، تصدر للاقراء في الموصل وصنف كتاباً في «العروض» و «الرسالة السعدية في المآخذ الكندية» تناول فيها سرقات المتنبي الشعرية، والشاعر الامير ابو شجاع ابن الطوايقي (ت ٥٦٩هـ)، وعمدة الدين ابو منصور محمد بن أسعد المعروف بمحفدة (ت ٥٧١هـ)، كان محدثاً فاضلاً واصولياً فصيحاً، وكانت مجالسه في الوعظ من احسن المجالس، والامير مجد الدين مصطفى الدولة ابو فراس علي بن محمد بن غالب العامري (ت ٥٧٣هـ) وهو من كبار شعراء العراق المتقدمين، روى عنه العماد الاصبهاني كثيراً من الشعر في موسوعته المعروفة بـ «خريدة القصر وجريدة العصر»، والامير شهاب الدين ابو الفوارس سعد بن صفيي المعروف بحمص بيص (ت ٥٧٤هـ)، وهو من مشاهير الشعراء آنذاك، وقوام الدين ابو صالح النفيس بن المبارك بن النفيس البغدادي المقرئ (ت ٥٧٩هـ)، والشاعر العالم النحوي محمد بن الحسين بن علي المعروف بابن الدباغ (ت ٥٨٤هـ)، والشاعر الكبير اسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) احد ابطال الحروب الصليبية وصاحب التصانيف الكثيرة، وكان قد طال مكوثه في الموصل فأرسل اليه اخوه علي بن منقذ الايات الآتية : (٣٥)

ألا هل لمحزونٍ تذكّر لِقَاءَهُ

فحنّ وأبدى وجده، مَنْ يُعِينُهُ

وعيشاً مضى بالرغم إذ نحن جيرة

تَرَفُّ على روض الوصالِ غصونُهُ

لدى منزلٍ كان السرورُ قريبتكم

به فتولّى اذ تولى قريبتُهُ

فلو أعشبت من فيضي دمعِي محوْلُهُ

لما رضيتُ عن دمع عيني جفونُهُ

والامام العالم الزاهد شيخ الصوفية ابو حامد

محمد بن رمضان بن عثمان التبريزي (ت ٥٨٨ هـ)، والشاعر فخر الدين ابو شجاع محمد بن علي بن شعيب الفرضي (ت ٥٩٠ هـ)، والشاعر المتصوف ابو القاسم يحيى بن علي بن يحيى المعروف بابن الوزان (ت ٥٩٤ هـ)، والشاعر البليغ علي بن الحسن المعروف بشمم الحلي (ت ٦٠١ هـ) استقر في الموصل وتوافد عليه الكثيرون لزيارته والانتفاع من غزير علمه ووافر مصنفاته التي قارت الاربعين، والشاعر الخطيب ابو محمد اسماعيل بن محمد بن مواهب الحظيري (ت ٦٠٣ هـ). أقام بدار الحديث بالموصل، وتشوق الى اهله فقال: (٣٦)

غبتم فإلني في التصبر مطعمُ
عظمُ الجوى واشتدَّتْ الأشتاقُ
لا الدارُ بعدكم كما كانت ولا
ذاك البهاءُ بها ولا الإشراقُ
أشتاقكم وكذا الحبُّ إذ نأى

عنه أحبُّ قلبه يشتاقي
والامام مكي بن ريان الماكسيني الضرير (ت ٦٠٣ هـ) وهو جامع فنون الادب وحنة كلام العرب، قال ياقوت الحموي: «قرأ عليه اهل الموصل، وتخرج به اعيان اهلها.. رأته وكان حراً كريماً صالحاً، صبوراً على المشتغلين، يجلس لهم من السحر الى ان يصلي العشاء الآخرة، وكان يحفظ الناس للقرآن ناقلاً للسبع» (٣٧)، وقد قال اعتزازاً بمدينة الموصل (٣٨):

وقد أضحَّتْ لي الحديباءُ داراً
وأهلُ مودَّتِي بلسوى العقيق

والحدث المشهور ابو حفص عمر بن ابي بكر المعروف بابن طبرزد (ت ٦٠٧ هـ)، والشاعر الطيب مذهب الدين ابو الحسن علي بن احمد بن هبل البغدادي (ت ٦١٠ هـ)، وكان اوحده وقته وعلامة زمانه في صناعة الطب، صنّف للوزير جمال الدين الجواد كتاباً بعنوان «الطب الجمالي». والشيخ

العالم ابو الفتح محمد بن محمد بن محمد البكري (ت ٦١٥ هـ)، وابو عبدالله محمد بن عمر المقدسي (ت ٦١٦ هـ)، تولّى مشيخة دار الحديث بالموصل وألف كتاباً سماه «المجد المظفري» ذكر فيه طرفاً من اخبار الامراء وابواباً في مدح العدل وذم الظلم الى جانب مجموعة من الادعية، والشاعر الاديب ابو محمد عبد الحميد بن مُرّي (ت ٦٢٠ هـ)، والعالم الواعظ عبدالعزيز بن محمد ابن ابي الفضائل المعروف بابن الدياري (ت ٦٢٢ هـ)، والعالم الاديب محمد بن عبد اللطيف ابن ابي الفتح التبريزي (ت ٦٢٨ هـ)، اختصه بدرالدين لؤلؤ واجرى له راتباً، والشيخ الامام الفاضل موفق الدين ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد المعروف بابن اللباد البغدادي (ت ٦٢٩ هـ)، أقام بمدرسة ابن مهاجر ودار الحديث، قال ابن ابي اصيبعة: «كان كثير الاشتغال، لا يخلى وقتاً من اوقاته من النظر في الكتب والتصنيف والكتابة، والذي وجدته من خطه اشياء كثيرة جداً بحيث انه كتب من مصنفاته نسخاً متعددة، وكذلك كتب كتباً كثيرة من تصانيف القدماء» (٣٩)، والشاعر شرف الدين ابو المحسن محمد بن نصر المشهور بابن عَين (ت ٦٣٠ هـ)، والشاعر ابو القاسم محمد بن محمد بن الحسن البغدادي (ت ٦٣٠ هـ)، اتصل ببدرالدين لؤلؤ ومدحه فأعطاه مالاً ونخلع عليه واكمه، والشاعر علي بن مقرب العيوني (ت ٦٣١ هـ)، جاء في احدى قصائده التي مدح بها بدرالدين لؤلؤ (٤٠):

طابَتْ به الموصلُ الحديباءُ واتسعتْ
لساكنيها بها الأرزاقُ والسبلُ
واصبحت جنةً لا يتغني جِولاً

فقطّانها لو الى دار البقا نقلوا
وعلم الدين قيصر بن ابي القاسم بن عبد الغني المعروف بتعاسيف (ت ٦٤١ هـ)، كان ادبياً عالماً، ولاسيا في الرياضيات، قال: «لما اتقنت علوم

الرياضة بالديار المصرية ودمشق ، تافت نفسي الى الاجتماع بالشيخ كمال الدين - موسى بن يونس بن محمد بن منعة - لما كنتُ اسمعه من تفرد به هذه العلوم ، فسافرت الى الموصل قصد الاجتماع به ، فلما حضرت في خدمته وجدته على حلية الحكماء المتقدمين ، وكنت قد طالعت اخبارهم ، فسلمت عليه . وعرفته قصدي له للقراءة عليه ، فقال لي : في أي العلوم تريد ان تشرع ؟ فقلتُ : في الموسيقى ، فقال : مصلحة هو ، لي زمان مقرأه احد علي ، فأنا أنكر مذاكرته ، وتجديد العهد به ، فشرعت فيه ، ثم في غيره ، حتى شققتُ عليه أكثر من اربعين كتاباً في مقدار ستة أشهر ، وكنت عارفاً بهذا الفن ، لكن كان غرضي الانتساب في القراءة اليه ، وكان اذا لم اعرف المسألة اوضحها لي ، وما كنت اجد من يقوم مقامه في ذلك ^(٤١) . وتجدر الاشارة الى ان ابا علي عمر بن عبد النور الصنهاجي النحوي الشاعر كان حاضراً في احدى جلسات هذا العالم الجليل فأناشد على البديهة قوله :

كمال الدين للعلم والعلی
فهيها ساع في مساعيك يطعم
اذا اجتمع النظائر في كل موطن

فغاية كل ان تقول ويسمعوا
وقال ذاكرأ فضله على مدينة الموصل :

تجر الموصل الاذيال فحراً
على كل المنازل والرسوم
بدجلة والكمال ، هما شفاء

لهيم او لذي فهم سقيم
فذا بحر تدفق وهو عذب
وذا بحر ولكن من علوم ^(٤٢)

ومن انتجع الموصل ونفع وانتفع المحدث ابو عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري المعروف بابن الصلاح (ت ٦٤٢ هـ) ، والنحوي الاديب ابو الفضل محمد بن عبدالله بن محمد المرمي (ت

٦٥٥ هـ) ، والشاعر المشهور بهاء الدين زهير (ت ٦٥٦ هـ) ، وعز الدين ابو محمد عبد الوهاب ، بن ابراهيم الزنجاني الاديب الفاضل (ت ٦٦٠ هـ) وكان عالماً بالنحو واللغة والتصريف وعلم البيان والمعاني ، والمقرئ الشيخ احمد بن المبارك بن نوفل الخُرقي (ت ٦٦٤ هـ) ، وبهاء الدين علي بن عيسى المنشي الاربلي صاحب التذكرة الفخرية (ت ٦٩٢ هـ) ، والشاعر الفاضل صاحب النواذر الطريفة احمد بن المي بكر المشهور بأبي جلنك (ت ٧٠٠ هـ) ... ان هؤلاء العلماء والادباء الذين جاؤوا الى الموصل للتعليم والتعلم ، واستوطنوها او مكثوا فيها مدة ، هم غيض من فيض ، شاركوا اخوانهم الفضلاء من ارباب الاقلام من المدينة نفسها في رقد الحركة الثقافية ودفع عجلة تقدمها بقوة تأليفاً وتصنيفاً .

المجالس الأدبية :

كانت مجالس العلماء والأدباء منتديات لكل العلوم والفنون والآداب ، سواء أكانت هذه المجالس في الأماكن المخصصة للتدريس أم في البيوت ، فهذا مجد الدين بن الأثير ظل يواصل عقد مجلسه حتى آخر حياته في بيته أو في الرباط الذي أنشأه باسمه ^(٤٣) . وكان لبهاء الدين أبي المحاسن يوسف بن رافع المعروف بابن شداد الموصل (ت ٦٣٢ هـ) مجلس عامر ، وكان «حسن المحاضرة ، جميل المذاكرة ، والأدب غالب عليه» ^(٤٤) .

وكان للحاكمين آنذاك دور كبير في عقد المجالس وترتيبها بأهل الفضل والإفضال ، وإقامة المناظرات والمحاورات ، ذكر ابن الطقطقا عن بدر الدين لؤلؤ أنه «كان أكثر ما يجري في مجلس أنسه إبراد الأشعار المطربة والحكايات الملهمة» ^(٤٥) . وذكر المنشي الاربلي أن بدر الدين لؤلؤ طلب مرة من الشعراء المجتمعين عنده أن يعملوا شعراً على وزن قصيدة أحمد بن غزني الموصل التي يقول في

مطلعها: (٤٦)

ويجويون في اجواء اللهو بطلاقة ، ويقولون مايشاؤون
حسب المناسبة التي تستجلب انظارهم ، وتستحث

أفكارهم ، وتستطلق ألسنتهم (٤٨) ، ومن هؤلاء
الشعراء : موفق الدين أحمد بن هبة الله بن أبي
الحديد (ت ٦٥٦هـ) ، وتاج الدين محمد بن نصر
ابن يحيى المعروف بابن الصلايا (ت ٦٥٦هـ) ،
ويحيى الدين بن زيلاق الموصلي (ت ٦٦٠هـ) ،
وبهاء الدين علي بن فخر الدين عيسى المنشيء
الاربلي (ت ٦٩٢هـ) ، وهذا الأخير جاء الى
الموصل سنة اثنتين وستين وساتمة وشاركه « في مجلس
أنس قد واصل حبيبه ، وغاب رقيه ، وشموس
الكؤوس تدور ، وتطلع من أكف سقاة كالبدور ،
وفي أفواه الندامى تغور » (٤٩) .

وكان عدد من الشعراء يتطارحون الشعر
ويتناشدونه في احضان الطبيعة الخلابة او في اجواء
الاديرة القريبة من الموصل مثل دير سعيد (٥٠) الذي
كان يرثاه ابو علي الحسن بن محمود بن الحسن
الخجندي الموصلي (ت ٦٠٤هـ) ، وفيه
يقول : (٥١)

رهبان دير سعيد بث عندهم
في ليلة نجمها حيران مرتبك
فجاء راهبهم يسعى وفي يده
مدامة ما على شاربها درك
كالشمس مشرقها كأس ومغربها
فم التديم وكف الساقم الفلك
من كف أعيد تحكي الشمس طلعت
في خده الورد والنسرين مندعك
ولوق الدين ابن أبي الحديد شعر في هذا
الدير ، وفي دير آخر بالموصل ايضاً يسمى دير
ميخائيل (٥٢) ، قال فيه من قصيدة :
باساكني دير ميخائيل لي قر
لكنه بشر في شكل تمثال

أرى سطرًا من المسك الذكي
على جمر بوجنته ذكي
فعمل مذهب الدين ابو المعالي محمد بن ابي
الحسن بن يمن الانصاري المعروف بابن الارذل
الموصلي (ت ٦٢٨هـ) قصيدة مطلعها :
أما وياض مبسمك النقي
وسمرة مسكه اللعس الشهي
وعمل الشيخ العلامة شمس الدين احمد بن
الخباز النحوي الموصلي (ت ٦٤١هـ)
سطا بحسام طرف مشرفي
وأردفه بسحر بابلبي
وقال ابن الخلاوي الموصلي في الوزن والقافية
نفسها :

بورد خدودك النضر الجنّي
ومسك عذارك العطر الذكي
وهذا نجم الدين الحسن بن علي الشهرزوري
يقول عن احد مجالسه : « دخل إليّ شاب من
أهل بغداد وأنشدني هذه الابيات :
في نهر عيسى والهواء معتبر
والماء فضي القميص صقيل
والطير إما هاتف بقريته
او نادب يشكو الفراق ثكول
وعرائس السرو التحفن بسندس
ورقصن فارفعتن لهن ذبول
وقال لي : اعمل على وزنها ما يناسبها فعملت في
الحال :
والغصن مهزوز القوام كأنما
دارت عليه من الشال شمول
والدهر كالليل البهيم وأنتم
عزّرتير ظلامه وحجول » (٥٣)

وكانت المجالس الادبية تعقد احياناً بين الشعراء
انفسهم بمنأى عن الحاكمين وبعيداً عن انظار
المسؤولين ، يطلقون لانفسهم العنان بحرية ،

محمود بن عباد الدين زنكي (ت ٥٦٩هـ) بقصيدة
حساسة منها (٥٧) :

ياخير مَنْ ركبَ الجيادَ وخاضَ في
لجج المنايا والأسنةَ تقطرُ

في الرأي قيسٌ وفي الساحة حاتمٌ
في النطق قسٌ ، وفي البسالة حيدرٌ

ان الحرب مع الافرنج آنذاك كانت الشغل
الشاغل لكثير من الشعراء والكتاب ، إذ نجد

عزالدين بن الاثير يؤلف كتاباً في الجهاد (٥٨) ، وبهاء
الدين أبا المحاسن يوسف بن رافع المشهور بأبن

شداد يصنف كتاباً بعنوان فضائل الجهاد (٥٩)
لصلاح الدين الايوبي (ت ٥٨٩هـ) البطل الذي

حمل راية الجهاد واستنض الناس الى الكفاح
والوقوف بقوة وصلابة بوجه الاعداء المغيرين ،

وكان علم الدين الشاتاني الموصل (٦٠) واحداً من
الشعراء الكثيرين الذين انضوا تحت لوائه وقدموا

بين يديه شعراً حماسياً ، من ذلك القصيدة التي
يقول في مطلعها (٦١) :

أرى النصر معقوداً برايتك الصفرا
فسرّ واقبح الدنيا فانت لها أخرى

وكان ابو الفرج عبدالله بن أسعد المعروف بابن
الدهان الموصل (ت ٥٨١هـ) من الشعراء الغباري

الذين تنبعوا انباء الحروب الجهادية وتسقطوا
اخبارها ، وكان معجباً بأبي الغارات طلائع بن

رؤيك الوزير الشاعر المصري (ت ٥٥٦هـ) المشهور
بمواقفه الجريئة في محاربة الغزاة ومقارعتهم ، ونظم

قصيدة متينة السبك قوية الاسر نالت استحسانه
مطلعها (٦٢) :

أما كفأك تلافى في تلافيك
ولست تقمُ إلا فرطاً حُببكا

وتناول شجاعته ، ورسالته ، وقدرته القتالية ،
ومهارته الفائقة في الاقتضاض على الاعداء ،

وانزال الضربات المميتة بهم ، وتحطيم جموعهم

قربُ دارٍ بعيدٍ في مطالبه

غربُ حسني والخاني وأقوال
سكرتُ من صوته لما أشار به

مالستُ اسكرُ من صهباء جربال
مارمتُ إمساك نفسي عند رؤيته

إلا تغيرتُ من حالٍ الى حالٍ
بالبلي بفتاء الدبر لستُ كمن

يقول : بالبلي بالشيخ والضال
قد صرتُ أنشدني تاصار لي مثلاً

لولا وصالك لم يخطر على بالي
«لواشريتُ بعمرى ساعة سلفت

من عيشتي معكم ما كان بالغالي»
ويتأسف الشاعر علي بن أبي الجود الموصل (ت ٥٥٥هـ)

على أيام شبابه التي قضاها في مجالس
اللهو والقصف والطرب بين دير الأعلى (٥٤) ودير
سعيد (٥٥) :

هل لأيامنا الألى من معيد
بين دير الأعلى ودير سعيد

وزمانٍ هوت فيه فأفنيب
مُتٌ شباني ما بين ناي وعود

الشعر والأحداث :

ولم يكن الأدب ، والشعر بخاصة
بعيداً عن الاحداث الرهيبة والمعارك

العنيفة ، والاشتباكات الدامية بين المسلمين
والافرنج التي ملأت الجوكله آنذاك بالفرع والهلل ،

وكان أبنائها مشاركين في الجهاد ، ومساهمين مع
اخوانهم القادمين من مختلف ديار المسلمين في

حرب الطغاة الغادرين ومقاتلة الاغراب الغاصبين
للقدس الشريف (٥٦) ، وكان لملوكهم دور بارز

ومشرف في هذه المساهمة النبيلة ، وقد وقف الشعراء
الغباري الى جانبهم مشيدين ببطولاتهم ومتغنين

بانتصاراتهم ، وكان ابو علي الحسن بن سعيد بن
عبدالله المشهور بعلم الدين الشاتاني الموصل (ت ٥٧٩هـ)

في مقدمتهم ، فإنه خاطب نورالدين

الغفيرة ، وتبديد شملهم ، وجعلهم بين قتيل وأسير :
ساروا الى الموت قُدماً ما كانوا كَانَهُمْ
رأوا طريق فرارٍ قطُ مسلوكا
فأوردوا الشمرَ شرباً من نخورهم
وأوطؤوا الهامَ بالقاعِ السنايكا
ضرباً وطعناً يقدُ البيضَ محمكةً
ونخرقُ الزردَ الماذيَ محبوكا
وباتَ في كلِّ صقعٍ من ديارهمُ
نوحٌ على بطلٍ لولاك ماشيكا
أمسوا ملوكاً ذوي أسيرٍ فصيحهم
أُسْدُ أنوكَ بهم أسرى ممالিকা
ولم يفهم سوى من كان معقله
مطهماً حنَّه ركضاً وتحريكا
لقد شغلت الحرب الشديدة والصدام المحتدم ،
والمقاولة العنيفة ، والكر والفر بين قومه والخصم
الباغي الزاحف من الغرب فكره وسيطرت على
جوارحه ؛ لذا نراه يلتفت اليها في اغلب قصائده ،
ويتحدث عنها حديثاً ذا شجون ، خاصة إذا نجح
القائد في ساحة الوغى ، وفرى هام العدى ،
وجندل فرسانهم ، وقيد كرائمهم ، وساق سراتهم ، كما
نرى في الايات الآتية (٦٣) :

وكم قد هرفت دماء العدى
تصحُح عليلاً وتشني غلجلاً
وكم لك من غزوة قبلها
وما لسواك سوى مرتحل
شحت الشواني بالدارعين
فجاءتكم موفرة بالنفل (٦٤)

حملنَ إليك سبابا الذي
طغى فحملن اليه الأجل
ولو لم تصل سابقات الرماح
إليهم كفت سابقات الوهل
ولو لم يمتهم قراغ السيوف
أماهم خوفُها والوجل
ان الحرب الضروس آنذاك قدحت زناد فكر

ابن الدهان الموصلِي ودفعته الى نظم شعر جيد
متين ، وتعدُّ قصيدته اللامية التي قالها إثر هجوم
الافرنج المباغت على معسكر نور الدين ومخيمه
بالبقيعة في ارض فلسطين سنة ٥٥٨ للهجرة من
اجود شعر الحماسة والاستنهاض وأروعه ،
مطلعها (٦٥) :

طُي المواضي وأطراف القنا الذُبُل

ضوامنُ لك ما حازوة من نَقَلٍ
وزاه يُزري بالأعداء ويستين بهم ، ويهدد
قبواتهم ويتوعددهم ، ويصف بأس الجيش
الاسلامي وقوته ، وبسالة المقاتلين واندفاعهم ،
وشجاعة القائد الهام نورالدين وسطوته ، ويتباهى
بوقائعه السابقة التي أذهلت الافرنج وأرعدت
فرائصهم ، وكسرت سيوفهم ، وحطمت رماحهم ،
منها قوله :

كم قد ملكت لهم ملكاً بلا عوض

وحزت من بلد منها بلا بدَلٍ
وكم سقيت العوالي من طلى ملكٍ
وكم قرئت العوافي من قرا بطلٍ
وأسير من وريد النحرٍ موردهُ
وأجدل أكله من لحم منجدلٍ
حصيدُ سيفك قد اعفيتها زمناً

لو لم يطلْ عهده بالسيف لم يطلِ
لانكبت سهمك الأقدارُ عن غرض

ولانت يدك الأيام عن أملٍ
لقد أجاد في هذه القصيدة وأحسن ، وكان موفقاً
في معارضة قصيدة أبي الطيب المتني التي مدح بها
سيف الدولة الحمداني عندما سار الى الموصل لنصرة
اخيه ناصر الدولة لما قصده معز الدولة الدليمي سنة
سبع وثلاثين وثلاثمائة ، وأولها (٦٦) :

أعلى المالك بيني على الأسلِ

والطعن عند محبين كالقُبُلِ
ودارت الأيام ، وتوفى نور الدين محمود بن عماد
الدين زنكي دون تحقيق أمنية المسلمين في تحرير

القدس الشريف، وطرد الغزاة وإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وبرز من بعده المجاهد صلاح الدين يوسف بن أيوب، واتخذ طابع العناد والتصميم على استرجاع الأرض السليبية، وإنهاء الاحتلال البغيض مما كان الثمن غالياً، سواء أكان هذا الثمن بالأرواح أم بالأموال، وكان شاعرنا ابن الدهان من الشعراء النجباء في إبراز بطولات هذا القائد الغيور وبيان صولاته، وإظهار جولاته، ووصف شجاعته في سوح الوغى وساعات النزال ونقل انبائه في قصائد حافلة بالفروسية والتضحية والفداء، ففي إحدى هذه القصائد رسم صورة متكاملة لبطله، مجسدة في إطار فخم، تظهر فيها أسيفه الموشحة بالدماء ورمحه النافذة في كلوم الأعداء وهو واقف كالطود ثابت الجنان يجالد أُناده الفرسان، نقل منها الأبيات الآتية (٦٧) :

وإذا تنمَّرَ قال للأرضي ارجني
بالصاهلات وللجبال تزعزعي
وإذا علا في المجدي أعلى غايةٍ
قالت له الهممُ الجسامُ: ترفعُ
ثبَّتُ الجنانُ إذا القلوبُ تطايرتُ
في الروحِ يعدلُ ألفَ مدبرِ
فضلَ الوري بنضائل لم تنفُ
في غيره ملكاً ولم تتجمع
مأرامَ صعبِ المرتقى مُتباعداً
إلا وكان عليه سهلُ المطلعِ

إن صدى الحرب بارز في شعر ابن الدهان، ولاسيما الذي خصَّ به صلاح الدين وأسرته الميامين، حيث صليل السيوف، وقراع القنا، وصهيل الخيل، وطراد الفرسان، فهو رمز للإباء والشمم، وآية للزعر والشرف، وجندي صادق لنصرة الحق، وحام مدافع عن المغيرين، وما أجمل الصورة في هذين البيتين (٦٨) :

أعدّ لنصرِ الحقِ كلَّ مطهرٍ
يَعُدُّ إلى الأعداءِ فوق مطهرٍ

له شرفُ الإقدام في الحرب شيمَةً

فما يبتغي غير الكمي المقدَّم
ويحذر بنا أن نفق عند شاعر كبير آخر من الموصل له مشاركة طيبة في الشعر الحماسي، هو اسماعيل بن إبراهيم بن محمد المشهور بابن دُنيير (ت ٦٢٧ هـ) إذ نجده يستحث المسلمين ويستنهضهم للآزرة الملك الكامل محمد بن أبي بكر العادل (ت ٦٣٥ هـ) صاحب مصر ونجد والحجاز وهو أول من نُعت بجُند الحرمين (٦٩)، ويطلب منهم الوقوف إلى جانبه في محاربة الإفرنج وإخراجهم من مدينة دمياط التي احتلوها واستباحوا حرمتها (٧٠) :

فشنوا لدين الكفر غاراتٍ معشرٍ
لهم في الهدى فرجٌ زكيٌّ ومعتدٌ
وشبوا لها نازَ الجهادِ فإنكم
مضى تركوها آن للنارِ تحمدُ
فذا الدين ما أرى قواعدَ حقِّه
لدى الناسِ إلا ذابلٌ ومهندُ
فحزبكم حزبُ الإلهِ وإنهم
هم الغالبون الشرك والعودُ أحمدُ
هل الدين ملبوسٌ جميلٌ وشيمَةٌ
ينيلُكها اليوم أو يسمَعُ الغدُ؟
وهل قرَّ من نارِ القتالِ أخو حجِّي
ليبقى وفي نارِ الجحيمِ يخلدُ
أطيعوا مليكاً يشتري الحمد بالندى
ويرقدُ في جفني الردى وهو أريدُ
له عزماتُ الدهر إن همَّ بالعدى
وكالغيثِ يهيم صوبُه وهو مرعدُ
كان هذا الملك غيوراً على ديار المسلمين وحرماثها، وإذا ما نُعت بجُند الحرمين فهو يستحق هذا النعت، لأنه «كان ملكاً جليلاً، حازماً مهيباً، شديد الآراء، حسن التدبير لمملكته، عفيفاً عن سفك الدماء حليماً.. محباً للعلماء ومجالسهم وسماع مناظراتهم... مغرماً بسماع الأحاديث النبوية» (٧١).

وحكمتها في الاعتبار واندفاعها في رد الخصوم متخذين من ويلات هذه الحروب مواضع استشارة ، ومن نتائجها بواعث توثيب ، مؤكدين الدور القيادي لقدرة الأبطال وجهاد المؤمنين وتفضحية المقاتلين لرد الغزاة المعتدين (٧٥) .

لقد استطاع الشعر ان يصور واقع العالم الاسلامي آنذاك وهو يتعرض لأخطر هجمة شرسة من غزاة الغرب وعنائهم الذين أرادوا استعباد العباد والتحكم في رقابهم وطمس معالم حضارتهم وثلم أركان تراثهم .. كما أعطانا هذا الشعر تصورا واضحا عن أولئك النجباء من أبناء الأمة وهم يجاهدون ببسالة واقدام في سوح المعارك لطرد المحتلين الأشرار ، « واذا كانت المعارك الاسلامية الأولى قد روعت المشركين ببلاء المقاتلين ورسعت بدايات شعر العقيدة ، وجددت معالم الطريق للذين استرخصوا الدماء من أجل الوفاء بالمبادئ ، فان غزو الفرنج الذي بدأ منذ نهاية القرن الخامس للهجرة كان بداية جديدة لهذا الضرب الشعري الذي أضاف إلى الأدب العربي في هذه المرحلة والتي تلتها أصواتا جديدة وألوانا فنية أعادت لشعر الحماسة صورته وأفاضت في تلوين روائحه بما نهض به الشعراء وهم يواكبون حملة الدفاع عن أرض العرب بعد أن بدأت أرتال الغزاة تدنس السواحل العربية (٧٦) » .

الفنون الشعرية المستحدثة :

الشعر من أحب الفنون الأدبية على ألسنة الأدياء ، كانوا يدرسونه ويتقنون أوزانه وقوافيه على أساندة فضلاء لهم مؤلفات في قواعده وأصوله مثل كتاب « المعيار لأوزان الأشعار » (٧٧) « لفخر الدين أبي المعالي محمد بن أبي الفرج بن معالي بن بركة الموصلي (ت ٦٢١ هـ) . ولم يكتفوا بنظمه على الأوزان المعروفة التي توارثوها عن السلف ، بل نظموا في قوالب جديدة مستحدثة مثل الرباعي (الدوبيت) وهو من أوزان الشعر وفنونه الجميلة كما يقول الدكتور مصطفى جواد (٧٨) ، ومثالنا في هذا

إن صوت هذا الشاعر وأمثاله من أشراف الأمة ونجائها كان له أثر كبير في نفوس القادة والحاكمين ، إذ هبوا لنجدة الملك الكامل محمد ، وخلصوا دمياطاً من المحتلين وكسروا شوكتهم وطردوهم شرطردة (٧٩) ، وكانت رنة الفرح مثيرة ومؤثرة في خواطر الشعراء ، منهم ابن دنيير ، مثل قوله من قصيدة (٨٠) :

تهلل الدين والدنيا فرحاً
واستبشرت مكة والحجر والحجر
لم تخش يثرب تريباً لقادحة

من بعده إذ سرت في ذكره السور
إن القاري في ديوان ابن دنيير يتنقل بين قصائد كثيرة في الحماسة والاستبسال والدعوة إلى الجهاد ، يخاطب بها ملوك بني أيوب ، من ذلك قصيدة يحرض بها ملك حلب الناصر قليج أرسلان ابن محمد بن عمر (ت ٦٣٥ هـ) ويدعوه إلى نصرة دين الله وتخليص الديار من رجس المعتدين الآتمين (٨١) :

فانهض إلى نصر دين الله في جدل
في جحفل شرق بالخيال ذي زجل
جيش يجيش بأبطال إذا برزوا
قال الردى للعدى موتوا على عجل
من كل أغلب في عرينه شمم
ضخم الدسيعة مُرد غير محتفل
وكل مدرع للصبر مؤتزر

بالجزم ملتحف بالجزم مشتمل
أبناء حرب غدوا فيها ومنشؤهم
بها ولم يحكموا قولاً بلا عجل
وهكذا أوججت هذه الحروب الحمية في نفوس المسلمين « واعطت للشعراء زخماً خصباً لاستلهاهم الجوانب البطولية واستشارة عناصر القوة وتحشيد البواعث الحقيقية التي استحضرت التاريخ بكل مفرداته ولستوعبت الوقائع الحربية بكل أمجادها لتوثب حالة حيّة وصوتاً شعرياً دافقاً ولوحة فروسية ناطقة بكل ما يعيد الى الأمة قدرتها في المواجهة

المقام قول أبي محمد عبد الله بن القاسم بن المظفر
المعروف بالمرتضى الشهرزوري (ت ٥١١ هـ) :

يا قلبُ إلامَ لا يفيدُ النصحُ
دع مزحك كم جنى عليك المزحُ
ما جارحةُ فيك عداها جرحُ
ما تشعرُ بالخارِ حتى تصحو^(٧٩)
وقول المكين بن الأقفاصي الموصلي (ت ٥٤٣ هـ) :

يا صاحٍ أما ترى المطايا تُحدي
والبين يُصيرُ التداني بُعدا
من يسعدني إذا تولت سعدى
هيات نأت وخلفتني فردا^(٨٠)
وقول كمال الدين موسى بن يونس بن محمد بن
منعة (ت ٦٣٩ هـ) :

حتى متى وعدكم لي زورُ
مطل وافٍ ونائلٌ منزورُ
في قلبي حبٌ حبكم مبدورُ
زوروا فقسى بشرو صلاً زورُ^(٨١)

ونجدهم استخدموا الموشح ، واجادوا فيه إما
اجادة ، وتغنوا في صوره ، وصاروا يعنون به في
مجالسهم ومحافلهم ، ولهم فضل السبق في نظمه
واشاعته في العراق. ويُعدُّ أبو الفرج عبد الله بن
اسعد المعروف بابن الدهان الموصلي رائدهم ، قال
محقق ديوانه : « هو اول شاعر مشرقى عراقي نظم
الموشحات حسب استقرائنا للشعر العربي في المشرق ،
وحسب ماتوصل اليه البحث^(٨٢) » وقال باحث
آخر : « استقرأنا طريق وصول الموشح الى العراق
وكان ابن الدهان الموصلي اول وشاح عراقي »^(٨٣) .
ان قدرة ابن الدهان الموصلي في التعبير عن
مكونن نفسه بالموشحات الى جانب القصيد دليل
على الذكاء والقطنة والمهارة والتمكن من اللغة
والوقوف على الموروث الادبي في شرق الوطن العربي
وغربه ، فضلاً عن الذوق السليم المرفه^(٨٤) ، قال
في مطلع احدى الموشحتين المثبتين في ديوانه^(٨٥) :

الذنبُ ذنب طرفي
في الحبِّ إذ رنا
فكم أخذت قلبي
ظلماً وما جنى
نام في خفاء جسم
في البرد ناحل
لم يبق غير رسم
تحت الغلائل
ودمع عيني يهمني
يهدي عواذلي
والموشحة الثانية مطلعها^(٨٦) :
النور نور ابتسام
فانظر الى زهراته
اذا دموع الغواني
جرت على روضاته
وقد يغني الحمام
بالفصح من نغماته .
طيرٌ يهدلُ
وغيبٌ يهطلُ
واجاد ابو الفتح عثمان بن عيسى بن منصور
البطلي الموصلي (ت ٥٩٩ هـ) في نظم
الموشحات ،^(٨٧) وقد وصلت إلينا واحدة منها ،
وهي سهلة المعاني . رقيقة الاسلوب ، محبة
الموسيقى ، مدح بها الكاتب المشهور القاضي الفاضل
(ت ٥٩٦ هـ) ، قال عنها العماد الاصبهاني :
« موشحة موشعة ، مستملحة مبدعة ، سلك بها
طريق المغارب ، واتى فيها بالبدايع
والغرائب »^(٨٨) ، وناها على سبعة اقفال ، أولها :
ويلاه من رواج يجوره يقضي
ظلي بني يرداذ منه الجفاحطي
قـد زاد وسواسي
مـد زاد في التـيـه
لم يلق في الناس

مأناً لاقية
من قيس قاسي
بالهجر يُغريه
أروم ايناسي
به ويثنيه

وأدلى ابن زيلاق الموصلي (ت ٦٦٠هـ) دلوه
مع الشعراء الذين نظموا الموشحات التي راج
سوقها آنذاك، وإلى القارئ الكريم جزءاً من
موشحة له تسم بالنسجم الكلمات وانسياب المعاني
من خلال إيقاعها اللطيف: (٨٩)

حُتَّ شمس الكؤوس يابدرُ
فالسندامى نجوم
واسقنيها كأنها تبرُ
من بنات الكروم

ضحكت في ثغورها الزهر
ببكاء الغيوم
وتغنت بأطيب اللحن
صادحات الشجر

ناطقات بألسن عجم
طاب شربُ السحر
حُثَّها بيننا رشاً وسان
نلتُ منه الأمان

ناعسُ الطرف بابلي الاجفان
باسمُ عن جمان
قد سكرنا من لحظه الفتان
قبل خمر الدنان

ربُّ خمرٍ شربتُ من جفن
واجتنيتُ الزهر
من خدود تحمى عن اللثم
بسيوفِ الحوَر

ويعد شهاب الدين محمد بن يوسف بن
مسعود الشيباني التلعفري (ت ٦٧٥هـ) من كبار
الشعراء في القرن السابع للهجرة، وكانت له شهرة

واسعة في حسن النظم ورقة الاسلوب، روى ابن
حجة الحموي ان الاديب نورالدين علي بن سعيد
الاندلسي (ت ٦٨٥هـ) حينما ورد الى الشام
اجتمع بالشاعر بهاء الدين زهير (ت ٦٥٦هـ)
وسأله ان يوجهه الى طريقة يتعلم بها نظم الشعر
الغرامي، فقال له: «طالع ديواني الحاجري
والتلعفري، وأكثر المطالعة فيها، وراجعني بعد
ذلك، فغاب عنه مدة، وأكثر من مطالعة
الديوانين، الى أن حفظ غالبها، ثم اجتمعا بعد
ذلك، وتذكرا في الغراميات» (٩٠)، وهذا ما يؤكد
ان شعر التلعفري قد راج سوقه، وكثر طالبوه،
وارتاد الدارسون مناهله، ونورد هنا مقطعاً من
موشحة له (٩١):

ليس يروى مايقلي من ظا
غير برق لائح من اضم
إن تبدي لك بأن الاجرع
وأثيلات النقا من لعل
ياخليلي قف على الدار معي
وتأمل كم بها من مصرع
واحترز واحذر فأحداق الدمي

كم أراقتُ في رباها من دم
وهكذا كان شهاب الدين التلعفري، يمتلك
قدرة جيدة في التعبير عن مشاعره وأحاسيسه،
وقابلية عالية في توفير الموسيقى العذبة لشعره المتأنية
من الملاءمة بين الالفاظ من جهة وحروف الالفاظ
من جهة اخرى الى جانب المواءمة بين الالفاظ
والمعاني سواء أكان ذلك في القصيد ام الموشح
بحيث تستهوي القارئ وتبعده عن السأم الذي
يلاقيه في الشعر الذي اصابه العقم وضмор
العواطف وخمود المشاعر .

ومن الشعراء المشهورين في هذه الحقبة شهاب
الدين احمد بن حسن بن علي الموصلي
(ت ٧١٠هـ)، صاحب الموشحات البديعة والنظم

الرائق. مثل قوله في مدح الملك المنصور محمد بن محمود بن عمر الايوبي (ت ٦٨٣ هـ) صاحب حجة؛ (٩٢)

باسم عن لآل ، ناسمٌ عن عطر
نافرٌ كالغزال ، سافرٌ كالبلد
اي ظبي ربيب
لي فيه أرتب
ذو رضاب ضريب
للطلا والضرِب
ياله من حبيب
صاحلي عن حبيب
باخلي بالوصال ، سامح بالهجر

لي أبقي الخيال ، حين أفنى صبري
ويسترسل على هذا النج الجميل ، والايقاع
المحب ، والاسلوب المشرق الجذاب في موشحته
التي راقت الكثيرين واعجبهم ودفعتهم الى
معارضتها ، (٩٣) وله موشحة اخرى لطيفة المعنى
اولها: (٩٤)

لي رشأ عندما رنا وسرى
باللحظ للعاشقين إذ أسرا قيد
بما بأجفانه من الوطف
وما بأعطافه من الهيف
وما بأردافه من الترف
ذا الأسمر اللدن رقتي سمر
وفي فؤادي من قدّه سمر أملد
وعارضها الشاعر المشهور محمد بن دانيال
الموصلي (ت ٧١٠ هـ) بموشحة بدعية تتجلى فيها
الاجادة والقدرة على المحاكاة ، اولها: (٩٥)

غصنٌ من البانٍ مشر قرا
يكاد من لبنه اذا خطرا يُعقد
أسمر مثل القناة معتدل
ولحظه كالسنانٍ منصفل
نشوانٌ من خمرة الصبا ثمل
عريدٌ سكرًا عليّ إذ خطرا
كذلك في الناس كلٌ من سكرًا عريد

وهكذا شارك الشعراء بهذا الفن الجميل ، واغطوه قيمة كبيرة ، وهللوا له بعد انتقاله من الاندلس ، واقتوا صياغته ، واتخذوه درياً مبعداً لاغراض الشعر ولاسيا الغزل والمديح.

وتجدر الاشارة الى ان الشعراء لم يكونوا راغبين بالفنون الشعبية المنظومة بالعامية كالزجل ، والمولاي ، والكان وكان ، والقوما... وما ظهر منها عند بعض الشعراء مثل حسام الدين الحاجري الاريلي (ت ٦٣٢ هـ) الذي كان يتردد بكثرة على الموصل لايشكل ظاهرة بارزة في ساحة النظم آنذاك.

الفنون الشعرية التقليدية :

كان الشعر- وهو ديوان العرب- المرأة الصادقة التي انعكست عليها صور الحياة واحداثها ، والسجل الامين الذي قيدت فيه افكار الناس وآراؤهم واخيلتهم ومشاعرهم ، وقد توزع على اغراض كثيرة ، إذ يجد القارئ المديح والهجاء والثناء والغزل والخمريات والاخوانيات والوصف والزهد والشكوى والعتاب الى جانب الشعر التهذيبي والتعليمي..

والمديح في مقدمة الاغراض الشعرية التي اتخذها الشعراء درياً لصعود المجد ، ووسيلة للتقرب من الاسياد والحظوة لديهم ، فهذا ضياء الدين أبو طاهر زيد بن محمد الحسيني نقيب العلويين بالموصل يدخل على الوزير جمال الدين الجواد وينشده ابياتاً من نظمه منها: (٩٦)

قدمٌ لابتناء المجد والجود والتقى
مدى الدهر مازينتُ سماءً بأنجم
فإنك فذ في الزمان وإن غدت

أياديك ترى بين فذٍ وتوأم
فهو يدعوله بدوام العمر كي يبقى البلد عامراً
رخياً تحت ظل جوده وعدله وتقواه. وقد جعله كمال

الدين موسى بن يونس بن محمد بن منعة عظيمًا من
العطاء تنزين الدنيا به وتشترّف، ويدعو له ايضاً
بالبقاء الطويل والعمر المديد نافذ السلطة مشكور
السعي منصف الحكم: (٩٧)

لئن شُرُفَتْ أرض بمالك رَقها
فمملكة الدنيا بكم تشرّف
بقيت بقاء الدهر أَمرك نافذ

وسعيك مشكور وحكمك منصف
ان هذا الممدوح حظي بثناء الكثيرين لأنه كما
قال العماد الاصبهاني: « منبع الجود، ومقصد
الوفود، والبحر المورود، ومعدن الافصال، وقبلة
الاقبال، وكعبة الآمال، وكهف الملهوفين، وموئل
المعتفين، وثمان المستضعفين، الذي لم يسمع له
يقرن في القرون الماضية، ولم يسمح الزمان له بمثل
في العصور الخالية، ذي الآلاء المتألثة المتوالي،
مستعبد الاحرار باحسانه الغمر، ومطوَّق الاعناق
اطواق البر، الجامع بين كسب الحمد والأجر» (٩٨)
وبعد هذا الثناء أورد ثلاث قصائد في مدحه سماها
«الجاليات» للشاعر أبي عبدالله محمد بن نصر
القيصري، ذكر في إحداها شجاعته ورسالته
وجهاده مع عباد الدين زنكي في محاربة الإفرنج
الغادرين ومهنته بفتح مدينة الرها سنة تسع وثلاثين
 وخمسة مائة ويشره بقرب فتح القدس وتخليصها من
أيدي الجناة المحتلين، مطلعها (٩٩):

أما آن أن يزهرق الباطلُ
وأن ينجز العدة الماطلُ
ومنها:
وجاهد في الله حقّ الجها
د محتسب بالعلی قافلُ
يجيش إذا أمّ وزد الثغور
يرؤى به الأسلُ الناهلُ
إذا شمّر البأس عن ساقه
مضى وهو في نغمه رافلُ
فإن بك فتح الرها لجّة
فساحلها القدس والساحلُ

فهل علمت علم تلك الدنيا
ر أنّ المقيم بها راحلُ

وتوارد الشعراء على بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله
ونخصوه بمدائحهم ووجدوا عنده قبولاً حسناً ومقاماً
محموداً وكرماً كثيراً حتى أن الشاعر أبا محمد عبد
العزيز بن منصور الموصلی المعروف بابن القُتُمي
حمد الله وشكره في افتتاح قصيدة له على زوال
الخوف من العوز والفاقة بعد لقائه (١٠٠):

الحمد لله زال الخوف والحذرُ
وأقبلت نحوك الآمالُ تبتدُرُ
يا أصوب الناس آراء وأرهفهم
عزماً وأوسعهم عفواً إذا قدرُوا
ومن المدائح الجيدة في بدر الدين لؤلؤ قصيدة
عبد الرحمن بن عبد الله بن علي التميمي المعروف
بالصقيل (ت ٦٣٢ هـ)، جاء فيها (١٠١):
وغدت مكارمك الحسا

ن على بني الآمال تشرى
يسر حيث شئت فإن
رب العالمين حباك نصرا
واجعل أعاديك الطغا
ة لديك في الأصفاة أصرى
يا كافل الأيتام عن
آبائهم جوزيت أجرا
ومدحه أبو طاهر محمد بن حيدر بن محمد
الحسيني العلوي الموصلی (٦٤١ هـ) وهناه بشهر
رجب (١٠٢):

يا مالكا جلّ قدراً واعتلى شرفاً
فقات بالجِد سيقاً سائر الأمم
ونخصه الله بالفضل الذي اعترف
به ملوك جميع العرب والعجم
أنت الذي جادني من فيض راحته
سحب بها عُدت في أمر من العدم
لك الهناء بشهر جاء يشفعه
بشراكم بدوام العز والنعم



ونخصّ كثير من الشعراء مدائحهم بالعلماء والأدباء الذين قدّموا خدمة للغة العربية وآدابها ، من ذلك قول سعيد بن المبارك بن علي النحوي المعروف بابن الدهان في مدح العلامة أبي اليُمْن زيد بن الحسن الكندي (ت ٦١٣ هـ) وكان بارعاً في اللغة والنحو والأدب (١٠٣) :

يازيد زادك ربي من مواهبه
نُعْمَى يُقَصِّرُ عَنْ ادراكها الأملُ
لا يَدَلَّ اللَّهُ حالاً قد حباك بها
مدار بين النحاة الحال والبذلُ
النحو أنت أحقّ العالمين به
أليس باسمك فيه يضرب المثلُ
ومال عدد من الشعراء في مدائحهم الى المصحابة والصالحين من رجال الأمة الاسلامية الذين أفنوا حياتهم في خدمة الدين الخفيف واصلاح الناس وتقويمهم واسداء النصيح لهم ، فزرى مثلاً محيي الدين أبا حامد محمد بن محيي الشهرزوري (ت ٦٧٣ هـ) ينظم قصيدة طويلة في الصحابة الكرام (١٠٤) ، ويأتي عبد الكريم بن منصور الأثري الموصلي (ت ٦٥١ هـ) وهو من أهل الخير والورع بقصيدة في مدح الأئمة الكبار ، مثل قوله في الامام مالك بن أنس (١٠٥) :

أما الإمام الأصمعي مالكٌ
فحبّه للقلب أمسى مالكا

فقيه دارِ الهجرة المفتي بها
ناهيك عن فخرٍ له بذالك
نجم الرواة ذو الوقار لا تری
في مجلس العلم لديه ضاحكا
ومن القصيدة نفسها في الامام محمد بن إدريس الشافعي :

والشافعي لست أنسى ذكره
ألقي لمديحه خليلي بالكا
ذاك الشريف العالم الحبر الذي
مع العلوم كان برّاً ناسكا
حوى التقى والعلم غير زائع
عن سنّة المختارِ فاعلم ذالك

وارتفع شعراء آخرون إلى مدح الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم والتوسل لديه والتعلق به أن يزيل عنهم الأحزان الجاثمة ويرد الأمن والدعة إلى نفوسهم الهائمة ويلج بهم أبواب الرحمة الواسعة الى ساحات الرضا السرمدي والراحة الخالدة ، ومثال على ذلك نأخذ الأبيات الآتية من قصيدة لمحمد بن دانيال الموصلي (١٠٦) :

على أنني والحمد لله آيلٌ
شفاعة خير المرسلين محمد
نبيّ براه الله مشكاة نوره
فلاح فلاح هادياً منه مهتدي
ومن شرفي أني شرفت بمدحه
وأطربت بالإنشاد كل مغرّد
عليه صلاة الله مالاخ بارق
وهبت صبا نجد ببرقه نهمد
ونلق الى جوار المديح هجاء ، ولكنه لا يرقى إلى مستواه ، وهو قليل لم يهبط الشعراء به إلى مستوى الفحش والبذاءة والسب الرخيص المتبدل وإن كان بعضهم مرهوفين الشبابة مثل نباتة الأعور الموصلي (١٠٧) ، والبديهي الموصلي (١٠٨) ، وأبي العباس أحمد بن عيسى القموزي (١٠٩) ، وعمر بن محمد بن علي المعروف بابن الشحنة الموصلي (١١٠) ، وأبي منصور عبد الواحد بن ابراهيم المعروف بابن الفقيه الموصلي (ت ٦٣٦ هـ) الذي هجا قاضي القضاة حين وقع على حكم لم يكن على مراده وهواه (١١١) :

ياخذ مالي بغبير حق
ومثل ذا الظلم ليس يهمل
إن دأماً قاضي القضاة هذا
وليس يُنحى وليس يُعزل
فظلمه الظلم ما تجلّت
والجور بالعدل ما تبدّل
والغزل من الموضوعات الشعرية الجميلة المحبة إلى النفس ، يصور أشواق المحبين ولواعجهم ، وقد

وبعد أبو الحسن علي بن مُسهر الموصلي (ت ٥٤٣ هـ) من الأدباء المفيديين والشعراء المجيديين^(١١٤)، له أبيات مستحبة في رحيل المحبوبة، وكيف نمت الدموع على الهوى والضلوع على الجوى، وكيف أثارت الحمايم شجونه عشية توديعها^(١١٥):

إذا ما لسانُ الدمعِ نَمَّ على الهوى

فليس يسرُّ ما الضلوعُ أَجَنَّتْ
فوالله ما أدري عشيةً ودَعَتْ
أناحتُ حماماتُ اللوى أم تغتَبِ
وذكرُ الحمايم والتجاوب مع أصواتها الشجية
كثيرة عند الشعراء، ولاسيما التميميين بمحبياتهم
والمغتربين عن أهلهم وأوطانهم، ويبدو أن ابن مسهر
الموصلي مغرم بشدوهم، حيث يذكرهن في بيتين
يشبه فيها حاله وما يعاني في شرح شبابه من شوق
وحنين وألم إلى ذوات القدود الملاح، بالحمايم
الناديات شجوهن على أليفاتهن^(١١٦):

أنا والحمايم حيث تندبُ شجوها
فوق الأرائك سُحرةً سيَّانِ
فأنا المعنى بالقدود أُمالها
شرحُ الشبابِ وهنُّ بالأغصانِ
ومن الشعراء الذين سعدوا ببيكاء الحمايم مهذب
الدين أبو المعالي محمد بن أبي الحسن بن يُعْن
الأنصاري المعروف بابن الأردخل الموصلي (ت ٦٢٨ هـ):

ولقد رأيتُ على الأرائك حمامةً
تبكي فتسعدني على أحزاني
تبكي على غصنٍ وأندبُ قامةً
فجميعنا يبكي على الأغصانِ
صرخُ الزمان وحيداً فعتلتُ
من بعده بالنوح والأحزانِ

تخشى من الأوتار وهي مروعةٌ
منها فلمْ غنَّتْ على العبدانِ^(١١٧)
وتجدر الإشارة إلى أن ابن الأردخل كان شاعراً

خصص الشعراء الموصليون له جزءاً كبيراً من نظمهم، وهو في جملته خفيف الظل عفيف الأردن لم ينزلق إلى مهاوي الرذيلة، من ذلك قول الشيخ مزركة الموصلي (ت ٥٥٠ هـ) في قصيدة تتسم بجمال الالفاظ وبساطة التعابير والصدق العاطفي^(١١٢):

يا عَزَّ أَيْنَ من الجفونِ رقادي

ولهبِ نارِ الشوقِ حشُو وسادي
كم يعذلوني في هوائِكِ عدمتِهمْ
إنَّ العواذِلَ فيكِ من حَسَّادي
إن القارئ لهُذين البيتين يحس بلغة الوجدان، إذ يرى الشاعر يشكو من جفوة الرقاد، وضرام لهيب الشوق والوجد في حشو الوساد، وسهام اللؤام والعواذِل تنوشه بغضاً وحسداً لتولعه بالحبيبة وولعه بها، والقصيدة طويلة يقول في آخرها:

إني بدون الطيفِ منك لقائُ
ولو أنَّ طيفكِ مخلفٌ ميعادي
قالتُ، وقد رأيتُ المشيبَ لِمَني
والليلُ فاجأهُ صباحُ يادي
قدُمُ لنفسكِ ما تُسرُّ به غداً
فالمرءُ يطرق راتِح أو غادِ
فأجبتها إني تمسكتُ التقي
حبُّ الوصي، فنعَم عقي الزادِ

إن ذكر الطيف، طيف المحبوبة، وطروقه بين الحين والآخر، والاستئناس به، والاطمئنان إليه، والتسلي بحدثه ذي الشجون، ليس بغريب علينا، فطالما سمعناه من شعرائنا القدامى، ولاسيما البحترى، وقد أحصى الشريف المرتضى ألوانه ونصراً عليها في كتابه «طيف الخيال»، ولكن الجديد في أبيات شاعرنا أن المحبوبة التي سرت إليه في ليله البهيم على بعد الدار وشحط المزار، ورأته وقد اشتعل رأسه شيباً، نصحته بالكف عن الغواني الملاح، والوجوه الصباح، وطلبت منه التوجه إلى التقوى والصلاح، قبل أن يمجن يوم الرحيل الذي لا ينعف فيه ندم وعويل^(١١٣).

مجيذاً، طويل النفس، ترك ديواناً كبيراً حفظته الأيام من الضياع، والغزل غالب عليه (١١٨).

ومن الشعراء الغزليين المجيدين أحمد بن غزي الموصلي (ت ٦٥١ هـ)، ذكره المنشيء الأربلي وقال: «شاعر مجيد، وأدب ما عليه مزيد، له شعر أنضر من زهر الرياض، وأعمل في الخواطر من رشتي العيون المراض، قد أفرغ في قالب الإحسان، وحل من كل قلب بمكان، فما الدر في انتظامه، أزهى من در كلامه، ولا السحر الحلال أوقع في النفوس من نثره ونظامه، له خط مثل الجمان، زانه النظام، والزهر جاده الغمام» (١١٩)، وقد نعت نفسه بإمام العاشقين (١٢٠):

فأنا إمام العاشقين وشاهدي

أني أبيت من الكرى معصوماً
ويعدُّ نفسه أيضاً خبيراً بالهوى والغرام (١٢١):

سل بالهوى مني خبيراً بالهوى

ينيلك عنه، وعنده أخباره
بالعشي يُمتحن الرجال فواحد

صاف وأخضر جمّة أكداره
وأرى الهوى بجرأ بعيداً للجه

صعب الركوب كثيرة أخطاره
وأشاد المنشيء الأربلي أيضاً بشرف الدين

أحمد بن محمد بن الخلاوي الموصلي (ت ٦٥٦ هـ)، وقال عنه: «الشاعر الموصلي الشاب الحسن، شاعر برز في حلبة الآداب،

ورمى أغراض البيان فأصاب، ودعا حسن المعاني فأجاب، له شعر أحسن من نظم العقود، وأرق

من حلب العقود، بخاطر أمضى من السيف الصقيل، وذهن أجري من السيل في صيب

المسيل، وبديهة حاضرة تكاد تسبق لمع البرق، وتصوب صوب الودق، رأته - رحمه الله - وهو

شاب حسن حلو الحديث، عذب الكلام، دمث الأخلاق، كثير النادرة» (١٢٢)، ومن شعره اللطيف قوله (١٢٣):

رخيمة الدل إذا ما نطقت

سباك من ألفاظها رخيماً

ماخطر برامة ولا رنت
إلا وغار غصنها وربمها

لو غل من رضاها عليها
أبل من سقامه سقيمها

غانية في ثغرها جواهر
منشورها أشبه منظومها

لم أنس إذ جلّت على عشاقها
مدامة تجلى بها همومها

في روضة ألبسها صوب الحيا
مطارفاً موشية رقومها

إن شعر الغزل كثير جداً، وهو في جملة عفيف لطيف، يمتع ظريف، لا يبو السمع عنه ولا يمله،

ولا يمكن استيعابه جميعاً في هذا المكان وإيراد نصوصه، وحسب القارئ من شعرائه: اسماعيل

ابن إبراهيم بن صدقة المعروف بابن طيبة الخباز (١٢٤) (٦٠٦ هـ)، وظهير الدين أبو اسحاق

إبراهيم بن نصر الموصلي (١٢٥) (ت ٦١٠ هـ)، وأبو محمد علي بن محمود بن علي بن علوان بن

خليفة الأنصاري (١٢٦) (ت ٦١١ هـ)، وأبو محمد عبد الرحمن بن أحمد الكتاني المعروف بابن

الموصلي (١٢٧) (ت ٦٢٦ هـ)، وأبو عبد الله محمد ابن أبي النجى منصور بن ديس بن أحمد بن درع بن

أحمد المعروف بابن الحداد الموصلي (١٢٨) (ت ٦٢٦ هـ)، وكمال الدين أبو العباس أحمد بن علي

ابن أبي المكارم الموصلي (١٢٩) (ت ٦٩٠ هـ)، وعبد الدين أبو الفتوح عبد الرحمن بن عبد الدائم

البُلْدَجِي (١٣٠) (ت ٧٠٦ هـ).... ومن باب الاستئناس بشعر الغزل نورد مقالته المنشيء الأربلي

عن أحد الشعراء المعاصرين له: «أنشدني أمين الدين عبد الرحمن بن علي الموصلي، وقد أجاد

ماشاء أن يزيد، ولم يبق زيادة لمستزيد: هويتها طفلة، دقت محاسنها

فطرقتها نرجس، والخذ تفاح
يتيم الدهر، نُثِر الدر من فمها

والعقد في جيدها والوجه مصباح» (١٣١) وأخذت الخمرة ووصفها نصيباً كبيراً في شعر

الموصلين ، وهي - في الغالب - تأتي مقترنة بالغزل ،
فهذا ابن مسهر الموصل يقول (١٣٢) :

اسقنيها بنت دسكرة
وهي أم حين تَنْتَسِبُ (١٣٣)
خندرسٌ دون مدتها
جاءت الأزمان والحقبُ
طافَ يجلوها لنا رشاً
قَصُرَتْ عن لحظة القُصْبِ
أوقدتها نارٌ وجنته
فهي في كفيهِ تلتبُّ
ولها من ذاتها طربُ

فلهذا يرقصُ الحبُّ
ونجد مثل هذه الدعوة عند الشاعر أبي منصور
عبد الواحد بن ابراهيم بن الحسين المعروف بابن
الفقيه الموصل (ت ٦٣٦ هـ) ، الذي وصف
الساقى فقال : (١٣٤)

قم عاطني من شمولِ الراح شمسَ ضحى
من كفى بدر الدجى حلو شمائله
مورّد الخدِ ، داجي القرع فاحمه
عبل الروادف ، واهي الخصر خامله
يسلُّ من بين جفنيه لسفكٍ دمي
مهنداً فوق خديه حائله
ما سحرُ هاروت إلا من لوحظه
يسي القلوب وفي الأجفان بابله
ويقول علم الدين الشافعي الموصل (١٣٥) :

الروض قد وافستك ازهاره
والدوخ قد غنتك أطياره
فباكر القهوة من قبل أن
يغتالك الدهر وأقداره

وكان ابن دنيير الموصل من شاربها ، قال ابن
الشعار الموصل : « رأيت غير مرة ، كان شكله أشقر
مشرباً بجمرة ، مقرون الحاجبين ، جميل الصورة ،
يتهاون بالصلاة ، ويصرُّ على شرب الخمرة (١٣٦) » ،
مثل قوله (١٣٧) :

فاشرب من الراح من حمراء صافية
تخال بالمرج في كاساتها صرماً

من قهوة لم تزل موجودة قدماً
قبل الزمان وقد كان الوري عدماً
من كفى أعيد ممشوق القوام غدت
تحكيه خدّاً ورقاً طيباً وفا

ومن الشعراء الذين تغنوا بذكر الخمرة ووصفوا
مجالسها وسقاتها وأثرها في نفوسهم وديبها في
أبدانهم محمود بن سليمان بن سعد المحتسب (١٣٨)
(ت ٥٩٨ هـ) ، وشهاب الدين محمد بن يوسف
التلعفري (١٣٩) (ت ٦٧٥ هـ) ، وعلم الدين أبو
محمد سليمان بن محمد بن عرفة (١٤٠) (ت ٧٠٣ هـ) ،
ومحمد بن حياك الله الموصل (١٤١) (ت ٧١٤ هـ)

وكثيراً ما يأتي مع شعر الخمرة وصف الطبيعة
التي تتميز بها أم الربيعين مثل قول ابن زيلاق
الموصل (١٤٢) :

ألسْتُ ترى أرضَ الحمي حلها الحيا
فحلّى زباها بالنبات وزينا
جلاها على أبصارنا فأنجلت لنا
وقد كسيت زهر الرياض ملونا
معاني من نظم الربيع دقيقة
يرى فضل هذا الفصل فيهن بيتاً
حلا العيش فيها فاملاً الكأس مرة
يطوفُ بها مستعذبُ اللفظ والجنى

وكان ابن زيلاق كثير التردد على ديار الشام
ولاسياً دمشق ، إذ نجد له وصفاً لهذه المدينة ، وبيان
جمالها ومحاسنها وأطياب أجوائها في قصيدة لطيفة نذكر
منها الأبيات الآتية (١٤٣) :

أتى التفت فجدولٌ مسلسلٌ
أوجنةٌ مرضيةٌ أوجوسقُ
يبدو لطفك حيث مال حديقته
غناء نور السور منها يشرقُ
يشدو الحمام بدوحها فكأتما
في كل عود منه عودٌ مورقُ

واذا رأيت الغصن تُرقصه الصبا

طرباً رأيت الماء وهو يصفق
فهو يراها جنة وارفة الظلال ، تنساب
خلالها الجدول ، وتبع في ربوعها فوائح الأزهار ،
وتشدو على أفنان أشجارها الأطيار ، وقد أبدع في
تصوير منظر الغصن الرافض تدغده ريح الصبا
وتصفيق الماء المنساب بجزيره الساحر .

وجاءت أوصاف الرياض والأزهار والأثمار والأطيار
زاهية في شعر الشعراء ، تنقل منها اللوحة البديعة الآتية
للشاعر أبي حفص عمر بن شماس بن هبة الله
الخزرجي (ت ٦٠٠ هـ) في وصف ورد
النيلوفر^(١٤٤) :

ونيلوفرٍ مثل النجوم ببركة

كلون السماء وهي من خصر عذب
يميل مع الشمس المنيرة مثلاً
تميل عيون العاشقين مع الحب
فإن هي غابت نكس الرأس وحشة

لها وانكساراً فعلة الصب الدنف
وكان للشعراء الموصليين نصيب طيب في شعر
الرثاء ، وهو باصطلاح أهل اللغة بكاء الميت ، وتعداد
حسناته ، وتمجيد صفاته ، وتخليد مناقبه ، ولعل أكثر
ماثير الانتباه في هذا الفن الحزين ، المراثي الشجية
التي قبلت في العلماء البارزين الذين أفنوا زهرة حياتهم
في تهذيب النفوس وتنوير العقول ، من ذلك قصيدة
ابن الدهان الموصلي في رثاء شيخه العالم الجليل شهاب
الدين بن أبي عصرون (ت ٥٨٥ هـ) التي تمتاز
بالعاطفة الصادقة والشعور العميق بالحزن ، ومن أجمل
ما جاء فيها قوله^(١٤٥) :

أذكى بقلبي ناراً لاخمود لها

قول النعاق شهاب الدين قد خمدنا
فالعين بعدك عين والفؤاد لظي
نارٌ فلا رقأت دمعاً ولا برّدا

لن أنبي دموعي بعد فرقته
والدهر لم يبق لي بعده جلدا
لحي على طيب عيشي قد نعمت به
في مريع ناضر في ظله نقدا

ومن جيد الشعر في رثاء العلماء وأشجاء وأشده
تأثيراً وإثارة قصيدة عبي الدين أبي حامد محمد بن
محمد بن عبد الله الشهرزوري في رثاء أبيه الذي
توفي سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة «وهي أمثلة
حسنة للمنهج القديم في المراثي من ضرب للأمثال
بالأمم السالفة ثم النظر في الحياة والقدر»^(١٤٦) ،
وهي طويلة منها قوله^(١٤٧) :

لقد عظمت بالرغم فيك مصيبي

وإن ثواني لو صبرت لأعظم
وكيف أرجي الصبر القلب تابع
لأمر الأسى فيما يقول ويحكم
وما الصبر إلا طاعة غير أنه

على مثل رزقي فيك وزر ومائتم

ونجد عند بعض الشعراء رثاء لآل بيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، منهم الشيخ مركزة الموصلي
الذي أشاد بفضائلهم ومناقبهم من خلال قصائده
الرثائية ، ونكتني هنا بقصيدته السنية ذات الجرس
الموسيقي المحب والبحر الخفيف الذي فضله كثير
من الشعراء في أظهار الأسى والصبابة والوجد ، قال
في مطلعها^(١٤٨) :

أي أجبر للدمع والأنفاس

ووقوفي بالأربع الأدراس
وارتياحي إلى الغزال وقدا

رس منه الردى أشد مراسي
استهلال لطيف أملاه حب دفين لآل البيت ،
فهو يتساءل بلغة الاستغراب عن جدوى ذرف
الدموع وإطلاق الآهات والحسرات بين ربوع
دوارة وأطلال خوالي ، أو الجري وراء ظبي غرير .
يتنقل بعده إلى إبراز مكانة هذه الأسرة في خدمة
الدين ، ومواقفها البطولية من أجل الحق والعدل .
والى جانب رثاء الأحباب والاصحاب
والخيرين من الناس نجد رثاء للمدن المضروبة من
الأعداء ، فهذا شاعر من الموصل اسمه أبو العباس
أحمد بن المبارك (ت ٦٦٤ هـ) يبكي على
ما أصاب إربل سنة ٦٣٣ للهجرة بعد غزو التتر لها ،

ويبدو أنه كان يتوقع النازلة المفجعة على الموصل وغيرها من المدن الإسلامية العامرة (١٤٩) :

ورزايا أصابت الدهر حتى
هدمت منه كل حصن منيع
ومصاب ذُلَّتْ به ملة الإسلام
من بعد عزها المجموع
وانتهك حرمة الشرع بالمنكر
من خفض قدرة المرفوع
حين أضحى معالم العلم قفراً
آفلات الأقمار بعد الطلوع

وإذا كان في المنية فراقاً لعودة بعده ، وهو ما يبعث
أشد الحزن وأقسى الألم ، فإن السفر عن الأوطان
والنأي عن الأهل والخلان يُدخل في النفس
حسرات وآهات حارة قد لا يصبر عليها الكثيرون
ولاسيما إذا كان المفارق عزيزاً على القلب ، مثل
قول عز الدين عبدالرزاق بن رزق الله بن أبي بكر
(ت ٦٦١ هـ) وهو ينقل لنا حالة زوجته وطفلها
الصغير وما يلاقيان من كرب إذا ما عزم على
الارتحال عنها والرواح إلى مكان بعيد : (١٥٠)

تقول عرسي ولي أضعاف ما وجدت
يوم الفراق ودمع العين ينحدر
ترك ابنك إبراهيم منفرداً
طفلاً وتوتمه طفلاً وتصطبّر
فكدت أصغي إليها ثم راجعتي
رشدي وناشدتها بيتاً له خطر
ليس ارتحالكَ ترتاد العلى سقراً
بل القنم علي ضيم هو السفر
ومن جميل ماورد في هذا المجال قول أبي
الفضائل القاسم بن يحيى بن عبدالله
الشهرزوري (٥١) (ت ٥٩٩ هـ) :

في كل يوم يُرى للبين آثارُ
وماله في الثمام الشمّلِ إنبارُ
يسطو علينا بتفريق فواعجياً
هل كان للبين فيما بيننا ثأرُ؟

ووصل إلينا شعر في الحنين والاشتياق ولاسيما
إلى الديار الحجازية والمواقع التي تؤدي فيها مناسك
الحج مثل قول أبي الثناء محمود بن أبي منصور
اللبان الموصل (ت ٦٠٥ هـ) ، وكان يبيع اللبن في
دكان خاص له بالموصل : (١٥٢)

بالله إن جثت المحضّب من منى
ونثرت جمرَكَ في مسيل الوادي
فأذكرُ إذا جاورت بطن محسّر
متخلفاً مغرئ بذاك النادي
هاجث بلابلهُ وحنّ فؤاده

لما حدا بالسائرين حادي
وتذكر الرفقاء ليلة حاجرٍ
وحديثهم في السير والترداد

ويذكرنا هذا اللون من النظم بما عند الشعراء
الزهاد والمتصوفة من شعر رقيق يفوح برائحة الإيمان ،
ويفيض بصدق المشاعر ، عبّروا به عن مواجدهم
وأحوالهم في تكايهم وزواياهم ، أو في المساجد
التي كانوا يرتادونها ويتعبّدون فيها مثل مسجد الملا
عبد الحميد المعروف بمسجد الصوفية . وتجدر
الإشارة إلى أن كثيراً من رجال التصوف الكبار في
الموصل ظهروا في هذا العصر مثل أبي عبدالله
الحسين بن أبي القاسم بن الحسين المعروف
بقضيب البان (١٥٣) (ت ٥٧٣ هـ) ، والشيخ محمد
ابن علي الطائي الموصل (المعروف بالغزالي) (ت ٦٠٥ هـ) ،
وابنه الشيخ أحمد بن محمد الغزالي (١٥٤)
(ت ٦٣٠ هـ) ... وإن أروع ما وصل إلينا من شعر
صوفي ، القصيدة اللامية المعروفة بـ «الموصلية»
لأبي محمد عبدالله بن القاسم بن المظفر الشهرزوري
المتوفى بالمرتضى (ت ٥١١ هـ) ، مطلعها : (١٥٥)
لمعث نارههم وقد عسعسَ اللي

لُ وُلّ الحادي وحارّ الدليلُ
ومن جميل ما جاء في هذه القصيدة الحوار
الذي أجراه في منازل المتبتلين الذين شقّهم الوجد
وأضناهام الشوق والحنين إلى دوحة الرضا الإلهي :

قلت : مَنْ بالديار؟ قالوا جريحٌ
وأنسيرٌ مكبَّلٌ وقَتِيلٌ
ما الذي جئتَ تبتغي؟ قلتُ ضيفٌ
جاءَ يبغي القري فآين التزولُ؟
فأشارتُ بالرحب ، دونك فاعقرُ
ها ، فما عندنا لضيغِ رحيلِ
فحططنا إلى منازلِ قومِ
صرعتم قبل المذاقِ الشمولِ

إن عاطفة الحب ولواعج الشوق والهيام بارزة بشكل واضح في هذه القصيدة ، وقد أحسن الدكتور عبد الوهاب العدواني بقوله في خاتمة دراسته التحليلية للامية المذكورة : « إن هذه القصيدة تكاد تكون علامة واضحة في ديوان الشعر الصوفي الذي حملته الكلمة العربية الثرية ، استطاع الشاعر فيها استخدام اللغة والفكر استخداماً مزجياً قادراً على لفت النظر إليه ، والتنويه بما يتمتع به من ملكة فنية عالية ، نجعلنا لانتمهم القدماء بالغلو واتعدام الذوق أو سذاجته في طلب القصيدة والإعجاب بها ... وحسبها جودة أنها تخرق مفهوماً نقدياً ، يزعم بعضها أنه ثابت ، يشير بضعف شعر العلماء وبرودته ، حتى أصبح لا يرى لعالم فقيه أو نحوي أو متكلم أن يكون شاعراً محسناً لأسباب كثيرة ، لعل أهمها : انطباعه بالمنطقية العلمية التي تجافي أحياناً سبل الخيال ومنازع التصوير وآفاقه وتنويع الفكر وتطوير اللغة ، فهو لا يكاد يعرف شيئاً من هذا إلا بنصيب محسوب ، والشاعرية - فيما أقدر - لا تعترف بالحساب إطلاقاً ، فإن لها أن تقوم على شكول متداخلة من الفكر والوعي والألفاظ والدلالات والأخيلة وتوليد المعاني والمزج بينها وارتداد المجاهيل وخرق الثوابت والقفز من فوق كل الحواجز » (١٥٦) . ومن الشعراء الذين نجد في نظمهم معاني صوفية أيضاً حجة الدين مروان بن علي بن سلامة (١٥٧) (ت ٥٥٣ هـ) ، وأبو الفضل كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري (١٥٨) (ت ٥٧٢ هـ) ، وأبو القاسم

محيي بن علي بن يحيى المعروف بابن الوزان (١٥٩) (ت ٥٩٤ هـ) ، وأبو رسلان مودود بن كبرسلان (١٦٠) (ت ٦١٩ هـ) ، وأبو الرضا زريق ابن أحمد بن داود القرني الموصل (١٦١) (ت ٦٢٢ هـ) ، وأبو اسحاق إبراهيم بن المظفر الواعظ المعروف بابن البرقي (١٦٢) (ت ٦٢٢ هـ) وعبد الكريم بن منصور الأثري الموصل (١٦٣) (ت ٦٥١ هـ) ، وعبد الرحمن بن الموصل (ت ٦٦٠ هـ) قال عنه اليونيني : « كان ينشد في الأسواق ، وينظم حسناً ، ويؤدي ما ينظمه حلواً بصوت شجي حزين مطرب مبلِّك ، وله كلام في أبواب الطريق والتصوف ، وبغاية حلوة ، وعلى ذهنه شيء من العلوم » (١٦٤) ، وأورد له قصيدة غزلية على طريقة المتصوفة في أربعة وستين بيتاً أولها :
أيها الطَّبِيبُ الغُريسي
كُنْ مِن البَلَوِي مجيري
واطِفِ نيرانَ زفيري

بوصالٍ غير زور
ولابد من الإشارة إلى أن فريقاً من المتصوفة اغترفوا عن جادة الصواب ودخلت الأوهام والخرافات بينهم ، وقد انبرى كثير من العلماء للرد عليهم واطهار أخطائهم وتقنين أقوالهم وبيان بدعهم ، منهم ظهير الدين أبو اسحاق إبراهيم بن نصير بن عسكر الموصل (ت ٦١٠ هـ) ، قال وهو يسخر من تصرفات جماعة من المتصوفة رآهم في زاوية مع شيخهم المسمى بمكي (١٦٥) :

ألا قل لمكي قول النصوح
فحقّ الصّيحَة أن تُستمع
متى سمعَ الناسُ في دينهم
بأنّ الغنا سنّة تُتبع؟
وأن يأكل المرءُ أكلَ البعيرِ
ويرقصُ في الجمعِ حتى يقفَ
ولو كان طاووي الحشا جائعاً
لما دارَ من طربٍ واستمع
وقالوا سكرنا بحب الإله
وما أسكرَ القومَ إلاّ القيصغُ
وشاع في الموصل لون من الشعر يعبر عن صور

وأبو محمد عمر بن بدر بن سعيد الموصلي^(١٧٣) (ت ٦٢٢ هـ)، وابن الحلوي الموصلي^(١٧٤)، والإمام العلامة علي بن عدلان بن حماد الموصلي^(١٧٥) (ت ٦٦٦ هـ)، له كتاب «عقلة المجتاز في حل الألغاز» ضمنه جملة كبيرة من هذا اللون الشعري، بعضها من نظمه وبعضها الآخر من نظم السابقين أو المعاصرين له، من ذلك قوله ملغزاً في «السوس» وهو نوع من النبات يستعمل في الطب، ويصنع منه شراب معروف طيب المذاق، وأرسله إلى صديقه شمس الدين بن خلكان وهو في دمشق:

أني لفظ عكستُ منه بناء
لا ترى عكسه يحيلُ البناء
هو في الأرض كلها لا ترى الر
وة تخلو منه ولا البطحاء
هو في الغرب موضع وتري النص
حيف في الشرق بقعة غناء
يدخل الحصن غادياً لا يرى الأذ
ن ولو كان ربه عادياً
وله في طب الطبيب مضاف
إن تأملت نجده دواء
أظلمت طرق حلّه فأبته
عادة الشمس أن تفيد الضياء
حل ابن خلكان اللغز وأرسله إلى صديقه ابن عدلان، فاستسر به، ونجد مثل هذه المراسلة بالألغاز عند عدد من أدباء ذلك العصر^(١٧٦).

وشاع لون من النظم يعرف بالشعر التعليمي، اقتحم الشعراء بابه تسهيلاً لحفظ العلوم واستظهار المعارف، وهو في الغالب يفتقر إلى العاطفة والخيال، ويخاطب العقل، ويتميز بطول النفس الشعري واعتياده على الرجز وتنوع القافية^(١٧٧). من ذلك مزدوجة في التاريخ من آدم إلى زمن الخليفة الناصر لدين الله، لأبي حفص عمر بن شماس بن هبة الله الخزرجي (ت ٦٠٠ هـ) وهو من أصحاب أبي منصور قانماز بن عبد الله الزيني، منها^(١٧٨):

وحسبنا الله ونعم الحسب
الصمد الفرد القديم الرب
حررتها في النصف من شعبان
عام ثلاث جئن في زمان
بعد ثمانين وخمس مئة

للهمزة العظمى المحمدية
قال ابن المستوفي: «وهي طويلة تدخل في عدة كراريس»، ووصلت إلينا قصيدة في الأسماء المقصورة لعاد الدين أبي الرضا أحمد بن علي بن أبي الحسن بن أبي زبور اللغوي^(١٧٩) (ت ٦١٣ هـ)، وعُرف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الموصلي المعروف بشعلة (ت ٦٥٦ هـ) بكثرة النظم التعليمي، مثل «السمعة في القراءات السبعة» و«عقود ابن جني» و«سماء العقود» و«اختلاف عدد الآي برموز الجمل»، ومن نظمه قصيدة طويلة تدخل في إطار التهذيب والتعليم منها^(١٨٠):

واعلم بأن الموت يأتي بغتة
وجميع ما فوق البسيطة فإن
فإلى متى تلهو وقلبك غافل
عن ذكر يوم الحشر والميزان
أترآك لم تك سامعاً ماقد أني
في النصي للآيات والقرآن
فانظر بعين الاعتبار ولا تكن
ذا غفلة عن طاعة الديان
ونجد مثل هذا النظم التربوي عند أبي سعيد محمد بن حمزة الموصلي في قصيدة سماها النظامية^(١٨١)، وأبي عمرو عثمان بن أبي بكر بن إبراهيم بن جلدك الموصلي^(١٨٢) (ت ٥٩٢ هـ)، وأبي اسحاق إبراهيم بن نصر بن عسكر الموصلي^(١٨٣) (ت ٦١٠ هـ)، وأبي عبد الله الحسين بن كامل الموصلي (ت ٦٣٩ هـ) في قوله^(١٨٤):

فلا ترج المودة من عبد
ولا تأمن على سر صديقاً

فقد تصبو النفوسُ إلى هواها
ويعدو الذئبُ إن أُلقي طريقا
فلا تنبذُ أخذك على خطأٍ
وقد جرّبته ثقةٌ صدوقا
ولا يغرركَ تمليقُ الأعادي
فإنّ مقاتلِ السمِّ الرحيقا
ولا تأمن صغيرهم احتقارا
فربّ ذبابةٍ قتلت فنيقا (١٨٥)

ومتّ حرّاً ولا تحتزّ حياء
تعيد الحرّ من ذلّ رقيقا
إن الشواهد القليلة التي ذكرناها في
الصفحات السابقة من أدب جم تتسم بيسرها
وسهولتها واتساق نغمها وحلاوة جرسها وإن كانت
لا تخلو من الصنعة اللفظية والمعنوية ، ويكفي لأبناء
الموصل فخراً وفضلاً أنهم شاركوا مشاركة جادة في
حماية اللغة العربية وآدابها وغنائها بتراث فكري كثير
في جميع فنون المعرفة ، وحسبنا قول الشاعر ابن
مُسهر الموصلي (١٨٦) :

كلّ الأنام بنو أبٍ لكننا
بالفضل تُعرفُ قيمةُ الإنسانِ

الفنون الثرية :

وأخذ النثر حظه من الازدهار في القرنين
السادس والسابع للهجرة ، فما هو ديني نجده في
كتب الفقه والحديث والتفسير وعلم الكلام ، وما هو
لغوي نراه في مصنفات النحو والصرف والمعاني
والبيان والبدیع والعروض والقوافي وغيرها مما يمت
بصلة إلى اللغة من قريب أو بعيد ، ومنها ما هو ثقلي
ككتب التراجم والطبقات والتاريخ بوجه عام ،
ومنها ما هو عقلي كالذي نجده في كتب المنطق
والمقولات وغير ذلك من الأبحاث الفلسفية ، ومنها
ما هو اداري كتلك الرسائل الديوانية التي تصدر عن
الملوك والسلاطين الى النواب والعمال والقضاة
والوزراء وأرباب الدولة من أهل السيف والقلم ،
ومنها ما هو اجتماعي كتلك الرسائل الاخوانية

التي كانت تقال في الشكر أو المباسطة والمداعبة
وغبر ذلك مما كان يكتب فيه الاخوان
بعضهم إلى بعض من وصف حادثة او ذكر نازلة ،
أو ما يدخل في باب المشاهدة والتجربة (١٨٧) .

والكتب المؤلفة في هذه الحقبة كثيرة شملت كل
الفنون ، ومن أشهر المؤلفين المجيدين الذين تميزت
كتاباتهم بالجدة والفائدة ضياء الدين بن الأثير في
كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر» و
«الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام
المنثور» و«الوشي المرقوم في حل المنظوم» و«المفتاح
المنشا لحديقة الانشاء» ، وله «ديوان رسائل» جمع
فيه ما كتبه في مناسبات كثيرة ، من ذلك رسالة في
استنهاض الهمم واستصراخ العزائم لانقاذ البلاد
وتخليص العباد من الافرنج : «لا ينبغي لمسلم أن
تشغله ربحانة فؤاده عن أجر جهاده ، ولا يمنعه حبُّ
كسبه عن نصرة ربه ، ولا يلفته خلطة قطيئه عن
انجاد دينه .. وقد تكفل الله باخلاف النفقة في
سبيله ، وعوّض المتفق بكثير الثواب عن قليله ،
فأصبح اتفاقه في الدنيا مخلفاً ، والثواب عليه في
الآخرة ربحاً مضجعاً ، وهذه درجة لا ينالها إلا من
رغب فأقرض ، لا من سمع فأعرض ، ومتى تخلف
الدهر مثل هذا المقام الذي يدعو إلى دار السلام ،
حتى يؤخذ فيه بالعزيمة ، ويحظى منه بالغبينة ،
فليس كل زمان موسماً ، ولا كل مكان معلماً ، وليلة
القدر خيرٌ من ألف شهر ، ودرجات الأعمال تتفاضل
في الأوقات والمشاهد ، ولهذا كانت الصلاة
الواحدة في المسجد الحرام كألف صلاة في غيره
من المساجد ، فمن أحب ان يقدم ثواباً فبرفعه الله
إليه ويتقبله ، ويكون في درجة مَنْ يعمل ماشاء
فيغفر له ، فليات هذا الموطن شاهداً ، أوليفتق فيه
جاهداً (١٨٨) » .

ومن الأدباء الفضلاء البلغاء في كتابة الرسائل
جلال الدين أبو الحسن علي بن الوزير جمال الدين
محمد بن علي (ت ٥٧٤ هـ) ، قال ابن
خلكان (١٨٩) : «رأيت له ديوان رسائل أجاد فيه ،

جمعه مجد الدين أبو السعادات المبارك المعروف بابن الأثير الجزري صاحب جامع الأصول وسماه «الجواهر والآلي من الإماماء المولوي الوزيري الجلالى» .

ومن أصحاب الرسائل المشهورين أيضاً ابن زيلاق الكاتب الموصلى ، قال المنشئ الإربلى الذى التقى به وصاحبه : «يضرب به المثل فى العدالة ، وله الرتبة العليا فى الشرف والأصالة ، فارس مبارز فى حلقات الأدب ، وعالم مبرز فى لغة العرب ، بطبع أخذ لطافة الهواء ، ورقة الماء ، كأنما ظهرت له أسرار القلوب ، فهو يقترب إليها بكل محبوب ، شعره أحسن من الروض جاده الغمام ، وأزهى من اللؤلؤ الرطب زانه النظام ، وكلامه يشفى السقام ويطفى الأوام ، وبدبته أسرع من الطرف وأحلى من ثمار النخى دانية القطف ، حسن العشرة ، كريم النفس ، جامع بين أدبها وأدب الدرس .. وكان بيني وبينه مكاتبات ومراسلات ، فلما اجتمعت به وتجادبنا أطراف الكلام وتجارتنا فى وصف النثر والنظام ، وعاشرته مدة فلا سمعي ببدايع فرائده التى هي أحسن من الدر فى قلانه» (١٩٠) ، من ذلك قوله فى رسالة تعتمد على البديع ولا سيما الجناس ، كما تعتمد على التنظير : «فقد منهاها والفصل ربيع ، ومنظر الروض بديع ، والرثى مخضرة أكنافها ، مائسة أعطافها ، تبكي بها عيون السحاب فتبسم ، وتخلع عليها ملابس الشباب فتتمقص وتتعلم ، فما أتينا على مكان إلا وجدنا غيره أحق بالثناء وأجدر ، ولا أقل بدر من الزهر إلا بزغت شمس قللنا هذا أكبر ، حتى إذا بلغت النفس أمانيها ، وأقبلنا على دمشق فقبلنا نبيها ، رأينا منظرًا يقصر عنه المتوهم ، ومعلًا عين الناظر ، ظل ظليل ، ونسيم عليل ، ومغنى بنهاية الحسن كفيل» (١٩١) .

والخطب من الفنون الثرية التى حظيت بالرعاية ، وأغلبها كانت تلقى فى الجوامع ، وقد اشتهرت أسرة الطوسى بها ، توارثوها أباً عن جد ،

ومن أشهرهم عبد الله بن أحمد بن محمد بن عبد القاهر الطوسى الموصلى (١٩٢) (ت ٥٧٨ هـ) ، وأبو طاهر أحمد بن عبد الله الطوسى الموصلى (١٩٣) (ت ٦٠١ هـ) ، وأبو القاسم عبد المحسن بن عبد الله ابن أحمد الطوسى الموصلى (١٩٤) (ت ٦٢٢ هـ) ، وأبو الفضل عبد الله بن عبد المحسن الطوسى الموصلى (١٩٥) (ت ٦٤٣ هـ) ، أنشأ كثيراً من الخطب المنبرية ، ووصل إلينا من نظمه بيتان من الشعر يطلب فيها من بدر الدين لؤلؤ أن يمنحه توقيعاً (منشوراً) رسمياً بالخطابة فى الجامع العتيق كما كان عليه أبوه وجده :

وأَسألُ منك توقيعاً شريفاً

بتوليّتي خطيبَ المسلمينا

كنشوقيعي أُمّي وأبيهِ قبلي

ليضحى في يدي سيفاً متيناً

ومن المشهورين أيضاً بكتابة الخطب أبو

الحسن علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت المعروف بشمم الحلي (ت ٦٠١ هـ) الذى استوطن الموصل وتوفى فيها ، له كتاب بعنوان «نتائج الاخلاص فى الخطب» وكتاب «المحتسب فى شرح الخطب» (١٩٦) ، وجمع اسماعيل بن علي بن مواهب الحظيري (ت ٦٠٣ هـ) خطباً كثيرة فى كتاب (١٩٧) .

وكان الطابع العام فى الخطب آنذاك متشابهاً تقريباً فى التزام السجع ، واستخدام فنون البديع كالجناس والطباق والمقابلة والترصيع والتضمين والاقتراس ، كما امتازت باختيار الالفاظ والعبارات مثل قول عبد القاهر بن الحسن بن أحمد الموصلى (ت ٦٢٩ هـ) : «لا زالت أيامه مواسم الجود ، ومعالم الوفود ، ومناظم عقود الجدود ، وملاحم كيد العدو الحسود ، حتى تصبح القلوب على ولايته عاكفة ، وفواضل أياديه على مؤسليه عاطفة» (١٩٨) .

وشاعت فى هذا العصر المناظرات الأدبية بين الزهور والحيوان والطيور واقتن بها الأدباء أينما اقتنا ،

ومن أجمل ما وصل إلينا منها «رسالة الأزهار»
لضياء الدين بن الأثير، نقل منها المقطع الآتي :
«فاندلِق البنفسجُ حنق الأوداج ، وانقصُ
انقضاض الكوكب الوهاج ، وقال ... أنا حبيبُ
النفوس ، وتاجُ الرؤوس ، والعطرُ الموضوع في
الجيوب ، واللون الذي يشبه عذار المحبوب . فأقبل
الورد في جنوده ، خافقهُ ألسنةُ عذباته وبنوده ،
محمراً الوجنت من الغضب ، منكراً على البنفسج
ماجناء من سوء الأدب ، فجال في ميدان
المفاخرة ، وصال وهتف بالبنفسج وقال :

أعْلِيَّ يفتخرُ البنفسجُ جاهلاً
والّي يُعزّي كل فضلٍ يهرُ
وأنا المحبُّ للقلوبِ زمانهُ

وعمدني أهل المسرة تفخراً^(١٩٩) »
ومن القنن النثرية التي كثر الاقبال عليها
«المقامات» وقد تغيرت طريقة كتابتها عما وضعه
السابقون ولأسباباً بديع الزمان الهمداني وقاسم بن
علي الحريري ، إذ تخلصت من الرواية واكتفت
بالحكاية ، ومن أشهر من كتب فيها محمد بن منصور
الحداد الموصلي^(٢٠٠) (ت بعد ٦٣٣ هـ) ، له
«البدور التامات من بديع المقامات» .

وظهر لون جديد من الأدب التمثيلي عرف بـ
«طيف الخيال» ، فيه ملح ونوادر ، ومن أشهر من
كتب فيه الشاعر الساخر شمس الدين محمد بن
دانيال الموصلي ، وقد وصلت إلينا له ثلاث
تمثيلات أو مايسميه هو بـ «البابات» ، وهي :
طيف الخيال ، وعجيبٌ وغريب ، والمثيمُ والضائعُ
التيتم . جاء في مقدمة الأولى : «كتبْتُ إليَّ أيها
الاستاذ البديع ، والماجن الخليع ، لازال سترك
رفيعاً ، وحجابك منيعاً ، تذكر أن خيال الظل قد
مجته الأسماع ، ونأت عنه لتكراره الطباع ، وسألني
أن أصنف لك من هذا التلط ، ما يكون بديعاً في
أشخاص السفط ، فصدي الحياء فيها رمتني مني ،
لترويه عني ، ولكن رأيت تمنعي من هذا المرام ،
يوهمك أني قاصر الاهتمام ، واهن الفكرة ، عاجز

القطرة ، على غزارة ينبوع ، واجابة الخاطر
المطويح ، فجلتُ في ميدان خلاعته ، وأجبتُ
سؤالك لساعتي ، وصنفتُ لك من بابات المجون ،
والأدب العالي لا الدون ، ما إذا رسمت شخصوه ،
وبوبت مقصوهه ، وخلوت بالجمع ، وجلوت
الستارة بالشمع ، رأيتُه بديع المثال ، يفوق بالحقيقة
ذاك الخيال^(٢٠١) » .

وشاع آنذاك أدب الرحلات ، وكان لأحد أبناء
الموصل مشاركة طيبة فيه ، هو أبو الحسن علي بن
أبي بكر الهروي الموصلي (ت ٦١١ هـ) الذي
جاء الديار وجال في جزء كبير من أفريقيا وأوروبا
وأسيا ، وقيد ملاحظات دقيقة وسجل ملاحظات
مفيدة في أثناء مشاهداته . قال ابن خلكان :
«وكاد يطبق الأرض بالدوران ، فإنه لم يترك براً ولا
بحراً ولا سهلاً ولا جبلاً من الأماكن التي يمكن
قصدها ورؤيتها إلأ رآه^(٢٠٢)» ، وقد ترك بعده
مجموعة من الكتب ، وصل إلينا منها «التذكرة
الهروية في الخيل الحربية^(٢٠٣)» و «الخطب
الهروية» وهي عبارة عن مواعظ وعبر نقشها على
واجهات وأبواب مدفته الذي بناه وهو على قيد
الحياة ، وهو مطبوع في ذيل التذكرة الهروية . ووصل
إلينا أيضاً كتاب «الاشارات الى معرفة
الزيارات^(٢٠٤)» ، جاء في مقدمته : «سألني بعض
الاخوان الصالحين ، والخلان الناصحين ، أن
أذكر له مازرته من الزيارات ، وما رأته من الأصنام
والآثار والطلسمات ، في الربع المسكون والقطر
المعمور . وما أنا ابتدئ بذكر الزيارات من مدينة
حلب وأهلها والبلاد التي تليها ، ثم أذكر الشام
بأسرها ، والساحل بأسره ، وبلاد الفرنج وفلسطين
والأرض المقدسة وجميع زيارات البيت المقدس
ومدينة الخليل وديار مصر بأسرها والصعدين والبلاد
البحرية والمغرب وجزائر البحر وبلاد الروم وجزيرة
ابن عمر وديار بكر والعراق بأسرها وأطراف الهند
والحرمين الشريفين مكة والمدينة - حرسها الله -

والثمن وبلاد العجم.. وهذا الكتاب مقتصر على ذكر الزيارات، وأما ذكر الأبنية والآثار والعجائب والأصنام فلها كتاب مفرد غير هذا». وتجدر الإشارة إلى أن له كتاباً آخر بعنوان «رحلة أبي الحسن» وهو غير كتاب الأشارات كما ذهب إلى ذلك جرجي زيدان (٢٠٥)، توجد نسخة منه في المكتبة الخديوية المصرية رقمها ٧٤٧٤.

لقد اكتسب الهروي الموصل من رحلاته خبرة كبيرة ومعرفة واسعة، وأعطته معلومات وافرة عن أحوال الشعوب وطبائعه، وزودته بمعارف كثيرة عن الآثار التي خلفتها الشعوب البائدة والأمم الخالية، كل ذلك كان رافداً مهماً في تأليفه المختلفة.

وثمة عالم جوال آخر هو موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف البغدادي الموصل الأصل (ت ٦٢٩ هـ) له كتاب «الإفادة والاعتبار» سجل فيه مشاهداته في مصر بعد تزوجه إليها في عهد صلاح الدين الأيوبي (٢٠٦).

إن جوانب الثقافة واسعة في الموصل في الحقبة التي تناولناها في هذا البحث، ولعل ماذكرنا من أمثلة تكفي للدلالة على اهتمام ابنائنا بالأدب والابداع في فنونه المختلفة، ويكفيهم فخراً أن جزءاً كبيراً من تراثهم النفيس بقي خالداً لا تزال المكتبات تزهو به ويتنفع به الدارسون والباحثون.

المواش

- (١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، مط دار صادر- بيروت ١٩٦٤، ص ٢١٠.
- (٢) ياقوت الحموي، معجم البلدان. مط دار صادر- بيروت ١٩٥٥، ٥/ ٢٢٣.
- (٣) زكي محمد حسن، فنون الاسلام. طبع مصر ١٩٤٧، ص ٣٤٦.
- (٤) ابن شاذل الكنتي، فوات الوفيات، تح: د. إحسان عباس. مط دار صادر- بيروت ١٩٧٣، ٤/ ٣٩٤.
- (٥) ضياء الدين بن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب. مط القدسي- مصر ١٣٥٧هـ، ٣/ ٢٦٩.
- (٦) عماد الدين الأصبهاني، تاريخ دولة آل سلجوق. دار الآفاق

- (٧) عز الدين بن الأثير، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية. مط دار الكتب الحديثة- مصر ١٩٦٣، ص ٥٦.
- (٨) أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية. مط لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة ١٩٥٦، ١/ ١: ١٦٨.
- (٩) حصص بيص، ديوانه، دار الحرية للطباعة- بغداد ١٩٧٤، ٢/ ٣١٩.
- (١٠) الروضتين ١/ ١: ١٠.
- (١١) الروضتين ١/ ١: ٣٤٤، وينظر تاريخ دولة آل سلجوق ص ١٩٤.
- (١٢) ابن منير الطرابلسي، شعره. جمع وتحقيق د. سعود محمود عبد الجابر. دار القلم- بيروت ١٩٨٢، ص ١٦١.
- (١٣) القفطي، المحققون من الشعراء، تح: حسن معمر. مط المتنبي- بيروت ١٩٧٠، ص ٢٣٩.
- (١٤) ابن الساعي، الجامع المختصر، تح: مصطفى جواد. المط السريانية الكاثوليكية- بغداد ١٩٣٤، ٩/ ٨.
- (١٥) ابن خلكان، وفيات الاعيان، تح: د. إحسان عباس. مط دار صادر- بيروت ١٩٧٢، ٤/ ٨٢.
- (١٦) سبط ابن الحوزي، مرآة الزمان. مط مجلس دائرة المعارف الثمانية- الهند ١٩٥١، ٨/ ٤٥٨.
- (١٧) سبط ابن التعاويذي، ديوانه. تح: مرجليوث. مط المكتشف- مصر ١٩٠٣، ص ١٠٢.
- (١٨) وفيات الاعيان ٤/ ٨٣، والبيان الأخيران لأسامة بن منقذ، ينظر ديوانه ص ١١٥.
- (١٩) التاريخ الباهر ص ٢.
- (٢٠) وفيات الاعيان ٧/ ٣٣٨.
- (٢١) ابن تقي بري، النجوم الزاهرة، مط دار الكتب المصرية- القاهرة ١٩٣٦، ٧/ ٧٠.
- (٢٢) ابن الشعار، عقود الجمان، مصورة كلية التربية بجامعة الموصل، عن الأصل المخطوط في مكتبة أسعد أفندي باستنول رقم ٢٣٣٣- ٢٣٣٠، ٦/ ١٨١.
- (٢٣) ابن المستوفي، تاريخ إربل، تح: سامي الصقار. دار الرشيد للنشر- بغداد ١٩٨٠، ١/ ٤٤٤.
- (٢٤) البيت المضمن للمتنبي، شرح ديوانه للبرقوقي ١٩٦/ ٢.
- (٢٥) المكوك: مكياك بسع صاعاً ونصف صاع أو نحو ذلك.
- (٢٦) فوات الوفيات ١/ ١٤٨.
- (٢٧) ابن الطقططا، الفخري في الآداب السلطانية، مط دار صادر- بيروت ١٩٦٦، ص ٧١.
- (٢٨) الفخري في الآداب السلطانية ص ٣٣٩.
- (٢٩) وفيات الادباين ٤/ ٦٨.
- (٣٠) التاريخ الباهر ص ٨٣.
- (٣١) وفيات الاعيان ٤/ ٣١٦، وينظر: السيوطي، بغية الوعاة، تح: محمد ابراهيم الفضل ابراهيم مط مصطفى الحلبي- القاهرة ١٩٦٤، ٢/ ٢٢٠.
- (٣٢) ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب في معجم الاقلام، تح: د. مصطفى جواد المط الحاشية- دمشق ١٩٦٢، ٤/ ٢٤.

- (٥٥) الخريدة، قسم الشام، ٢٥٣/٢.
- (٥٦) ينظر: رشيد الجميلي، كفاح الموصل وحلب ضد الصليبيين في عصر نور الدين محمود. مجلة التاريخية، العدد ٣ - بغداد ١٩٧٤.
- (٥٧) الخريدة، شم الشام، ٣٧٧/٢.
- (٥٨) كشف الظنون ١٤١٠/٢.
- (٥٩) وصل اليان وهو مخطوط في مكتبة كوبريل باستنبول رقم ٧٦٤.
- (٦٠) ينظر بحثنا (علم الدين الشافعي الموصل) مجلة الجامعة، العدد الأول، السنة التاسعة ١٩٧٨.
- (٦١) وفيات الاعيان ١١٣/٢.
- (٦٢) ابن الدهان الموصل، ديوانه، تح: عبدالله الجبوري، مط المعارف - بغداد ١٩٦٨، ص ٢١٩ وينظر: بحثنا (ابن الدهان الموصل، الشاعر الوشاح)، مجلة المورد، العدد الاول لسنة ١٩٨٥.
- (٦٣) الديوان ص ١٣٦.
- (٦٤) الشواني: السفن الكبيرة. الدارعون: جمع دارع، اللابس الدرع.
- (٦٥) الديوان، ص ٧٠.
- (٦٦) شرح ديوان النسي ٣٨/٢.
- (٦٧) الديوان ص ٢٠.
- (٦٨) الديوان ص ١٢٨.
- (٦٩) عقود الجاهن ٧ / ٢٤١ أ.
- (٧٠) ابن دنيتر، ديوانه، تح: د. جاسم محمد جاسم. رسالة ذكرهارة مكتوبة على آلة الكاتبة - بغداد ١٩٨٧، ص ١٨٨.
- (٧١) ابن واصل، مفرج الكرب في أخبار بني أيوب، ج ٥، تح: د. حسين محمد ربيع، مط دار الكتب - القاهرة ١٩٧٧، ١٥٦ - ١٦٢ / ٥.
- (٧٢) ينظر مفرج الكرب ٩٢ / ٤ - ١٠٧.
- (٧٣) ديوان ابن دنيتر ص ٢٢٠.
- (٧٤) نفسه ص ٢٤٤.
- (٧٥) نفسه ص ١٠٠.
- (٧٦) ينظر بحث الدكتور نوري حمودي القيسي (شعر الجهاد في معارك صلاح الدين الأيوبي)، مجلة المورد، العدد ٤ لسنة ١٩٨٧.
- (٧٧) تلخيص جميع الآداب ٣/٣ - ٣٦٠.
- (٧٨) الرباعيات في الأدب العربي، مجلة العربي، العدد ١٥ لسنة ١٩٤٤، ص ٨٧٩.
- (٧٩) وفيات الاعيان ٥١/٣.
- (٨٠) الخريدة، قسم الشام، ٣٥٩/٢.
- (٨١) عيون الأنباء ٢ / ٣٤٠.
- (٨٢) ديوان ابن الدهان الموصل ص ١٩٢.
- (٨٣) الدكتور رضا محسن القرشي، الموشحات العراقية. دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٨١ ص ١٩٦.
- (٨٤) ينظر بحثنا (ابن الدهان الموصل الشاعر الوشاح)، مجلة المورد، العدد ١٩٨٥، ص ٦٦ - ٧٦.
- (٨٥) ديوان ابن الدهان الموصل ص ١٩٢.
- (٨٦) نفسه ص ١٩٥.
- (٧٥٨)، الديوهجي، تاريخ الموصل. مط دار الكتب للطباعة والنشر - الموصل ١٩٨٢، ٣٥١/١.
- (٧٣) تلخيص مجمع الاداب ٢/٤ - ٦٧٥، تاريخ الموصل للديوهجي ٣٥٠/١.
- (٧٤) عاد الدين الاصباني، خريدة القصر وجريدة المعصر، تح: عمر الدوسي، ومط عبد العظيم (قسم شعراء المغرب)، مط الرسالة ٤٣٦/١.
- (٧٥) عاد الدين الاصباني، خريدة القصر وجريدة المعصر، تح: د. شكري فيصل (قسم شعراء الشام)، مط المكتبة الهاشمية - دمشق ١٩٥٥ - ١٩٦٤، ٥٥٠/١.
- (٧٦) الجامع المختصر ٢٠٩/٩.
- (٧٧) معجم الادباء ١٧٦/٧.
- (٧٨) وفيات الادباء ٢٧٨/٥.
- (٧٩) ابن ابى اصميمة، عيون الانباء في طبقات الاطباء، مط الاقبال - بيروت ١٩٥٧، ٣٣٠/٣.
- (٨٠) ابن القرب الميوني، ديوانه، تح: عبدالفتاح محمد الحلو. مط مصطلح البالي الحلبي - مصر ١٩٦٣، ص ٤٤٥.
- (٨١) وفيات الاعيان ٣١٥/٥، وينظر: الادوي، الطالع السعيد، تح: سعد محمد حسن. مط سجل العرب - القاهرة ١٩٦٦، ص ٤٧٠. السبكي، طبقات الشافعية، تح: محمود محمد الطناحي، مط عيسى البالي الحلبي - القاهرة ١٩٧١، ٨/٣٨٤.
- (٨٢) وفيات الاعيان ٣١٦/٥.
- (٨٣) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، مط دار صادر - بيروت ١٩٦٦، ٢٨٩/١٢.
- (٨٤) وفيات الاعيان ٨٤/٧.
- (٨٥) الفخري في الاداب السلطانية ص ٨.
- (٨٦) المشي الاربلي، التذكرة الفخرية، تح: د. نوري حمودي القيسي، د. حاتم الضامن مط المجمع العلمي العراقي بغداد ١٩٨٤، ص ١٦٧ - ١٧١.
- (٨٧) الخريدة، قسم الشام، ٣٧٣/٢، وينظر: علي بن ظافر الازدي، بدائع البداية، تح: محمد ابو الفضل ابراهيم. المط الفنية الحديثة - القاهرة ١٩٧٠، ص ١٤١.
- (٨٨) ابن شاكر الكشي، عيون التواريخ، تح: د. فيصل السامر، ونبيلة عبدالمعلم داود. دار الحرية للطباعة - بغداد ١٩٨٠، ١٠٦/٢٠.
- (٨٩) التذكرة الفخرة ص ١٨٩.
- (٩٠) يقع غربي الموصل على مقربة منها (الدياريات للشافعي ص ٣٩).
- (٩١) الجامع المختصر ٢٥٧/٩.
- (٩٢) يقع في الشمال الغربي من مدينة الموصل على شاطئ دجلة.
- (٩٣) عيون التواريخ ١٦٣/٢٠، وينظر: الزيني، ذيل مرة الزمان. مط مجلس دائرة المعارف الثمانية - المند ١٩٥٤، ١٠٥/١.
- (٩٤) يقع بالموصل في اعلاها على جبل مطل على دجلة يضرب به المثل في رقة الحواء وحسن المستشف (معجم البلدان ٤٩٨/٢)، الديارات ص ١٧٦).

- (٨٧) ينظر مقالنا (ابو الفتح البلطي الموصل)، مجلة الجامعة، العدد ٩، لسنة ١٩٧٨.
- (٨٨) الخريدة، قسم الشام، ٣٨٩/٢.
- (٨٩) فوات الوفيات ٣٩٢/٤، وينظر كتابنا (في ادب العصور المتأخرة)، مطب جاسمة الموصل - الموصل ١٩٨٥، ص ٩٥-٩٩.
- (٩٠) ابن حجة الحموي، خزانة الادب، المطب الخيرية القاهرة ١٣٠٤ هـ ص ٨.
- (٩١) ديوان التلمصري ص ٤٠.
- (٩٢) الصفدي، توسيع التوسيع، تح: البر حبيب مطلق. دار الثقافة - بيروت ١٩٦٦، ص ٣٩.
- (٩٣) ينظر: ابن تقي بري، المنهل الصافي. مطب دار الكتب المصرية - القاهرة ١٩٥٩، ١٥٥/١.
- (٩٤) فوات الوفيات ٣٣٨/٣، وينظر: محمد نايف الدلبي، ديوان الموشحات الموصلية. مطب جامعة الموصل - موصل ١٩٧٥، ص ٣٨.
- (٩٥) ابن دانيال الموصل، المختار من شعر ابن دانيال، تح: محمد نايف الدلبي، مطب جامعة الموصل - موصل ١٩٧٧، ص ١٧٧.
- (٩٦) الخريدة، قسم الشام، ٢٤٩/٢.
- (٩٧) وفيات الأعيان ٣١٥/٥، وينظر: ابن القوطي، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة، تح: مصطفى جواد. مطب التراث - بغداد ١٩٣٢، ص ١٤٩.
- (٩٨) الخريدة، قسم الشام، ١٠٢/١.
- (٩٩) نفسه ١٠٨/١.
- (١٠٠) تاريخ ابن رطل ٤٤٣/١.
- (١٠١) عقود الجمان لابن الشعار ٢٢٢/٣ أ.
- (١٠٢) نفسه ٢/٧ أ.
- (١٠٣) الفيروز ابادي، البلغة في تاريخ أئمة اللغة، تح: محمد المصري. مطب جامعة دمشق ١٩٧٢، ص ٨٦.
- (١٠٤) الخريدة، قسم الشام، ٣٣٤/٢.
- (١٠٥) تاريخ ابن رطل ٤٤٨/١.
- (١٠٦) المختار من شعر ابن دانيال ص ٣٥.
- (١٠٧) الخريدة، قسم الشام، ٣٠٦/٢.
- (١٠٨) نفسه ٣٠٥/٢.
- (١٠٩) نفسه ٣٩٤/٢.
- (١١٠) السيوطي، بنية الوعاة، تح: محمد أبو الفضل ابراهيم. مطب مصطفى الحلبي - القاهرة ١٩٦٤، ٢٢٤/٢.
- (١١١) الملك الأشرف الفسافي، المسجد المسبوك - دار التراث الاسلامي - بيروت ١٩٧٥، ص ٤٨٨.
- (١١٢) الخريدة، قسم الشام، ٣٠١/٢.
- (١١٣) ينظر مقالنا (مرزقة الموصل)، مجلة بين النهرين، العدد ٣٦ لسنة ١٩٨١، ص ٣٧١.
- (١١٤) ينظر مقالنا (ابن مسهر الموصل)، مجلة الجامعة، العدد ٨ لسنة ١٩٧٨.
- (١١٥) الخريدة، قسم الشام، ٢٧٤/٢.

- (١١٦) نفسه ٢٧٨/٢.
- (١١٧) فوات الوفيات ٣٢٥/٣.
- (١١٨) حققه با بكر الجزولي عثمان (سوداني) ونال به درجة الماجستير من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٩٧٢.
- (١١٩) التذكرة الفخرية ص ١٦١.
- (١٢٠) نفسه ص ١٦٥.
- (١٢١) نفسه ص ١٨٥.
- (١٢٢) نفسه ص ١٣٦.
- (١٢٣) نفسه ص ١٣٦ - ١٣٧.
- (١٢٤) الجامع المختصر ٣٠٥/٩.
- (١٢٥) الخريدة، قسم الشام، ٣٤٦/٢.
- (١٢٦) تلخيص مجمع الآداب ٩٣٣/٢.
- (١٢٧) تاريخ ابن رطل ٤١٨/١.
- (١٢٨) نفسه ٤٥٩/١.
- (١٢٩) تلخيص مجمع الآداب ١٧٣/٥.
- (١٣٠) نفسه ٧٥٩/٢.
- (١٣١) التذكرة الفخرية ص ١٨٨.
- (١٣٢) الخريدة، قسم الشام، ٢٧٥/٢.
- (١٣٣) الدسكرة: بناء كالكصر، حوله يوت يكون فيها الشراب والملاهي.
- (١٣٤) المسجد المسبوك ص ٤٨٦، الحوادث الجامعة ص ١٢٠.
- (١٣٥) الخريدة، قسم الشام، ٣٦٨/٢.
- (١٣٦) عقود الجمان ١/٥٤ أ.
- (١٣٧) ديوانه ص ٣٢٧.
- (١٣٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ط ٢، مكتبة المعارف - بيروت ١٩٧٧، ٣٤/١٣.
- (١٣٩) ديوانه ص ١٠، ١٤، ١٨، ٢١.
- (١٤٠) تلخيص مجمع الآداب ٥٨٢/١.
- (١٤١) ابن القاضي، ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تح: محمد الأحمد أبو النور. مطب الحضارة العربية - القاهرة ١٩٧٤، ٣١٠/٢.
- (١٤٢) التذكرة: البخرية ص ٤١٥.
- (١٤٣) فوات الوفيات ٣٨٤/٤.
- (١٤٤) تاريخ ابن رطل ٦٥/١.
- (١٤٥) ديوانه ص ١٣٨.
- (١٤٦) عبد الوهاب العدواني، الأدب في ظل الدولة الزنكية، رسالة للماجستير، مكتوبة بالآلة الكاتبة - بغداد ١٩٦٧، ص ١٥٦.
- (١٤٧) الخريدة، قسم الشام، ٣٣٦/٢.
- (١٤٨) الخريدة، قسم الشام، ٣٠٢/٢.
- (١٤٩) عقود الجمان لابن الشعار ١٦٥/١.
- (١٥٠) ذيل مرآة الزمان ٥٤٥/١.
- (١٥١) الخريدة، قسم الشام، ٣٤٤/٢، طبقات الشافعية ٢٧٣/٧، النجوم الزاهرة ١٨٣/٦.
- (١٥٢) تاريخ ابن رطل ١٢٦/١.
- (١٥٣) تاريخ ابن رطل ٣٧١/١.
- (١٥٤) تاريخ الموصل للديوه جي ٤٥٤/١.

- (١٥٥) وفيات الأعيان ٣ / ٤٩ .
 (١٥٦) مجلة آداب المرافدين ، كلية الآداب ، جامعة الموصل ، العدد ٧ لسنة ١٩٧٦ ، ص ٤٤٥ - ٤٧٨ .
 (١٥٧) الخريدة ، قسم الشام ، ٢ / ٤٠٧ .
 (١٥٨) وفيات الأعيان ٤ / ٢٤١ .
 (١٥٩) تاريخ إربل ١ / ٤٦٠ .
 (١٦٠) نفسه ٣ / ٣٠٣ .
 (١٦١) نفسه ١ / ٢٢٨ .
 (١٦٢) نفسه ١ / ١٥٥ .
 (١٦٣) نفسه ١ / ٤٥١ .
 (١٦٤) ذيل مرآة الزمان ١ / ٥٠٦ .
 (١٦٥) وفيات الأعيان ١ / ٣٨ .
 (١٦٦) تلخيص مجمع الآداب ٤ / ١ : ٢٥٤ .
 (١٦٧) تاريخ إربل ١ / ٤٠٤ ، عقود الجمان لابن الشعار ٥ / ١٥٣ .
 (١٦٨) عيون التواريخ ٢٠ / ١٠١ .
 (١٦٩) الخريدة ، قسم الشام ، ٢ / ٣٥٧ .
 (١٧٠) العملة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، مط السعادة - القاهرة ١٩٥٥ ، ١ / ٣٠١ .
 (١٧١) الأدب في ظل الدولة الزنكية ص ١٨٠ نقلاً عن نسخة الدكتور علي حسين محفوظ . وينظر بحثنا (مسعد بن علي الحظيري الملقب بدلال الكتب) مجلة معهد المخطوطات العربية المجلد ٣٣ ، الجزء الأول ١٩٨٩ ، ص ١٦٩ - ١٩٥ .
 (١٧٢) الخريدة ، قسم الشام ، ٢ / ٢٩٥ .
 (١٧٣) تاريخ إربل ١ / ٢٣٧ .
 (١٧٤) فوات الوفيات ١ / ١٤٥ .
 (١٧٦) ينظر: ذيل مرآة الزمان ٢ / ٣٩٢ ، فوات الوفيات ٣ / ٤٤ .
 (١٧٧) ينظر كتابنا (الأدب العربي في العصر العباسي) ، مط التعليم العالي بالموصل ١٩٨٩ ، ص ٦٩ .
 (١٧٨) تاريخ إربل ١ / ٦٧ .
 (١٧٩) تلخيص مجمع الآداب ٤ / ٢ : ٦٧٠ .
 (١٨٠) ابن رجب ، الذيل على طبقات الحنابلة ، تح : محمد حامد الفقي - القاهرة ١٩٥٢ ، ٢ / ٢٥٦ .
 (١٨١) المحمدون من الشعراء ص ١٩٢ .

الحياة الأدبية في القرنين الثامن والتاسع الهجريين

د. احمد عبدالله الحسري

والسابع الهجريين ، بدأ منحسراً الى حد كبير إبان القرنين التاليين ؛ الثامن والتاسع ، فقد اظهر المسح

إن ما اثير اليه في المبحث السابق من ازدهار في الحياة الأدبية في الموصل خلال القرنين السادس

ادباء الموصل في القرن الثامن الهجري

يشير الجدول التالي الى ان عدد الذين كان لهم نشاط ما في الحياة الأدبية في الموصل خلال القرن الثامن الهجري، ممن اقاموا في الموصل، كانوا ثلاثة فحسب؛

وهم :

١- محمد بن علي بن ابي القاسم المعروف بابن خروف وبابن الوراق :

ولد بالموصل سنة ٦٤٠ هـ ونشأ فيها، وعلى الرغم من انه هاجر الى بغداد (سنة ٦٦٢ هـ ثم الى دمشق (سنة ٧١٧ هـ)، إلا أنه حنّ الى بلده فعاد اليها، واستقر فيها حتى وفاته سنة ٧٢٧ هـ. قال ابن حجر في الدرر الكامنة: له نظم حسن، ووصف في المصادر المعاصرة بأنه نحوي مقرئ، ينظم الشعر^(٧).

٢- علي بن عبدالعزيز الخليعي الموصل :

له ديوان شعر، بيد أننا لم نعر على نماذج من شعره، توفي سنة ٧٥٠ هـ.^(٨)

٣- علي بن محمد بن غالب :

ورد له ذكر في ذيل كشف الظنون، وفي «هدية العارفين» وأن له «ديوان ابي فراس»، دون افصاح عما اذا كان عمله هذا جمعا او شرحاً للديوان. توفي بالموصل سنة ٧٥٣ هـ.^(٩)

ويظهر الجدول المشار اليه أن هناك اربعة من رجال الموصل، ممن كان لهم تخصص غير الأدب، ألا أنهم مارسوا كتابة الشعر، باعتباره تخصصاً مرافقاً، وكان لبعضهم مكانة شعرية مرموقة، وهم :

الذي اجريناه - وتشمل معظم المصادر التي أرخت لهذه الحقبة - تراجعاً كبيراً، إذ يلاحظ ان عدد اولئك الذين كان الأدب يمثل تخصصهم الأول ممن كانوا مقيمين في الموصل خلال القرن الثامن الهجري لم يزد على ثلاثة ادباء^(١)، اما عدد المهاجرين منهم او اولئك الذين ينحدرون من أصول موصلية في ذات القرن فقد بلغ تسعة ادباء^(٢). وينخفض هذا الرقم بشكل لافت للانتباه في القرن التاسع الهجري، حيث لم نشر المصادر التي شملها المسح إلا الى اربعة ادباء، اثنان منهم مقيان في الموصل، واثنان في غيرها.^(٣)

وتبقى هذه الأعداد تمثل تراجعاً حتى لو اضعفنا اليها أولئك الذين كان الأدب تخصصاً مرافقاً لتخصصاتهم الأخرى كاللغة والفقه وغيرها، حيث يرتفع عدد المقيمين في الموصل منهم إبان القرن الثامن الى ثمانية ادباء^(٤)، في حين يزداد عدد الادباء المهاجرين، او اولئك الذين يرجعون الى اصول موصلية الى تسعة اشخاص^(٥)، في القرن نفسه فاذا ما اخذنا مجموع الادباء الذين كان الادب تخصصهم الأول خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، وقارناه باعداد اولئك الذين اهتموا بعلوم اللغة والشريعة من الموصليين في الحقبة نفسها وجدنا ان النسبة بينها لاتزيد على ١٧,٩٪ مقابل ٨٢,١٪.^(٦)

إن اية محاولة لتقويم واقع الحياة الأدبية في الموصل في الحقبة موضوعة البحث تضعنا امام إشكالية افتقارنا لمعظم الأدبيات التي تمخضت عنها، وحيث ان ذلك رهين باكتشاف نصوص كافية، فاننا سنحاول هاهنا القاء ضوء على ما وصلنا مننتاجات الادباء المواصلة الذين عاشوا في الموصل فعلاً، ثم اولئك الذين ساهموا منهم في الحياة الأدبية في مدن واقطار أخرى.

١- عبد الرحمن بن عبد الدائم بن محمود الموصل : هو عماد الدين ، ابو الفتح ، تولى كتابة الوقوف بالموصل . التقى به ابن الفوطي سنة ٧٠٦ هـ ووصفه بالمعدل المحدث الشاعر ، وذكر انه من « بيت علم وفضل وحديث وعدالة » ولم تصل الى ايدينا نماذج شعرية له (١٠) .

٢- محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصل : لم تصل الينا معلومات عن حياته ، بيد أنه ترك لنا ارجوزة موسومة : « لوامع الأنوار في نظم غريب الموطن ، وصحيح مسلم » ابتدأها بقوله : قال محمد فتى محمد الشافعي الموصل البلد وجاء في آخرها قوله : كتبه ناظمه الموصل

على طريق ابن هلال علي ويفهم مما جاء في فهرست مخطوطات اوقاف بغداد ، انه كان حياً سنة ٧٤٥ هـ / (١١)

٣- علي بن الحسين بن القاسم بن منصور . ويعرف بابن شيخ العونية ، ولد بالموصل سنة ٦٨١ هـ / ونشأ فيها ، ثم انتقل الى بغداد فدرس بالمدرسة المدرسة المستنصرية ، اقام ردهاً من حياته في دمشق ثم عاد الى الموصل . وقد اشتهر بالفقه ، وأصوله ، وكان الى جانب ذلك نحوياً شاعراً . قال ابن حجر العسقلاني : « وشعره ، اكثر انسجاماً ، واقل تكلفاً من شعر الصفيدي » وذكر ان بين الاثنين مراسلات ادبية . كما كان له نظم ونثر توفي سنة ٧٥٥ هـ (١٢) .

٤- محمد بن علي بن احمد الأربلي ثم الموصل : كان ميدان تخصصه الأساس النحو ، بيد أنه كان ينظم الشعر ومنه قوله : وقد شاع عنى حب ليلى وانني كلفت بها شوقاً ، وهمت بها وتحداً ووالله ما حبي لها جاز حده ولكنها في حسننا جازت الحداً

وله اهتمام بالشعر التعليمي ، فقد نظم سنة ٧٢٩ هـ / ارجوزة باسم « جوهر النظام في معرفة الأنعام » قال عنها الغزالي : « قليلة اللفظ ، سهلة الاستظهار ، موجزة ، عدد ابياتها مائة واحد » . توفي سنة ٧٥٥ هـ وقبل سنة ٧٤١ هـ . (١٣)

نشاط أدباء الموصل في بلاد الشام ومصر في القرن الثامن الهجري :

كانت بلاد الشام المنفذ الطبيعي للعراقيين بعامة وللموصلين بخاصة ، كلما ضاقت بهم السبل ، بسبب قرب مدينتهم منها ، لذا فقد كانت مجالاً للتجأ اليه ادباء الموصل . وقد برز خلال القرن الثامن الهجري عدد من الشخصيات الأدبية الموصلية الأصل او التي هاجرت الى بلاد الشام متنقلة بينها وبين مصر ، ومارست نشاطاً ادبياً واضحاً فيها ، وقد بلغ عدد هؤلاء عشرة ادباء وهم :

١- احمد بن موسى الموصل

ولد في حدود سنة ٦٥٠ هـ ، وتوفي سنة ٧١٠ هـ .

تخصص بالقراءات الآ انه كان مهتماً بالادب ، وقد وصفه صاحب الدرر الكامنة بأنه « فصيح عارف » ، كما ذكره ابن الصيقل الجزري ، ضمن قائمة الادباء الذين حضروا سماع مقاماته المعروفة بالمقامات الجزرية بالمدرسة المستنصرية في بغداد ، سنة ٦٧٦ هـ (١٤) .

٢- الحسن بن الحسين بن يوسف الموصل

لم يرد الينا شيء من شعره ، بيد أن ابن الفوطي افادنا أن له « اشعاراً ذوقية » . ويفهم من ترجمته له أنه انتقل الى مدينة تبريز يمارس حرفته في النقش والخياطة فيها . كما ان وصف ابن الفوطي له بالشخص العارف ، وان له زاوية في تبريز فيقيد انه كان متصوفاً وان شعره في هذا الاتجاه .

ولد سنة ٦٤٢ هـ وتوفي سنة ٧١٠ هـ (١٥)

٣- محمد بن دانيال بن يوسف الموصلی

ولد محمد بن دانيال في الموصل سنة ٦٤٢ هـ وهاجر منها الى بغداد، ثم الى مصر سنة ٦٦٥ هـ، مما يبدو أنه جاء رد فعل على احتلال المغول للموصل قبل ذلك بخمس سنوات. وبرغم أن الثقل الادبي لابن دانيال يبرز في القرن السابع الهجري - وهو ما عاجله البحث السابق - إلا أن توجهاته في الشعر والنثر تبقى احد معالم الحياة الادبية في مطلع القرن الثامن الهجري، وخلال العقد الاول منه على وجه التحديد. وتبدو أهمية ابن دانيال ليس في قدرته الشعرية، ودقة التعبير، وسلاسة اللفظ، واختبار الكلمات فحسب بل في لمساته الناقدة - واللاذعة احيانا خارج حدود المأخوذ - لكل ما هو حوله ابتداء بكيانه العائلي، وانتهاء بالحياة من حوله. ان المرارة التي يحسها اي قارئ لشعر ابن دانيال يكاد يرى من خلاله ازمة المثقف امام تمزق سياسي بفعل الغزو والاحتلال المغولي، وما ترتب عليه في ارجاء البلاد، ثم امام ضغط اجتماعي توزع فيه الثروات ضمن سياقات لم يستطع ابن دانيال ان يتعامل معها الا في اطار سموه الشعري، في مثل قوله:

قد عقلنا، والعقل اي وثاق

وصبرنا، والصبر مر المذاق
كل من كان فاضلاً، كان مثلي

فاضلاً عند قسمة الأرزاق
وقوله:

ياسائلي عن حرفتي في الوري

وضيـمـعني فيهم، وافلاسي
ما حال من درهم انفاقه

ياخذـه من أعين الناس؟^(١٧)

٤- محمد بن حياك الله الموصلی:

وصفه ابن القاضي في «درة الحجال...» بالشيخ
العالم الموصلی، واورد من شعره قوله:

اذا الحب لم يشغلك عن كل شاغل

فا ظفرت كفاك منه بطائل

وما الحب إلا خمرة تسكر الفتى

فيصبح نشواناً لطيف الشنائل^(١٧)
وقال: توفي سنة ٧١٤ هـ.

٥- الحسن بن علي بن ابي بكر الموصلی

ولد سنة ٦٩٠ هـ ويبدو انه هاجر الى دمشق وله من العمر ثمانية وثلاثون عاماً، اي سنة ٧٢٨ هـ، جاء في الدرر الكامنة انه كان ينظم الشعر، وان له اهتماماً بنظم الأغاز والاحاجي. توفي سنة ٧٥٩ هـ^(١٨).

٦- علي بن محمد بن عبدالعزيز الموصلی ثم الدمشقي

هو تاج الدين، ويعرف بابن الدرهم. ولد سنة ٧١٢ هـ، وهاجر الى بلاد الشام، ثم تنقل بينها وبين مصر، حتى ارسله السلطان المملوكي رسولا الى الحبشة سنة ٧٦٢ هـ فمات في طريقه اليها. تركزت اسهامات ابن الدرهم الأدبية على نظم الأغاز الشعرية، وما كتبه في هذا المجال:
«الايضاح المبهم في حل المترجم»
ولهنتاجات ادبية عدة^(١٩).

٧- محمد بن احمد بن عبدالرحيم الباجريّ الدنيسري الأصل ثم الموصلی، الدمشقي.

يلقب بشمس الدين، وينحدر - كما يبدو من ترجمة ابن حجر له من اسرة موصلية، اهتم بالنظم الى جانب تخصصه في الفقه.^(٢٠)

٨- محمد بن محمد بن عبدالكريم بن رضوان الموصلی

يعرف بشمس الدين الموصلی، وبابن رضوان. قال ابن حجر عنه انه «نظم الشعر فاجاد...»، ونقل عن ابن حبيب قوله عنه: «بلغ ثني على قلـمه السنة الأدب، وخطيب تهتر لفصاحته اعواد المناير من الطرب. كان ذا.. خبرة بالفنون الأدبية، ومعرفة بالفقه واللغة العربية، وله نظم المنهاج، ونظم المطالع، وعدة من القصائد النبوية».

ومن شعره قوله في الحافظ الذهبي عند لقائه به :

مازلت بالطبع اهاوكم ، وما ذكرت
صفاتكم قط إلا همت من طربي
ولا عجب اذا ما ملت نحوكمو
فالناس بالطبع قد مالوا الى (الذهبي).
توفي بدمشق - وكان نزيلها - سنة
٧٧٤هـ (٢١)

٩- محمد بن القاهر بن عبدالرحمن الشيباني
الشهرزوري الموصل.

ينتسب الى اسرة موصلية علمية معروفة. ولد
بالموصل سنة ٦٩٨هـ/ وقرأ علوم الحديث والفقه
على رجال بلده ، ثم في بغداد. شغل منصب
القضاء في الموصل بين سنتي ٧٢٨-٧٣٨هـ/
وانتقل بعدها بأسرته الى بلاد الشام فاستقر فيها.
قال الصلاح الصفدي عنه : «سمع الكثير...
ونسخ الاجزاء ، وعنده مشاركة جيدة ..» وقال ابن
حجر : «وله شعر نازل» ، واستشهد على ذلك
ببيتين له قال فيها :

أيا من فاق افضالاً وفضلاً

علينا وهو للاصحاب محسن

تفضل واقضي شغلي فهو سهل

عليك ، وانت تدري كيف تحسن. (٢٢)

بيد انه ماوصل اليها من شعره عن طريق غير
طريق ابن حجر ، يدل على مقدرة عالية ، كالذي
نجده في القصيدة التي ارسل بها الى الصلاح
الصفدي يحميه فيها عن سؤال الأخير له عن اسمه
ومولده وبلده ، والتي يقول فيها :

يامالكاً لقباد العلم والأدب

ومن أتى من فنون النظم بالعجب

ومن بدا في تصانيف العلوم بما

يزري على الروض بل يربي على الذهب

سألت مني خبراً منك عن بلدي
ومولدي ، وعن اسمي ، ثم عن نسي

وما اسم بيتي الذي اعزى اليه ، وما
شيء اعانيه من حال ومن سبب

اسمي محمد ان تسأل وشهرتنا
بالشهرزي ، وعبد القاهر اسم ابني

وبيتنا فيه من قد جاوزوا عدداً
سبعين ، كانوا قضاة الناس في الحقب

ودارنا الموصل المحروس جانبها
كنا اولي عزها قدماً أباً عن أب

ومن جميل شعره ، ما خاطب به الصلاح
الصفدي ، يسأله أن يعبره (تذكرة) كان قد
جمعها فقال :

يا من إذا أهديتُ شكري له

لم أخشَ في ذلك من عاذلٍ

أعدتَ للدينيا فنون العلى

إعادة الحلى إلى العاطلِ

ظهرت في الفضل على أهله

كمظهر الحق على الباطلِ

قد جاءك المملوك في حاجة

ليس لها غيرك من كافلِ

رسائل الفاضل مسؤولة

فجدُ بها فضلاً على السائلِ

وما تعدى رجلٌ يبتغي

فضائل الفضل من الفاضلِ (٢٣)

١٠- علي بن الحسين بن علي

يعرف بالعزيز الموصل. قدم دمشق واستقر

فيها ، وهو صاحب «البديعة» التي مدح فيها

الرسول (ص) ، وسلك فيها مسلك ابن نباتة ،

ثم قام بشرحها ، وسمى شرحه لها : «التوسل

بالبدیع الى التوسل بالشفيع» ، وله ديوان شعر (٢٤).

أدباء الموصل في القرن التاسع الهجري

يظهر الجدول التالي ، أن الساحة الأدبية في الموصل شهدت جدياً كبيراً خلال القرن التاسع الهجري ، حيث لم نعد إلا على شاعرين اخوين اثنين عاشا في الموصل - كما يبدو - الى جانب اربعة من الشعراء كانوا يعيشون في اقطار اخرى وهم :

١ - ٢ - عبد الرحمن بن ابي الوفا الموصل ، واخوه احمد المعاصر له .

اشار عباس العزاوي نقلاً عن نسخة خطية لديه من (أعيان البيان) لياسين بن خير الله العمري ، الى هذين الشاعرين . وقال فيه : ولم نقف على نماذج من شعرهما . (٢٥)

٣ - شعبان بن محمد بن داود الآثاري الموصل .

ينحدر من اسرة موصلية ، ويبدو ان اسرته هاجرت خلال القرن السابع الهجري مع من هاجر بسبب الغزو المغولي . ولد شعبان الآثاري في القاهرة سنة ٧٦٥ هـ وتوفي فيها سنة ٨٢٨ هـ . كان له حضور واضح في الحياة الأدبية في مصر فضلاً عن انه كان نحوياً قديراً . جاء في دراسة قيمة عنه ، قول كاتبها محمد حسين نجم : « ليس نحوياً قديراً فحسب ، وإنما هو شاعر وبديعي وعروضي وخطاط ، والفياته في النحو والعروض والخط ودواوين شعره خير شاهد على ما نقول » ومن ابرز نتاجاته : آثار العشرة في تخميس البردة ، والمنهل العذب (٢٦) .

٤ - محمد بن محمد بن علي بن محمد بن حسان الموصل الاصل المقدسي ثم القاهري .

يعرف بابن حسان . ولد في حدود سنة ٨٠٠ هـ / ونشأ بها ثم قدم القاهرة سنة ٨٣٣ هـ / فقطنها

قال السخاوي عنه : « كان اماماً عالماً فقيهاً محققاً لفنون ، ذكياً بحتاً نظاراً فصيحاً ، حسن التقرير ... »

ومن نظمه في الخصال التي ذكر ابن سعد ان العباس اوصى بها عثمان (رض) :

أصْفَح ، تَحِب ، وَدَار ، أَصْبِر ، تَجِد شَرْفاً
وَإَكْتَم لِسِر ، فَهَذَا الْخَمْسُ قَدْ أُوصِيَ
بِهِنَّ عُثْمَان ، عَبَّاس فَدَعَّ جَدلاً

وانظر الى قدر من اوصى ، وما اوصى . وله في شروط الراوي والشاهد :

بلوغ ، واسلام ، وعقل سلامة
من العشق مع حزم المروءة في الخبر
شروط ، وفردها في الشهادة سالماً
من الرق ، فالجموع يدره من خبر

توفي سنة ٨٥٥ هـ (٢٧) .

٥ - محمد بن احمد بن محمد بن عبد القادر الموصل ثم الدمشقي الاصل القاهري .

يعرف بابن مُجَنَّق ، ولد سنة ٨٣٧ هـ بالقاهرة ، وتوفي فيها سنة ٨٧٢ هـ ودفن بحوش البغادة . قال السخاوي :

« كان فاضلاً ، ذا كراً مستحضراً .. ذائقاً للادب .. »

وما سمعه السخاوي منه من نظمه :
ووجنته مع ثغره وعذاره

وطرته مع مقلتيه وما حووا
وودي ولقي لاسلوت ولوسلوا

فؤادي ولي ، قد قلوا والحشا شعروا
وهو نظم واضح تكلفة ، وثقله على

السمع ... (٢٨) .

٦ - محمد بن موسى الموصل الاصل الدمشقي

ولد سنة ٧٧٧ هـ / بدمشق ونشأ بها وتوفي فيها في حدود سنة ٨٦٣ هـ / قال السخاوي :

« واقبل على العبادة والسلوك بحيث صار من شيوخ الصوفية ، وصنف فيه ، ونظم ونثر » (٢٩)

أولاً: على الرغم من ان قلة ما امكنا احصاؤه من اسماء الأدباء خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين، يمكن إرجاعه الى فقدان الخطيات التي اרכת لهذه الحقبة، اوفقدان نتاجات الادباء انفسهم، فان هذه القلة تمثل واقعاً فعلياً لم يقتصر على الموصل بل تعداها الى مدن العراق الأخرى كما اظهرت ذلك دراسة حديثة في هذا المجال^(٣٠). إن تفسيرنا لهذا النكوص في الحياة الأدبية، خلال القرنين موضوعي البحث، يرتبط بمتغيرين جوهريين:

١- تفاقم الاضطراب السياسي والإداري ابان العقود الأولى من القرن الثامن الهجري (٧٠١-٧٣٦هـ)، وهي تمثل اواخر عهد الدولة الإيلخانية التي سبقت الإشارة الى تنامي الصراعات السياسية إبانها، بين الأسر المغولية المتنفذة، والذي ادى الى هيمنة الاسرة الجلائرية على العراق بين سنتي ٧٣٦هـ، ٨١٤هـ. لقد احكت هذه الاسرة امرها على بغداد وبعض مدن العراق دون الموصل التي كان وجودها فيها ضعيفاً، بسبب رفض سكان المدينة والقوى المحلية المحيطة بها للحكم الجلائري، مما جعل هذه الحقبة في الموصل حقبة اضطراب يكاد يكون متصلاً. لقد كان مركز النقل في الإدارة الجلائرية يصب في بلاد فارس التي كانت مركز حكمهم لفترات طويلة، وقد حظيت تبريز؛ عاصمتهم، باهتمام خاص دون المدن الأخرى باستثناء اهتمامهم النسبي ببغداد عندما أصبحت عاصمة لهذه الدولة^(٣١). ومع ان انتقال العاصمة من تبريز الى بغداد له دلالة في إذكاء النشاط العام فيها، فقد كان تأثير ذلك على مدينة الموصل ضعيفاً بل معدوماً، اذ لم تستطع العثور على ما يدل على

اهتمام جلائري بالمدينة. كما ان الحكام الجلائريين - وهم الذين يمتلكون خلفية ثقافية فارسية - لم يولوا الأدب العربي اي اهتمام.

٢- تحول المدينة اعتباراً من سنة ٧٧٨هـ/ الى نقطة جذب للقبائل الرعوية التي كانت تتجول بقطعانها الى جوارها، ذلك ان الجلائريين الذين ساءهم رفض اهل الموصل لسلطتهم، قاموا بفتح ابوابها امام تحالف قبائل قرة قوينلو (٧٧٨-٨١٤هـ) ثم تحالف قبائل آق قوينلو (٨١٤-٩١٤هـ)، وقد ادى

وجود هذه القبائل بما تتصف به من جهالة وأمية في الموصل وما حولها، الى انكفائها على نفسها، وإلى فقدانها لدورها الحضاري الذي نهضت به حقبة طويلة في تاريخها، وقلل من قدرتها على الاستمرار في انشطتها؛ ومنها النشاط الأدبي^(٣٢).

ضمن هذا الاطار- اي بفقدان البيئة الملائمة سواء في الواقع الاجتماعي أو السياسي؛ يمكن ان نفسر لماذا عزف المثقفون في الموصل عن مزاوله الأدب، شعراً، ونثراً، الا في حدود ضيقة كالتى عكسها البحث.

ثانياً- يتضح مما اوردناه ان الحياة الأدبية في الموصل خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين كانت في حالة تراجع ونكوص من حيث الكم والنوع، قياساً على واقعها في القرون السابقة. بيد ان هذا التقييم يظل حكماً قابلاً للتغير، اذا ما تم اكتشاف نصوص جديدة او عثر على اسماء أدباء آخرين. واذا جاز لنا الحكم على هذا النزول اليسير من الشواهد الشعرية فاننا نستطيع ان نقول، إنها في طابعها العام تقليدية شكلاً ومضموناً، ولكنها لاتخلو من لمسات تجديدية كما لاحظنا في شعراين دانيال، كما ان بعضاً من هذه التماذج الشعرية عكس صوراً شعرية جميلة، بعيدة عن التكلف.

جَدْوَلٌ يُمَثِّلُ الشَّخْصِيَّاتِ الْمَوْصَلِيَّةَ أَوْ الَّتِي هِيَ مِنْ أَصْلٍ مَوْصِلِيٍّ،
مَنْ كَانَ لَهُمْ نَشَاطَاتٌ عِلْمِيَّةٌ فِي الْمَوْصِلِ خِلَالِ الْقَرْنَيْنِ الثَّامِنِ وَالتَّاسِعِ
الْمُهْجَرَيْنِ .

| التسلسل | الاسم | لتخصص | الولادة ومكانها | الوفاة ومكانها أو تاريخ كان فيه حياً | النسبة | مهاجر مقيم قادم | المصادر والمراجع |
|---------|----------------------------|----------------------------|--------------------|---|------------------------------|-----------------------|--|
| ١ | ابراهيم بن محمد بن علي | الفقه الخط | ٦٧٦ | ت ٧٤٤ هـ | الموصلي الأصل البغدادي | مهاجر | ابن حجر، الدرر الكامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ١٩٦٦ ج ١ / ١٧٠ |
| ٢ | ابراهيم بن احمد بن بركة | الفقه | | حي سنة ٧٧٠ هـ | الموصلي | مقيم | المصدر نفسه ج ١ / ٧ (٤) |
| ٣ | ابراهيم بن محمد بن حسين | اهتمام ثقافي عام | | ت ٨١٥ هـ مكة | الموصلي القاهري | مهاجر | السخاوي، الضوء اللامع، القاهرة، بلا تاريخ ج ١ / ١٣٧ |
| ٤ | ابراهيم بن احمد بن حسين | الفقه النسخ | حدود ٧٤٠ هـ | ت ٨١٠ هـ | الموصلي | مهاجر | ابن حجر، إنباء الغمر. تحقيق الدكتور حسن حبشي، القاهرة ج ٢ / ٥٢٣ (١). |
| ٥ | ابراهيم بن عبد الله | اهتمام ثقافي عام | | ت ٨١٤ هـ | الموصلي | مقيم | معجم كحالة ١ / ٥٦ |
| ٦ | احمد بن موسى | القراءات الأدب | حدود ٦٥٠ هـ | ٧١٠ هـ | الموصلي | مهاجر | الدرر الكامنة ١ / ٨١٥ |
| ٧ | احمد بن ابي الوفا | الادب | | حي سنة ٨١١ هـ | الموصلي | مقيم | الغزالي، تاريخ الأدب العراقي ١ / ٣٣٠ |
| ٨ | احمد بن محمد بن احمد | النحو التفسير الحديث | ٧٨٨ هـ | ٨٧٠ هـ دمشق | الجيلي الموصلي | مهاجر | معجم كحالة ٣ / ٦٥ |

| التسلسل | الاسم | التخصص | الولادة ومكانها | الوفاة ومكانها أو تاريخ كان فيه حياً | النسبة | مهاجر مقيم قادم | المصادر والمراجع |
|---------|-------------------------------|------------------------------|-------------------------------|---|------------------------------------|-----------------------|---|
| ٩ | أحمد بن إبراهيم | الحديث | حدود ٧٢١ هـ | ت ٨٠١ هـ | الموصلي الأصل الدمشقي | مهاجر | إنباء الغمر ٢ / ٥٦ (١) الضوء ١ / ١٩٥ ؛ |
| ١٠ | أحمد بن حسين | النسخ | | ت ٨١٥ هـ | الموصلي | مهاجر | نسخة الباحث من درر العقود للمقريري بصورة عن مكتبة كوته ، ورقة ، (٤) . |
| ١١ | أبو بكر بن عمر بن مشيع | قراءات العربية التفسير | حدود ٦٢٠ نشأ بالموصل | ت ٧٤٣ هـ دمشق | الجزري | مهاجر | الدرر ١ / ١٢١٣ |
| ١٢ | أبو بكر بن محمد بن أبي بكر | قراءات | بعد ٦٣٠ هـ الموصل | ت ٧١٦ هـ دمشق | الموصلي | مهاجر | الدرر ١ / ١٢٢٩ |
| ١٣ | أبو بكر بن عبدالله بن محمد | الفقه التصوف الحديث | ٧٣٤ الموصل | ت ٧٩٧ هـ القدس | الشيبياني الموصلي ثم الدمشقي | مهاجر | إنباء الغمر ١ / ٤٩٧ (١٣) الدرر ١ / ١٢٠١ ؛ |
| ١٤ | أبو بكر بن عمر بن عثمان | الحديث | حوالي ٦٨٠ | ت ٧٥٧ هـ شوال | الكردي الموصلي ثم الدمشقي | مهاجر | الدرر ١ / ٤٨٤ (١٢١٢) |
| ١٥ | أبو بكر بن علي بن يوسف | الفقه | | ت ٨١٥ هـ | الحسني الموصلي | مهاجر | إنباء الغمر ٢ / ٥٢٦ ؛ ضوء ١١ / ١٥٧ ؛ |

| التسلسل | الاسم | التخصص | الولادة ومكانها | الوفاة ومكانها أو تاريخ كان فيه حياً | النسبة | مهاجر مقيم قادم | المصادر والمراجع |
|---------|--------------------------------|-----------------|--------------------|---|----------------------|-----------------------|---|
| ١٦ | جعفر بن مكّي ابن جعفر | القراءات | | ت ٧١٠ هـ شيراز | الموصل | مهاجر | ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، دمشق ١٩٦٤ ج ١/٥ |
| ١٧ | الحسن بن الحسين | الادب الموصل | ٦٤٢ الموصل | ت ٧١٠ هـ نيريز | الموصل | مهاجر | ابن الفوطي ١/٤ (٦٦) |
| ١٨ | الحسن بن محمد بن بن شرفشاه | النحو الفقه | | ت ٧١٧ هـ | العلوي الحسيني | قادم مقيم | ابن العباد، شذرات الذهب بيروت (د.ت) ج ٦ / ٤٨ |
| ١٩ | الحسن بن عبدالواحد بن زكريا | الحديث | | حي ٧٦٩ هـ | الموصل ثم الدمشقي | مهاجر | الدرر ١٠٢/٢ (١٥٢١) |
| ٢٠ | الحسين بن المبارك بن يوسف | التصوف | | ت ٧٤٢ هـ | الموصل | مقيم | الدرر ١٦٠٩ / ٢ |
| ٢١ | الحسين بن علي بن البي بكر | الادب | ٦٩٠ | ت ٧٥٩ هـ | الموصل | مهاجر | الدرر ٢ / ١٥٩٨ |
| ٢٢ | داؤد بن ناصر | الطب | | ت ٨ هـ | الانعمري الموصل | مهاجر | معجم كحالة ١٤٣ / ٣ |
| ٢٣ | داؤد بن سليمان بن عبدالله | الحديث | حوالي ٧٦٤ هـ | ت ٨٤٤ هـ | الموصل | مهاجر | الضوء ٣ / ٧٩٥ |

| التسلسل | الاسم | التخصص | الولادة ومكانها | الوفاة ومكانها أو تاريخ كان فيه حياً | النسبة | مهاجر مقيم قادم | المصادر والمراجع |
|---------|------------------------------------|---------------------------------------|--------------------|---|------------------------------|-----------------------|--|
| ٢٤ | شعبان بن محمد بن داؤد | الأدب الفقه | ٧٦٥ هـ | ت ٨٢٨ هـ | الآثاري القرشي الموصلي | مهاجر | الضوء ٣ / ٣٠١ (١١٦٢) |
| ٢٥ | صليبا بن يوحنا | اهتمام ثقافي عام | | ت ق ٨ هـ | الموصلي | مقيم | معجم كحالة ٥ / ٢٤ |
| ٢٦ | عبدالرحمن بن ابي الوفاء | الأدب | | ت ٨١١ هـ | الموصلي | مقيم | الغزالي، تاريخ الأدب العربي في العراق، بغداد ١٩٦٠ ، ج ١ / ٣٣٠ (١٢) |
| ٢٧ | عبدالرحمن بن عبدالدايم بن محمود | الحديث الأدب | | حي سنة ٧٠٦ هـ | الموصلي | مقيم | ابن القوطي ج ٤ / ٢ (١٠٩٩) |
| ٢٨ | عبدالرحيم بن عبدالرحمن بن نصر | الفقه الطب بالموصل | ٦٥٣ هـ | ت ٧٣٠ هـ | الموصلي | مهاجر | الدرر ٢ / ٤٦٥ (٢٣٨٨) |
| ٢٩ | عبدالرحيم بن محمد | الأدب | | حي ق ٨ هـ | الموصلي الدمشقي | مهاجر | الضوء ٨ / ٥٣ (٦٣) وردت ترجمته ضمن ترجمة ابنه محمد |
| ٣٠ | عبدالعزيز بن عدي | الجبر والمقابلة الفرافض الطب | الموصل | ت ٧١٩ هـ | الموصلي | مهاجر | الدرر ٢٠ / ٤٨٧ |

| التسلسل | الاسم | التخصص | الولادة ومكانها | الوفاة ومكانها أو تاريخ كان فيه حياً | النسبة | مهاجر مقيم قادم | المصادر والمراجع |
|---------|--------------------------------|---------------------|--------------------|---|---------------------------------------|-----------------------|---|
| ٣١ | عبدالله بن علي بن عبدالله | اهتمام ثقافي عام | | ت ٨٢٠ هـ | الموصل الشيباني | مقيم | معجم كحالة ٦ / ٩١ |
| ٣٢ | عبد الملك بن أبي بكر بن علي | الفقه | | ت ٨٤٤ هـ | الموصل الاصل الدمشقي المقدسي | مهاجر | الضوء ٨٤ / ٥ (٣١٤) إنباء الغمر ج ٢ / ٣٧٩ |
| ٣٣ | عبدالمطلب بن مرتضى | النحو الفقه | حوالي ٦٥٣ هـ | ت ٧٣٥ هـ | الجزري درس بالموصل | مقيم | الدرر ٣ / ٢٥١٦ |
| ٣٤ | علي بن مسعود بن نفيس | الحديث التصوف | ٦٣٤ هـ | ٧٠٤ هـ دمشق | الموصل الخلي ثم الدمشقي | مهاجر | الدرر ٣ / ٢٩١٦ |
| ٣٥ | علي بن محمد يوسف | الفقه الحديث | - | ٧٣٤ هـ | الموصل | مهاجر | الدرر ٣ / ٢٩٠٢ |
| ٣٦ | علي بن محمد بن غالب | الأدب | | ت ٧٥٣ هـ | العامري | مقيم | معجم كحالة ٧ / ٢٢٥ |
| ٣٧ | علي بن محمد بن عبد العزيز | الأدب | ٧١٢ هـ | ت ٧٦٢ هـ | التغلي الموصل الدمشقي | مهاجر | الدرر ٣ / ١٠٦ (٢٨٧١) |
| ٣٨ | علي بن محمد بن رضا بن توبة | الفقه | | ت ٧١٤ هـ | الموصل | مقيم | ابن الفوطي ٤ / ٢ (١٥٧٥) |

| التسلسل | الاسم | التخصص | الولادة ومكانها | الوفاة ومكانها أو تاريخ كان فيه حياً | النسبة | مهاجر مقيم قادم | المصادر والمراجع |
|---------|--|---------------------------|-----------------|--------------------------------------|--------------------|-----------------|-------------------------------------|
| ٣٩ | علي بن عبدالعزيز بن أبي محمد | الأدب | | ت في حدود ٧٥٠ هـ | الخليعي ثم الموصلي | مقيم | معجم كحالة ١٢٤ / ٧ |
| ٤٠ | علي بن الحسين بن علي | الأدب الفقه | | ت ٧٨٩ هـ | الموصلي | مهاجر | الدرر ٣ / ٢٧٢٩؛ إنباء ١ / ٣٤٢ (١١). |
| ٤١ | علي بن الحسين بن القاسم بن المنصور (ابن شيخ العونية) | الفقه الأدب | ٦٨١ هـ بالموصل | ٧٥٥ هـ ببغداد | الموصلي | مقيم | شذرات ٦ / ١٧٨ ؛ الدرر ٣ / ٢٧٣٠ |
| ٤٢ | علي بن محمد بن أحمد | الحديث | | ٨٨٢ هـ | الموصلي ثم الدمشقي | مهاجر | الضوء ٥ / ٢٨٠ (٩٥٠) |
| ٤٣ | علي بن محمد بن فتح الله | الفقه على المذاهب الأربعة | | ٨٤٦ هـ | الموصلي | مهاجر | الضوء ١ / ٦ (١٣) |
| ٤٤ | عمر بن محمد بن عمر | الحديث | | ت ٧٤٧ هـ | الموصلي | مقيم | الدرر ٣ / ٣٠٧٩ |
| ٤٥ | عمر بن أبي بكر بن علي | الحديث | | ت ق ٩ هـ | الأنصاري الموصلي | مهاجر | الضوء ٦ / ٧٦ (٢٥٧) |
| ٤٦ | عيسى بن محمد بن قاسم | الحديث | | ت ق ٩ هـ | الموصلي ثم الدمشقي | مهاجر | الضوء ٦ / ١٥٧ (٥٠٤) |

| التسلسل | الاسم | التخصص | الولادة ومكانها | الوفاة ومكانها أو تاريخ كان فيه حياً | النسبة | مهاجر مقیم قادم | المصادر والمراجع |
|---------|----------------------------|--------------------|---------------------|--------------------------------------|-------------------------|-----------------|---|
| ٤٧ | عبد الحفي بن علي | التصوف | | ٧٠٦ هـ | الأنصاري الموصلی | مهاجر | ابن الفوطي ١ / ٥ (٢٨٨) |
| ٤٨ | محمد بن علي بن احمد | النحو اللغة الادب | ٦٨٦ هـ | ٧٥٥ هـ وقيل سنة ٧٤١ هـ | الأربلي ثم الموصلی | مقیم | الدرر ١ / ٢٩٤ ، معجم كحالة ١٠ / ٣٠٢ |
| ٤٩ | محمد بن علي بن ابي القاسم | الأدب النحو الحديث | حدود ٦٤٠ هـ بالموصل | ٧٦٧ هـ بالموصل | الموصلی | مهاجر عائد | شذرات ٦ / ١٧٤ ، الدرر ٤ / ٤٠٨٠ |
| ٥٠ | محمد بن عبد الرحمن بن عمر | الفقه | حدود ٦٦٦ هـ الموصل | ٧٣٩ هـ دمشق | القزويني العجلي | مهاجر | الصفدي ، الوافي بالوفيات ، دمشق ١٩٥٩ ج ٣ / ١٢٥٥ |
| ٥١ | محمد بن محمد بن عبد الكريم | الأدب | حدود ٧٠١ هـ | ٧٧٤ هـ بلاد الشام | الموصلی | مهاجر | إنباء ١ / ٥٢ (٣٩) |
| ٥٢ | محمد بن احمد بن عبد الرحيم | الفقه الادب | — | ٧٦٥ هـ | الباجري الموصلی الدمشقي | مهاجر | الدرر ٣ / ٤١٤ (٣١٩٠) |
| ٥٣ | محمد بن طاهر بن يونس | الفقه التفسير | | ٨٣٣ هـ الموصل | الموصلی | مقیم | الضوء ٧ / ٢٧١ (٧٠٠) |
| ٥٤ | محمد بن احمد بن محمد | الفقه الادب | | ٨٧٢ هـ | الموصلی ثم الدمشقي | مهاجر | الضوء ٧ / ٧٢ (١٣٥) |
| ٥٥ | محمد بن احمد بن عبد الملك | اهتمام ثقافي عام | | ٩٠٠ هـ | الموصلی | مهاجر | الضوء ٦ / ٣٢٩ (هـ ١٠٧) |

| التسلسل | الاسم | التخصص | الولادة ومكانها | الوفاة ومكانها أو تاريخ كان فيه حياً | النسبة | مهاجر مقيم قادم | المصادر والمراجع |
|---------|----------------------------|---------------------|--------------------|---|---|-----------------------|---------------------|
| ٥٦ | محمد بن موسى | الادب | ٧٧٧ هـ | بعد ٨٦٠ هـ | الموصلية الأصل | مهاجر | الضوء ١ / ٦٥ (٢١٨) |
| ٥٧ | محمد بن علي بن يحيى | اهتمام ثقافي عام | حدود ٧٧٥ هـ | — | الموصلية ابوه الدمشقي | مهاجر | الضوء ٨ / ٢٢٤ (٥٨٦) |
| ٥٨ | محمد بن محمد بن علي | الفقه الادب | ٨٠٠ هـ | ت ٨٥٥ هـ | الموصلية الأصل المقدسي القاهري | مهاجر | الضوء ٩ / ٥٢ (٣٨٧) |
| ٥٩ | محمد بن علي بن محمد | اهتمام ثقافي عام | ت ٨١٧ هـ | دمشق | الموصلية المقدسي | مهاجر | الضوء ٩ / ١٥ (٤٢) |
| ٦٠ | محمد بن عبدالله | اهتمام ثقافي عام | | ٧٥٢ هـ | الموصلية | مقيم | معجم كحالة ١٠ / ٢٥٠ |
| ٦١ | محمد ابن ابي بكر بن علي | اهتمام ثقافي عام | | ٧٥٠ هـ | الموصلية | مقيم | معجم كحالة ٩ / ١١٤ |

| التسلسل | الاسم | التخصص | الولادة ومكانها | الوفاة ومكانها أو تاريخ كان فيه حياً | النسبة | مهاجر مقيم قادم | المصادر والمراجع |
|---------|---------------------------------------|--------------------------|--------------------|---|-----------------------|-----------------------|---|
| ٦٢ | محمد بن عبدالرحيم بن محمد | اهتمام ثقافي عام | | ت ٩ هـ | الموصلي الدمشقي | مهاجر | الضوء ٨ / ٥٣ (٦٣) |
| ٦٣ | محمد | اهتمام ثقافي عام | ٧٧٧ هـ | توفي ٨٦٠ هـ | الموصلي | مقيم | معجم كحالة ١٢ / ٦٨ |
| ٦٤ | محمد بن داود | اهتمام ثقافي عام | بعد سنة ٦٧٠ هـ | توفي قبل سنة ٧٢٨ هـ | الموصلي | مهاجر | الدرر ٤ / ١٦٨٩ |
| ٦٥ | محمد بن الحسن | الحديث | — | حي ٧٠٥ هـ | الموصلي | مقيم | اين القوطي ٤ / ٣ (٢٤٣٥) |
| ٦٦ | محمد بن دانيال | الادب | ٦٤٦ هـ | ت ٧١٠ هـ | الموصلي | مهاجر | درر ٤ / ٥٤ (٣٦٨٥) |
| ٦٧ | محمد بن حياك الله | الادب | — | ت ٧١٤ هـ | الموصلي | مهاجر | المكتاسي، درة الحجال، تحقيق الأحمدي، القاهرة ١٩٧١، ج ٢ / ٣١٠. |
| ٦٨ | محمد بن عبد الله بن علي بن المعافى | الحديث | — | ٧٣٠ هـ | الموصلي ثم الدمشقي | مهاجر | درر ٤ / ٣٧٩٩ |
| ٦٩ | محمد خزام بن عبدالكريم | تصوف | ٧٦٧ هـ الموصل | | الواسطي | قادم | الصيادي، تنوير الأبصار، مصر ١٣٠٦ هـ ص ٦٢، ٦٣ |
| ٧٠ | محمد بن الحسن | اهتمام ثقافي عام | | ت ٧٣٥ هـ | الموصلي | مقيم | كحالة ٩ / ٢٦٢ |
| ٧١ | محمد بن عبدالقاهر | الفقه الحديث الادب | ٦٩٨ هـ الموصلي | ت ٧٧٨ هـ دمشق | الشيبياني الشهرزوي | مهاجر | إنباء ١ / ١٤٤؛ درر ٤ / ٣٩٣٤ |
| ٧٢ | محمد بن علي بن احمد | لغة موسيقى | ٦٨٦ هـ | ت ٧٤١ هـ | الأرطلي ثم الموصلي | مقيم | الدرر ٤ / ٤٠٢٣ |

| التسلسل | الاسم | التخصص | الولادة ومكانها | الوفاة ومكانها أو تاريخ كان فيه حياً | النسبة | مهاجر مقم قادم | المصادر والمراجع |
|---------|---------------------------|--------------|-----------------|--------------------------------------|-----------------------------|----------------|-----------------------------------|
| ٧٣ | محمد بن علي بن عبد الكريم | التصوف الأدب | | ت ٧٤٥ هـ | الموصلية الواسطية | مهاجر | فهرس مخطوطات اوقاف بغداد/ رقم ٨٨٥ |
| ٧٤ | محمد بن يحيى بن عمر | الحديث | ٦٦٠ هـ | ت ٧٣٣ هـ دمشق | القيمي ثم الموصلية الدمشقية | مهاجر | الدرر ٥ / ١٨٨٨ |
| ٧٥ | محمود بن ابي بكر | الفقه | ٦٤٤ هـ | ت ٧٠٠ هـ | | قادم | الدرر ٥ / ٤٧٩٢ |
| ٧٦ | موسى بن محمد بن موسى | الفقه | | ت ٧١٥ هـ | الأربلي الموصلية | مقيم | شذرات ٦ / ٤٣ ، الدرر ٥ / ٤٨٩٧ |

الهوامش

- (١) انظر الجداول اعلاه، الأرقام ٣٦، ٣٩، ٤٩.
- (٢) انظر الجداول اعلاه، الأرقام ٦، ١٧، ٢١، ٣٧، ٥١، ٥٢، ٦٦، ٦٧، ٧١.
- (٣) انظر الجداول اعلاه، الأرقام ٧، ٢٦، ٢٤، ٥٦.
- (٤) انظر الجداول اعلاه، الأرقام ٢٧، ٤٢، ٥٠، ٥١ مع أرقام هامش ٣.
- (٥) انظر الجداول اعلاه.
- (٦) بلغ عدد التخصصين بالأدب خلال القرنين الثامن والتاسع باعتباره تخصصاً أولاً لهم ثلاثة عشر اديباً، في حين مجموع التخصصين في فروع المعرفة الأخرى خلال الحقبة نفسها ٨٢ شخصاً.
- (٧) ابن حجر، الدرر الكامنة ج ٤ / ٤٠٨٠، ابن العاد، شذرات الذهب ج ٦ / ٧٤
- (٨) كحالة، معجم المؤلفين ج ٧ / ١٢٤.
- (٩) ذيل كشف الظنون ج ٣ / ٤٨٨ ؛ هدية العارفين ج ١ ص ٧٢٠، اعيان الشيعة ٤١ / ٥٧ ؛ كحالة ج ٧ / ١٢٤.
- (١٠) ابن القوطي، تلخيص مجمع الآداب ج ٤ / ٢ (١٠٩٩)
- (١١) ابن حجر، انباء الغمر ج ١ / ٥٢١ (٣٩)
- (١٢) المصدر نفسه ج ١ / ٣٤٢ (١١)، الدرر الكامنة ج ٣ / ٢٧٢٩
- (١٣) الدرر الكامنة ج ١ / ٢٩٤، السيوطي، بغية الوعاة، تحقيق عماد ابو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٦٤، ج ١ / ١٧٥.
- (١٤) الدرر الكامنة ج ١ / ٨١٥
- (١٥) ابن القوطي، المصدر السابق ج ٤ ق ١ / ٦٦، ابن رجب، الذيل على طبقات ج ٢ / ٤٧٢.
- (١٦) الصفدي/ كتاب الوافي بالوفيات، دمشق المطبعة الهامشية ١٩٥٣، ج ٣ / ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٧
- (١٧) ابن القاضي، احمد بن محمد الكناسي، ذيل وفيات الأعيان، المسمى: درة المجال في اسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدى، ابن النور، ط (١)، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٩٧١ ج ٢ ص ٣١٠-٣١١.
- (١٨) الدرر الكامنة ج ٢ / ١٥٩٨
- (١٩) المصدر نفسه ج ٣ / ١٠٦ (٢٨٧١)
- (٢٠) المصدر نفسه ج ٣ / ٤١٤ (٣١٩٠)
- (٢١) ابن حجر، انباء الغمر ج ١ / ٥٢ (٣٩)
- (٢٢) ابن حجر، انباء الغمر ج ١ / ١٤٤، الدرر الكامنة ج ٤ / ٣٩٣٤.
- (٢٣) الصفدي، المصدر السابق ج ٣ / ٢٧٧ (١٣١٧)
- (٢٤) ابن حجر، انباء الغمر ج ١ ص ٣٤٢، الدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٧٢٩، الزاوي، تاريخ الادب العربي ص ٤٨.
- (٢٥) الزاوي، تاريخ الادب العربي في العراق، بغداد ١٩٦١ م، ج ١ / ٣٣٠ نقلاً عن نسخة خطية لديه من اعيان البيان لياسين العمري.

(٢٦) ابن حجر، ابناء الفرج ٣/٣٥٣، السخاوي، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ج ٣/ ٣٠١، وانظر عنه محمد حسين نجيم، شمعان الآثارى وجهوده في النحو، رسالة ماجستير على الآلة الكاتبة، تقدم بها الى كلية الآداب، جامعة الموصل ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٦.

(٢٧) السخاوي، الضوء اللامع ج ٩/ ١٥٢ (٣٨٧)

(٢٨) المصدر نفسه ٧٥ ج ٧٢/٧ (١٣٥)

(٢٩) المصدر نفسه ج ١٠/ ٦٥ (٢١٨)

(٣٠) انظر ما كتبه الباحث آنفاً عن الواقع الحضاري في حقب التسلط الابلخاني (المغولي) والجللازي والقره قوينلي والآق قوينلي. وللباحث دراسة عن التيارات الرعوية وتأثيراتها على الفكر والثقافة في العراق، قيد الانجاز.

(٣١) انظر المباحث السابقة عن الاوضاع السياسية في الموصل في ظل التسلط الجللازي، وتسلط اسرتي قره وآق قوينلر.

(٣٢) انظر مبحثنا عن الاوضاع السياسية في الموصل في ظل التسلط الجللازي، وبخاصة حقبة الحكم غير المباشر.

العلوم العقلية

٥. دريد عبدالقادر نوري

- ١ -

جانب منها في بعض فترات تاريخهم الاسلامي الطويل، شأنهم في ذلك شأن كبريات المدن العربية الاسلامية المعروفة كبغداد وحلب ودمشق والقاهرة. وقد اشتهر من هذه المدينة عشرات العلماء المبرزين الذين برعوا في علم الطب والرياضيات عموماً وفي علم الكيمياء والفلسفة وفي علم التاريخ^(١). كما ساهمت هذه المدينة العريقة بتأليف كثير من الكتب في تلك الاختصاصات، اضافة الى العديد من المنجزات العلمية التي سنشير اليها تباعاً.

كانت دراسة هذه العلوم العقلية في القرون الهجرية الاولى تعتمد اعتماداً كبيراً على المعطيات النظرية وما توافر لتلك العلوم من مقدمات وردت في العقيدة الاسلامية من كتاب وسنة وما تطرق اليه الفقهاء والعلماء من تفسيرات لبعض آيات القرآن الكريم المتعلقة بالسماء والكون، ولما جاء في العقيدة الاسلامية من مسائل تستوجب الاهتمام بعض جوانب البحث العقلي كالاهتمام بالرياضيات والفلك لأموور تتعلق بالعبادة في الاسلام وتقسيم

العقل كما هو معروف: ما يعقل به حقائق الأشياء، وما يستفاد منه في العدول عن سواء السبيل^(٢). والعلوم العقلية هي التي يتمكن الانسان من الاهتداء اليها بمداركه البشرية فيصل الى موضوعاتها ومسائلها ووجوه تعليمها بفكره ونظره^(٣)، اي باستخدامه لعقله بعكس العلوم النقلية التي يستخدم فيها العقل فقط «في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول... وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة»^(٤).

والعلوم العقلية غير مختصة بأمة دون أخرى، او بمدينة دون سواها، بل توجد لدى كل الأمم وفي كل المدن حيث توجد عوامل الابات لها، وبالامكان انتقالها من جبل الى جبل ومن أمة الى أخرى بوسائل عدة. وتشمل العلوم المنطقية والطبيعية من طب وفلك ورياضيات وكيمياء فضلاً عن علم الفلسفة والتاريخ.

ومن خلال استقراء مصادر التاريخ تبين ان اهل الموصل اهتموا بدراسة العلوم العقلية وبرعوا في

الآثار والتراكات ودراسة علم الطب لمعرفة معجزة الخالق في خلقه ولمعرفة كيفية التطبيق والعلاج لآبراء الخلق مما يعانون منه من اوجاع وآلام لما في ذلك من مكاسب أخروية ودنيوية .

وعلى مر الأيام وانسجاماً مع سياق التطور التاريخي والحضاري لهذه الأمة العريقة وما عرف عنها من عدم التعصب والانفتاح على حضارات الأمم الأخرى (التفاعل الحضاري) وما أعقب ذلك من حركة النقل والترجمة والرحلات العلمية وتشجيع من قبل الأمراء والولاة ، وما كان لموقع هذه المدينة المهم ، والاقبال الواضح لعلمائها على تعلم العلوم العقلية ، بدأت الموصل تشارك عملياً اندادها من المدن العربية الإسلامية الأخرى تطوير المعارف العقلية في الأمة العربية الإسلامية ، خاصة وإن الدين الإسلامي كان سباقاً من بين عقائد عصره يدعو إلى طلب العلم والمعرفة وإلى الاقبال على العلوم والمعارف بشتى الوسائل ومن كل المنابع (٥) . ويكفي دليلاً على مشاركة الموصليين في تطوير مسار المعارف العقلية للأمة العربية الإسلامية النتائج العلمي الذي قدموه في شتى الاختصاصات وتخريج العلماء الأجلاء وقد أشار المؤرخ ابن الأثير إلى هذا الجانب بقوله : إن الموصل «خرج منها جماعة من العلماء والأئمة في كل علم» (٦) وتباعاً يعرض البحث لتلك المعارف العقلية وأهم العلماء المتخصصين ومنجزاتهم العلمية ومساهماتهم الحضارية .

- ٢ -

في مجال الرياضيات جاء اهتمام علماء الموصل به في قرونهم الهجرية الأولى ضمن نشاطاتهم الفكرية التي وجهوا إليها بعد إسلامهم حيث تطلب منهم تحديد بدايات الأشهر الحرم (٧) وتقسيم التراكات والآثار وتوزيعه على مستحقيه وتوزيع الغنائم وتنظيم حسابات المدينة (بيت مال المسلمين) ، وعليه فقد جاء التخصص في هذا العلم

ضمن تخصصات أخرى ، فإحياناً كان العالم متخصص بالفقه والرياضيات معاً . أو كان يختار لمن يكون كاتباً في ديوان الإمارة وبيت المال أن يكون له اضطلاع كبير بعلم الرياضيات . وإحياناً أخرى برز عالم الرياضيات مستقلاً عن غيره من العلوم .

وعليه لم تفرد المصادر التاريخية معلومات مستقلة عن هذا العلم في القرون الثلاثة الهجرية الأولى ، وكان منطقياً - كما أشرنا من قبل - أن يكون فقهاء المدينة وعلمائها قد اهتموا بعلم الرياضيات لحاجتهم إليه طبقاً للمسائل العقائدية والعملية التي كانوا بحاجة إليها .

وبعد القرن الرابع الهجري حيث ازدادت الحاجة لهذا العلم واستفيد مما لدى الأمم الأخرى في هذا الخصوص ، ونظراً لتشجيع الأمراء لإنشاء المدارس وبيوتات العلم أخذت تظهر لأهل الموصل مساهمات جادة في علم الرياضيات حيث تولوا بأنفسهم تنظيم دواوين المدينة وضبط سجلاتها وتنظيم رواتب الموظفين والمقاتلين . وكان من هؤلاء (أبو العباس العمراني الأزدي الموصلي) والذي كان حاذقاً بعلم الحساب مهتماً بفنونه أشاد به مؤرخ الموصل ابن الشعار في عقود الحمان ولم يذكر تاريخ وفاته (٨) .

ومنهم عالم الحساب (أبراهيم بن نصر بن عيسى الموصلي) المولود في الموصل عام ٥٨٢هـ / ١١٨٦م والذي كان حاذقاً بعلم الحساب له خبرة دقيقة في مسائله وقوانينه ، نصبه الأمير بدر الدين لؤلؤ مسؤولاً عن خزائنه ثم أناط به النظر في الأعمال السلطانية والأشغال الدويانية في الموصل وذلك لسعة اطلاعه وخبرته التامة في علم الحساب (٩) . وكما أشرنا من قبل فإن بعض علماء الحساب الموصليين كانوا على درجة كبيرة من الخبرة وسعة الاطلاع في أكثر من علم واحد حيث كان بعضهم - إلى جانب كونه فقيهاً وأديباً - عالماً في صنوف الرياضيات من حساب أو هندسة أو جبر . كان

منهم العالم الفقيه (محمد بن محمد بن عبد الكريم المعروف بـ مجد الدين ابن الاثير) المتوفى سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م والذي وصفه المؤرخ عز الدين بن الاثير بأن له تصانيف بعدة علوم وعالمًا بالحساب^(١٠)، وله في ذلك عدة رسائل جاءت واضحة وصفها الحموي بأنها مجدولات^(١١).

ومن علماء الحساب الموصليين أيضاً (احمد بن الحسين المعروف بأبن الخيزان)^(١٢) المتوفى سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م وردت له عدة مؤلفات جاء منها في علم الرياضيات كتاباً اسماء «الفخري في الحساب»^(١٣). ومن أبرز علماء الموصل في هذا الجانب (موسى بن يونس ابو الفتح الملقب بكمال الدين بن منعة) المتوفى سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م والذي كان مطلعاً على علوم اقليدس وله مقدرة فذة بعلم الفلك والمخروطات والمتوسطات وأنواع الحساب وفي الجبر والمقابلة وكانت معرفته لا يشاركه فيها أحد في عصره. وقد وصفه ابن خلكان بقوله: «كان يدري في الحكمة والمنطق والطبيعي والالهي، وكذلك الطب، ويعرف فنون الرياضة من اقليدس والمهينة، والمخروطات والمتوسطات والمجسطي وأنواع الحساب، المفتوح منه، والجبر والمقابلة، والارشاطيني وطريق الخطأين والموسيقى والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره الا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها»^(١٤).

ويبدو ان علماء الرياضيات في بلاد الشام كانوا يستشيرونه فيما يشكل عليهم من مسائل رياضية، وقد أشار ابن خلكان الى انه في سنة ٦٣٣هـ/١٢٣٥م أرسل احد علماء الرياضيات في دمشق الى ابن منعة مسائل عدة في الحساب والجبر والمساحة ترجاه فيها ان يكشف عن جوابها ويحل غوامضها. وقد أجابه ابن منعة جواباً علمياً يعجز الانسان في عصره، ان يجيب بمثلها^(١٥).

وفي زمن الملك الكامل الايوبي ارسل الافرنج الى بلاد الشام مسائل طبية وفلسفية وهندسية

ارادوا لها جواباً. وقد اجاب اهل الشام عليها جميعاً الا الأسئلة الهندسية فأرسلوها الى الموصل حيث كمال الدين بن منعة فأجابه لهم وأرسلها الى السلطان الكامل وكانت مثار اعجاب علماء الرياضيات هناك^(١٦).

وما يجدر ذكره ان كمال الدين بن منعة ألف عدة كتب في علم الرياضيات كان من أهمها: رسالة البرهان على المقدمة التي أهلها ارخميدس وكتاب شرح الاعمال الهندسية ورسالة في الرياضيات تصويماً على المسائل الرياضية التي ألفها الطوسي^(١٧). كما اشترك كمال الدين مع العالم العربي محمد بن حسين (احد رياضي القرن السابع الهجري) في تأليف رسالة في المخروطات سماها (البركار التام)^(١٨).

وفضلاً عما سبق من علماء الرياضيات فقد اشارت بعض المصادر الى ذكر عدد آخر منهم العالم احمد بن علي الازدي الموصلي (ت: ٦٢٦هـ/١٢٢٨م) والعالم محمد بن عبد الواحد (ت: ٦٢٨هـ/١٢٣٠م) واخيراً يجب ان لانسى العالم الرياضي الموصلي علم الدين بن قيصر بن مسافر (ت: ٦٤٩هـ/١٢٥١م) والذي كان من خيرة علماء عصره في الرياضيات حاذقاً ماهراً فيه^(١٩).

- ٣ -

وفي علم الكيمياء كان لاهل الموصل باع طويل مشهود فيه وخاصة بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي. فقد كانت الكيمياء القديمة تهتم بتحويل المعادن الرخيصة الى الذهب او الفضة، وكان لا بد من كتمان هذه الصنعة الا على الخواص من اهلها^(٢٠). ولقد شاع في تاريخ الكيمياء الكثير من القوي والخداع والباس المعادن الرخيصة ثوب المعادن الشريفة، ولذلك سميت (الصنعة)^(٢١) ثم دخلت عليها صناعة (الاكسير) الذي يطيل الحياة ويحفظ الاجساد سواء أكان في الحياة الدنيا او بعد انتقالها الى الدار الآخرة^(٢٢).

أسس علمية واستخدم الكيمياء في خدمة الطب ولذلك كان محط أنظار طلاب العلم وأمرء المدينة^(٣١).

وما يجدر توكيده ان الموصليين - كما اشرنا من قبل - عرفوا علم الكيمياء بأسسه العلمية ونتائجها الايجابية لخدمة المجتمع واغراضه النبيلة ، ولذلك فمن يبادر بهذا العلم الى طريق الحيل والشعوذة والمصالح الشخصية فإن الموصليين كانوا يحاربونه ويطردهونه من مدينتهم . بل وقد يقتلونه والعكس صحيح .

ففي عهد بدر الدين لؤلؤ وبعد سنة ٦٣٥هـ طرد من مدينة الموصل الكيميائي محمد بن احمد البعشيقي الموصلي لاستخدامه الكيمياء في أمور غير سليمة^(٣٢) . وفي عهد مجاهد الدين قايماز ورد الى الموصل رجل ادعى المعرفة بعلم الكيمياء فاکرم غاية الكرم ، ولما علم انه متحايل ويستخدم الكيمياء لاغراض غير شريفة حاربوه ثم قتلوه^(٣٣) .

- ٤ -

اما في علم الفلك فقد برز لأهل الموصل اهتمامات واضحة فيه . وكانت الاهتمامات الاولى بهذا العلم تعتمد على تفسير ماورد في العقيدة الاسلامية من نصوص تخص الأرض والسماء والكون وماورد في العبادة من فرائض تتطلب من فقهاء المدينة وعلمائها معرفته لفهم الاسلام وتطبيق اركانه - كما اشرنا الى ذلك من قبل .

وتطور المدينة حضارياً وحاجتها الى المزيد من العلوم نال علم الفلك او (الهية) اهتماماً كبير لدى علماء الموصل وقد استندوا في تطويره الى دراسات علمية فابنرى لهذا العلم عدد من العلماء الأجلاء الذين قدموا خبراتهم في هذا الخصوص فوضعوا الجداول الفلكية ، وصنع بعضهم الآخر الكرات الفلكية وبعض الادوات الاخرى ذات القيمة الجليلة في خدمة العلم والشريعة والمجتمع . ولقد كان العصر الاتابكي في الموصل عصرًا

غير ان المسلمين اتجهوا بهذا العلم الى الطريق الصحيح في استخدامه لاستخراج تراكيب الادوية والمستحضرات المعدنية وتنقية المعادن وصناعة بعض المواد المهمة كالصابون والاصباغ وديج الجلود وغيرها^(٣٤) . وقد استخدم العرب في كل ذلك التجارب العلمية بعد ان رفضوا الفروض اليونانية الغامضة وتمسكوا بالملاحظة الدقيقة والتجربة .

وهكذا خلغ على علم الكيمياء اصالة البحث العلمي فكان العرب بحق مؤسسي هذا العلم بقواعده الجديدة حيث « ابعدا عنه السرية والغموض والرمزية بعد ان استمر هذا الاسلوب مدة طويلة »^(٣٥) .

وفي مدينة الموصل كان علم الكيمياء يسير بالاتجاه الصحيح وأخذ يتحول الى علم أصيل يعتمد على التجربة والملاحظة العلمية ويخصص لاستخدامات علمية كسائر المدن العربية الكبيرة ، حيث أخذ العلماء في صناعة الادوية واعداد العقاقير واستخراج بعض المواد المهمة في حياة الانسان كاستخراج ماء الورد والروائح العطرية^(٣٥) والاصباغ وكذلك في صناعة بعض المركبات الكيميائية^(٣٦) .

ومن بين من اهتم بعلم الكيمياء من الموصليين الكيميائي ابو اسماعيل الحسين بن علي المعروف بمؤيد الدين الطغرائي (ت : ٥١٤ هـ / ١١٢٠ م) والذي كان معروفًا في الاوساط العلمية بالاستاذ والمنشئ^(٣٧) ، فقد كشف بعضاً من أسرار الكيمياء وفك رموزها وعدّ في عصره من شيوخ هذه الصنعة^(٣٨) ، وله تصانيف عدة في هذا الخصوص منها : الجوهر النظير في صناعة الاكسير ورسالة في حقائق الاستشهادات في الكيمياء وتراكيب الانوار ومصاييح الحكمة وغيرها^(٣٩) .

كذلك اشتهر من الموصليين بعلم الكيمياء كمال الدين بن منعة - السابق الذكر - (٥٥١ - ٦٣٩ هـ) والذي كان عالماً جليلاً متضلعا بعلم كثيرة كعلوم اللغة والرياضيات فضلاً عن علم الكيمياء^(٣٠) . وقد درس هذا العلم ابن منعة على

زاهياً بعلوم الفلك حيث نبغ فيه بعض العلماء الذين صنعوا عدداً من الادوات الفلكية المهمة ووضعوا اسماءهم وتاريخ الصنع عليها، وكان بعضها مطعماً بالذهب والفضة لايزال موجوداً حتى اليوم^(٣٤) كالكرة الارضية التي صنعها العالم الفلكي الموصلي محمد بن هلال سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م والتي لا تزال محفوظة في المتحف البريطاني^(٣٥).

ولقد كان العالم كمال الدين بن منعة (ت: ٦٣٩هـ / ١٢٤١م) - المار ذكره من قبل - احد اشهر فلكي الموصل في عصره وكان له اطلاع واسع بعلم الفلك وقام بتدريسه لسنوات طوال في مدارس الموصل^(٣٦).

والف فيه عدداً من الكتب والرسائل منها: الاسرار السلطانية في النجوم ورسالة في تصحيح عصا الشرف للطوسي والتي تتعلق باختلاف مناظر القمر ومسائل اخرى بنفس الاتجاه^(٣٧).

ومن استقراء المصادر التاريخية التي اشارت الى هذا العالم الموصل يبدو انه كان مقرباً من امراء الموصل كثيراً نتيجة لعلومه ومقدرته الكبيرة في علم الفلك والتي فاقت حدود بلاده، حيث كان الافرنج يرسلون الى الامير بدر الدين لؤلؤ ببعض المسائل المتعلقة بالفلك والنجوم كان بدوره يرسلها للعالم كمال الدين ليضع لها حلاً، يقوم بعدها بارساله اليهم^(٣٨). مما يدل على سعة اطلاعه في علم الفلك وشهرته وعدم وجود المنافس له.

وما يجدر ذكره ان العالم الموصل كمال الدين بن منعة سبق العالم غاليلو في معرفة بعض قوانين الرقاص^(٣٩)، كما اصاب في اصلاح بعض الاخطاء التي وقع فيها الشيخ شرف الدين الطوسي في رسالته التي وضعها في علم الفلك والتي اسمها «العصا»^(٤٠) كذلك شارك فلكيو الموصل في بناء مرصد مراغه سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م والقيام بعمليات الرصد ووضع الجداول الرياضية المتعلقة بمواقع النجوم وحركاتها^(٤١).

ومن الواضح فان فلكي الموصل نهضوا ايضاً بدور واضح في تخريج عدد لا بأس به من العلماء المتخصصين بعلم الفلك حيث انتقل بعضاً منهم الى المدن العربية المجاورة لاداء مهامهم الفلكية منهم العالم أثير الدين المفضل بن عمر الأبهري (ت: ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م) وقد عاش فترة طويلة بالموصل وتلمذ على يد العالم كمال الدين بن منعة، ثم انتقل بعدها الى مدينة أربل وكان هناك يعمل ويدرس الفلك الى جانب الرياضيات^(٤٢).

ومن عُرف ايضاً من الموصليين بالفلك والتنجيم واشتهر به في مدينة الموصل العالم ابو عبدالله محمد ابن علي بن ثابت الموصل المولود سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م^(٤٣) وكذلك العالم عبد الباقي بن محمد بن علي الذي كان حياً سنة ٦٥٠هـ / ١٢٥٢م والعالم عاد الدين بن الدهان الذي وصف بأنه كان على اطلاع بالفلك و«رئيس المنجمين يومئذ بالموصل»^(٤٤).

- ٥ -

اما في الفلسفة فقد تخصص بعض علماء الموصل في دراستها، كسائر العلوم العقلية الاخرى، وكان العصر الاتاكيي مميزاً في هذه الدراسة ومناقشة كتب السابقين من الفلاسفة. وقد جاء في كتاب عيون الأنباء ان الموصليين في القرن ٦هـ / ١٢م تعلقوا بالفلسفة ودراستها. وقد تعلق الكثير منهم بالشيخ شهاب الدين السهروردي^(٤٥) لتعليمهم اياها. وكان اعتقادهم به كبيراً ويرون انه قد فاق الاولين والآخرين من الفلاسفة^(٤٦).

كذلك فقد كانت كتب الفارابي وابن سينا متداولة بين يدي علماء الموصل، وكان بعضهم يدرسها على طلابه ومن يرد اليهم من المدن المجاورة وكان ممن اهتم بالفلسفة من علماء الموصل ودرسها العالم كمال الدين بن منعة - المار ذكره من قبل -

وقد ذكر المؤرخ ابن العربي ان المدعو تاذري الانطاكي قدم للموصل من انطاكية ليدرس الفلسفة على يد ابن منعة^(٤٧). كما قدم الموصل العالمان نجم الدين القمراوي وشرف الدين التتائي لدراسة الفلسفة على يد كمال الدين بن منعة ايضاً^(٤٨) وقد ألف الاخير عدة كتب ورسائل في مضمار الفلسفة منها : (عيون المنطق) وكتاب (لغز في الحكمة)^(٤٩).

وقد عرفت الموصل ايضاً العالم الفيلسوف اثير الدين بن عمر الاهري (ت : ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م) وكان بارعاً في فهم الفلسفة عالماً بأسرارها . وقد ألف عدداً من الكتب في هذا الخصوص منها كتاب (هداية الحكمة)^(٥٠) وكتاب (زبدة الاسرار) وقد ترجمه الى السريانية المؤرخ السرياني ابن العربي^(٥١).

ومن درس الفلسفة من الموصلين وعرف بها العالم الفيلسوف عبداللطيف بن يوسف بن محمد بن علي الموصللي المعروف بابن اللباد (ت : ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م) وكان عالماً بالعلوم القديمة^(٥٢) حجة في مدينته ، ألف عدة رسائل في علم الفلسفة لم نعر على اية منها ، ولعل في الكشف عن المخطوطات القديمة مايوضح بعض تلك الرسائل مستقبلاً.

ويبدو ان بعض الموصلين كانوا خلال القرن السابع الهجري لايقبلون على الفلسفة وتعلمها لانها بحمد زعمهم علم لايفيد وان ايمانهم الراسخ بالاسلام يكتفي لالغاء هذا العلم المستورد ، ولذلك ترك بعض العلماء تدريسه خوف الفتنة والاعتقاد الخاطي السائد بمن كان يدرسه من العلماء . حتى ان كمال الدين بن منعة نصح الفقيه المعروف بابن الصلاح الشهرزوري (ت : ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م) بعدم دراسة الفلسفة خوفاً عليه من فساد اعتقاد الناس به^(٥٣) في حين بقي بعض العلماء محتفظاً بعلمه الفلسي وبكتبه لا لاجل الفلسفة حسب ، وانما

لاستخدامها وسيلة للرد على اهل البدع والزندقة وما شاكلهم من غير المسلمين ممن كان يستخدم الفلسفة في محاربة العروبة والاسلام .

فضلاً عن ذلك فان دراسة الفلسفة في مدينة الموصل جاءت تلبية لنداءات اجتماعية اخلاقية . لان دراسة الفلسفة كانت بنظر المسلمين الانقياء تدرس لتحصيل السعادة الابدية^(٥٤) وكان فقهاء الموصل وعلمائها يمعنون في الفلسفة لكشف مظاهر الفساد الاجتماعي لان من أهم مهام الفيلسوف اصلاح المجتمع كما جاء في العديد من مقولات فلاسفة المسلمين.

كما سبق يبدو ان الموصل أنجبت خلال الفترة موضوع البحث علماء اجلاء تخصصوا في دراسة العلوم العقلية وتوصلوا الى نتائج مثمرة حيث ساهموا بمنجزاتهم باغناء الحضارة العربية الاسلامية في علم الطب والفلك والهندسة والرياضيات والفلسفة والكيمياء . فقد ألفوا كثيراً من البحوث والدراسات . وهم بذلك قد حافظوا قبل كل شيء على تاريخ هذه المدينة وحضارتها وهي جزء من حضارة هذه الامة . فقد حوت مؤلفاتهم وصف المدينة وخططها ورجالها وعلومها اضافة الى طبيعة تلك العلوم العقلية ، التي كانت موجودة ومدى ماقدمته من خدمات لصالح المجتمع والامة والحضارة الانسانية عموماً.

وقد عرفت هذه العلوم العقلية التي نشطت في هذه المدينة ، في الفترة موضوع البحث ، بانها لم تكن ذات طابع اقليمي ضيق : وانما كانت جزء من حضارة العرب المسلمين واستمرار لها بما يتفق والسباق العام . لان الحضارة كما يقول ابن خلدون : تظهر في المدن والامصار والبلدان في الحضرة لا في البادية^(٥٨) ومن مجموع حضارة المدن تتكون حضارة الامة.

عليه فان العلوم العقلية في مدينة الموصل قامت على اساس الوحدة ولم اجد فيها بوادر اقليمية ، كما

انها تميزت بكونها انسانية ، لم اجد فيها إنغلاقاً على جماعة دون اخرى ، شأنها شأن الحضارة العربية الاسلامية ، كما انها كانت اخلاقية لأن علماءها كانوا ذوي اصول دينية او فقهاء او ممن عُرف بالتقوى والايمان والصلاح.

ومن الجدير بالذكر ان القرنين الخامس والسادس الهجريين كانا اوفر حظاً من القرون الاولى وما تلاهما من القرون. ويبدو ان الظروف السياسية والعسكرية الصعبة التي مرت بها الموصل حالت دون تقدم مسيرة العلوم العقلية فيها حيث انشغل معظم القوم بمنجزات الاسلاف. علماً بأن التاريخ والفلك والرياضيات اصابها حظ اوفر مما اصاب العلوم الاخرى للحاجة اليهم ولصلتهم بالاسلام وعلومه الشرعية مما اشرنا اليه في بداية هذه الدراسة .

الهوامش

- (١) انظر: ابر الحسن المرحباني، التعريفات (تونس: ١٩٧١)، ص ٨١.
- (٢) ابن خلدون، المقدمة، مطبعة الكشاف (بيروت: د/ت)، ص ٤٣٥.
- (٣) نفسه.
- (٤) مما تجدر الاشارة اليه ان هذا البحث سوف يتجاوز الحديث عن علم الطب والتاريخ لانفرادهما ببعضين مستقلين ضمن هذه الموسوعة مما يمكن الرجوع اليها.
- (٥) للمزيد عن حث العقيدة الاسلامية على طلب العلم والتعليم وفضل العلم انظر: ابو حامد الغزالي، احياء علوم الدين، مطبعة الاستقامة (القاهرة: د/ت): ٨٩-٤/١.
- (٦) ابن الاثير، الباب في تهلل الانساب (بغداد: د/ت): ٣/ ٢٦٩.
- (٧) انظر: علي عبدالله الدفاع، العلوم البحتة في الحضارة العربية الاسلامية، مؤسسة الرسالة (بيروت: ١٩٨١)، ص ١٠١.
- (٨) انظر: عبد الجبار حامد، الحياة العلمية في مدينة الموصل في عصر الاتابكة، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الموصل ١٩٨٦)، ص ٢٦٧.
- (٩) السابق، ص ٢٦٧.
- (١٠) الكامل في التاريخ: ٢٨٨/١٢.
- (١١) معجم الادباء (بيروت: د/ت): ٨٦/١٧.
- (١٢) وقال عنه ابن تيري بردي انه كان اماماً بارعاً عالماً بالنحو واللغة

- والعروض والقرائن: النجوم الزاهرة: ٣٤٢/٦. عليه فإن ابن الخيزر كان عالماً باللغة الى جانب كونه عالماً بالرياضيات.
- (١٣) انظر: محمود حموي ياسين، الحياة الفكرية في الموصل في القرن السابع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الموصل: ١٩٨٩)، ص ١٥٠.
 - (١٤) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٣٩٦-٣٩٧/٤؛ وانظر: قلدري حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات (بيروت: ١٩٦٣)، ص ٣٩٦.
 - (١٥) ابن خلكان، السابق: ٣٩٥.
 - (١٦) القزويني، اثار البلاد واخبار العباد (بيروت: ١٩٦٠)، ص ٤٦٣.
 - (١٧) انظر: الزاوي، علماء الرياضيات والفلك، بحث منشور في مجلة سومر (بغداد: ١٩٧٢): ٢٣١/٢.
 - (١٨) حامد، الحياة العلمية، ص ٢٧٢.
 - (١٩) انظر: ابر القدا، المختصر: ٩١/٦، محمود، الحياة الفكرية، ص ١٥٣.
 - (٢٠) انظر: الخوارزمي، مفاتيح العلوم (القاهرة: ١٣٤٢هـ)، ص ٤٤٦.
 - (٢١) ابن التميم، الفهرست، ص ٣٥١.
 - (٢٢) انظر: محمد صادق عقيقي، تطور الفكر العلمي عند المسلمين (القاهرة: ١٩٧٧)، ص ١٥٧.
 - (٢٣) نفسه، ص ١٥٩.
 - (٢٤) حكمت نجيب، دراسات في تاريخ العلوم عند العرب (جامعة الموصل: ١٩٧٧)، ص ٢٤٣.
 - (٢٥) عبد التميم ماجد، تاريخ الحضارة الاسلامية (القاهرة: ١٩٧٣)، ص ٢٥٣.
 - (٢٦) زكريا هاشم، فضل الحضارة الاسلامية على العالم (القاهرة: ١٩٧٠)، ص ٤٥٦.
 - (٢٧) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ١٨٥/٢.
 - (٢٨) الحموي، معجم الادباء: ٥٨/١٠.
 - (٢٩) نفسه.
 - (٣٠) للمزيد عنه راجع الديوه جي، تاريخ الموصل (بغداد: ١٩٨٢)، ص ٣٨١.
 - (٣١) انظر: حامد، الحياة العلمية، ص ٢٥٩.
 - (٣٢) حامد، السابق، ص ٢٥٩.
 - (٣٣) انظر: ابن المستوفي، تاريخ اربل، القسم الاول، ص ١٦٨-١٦٩.
 - (٣٤) انظر: الديوه جي، تاريخ الموصل، ص ٤٠٨، حامد، الحياة العلمية، ص ٢٦٠.
 - (٣٥) سليمان الصانع، تاريخ الموصل (بيروت: ١٩٥٦): ٨٢/٣.
 - (٣٦) انظر: ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٣١٣/٥. السبكي، طبقات الشافعية: ٣٨١/٨.
 - (٣٧) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥٢/٦؛ وانظر: الزاوي، علماء الرياضيات والفلك في العراق، بحث سابق ذكره، ص ٢٣١-٢٣٢.
 - (٣٨) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٤١١.

- (٣٩) انظر: جلال مظهر، حضارة الاسلام وانما في الترتي العالمي (القاهرة: د/ت)، ص٣٦٦.
- (٤٠) ابن خلكان، وفيات الاعيان: ٥٢/٦.
- (٤١) الكشي، فوات الوفيات: ٢٥١/٣.
- (٤٢) انظر: الدوبيلي، العلم عند العرب، ص٢٩٩.
- (٤٣) حامد، الحياة العلمية، ص٢٦٥.
- (٤٤) ابن ابيك، كنز الدرر وجامع الغرر (القاهرة: ١٩٧١): ٨/٢٧٢.
- (٤٥) للمزيد عن الشيخ السهروردي وقته انظر: دريد عبدالقادر، سياسة صلاح الدين الايوبي (بغداد: ١٩٧٦)، ص٤٤٠-٤٤١.
- (٤٦) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص٦٨٦.
- (٤٧) انظر: تاريخ مختصر الدول، ص٢٧٣.
- (٤٨) ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص٤١١.
- (٤٩) البغدادي، هدية العارفين: ٤٧٩/٢.
- (٥٠) حاجي خليفة، كشف الظنون: ٤٩٤/١.
- (٥١) الدوبيلي، العلم، ص٢٩٩.
- (٥٢) انظر: الغساني، المسجد المسبوك: ٤٥/١: محمود، الحياة الفكرية، ص١٦٥.
- (٥٣) ابن خلكان، الوفيات: ٣١٤/٥.
- (٥٤) انظر: الجرجاني، التعريفات. ص٩٠.
- (٥٥) انظر مقدمة ابن خلدون، مطبعة الكشاف (بيروت: د/ت).
- ص ١٢٢.

العلوم الطبية

د. محمود الحاج قاسم محمد

مقدمة عن الطب ونشأته وتطوره في الموصل

المستوطنين الجدد في الهجرات المتعاقبة من الجزيرة العربية.

واكتسبت الموصل اهمية خاصة ابان الفتوحات الاسلامية عندما امر الخليفة الفاروق عمر (رض) قادة الفتح ان يمسروا عدداً من المدن في طرف البادية (وكانت الموصل احدي تلك المدن) استجابة لحاجات الجيش العربي الاسلامي ولتكون تلك الأمصار مراكز عسكرية ثابتة من الجيش النظامي في مواقع سوقية مهمة.

وفي هذه الأمصار «وبكل تأكيد وان لم تذكر كتب التاريخ الشيء الكثير حول المراكز الطبية - فلا بد ان تواجدت مراكز طبية بشكل من الأشكال لمعالجة المرضى الجند والسهرة على الجرحى ممن تزامن معهم آثار الجراح وكذا معالجة عوائلهم واطفالهم والأشرف على الجرحى الذين ينتقلون الى المحطات الخلفية»^(٢).

ومن الأشارات التي تؤكد هذا القول ما ذكره

من الحقائق الثابتة اليوم بأن طب سكان وادي الرافدين القدماء (وهم العرب النازحون من الجزيرة العربية) يعد طباً رائداً من حيث كونه اقدم محاولات للإنسان في مسيرته التاريخية عبر العصور. وقد اثبتت الدراسات ان هذا الطب سار على طريقتين، طريقة المعالجة بالأدوية مع طريقة المعالجة بالسحر والطب الروحاني، وان هذا الطب انتقل الى الأمم المجاورة (مثل الفرس والأغريق) واثريها تأثيراً فاعلاً.

والموصل التي كان اصلها قلعة من القلاع التي انشأها الآشوريون لحماية مدينة نينوى، واطلق عليها سكانها العرب الذين استوطنوها هذا الاسم^(١)، اخذت تتسع باستمرار الهجرة العربية اليها، وبرز اسم الموصل بمرور الأيام عوضاً عن نينوى. وما لاشك فيه انه كان لأهلها طب متوارث من الأجداد وكان ذلك الطب على نوعين، نوع متطور وهو طب المستوطنين الأوائل وآخر هو طب

الطبري ، أنه كان من بين الأمدادات التي أرسلها عمر (رض) الى الجيوش الإسلامية في العراق الأطباء حيث يقول «عن شعيب عن سيف عن مجالد وعمر بإسنادهما وسعيد بن المرزبان ، قالوا بعث عمر الأطباء» (٣) .

وفي عام ٢٢هـ / ٦٤٣م عين الخليفة عمر (رض) عرفة بن هزيمة البارقى على الموصل ، ونزع معه الكثير من قبائل الأزد وطبي وكندة وعبد قيس ، فوزع عرفة الخطط على القبائل ، فقاموا منازلهم ، وباستمرار نزوح العرب الى الموصل ازداد سكانها ، وتوسعت خططها ، وكثرت منازل الناس فيها (٤) .

وتحولت المدينة اواخر الدولة الأموية الى اهم مركز وطني حضري في الجزيرة مؤدية دور القاعدة او مركز الاستقطاب الرئيس لأقليم متوسع ... رغم كل ما تعرضت له من معوقات ونكسات ، فقد نهضت دوما بدور المحزن والمتجر فضلاً عن وظائفها العسكرية والادارية والثقافية والطبية . استمر تطور المدينة وظيفيا وعمرانيا ، وتأثير اقليمي وعالمي متوسع زمن الدولة العباسية ، وكذلك زمن الدولة الحمدانية (٥) . وعلى الرغم من تسجيل معالم هذا التطور من قبل المؤرخين فأنا نجد ثغرة واسعة بالنسبة لتاريخ الطب والأطباء حيث ان ذلك يكاد يكون معدوماً .

ان قلة معلوماتنا عن الطب والأطباء في الموصل في العهد الأموي والعباسي لايعني بالضرورة عدم وجود طب وأطباء فيها والأفهل كانت الموصل التي كادت ان تضاهي عاصمة الخلافة بغداد في كثير من الامور عاجزة عن تطوير موروثها الطبي ومواكبة تقدمه ؟

وهل كان ابناءؤها عاجزين عن دراسة هذا العلم وفهمه ؟

ام ان اهله لم يكونوا بحاجة للطب والأطباء ؟ وما لاشك فيه أن المنطق يفند ذلك كله .

واذا علمنا بان المساجد في تلك الحقبة التاريخية كانت مدارس لكل العلوم (والطب منها) وان علماء ذلك الزمان كانوا موسوعيين في تلقي العلوم وان الطب يعد فرض كفاية على المسلمين ، فان كل ذلك يؤكد وجوب اهتمام البعض منهم بهذا العلم وممارسته . كما وان قصص معالجة الامراء وحواشيهم المذكورة في كتب التاريخ تؤكد هي الاخرى وجود طب متقدم وأطباء مارسوا المهنة ممارسة طيبة وفي اعتقادنا أن سبب عدم ذكر المؤرخين لهم كان اما لان هؤلاء الأطباء لم يتركوا مؤلفات تشير اليهم او ان مؤلفاتهم فقدت وانطمس ذكرهم بفقدانها .

وبعد هذه المقدمة عن نشأة الطب في الموصل سيكون تناولنا للموضوع من خلال ثلاثة اقسام رئيسة هي

القسم الاول / مشاهير الاطباء .

القسم الثاني / التعليم الطبي والمستشفيات .

القسم الثالث / الخدمات الطبية الوقائية .

القسم الاول - مشاهير الاطباء -

على الرغم من صعوبة ترتيب الاطباء الذين برزوا في الموصل حسب الاجيال التي عاشوا بها (لأن البعض منهم عاشوا في جيلين والبعض الاخر لايعرف بالتحديد تاريخ ولادتهم او وفاتهم) فأنا وجدنا تقسيمهم حسب القرون الهجرية التي عاشوا وبرزوا فيها ما زال هو التقسيم الافضل . والأطباء الذين استطعنا جمعهم من كتب التراث وزعوا على خمسة قرون هجرية ابتداء من القرن الرابع الهجري وحتى نهاية القرن الثامن الهجري ولم نعر على ذكر لأطباء برزوا في الموصل قبل وبعد هذه القرون بالنسبة لهذه المرحلة التاريخية .

اطباء القرن الرابع الهجري

احمد بن ابي الاشعث^(١)

هو ابو جعفر احمد بن محمد بن ابي الاشعث كان وافر العقل سديد الرأي متفهما في الدين . وكان فاضلا في العلوم الحكيمة متميزاً فيها ، وكان مقيماً في فارس فلما اضطربت الاحوال فيها خرج فاراً الى (برقي) في ارمينيا ثم توجه الى الموصل ودخلها حوالي سنة ٣٤٨هـ / ٩٥٩م . وفي الموصل عرفه الناس تقياً ومحبا للخير ، عالي النفس . ثم بدأ يمارس الطب فعرفوه طبيباً مقتدراً واتفق انه كان لناصر الدولة ابو محمد الحسن الحمداني ولد عليل عجز الاطباء عن شفائه عالج له ابن الاشعث فتحسنت حالته وبرئ وصارت له مكانة عند الامير وذاع صيته . واتخذ له تلاميذ عدة الا ان الخاص به والمتقدم عنده كان ابا الفلاح . وكان له عدة اولاد اشهر منهم ابنه محمد في الطب ومن تلاميذه ايضا احمد بن محمد البلدي ومحمد بن ثواب الموصلية واحمد بن الحسين بن زيد بن فضالة البلدي . ويعد ابن ابي الاشعث صاحب مدرسة تخرج فيها اطباء صارت لهم مكانات مرموقة .

مؤلفاته/

يمكن تقسيمها الى اربعة انواع
النوع الاول / المؤلفات غير الطبية وهي :

١- كتاب الحيوان .

٢- كتاب في العلم الالهي .

٣- مقالة في النوم واليقظة .

النوع الثاني / تصانيف كتب الاقدمين من الاعلام والاطباء

١- شرح كثيرا من كتب جالينوس وفصل كل واحد من الكتب الستة عشر التي لجالينوس الى جمل واواباب وفصول ، وقسمها تقسيماً لم يسبقه الى ذلك احد غيره . وكذلك كتاب

الفرق والحميات لجالينوس .

٢- فصل ايضا بعضا من كتب ارسطو طاليس .

النوع الثالث / مؤلفاته الطبية

١- كتاب السرسام والبرسام .

٢- كتاب في القولنج واصنافه ومداواته .

٣- كتاب في البرص والبق .

٤- كتاب في الجدرى والحصباء .

٥- كتاب في الصرع .

٦- كتاب في الاستسقاء .

٧- كتاب في ظهور الدم .

٨- كتاب في ترتيب الادوية .

٩- كتاب في المالبخوليا .

١٠- كتاب في امراض المعدة ومداواتها .

النوع الرابع / مؤلفاته للدراسات العليا

١- كتاب الادوية المفردة، ثلاث مقالات/

يقول في مقدمة الكتاب «سألني احمد بن محمد البلدي ... وقدما كان سألني محمد بن ثواب فتكلمت في هذا الكتاب بحسب طريقتها وكتبته اليها وهما في طبقة من تجاوز تعلم الطب ودخلا في جملة من يتفقه فيا علم من هذه الصناعة ويفرق ويقيس ويستخرج فان من اراد قراءة كتابي ، وكان قد تجاوز مبدأ التعلم الى حد التفقه فهو الذي سينفع به» .

٢- كتاب الغازي والمغتذي .

احمد بن محمد البلدي^(٢)

هو الشيخ ابو العباس احمد بن محمد بن يحيى البلدي من مدينة بلد (بلط) وهي مدينة اسكي موصل اي (الموصل القديمة) . من ابناء القرن الرابع الهجري . لانعرف بالتحديد تاريخ ولادته ولا تاريخ وفاته . الا اننا نرجح انه كان حياً في او قبل سنة ٣٦٨هـ = ٩٧٨م ، ذكر مانغريد اولمان بانه

توفي حوالي ٣٨٠هـ = ٩٩٠م الا انه لم يتأكد ذلك عندنا في اي مصدر اخر.

وكان خبيراً بصناعة الطب حسن العلاج والمداواة وكان من اجل تلامذة احمد بن ابي الاشعث لازمه مدة سنتين واشتغل عليه وتميز.

اكمل دراسة الطب ودخل في جملة من يتفقه في ما علم من هذه الصناعة قبل سنة ٣٥٣هـ = ٩٦٤م.

ذهب الى مصر والتقى بالوزير الاجل ابي الفرج يعقوب بن كلس وزير المعز الفاطمي والف له كتابه تدبير الحبالى والاطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الامراض العارضة لهم في او بعد سنة ٣٦٨هـ = ٩٧٨م.

مؤلفاته :

لا يعرف منها سوى كتاب «تدبير الحبالى والاطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداواة الامراض العارضة لهم»^(٨).

بعد هذا الكتاب قفزة نوعية من حيث كونه اوسع واكمل ما كتب في طب الاطفال قبل عشرة قرون ولان البلدي ثبت فيه اكتشافه لمعالم واعراض مرض الحمى (الجدري = الجدري الكاذب)^(٩) وارسى فيه ايضا الدعامات الاولى لعلم الحصانة ضد الامراض^(١٠).

ولم نعر له على مؤلف اخر على الرغم من اعتقادنا بانه لا يمكن ان يكون قد الف كتاباً واحداً في علم الطب الذي بلغ فيه شوطاً بعيداً في وقت مبكر. الا اننا وجدنا اشارة في كتابه الآنف الذكر حول عزمه على تأليف (١- كتاب حول المعالجة بطريقة تعليق بعض المواد والعلاجات على المريض وتبخيره به. ٢- كتاب عن الجدري والحمى).

محمد بن ثواب الموصلي^(١١)

«هو ابو عبد الله محمد بن ثواب بن محمد ،

ويعرف بابن الثلاث . من اهل الموصل ، فاضل في صناعة الطب خبير بالعلم والعمل وشيخه في صناعة الطب احمد بن ابي الاشعث . لازمه وتميز عليه وكتب بخطه كتباً كثيرة . ومن تلاميذه جابر بن منصور السكري .

ابو الفلاح

من تلامذة أبي الاشعث الخاصين .

جابر بن منصور السكري^(١٢)

وهو اهل واشهر فرد من هذه العائلة التي اشتهر منها كثير من اطباء في الموصل وحلب .

وجابر هذا من اهل الموصل ، وكان مسلماً ديناً وعالماً بصناعة الطب ، من اكبر التميزين فيها . وكان قد لحق احمد بن ابي الاشعث وقرأ عليه . ثم لازم محمد بن ثواب تلميذ ابن ابي الاشعث وقرأ عليه . وذلك سنة ستين وثلاثمائة واشتهر بصناعة الطب واعمالها وكان اكثر مقامه بمدينة الموصل . لكن ابنه ظافر انتقل الى الشام وأقام فيها .

عمار بن علي الموصلي^(١٣)

هو ابو القاسم عمار بن علي . احد اطباء العيون المشهورين . ولد في الموصل وتعلم الكحلة (طب العيون) فيها . مارس الكحلة وعملياتها فقط في كثير من الحواضر التي تجول فيها . من ذلك خراسان وديار بكر وجنوب العراق والكوفة وسوريا ، وفلسطين ومكة المكرمة . واخر مطافه كانت مصر حيث دخلها زمن الحاكم بامر الله الفاطمي (٣٨٦-٤١١هـ / ٩٩٦-١٠٢٠م) الذي جعله احد اطباطه المقرين . الف له كتاب المنتخب في العين حوالي سنة (٤٠١هـ / ١٠١٠م) .

«وفي الكتاب كثير من الافكار الاصلية التي لم يذكرها قبله الكحالون العرب ، وتفصيلات دقيقة

في وصف علامات واعراض امراض العين وتداويها لم يسبقه اليها اليونانيون. ولهذا يعد كتاب المنتخب هذا اكثر الكتب العربية اصالة في هذا الاختصاص».

وصنف عمار بن علي في كتابه هذا مرض الكاناراك (الساد) وحذر من معالجتها بالقدح قبل نضج المرض. وشخص القدح حين يفقد المريض القدرة على تمييز الالوان. ووصف وصفاً دقيقاً عملية الساد واستعمال المقداح الصمد بالسحب والمقداح المجوف بالمص. ويعزى له اختراع المقداح المعدني ويذكر ان الموصل قد عمل في البيمارستانات وفي تعليم صناعة الكحل وكان يستصحب تلاميذه معه حين يعود مرضاه في منازلهم وحين يذهب ليجري العمليات على عيونهم.

كتابه المنتخب ترجم للاتينية وبقي من مقررات التدريس في كليات الطب باوروبا حتى اوائل القرن الثامن عشر.

ابن قوسين^(١٤)

«كان طبيباً مشهوراً في زمانه، وله دراية بصناعة الطب، ومقامه بالموصل وكان يهودياً واسلم، وعمل مقالة في الرد على اليهود».

اطباء القرن الخامس الهجري

هبة الله بن علي بن ملكا البلدي^(١٥)

هو ابو البركات الملقب باوحد الزمان ولد نحو سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م في بلد. ونشأ في بغداد، كان يهودياً ثم اسلم، وكان في خدمة المستنجد بالله (٥٥٥ - ٥٦٦ هـ / ١١٦٠ - ١١٧٠ م) وحظي عنده.

درس الطب على ابي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين المتوفى (سنة ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م)

واحاط ببقية العلوم حتى صار فيلسوفاً وطبيباً فاضلاً. ولما فشل مرة في معالجة السلطان محمد بن ملكشاه اتهمه بسوء علاجه، وسوء تدبيره فحبسه مدة. وعمي في اواخر عمره، وطرش، وبرص، وتجنم. ومع ذلك لم ينقطع عن العمل في التدريس والتأليف وكان. يومئذ يوسف ابو عبد اللطيف البغدادي، والمهذب بن القاش من تلاميذه النابهن، ويكتبون له ما يعلّم عليهم في الطب والحكمة. ومن تلاميذه ايضا ابن هبل البغدادي. توفي في نحو (سنة ٥٦٠ هـ / ١١٧٢ م) ومن مؤلفاته اختصار التشرّيع - جمعه من كتب جالينوس -، مقالة في الدواء، كناشئ في الطب، حواشي على قانون ابن سينا، أقرباذين وكتب اخرى.

ظافر بن جابر السكري^(١٦)

هو ابو الحكم ظافر بن جابر السكري، كان مسلماً فاضلاً في الصناعة الطبية متقناً للعلوم الحكيمة متحلياً بالفضائل والأدب، محباً للاشتغال والتضلع بالعلوم. وكان قد لقي ابا الفرج ابن الطيب ببغداد، واجتمع به، واشتغل معه. وكان ظافر بن جابر قد عمّر مثل ابيه، وكان موجوداً في سنة اثنتين وثمانين واربعمائة، وهو موصل ي وانما انتقل من الموصل الى مدينة حلب، واقام بحلب الى اخر عمره ومن خلفه، جماعة مشغولون في صناعة الطب ومقامهم حلب.

ولظافر من الكتب مقالة في ان الحيوان يموت مع ان الغذاء يخلف عوض ما يتحلل منه. واشتهر ابنه موهوب بن ظافر وحفيده جابر بن موهوب في الطب واقاما في حلب.

اطباء القرن السادس الهجري

مهذب الدين بن هبل البغدادي^(١٧)

هو ابو الحسن علي بن احمد بن هبل. ولد ببغداد (سنة ٥١٥ هـ / ١١٢٢ م) حفظ القرآن

ودرس الفقه في المدرسة النظامية ببغداد.

ودرس الادب على ابي اسماعيل السمرقندي والشريف الشجري وتعلم الطب على ابي البركات علي هبة الله بن ملكا. ثم صار الى الموصل واستوطنها مدة ، ثم انتقل الى آذربيجان ومنها الى خلاط (في ارمينية) واقام فيها عند حاكمها شاه ارمن طبيبا ونديما وقرأ الناس عليه هناك الحكمة والادب وحصل على مال كثير بعث به الى الموصل. ثم انتقل الى ماردين بضيافة صاحبها ثم عاد الى الموصل ، وعمل له مجلسا فيها يعلم الحكمة والطب وهو فاقد البصر وعمر حتى مات سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م ودفن بظاهر البلد بباب الميدان. وتخلف ولدا اشتهر بالطب وهو شمس الدين ابن هبل.

واشهر مؤلفاته في الطب :

١- كتاب الطب الجمالي كتبه الى جلال الدين محمد الوزير المعروف بالجواب.

٢- النار المحوسية اسبابها وعلاماتها وعلاجها.

٣- كتاب المختار في الطب وهذا بعد اشهر كتبه. كتبه في الموصل سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٤م قبل ان يسافر الى ارمينية وهو تجميع من الكتب الطبية العربية التي سبقته الا انه يمتاز بحسن التبويب والايجاز. مما جعله مرجعا مهما في القرن السابع الهجري ، ويقع الكتاب في اربعة اجزاء.

الجزء الاول : خصصه لفلسفة الجسم وتشريحه من الرأس الى القدم ، وتكلم فيه على الاعراض والعلامات المرضية التي تصيبه ، ومعلومات عن النبض والبول والبراز ، وعن المولودين حديثا وتدريب الاطفال والمشايخ وعن الرياضة والحمام ، والفصد

والحجامة ، وقواعد في حفظ الصحة والادوية المستعملة في الضماد والحقنة . كما فيه فصل لتسكين الالوجاع وعلاج الاورام ، وفي عمليات البط (الشق) وقطع العضو والكلي .

الجزء الثاني : تكلم فيه عن انواع الامراض واعراضها وعلاماتها وكيفية تشخيصها ، وطرق مداواتها والادوية المستعملة فيها . وشرح بتفصيل موضوع الصداع والسرسام والامراض العصبية والعقلية ، وامراض العين وامراض الحلق والاذن ، والانف ، والفم ، والاسنان ، واوتار الصوت وامراض المرئ والمعدة والامعاء والنكاف والفواق (الشهقة) وامراض الكبد والقلب والرئة والاستسقاء بانواعه ، وامراض الكلية والمثانة .

الجزء الثالث : خصصه لآلات التناسل في الذكور والاناث ، والجماع والشهوة الجنسية ، وامراض الرحم واختلاطات الحيض ، وامراض القلب والرحا ، واورام الرحم ووضاعه غير الطبيعية ، والحبل ، والاسقاط والنواسير . وامراض الاعصاب والدم والعظام والكسور والخلوع والحميات وغير ذلك امور صحية ومرضية اخرى كثيرة .

الجزء الرابع : ذكر فيه الادوية المفردة المستعملة لامراض آلات التناسل في المرأة والرجل . كما ضمنه فصولا في الادوية المفردة والسموم ، وفي الجذام والسرطان ، والطوارئ الجراحية ، والحميات والبحرانات ، وما الى ذلك من انواع الامراض .

ابو الحسن علي بن ابي الفتح بن يحيى كمال الدين الكباري ثم الموصل الطيب (١٩)

روى عن الخطيب الموصل وآخرين وكان من اشهر اطباء زمانه توفي بحلب وقد قارب المائة سنة وذلك في سنة ٦٣٤هـ .

استفاد كثيراً من هذه التقلبات فتعرف على أنواع الخلق من الناس ، وتولد فيه حب المهاجمة والنقد ، والتعالي ايضاً ، فلم يخلص من لسانه حتى شيخ الاطباء ابن سينا .

وباختصار كان البغدادي من ابرز علماء القرنين السادس والسابع الهجريين ، وانه كان ثائراً على التغطيات السائدة في زمانه ، واكثر مؤلفاته ذات مادة دسمة ، وعباراتها رصينة وسليمة اللغة .

مؤلفاته :

عبد اللطيف البغدادي موسوعي المعارف . اشتغل في اللغة والفقه والطب والعلوم الحياتية ، والحساب ، والمعادن ، والسحر ، والتاريخ ، والمنطق ، والف فيها جميعاً ، وكان له من الكتب ما يزيد على المائة والسبعين كتاباً . اما كتبه الطبية فهي ثلاثة واربعون لم يصل اليها منها الا القليل واشهر ما وصل اليها :

- ١- كتاب الافادة والاعتبار في الامور المشاهدة والحوادث المعينة بارض مصر/ انتقد فيه ما كتبه جالينوس عن الفك الاسفل واثبت انه قطعة واحدة وليس قطعتين كما قال جالينوس .
- ٢- رسالة في المرض المسمى ديابيطس .
- ٣- مقالة في الحواس .

كمال الدين بن يونس (٢١)

هو كمال الدين ابو موسى بن محمد بن محمد بن منعة العقيلي . ولد بالموصل سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م وتعلم فيها وفي المدرسة النظامية حتى تميز في سائر العلوم ومنها الطب فأصبح علامة زمانه حتى ان ملك الفرنج ارسل له رسولا مع مسائل في علم النجوم وغير ذلك فتلقاه وكتب الإجابة عن تلك المسائل بأسرها .

وكان مدرساً في المدرسة الزينية والتي سميت ايضاً بالكالية لطول مكثه فيها ، يقرئ العلوم بأسرها

هو موفق الدين ابو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد ، المعروف بابن اللباد . اصل اسرته من الموصل ، الا انه ولد ونشأ في بغداد في بيت علم ودين . وكان ابوه وعمه من علماء الادب والفقه والمنطق ، فدرس عليها هذه العلوم كما درس الطب على امين الدولة ابن التلميذ البغدادي المتوفى سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٤م .

كان مغامراً محبا للتنقل والاستكشاف ، هجر بغداد الى الموصل وهو بعمر الثامنة والعشرين ، يقول عن ذهابه الى الموصل « ولما كان في سنة خمسة وثمانين وخمسةائة ... دخلت الموصل فلم اجد فيها بغيتي لكن وجدت الكمال بن يونس جيداً في الرياضيات والفقه متطرفاً من باقي اجزاء الحكمة ، قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها ، حتى صار يستخف بكل ما عداها . واجتمع إلي جماعة كثيرة وعرضت علي مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التي تحتها . واقت بالموصل سنة فسي اشتغال دائم متواصل ليللاً ونهاراً . ثم ترك الموصل متوجها الى دمشق ثم دخل عكا ثم شد رحاله الى مصر حيث صارت له علاقات فكرية مع علماء تلك البلاد وخصوصاً مع موسى بن ميمون القرطبي وابن سناء الملك . ثم سافر الى القدس ومنها توجه الى دمشق . ثم رجع الى مصر وعاد مرة اخرى الى القدس ومنها الى حلب وفي سنة ٦٢٥هـ / ١٢٢٧م دخل بلاد الروم . ثم توجه الى بغداد لمقابلة الخليفة المستنصر بالله بعد غيبة عنها دامت ما يزيد على الاثنين واربعين سنة ، وتوفي فيها سنة ٦٢٩هـ / ١٢٣١م .

ولا يعرف بالتحديد سبب عدم استقرار عبد اللطيف البغدادي في البلاد التي دخلها وربما كانت الاضطرابات السياسية والعسكرية التي سادت في تلك الاثناء قد دفعت به الى ذلك . وقد

شمس الدين بن هبل^(٢٥)

هو شمس الدين ابو العباس احمد بن مهذب الدين ابي الحسن علي احمد بن علي بن هبل. ولد سنة ٥٤٨ هـ. وكان مشتهراً بصناعة الطب متميزاً في الأدب، وجيهاً في الدولة، وعمل طبيباً للأمير عز الدين كيكافوس بن كيكسرو وأكرمه اكراماً كثيراً وبعد وفاته حمل الى الموصل ودفن فيها.

أطباء القرن السابع الهجري

ثاثير الانطاكي البعقوني النحلة^(٢٦)

احكم اللغة السريانية واللاتينية وشيئاً من علوم الأوائل في انطاكية ثم هاجر الى الموصل، وقرأ على كمال الدين بن يونس مصنفات الفارابي وابن سينا وحلّ اوقليدس والمجسطي ثم عاد الى انطاكية ولم يطل المكث بها لما راعه في نفسه من التقصير فعاد مرة ثانية لابن يونس وانفجح مااستهنا من علمه وانحدر الى بغداد واتقن علم الطب. وقصد السلطان علاء الدين لخدمته فاستغربه ولم يقبل عليه فرحل الى الارمن وخدم قسطنطين ابا الملك حاتم ولم يستطع عشرتهم فسار مع رسول كان هناك للامبراطور ملك الفرنج (فردريك الثاني) فنال منه افضالاً وأقطع قطيعة بأعمالها فلما صلح حاله وكثر ماله اشتاق الى بلاده واهله ولم يؤذن له بالتوجه. ثم حاول الهروب بسفينة قاصداً عكا، دفعت الريح السفينة الى مدينة كان الملك قد ارسل بها فتناول ثاثير السم ومات خجلاً لا وجلاً وكانت وفاته نحو منتصف القرن السابع.

عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن نصر الموصلي^(٢٧)

هو الإمام نجم الدين بن الشام الشافعي. ولد سنة ٦٥٣ هـ وتفق ببلاده ثم قدم دمشق سنة ٧٢٤ هـ وولي مشيخة خانقاه القصرين ودرس

من الفلسفة والطب والتعاليم وغير ذلك. وله مصنفات في غاية الجودة، منها كشف المشكلات وابطاح المعضلات في تفسير القرآن. شرح كتاب التنبيه في الفقه مجلدان. كتاب مفردات الفاظ القرآن. كتاب في الاصول. كتاب عبون المنطق. كتاب لغز في الحكمة. كتاب الاسرار السلطانية في النجوم وتوفي في الموصل سنة ٦٣٩ هـ / ١٢٤٢ م ودفن في تربة غسان خارج باب العراق. وخلف اولاداً بمدينة الموصل اتقنوا الفقه وسائر العلوم وهم من سادات المدرسين وأفاضل المصنفين ولا نعلم ان كان قد اشتغل احد منهم في الطب ام لا.

الحكيم موفى الدين عبدالعزيز^(٢٨)

مولده سنة خمسائة ونيّف وخمسين ووفاته ٦٠٤ هـ - ١٢٠٧ م. هو الشيخ الامام العالم. كان في اول امره فقيهاً في المدرسة الأمينية بدمشق. واشتغل على الياس بن المطران بصناعة الطب واتقن معرفتها وخدم الطب في البيارستان الكبير الذي انشأه الملك العادل نور الدين زنكي قدم الموصل مع مهذب الدين بن الحاجب للاشتغال على شرف الدين الطوسي ولكن الطوسي كان قد غادرها. لانعلم شيئاً عن نشاطه في الموصل.

مهذب الدين بن الحاجب^(٢٩)

كان طبيباً مشهوراً فاضلاً في الصناعة الطبية. مولده بدمشق ونشأ بها. قدم الموصل ليجتمع بشرف الدين الطوسي بمدينة الموصل فوجده قد توجه منها الى مدينة طوس فأقام في الموصل مدة ولا نعلم عن نشاطه في الموصل شيئاً. ثم عاد الى دمشق وخدم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن ايوب ثم الملك المنصور صاحب حماة وتوفي في حماة.

بالجاردودية والظاهرية والبرانية. وكان يعرف الفقه على مذهب الشافعي والطب ومات سنة ٧٣٠ هـ.

عبدالله بن احمد بن عبدالله بن محمد بن ابي بكر ابن موسى بن حفص الانصاري^(٢٨)

ولد قبل سنة ٥٩٠ هـ من اهل دانية وسكن شاطبة. رحل الى المشرق فسمع بالاسكندرية ودمشق والموصل جماعة من اعيانهم. مال الى علم الطب وعني به وشارك في غيره. عاش فترة في تونس وتوفي بالقاهرة سنة ٦٤٥ هـ.

عبدالعزیز بن عدي بن عبدالعزیز عزالدين البلدي^(٢٩)

كان في بدايته صيرفياً ثم اشتغل وبرع واتقن الطب والفرائض والجبر والمقابلة. ودخل الشام فولاه الصالح صاحب ارزن الروم القضاء والمشورة فظلم وتمرد. ثم فارق الارزن وقدم الموصل ودرس وكتب في القضاء ونسب اليه رأى النصيرية فطلب وهرب الى ارزن الروم وبقي بها مدة الى ان مات سنة ٧١٠ هـ.

كمال الدين محمد بن الحسن الموصلی^(٣٠)

الطبيب. وله كتاب «كتر الطبيب» الفه لعمر ابن يوسف بن علي رسول المتوفي سنة ٦٩٦ هـ - ١٢٩٦ م.

ابن دانيال^(٣١)

هو شمس الدين محمد الحراني الموصلی المعروف بإبن دانيال. الأديب الحكيم الكحال، صاحب النظم الحلو والنثر العذب والنكت والتوارد. ولد في الموصل سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٥٠ م، وفي شبابه غادر الموصل الى مصر خلال حكم الدولة الظاهرية. كان له دكان كحل داخل باب الفتوح. وضع كتاب طيف الخيال. ومات في القاهرة سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م.

الحسن بن محمد شرف شاه بن ركن الدين العلوي الموصلی^(٣٢)

توفي سنة ٧١٥ هـ - ١٣١٥ م. له شرح الحاوي.

احمد بن محمد بن مفرج النباقي المعروف بإبن الرومية (٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ م)^(٣٣)

من اهل اشبيلية، كانت له معرفة بالنبات وتمييز العشب، فاق في ذلك اهل عصره. الف (شرح حشائش دياسقوريدس وادوية جالينوس)، زار بغداد والموصل ودمشق وسمع من علمائها

عبدالله بن احمد بن حفص الأنصاري، ابو محمد (٦٤٦ هـ - ١٢٤٨ م)^(٣٤)

من اهل دانية وسكن شاطبة. تلقى العلم ببلده واشبيلية، ثم رحل الى المشرق فسمع بالاسكندرية ودمشق والموصل، ومال الى علم الطب وعني به وتوفي بالقاهرة

اسحق بن مروان بن ابي السعادات الموصلی^(٣٥)

كان حياً سنة ٦٣٤ - ١٢٣٦ م. قال عنه ابن الشعار انه كان يعرف في الطب

يوسف بن شمس الدين بن احمد بن علي بن هبل^(٣٦)

معاصر لأبن الشعار المتوفي سنة ٦٥٤ هـ - ١٢٥٦ م. ذكره ابن الشعار وقال كان متفتناً في المهنة - اي الطب - وممارساً لها.

أطباء القرن الثامن الهجري

داؤد بن ناصر الانعميري الموصلی^(٣٧)

كان حياً (سنة ٧٢٧ هـ - ١٣٢٦ م). ويعرف بطبيب الدولتين، ومصنفاته في الطب هي

(١- خاص الخواص الملتقط من خواص الخواص . ٢- نهاية الإدراك والأغراض)

محمد بن ابراهيم بن ساعد السنجاري^(٣٨)

رضي الدين ، ابو عبدالله ، المعروف بإبن الاكفاني ، كان طبيباً باحثاً ونشأ في سنجار (من اقضية الموصل) واتقن الرياضة والحكمة وتقدم في الطب تقدماً باهراً حتى كان الخذاق من اهل الفن يعجبون من اصابته وتشخيصه ومداواته ، وكان ماهراً في معرفة الجواهر والعقاقير حتى كان لا يدخل شيء في البهارستان الا عرض عليه . سكن القاهرة وزاول هناك الطب وتوفي فيها بالطاعون سنة ١٣٤٩هـ / ١٣٤٨م .

سنة نيف وأربعين وثلاثمائة^(٤١) وان ناصر الدولة قد جمع لها الأطباء وسألهم هل من حيلة في الفصل بينها . فبعد استجوابها من قبل الأطباء اخبروا ناصر الدولة انها ان فصلا تلقا . ان هذه القصة ان دلت على شيء فإنما تدل على وجود كثرة من الأطباء اغفل ذكرهم . وان هؤلاء الأطباء كانوا على درجة عالية في صناعة الطب واطلاع واسع في الناحية الجراحية ولأن مرضاهم العارفين فضلهم ماتوا ولم يبق من ذكرهم شيء .

القسم الثاني / التعليم الطبي والمستشفيات

يمكن تقسيم اساليب تعليم الطب واعداد الأطباء في الموصل الى ثلاثة انواع /

١- المدارس /

نشطت الحركة الفكرية وازدهرت في الموصل بشكل بين في القرن الخامس الهجري وعندما اتخذها الأتابكة عاصمة لهم (٥٢٠ - ٦٦٠هـ / ١١٢٦ - ١٢٦١م) ، حتى اصبحت في أواخر العصر العباسي من ابرز مراكز العلم في العراق بعد بغداد ، فكثر فيها المدارس حتى بلغت العشرات منها (المدرسة النظامية والأتابكية العتيقة والمهاجرة والزينية والكمالية والمجاهدية والعزية والغورية والبقشية ، والعلائية والبندرية والقاهرة والصارحية واليوسفية ومدرسة ام الملك الصالح الخ)^(٤١) .

ولكن على الرغم من هذا العدد الكبير من المدارس فإننا لم نعثر الى ما يشير الى ان الطب كان يدرس بشكل ثابت ودائم في هذه المدارس كما اتنا لم نعثر على ذكر أية مدرسة او مؤسسة طبية مستقلة خاصة لتخريج الأطباء^(٤٢) وكل ما وجدناه اشارة الى تدريس الطب في بعضها وهي :

صنف ابن الاكفاني الكثير من الكتب في الطب منها :

١- روضة الالباب في اختصار الأطباء ، ٢- كشف الرين في امراض العين ، ٣- نهاية القصد في صناعة القصد ، ٤- واشهر كتبه غنية اللبيب عند غيبة الطبيب .

وأخيراً نقول بأن هؤلاء الأطباء الذين استطعنا جمع ذكرهم من كتب التراث لا يمثلون سوى قسم من الأطباء الذين كانت تزخر الموصل بهم . في تلك الفترة . ومن المؤكد ان المؤرخين اغفلوا ذكر العديد من الأطباء المعالجين لعدم تأليفهم الكتب^(٣٩) فالأطباء المعالجون محرمون في كل العصور من العظمة التي تقوم على بقاء اثار علمهم من بعدهم حيث يقبر نجاحهم معهم فعلى سبيل المثال /

يروى لنا التنوخي قصة توأمين ملتصقين ارسلها صاحب ارمينية الى ناصر الدولة في الموصل

أ- المدرسة المهاجرة/

بالموصل ، وقرأ العلوم بأسرها من الفلسفة والطب والتعاليم وغير ذلك»^(٤٦).

ويروي ابن أبي أصيبعة ان عمه الطبيب رشيد الدين بن خليفة في شبابه نوى الذهاب الى كمال الدين ليشغل عليه في صناعة الطب الا ان جدته حالت بتضرعاتها دون ذلك .

٢- مجالس الأطباء :

لم يكن تدريس الطب في الموصل في تلك الحقبة التاريخية يختلف عن بقية اجزاء العراق . حيث كان يتم في مجالس تعقد في بيوت الأطباء او في عياداتهم او في المستشفى ، يقوم الطالب بالتدرب على يد طبيب شهير ويدرس عليه بعض الكتب واذا ما تمكن من ذلك ينتقل الى استاذ آخر ليدرس عليه كتاباً آخر فينال إجازة من كل أستاذ حتى يتمكن من الصناعة ليقوم بعدها بممارسة الطب .

وأشهر مجالس الطب في الموصل والتي جاء ذكرها في كتب التراث هي :

أ- مدرسة ابن أبي الأشعث :

في الأغلب لم تكن هذه مدرسة بالمعنى الصحيح وانما كانت مجلساً خاصاً اتخذها احمد بن أبي الأشعث في الموصل بعد ان استقر فيها واشتهر . ويظهر من مقدمته في كتاب الأدوية المفردة انه كان له تلاميذ عدة من مستويات مختلفة حيث يؤكد بأن تلميذه احمد بن محمد البلدي ومحمد بن ثواب الموصل كانا قد بلغا درجة عالية من التعليم الطبي وانه الف كتابه هذا لها ولا مثاها من طلبته من الذين قد تجاوزوا تعلم الطب ودخلوا في جملة من يتفقه فيما علم من هذه الصناعة وهو مانسمية في تعبيرنا اليوم (الدراسات العليا) . وكان له عدة أولاد اشتهر منهم في صناعة الطب محمد^(٤٧) .

ومن تلاميذه أيضاً جابر بن منصور السكري ،

أنشأها علوان بن مهاجر بن علي بن مهاجر الموصل قبل سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م لقد درس عبداللطيف البغدادي فيها .

ذكر ابن أبي أصيبعة قول موفق الدين عبداللطيف البغدادي عن نفسه « ولما كان في سنة خمس وثمانين وخمس مئة (١١٩٨م) حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بغلي وبملا عيني ويحل مايشكل علي ودخلت الموصل فلم اجد فيها بغيتي لكن وجدت الكمال بن يونس جيداً في الرياضيات والفقه متطرفاً من باقي اجزاء الحكمة قد استغرق عقله ووقته حب الكيمياء وعملها حتى صار يستخف بكل ماعداها . واجتمع الى جماعة كثيرة وعرضت علي مناصب فاخترت منها مدرسة ابن مهاجر المعلقة ودار الحديث التي تحتها واقت بالموصل سنة في اشتغال دائم متواصل ليلاً ونهاراً»^(٤٨) .

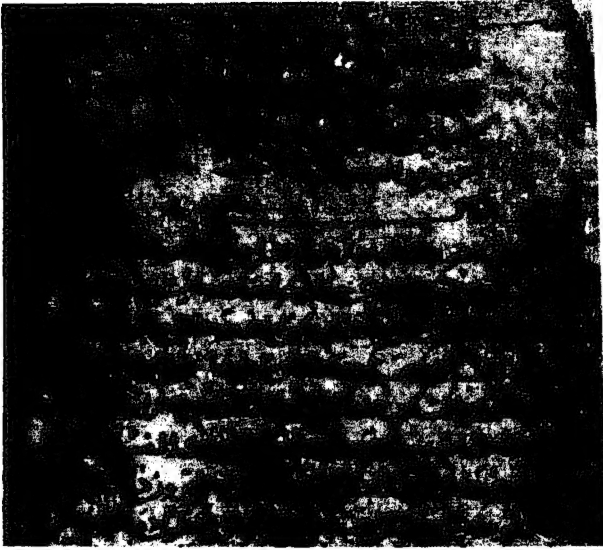
وعلى الرغم من عدم اشارته الى تدريس الطب في الموصل فإن هناك من يؤكد « بأنه كان من اوعية العلم ، عانى صناعة الطب في الموصل واخذ عنه الطلبة ، والف في عدة علوم»^(٤٩) .

نستنتج من ذلك ان الطب كان يدرس في هذه المدرسة لفترة من الزمن .

ب- المدرسة الزينية (او الكالية) (انشئت قبل سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م) .

منسوبة الى منشئها زين الدين أبي الحسين علي ابن بكتكين المتوفى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م . وهو والد مظفر الدين كوكبري صاحب اربيل ، وتعرف ايضاً بالكالية نسبة الى مدرستها العالم الكبير كمال الدين أبي الفتح موسى بن يونس بن محمد بن منعة العقيلي المتوفى سنة ٦٣٩هـ / ١٤٤١م نسبت اليه لطول اقامته بها^(٥٠) .

يقول ابن أبي أصيبعة « وكان مدرسا في المدرسة



الصفحة الأولى من مخطوط دقوى الادوية
لاين الاثنت محفوظ في المكتبة البريطانية
(عن حمارة ، المتحولات العربية)

اتخذوا المستشفيات دوراً للعلاج والاستشفاء
ومدارس لتعليم الطب نظرياً وسرياً بممارسة المهنة
وبذلك ساهموا مساهمة فاعلة في تقدم العلوم الطبية
السريية.

وما جاء ذكره من المستشفيات التي انشئت في
الموصل خلال هذه الفترة ثلاث بياراتنات:

١- بيارستان داخل المدينة (مستشفى في مركز
المدينة).

٢- بيارستان في الرض الأسفل منها، بناه
مجاهد الدين قياز على دجلة مقابل جامع
الذي لم يزل باقياً الى اليوم ويسمى بالجامع
الأحمر والذي باشر بينائه سنة ٥٧٢هـ /
١١٧٦م واوقف عليه الأوقاف. وهذا
المارستان كان حفيلاً وجميلاً جداً بينائه
وموقعه الذي يشرف على دجلة ، والحقول
التي تحف به. وفي المارستان ما يحتاج اليه
المريض من اسباب المعالجة والترويح عن
النفس مما يخفف مرضه. ويبعث اليه
البهجة.

واحمد بن الحسين بن زيد بن فضالة البلدي. وابو
الفلاح وكان هذا الأخير من المتقدمين والخاصين
عنده.

ب- مجلس محمد بن ثواب الموصل: (٤٨)

لأعرف الكثير عن هذا المجلس سوى ان جابر
ابن منصور السكري قد لازم محمد بن ثواب
الموصل وقرأ عليه وذلك في نحو سنة ٣٦٠هـ

ج- مجلس مهذب الدين ابن هبل: (٤٩)

يقول ابن المي اصبيعة «ابو الحسن علي بن
احمد بن علي بن هبل البغدادى».. «وعمي
مهذب الدين بن هبل بماء نزل في عينيه عن
ضربة ، وكان عمره اذ ذاك خمساً وسبعين سنة. ثم
توجه الى الموصل وحصلت له زمانة فلزم منزله بسكة
المي نجح. وكان يجلس على سرير ويقصده كل
احد من المشتغلين عليه بالطب وغيره»

٣- البياراتنات (المستشفيات):

ادرك الأطباء العرب والمسلمون منذ البدايات
بأن الطب بإعتباره من العلوم التجريبية لا يمكن
الاكتفاء بدراسته نظرياً وبعيداً عن المرضى لذا

والمعالجة في المارستان بلا ثمن ، يدخله المريض فتجرى عليه الفحوص اللازمة . ثم يقدم له الدواء من صيدلية المارستان . وإذا احتاج ان يكون تحت اشراف الطبيب ينام في المارستان . ويجرى عليه الطعام والدواء والشراب وكل ما يحتاجه المريض . وفي المارستان الأطباء والفصادون والكحالون والمجبرون وغيرهم من الخدم الفراشين والطباخين ... الخ .

ومن تولوا ادارة هذا البيارستان الحسن بن علي بن سعيد بن عبدالله علم الدين ابو علي الشافلاني (مات سنة ٥٧٢ هـ) (٥٠) . وحوالي سنة ٧٢٨ هـ دخل الرحالة ابن بطوطة مدينة الموصل فوجد بها مارستان امام مسجد الجوامع (٥١) وهذا يدل على استمرار المستشفى بتقديم الخدمات الطبية حتى ذلك الحين . وهناك من يؤكد بأن هذا البيارستان مع البيارستان السابق ظلوا يواصلان عملها خلال العهد اليلخاني (٥٢) .

٣- مارستان خاص بمعالجة المجانين (مستشفى الأمراض العقلية) .

القسم الثالث/ الخدمات الطبية الوقائية

الموصل شأنها شأن المدن جميعاً في الدولة العربية الإسلامية نالت الخدمات الطبية الوقائية فيها اهتماماً خاصاً من قبل المسؤولين . ولما كانت النظافة والطهارة شيئين جوهريين في مسألة الوقاية الصحية وشرطين اساسيين للقيام بالعبادات بالنسبة للمسلمين كان ذلك دافعاً قوياً للحفاظ على ان يكون الفرد نظيفاً في كل شيء والمدينة نظيفة ومحمية من التلوث والأوساخ . وبغية تحقيق ذلك انشأ نظام الحسبة . حيث تكفل هذا النظام بالاشراف على المؤسسات العامة ومن جعلتها المؤسسات التي تقدم خدمات صحية ، وقد اقتضى هذا النظام تعيين عريف (اي موظف مسؤول) لكل صناعة وان يكون

ذلك العريف ثقة يتحل بالأمانة والدقة والخبرة في صناعته بصيراً في معرفة الغش والتدليس ، وبسيطاً بينهم وبين المحتسب يطالعه بأخبارهم (٥٣) ويحتم على العمل الجيد ويعترض عليهم في اساءتهم للعمل . ويدخل ضمن هؤلاء الأطباء والصيادلة ايضا .

وما يهنا في هذا الباب هو الرقابة الصحية والشروط المطلوبة في الحفاظ على النظافة ويمكن ايجاز ذلك بما يأتي :

١- المساجد :

لقد سعت الدولة الى حماية بيوت العبادة من الأوساخ والنجاسة ، من خلال تنظيفها يومياً من قبل العاملين بها ، وبخاصة في يوم الجمعة كما ألزمت الدولة صيانة المساجد من الأطفال والمعتوهين ، ومن تناول الطعام بها ، او استخدامها لعمل صناعة معينة (٥٤) .

٢- الأسواق والطرق :

ألزمت الدولة اهل الأسواق بالحفاظ على نظافتها وكنسها من الأوساخ والطين الذي قد يجتمع بها (٥٥) وحرصاً على نظافة الطرق حذر من خروج مياه المجاري الخارجية الى وسط الطريق والزم اصحابها بحفر حفرة داخل الدار لتجمع المياه الوسخة (٥٦) ومن وجوه اهتمام الدولة بنظافة المدينة منع رمي الأزبال بالطرق فضلاً عن عدم ترك مياه المطر والأرحال في الطرق من غير مسح (٥٧) .

٣- محلات الأطعمة :

اشتراطت الدولة النظافة على اصحاب المطاعم ومعدّي الطعام حرصاً على سلامة الفرد الصحية . فعلى سبيل المثال اوجبت على الخباز الا يعجن بقدميه ولا ركبتيه ولا بمرفقيه ، خشية وقوع شيء من عرق يده بالعجين فلا يجوز ان يعجن الا وعليه لباس خاص وان يكون ملثماً وعلى جبينه عصابة

وان يزيل شعر ذراعيه اذ ربما يسقط شيء منه في العجين^(٥٨). ووجبوا على عمال البقالة الاهتمام بنظافة ابدانهم وثيابهم وتنظية قراهم التي تستخدم لسقي الناس الماء.

وعدم جواز السقي من كوز الزير ومنع ادخال اليد في الزير ومنعتهم من إستقاء الماء من مواضع الأوساخ^(٥٩).

وألزموا اصحاب محلات الأكل بتنظيف آلاتهم بالماء الحار والاشنان يومياً كما ألزموا بتنظية أواني الطبخ. حفظاً لها من الذباب وهوام الأرض^(٦٠) فضلاً عن ضرورة نظافة الحوانيت اذ غالباً مايتفقد المحتسب حوانيتهم غفلة للاطلاع على مستوى النظافة وملاحظة المخالفات الصحية ومن^(٦١) الاجراءات الوقائية التي اتخذتها الدولة حرصاً على صحة المواطنين منع السقائين من سقاية المجذوم والأبرص، ومرضى العاهات والأمراض الجلدية^(٦٢).

٤- الحمامات :

ألزمت الدولة اصحاب الحمامات بالحفاظ على نظافة الماء من خلال تنظيف حوض النوبة من الأوساخ المتجمعة ، فضلاً عن تنظيف النسائي والقدور من الأوساخ شهرياً^(٦٣). وبلغ الاهتمام بمتابعة تنفيذ الشروط الصحية ان يقوم القيم بغسل الميازر كل مساء بالصابون^(٦٤). ومن الاجراءات الوقائية التي اتخذتها الدولة منع ذوي الأمراض الجلدية كالمجذوم والأبرص من دخول الحمامات^(٦٥).

الهوامش

- (١) الديور جي - سعيد/ تاريخ الموصل، الموصل ١٩٨٢ ج ١ ص ١١.
- (٢) التكريتي - د. راجي عباس/ الأسناد الطبي في الجيوش العربية الإسلامية ، بغداد ١٩٨٤ ص ١١٩.

(٣) الطبري/ الأمام أبو جعفر محمد بن جرير- تاريخ الأمم والملوك، القاهرة ١٩٣٩ ج ٣ ص ٩.

(٤) العميد- الدكتور طاهر منظر/ تأسيس مدينة الموصل في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) (بحث قدم في ندوة دور الموصل في التراث العربي التي انعقدت في الموصل من ١٦- ١٧/ ٣/ ١٩٨٨).

(٥) الاسمب - د. خالص حسني وآخرون ، دراسة في تخطيط مركز مدينة الموصل. (بحث قدم في ندوة دور الموصل في التراث العربي التي انعقدت في الموصل من ١٦- ١٧/ ٣/ ١٩٨٨).

(٦) أقرأ عنه/ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، بيروت ١٩٥٩، ج ٣ ص ٣٣٠. السامرائي، مختصر تاريخ الطب بغداد ١٩٨٤، ج ١ ص ٥٢٨. الزركلي- الأعلام ١/ ٢٠١. كحالة، معجم المؤلفين، دمشق، ١٩٦١ ٢/ ١٤٨. احمد بن أبي الأشعث، الدكتور محمود الحاج قاسم، مجلة الرسالة الاسلامية السنة ١١ العدد ١١٩- ١٢٠.

(٧) أقرأ عنه البلدي، احمد بن محمد، كتاب تدبير الحبال والاطفال والصبيان/ تحقيق د. محمد الحاج قاسم محمد. اولان/ مانفريد الرواية العربية روفس الأفييس قدم المقال للندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب- حلب ١٢ نيسان ١٩٧٦.

ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء، ج ٢ ص ٢٤٩.

(٨) لقد قمنا بتحقيق هذا الكتاب وطبع ضمن سلسلة التراث- وزارة الثقافة والأعلام- بغداد- ١٩٨٠.

(٩) كالة- ارهرت/ وصف البلدي لجذري الماء- بحث قدم للندوة العالمية حول الطفل في الطب العربي ١٥- ٢٠ مارس ١٩٨٢- طرابلس- ليبيا- مجلد ابحاث الندوة باللغة الانكليزية ص ٢٤١.

(١٠) البلدي/ احمد بن محمد- كتاب تدبير الحبال والاطفال والصبيان/ تحقيق الدكتور محمود الحاج قاسم ص ٣٢٤.

(١١) ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٤٩.

(١٢) ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء ج ٣ ص ٢٣٩.

(١٣) أقرأ عنه/ ابن أبي أصيبعة عيون الأنباء ج ٣ ص ١٤٧. لمايرهوف، تراث الاسلام ص ٤٧٦- ٥٠١، لمايرهوف، العشر مقالات ص ١١ الطب العربي- أمين أسعد خير الله ص ١٨٠. السامرائي، مختصر تاريخ الطب ج ٢ ص ٢١- ٢٢.

(١٤) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٤٩.

(١٥) أقرأ عنه/ السامرائي، مختصر تاريخ الطب، ج ١ ص ٥٩١. للقفطي، تاريخ الحكماء، ص ٣٤٣- ٣٤٦، وابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء، ص ٢٩٩.

البهني، حكايا الاسلام، ص ١٥٢، للصفدي، نكت الهيمان، ص ٣٠٤.

كحالة : معجم المؤلفين ٤٢/ ٣ (وفي يذكرو باسم ملكان)= ابن خلكان. وفيات الاعيان :

(١٦) أقرأ عنه/ ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، ج ٣ ص ٣٣٩.

(١٧) أقرأ عنه/ السامرائي، مختصر تاريخ الطب، ج ١ ص ٥٩٩.

(٣٧) أقرأ عنه/ ابن حجر الدرر الكعكة ٣/ ٢٧٩، البغدادي: هدية
المارفين ٢/ ١٥٢، الزركلي: الاعلام ٦/ ١٨٨، كحالة:
معجم المؤلفين ٨/ ٢٠٠-٢٠١
BROCKELMANN, GAL., Supp.
11, s. 219.

- (٣٨) الملوجي الطب الوافي ص ٣٩٢.
(٣٩) التنويحي/ القاضي ابي علي الحسن بن علي. نشوار المحاضرة
واخبار المذاكرة ج ٤ ص ٢٤٠.
(٤٠) للمزيد من التضميل يراجع حضارة العراق ج ٨ ص ١٢٨-
١٢٩.
(٤١) تذكر النصوص بأن اول مدرسة طبية نظرية أنشأت في العراق
هي مدرسة طب البصرة، التي أنشأت سنة (١٦٢٩هـ/ ١٢٣١م)
بأمر من الخليفة المستنصر بالله للأمير شمس الدين
باكتين زعيم البصرة (ابن الفوطي) - الحوادث الجامعة
ص (١٨١).
(٤٢) ابن أبي أصيبعة عيون الأنبياء ج ٢ ص ٢٠٤.
(٤٣) الديوجي/ سعيد تاريخ الموصل ج ١ ص ٣٩٦ نقلًا عن
الغساني: المسجد المسوك ص ٤٥٠.
(٤٤) نغية من المؤلفين حضارة العراق ج ٨ ص ١٣٣.
(٤٥) ابن أبي أصيبعة عيون الأنبياء ج ٢ ص ٣٣٧.
(٤٦) ابن أبي أصيبعة عيون الأنبياء ج ٢ ص ٢٤٧.
(٤٧) المصدر نفسه ج ٣ ص ٢٣٩.
(٤٨) المصدر نفسه ص ٣٣٥.
(٤٩) رحلة ابن جبير بيروت ١٣٨٨هـ ص ١٨٩، ابن كثير/ البداية
والنهاية بيروت ١٩٦٦، حوادث سنة ٥٧٢هـ، الديوجي/
تاريخ الموصل ج ١ ص ٤٣٩.
(٥٠) عيسى/ د. احمد/ تاريخ الليارستانات في الاسلام بيروت
١٩٨١ ص ٢٠.
(٥١) خصايك/ د. جعفر حسين- العراق في عهد المغول
الالخانين- بغداد ١٩٦٨ ص ٢١٧.
(٥٢) ابن بسم/ نهاية الزيتة في طلب الحسبة بغداد ١٩٦٨ ص ١٨.
(٥٣) ابن الاخوة/ معالم القرية في احكام الحسبة مصر ١٩٧٦
ص ١٧٢.
(٥٤) المصدر نفسه ص ٧٩.
(٥٥) ابن بسم/ نهاية الزيتة ص ١٧٤.
(٥٦) ابن الاخوة/ ص ٧٩.
(٥٧) الشيزري/ نهاية الزيتة في طلب الحسبة القاهرة ١٩٤٦
ص ٢٢.
(٥٨) ابن بسم: نهاية الزيتة في طلب الحسبة ص ٢٥-٢٦.
(٥٩) ابن بسم/ نهاية الزيتة في طلب الحسبة ص ٤٣، ٤٤. ابن
الاخوة/ معالم القرية في احكام الحسبة ص ١٠٦.
(٦٠) ابن الاخوة/ معالم القرية في احكام الحسبة ص ٢٣٩.
(٦١) ابن بسم/ نهاية الزيتة في طلب الحسبة ص ٢٦.
(٦٢) ابن الاخوة/ مصدر سابق ص ١٥٥.
(٦٣) بديري محمد فهد/ العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري-
مطبعة الارشاد ١٩٦٧.
(٦٤) الشيزري/ مصدر سابق ص ٨٨.

- القاضي، تاريخ الحكمه ص ٢٣٨، ابن أبي أصيبعة، عيون
الانبياء، ج ٢ ص ٣٣٤، الصفدي، نكت المياني ص
٢٠٥، وابن الصبوي، مختصر الدول، ص ٤٢٠، ابن
الابرار، التكله، ص ٦٧٥. التنويحي، الدارس في اخبار
المدارس. ١٣٠/٢، وابن عبد القوي المغنزي وفيات النقلة
٢٦٦-٢٦٧ وفيه ضبط اسمه بفتح الميم وفتح اللام، مجلة لمة
العرب ٢/ ٢٦، ودفتره المعارف الاسلامية ١/ ٢٩٢،
الزركلي، الاعلام، ٦٢/٥، كحالة: معجم المؤلفين، ٧/
٢١.
(١٨) أقرأ عنه لأبن كثير، البداية والنهاية- حوادث سنة ٦١٠ هـ،
احمد عيسى، معجم الأطباء، ص ٢٩٩.
(١٩) الديوه جي، تاريخ الموصل، ج ١ ص ٣٩٦.
(٢٠) أقرأ عنه، الغساني، كتاب نزعة العيون ص ١٩٢. وأبن تغري
بردي: النجوم الزاهرة، احمد عيسى، معجم الأطباء،
ص ٢٩٨.
(٢١) ابن أبي أصيبعة، عيون الانبياء، ص ٦٩٣-٦٩٦، السامرائي،
مختصر تاريخ الطب، ج ٢ ص ١٠٥.
(٢٢) أقرأ عنه/ الملوجي/ الطب الوافي ص ٤٥٢؛ ابن أبي أصيبعة
عيون الأنبياء ج ٢ ص ٣٣٧، البغدادي: هدية المارفين ٢/
٤٧٢، الزركلي الاعلام ظ/ ٢٨٨-٢٨٩، معجم المؤلفين
١٣/ ٥١، أحمد عيسى معجم ادباء الأطباء ٢/ ١٥٨-
١٦٠.
(٢٣) ابن أبي أصيبعة عيون الأنبياء ج ٣ ص ٣١٤-٣١٥.
(٢٤) ابن أبي أصيبعة عيون الأنبياء ج ٣ ص ٢٩٨.
أقرأ عنه/ ابن أبي أصيبعة عيون الأنبياء ج ٢ ص ٣٣٧؛
السامرائي: مختصر تاريخ الطب ج ١ ص ٦٠٢.
(٢٥) أقرأ عنه/ لابن العمري تاريخ مختصر الدول ص ٤٧٧، عيسى
الدكتور احمد/ معجم الأطباء ص ١٥٦.
(٢٦) أقرأ عنه/ لابن حجر العسقلاني الدرر الكعكة، احمد عيسى
معجم الأطباء ص ٢٦٥-٢٦٦.
(٢٧) أقرأ عنه/ مختصر عن (التكله ص ٢٠٥) احمد عيسى
معجم الأطباء ص ٣٣١.
(٢٨) أقرأ عنه/ (الدرر الكعكة لابن حجر العسقلاني) احمد عيسى
معجم الأطباء ص ٢٦٩.
(٢٩) أقرأ عنه/ ابن أبي أصيبعة عيون الأنبياء (٢٠٨/١) الديوجي
تاريخ الموصل ج ١ ص ٣٩٦.
(٣٠) إقرأ عنه: أحمد عيسى: معجم الأطباء ص ٣٧٨.
الملوجي: الطب الوافي ص ٤٣٩.
(٣١) إقرأ عنه: الديوجي: تاريخ الموصل ج ١ ص ٣٩٠.
السبكي: طبقات الشافعية ج ٦ ص ٨٦.
(٣٢) ابن أبي أصيبعة ج ٣ ص ١٣٣.
(٣٣) الخطابي: محمد العربي، الطب والاطباء في الانتدلس ج ١ ص ٦٩.
(٣٤) عقد الجمان (١/ ورقة ٢٤١ م).
(٣٥) عقد الجمان (١٠/ ورقة ١١٧ م).
(٣٦) ياسين: عمود/ الحياة الفكرية في الموصل في القرن السابع
الهجري (رسالة ماجستير- كلية الاداب جامعة الموصل ١٩٨٩
ص ١٥٦

الخِطُّ العَبْرِيّ

في الموصِل مُنْذُ تَصْغِيرِهَا حَتَّى بَدْأَةِ الْقَرْنِ الْعَاشِرِ الْمِجْرِيّ

يوسف ذنون

وبداية القرن الذي يليه المعروف في ذلك الوقت^(١)، وبلغت الذروة في كثير من الجوانب الفنية التي وصلت اليها بعض مظاهرها كالعقارة بموادها المختلفة كالحجر والمرمر والجص والطابوق وملحقاتها، أو التحف المعدنية ورسومها، وصناعة الكتاب وفنونه، والفخار وتشكيلاته، والخشب وأشغاله، والنسيج وتنوعه، والنقود وسكتها وغيرها، وقد توجهت الخطط باعتباره القاسم المشترك لهذه الفنون والعمود الفقري الذي يربط بينها، وتشكل الزخرفة هندسية كانت أو نباتية أو تورية (أرابيسك) أو غيرها عنصراً مكملاً وملزماً للخط في أغلب الأحيان.

لقد حلّ الحرف العربي ربوع مدينة الموصل مع حركة الفتوح العربية الإسلامية، ولم يكن غريباً عليها، وهي التي شهدت رسوم كتابات متعددة كالكتابات المسماة آشورية وغيرها والآرامية والحضرية، والأخيرة منها هي التي انتقل بعض

تعرضت الموصل المدينة ومنطقتها إلى تقلبات كثيرة، وتعاقت عليها دول حاكمية وحكام متعددون، وأسرى شكلت دويلات تختلف في قدرتها ومدى تخضرها وتنوع أنماط التغيير الذي تركته على مختلف الأصعدة، منذ أن انضوت تحت لواء الإسلام في العهد الراشدي وأصبحت قاعدة الجزيرة، وبرزت أهميتها على نحو واضح في العصر الذي أعقبه - العصر الأموي - الذي جعل منها مركزاً حضارياً، تواصل تطوره ونموه في العصر العباسي الأول، بحيث أصبح من المراكز المهمة المعدودة في العالم الإسلامي، لذلك لم يكن غريباً أن تكون الموصل مركزاً سياسياً للكثير من الدويلات كالحمدانيين والعقيليين والأتابكة، وقد بلغت المدينة ازدهار عصرها الفني في العصر الأتابكي ٥٢١ - ٦٦٠ هـ (١١٢٧ - ١٢٦١ م) بحيث صارت تعد واحدة من ثلاث مدن تشكل ركائز الحضارة في عالم نهاية القرن السادس الهجري

صور حروفها الى الخط العربي بالكامل او بالتغيير المحدود فضلاً عن وصل الحروف الذي لم يكن مألوفاً في الكتابات القديمة^(٢)، انتقل منها الى الخط الذي كتبت به المصاحف الكريمة الأولى في المدينة المنورة على عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، ووزعت على الأمصار ومنها كان الانتشار في كل البقاع، ومنها مدينة الموصل، وكانت نقلة حضارية شملت مختلف الجوانب الفنية بما فيها الخط الذي صار سمة لكل مخلفات هذه الحضارة وطابعاً اسلامياً معروفاً لها، ويكون الكلام عن اي جانب من جوانبها يعني ضمناً ان الخط أحد مكوناتها لأنه دخل فيها عنصراً تذكاريّاً في المراحل الأولى وعنصراً للتبرك والزينة في المراحل التالية، لما حمله من آي الذكر الحكيم والنصوص الدينية الأخرى مع التأكيد على الجانب التذكاري لأهميته التاريخية.

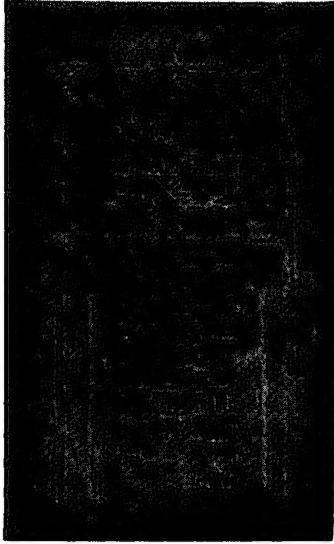
إن النظرة المتفحصة الى المدينة في دور تكوينها تظهر ان الذي مهد للانطلاقة الفنية هو تلك الحركة المعارية التي بدأ الاهتمام بها مبكراً في المسجد الجامع والمساجد الأخرى والاسواق والاحياء في العهد الراشدي، والتوسع والاضافة فيها في العهد الأموي التي بلغت ذروتها في «المنقوشة» تلك الدار التي بناها الحارث بن يوسف الأموي المتوفى في الموصل سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م)، على أثر توليه الموصل، وقد ذكر أنها سميت المنقوشة لأنها كانت منقوشة بالساج والفسيفساء وماشاكل ذلك^(٣)، وهذه تعطي دلالة واضحة على مستوى النضج في التقاليد الفنية المختلفة في المدينة والتي حملت الذوق العربي والتنفيذ الفني المعتمد على الخبرات السابقة بروافدها المحلية والمجاورة والمبتكرة، والتي شكلت القاعدة المطلوبة للمسيرة الفنية في هذه المدينة، والتي يمكن تقريب صورتها مقارنة بالقصور الأموية المعاصرة لها الباقية في بلاد الشام في المواد الباقية منها، وخاصة الجص والحجر والفسيفساء^(٤)،

والتي يلاحظ ان الخط العربي فيها يشكل أحد العناصر الاساسية في هذه البداية، وقد بقيت بعض صورته في النقود التي وصلت البنا من هذا العصر^(٥)، والتي تؤكد وحدة اشكال الحرف العربي في مختلف انحاء العالم الاسلامي.

وفي الفترة العباسية وبحلول القرن الثالث الهجري برزت مؤشرات الاهتمام الواضحة بالكتابة بولادة أول دار علم في الاسلام، أسسها ابو القاسم جعفر بن محمد بن حمدان الموصل ٢٤٠ - ٣٢٣ هـ (٨٥٤ - ٩٣٤ م)^(٦) وقد ضمت عدداً كبيراً من الكتب، وهي دلالة اكيدة على حركة التأليف في المدينة المعروفة في هذه الفترة ونشاط الوراقة وحركة النسخ فيها لكي تنجز كتباً بالعدد المناسب لدار العلم، وقد كانت هذه الفترة انتقالية بدأ فيها التحول عن الخطوط الموزونة التي سميت فيما بعد بالخط الكوفي، وبدأ نجم الخطوط المنسوبة بالارتقاء^(٧)، على رأسها خط «الثلث القديم»^(٨)، وخاصة في المخطوطات، في حين بقي «الخط الكوفي» مسيطراً على العاثر والتحف الفنية، وسلك سبيل التطور فنيا نتيجة مزاحمة الخطوط المنسوبة له واستثمارها بالجانب الثقافي لذلك صار انواعاً كثيرة تطورت من الكوفي البسيط الى الكوفي المروّس وبعد ذلك كوفي الفراغ الزخرفي ثم كوفي المهادر الزخرفي والكوفي المصفور والكوفي المربع وتمازجهم وتطوراته وما توالد منها^(٩).

لقد استعمل الخط الكوفي في المدينة وما جاورها شأنها شأن بقية البلاد العربية والاسلامية وشهدت تطوره، ولربما سبقت في بعض انواعه المواقع الأخرى كما سيظهر، وتبرز لدينا اقدم النصوص الكتابية الباقية على العاثر وشواهد القبور حيث الكوفي البسيط يطالعا على المحراب القديم الموجود في جامع العمرة^(١٠)، والذي يعود الى بداية القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) تقديراً من النص المدون عليه، والذي جاء فيه ان

الموصل (القرش)^(١٠) ، والذي يمكن رده الى القرن الثالث الهجري اعتماداً على زخرفته المشابهة للطرار الزخرفي الاول المعروف في سامراء^(١١) ، فضلاً عن عناصره المعارية وتوزيعاتها الفنية ، حيث نجد عليه الخط الكوفي المروس الذي تطور عن الخط الكوفي البسيط .



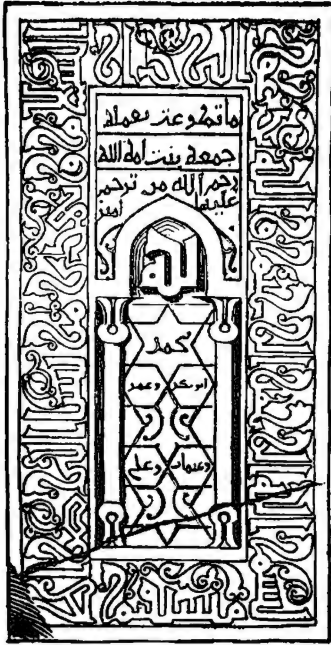
١- الحراب المروي القديم في جامع العمرة (بداية القرن الثالث الهجري) الخط الكوفي البسيط (تصوير مديرية الآثار)

وقد شاع في الآثار التي وصلت إلينا من هذا القرن والقرنين التاليين لمناسبته للسطور والمساحات الطولية المحدودة المخصصة للكتابة ، كذلك نراه في محاريب القرنين الرابع والخامس الهجري مثل محراب الشيخ شمس الدين (القرن الرابع الهجري) ومحراب مزار الامام على الأصغر (القرن الخامس الهجري) ولكننا نراه يتطور ويتحول الى كوفي الفراغ الزخرفي في محرابي مرقد الشيخ فتحي (القرن الخامس الهجري) .

حيث نجد عليه الخط الكوفي المذكور يحتل مساحات واسعة جعلته يسيطر على الشكل العام

القرآن كلام الله ، منزل غير مخلوق... وهذا يظهر انه صنع في وقت الحقبة ، التي ذكرها الازدي في تاريخ الموصل في زمن المأمون سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣ م)^(١١) يؤكد ذلك نوع الخط المسطر عليه وهو الكوفي البسيط ، وكذلك التوزيع المعاري لتصميمه والزخرفة التي يحتويها والتي تذكرنا بمحارب ونقوش سامراء ، وبذلك يكون من اقدم المحاريب المسطحة في العالم الاسلامي ، مقارنة بما ذكر الدكتور فريد شافعي في تقديره لمحراب قبة الصخرة بانه يعود لعصر المأمون^(١٢) ، وهذه الظاهرة المتمثلة في المحاريب المسطحة وكتابة الاحداث الدينية المتفجرة وحدث الحقبة بالذات لم تقتصر على مدينة الموصل حيث نجد لها مثيلاً في المحراب المسطح في جامع الزيتونة في تونس من نفس العصر^(١٣) ومثلها في النص المدون تحت قبة جامع سوسة ٢٣٧ هـ (٨٥١ م) وفي معالم تاريخية أخرى في سوسة والمنستير^(١٤) ، ان محراب جامع العمرة هذا وان لم يكن المثل الاقدم في الموصل ، فان هناك حجراً تذكاريّاً من عصر الخليفة العباسي المهدي ١٥٨ - ١٦٩ هـ (٧٧٥ - ٧٨٥ م) في المتحف الحضاري في الموصل فيها الخط الكوفي البسيط ، الا ان ميزة هذا المحراب تتجلى في وجود نموذج للاشكال المتعكسة في الخط ممثلة في لفظ الجلالة على كتفي المحراب يعد اقدم نموذج من نوعه على الرغم من بساطة الخط الكوفي فيه ، وهذا مؤشر على الامكانيات الفنية المبكرة في تطور هذا الفن .

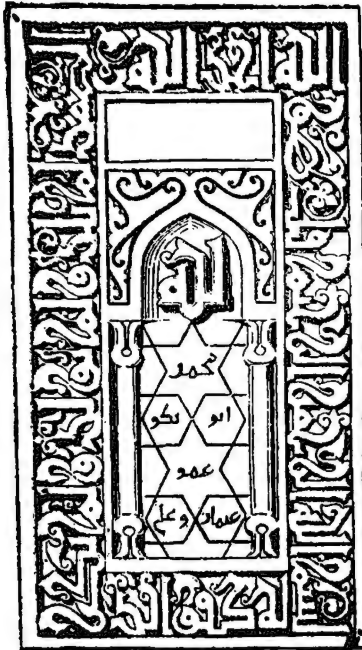
وتتوالى الامثلة على التطورات التي حدثت في هذا الخط وخاصة في مجموعة المحاريب المسطحة التي سلمت من عوادي الزمن ، والتي تعود الى القرون التالية ، وهي مجموعها تشكل سجلاً متسلسلاً لتطور الخط الكوفي في المدينة ، ولعل من أقدمها محراب مزار الست كلثوم المسطح المحفوظ في المتحف الحضاري في الموصل من المرم



٢- محراب مزار الست كلثوم المرمرى (الثالث الحجري) كوفي مرس.

للمحراب، مما يؤكد بداية ظهور انعطاف في حركة تطور الخط الصاعدة في المدينة، ظهر أثرها في الفترة التي تلتها حيث نجد تطوراً كبيراً لانكاد نجد له مثيلاً في بلد آخر بهذا الصاعد في تلك الفترة حيث ظهرت في الموصل أنواع جديدة من الخط الكوفي، مثل كوفي التشكيلات الفنية والكوفي المربع المعشق (المتداخل) هذا فضلاً عن مواكبته التطورات الحاصلة في هذا الفن في البلاد الأخرى مثل ظهور كوفي المهادر الزخرفي، الذي نرى له مثلاً رائعاً في محيط محراب الجامع النوري الداخلي المرمرى.

ان كوفي التشكيلات الفنية يحتاج الى فهم دقيق للخط الكوفي ومهارة فنية فائقة ومقدرة ابداعية متميزة، لذلك يعد قفزة متقدمة في تطور الخط الكوفي بعد الكوفي المصفور، وأقدم هذا



٣- محراب مرقد الشيخ قضي المرمران (القرن الخامس الهجري) كوفي الفراغ الزخرفي. (نقل عن هرنسفيلد)



٤ - اطار محراب الجامع النوري المرمي (القرن السادس الهجري) كوفي للهاد الخنفرني. (تقلاً عن مرتفد)

المختلفة ولعله الأول من نوعه بهذا الشكل اذ لا نجد له مثيلاً معاصراً او ما يضاهيه الا في تشكيلات مدرسة قره طايبي في قونية بالخزف المزجج والذي اعقبه في التاريخ^(٢٢) واما التشكيل السداسي لكلمة (علي، بتكرارها المتعكس ست مرات فلم يشاهد له مثيل الا بعد ذلك بزمن طويل في مدخل ضريح عباد الدين (من الداخل) في قم من سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م)^(٢٣).

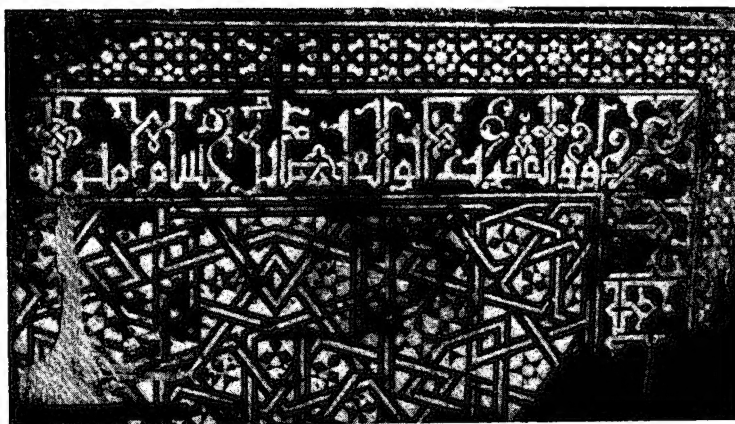
ان الخط المنسوب الذي حل محل الخط الكوفي وعلى رأسه خط الثلث هو الآخر قد لقي الاهتمام المطلوب منذ رسوخه في المخطوطات واشتهار ابن مقلة الوزير ٢٧٢ - ٣٢٨ هـ (٨٨٥ - ٩٣٨ م)^(٢٤) فيه واخيه ابي عبدالله الحسن ٢٧٨ - ٣٣٨ هـ (٨٩١ - ٩٤٩ م)^(٢٥) وابن البواب علي بن هلال المتوفى سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م)^(٢٦) فقد زار الاول الموصل سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٣ م) - وإن كانت زيارة عمل - حينما كان وزيراً للراضي^(٢٧)، وانقطع ابو عبدالله الى بني حمدان سنين كثيرة ينسخ لهم الكتب حتى اجتمع في خزائنهم من خطه ما لا يحصى^(٢٨). سبقتهم زيارة ابي الهيثم العباس بن محمد بن ثوبة سنة ٢٩٩ هـ (٩١١ م) وهو من الاسرة الخطية المعروفة في ذلك العصر^(٢٩)، واعقبهم سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٢ م) من اسرة مقلة ابي الحسين علي بن محمد

النوع من الخط نجده في واجهة القبلة الداخلية الحصية في الجامع النوري ٥٦٨ هـ (١١٧١ م) وهي نماذج فريدة من نوعها، تقوم على تشكيل لوحات مختلفة من الآية الكريمة «فسيكتفيكهم الله وهو السميع العليم»^(٣٠) لا نجد لها مثيلاً وانما نجد لفكرتها نماذج متأخرة في مسجد وقت الساعات في مدينة يزد ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م)^(٣١). ومثلها التشكيلات الدائرية المبتكرة التي يتوسطها لفظ الجلالة ويحيطها اسم الرسول «محمد» صلى الله عليه وسلم مكرراً ست مرات او الدائرة التي يتكرر فيها اسم الرسول الكريم ثلاث مرات وغيرها مما لا نجد له مثيلاً معاصراً وانما عرفت فكرته بعد ذلك، ولعل ما عرف منها في ضريح تيمورلنك في سمرقند ٨٠٧ هـ (١٤٠٤ م) يعد من اقدمها^(٣٢). واما الكوفي المربع الذي يتوسط الواجهة فانه الاول من نوعه على الجص في العالم الاسلامي حسب معلوماتنا.

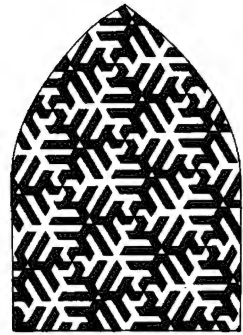
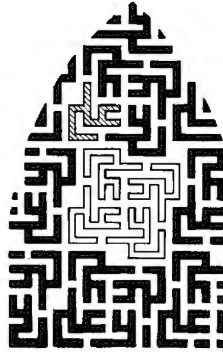
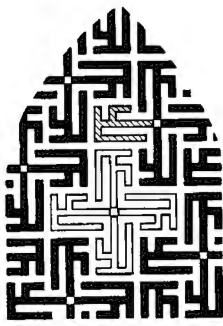
وتواصل هذه التطورات والابتكارات في بداية القرن السابع الهجري وكأنها تؤذن بأفول نجم الخط الكوفي ليحل محله الخط المنسوب مثلاً في خط الثلث، وكان ذروتها في المدرسة البدرية قبيل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م)^(٣٣) في الكوفي المضفور ومزار الامم عون الدين ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)^(٣٤) في الكوفي المربع المشق في التشكيلات



٥- واجهة جدار القبلة الحصية في الجامع النوري ٥٦٨ هـ ، كوفي
التشكيلات الفنية والكوفي المربع . (تصوير مديرية الآثار)



٦- لوح مرمرى مطعم من المدرسة البيرية ، قبيل ٦١٥ هـ ، كوفي
مضفور. (تصوير الباحث)

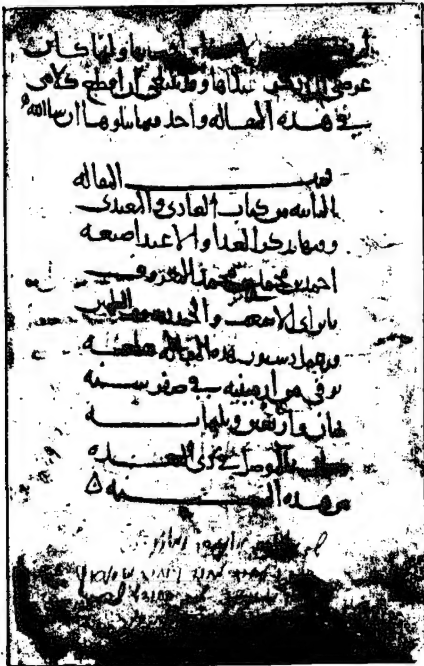


٧- تحليل الكتابات الجصية بالكوفي المربع المنقش من سقف قبة
مزار الامام عون الدين ٥٦٩هـ. (تحليل الباحث)

اعلام يشار الى حسن خطوطهم بالبيان من
أمثال عبيد الله بن محمد بن جُزو الاسدي المتوفى
سنة ٣٨٧هـ (٩٩٧م)^(٣٦) وأولاد ابن جني،
علي التوفى سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٤م) وأخويه علي

ابن مقلة الوزير وابن الوزير في وزارته للمعتق وبمعينته،
تلك الاسرة التي طبقت شهرتها الآفاق في
الخط^(٣٠)، ولذلك ليس غريباً ان تنشط حركة
النسخ في الموصل ويظهر امثال ابن عرس الموصل
الذي اشترى كتاب الاغانى لابي تغلب الحمداني
المتوفى سنة ٣٦٩هـ (٩٧٨م) بعشرة آلاف
درهم^(٣١)، واشتغال السري الرفاء المتوفى سنة
٣٦٢هـ (٩٧١م) وهو الشاعر المشهور بالوراقة
والنسخ^(٣٢)، واشتهر أبي الفتح عثمان بن جني
المتوفى سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٠م) اللغوي المعروف
بالخط الكثير الضبط وصاحبه علي بن زيد
القاشاني النحوي الذي تابعه في هذا الفن^(٣٣)،
واطلاق ابن البواب علي ابن جني صفة المشيخة له
في كتاب «من نسب من الشعراء الى أمه» لابن
الاعرابي، وسجل في ختامه «نقلته عن نسخة
وجدت عليها بخط شيخنا ابي الفتح عثمان بن جني
النحوي - ايده الله - بلغ عثمان بن جني نسخاً من
أوله وعرضاً»^(٣٤).

وقد وصل الينا من هذه الفترة «كتاب الغاضي
والمغتذي» لابن ابي الاشعث (أقدم مخطوط طبي
مؤرخ في المكتبة البريطانية) والمستنسخ في الموصل
سنة ٣٤٨هـ (٩٦٠م)^(٣٥)، وهو يؤشر المستوى
الرفيع الذي عليه الخط المنسوب في هذه المدينة،
ولذلك فلا غرابة ان يظهر فيها



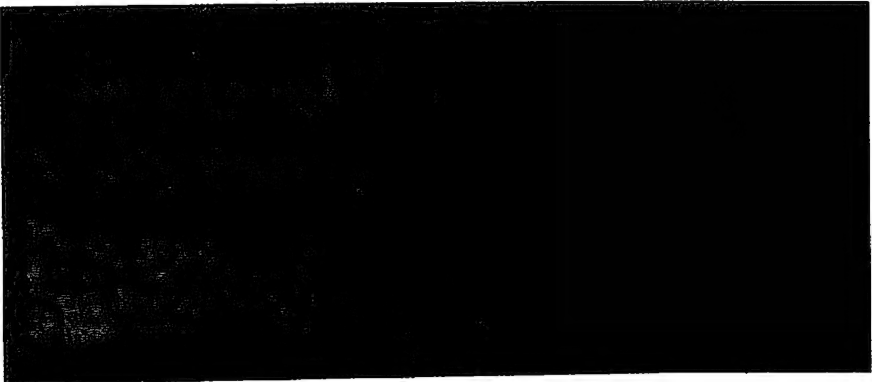
٨- مخطوط الغاضي والمغتذي المكتبة في الموصل سنة ٣٤٨هـ
بالخط المنسوب. (عن كتاب فهرس المخطوطات العربية)

وعلاء^(٣٧) ، وقد أدت ذلك الى ظهور بعض الخطاطين المجيدين من امثال ابن طوق الموصلّي المتوفى سنة ٤٩٤ هـ (١١٠٠ م) الذي وصف بكونه خطاطاً ماهراً بارعاً ويكون خطه بديعاً عجيباً^(٣٨) ، وقد هيا ذلك تربة صالحة لظهور عدد كبير من الخطاطين في المدينة في القرن السادس الهجري والقرن الذي يليه وهم كثر لربما غابت اسماء بعضهم ولكن آثارهم ماثلة للبيان تدل على المستوى الرفيع الذي وصلوه ، وبرز منهم على مستوى العالم الاسلامي واحتل مكانة مميزة في سلسلة الخطاطين العظام ياقوت الموصلّي .

هو ابو الدر أمين الدين ياقوت بن عبد الله الكاتب النوري المعروف بالملكي المتوفى سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) نسبة الى الملك نور الدين ارسلان شاه الاول أتابك الموصل ٥٨٩ - ٦٠٧ هـ (١١٩٣ - ١٢١٠ م)^(٣٩) ، المعاصر له ، وليس كما ذكر ابن خلكان نسبة الى ملكشاه السلجوقي ابي الفتح بن سلجوق بن محمد بن ملكشاه الاكبر^(٤٠) ، وهذا واضح من التدقيق في القابه وخاصة النوري ، ولولا ظهور ياقوت المستعصمي المتوفى سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) بعده ، وتداخل

الأسماء في المصادر القديمة والمراجع الحديثة^(٤١) ، لكان له شأن آخر في تاريخ الخط ، ومع ذلك فقد اشارت المصادر القديمة الى موقعه المتقدم في الخط . « وضرب المثل بجودة خطه وتخرج الالوف على يده وتتلذذ عدد لا يحصى عليه » هذا ما ذكره ياقوت الحموي المعاصر له والمتوفى بعده سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م)^(٤٢) ، واشادوا بمكانته المتفردة في الخط التي « لم يكن في زمانه من يقاربه » وقد مدحه فيها النجيب ابو عبد الله الحسين بن علي بن ابي بكر الواسطي بقصيدة طويلة أرسلها إليه من بغداد ، وصف فيها حسن خطه ومكانته فيه ، منها هذه الابيات :

ألدار السلام في الارض شبه
معجزان ترى لبغداد مثلاً
بلدة تستفاد فيها المعالي
والمعاني علماً وجداً وهزلاً
لم يفتها من الكمال سوى يا
قوت لو أنها به تنحلي
من لها ان يضوع نشر امين الد
ين فيها وحسبها ذاك فضلاً^(٤٣)





١٠- محراب مسجد إحصان البكري المؤرخ سنة ٥٠٠هـ بالثلث القديم. (تصوير الباحث)

أقدمها شاهد قبر يمين الدولة محمود الغزنوي المؤرخ سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠م)^(٥٦)، وما إن أوشك هذا القرن على الانتهاء حتى حل هذا الخط في جميع أنحاء البلاد العربية والإسلامية، وأقدم نماذجه في العراق وجدت في الموصل في محراب مسجد إحصان البكري المؤرخ سنة ٥٠٠هـ (١١٠٦م)^(٥٧).

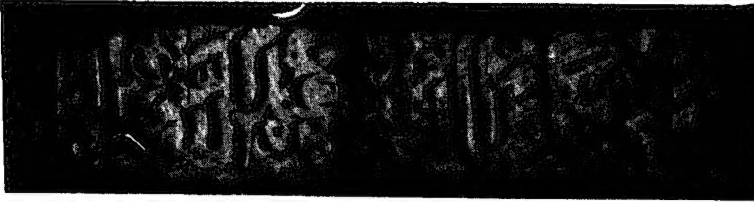
وتتابعت النماذج عبر القرن السادس الهجري، ومستوى جيد في الآثار الباقية من هذا القرن الذي يليه من الجامع الأموي ٥٤٣هـ (١١٤٨م) والجامع النوري ٥٦٨هـ (١١٧٢م) والجامع المجاهدي ٥٧٢هـ (١١٧٧م) وبلغت ذروتها في مخلفات عصر بدر الدين لؤلؤ من المدرسة البدرية

تتابع معه ويعدده حشد كبير من المجيدين في الخط والتزيق من أمثال: ابن عطف المؤذب ٥٢٣-٦٠٣هـ (١١٣٨-١٢٠٧م)^(٥٨)، ومحمد بن أبي طالب البدري، ناسخ ومصور كتاب الأغاني ٦١٤-٦١٦هـ (١٢١٧-١٢١٩م)^(٥٩)، وأحمد بن بوران الموصلية المولود سنة ٥٩٦هـ (١٢٠٠م)^(٦٠) وبهنام بن موسى بن يوسف الموصلية، ناسخ ومصور كتاب ديوسقوريدس سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م)^(٦١)، وابن الفقيه ٥٦١-٦٣٦هـ (١١٦٦-١٢٣٩م)^(٦٢) وباقوت الرومي الشاعر الأتابكي المتوفى سنة ٦٣٨هـ (١٢٤١م)^(٦٣) ومحمد بن محمد بن الشيرازي الموصلية، خطاط المصحف الكريم المؤرخ سنة ٦٤٧هـ (١٢٤٩م)^(٦٤) ويحيى بن محمود الواسطي، ناسخ ومصور مقامات الحريري سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م)^(٦٥) وابن أحمد شاه الموصلية البغدادي، خطاط المصحف الكريم المؤرخ سنة ٦٥٣هـ (١٢٥٥م)^(٦٦) وعمر بن علي بن المبارك الموصلية ناسخ ومصور مقامات الحريري سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)^(٦٧) وابن بلدجي الموصلية المتوفى بعد سنة ٦٧٩هـ (١٢٨٠م)^(٦٨) وغيرهم كثير ممن كتبوا الخط المنسوب البديع على العمارات والآثار التي وصلت إلينا من نهاية القرن الخامس الهجري وحتى القرن الثامن الهجري في الموصل وماجاورها من البلدان، وعلى رأسه خط «الثلث القديم» الذي كتب بمستوى رفيع وكان مثلاً يحتذى في الشام ومصر، حمل اسم «النسخ الأتابكي» عند دارسي الفن الإسلامي ومثاله «النسخ الأيوبي» و«النسخ المملوكي» في الشام ومصر^(٦٩).

إن خط «الثلث القديم» الخط الأساسي في الكتابة النسوية، والذي حل تدريجياً محل الخط الكوفي على العمارات في القرن الخامس الهجري، حيث وجدت أقدم أشكاله في غزنة، وربما كان من

قبيل سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨ م) ودار الامارة (قره سراي) ٦٣٠ هـ (١٢٣٣ م) ومزار الامام يحيى الي القاسم ٦٣٧ هـ (١٢٤٠ م) ومزار الامام عون الدين ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) وغيرها ممن عايشناها رداً من الزمن في الدرس والمباحثه .

مزار الامام يحيى الي القاسم ٧١٩ هـ (١٣١٩ م) وكتابات مزار الامام علي الاصغر ٧٣١ هـ (١٣٣٠ م) المائلة للعيان وغيرها .
ومع اطلالة القرن الثامن الهجري يطالعنا في الموصل شخصية فذة في تاريخ الخط العربي لم



١١- كتابات مزار الامام يحيى الآجرية من عهد التشييد ٦٣٧ هـ
(تصوير الباحث) / الثلث القديم .

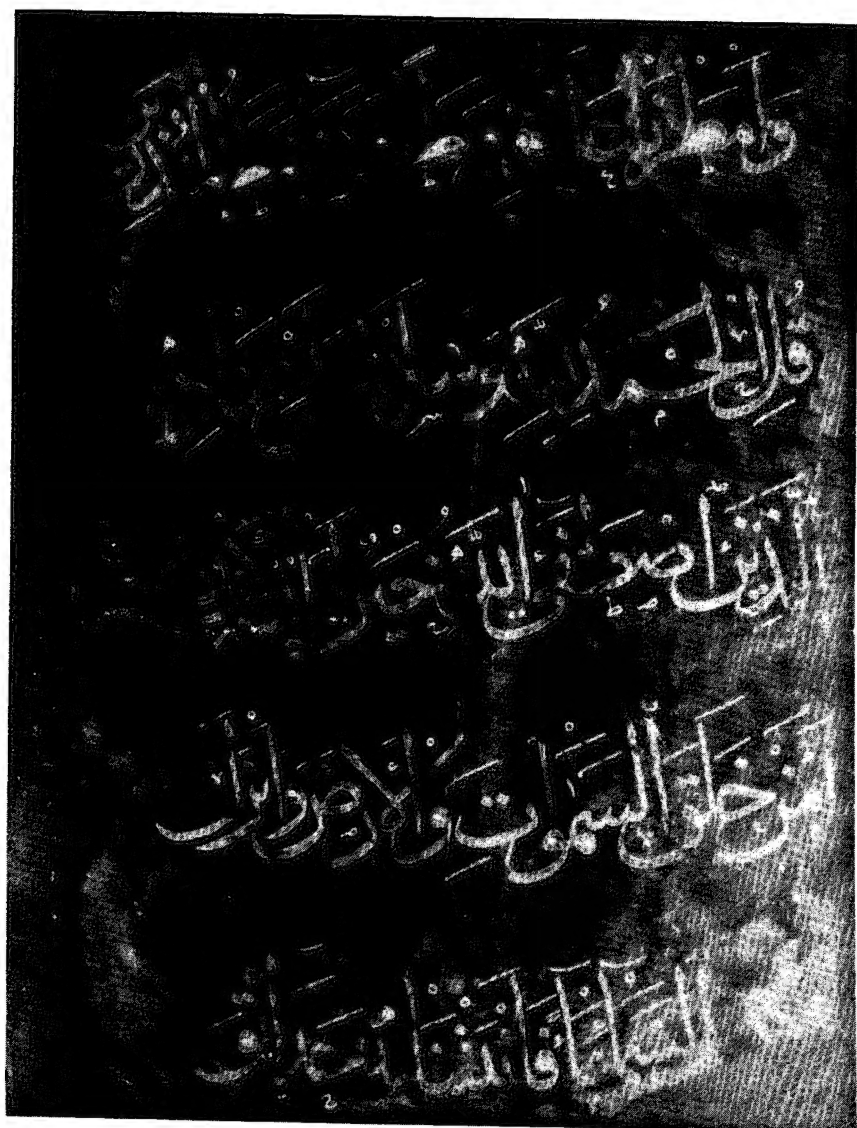
يضاف اليها كتابات التحف المعدنية وهي الأخرى شاهد حي لرواج فن الخط العربي ومدى سعته وانتشاره بتكويناتها الفريدة وتراكيبها الفنية المناسبة للمساحات المتنوعة والابتكارات التي وصلت الى حد خرجت فيه على بعض قواعد الخطوط بادخالها العنصر البشري والحيواني في صلبه (٥٨) ، ومثل التحف المعدنية التحف الخشبية والحباب وغيرها .

لقد استمر زخم هذه الحركة في العهد الايلخاني في النصف الثاني من القرن السابع الهجري والنصف الاول من القرن الذي تلاه ، ومن بقاياه في خط «الثلث القديم» كتابات مزار بنجة علي ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) ومزار الامام الباهر ٦٩٩ هـ (١٢٩٩ م) وكتابات التجديد الاول في

يعرفنا بها التاريخ ، ولكن ما سلم من عوادي الزمن من آثارها يفرض نفسه على تاريخ هذا الفن ، انها شخصية علي بن محمد بن زيد العلوي الحسيني الموصل الذي وصل اليها من آثاره (١٢) جزءاً من الرعة الشريفة التي كتبها بماء الذهب الخالص بخط المحقق متناً وثلث القديم ايضاحاً في السنتين ٧٠٦ هـ و ٧١٠ هـ (١٣٠٦ و ١٣١٠ م) بامر السلطان الايلخاني اولجايتو ، وهي محفوظة في تركيا وايران وبريطانيا وايرلندا (٥٩) ، وزخرفتها تعد من روائع الزخرفة الاسلامية ، وقد عدّ المستشرق الانكليزي دافيد جيمس هذه الرعة وريعتي الخطاط احمد السهروردي المعاصر له ، في دراسته القيمة عن المصاحف المملوكية من الاعمال العظيمة في نطاق العالم الاسلامي على الاطلاق (٦٠) ، وهو لا يدري ان في رعة الحسيني في الجزء الذي رأيته في مكتبة السلمانية في اسطنبول صفتين بخط الثلث وليس المحقق تعدان اسلوباً جديداً فيه ، شكّل اساس المدرسة الحديثة في خط الثلث ولم يكتب بمستواها الا بعد عشرات السنين ان لم نقل مئات السنين على الورق وذلك في عصر عنفوان التطور الخطي الذي حققه الخطاطون العثمانيون



١٢- كتابات مزار الامام يحيى المرمرية المطعمة من عهد التجديد الأول ٧١٩ هـ الثلث القديم .
(تصوير الباحث)



١٣ - صفحة خط الثلث في المصحف الكريم الذي كتبه علي بن محمد
بن زيد الحسيني الموصل سنة ٧١٠ هـ. (تصوير الباحث)

في خط الثلث بعد عدة قرون، وهذه الظاهرة تحتاج الى مزيد من الايضاح - في غير هذا الموضوع - لاهميتها.

كما وصل البنا من آثار الحسيني فضلاً عما تبقى من اجزاء الرعة الشريفة مصحفاً شريفاً بخط النسخ كتيبه سنة ٧٠٧ هـ (١٣٠٧ م)^(١١)، ضمن الفترة التي فصلت بين كتابته لنصف الرعة الشريفة في سنة ٧٠٦ هـ والنصف الثاني الذي كتيبه سنة ٧١٠ هـ، وربما له اعمال أخرى في هذه الفترة لم يعثر عليها.

ان الاسلوب الجديد في خط الثلث والذي شهدناه عند الخطاط علي بن محمد بن زيد الحسيني في المخطوطات، نجد له امثلة على العمارة، ولعل من اقدمها كتابة المسجد الجامع في ورامين VARAMIN سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣ م)^(١٢)، كذلك شهدناه على العائر في بغداد في جامع مرجان في كتاباته المؤرخة ٧٥٨ هـ (١٣٥٧ م) وفي كتابات خان مرجان المؤرخة سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) وكلاهما بخط احمد شاه النقاش المعروف بزرين قلم، وفي ازنيك في الجامع الاخضر سنة ٧٩٤ هـ (١٣٩٢ م) من العهد العثماني^(١٣)، بينما الاسلوب القديم استمر في بلاد الشام ومصر وشمال افريقية، وانتهى مع نهاية العصر المملوكي في مصر الا في الشمال الافريقي ليحل محله الاسلوب الجديد الذي عم العالم الاسلامي بعد ان تركز شكله بتطور ملحوظ، مستقر في القواعد العامة ومختلف في الاساليب بالنسبة لكبار الخطاطين.

كما تقدم يظهر أن الحسيني كان من كبار الخطاطين في عصره ومعروفاً ذلك في العالم الاسلامي والا لما وقع عليه اختيار السلطان والجايتو مع السهروردي (شمس الدين احمد بن يحيى بن محمد القرشي البكري) ٦٥٤ - ٧٤١ هـ (١٢٥٦ - ١٣٤٠ م) ومعروف ان السهروردي من كبار الخطاطين في عصره واحد الاعلام الستة من

تلاميذ ياقوت المستعصمي، وقد ترجمت له المصادر القديمة واشادت بتفوقه في الخط والموسيقى^(١٤).

وحينما نعود الى موطن الحسيني، المدينة التي اضطلعت بدور كبير في مسيرة الخط في القرون الماضية، نرى ان النشاط الخطي يخفت فيها، وتعيش استمراراً للماضي المجيد، ويظهر فيها بعض الاعلام من امثال: احمد بن جبلة الموصلني المتوفى سنة ٧٧٧ هـ (١٣٧٥ م) ناسخ ومصور مقامات الحريري^(١٥)، وابن الدرهم الموصلني ٧١٢ - ٧٦٢ هـ (١٣١٢ - ١٣٦٠ م)^(١٦)، والشيوخ شمس الدين بن الموصلني ٧٠١ - ٧٧٤ هـ (١٣٠١ - ١٣٧٢ م)^(١٧) والآثاري (البي سعيد زين الدين شعبان بن محمد بن داود بن علي القرشي الموصلني) ٧٦٥ - ٨٢٨ هـ (١٣٦٣ - ١٤٢٥ م)^(١٨) وقد ترك اكثرهم الموصل الى الشام ومصر لأن طاقاتهم الفنية اكبر من ان تستوعبها المدينة وهي تعاني من موجة التردّي السياسي والاقتصادي والاجتماعي تحت ظل الجلائريين ودولة الخروف الأسود ودولة الخروف الأبيض، وقد كان الآثاري اكثرهم شهرة وخاصة في مصر، في الخط والتأليف فيه وفي غيره فقد كان عالماً جليلاً وشاعراً كبيراً، والفيتة في الخط «العناية الربانية في الطريقة الشعبانية» اشهر من ان تذكر^(١٩).

يستمر الحال في التدهور في الخط شأنه شأن بقية الأوضاع طيلة القرن التاسع الهجري وبداية القرن العاشر منه، ولا نكاد نحس له وجوداً، ونذر أن ترك نماذج نستطيع ان نتعرف على اوضاع الخط فيها، والقوذج الوحيد الذي شاهدناه هو حجر قبر منشوري الشكل مؤرخ سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م) كان معروفاً في العصر العباسي في بغداد وهو بالاصل مجلوب من مدينة الموصل، وقد عرض اول مرة في متحف الآثار العربية في خان مرجان، وقد

نرى في بلد مثلاً بقايا الألواح المرمرية المتناثرة فيها الكوفي المروس وكوفي الفراغ الزخرفي وفي الآثار الجصية «الثلاث القديم»^(٧٢) ، وفي سنجار في المنارة المؤرخة سنة ٥٩٨ هـ (١٢٠٢ م) الكوفي المربع والثلاث القديم ، وفي مزار الست زينب المؤرخة سنة ٦٤٤ هـ (١٢٤٦ م) الثلاث القديم على المرمر والجص ، وعلى حجر الحلالن من بقايا مدخل الخان ٦٤٨ هـ (١٢٥٠ م) القريب من سنجار^(٧٣) ، وفي العمادية نشاهد كوفي الفراغ الزخرفي في منبر الجامع الكبير المؤرخ سنة ٥٤٨ هـ (١١٤٦ م) والثلاث القديم على باب الموصل الحجري من العهد الاتابكي^(٧٤) وباب جامع العمادية الكبير الخشبي الباقي من نفس العهد^(٧٥) ، وفي دير ماربهنام جنوب الموصل الذي تعود اغلب آثاره الى العهد الايلخاني يتصدر

ثبت في الدليل على انه من سنة ٤٢٠ هـ^(٧٠) ، وذلك نتيجة للقراءة غير الصحيحة لكلمة «تسعة» لأن حرف السين فيها مختصر، شأنها شأن بعض الكتابات من هذا القرن في الموصل ، كما هي الحال في حجر المرمر التذكاري لمزار الامام العباس ٩٩٥ هـ (١٥٨٧ م) ومحراب الشافعية في جامع النبي يونس المؤرخ سنة ٩٩٧ هـ (١٥٨٩ م) والباب الخشبي لمزار الامام ابراهيم المؤرخ ٩٩٨ هـ (١٥٩٠ م) ، وقد حدث الخطأ نفسه في حجر مزار الامام العباس فقرأ على انه من سنة ٤٠٥ هـ كذلك باب مزار الامام ابراهيم قرئ على انه من سنة ٤٩٠ هـ^(٧١) ، وهذه الظاهرة لم تقتصر على مدينة الموصل فقد ذكر لي المرحوم فؤاد سفر انه شاهد بعض شواهد القبور في سورية فيها هذا الاجراء .



١٤- تحليل الكتابات الآجرية بالخط الكوفي المربع في قاعدة منارة سنجار المؤرخة سنة ٥٩٨ هـ . (تحليل الباحث)

خط الثلاث القديم الأفاريز المرمرية فوق المدخل ، والأطر الجصية حول المنحوتات النصفية التي تزين جوانبه الداخلية في الدير ، ومثله في الاطار المرمرى الذي يعلو الضريح في الجب^(٧٦) . ان هذه الكتابات وغيرها تظهر الرابطة القائمة في حركة تطور الخط في المنطقة حلقة في سلسلة طويلة تغطي المحيط العربي الاسلامي ، تسير بحركة موازية تفصح عن وحدة هذا الفن في الشكل العام والخصوصية بالتفاصيل .

وقبل ان نختتم هذه النظرة المركزة على الخط في الموصل والتي كانت المدينة محوراً ، لابد من الإشارة الى ان البلدان المجاورة للمدينة كانت في اغلب الأحيان جزء منها مثل مدينة بلد وسنجار والعمادية وغيرها ، وهي تشكل مع المدينة وحدة حضارية لها نفس الخصائص في الفترات المختلفة مداً وجزراً ، والخط اكبر رابط فيها ، ولذا فإن الشواهد الشاحصة في الحاضر لها نفس اوضاع الخط التي كانت سائدة في مدينة الموصل حيث

الهوامش :

- (١) ياقوت الحموي . معجم البلدان ، دار الكتاب العربي ، بيروت ب. ت. ٥ / ٢١٣.
 - (٢) يوسف ذنون ، قدم وسديد في اصل الخط العربي وتطوره في عصوره المختلفة ، المولد ٤ / ١٩٨٦ ص ٨.
 - (٣) الأزدي (أبو تركيا يزيد بن محمد) تاريخ الموصل ، تحقيق دكتور علي حبيبة ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٤.
 - (٤) محمود العبادي ، الآثار الاسلامية في فلسطين والأردن ، عان ١٩٧٣ ص ٤٩ وما بعدها عن القصور الأموية.
 - (٥) ناصر محمود التقشبندي ورفيقته ، البرهم الأموي المغرب ، بغداد ١٩٧٤ ص ٣٤.
 - (٦) ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، طبعة دار المأمون ، القاهرة ١٩٣١ - ١٩٣٨ م ٧ / ١٩٣.
 - (٧) هو الخط اليدوي اللين القنن بقواعد وضمت له في القرن الثاني او الثالث الهجري وتطورت عبر العصور ، تناقلها الخطاطون جيلاً بعد جيل حتى الوقت الحاضر ، ومنها في القديم والأقلام الستة ، وهي خطوط الثلث والنسخ والمحقق والريحان والتوقيع والرقاع ، وضيفت اليها أنواع أخرى في العصور المتأخرة ، منها خطوط التعليق او التستعليق والديواني وجلي الديواني والرقعة وغيرها ، وقد ذهب القدماء في تفسيرها بما لا يخرج عن المعنى الشامل الذي اوردناه وهو (الأول) لتناسب اشكال حروفها وفق « شرعة واحدة » و (الثاني) تكوّن خصائص لكل خطاط يجد يتميز بأسلوب معين ويمكن نسبته اليه . انظر : رسالة في الكتابة المنسوبة ، وهي مجهولة المؤلف نشرت لأول مرة سنة ١٨٨٧ م كما ذكر رايس في كتابه عن ابن البواب ، واعاد نشرها الدكتور خليل محمود عساكر في مجلة معهد المخطوطات العربية ١ / ١٩٥٥ ص ١٢٣ .
 - (٨) اطلق على الثلث القديم في مصر في اوائل القرن العاشر الهجري : الثلث على طريقة ابن البواب (انظر : محمد بن حسن الطائي ، جامع محاسن كتابة الكتاب ، نشره وقدم له الدكتور صلاح الدين المنجد ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٩ ، وقد تبين لنا ان هذه الطريقة هي اقدم من عهد ابن البواب ، حيث وجدناها عند مهلهل بن احمد سنة ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) ولمدم معرفة المبتدئ بها لذلك اطلقنا عليها تسمية «الثلث القديم» وهو الذي شاع على العاقر في العالم الاسلامي منذ القرن الخامس الهجري حتى القرن الثامن الهجري في البلاد الاسلامية ماعدا مصر وما جاورها فإنه بقي فيها الى فترة متأخرة ، وقد اطلقنا خط «الثلث» فقط على الطريقة المحسنة التي يظهر انها قد تشكلت بتأثير خط المحقق ، والتي شاعت بين الخطاطين منذ القرن الثامن الهجري وحتى الوقت الحاضر.
 - (٩) لقد وضعنا هذا التقسيم بناء على معطيات اشكال الخط الكوفي وتطوراتها تقادياً للخط الذي حدث عند الباحثين في الفنون الاسلامية في التسميات التي وضعوها ، وخاصة بين الخط الكوفي المورق والخط الكوفي المزهر ، واختلاف كبار دارسي هذا الخط فيها امثال فان برشم وكرومان ، ناهيك عن غيرهم من الباحثين الآخرين ، وقد اشار الى نماذج منها حمزة
- حمود حمزة في رسالته «التزيين والتزيير في الخط الكوفي حتى منتصف القرن الخامس الهجري» والمقدمة الى كلية الآداب في جامعة بغداد سنة ١٩٨١ وهي غير مطبوعة في الصفحة ١٥٨ ، وكذلك الاختلاف عند دارسي المخطوط العربية الذين حاولوا نسبة الخط الكوفي الى الأغراض او القرون او البلاد او الدول او غيرها قليل : كوفي المصاحف وكوفي القرون الأولى والكوفي الأندلسي او الفاطمي او الأيوبي او المملوكي وغيرها ، ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح في الرسائل الثلاث ليويسف احمد عن الخط الكوفي الصادرة في مصر في ١٩٣٣ و ١٩٣٤ و ١٩٣٩ .
- ولتبي انواع أخرى مولدة تفرض تسميتها بخصوصيتها وهي عادة معدودة ولذلك نتحقق ان نفرد بتسمياتها مثل الخط الكوفي القيرواني الذي اساسه مصحف الحاضرة بشكله المميز والمعروف.
- (١٠) SARRE, F., HERZFELD, E., ARCHÄOLOGISCHE REISE IM EUPHRAT UND TIGRIS GEBIET, BII, BERLIN, 1920. P.283.
- (١١) ص ١٢٢ .
- (١٢) العارة العربية في مصر الاسلامية ، مصر ١٩٧٠ ص ٦٠٦ .
- (١٣) عثمان الككاك ، جامع الزيتونة ، العربي ١١٨ / ١٩٦٨ ص ١٥٥ .
- (١٤) سليمان مصطفي زبيس ، الفنون الاسلامية في البلاد التونسية ، تونس ١٩٧٨ ص ٢١ .
- (١٥) لقد عثرت على محراب مزار الست كلثوم في سنة ١٩٧٠ بين اقاصي المزار المجاور لمنى البلدية القديم في محلة الميدان قبل تجريد الموقع من المباني التي يضمها وتحويلة الى ساحة للسيارات في الحاضر ، وقد نقلته الى المتحف الحضاري بالموصل حين يوشر بتنظيمه في المبني الجديد فوضع فيه .
- (١٦) عن هذا الطراز ينظر : ارنست هرتسفلد ، تقييات سامراء ، الجزء الأول ، ترجمة الدكتور علي يحيى منصور ، بغداد ١٩٨٥ ص ٢٠ و ١٢٣ وما بعدها .
- (١٧) سورة البقرة الآية ١٣٧ .
- (١٨) GHULAM, Y., INTRODUCTION TO THE ART OF ARABIC CALLIGRAPHY IN IRAN, SHIRAZ, P.47 ب.ت
- (١٩) المرجع السابق ص ٨٩ .
- (٢٠) سوادى عبد محمد الرويشدي ، امارة الموصل في عهد بدلولدين لؤلؤ ، بغداد ١٩٧١ ص ٢١٤ . عن للدرسة .
- (٢١) احمد الصوفي ، الآثار والمباني العربية الاسلامية في الموصل ، حلب ١٩٤٠ ص ٩٥ . عن المزار .
- (٢٢) KONYALI, I.H., KONYA TARİHİ, Konya, 1964 s.55
- (٢٣) POPE, A.U., PERSIAN ARCHITECTURE, NEW YORK 1965 P.190
- (٢٤) هلال ناجي ، ابن مقله ، بغداد ١٩٩١ .
- (٢٥) ياقوت ، معجم الادباء ٩ / ٢٨ .

- (٢٦) الدكتور أ. سهيل أنور، الخطاط البغدادي علي بن هلال الشهور بابن البواب، ترجمة محمد هجة الأثري وعزيز سامي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م.
- (٢٧) عزالدین بن الأثير، الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦، ٨/ ٣٠٩.
- (٢٨) ياقوت، معجم الادباء، ٣٢/٩.
- (٢٩) الصافي (أبو الحسن الهلال بن الحسن) الوزراء، تحقيق عبدالستار احمد فراج، مصر ١٩٥٨، ٢٨٥.
- (٣٠) ابن الأثير، الكامل ٨/ ٤١٨.
- (٣١) ياقوت، معجم الأدياء ١٣/ ١٢٥.
- (٣٢) ديوان السري الرفاء، تحقيق ودراسة الدكتور حبيب حسين الحسني، بغداد ١٩٨١، ٣٣.
- (٣٣) ياقوت، معجم الأدياء ١٣/ ٢١٩.
- (٣٤) المصدر السابق ١٥/ ١٣٠.
- (٣٥) ساسي خلف حارث، فهرس المخطوطات العربية في الطب والصيدنة المخطوطة في المكتبة البريطانية، القاهرة ١٩٦٣، ص ١٠.
- (٣٦) ياقوت، معجم الأدياء ١٢/ ٦٢.
- (٣٧) المصدر السابق ١٢/ ٣٩، ٩١.
- (٣٨) الصفدي (صلاح الدين خليل بن ايبك) الوافي بالوفيات، طهران ١٩٦١، ٢/ ١٠٥.
- (٣٩) عزالدین ابن الأثير، الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق عبدالقادر احمد طليبات، القاهرة ١٩٦٣، ١٨٩.
- (٤٠) ابن خلکان (شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر) وفيات الأعيان، حققه محمد محي الدين عبدالحيد، القاهرة ١٩٤٩، ٥/ ١٧٠.
- (٤١) الدكتور صلاح الدين المنجد، ياقوت المستعصي، بيروت ١٩٨٥، ١١.
- (٤٢) ياقوت، معجم الأدياء، ٩/ ٤٧.
- (٤٣) ابن خلکان، وفيات الأعيان ٦/ ١٢٠.
- (٤٤) وليد الأعظمي، جمهرة الخطاطين البغداديين، بغداد ١٩٨٩، ١/ ٣٤١.
- (٤٥) الدكتور خالد الجادر، المخطوطات العراقية المرسومة في العصر العباسي، بغداد ١٩٧٢، ص ١٣.
- (٤٦) الدكتور مصطفى جواد، منازل نظري في مباحث سومر، سومر ٢٤/ ١٩٦٨، ٢٢٩.
- (٤٧) الجادر، المخطوطات العراقية، ص ٥٩.
- (٤٨) الكشي (محمد بن شاکر بن احمد) فوات الوفيات، تحقيق محمد محي الدين عبدالحيد، القاهرة ١٩٥١، ٢/ ٤٠.
- (٤٩) الأعظمي، جمهرة الخطاطين ١/ ٤٠٨.
- (٥٠) المصنف من مقتنيات المشرق اليوغسلافي محمد مؤذ نوبل، سرايفو.
- (٥١) الجادر، المخطوطات العراقية، ص ٢٣.
- (٥٢) مكتبة عبدالرسول التاجر الخاصة، البحرين، رقم ٤٠١.
- (٥٣) الجادر، المخطوطات العراقية، ص ٣٢.
- (٥٤) الأعظمي، جمهرة الخطاطين ١/ ٤٣٤.
- (٥٥) يوسف ذنون، خط الثلث ومراجع الفن الاسلامي، القرن الاسلامي، المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة، اعمال الندوة العلمية المتقدمة في استانبول، نيسان ١٩٨٣، دمشق ١٩٨٩، ص ١٠٧.
- (٥٦) لقد زودني الدكتور ياسر الطباع بتحليل لكتابة هذا الشاهد نقلًا عن:
- FLURY, GHAZNA, SYRIA VI 1925, P. 61 - 90
- (٥٧) عثرت على عراب مسجد احسان البكري سنة ١٩٧٠ في انحاء المسح الأثري الذي اجرته لمساجد الموصل والذي بدأت به سنة ١٩٦٣، وقد اعددت عن هذا العراب دراسة أولية لازالت مخطوطة لأهميتها في تحديد مسار التغيير في الكتابات على العمارات في الموصل.
- (٥٨) صلاح حسين البيدي، التحف المدنية الموصلية في العصر العباسي، بغداد ١٩٧٠، ١٧٢.
- (٥٩) JAMES, D., QUR'ANS OF THE MAMLUKS, LONDON 1988, P. 237.
- (٦٠) المرجع السابق ص ١١٠.
- (٦١) القهرست الشامل للتراث العربي الاسلامي المخطوط، من منشورات المجمع الملكي لبحوث الحضارة الاسلامية، عمان ١٩٨٦، ١/ ٤٩.
- (٦٢) POPE, A.U., SURVEY OF PERSIAN ART, VIII, LONDON, 1967, P.408,409
- (٦٣) EKREM HAKKI AYVERDİ, OSMANLI MİMARİSİNİN İLK DEVRİ, I, ISTANBOL, 1966. s. 320.
- (٦٤) هاشم محمد الرجب، الموسيقيون والمغنون خلال الفترة المظلمة، بغداد ١٩٨٢، ص ٣٣ وفيه مصادر ترجمته.
- (٦٥) ناهدة عبدالفتاح التميمي، مقامات الحريري المصورة، بغداد ١٩٧٩، ص ٧١.
- (٦٦) مير صالح الأمين، تراجم الموصليين (مخطوط) ص ١٧٨.
- (٦٧) عباس الزاوي، تاريخ الأدب العربي في العراق، مطبوعات المجمع العلمي العراقي ١٩٦١، ٤٦/ ١.
- (٦٨) شعبان الآثري، العناية الرائية في الطريقة الشيعانية، حققها وقدم لها هلال ناجي، المورد ٢/ ١٩٧٩ وفي التقديم مصادر ترجمة الآثري ص ٢٢١.
- (٦٩) المصدر السابق ص ٢٢١.
- (٧٠) دليل متحف الآثار العربية في خان مرجان، مديرية الآثار القديمة، بغداد ١٩٣٨، ص ٤٤.
- (٧١) يوسف ذنون، دراسة جديدة لكتابات الموصل الأثرية، سومر ٢٣/ ١٩٦٧، ٢٢٣.
- (٧٢) عبدالله أمين اغا، بلد، الموصل ١٩٧٤، ص ٦٢.
- (٧٣) هرتسفلد، (مصدر سابق) الرحلة ص ٣٠٨.
- (٧٤) عفو البعاسي، امانة بهديان العباسية، الموصل ١٣٨٨ هـ ١٩٦٩ م ص ١٢٦ (الصور).
- (٧٥) الدكتور عيسى سلمان ورفيقه، نصوص في المتحف العراقي، المجلد الثامن، بغداد ١٩٧٥، ص ١١٠، نصوص عربية، ١٢٤.

(٧٦) يوسف ذنون ، المباني الأثرية في دير مار بهنام من الناحية المعمارية والتزيينية ، بحث التي في الوبيل المئوي السادس عشر لاربعمائة

الشهيد ونشر ملخصه المنقول عن مجلة بين التهرين ٤٩ ، ٥٠ /
١٩٨٥ في كتاب الوبيل الصادر في بغداد سنة ١٩٩٠
ص ١٤٥ ولم ينشر النص الكامل مثل بقية البحوث .

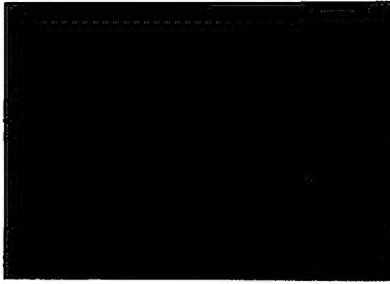
مَدْرَسَةُ الْمَوْصِلِ فِي التَّصْوِيرِ

أ. د. عادل نجم عبو

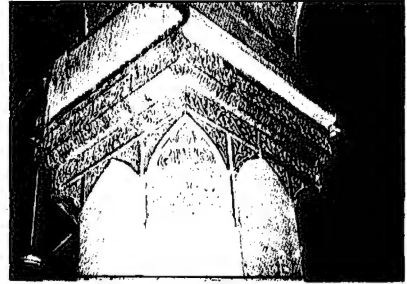
لا تكون غايته التصفح لتزايقه بل يشرف على مايتضمن من الأمثال^(٥) ومن المعروف أن نسخاً مزوقة من الكتاب المذكور وصلت في فترة متأخرة عن فترة ترجمته^(٦) . مع ذلك فإن بدايات الاصول الفنية لمدارس التصوير التي انتشرت وتعددت منذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ومابعده قد ظهرت منذ القرن الأول الهجري / السادس الميلادي وفي مختلف اقاليم الدولة الاسلامية ، وتمثل تلك البدايات انتعاش الموروث المحلي في الاقاليم وتفاعله مع المفاهيم العربية الاسلامية الجديدة لتتكون منها مدرسة عربية اسلامية في كل مجال من مجالات الفنون بحيث لايمكن أن ننسب تكوين المدرسة الاسلامية الى فنان معين كما ذهب الى ذلك ديماندا أو الى فترة متأخرة كفترة الواسطي في القرن الثالث عشر الميلادي^(٧) فقد تفرع فن التصوير الاسلامي في القرن السابع / الثالث عشر الميلادي الى مدارس عدة متعاصرة ومتعاقبة وتشترك جميع هذه المدارس بصفات عامة ومزايا مشتركة وأن تلك الصفات والمزايا المشتركة كانت جزءاً من الحضارة العربية الاسلامية كماكان للدين الاسلامي وللخيال العربي الأثر الكبير في تكوين الكثير من تفاصيلها . فقد اتخذ العرب الاسلام ديناً وسخروا في خدمة هذه الديانة عقولهم الناضجة وخيالهم المتقد ومشاعرهم الحساسة ، وعلى هذا الأساس نشأ الفن الاسلامي العربي وتطور^(٨) .

ورثت الدولة العربية الاسلامية اقاليم شاسعة كانت تسودها عادات وتقاليده الحضارات الشرقية القديمة واليونانية والرومانية . وترسخت في هذه الاقاليم ، مع حركة التحرير العربية وانتشار الاسلام اسس فن موحد ذي طابع متميز اصطلح عليه اسم « الفن العربي الاسلامي » وقد شكل التصوير أحد جوانبه المهمة . ويقصد بالتصوير ما يُصطلح عليه الرسم Painting في الوقت الحاضر . ولا نود أن ندخل هنا في تفاصيل موقف الاسلام من التصوير أهو مسموح به أم محرم أم مكروه ؟ فهناك الكثير من الدراسات حول الموضوع^(٩) إلا أنه رغم ما قيل عن موقف الاسلام هذا فإن الفنان المسلم مارس التصوير على شتى جوانب الفنون مارسه على جدران المباني بالالوان^(١٠) وبالفسيفساء^(١١) كما مارسه على الفنون التشكيلية الأخرى كالحفر على الخشب أو تطعيمه وعلى الفنون التطبيقية وعلى المعادن والفخار والمنسوجات والزجاج . وكانت صفحات المخطوطات ابرز ميادين التصوير ووضحها ، وهو موضوع هذا البحث .

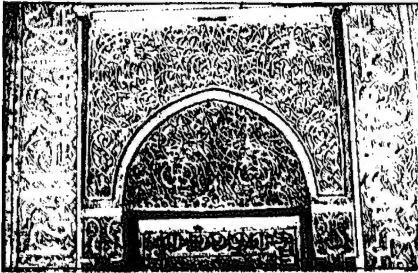
يرجع أقدم المخطوطات المصورة التي وصلت إلينا في العراق الى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وأن هناك اشارات الى وجودها في القرنين التاسع والعاشر^(١٢) بل وقبل ذلك . فكتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه عبد الله بن المقفع في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي يذكر في مقدمته : « وقد ينبغي للناظر في كتابنا هذا أن



صورة (٢) قبة الجامع المجاهدي في الموصل (٥٧٢ - ٥٧٦ هـ / ١١٧٦ - ١١٨٠ م).



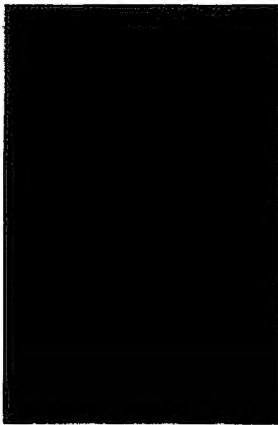
صورة (٣) تاج عمود مضلع في مصلى الجامع النوري في الموصل.



صورة (١) الزخارف الرخامية في عقد محراب الجامع الأموي بالموصل (٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م)

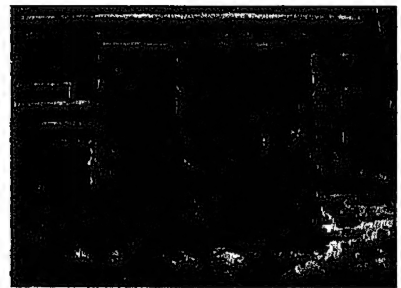


صورة (٢) قطعة من الرخام المتزل من المدرسة النورية في الموصل (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٠ م).

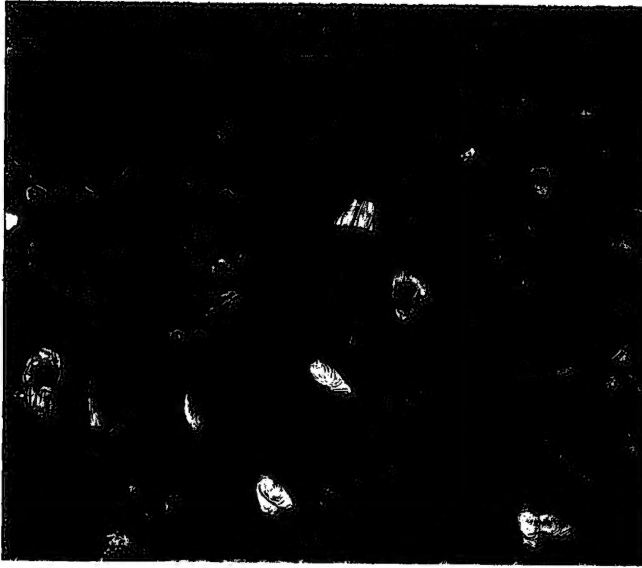


صورة (٣) مشكاة زخرفية بجانب مدخل مزار يحيى بن القاسم من الخارج

٢٣٧



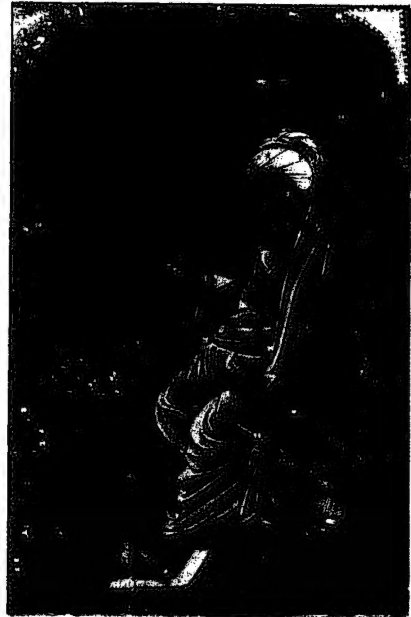
صورة (٥) حشوة زخرفية على الجدار الشمالي لمزار يحيى بن القاسم من الداخل.



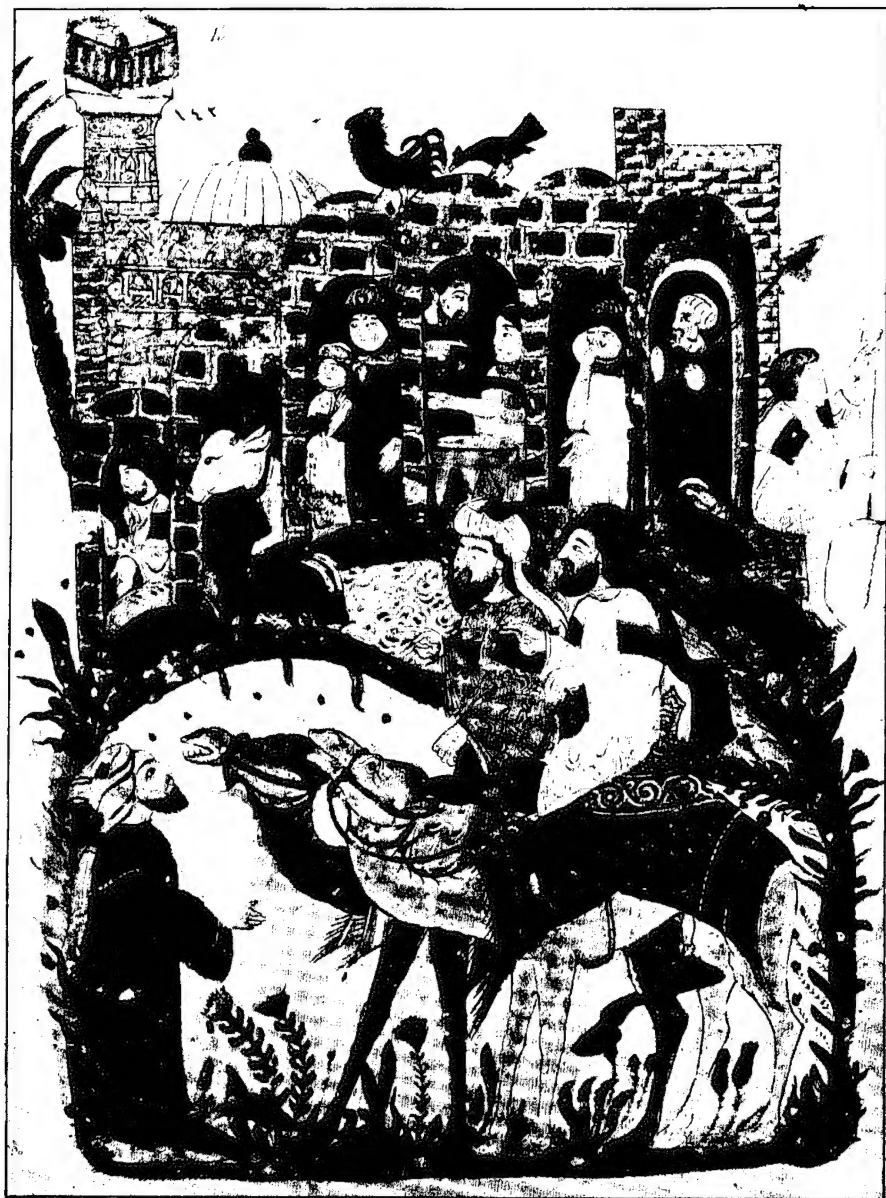
الشكل (١٠) نقلاً عن إيتكهاوزن ص ٩٤.



صورة (١) علامة في تصويرية من مخطوط مادة الطب (١٢٢٨م)
عن (إيتكهاوزن)

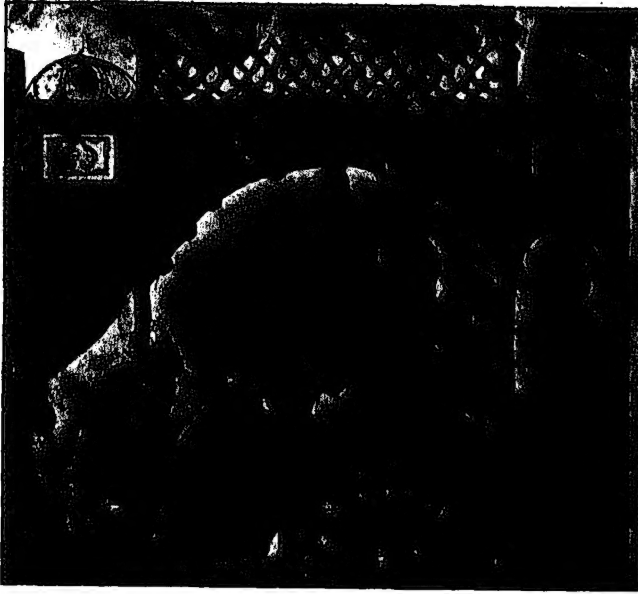


صورة (٣) جبة في تصويرية من مخطوط خواص الطافير (١٢٢٩م)
عن (إيتكهاوزن)



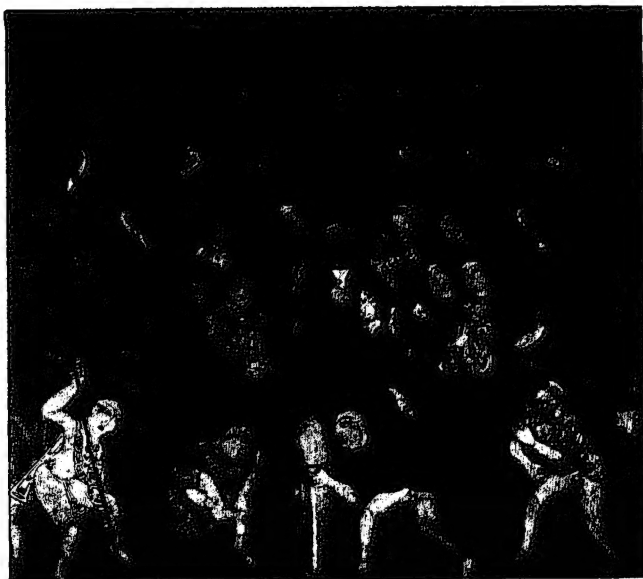
الشكل (٢) نقلاً عن ابنكهاوزن ص ١١٦ .

الشكل (١) نقلاً عن ايتنكهاوزن ص ١٠٦.



الشكل (٤) نقلاً عن ايتنكهاوزن ص ٨٤.





الشكل
(٥) نقلاً عن إيتكهاوزن ص ٨٥.



الشكل (٩) نقلاً عن إيتكهاوزن ص ٩٣.



(صورة ١) مئذنة الجامع النوري في الموصل (٥٦٦ - ٥٦٨ هـ / ٢٤١
١١٧٠ - ١١٧٢ م).

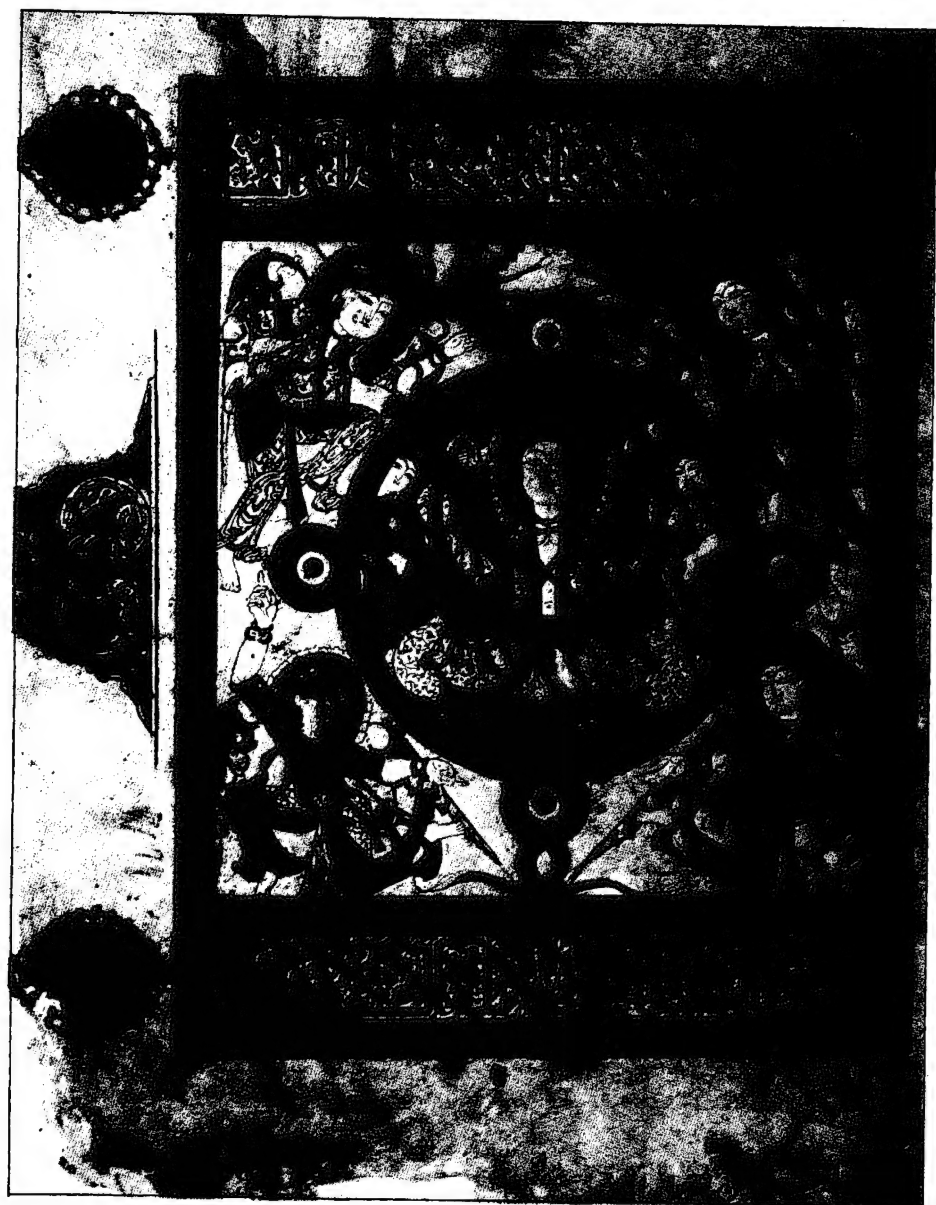


الشكل (٣) نقلاً عن ايشكهاوزن ص ٦٥ .



الشكل (٧) نقلاً عن ابتكهاوزن ص ٩١.

صورة (٢) عامة على هيئة قلنسوة وبقاء في تصويره في كتاب الترياق
(١١٩٨ هـ / ١٨٠٥ م)



الشكل (٦) نقلاً عن بابا اللوحة ٢٦ مقابل صفحة ١٢٨ .

الاسلامي ، في بغداد وديار بكر والموصل وفي مصر وسوريا وايران (١٣) .

وبعامة فإن كثرة المخطوطات المصورة التي نسخت وزوقت في الموصل أو التي تنسب الى الموصل والمناطق المجاورة لها والتي تحمل الاسماء والالقباب الموصلية . وتؤكد الخصائص الفنية المتميزة لهذه الصور وجود مدرسة خاصة في مدينة الموصل والاقاليم المجاورة لها وامتد تأثيرها حتى شمال سوريا وسواء اعتبرت هذه المدرسة ضمن مدرسة بغداد ذات التأثير والانتشار الأشمل أو أنها مدرسة محلية خاصة فان هناك ظروفاً تاريخية كان لها دورها في رسم حدود وهوية هذه المدرسة وبالنظر للعلاقة الفنية القائمة بين مدرستي الموصل وبغداد لا بد من معرفة خصائص وسمات مدرسة بغداد . ويوضح الشكل (١) والشكل (٢) أبرز خصائص هذه المدرسة والتي يمكن تلخيصها بالسحنة العربية للرسم الآدمية وبالملايس الفضفاضة ذات الاكمام العريضة والتي تدور حولها عند العضد اشربة ذهبية عليها كتابات وزخارف وبالعناية برسوم الابل والخيول والبساطة وعدم التعقيد وبالتركيز على العناصر الآدمية رغم قلة اعدادها في الصورة الواحدة مع التركيز بقدر وافر على الشخصية الرئيسة بالصورة وتميزها بالمليس والحجم والزخرفة ، وتتميز صور هذه المدرسة وصور المدارس الاسلامية الأخرى بأنها ذات بعدين فقط وتفتقر الى البعد الثالث أو العمق وتمتاز ايضاً بالوانها الزاهية البراقة وباللون الذهبي للخلفيات (١٤) وقيل إن الشيء الوحيد الذي لا يبدو عربياً في صور هذه المدرسة هو الهالة المستديرة التي تحيط بالرأس والتي عزيت الى الفن البيزنطي (١٥) ورغم أن الهالة قد ارتبطت بفن التصوير المسيحي فإنها ترجع بأصولها الى الحضرة (١٦) فضلاً عن أنه اختلف الغرض من وجودها هنا في الوقت الذي نستخدم فيه الهالة في الفن البيزنطي للتعبير عن قدسية الأشخاص حيث

أما الخصوصيات التي تميز كل مدرسة فنية عن الأخرى فانها تستند الى مدى تأثير الموروث المحلي أو استمراره أو اضمحلاله واندماجه مع الخط الفني العام لتلك المدرسة . وقد تمتاز بعض خصائص المدارس الفنية وتقارب لتكون عند بعض مؤرخي الفنون مدرسة واحدة أو قد تتباعد خصائصها وتنفرد لتشكيل مدارس خاصة في نظر بعض آخر من المؤرخين . ونلاحظ مثل هذا الأمر واضحاً في مدرسة الموصل للتصوير وعلاقتها بمدرسة بغداد أو المدرسة السلجوقية ومدى علاقة كلا المدرستين بالموروث المحلي .

يرجح ديمان قيام مدرسة محلية للتصوير في بلاط الانابكة في شمال العراق وذلك من خلال صور لمخطوطة من كتاب الحيل الميكانيكية للجزري والتي من المحتمل أنها كتبت بالموصل سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م وكذلك استناداً الى صور تمثل بلاط بدر الدين لؤلؤ (٩) حاكم الموصل ٦٣٠ - ٦٥٧هـ / ١٢٣٣ - ١٢٥٩م (١٠) . ونلاحظ التداخل الواضح في الهويات الفنية للمدارس العراقية من نص لأحد مؤرخي الفن اذ يقول : « تكونت في نهاية القرن السادس الهجري أول وأقدم مدرسة للتصوير الاسلامي في العراق وتخصصت في تزيين ترجحات لمؤلفات يونانية في علم الطب والطبيعة والنبات والحیوان وكان مركزها غالباً مدينة الموصل ثم تكونت بعد ذلك في القرن السابع الهجري مدرسة تصوير أخرى في بغداد ثم تكونت مدارس أخرى في ديار بكر وماردين (١١) . ولا يميز بعض مؤرخي الفن بين مدارس متعددة بل ويعدها مدرسة واحدة هي المدرسة العراقية التي ظهرت لأول مرة على نحو متميز في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي (١٢) كان مركز هذه المدرسة ببغداد وعرفت بتسميات كثيرة مثل مدرسة بغداد والمدرسة العباسية والمدرسة السلجوقية والمدرسة العربية والمدرسة العراقية وانتشرت في جميع انحاء العالم



رسمت حول رأس السيد المسيح والحواريين والسيدة العذراء ، أما هنا فإن الحالة تعد دلالة للتعبير عن القدسية . كما قيل أيضاً أن الخلفية الذهبية لصور هذه المدرسة بيزنطية برمتها^(١٧) في حين أنها يبدو لدى المتبع لاقاليم انتشارها ضعف التأثير البيزنطي بل ربما كانت المدرسة العربية والمدرسة البيزنطية قد وقعتا تحت مؤثرات تاريخية وبيئية واحدة انتشر خلالها اللون الذهبي كما انتشرت ألوان أخرى في عصور أخرى ، فاللون الذهبي يدل على النعمة والثراء^(١٨) ومن المعروف أن الكثير من المخطوطات المزوقة وخاصة مخطوطات الموصل قد أعدت بدعم من البلاط .

ان ما ستعرضه من صور تتعلق بمدرسة الموصل قد تشترك مع مدرسة بغداد بمقتضى موحدة فضلاً عن مزاياها وسماتها الخاصة بها وتتميز رسوم مدرسة الموصل قبل كل شيء باغراضها ، اذ ظهرت رسومها في مخطوطات معينة ، ففي سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م كلف احد سلاطين بني أرئق وهو نور الدين بن قرا أرسلان في ديار بكر ، كلف أبا العز اسماعيل ابن الرزاز الجزري أن يكتب مقالاً عن مخترعته من الحيل الميكانيكية^(١٩) فآثم الجزري كتابه سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م واطلق عليه اسم «الكتاب الجامع بين العلم والعمل النافع في صناعة الحيل» . لم تصل إلينا المخطوطة المذكورة ولكن وصلت نسخ عنها متأخرة عن تاريخ تأليفها^(٢٠) وتشابه صور جميع النسخ مما يدل على أنها جميعها منقولة عن الاصل . ومن المخطوطات الأخرى التي زوقت بأسلوب مدرسة الموصل كتاب الاغاني للافصهاني وكتاب الترياق للجاليينوس وكتاب خواص العقاقير لديوسقوريدس^(٢١) وكتاب مقامات الحريري^(٢٢) وكتب أخرى مثل كلبلة ودمنة ومنافع الحيوان . وان وجود اربع صور من مخطوطة الحيل التي ربما كتبت في الموصل سنة ٦٥٢ / ١٢٥٤ كافية لديماند لان يحكم على وجود مدرسة

تصوير خاصة بشمال العراق زمن بدر الدين لؤلؤ^(٢٣) . ويبدو أن وضع صورة شخصية ما في غرة كتاب خلال العصور الوسطى كانت تعني التعبير عن الشكر والعرفان بالجليل لشخصية تلك الصورة فالشكل ٣ يمثل غرة كتاب الاغاني مؤرخ من سنة ٦١٦هـ / ١٢١٩م تشير الكتابة الموجودة عند كفي الشخصية الرئيسية أنها تمثل بدر الدين لؤلؤ^(٢٤) الذي كان وصياً على أمراء الانابكة في الموصل حين نسخ الكتاب الذي كان فيما يبدو بتمويل منه . ويرى إيتنكهاوزن أن الاسم الذي هو «بدر الدين ابن عبد الله» يمثل اسم الفنان الذي رسم الصورة الخاصة وربما رسم الصور الأخرى في مخطوطة الاغاني^(٢٥) في حين أن الاسم كما هو واضح في الصورة بدر الدين لؤلؤ بن عبد الله ويبدو أن الفنان قد عجز عن التعبير عن الملامح الشخصية لبدر الدين لؤلؤ فعمد الى كتابة الاسم على اشرطة الكتف وان فكرة كتابة الاسماء على شخصيات الصورة كانت معروفة في رسومات هذه المدرسة خاصة في الشخصيات الحيوانية لقصص كلبلة ودمنة^(٢٦) كما أن الفكرة برمتها ، أي فكرة تصدير الكتاب بصورة تمثل الممول أو المشجع على نسخ الكتاب كانت معروفة فثل هذه الصورة ظهرت في غرة اجزاء أخرى من كتاب الاغاني وكتب أخرى^(٢٧) أما المصور فرمما كان الناسخ نفسه وهو محمد بن أبي طالب البدري^(٢٨) .

نلاحظ في هذه الصورة ، فضلاً عن الخصائص العامة للمدرسة العراقية بعض السمات الخاصة بها وبمدرسة الموصل مثل التركيز على الالوان الذهبي والازرق والاحمر دون وجود تدرج للانتقال من ظل الى آخر من ظلال اللون الواحد كما يلاحظ أن ملامح الوجوه ، خاصة النساء ، المحيطة ببدر الدين لؤلؤ واحدة تقريباً مما يدل على أن هذه الصور لا تعبر عن ملامح شخصية معينة . ونلاحظ في هذه الصورة ، وفي الكثير من الصور

الأساليب المتبعة في الزراعة والحراث والبذار والحصد وأزياء الفلاحين ، وتعرض الصورة المراحل التي يمر بها الحاصل ، فالفلاح يزرع والحاصد يحصد ورجل يدرس المحصول بدارسة تجرها الثيران وحمل يجلب المحصول أو يأخذه ، وفلاحان يقومان بتذرية القمح وغربلته وشخص يجلب الطعام للعاملين في الحقل ، وجميع آلات الحصد والدرس والزرع مازالت مستخدمة في الريف في الوقت الحاضر. ومن الملاحظات الفنية في هذه الصورة وجود اطار يوطرها على خلاف صور مدرسة بغداد رغم أن الرسام لم يكن يتقيد احياناً بالاطار ويخرج عنه ويلاحظ الشفافية في الصورة ، فلكي يوضح الفنان مافي الصينية من طعام عمد الى رسمها بشكل مقطعي وتظهر المالات خلف الرؤوس والتي غالباً ما كانت تستعمل في تلك الفترة للتأكيد على هذا الجزء من الجسم ، ونجد هنا حول بعض المالات حافات ملونة ومورقة وهو تطور جديد في هذا المجال^(٣٤) . وهناك تفهم لظهار البعد الثالث فأدرك الفنان بعضه في منظر الدارسة وفي صورة الرجل ذي المدرة الذي يقف خلف المغربل ، ويلاحظ في هذه الصورة وفي الصور الأخرى لهذه المدرسة استمراراً للتقليد الفني الآشوري يعرض الصور بشكل حقول^(٣٥) فالصورة تمثل حقليين احدهما فوق الآخر.

وتمثل الشكل (٥) صورة اخرى من نفس المخطوطة رسمت بنفس الشكل والاسلوب يعلوها شريط كتابي بالخط الكوفي المدون على ارضية مورقة ورسمت الصورة بحقلين ، يمثل الحقل الأسفل شخصاً يعاني من لسعة افعى ويحاول معالجة موضع اللسعة في قدمه ويندفع لاقفاده اثنان من المزارعين من جهة اليسار أحدهما يني ممسكاً مسحاته وكلاهما يرتدي الملابس القصيرة التي شاهدها لدى مزارعي الصورة السابقة وهناك مزارع ثالث يظهر خلف الرجل الملسوع مستمر في عمله لابدري بما

الأخرى للمدرسة الموصل ظهور عنصر الهلال يحيط برأس الشخصية الرئيسية اضافة الى الهالة . وقد ظهر الهلال كعنصر فني في منطقة الموصل خلال العهد الاتابكي وما بعده حيث ظهر في الزخارف الحصية في دار الامارة بالموصل الذي يؤرخ بناؤه من سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م وفي الزخرفة على الجباب المزينة بالنقوش البارزة والتي عرفت بالباربوتين. وعلى التحف المعدنية التي اشتهرت بها الموصل^(٣٦) . ويرى ديمانند أن الهلال ربما كان شعاراً لأحد أفراد الاسرة الحاكمة في الموصل بل ربما كان زكناً لبلد الدين لؤلؤ بدلالة ظهوره على العائز التي ترجع الى عصره مثل باب سنجار وبعض قطع النقود المضروبة باسمه ، وربما كان الهلال تعبيراً عن البلد الذي هو لقب لؤلؤين عبد الله^(٣٧) . وهناك علاقة وثيقة ايضاً بين رسوم هذه المدرسة والتحف البرونزية المصنوعة بالموصل بالاسلوب الفني الموصلية واستعمال طريقة خاصة في رسم طبقات الملابس مما يشير الى أن المنطقة كانت مركزاً فنياً مهماً^(٣٨) . ولدى البحث في اصول هذه المدرسة تبرز مسألة خلط بعض مؤرخي الفن بين التأثيرات البيزنطية والموروث المحلي. وبين الهوية السريانية والهوية البيزنطية. فيرى ايتنكهاوزن أن تسجيل ناسخ مخطوطة جالينوس لتاريخ الانتهاء من نسخها بالتاريخ السلوقي فضلاً عن التاريخ الهجري وانهاية خاتمة الكتاب بالدعاء باللغة السريانية يكون بذلك قد كشف عن اصله الغربي^(٣٩) . فهل الموروث السرياني اقرب الى الغرب البيزنطي من العرب ؟ . وتنسب الى مدينة الموصل مخطوطة من كتاب الترياق لجالينوس كتبت سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٩م تضم ثلاث عشرة صفحة مصورة لاشكال النباتات^(٤٠) .

وتعكس بعض صور هذه المخطوطة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية فالشكل (٤) يعكس حياة الريف في منطقة الموصل بما يتضمنه من

حدث ويشاهد في الحقل العلوي ملك أو أمير يتناول الشراب مع طائفة من ندمايه وهو موضوع نشأه في صور أخرى^(٣٦) وتعرض الصورة موضوعاً معمارياً كما تعرضه صور مدرسة بغداد. ففي الوقت الذي تعرض صور مدرسة بغداد الخلفية المعارية بثلاثة أوأوين أو عقود أوسطها كبير يحف به ايوانان جانبيين ، نلاحظ أن هذه الصورة تعرض ثلاث قباب ، الوسطى تحف بها من جانبيها قبتان صغيرتان ويتفق الشكل الخارجي لهذه القباب مع الشكل الخارجي لطراز من القباب عرف في الموصل آنذاك نشاهد بقاياها اليوم في قبة الجامع المجاهدي وقبة المدرسة الكمالية.

وكما هو الحال في الصورة السابقة حددت هذه الصورة باطار الا أن الفنان قد خرج عن حدود الاطار في حالات عدة .

والسطحية أو المقطعية التي لاحظناها في الصورة السابقة نلاحظها هنا ايضاً في رسم الأشجار بأوراقها التي تنتظم بشكل شبه هندسي حول الأغصان. وحاول الفنان في كلتا الصورتين أن يتوَّع في سحن الأشخاص بين شاب حليق وشيخ ملتج كما نلاحظ التنوع بملابسهم ، بألوانها والزخارف الدقيقة المزينة لها .

وبمثل الشكل (٦) غرة المخطوطة التي تضم الصورتين السابقتين . يتوسط الصورة خشوة دائرية تضم صورة أميرة تحمل بذراعها ، أمام صدرها ، هلالاً ويحف بالأميرة من جانبيها شخصان ، قيل أن احدهما يمثل الليل والآخر يمثل النهار^(٣٧) ، وحول الدائرة في الزوايا الأربع أربع شخصيات ، قيل أنها تمثل جنيات يطرن بأجنحتهن المديبة^(٣٨) وقيل أنها تمثل الرياح الأربع أو الأزمنة (الفصول) الأربعة^(٣٩) وتتكون الخشوة الدائرية من التفاف حيتين ويعتبر موضوع التفاف الحيتين والهلال^(٤٠) من المواضيع التي ترجع بأصولها الى فنون العراق القديم^(٤١) إذ أن تكوين أشكال زخرفية من

التفاف حيتين كانَ معروفاً في الفن العراقي القديم^(٤٢) كما أنه معروف وعلى نحو واسع في الفن الاسلامي حيث ظهر على باب الطلسم^(٤٣) وبوابات بعض الأضرحة مثل الإمام الباهر والكنائس مثل دير مار بهنام^(٤٤) وظهرت على الفخار مثل هذه الأشكال الزخرفية والمتكونة من التفاف حيتين وخاصة الفخار المعروف بالباربوتين أو الفخار ذي الزخارف البارزة^(٤٥) . ومن الأمور التي يمكن ملاحظتها في هذه الصورة احاطتها بإطار واضح ، ربما لأن الصورة تمثل غرة كتاب ونلاحظ هذه الصفة في صور غرر أخرى لأجزاء كتاب الأغاني^(٤٦) .

ونلاحظ خصائص هذه المدرسة في غرة مخطوطة أخرى لكتاب الترياق ترجع الى منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي والتي يعتقد أنها انجزت في الموصل^(٤٧) . (الشكل ٧) . قسمت الصورة الى خمسة حقول يمثل الحقل العلوي مشهداً لصيد الغزال ويحتوي المشهد الأسفل على تجمع لرجال ونساء نصف محجبات فوق الجبال وفي الحقل الأوسط الى اليسار صورة شخص يدل كبر حجمه على أهميته^(٤٨) . قد يكون حاكماً أو من سرة الناس محاطاً بحاشيته في مجلس شراب وامامه شخص يشوي لحماً^(٤٩) ومن المؤكد أن الصورة تمثل مشهداً غير رسمي من مشاهد البلاط^(٥٠) ابدى الفنان اهتماماً بتخلفيات الصورة التي تجلّت بالزخارف المعارية التي كانت سائدة في القصور الملكية وهو من الأمور المألوفة في غرر المخطوطات . ونلاحظ هنا سمة أخرى من سمات مدرسة الموصل ، ففي الوقت الذي ترسم الخيل في صور مدرسة بغداد بشكل اشبه بالحميز خالية من الحركة والنسب نراها هنا وفي هذه الصورة قد رسمت بشكل قريب من الطبيعة تنسم بالحركة والتناسب خاصة في الحقل العلوي ، ويلاحظ ايضاً استخدام الحالة حول الرؤوس جميعها بل وحتى حول رؤوس



الشكل (٨) نقلاً عن خالد الجادر المخطوطات العراقية المرسومة الشكل ٢٦ .

يمثل الشكل (٨) إحدى صور هذه المخطوطة وتعرض شاباً لسعته حية من قدمه بمسك بها يده اليسرى ويضربها بعصا بيده اليمنى ويشاهد في الصورة الطبيب اندروماخس راكباً جواده ويشير بيده الى الفتى أو يحدنه . تبدو الصورة وكأنها منظر طبيعي يغلب عليه الطابع الزخرفي ، فقد حاول الفنان أن يرسم الحصان والطير والحية على نحو قريب من الطبيعة فوزع عناصر التصوير تصويراً متوازناً فرسم ثلاث اشجار محورة عن الطبيعة ورسم الرجلين بين الأشجار احدهما الى اليمين والآخر الى اليسار ووضع في وسط الصورة طاووس و طائر آخر يشبه البجعة . ورسم النبات على نحو قريب من الاسلوب الزخرفي فرسمت الأوراق واحدة فواحدة ولم يكتفِ الفنان بوضع الهالة حول رؤوس الأشخاص والطير فقط بل وضعها حول زهره قريبة من الشاب كما يلاحظ هنا ان رسوم الأشخاص قد رسمت بلون داكن^(٥٥) .

وتركت مدرسة الموصل تأثيراتها الواضحة على صور المخطوطات المسيحية في المنطقة ، في شمال العراق وشمال سوريا هذا إن لم تعتبر تلك المخطوطات جزءاً من المنجزات الفنية للمدرسة . ففي المكتبة الوطنية في فينا مخطوطة تمثل نسخة من الانجيل كتبت وزوت في دير مار متى قرب الموصل تؤرخ من سنة ١٢٢٠ م برقم (سيرياكو

الطير مما يؤثر ابتعاداً عن الاستخدامات البيزنطية كذلك نلاحظ التنوع في الأزياء وزخارفها والتنوع في السحن رغم أنها تبدو واحدة بالنسبة للنساء . وفي الوقت الذي تسود الخلفية الذهبية في مدرسة بغداد والكثير من صور مدرسة الموصل نلاحظ في هذه الصورة خروجاً عن المألوف وبداية ظهور خصائص جديدة للمدارس اللاحقة التي اعتمدت اللون الأحمر من الوان خلفيات صورها .

وارتبط بمدرسة الموصل تصوير نسخ من كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل لأبي العز اسماعيل بن الرزاز الجزري الذي كلف عام ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م بإعداد الكتاب من قبل احد سلاطين بني أرتق وانتهى منه عام ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م . لقد فقدت المخطوطة الأصلية إلا أن النسخ المنقولة عنها كانت مزدانة بالصور ويلاحظ وجود تشابه بين صور مختلف النسخ وأن جميعها مميزات متشابهة في الاسلوب وطريقة الرسم مما يرجح أن الرسوم كانت تنقل بدقة وأمانة والنسخ جميعها ترجع الى أصل واحد^(٥٦) . وتتميز صور هذه المخطوطة بالألوان القوية البراقة ويظهر الألوان : الأزرق والأحمر والبنفسجي الداكن والأصفر والأسود فضلاً عن المبالغة في استخدام الذهبي والفضي مما يدل على أنها نفذت بأمر ملكي^(٥٧) . والشكل (٩) الذي يمثل ساعة واحدة من صور هذه المخطوطة نلاحظ فيها سمات مدرسة الموصل رغم وجود بعض التأثيرات الغربية^(٥٨) تلك التأثيرات التي تعد هي الأخرى من خصائص هذه المدرسة .

وينسب الى الموصل مخطوطة من كتاب الترياق لجالينوس . ورغم أن المخطوطة غير مؤرخة وليست فيها ما يشير الى مكان نسخها فإنه يمكن ارجاعها استناداً الى اسلوب صورها الى مدينة الموصل في بداية القرن الثالث عشر^(٥٩) .

والسيدة العذراء والحواريين ، أما هنا فإنها تستخدم حول رؤوس الأشخاص بغض النظر عن مكانتهم الدينية .

ويلاحظ تأثير مدرسة الموصل في تصوير الأشجار والجبال وكذلك في الاطار ذي الرقش العربي الذي يزين جزئها العلوي (٥٨) .

وعلى الرغم من تقيد الفنان المسيحي المعروف في نقله لمشاهد الحياة الدينية ، حتى في مواضع اشخاصها من الصورة ، نراه هنا قد تأثر بمدرسة الموصل في نقله صورة باكملها ليشرح بوساطتها مواضيع مسيحية ، فالشكل (١١) يوضح استفادة الفنان المسيحي من مشهد ولحمة لاحدى صور مقامات الحريري (أ في الصورة) ليؤطر صورة تمثل زواج كانا Cana (٥٩) (ب في الصورة) .

لقد أكد بعض مؤرخي الفن الاعتماد الكامل للخصائص الفنية للرسوم السريانية على الفن البيزنطي المعاصر لها (٦٠) . واعتبروا مع ذلك بقوة تأثير مدرسة الموصل على هذه الصور (٦١) ، في الوقت الذي نرى أن المدارس الفنية لا يمكن أن تكون بمعزل عن مؤثرات المدارس والتقاليد المحيطة

(٥٥٩) وهناك مخطوطة اخرى كتبت بين سنتي ١٢١٦ و ١٢٢٠ م تمثل نسخة من الانجيل ايضا كتبت بالخط السطرنجيلي ومحفوفة في لندن برقم (Add. 7170) وتحتوي المخطوطة على ٤٨ صورة ورغم أن المخطوطة لاتحمل أي ذكر لموطنها فإنها نسبت الى الموصل استناداً الى مقارنتها بالمخطوطة السابقة (٥٧) .

يمثل الشكل (١٠) صورة من مخطوطة فينا والتي لاختلف عن صور مدرسة الموصل إلا في موضوعاتها فهي تعالج مشاهد دينية مسيحية سبق ان تعاملت معها مدارس فنية أخرى كالبيزنطية والاعرقية والقبطية ، لذا فلا بد أن تركت تلك المدارس آثارها فيها ، مع ذلك فقد ابتعدت في هذه الصورة عن خصائص تلك المدارس واقتربت من مدرسة الموصل ، فلامح الأشخاص هنا عربية ، ونلاحظ تأثيرات مدرسة الموصل واضحة في العائم والملابس وزخرفتها والألوان والخلفية المعمارية ، كما نلاحظ تأثيراتها في استخدام الهالة ، فالهالة تستخدم في الصور البيزنطية حول رؤوس شخصيات معينة لها قدسيتها مثل السيد المسيح



(ب)



الشكل (١١) نقلاً عن Buchthal الشكل 1-2 XX SYRIA .

(أ)

- (٥) كتاب كلية ودمنة ، تحقيق عمر ابو النصر ، (بغداد ١٩٦٦) ص ٩٤ .
- (٦) اينتكهاوزن، ريتشارد ، فن التصوير عند العرب ، ترجمة عيسى سليمان وسلم طه التكريتي ، (بغداد ١٩٧٣) ، ص ٦١ .
- (٧) ديمانند ، ص ٤٣ .
- (٨) فكري ، احمد . المدخل الى مساجد القاهرة ومدارسها (القاهرة ، ١٩٦٧) ص ١٣١ .
- (٩) ديمانند ، المرجع السابق ، ص ٤٤ .
- (١٠) اصبح بدر الدين وصياً على ملوك الاتابكة سنة ٦١٥ هـ ثم انقرد بحكم الموصل سنة ٦٣٠ هـ عن هذا الموضوع راجع الديوبه جي ، سعيد ، تاريخ الموصل (الموصل ، ١٩٨٢) ج ١ ص ٣٠٧ وما بعدها .
- (١١) علام ، نعمت اسماعيل ، فنون الشرق الاوسط في العصور الاسلامية (القاهرة ١٩٧٧) ص ١٣١ .
- (١٢) حسن ، زكي محمد ، ملرسة بغداد في التصوير الاسلامي (بغداد ، ١٩٧٢) ص ١١ وراجع ايضاً Rice, D. T. Islamic Art, (London, 1965) P. 100 .
- (١٣) حسن الباشا ، المرجع السابق ص ١٢٥ و ١٢٩ .
- (١٤) عن خصائص هذه المدرسة راجع حسن ، زكي محمد حسن ، ملرسة بغداد ، ص ٢٧ - ٣٢ .
- (١٥) علام ، المرجع السابق ص ١٣١ .
- (١٦) فؤاد سفر ومحمد علي مصطفى . الحضرة مدينة الشمس (بغداد ، ١٩٧٢) ص ١١٤ .
- (١٧) Rice, Islamic Art. P. 107 .
- (١٨) الجادر ، المرجع السابق ، ص ٢٧ .
- (١٩) حسن الباشا ، المرجع السابق ص ٩٣ و ص ١٤٠ .
- (٢٠) الجادر ، المرجع السابق ، ص ٦٣ .
- (٢١) حسن الباشا المرجع السابق ص ٩٣ - ٩٧ .
- (٢٢) ديمانند ، المرجع السابق ص ٤٣ .
- (٢٣) نفس المرجع ص ٤٤ .
- (٢٤) اينتكهاوزن ، ريتشارد ، فن التصوير عند العرب ، ترجمة عيسى سليمان وسلم طه التكريتي (بغداد ، ١٩٧٣) ص ٦٥ .
- (٢٥) اينتكهاوزن ، ص ٦٤ .
- (٢٦) نفس المرجع ص ٦٢ - ٦٣ .
- (٢٧) حسن الباشا ، المرجع السابق ص ١٤٦ .
- (٢٨) الجادر ، خالد ، المرجع السابق ص ١٤ .
- (٢٩) حسن الباشا ، المرجع السابق ، ص ١٤٧ .
- (٣٠) ديمانند ، المرجع السابق ، ص ١٥٣ .
- (٣١) اينتكهاوزن ، ص ٦٤ .
- (٣٢) نفس المرجع ، ص ٦٧ .
- (٣٣) حسن الباشا المرجع السابق ص ٩٦ و ١٤٦ .
- (٣٤) اينتكهاوزن ، ص ٨٣ .
- (٣٥) نفس المصدر ، ص ٨٦ وانظر ايضاً ساكن هاري ، عظمة بابل ، ترجمة د. عامر سليمان ، (الموصل ، ١٩٧٩) ، ص ٥٧٢ .
- (٣٦) قارن مع صور اخرى ، الجادر ، المرجع السابق ، الشكل ٥ و ٧ و ١٦ وانظر ايضاً Rice, op. cit. p. 104 fig 102

بها والمعاصرة لها وان أية مدرسة فنية تتفاعل مع المدارس الأخرى وتخضع للتأثيرات الواردة اليها فتحور بعض عناصرها وتأخذ بعضها الآخر دون تموير. ونؤكد هنا ان مدرسة الموصل للتصوير، جزءاً من حركة فنية عامة في المنطقة قد حصلت على ابرز خصائصها من الموروث المحلي والتقاليد الفنية القديمة التي سادت اعالي بلاد الرافدين ، فنلاحظ التأثير الآشوري في نسب الأشخاص وتشريح الحيوانات والزخارف النباتية وتأطير الصور وتقسيم المشهد الى حقول وبأسلوب تصوير المياه والأسماء وبالتناظر والتأكيد على الشخصية الرئيسة في الصورة. ونلاحظ تأثير الفن الهلنستي الحضري في استخدام الحالة وطيات الملابس وزخرفتها.

وهذا يمكن القول إن مدرسة التصوير التي انتشرت في منطقة الموصل كانت جزءاً من حركة فنية عامة ظهرت تأثيراتها على نحو واضح جداً على المعادن فكانت هناك مدرسة موصلية للتحف المعدنية وعلى الفخار خاصة الفخار ذي الزخارف النائفة والمعروف بالباربوتين وأن هذه المدرسة كانت ثمرة التفاعل بين العناصر الفنية التي ازدهرت في وادي الرافدين منذ أقدم العصور والعناصر الفنية المعاصرة لها فكانت مدرسة لها خصائصها المتميزة وسط مدارس فنية أخرى كما كان لها تأثيراتها الواضحة على الفنون اللاحقة .

الهوامش

- (١) حول هذا الموضوع راجع زكي محمد حسن ، الفنون الإيرانية في العصر الاسلامي (القاهرة ١٩٤٦) ص ٧٩-٨٩ وراجع ايضاً ، مرزوق ، محمد عبدالعزيز الفن الاسلامي ، تاريخه وخصائصه (بغداد ١٩٦٥) ص ١٨٩ وما بعدها .
- (٢) حول الرسم بالالوان راجع الماغرو وآخرون ، قصير عمره (ملريد ١٩٧٥)
- (٣) Greswell, K. A. C., Early Muslim Architecture, (Oxford. 1940) vol. II . PP. 289 - 298.
- (٤) ديمانند . م . س . الفنون الاسلامية ، ترجمة احمد محمد عيسى (القاهرة ، ١٩٥٨) ص ٤١ .

ايضاً الشكل ٧ من البحث .

- (٤٩) الجادر، المرجع السابق ص ٥٠ .
(٥٠) إيتكهاوزن، المرجع السابق ص ٩٢ .
(٥١) حسن الباشا، المرجع السابق، ص ٩٣ - ٩٤ .
(٥٢) الجادر، المرجع السابق، ص ٦٤ .
(٥٣) إيتكهاوزن، المرجع السابق ص ٩٦ .
(٥٤) حسن الباشا، المرجع السابق ص ١٥٠ .
(٥٥) الجادر، المرجع السابق ص ٥٠ .
(٥٦) إيتكهاوزن، المرجع السابق ص ٩٦ .
(٥٧) Buchthal, Hugu, The Painting of the Syrian Jacobites in its relation to Byzantine and Islamic Art, SYRIA, XX, 1939, P. 136 - 7
(٥٨) إيتكهاوزن، المرجع السابق، ص ٩٦ .
(٥٩) للنزيد من التفاصيل حول الموضوع Buchthal, op.,cit., P. 146
148
(٦٠) Buchthal, op. cit., P. 146
(٦١) Buchthal, op. cit., P. 147 .
ويراجع ايضاً إيتكهاوزن ص ٩٦ .
(٣٧) الجادر، المرجع السابق، ص ٤٧ .
(٣٨) حسن الباشا، المرجع السابق ص ١٤٨ .
(٣٩) الجادر، المرجع السابق، ص ٤٧ .
(٤٠) ساكر، المرجع السابق، ص ٥٦٨ .
(٤١) Rice, op. cit. p. 102
(٤٢) ساكر المرجع السابق، ص ٥٧٣ .
(٤٣) Rice, op. cit. p. 103
(٤٤) برويسر، كونراد، المياني الأثرية في شمال بلاد الرافدين (ترجمة علي منصور) (بغداد، ١٩٨١)، ص ٢٧ والألواح ١٦ و ١٧ .
(٤٥) عيو، عادل نجم، نتائج تنقيتات جامعة الموصل في مصنفه ضمن كتاب بحوث آثار سد صدام وبحوث أخرى (الموصل ١٩٨٧) ص ١٤٦ - ١٤٧ .
(٤٦) قارن مع الجادر، المرجع السابق، الشكل ٢ - ٤ وكذلك Rice, op.cit. fig.102
(٤٧) إيتكهاوزن، المرجع السابق، ص ٩٢ .
(٤٨) يعتبر كبر حجم الشخص الرئيسي في الصورة سمة من سمات فن النحت البارز عند الآشوريين، راجع، ساكر المرجع

الموسيقى والغناء

د. عادل البكري

منذ القديم على نهوضها نذكر منها :

- ١ - الموقع الجغرافي : فهي تقع على ملتقى الطرق الرئيسية بين البلاد المجاورة مثل بغداد وحلب وبلاد الشام واستانبول التي أصبحت عاصمة للخلافة الاسلامية . وقد ساعد هذا الموقع على الالتقاء بالهضة الحضارية لهذه البلاد والتأثر بفنونها ومنها موسيقاها واقتباس ألحانها .
٢ - طيب مائها وهوائها وجمال طبيعتها حيث تحيط بها السهول والجبال والأراضي المتموجة بينها، وهذا مما يطرب النفوس ويحسن الأمزجة . وقد اشار القدماء الى تأثير هواء الموصل ومائها في ساكنيها فقالوا ان الغرب اذا أقام في الموصل سنة تبين في بدنه فضل قوة ... وماتعلم لذلك سبباً الآ صحة هواء

تعد الموسيقى مظهراً من مظاهر الحضارة الانسانية في أي مجتمع من المجتمعات عبر التاريخ، فهي تسمو بتقديم الحضارات وتراجع بانحطاطها وتأخرها، ومن بعد فهي تعبّر عن الروح الاصلية لذلك المجتمع وارتقاء ذوقه الفني والحسني .
والموصل كانت احدى المدن العظيمة المشهورة في العصر العربي الاسلامي، يقول عنها ياقوت الحموي انها محط رحال الركبان، ومنها يقصد الى جميع البلدان، فهي باب العراق، ومفتاح خراسان، ومنها يقصد الى اذربيجان، وكثيراً ما سمعت ان بلاد الدنيا العظام ثلاثة : نيسابور لأنها باب الشرق، ودمشق لأنها باب الغرب، والموصل لأن القاصد الى الجهتين قل ما لا يمر بها^(١) .
وللحركة الموسيقية في الموصل أسباب ساعدت

الموصل وعذوبة ماثا^(٢).

٣- الارهاف الحسني عند أهل الموصل فهي مدينة شديدة البرد شتاءً وشديدة الحر صيفاً، فكان هذا الاختلاف الكبير في درجات الحرارة الذي هو، من عوامل إرهاف الحس وانفعال العاطفة والتحسن تجاه اللحن.

ولابد لمن يريد ان يبحث في تاريخ الموسيقى والغناء في الموصل خلال العصور العربية الاسلامية ان يرجع الى ما قبل فترة الفتح الاسلامي ليتبع جذور هذه الفنون عند الشعوب التي سكنت تلك المنطقة وخضعت لتلك العوامل التي ساعدت على نهوض الموسيقى فيها. ومن أهم هذه الشعوب الآشوريون.

كانت الموصل في أول أمرها حصناً من حصون الآشوريين يقع على الضفة الغربية من دجلة مقابل مدينة نينوى العاصمة الآشورية العظيمة التي ازدهرت فيها الحضارة والفنون ومن جملتها الموسيقى والغناء. وتذكر المراجع التاريخية أنه كان في قصر الملك الآشوري شلمنصر الثالث الذي حكم بين عامي ٨٥٨-٨٢٤ قبل الميلاد فرقة غنائية موسيقية تسمى (فرقة الانشاد) وهي مؤلفة من الرجال فقط^(٣). وكانت هناك مدارس لتعليم الموسيقى في المنطقة. ومن المعروف عن الملك الآشوري شمشي أدد الأول (١٧٤٨-١٧١٦ ق. م) وقد كان معاصراً للملك البابلي حمورابي - انه قد ألحق إبنة ملك مارى الخلوغ بمدرسة الموسيقى التابعة لقصره^(٤). ويذكر المستشرق فارمر انه ورد في نقوش الملك آشور بانينال (في القرن السابع قبل الميلاد) ان الأسرى العرب كانوا يقضون وقتهم في الغناء وترديد (البلي Alili) وهم يشتغلون^(٥).

وقد عرف الآشوريون الطبل (طبال) والمزمار (زمارو) والدف (ادبو) والقرن الذي ينفخ فيه (قرن) والصنوج المعدنية (الكوسات) وهي من

النوع الذي يحتوي على قبضة طويلة مثبتة في وسط الصنج بمسكها العازف عند الضرب به، كما استعملوا المعازف الوترية، وقد وُجد في سهول الجزيرة العراقية العليا ان الجرامقة الذين يقال انهم النبط استعملوا آلة وترية، يشبه العزف عليها العزف على الطنبور^(٦). وقد بقيت هذه الآلات معروفة حتى وقت متأخر بعد سقوط الدولة الآشورية وكانت تستعمل في مدينة الموصل وغيرها من المدن ولو أن بعضها قد تطور بشكل ظاهر.

وفي اثناء التحرير العربي الاسلامي للموصل كثرت هجرة القبائل العربية اليها وهي تحمل معها عاداتها ولهجاتها وفنونها الموسيقية والغنائية. يقول ابن خلدون ان هذه القبائل التي استقرت في البلاد المحرة كانت تغلب عليها البداوة وكان غناؤها الحدا الذي يغني الحداة في حداة ابلهم والفتيان في قضاء خلواتهم، فرجعوا الأصوات وترنمو. وكانوا يسمون الترتيم اذا كان بالشعر غناءً، واذا كان بالتهليل او نوع القراءة تغبيراً.. وربما ناسبوا في غنائهم بين النغمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيق في كتاب العمد، وكانوا يسمونه (السناد)، وكان اكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويُمنسى بالدف والمزمار^(٧). أما بعد أن تم تمصير الموصل وتخطيطها على يد هرثمة بن عرفة البارقي^(٨) بعد التحرير العربي لها، ثم توسيعها وبناء سورها وجسرها في زمن مروان بن محمد الاموي، فقد تزاوجت هذه الفنون وارتقت الموسيقى لاسمياً بعد ان ((جاءهم الترف وغلب عليهم الرفة بما حصل لهم من غنائم الامم وصاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستجلاء الفراغ... وغنوا جميعاً بالعيدان والطناير والمعاظف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها اشعارهم))^(٩). وظهر في الموصل فن الغناء والموسيقى على نحو يلفت اليه الانظار مما حمل ابراهيم بن ميمون (المولود في الكوفة عام ١٢٥هـ-٧٤٢م

على القدوم الى الموصل لدراسة الموسيقى والغناء فيها . ولما أحس بمقدرته على مواصلة هذه الفنون سافر الى بلاد الري حيث حصل على معرفة واسعة بالغناء ثم استقر به المقام بعدئذ في بغداد ، ودعي بإبراهيم الموصلي^(١١) ، واتصل إبراهيم الموصلي بالخليفة المهدي ومن بعده بالهادي والرشد ولع اسمه بالغناء والموسيقى وحظي بمكانة عظيمة عند الخلفاء العباسيين ، ونسب اليه ما لا يقل عن ٩٠٠ لحن من الألحان التي وضعها وغناها ، وكان لا ينافسه في التلحين أحد . ونسب اليه الإيقاع بالقضيب^(١٢) ، وقد تخرج عليه عدد كبير من المغنين والموسيقيين الذين لمع اسمهم في العصر العباسي الاول .

وبعد وفاته كان آتية اسحاق الموصلي قد اعقبه في المكانة والشهرة الموسيقية التي نالها ابوه من قبل . بل كان أكثر من ذلك عالماً واديباً وقصياً . وقد عاش اسحاق في بغداد فتلقى ثقافة عالية في الموسيقى حتى أصبح من أعظم موسيقي عصره . ودرس اللغة والقرآن والأدب على مشاهير العلماء كالكسائي والقرءاء والاصمعي . وكان ذا حظوة كبيرة عند الخلفاء حتى انه كان يدخل عليهم مع العلماء والقضاة حتى وفاته (عام ٢٣٥ هـ) .

وعرف أهل الموصل القيان ، وهنّ الجوارى المغنيات ، ووصف السري الرفاء الشاعر احدي الدور الموصلية وفيها القيان بقوله :

منزل كالربيع حلّت عليه
حاليات السحاب عقد النطاق
وقيان منعن أسماعنا اللحظ
ووفرّنه على الاحداق
وتخلدت أغانيهن ورقصاتهن في التصاوير التي رسمت على الآنية التي كان أهل الموصل يزينون بها موائدهم وكذلك في الرسوم الجيبية البارزة التي زينوا فيها مجالسهم ومافيهما من عازفي القيثارة والعود والدفوف والصنوج^(١٣) . وكان الغناء آنذاك يتكون من الاشعار الملحنة والموشحات الغزلية والهجري .

وحدثت في زمن الحمدانيين حركة موسيقية واسعة بدأت في حلب وانتقلت الى الموصل . وكان أحد اقطاب الموسيقى المعروفين في التاريخ ابو نصر الفارابي (٢٦٠-٣٣٩ هـ) قد وصل الى حلب وعزف على القانون امام سيف الدولة الحمداني وعرض فنونه الموسيقية في مجلسه فلقى لديه الاستحسان والتكريم . وألّف الفارابي كتباً كثيرة في الموسيقى تعدّ من أهم ما كتبه المؤلفون القدماء في هذا الفن^(١٤) . وقد انتشرت كتبه الموسيقية انتشاراً كبيراً آنذاك وكان من أهمها (كتاب الموسيقى الكبير) .

وجاء الانابكيون ليقوموا بحكمهم في الموصل (بين عامي ٥٢١-٦٦٠ هـ) فشجعوا الموسيقى والغناء ، ويرى عن عماد الدين الزنكي انه كان يجزل العطاء للشعراء والمغنين . وقد غناه مرة مغنّ من شعر ابن منير الطرابلسي بحلب فاستحسنه وكتب الى والي حلب ليرسل له الشاعر المذكور سريعا^(١٥) .

وكانت الآلات الموسيقية تصنع محلياً في الموصل ، وهناك عوائل تهتم بصناعتها وقد توارث ابناؤها المهنة بعضهم عن بعض . ولاتزال صناعة الاعواد لها سوق راجحة في هذه المدينة الى عهد قريب ، واشتهر بها صناع مواصلة ماهرون . اما الدفوف والطبول والنقارات (ومفردها نقارة) وهي الطبلّة المخروطية الصغيرة وتكون مفردة او مزدوجة) فلها في الموصل محلة بأكملها يقوم أهلها بصناعتها وهي محلة الطبالين ، وقد ذكرها ابن الاثير عند تعرضه لوصف الموصل في اثناء تولي الشهيد نور الدين زنكي الحكم فيها^(١٥) . وموقع هذه المحلة في الوقت الحاضر شمال الجامع النوري ، في المنطقة المحصورة بين شارع النبي جرجيس وشارع الفاروق . وكان أهل هذه المنطقة يمتحنون صناعة الدفوف والغزاليين .

وتستعمل الدفوف غالباً في الاحتفالات الدينية

التي تقرأ فيها الموشحات والمدائح النبوية . ولم تكن الموشحات في أول الامر دينية بل كانت غزلية وقد انتقلت الينا من الاندلس وصار ينظم لها اشعار رقيقة ذات الاعاريض المختلفة^(١٧) فيسهل تلحينها وغناؤها ويكون اثرها اوقع في النفس وألذ للسمع ، ثم تحولت بعدئذ الى موشحات يمدح بها الرسول ﷺ وصارت تنشد على قرع الدفوف في احتفالات المولد النبوي وفي المناسبات الدينية والاجتماعية مثل ليلة الاسراء والمعراج وليلة القدر وفي الافراح كحفلات الزفاف والختان والايباب من الحج والابلال من المرض او سكنى دار جديدة^(١٨) .

وقد اجاز بعض رجال الدين والمتصوفة سماع الالحان وفسروا قوله تعالى (يزيد في الخلق ما يشاء) ان الزيادة هي الخلق الطيب والصوت الحسن^(١٩) . واعتمدوا على الاحاديث النبوية في اجازة الاستماع كقوله ﷺ : (مابعث الله نبياً الا حسن الصوت)^(٢٠) . ويقول الغزالي في كتابه (احياء علوم الدين) ان لله سرّاً في مناسبة النغات الموزونة للارواح حتى انها تؤثر فيها تأثيراً عجبياً . فن الاصوات مايفرح ومنها مايبعث على النوم ومنها مايطرب ، ومنها مايستخرج من الاعضاء حركات باليد والرجل والرأس على وزن اللحن . ولاينبغي ان يظن ذلك لفهم معاني الشعر بل هذا جارٍ في الاوتار حتى قيل : من لم يحركه الربيع وأزهاره والعود واوتاره فهو فاسد المزاج ليس له علاج .

وقد أشار ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (من القرن السادس الهجري) الى الالحان التي كانت تستعمل في غناء الحجيج فينشدون أشعاراً يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام ، وربما ضربوا مع انشادهم بطل ، وكذلك أشعاراً ينشدوها المتزهدون بتطريب وتلحين يسوق القلوب الى ذكر الآخرة ويسمونها الزهديات^(٢١) .

وللطبول استعمالات اخرى أهمها استعمالها في الاعراس وفي رقصات الدبكة بالقرى والارياف

الحبيطة بالموصل ، وفي الفرق العسكرية وعند دعوة الناس لسماع التبليغات الحكومية وعند الاستنفار للحروب وغيرها .

وكانت احتفالات المولد النبوي من المظاهر المتميزة في مدينة الموصل حيث تعلن الزينة في الاسواق والدور وتقرأ المنقبة النبوية والموشحات الدينية وتنحز الذبائح على اصوات الاغاني وقرع الطبول . وكان اول من جعل الاحتفالات بهذه الفخامة هو الأمير مظفر الدين كوكبوري صاحب اربيل وانتقلت الى الموصل على هذا النحو ، ولكن بعد الاحتلال المغولي (٦٦٠ هـ) اصبحت العناية بهذه الاحتفالات اقل مما كانت عليه من قبل .

ولابد لنا ان نذكر في هذا المجال نوعاً آخر من الموسيقى الدينية ، أعني بها الموسيقى الكنائسية . وقد نهضت الكنيسة المسيحية بدور مشهود في تطوير الموسيقى والغناء في الموصل لاسيما عند المسيحيين . وكان المار افرام الذي ولد عام ٣٠٦ م أشهر من وضع الالحان الكنائسية التي لاتزال تترتل حتى الآن في الكنائس ، وظهر بعده عدد من رجال الدين المسيحي الذين أسهموا في وضع الاناشيد والذين يذكرهم توما المرجي في تاريخه الذي كتبه عام ٢٢٦ هـ - ٨٤٠ م كما يذكر اصلاح الموسيقى الكنائسية في منطقة الموصل واستعمالها في صقع المرج^(٢٢) .

وقد عقد ابن العربي فصلاً عن الموسيقى الدينية عند المسيحيين في كتابه الذي الفه بالسريانية والمسمى (الايثيقون) والذي قال فيه ان كثيراً من رجال الدين النصارى نادوا بضرورة قراءة التراتيل بالالحان وبمصاحبة الآلات الموسيقية ، وان حجبتهم في ذلك ان العقل لايجرم الالحان لأن تمتع الاذن باللحن (من غناء او موسيقى) هو كتمتع العين بالمنظر الجميلة وكتمتع حاسة الشم بالروائح العطرة . وكما ان رؤية المناظر الجميلة وتسليم الروائح العطرة ليس محرماً فان الالحان ليست محرمة

ولاجابة للخطيئة . وان اللحن قد يصدر عن تغريد طير أو صليل آلة او غناء انسان وكلها سواء في السمع، ولا تجلب الاثم^(٢٢) . ويشترط ابن العبري ان يليق الغناء بقداصة الله فليس كل غناء تجيزه الكنيسة، فهو يفرق بين الغناء الديني المبذل الذي يزع النفس في الشر والاثم، وبين الغناء الروحي الذي يبعث في النفس الخشوع ويطهرها من الشرور والآثام^(٢٣) .

والالحن الكنائسية تكاد تشبه الحان التزييلات الموصلية القديمة ومعظمها من مقام الجهاركاك والعجم عشيران والحسيني . وتستعمل فيها عادة آلات النفخ كالارغن ، ويقول ابن العبري ان الآلات الموسيقية الاخرى قد تستعمل ولكن بحذر شديد .

وقد كان الغناء في الاديرة مسموحاً ، ويروى ان الخليفة المأمون عندما جاء الى الموصل نزل في (الدير الاعلى) ، وهو الآن دير قديم مندثر في شمال المدينة تقع خرائبه بالقرب من قلعة باشطايية الحالية ، وجلس المأمون في موضع جميل يشرف على دجلة والبساتين التي حوله ، وخرج الرهبان والقساوسة يحتفلون به ويأيدهم الجمار وقد تقلدوا الصلبان وتوشحوا بالمناديل المنقوشة . وجاء الجوّاري والغلمان بيدهم الرياحين فطلب من المغني احمد بن صدقة ان يغني فغنى من شعره :

ضياء كالدنانير

ملاح في المقاصير
جلاهن الشعمانين
علينا في الزنانير

ثم غنت الحاربة (نعم) قولها :

وزعمت أني ظالم فهجرتني

ورميت في كبدي بسهم نافذ

فطرب واستعاد الصوت دفعات^(٢٤) .

ومن ذلك أيضاً قدوم سيف الدولة الحمداني الى الموصل ونزوله في دير باعربا الواقع على دجلة . فلما كان وقت العصر دخل الدير وصعد سطحه فرأى مناظر جميلة ودعا (سقارة العواد) فغناه من شعر الشيطمي : (٢٥)

شرفاً يادير عرباء ومجدداً
بها تُعنى مدى الدهر وتُعمر
سترى ماءك هذا ماءً وردياً

وترى صحنك ذا، مسكاً وعنبر
وكان يجري في دير ميخائيل الواقع في منطقة حاوي الكنيسة شمال الموصل احتفال كبير قبل عيد الشعانين بأسبوع تخرج فيه النصارى بصبيانهم ونسائهم فيقضون يوماً وليلة في غناء الالحان وقراءة الرهبان وكان الشاعر الموصل ابو بكر الخالدي معجباً بهذا الدير ويكثر التردد اليه ، يأنس برهبانه ويطرب ويصف ذلك بقوله :

محاسن الدير تسبيحي ومسباحي
وخمرة في الدجى صبحي ومصباحي
أقت فيه الى ان صار هيكله

بيتي ومفتاحه للأنس مفتاحي
وكان هذا الشاعر يقصد دير متي على جبل مقلوب خارج الموصل وهو من الاديرة القديمة في العراق فيقضي وقتاً فيه في اللهو والطرب ويقول في ذلك^(٢٦) :

فلأ شكرن لدير متي ليلة

مزقت ظلمتها ببدر مشرق
بتنا نوفي اللهو فيها حقه

بالراح والوتر الفصيح المنطق
والاديرة في الموصل كثيرة ذكرنا منها ماوردت
اشارة عنها في حوادث الغناء والموسيقى في العصور
الماضية .

واذا كنا قد ذكرنا بعض من غنى في الموصل فلا بد لنا أن نذكر عدداً من أهل هذه المدينة ممن عرف بالغناء والموسيقى والتأليف فيها خلال العصر العباسي ، وكان من أشهرهم يحيى بن أبي منصور

الموصلية الذي عاش في أوائل العصر العباسي وكان بارعاً في الغناء والموسيقى وألف كتاباً في الاغاني على الحروف الهجائية ، وله كتاب العود والملاهي ذكره ابن النديم^(٢٧).

ومهم أيضاً : ابو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الرعي ، وهو عالم من اهل الموصل ، ولد فيها في أواخر النصف الاول من القرن الرابع الهجري وسافر الى بغداد وأقام فيها فلقّب بالبغدادي ، وكان شاعراً وأديباً وأتقن العزف على العود وأبدع في الغناء حتى أصبح فرداً في علم الموسيقى . وقد قصد الاندلس وغنى وعزف على العود أمام المنصور محمد بن ابي عامر في قرطبة فأكرمه وقرّبه اليه حتى انه استوزره فيما بعد وكانت وفاته في صقلية سنة ٤١٧هـ^(٢٨).

ومن علماء الموصل الذين اشتغلوا بالموسيقى : كمال الدين موسى بن يونس بن منعة الذي ولد في الموصل عام ٥٥١ هـ (١١٥٦م) واشتهر امره في المدرسة النظامية ببغداد . وبعد رجوعه الى الموصل اشتغل بالتدريس في مدارسها ، وكان يتقن علوماً شتى لا يشاركه فيها غيره ومنها المنطق والرياضيات والموسيقى^(٢٩) . وكان الطلاب يقصدونه من البلاد البعيدة للدراسة عليه ومنهم علم الدين قيصر بن ابي القاسم .

وكان علم الدين قيصر من علماء الرياضيات في بلاد الشام ومصر ، وتولى التدريس في المدرسة النورية . ثم قدم الى الموصل للدراسة فيها على كمال الدين بن يونس ، وهو يروي لنا قصة لقائه به فيقول : لما أتقنت علوم الرياضة بمصر ودمشق ، تأقت نفسي الى الاجتماع بالشيخ كمال الدين لما كنت أسمع من تفرده بهذه العلوم . فسافرت الى الموصل قصد الاجتماع به ، فلما حضرت مجلسه وجدته على حلية الحكماء المتقدمين . فسلمت عليه وعرفته قصدي ، فقال لي : في أي العلوم تريد أن نبدأ ؟ قلت : في الموسيقى . فقال : حسناً ، فلي زمان ماقرأه أحد عليّ ، وأنا أوتر مذكرته وتجديد العهد به . فشرعت فيه ثم في غيره حتى شقت عليه أكثر من

اربعين كتاباً في مدة ستة اشهر . وقد كنت عارفاً بهذا الفن ولكن كان غرضي الانتساب في الدراسة عليه ، وكان اذا لم اعرف المسألة اوضحها لي وما كنت أجد من يقوم مقامه في ذلك .

وعندما أنهى علم الدين قيصر دراسته على كمال الدين رجع الى دمشق وتوفي فيها سنة ٦٤٩ هـ . ويقول الحسن بن عمر أن علم الدين اشتهر بمعرفته العميقة بالموسيقى^(٣٠) .

وكانت وفاة كمال الدين بن يونس بن منعة بالموصل سنة ٦٣٩ هـ وقد دفن في مقبرة العنّاز خارج باب العراق .

ومن الذين اشتغلوا بالموسيقى من أهل الموصل أيضاً ابو الحرم بن ريان النحوي المدرس الشهير الذي كان يلقي دروساً فقهية ورياضية وموسيقية وكان حياً في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي - السادس الهجري^(٣١) .

ومن هؤلاء أيضاً منتخب الدين عمر بن المظفر الخزمي الرطلي ، وكان يمتن الحياكة ، وبرع في الشعر والادب . ثم اشتغل في الموسيقى وفن الطرب واتخذ الموصل دار إقامة له وتوفي فيها عام ٦٥٠ هـ^(٣٢) .

ومنهم أيضاً عبد الرحمن بن المعلم الموصلية الأديب ، وكان ينشد في الاسواق وينظم شعراً حسناً ، ويؤدي ما ينظمه حلواً وبصوت شجي حنين مطرب مبلّك ، وله كلام في ارباب الطرق والتصوف ، وعبارته حلوة . ومن شعره قصيدة اولها :

ايها الظبي الغرير

كن من البلسوى مجير
وهي قصيدة طويلة . وكانت وفاة عبد الرحمن بن المعلم عام ٦٦٠ هـ^(٣٣) .

ومنهم أيضاً زين الدين ابو عبد الله الحسين بن البرهان الحسن بن ابي نصر منصور الدهان الموصلية ، الموسيقار المعروف ، وهو مغني شهير وشاعر كبير ، وعالم فاضل لا يمل الجليس محادثته ، وهو فريد عصره في فن الطرب وعلم الموسيقى . ذكره العمري في (مسالك الابصار) وقال عنه انه (سابق

يوم الزمان ، وفاق عرف بكل وردة من الدهان .
تنسب اليه محاسن الامور ، وتقسم من زخرف بنائه
بالسقف والبيت المعمور . تحي من انغامه كل ذات
اكمام ، كأنها زهرة في دهانه ، وثمرة غريبة من بدائع
الوانه ...)

ولزين الدين الموصل كتاب في الموسيقى . سمع
منه الكمال التوريزي وابن الفوطي وغيره . ومن
أغانيه :

يانار اسود قلبي
ونور اسود عيني
كن راحماً لحب
اباحك الاسودين
وكان زين الدين معاصراً للموسيقار صني الدين
الارموي الا ان شهرة صني الدين طغت على
شهرة .

وقد توفي زين الدين الموصل ببغداد عام ٦٨٧
هـ (١٢٨٨م) ودفن في مقبرة الوردية (٣٤) .
وفي أواخر العصر العباسي لم تكن الموصل تتمتع
بالاستقرار فقد أخذت الدولة بالضعف والانحطاط
لضعف الخلفاء وانحسار السلطة المركزية للدولة
وتهدد الصليبيين والمغول لها . وفي الموصل استولى بدر
الدين لؤلؤ على الحكم ، وهو من ممالك نور الدين
ارسلان شاه بن عز الدين مسعود الاتابكي ، وكان
ذا دهاء وحيلة وتدبير مما جعل سيده يعتمد عليه
حتى صار المتحكم في الدولة (٣٥) .

وكان من سياسة بدرالدين لؤلؤ تشجيع
الاحتفال بعيد الشعانين بالموسيقى والغناء ... مما
رغب فيه أهل البطالة ونفّر أهل البلد (٣٦) . ويقول
الذهبي في سير اعلام النبلاء عند كلامه عنه أنه
كان يحفل بعيد الشعانين فيمد سماً عظيماً ويحضر
المغاني فيتفرج وينثر الذهب من
القلعة على الناس . ومما وجدته بالذكر ان الموصل كانت
مشهورة آنذاك بالموسيقى والغناء ومجالس الطرب ،
وكان لبدر الدين لؤلؤ عدد من المغنين منهم علاء

الدين علي دهن الحضا ، وأخوه الكمال يوسف وكان
كل منها فريداً في مهنته وفنه ، وكان يوسف أمير
المطربين في مجلسه (٣٧) . ويروي ابن طباطبا في
كتابه (الفخري) ان المستعصم آخر الخلفاء
العباسيين كتب الى بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل
يطلب منه جماعة من ذوي الطرب لارسالهم اليه في
بغداد (٣٨) .

ولم يذكر لنا التاريخ أحداً من أهل الموصل ظهر
في الحقبة التي تزيد على المائتي سنة (بين الاحتلال
المغولي والسيطرة العثمانية) اشتهر بالموسيقى والغناء
غير اثنين : اما أولها فهو شمس الدين محمد بن
دانيال بن يوسف الخزاعي الكحال : وهو لم يكن
موسيقياً أو مغنياً على الوجه المعروف وإنما كان ملحناً
لأغاني خفيفة يستعملها في محاورات غنائية اشبه
ما يعرف الآن بالتمثيل المسرحي الغنائي ، استخدمها
في فن جديد ابتكره بنفسه هو (خيال الظل) والف
فيه كتاباً سماه (طيف الخيال) ذكره مؤلف كشف
الظنون (٣٩) . فكان يضع (بابات) التمثيلية ، أي
فصولها ، وينظم الاشعار ويلحنها ويقوم بالتمثيل
والغناء ايضاً . وبقي هذا الفن معروفاً في مصر والبلاد
العربية الاخرى حتى عهد قريب ويدعى
(القرقوز) .

ولد هذا الفنان في الموصل ، ورأى منذ نعومة
اظفاره مجازر التتر . فما كاد يقوى عوده حتى هرب
الى مصر واشتغل فيها كحلاً (طبيباً للعيون) ،
وكانت له دكان كحل في داخل باب الفتوح
بالقاهرة . واشتهر بالشعر والوصف فأبدع ، وهجا
فأقذع ، وعبث ما شاء حتى اجاد بالنكتة
والطرفة ، فنتعته صاحب عقود الحمان (بالحكيم
الاديب الخليل) وقال ابن شاکر الكتبي عن شعره
انه : (المطرب والمرقص على الحقيقة) . ومن بديع
شعره قوله :

ولولا علاقات الصباة والهوى
لما طال في تلك الرسوم تردي

وما عاقني في البعد والقرب عائق
وسوى طمعي في بُلغة المتزود
وفي كبدي للوفادين لواعج

ومن لي أن احظى بذاك المبرد
وكانت وفاته في القاهرة سنة ٧١٠ هـ
(١٣١٠ م)^(٤١).

١- المطلق ٢- وسطاه ٣- سبائه ٤-
ختصره ٥- بنصره كما يذكر الادوار والاوزان
الموسيقية ويقول ان عدتها عند القدماء ثمانية وعند
المتأخرين ثلاثة ويذكر اسماءها بالتفصيل. وكانت
وفاته في القاهرة سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م).

ومن هؤلاء بدر الدين محمد بن علي بن احمد
الاريلي ثم الموصلية وكان متميزاً بالنحو والشعر
والموسيقى. وقد جاء الى مصر رسولاً من قبل ملك
الموصل فأقام بها خمسين يوماً ثم رجع الى الموصل
فأخذ عنه ابو المعالي ابن رافع وغيره، وكانت وفاته
سنة ٧٥٥ هـ (١٣٥٤ م).

ولبدر الدين الاريلي مؤلفات من اهمها ارجوزة
الانغام التي تتألف من (١٠١) بيتاً نظمها سنة
٧٢٩ هـ (١٣٢٨ م) وأولها:

الحمد لله على انعامه
حمداً يكافي الفضل في اقسامه
وقد ذكر فيها المقامات، وأن أصل المقامات هو
الرست فيقول:

واعلم بأن الرست أصل الكل
عنه تفرعت بحكم العقل
وانه أول ما تفرعا

عنه ثلاثة فصارت اربعا
الرست والعراق ثانٍ تابع
وزروركند واصبهان رابع^(٤٢)

ومنهم أيضاً شمس الدين محمد بن محمد
المعروف بابن السوري العامري الموصلية العواد
المغني، انتهت اليه الرئاسة في العزف على العود
والموسيقى ونالته السعادة من أجلها حتى انه كان اذا
مرض في يوم عاده جميع اعيان الدولة. ذكر عنه
ابن تغري بردي ان له مؤلفات في الموسيقى. وقد
سكن القاهرة وتوفي بها سنة ٧٨٣ هـ (١٣٨١ م).

وأما الثاني فهو كمال الدين محمد بن البرهان
الصوفي الموصلية: نشأ في بغداد وكان من أهل
الافتادار. ذكره النظام بالاعظام وأشار اليه في علم
الموسيقى، وكانت له اليد الطولى في معرفتها وبلغ
منها مبلغاً يقصر عن وصفه. وقال انه كان صاحباً
لأقضى القضاة ابن السباك (وهو تاج الدين علي
بن سنجر بن السباك الحنفي البغدادي، انتهت اليه
رئاسة الفقه ببغداد، وكان فصيحاً بليغاً ذكياً، تولى
رئاسة القضاة، وكانت وفاته سنة ٧٥٠ هـ) وكانت
وفاة كمال الدين ابن البرهان ببغداد سنة ٧٤٢ هـ
(١٣٤١ م). وقد ورد ذكره في مسالك
الابصار^(٤٣).

أما غير هذين الاثنين فهناك من اشتغل
بالموسيقى ونسب الى الموصل ولكنه لم يولد فيها،
أذكر منهم:

شمس الدين ابو عبد الله محمد بن ابراهيم بن
ساعد الاكفاني الانصاري. ولد بسنجار من اعمال
الموصل وتفوق في فنون وعلوم عدة. وقد ذكره
تلميذه صلاح الدين الصفدي الذي لازمه مدة
طويلة وحضر حلقة تدريسه وأخذ العلم عنه بكثير
من الاعجاب وأشاد بعبقريته وتضلعه في اكثر من
علم، وقال ما سألت عن شيء في وقت من الأوقات
عما يتعلق بالحكمة والمنطق والطبيعي والرياضي
والالهي الا وأجاب بأحسن جواب كأنما البارحة
يطالع تلك المسألة^(٤٤).

ولشمس الدين ابن الاكفاني عدد من
المؤلفات في الطب وغيره، وله كتاب (ارشاد
القاصد) الذي ذكر فيه علوماً شتى منها الموسيقى

الهوامش

- (٢٤) أبو الحسن علي بن محمد الشافعي - الديارات - تحقيق كوركيس عواد - بغداد ١٩٦٦ - ص ١٧٧ .
- (٢٥) شهاب الدين بن فضل الله العمري - مسالك الابصار في ممالك الانصار - طبعة دار الكتب المصرية - ج ١ ص ٣٠١ .
- (٢٦) ديوان الخالدين - تحقيق الدكتور سامي الدهان - دمشق ١٩٦٩ .
- (٢٧) أبو الفرج محمد بن اسحاق التميمي - الفهرست - مطبعة الاستقامة بالقاهرة - ص ٢١٩ .
- (٢٨) خير الدين الزركلي - الاعلام - ج ٣ ص ٢٧١ وفيات الاعيان ج ٢ ص ٤٨٨ .
- (٢٩) وفيات الاعيان ج ٥ ص ٣١١ ، فارمر - تاريخ الموسيقى العربية - ص ٢٦٥ .
- (٣٠) المصدران السابقان .
- (٣١) سليمان الصانع - تاريخ الموصل - ج ١ ص ٢٢٢ .
- (٣٢) سعيد الديوه جي - اعلام الصنائع الموصلية - الموصل ١٣٩٠ هـ ص ٦٤ ، صلاح الدين الصفدي - الوافي بالوفيات - اسطنبول ١٩٣١ - ج ٢ ص ٢٦٢ .
- (٣٣) موسى البزويني - ذيل مرآة الزمان - حيدر آباد ١٩٥٥ - ص ٥٠٦ - ٥١٠ .
- (٣٤) عباس الغزالي - الموسيقى العراقية في عهد المنقر والتركمان - بغداد ١٩٥١ - ص ٣٥ .
- (٣٥) تاريخ الموصل - الديوه جي - ج ١ ص ٣٠٩ - ٣١٦ .
- (٣٦) المصدر السابق - ص ٣١٧ .
- (٣٧) الموسيقى العراقية - ص ٤٨ .
- (٣٨) الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية - محمد بن علي ابن طباطبا المعروف بابن الطغتي - بيروت ١٩٦٠ - ص ٤٧ .
- (٣٩) حاجي خليفة - كشف الظنون - ج ٢ ص ١١١٩ .
- (٤٠) محمد امين بن خير الله الخطيب العمري - مهمل الاولياء ومشرب الاصفياء - الموصل ١٩٦٧ - ص ٢١٨ . وكذلك فوات الوفيات ج ٢ ص ١٩٠ و الدور الكائنة ج ٣ ص ٢٨٢ والوافي بالوفيات ج ٣ ص ٥١ والنجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢١٥ .
- (٤١) الموسيقى العراقية - ص ٤٨ .
- (٤٢) الوافي بالوفيات ج ٢ ص ٢٥ .
- (٤٣) نشر المرحوم عباس الغزالي الاجوزة كاملة في كتابه (الموسيقى العراقية) ص ١٠٦ ، ومن الملاحظ كثرة الاصطلاحات الاعجمية التي ادخلها الاربلي فيها .
- (١) شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي - معجم البلدان - القاهرة ج ٥ ص ٢٢٣ .
- (٢) المصدر نفسه .
- (٣) صبحي انور رشيد - الحضارة الموسيقية لبلاد ما بين النهرين - مقال نشر في مجلة آفاق عربية في تشرين الثاني - ١٩٨١ .
- (٤) المصدر نفسه .
- (٥) (هـ . ج . فارمر) تاريخ الموسيقى العربية - ترجمة د . حسين نصار - القاهرة - ص ٣ .
- (٦) المصدر نفسه - ص ١٣ .
- (٧) مقدمة ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون - مطبعة الكشاف ببيروت ص ٤٢٧ .
- (٨) احمد بن يحيى البلاذري - فتوح البلدان - القاهرة ١٩٠١ - ص ٣٣٩ .
- (٩) مقدمة ابن خلدون - ص ٤٢٧ .
- (١٠) ابر القرق الاصفهانى - الاغانى - بيروت ١٩٥٥ - ج ٥ ص ٥ .
- (١١) المصدر نفسه .
- (١٢) سعيد الديوه جي - تاريخ الموصل - بغداد ١٩٨٢ - ج ١ ص ٤٤٤ .
- (١٣) فارمر - تاريخ الموسيقى العربية - ص ٢٠٥ .
- (١٤) شمس الدين احمد بن محمد بن خلكان - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان - تحقيق د . احسان عباس - بيروت ١٩٦٨ - ج ١ ص ١٥٨ .
- (١٥) ابن الاثير الجزري - التاريخ الباهر في الدولة الانابكية - القاهرة ١٩٦٣ - ص ٧٧ .
- (١٦) مقدمة ابن خلدون - ص ٥٨٣ .
- (١٧) محمد صديق الجليلي - التراث الموسيقي في الموصل - الموصل ١٩٦٤ - ص ٢ .
- (١٨) ابو نصر السراج الطوسي - اللع - تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور - القاهرة ١٣٨٠ هـ - ص ٣٣٨ .
- (١٩) المصدر السابق .
- (٢٠) جلال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي - تلييس ابليس - القاهرة ١٣٦٨ هـ - ص ٢٢٣ و ٢٢٥ .
- (٢١) الفس سليمان صايغ - تاريخ الموصل - ج ٢ ص ٤٥ .
- (٢٢) ابو الفرج بن العمري ، الايشيقون - ترجمه الى العربية مادريغوريوس بولس بهنام - دمشق ١٩٦٧ - ص ١٣٥ .
- (٢٣) المصدر السابق - ص ١٣٦ .

خطط المدينة

سعيد الديوبه جي

توسعت كثيراً وزادت أهميتها فاتخذها قاعدة لبلاد الجزيرة، كما نقل إليها من البصرة الأزدي وطبي، ووسع السور ورمم ما تهدم منه وبقي كذلك، حتى هدمه الرشيد سنة ١٨٠هـ / ٧٩٦م وبقيت المدينة بلا سور حتى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي^(١).

وفي العهد العفلي حفر الأمير شرف الدولة الموصل بسور سنة ٤٧٤هـ / ١٠٨١م وكان قليل الارتفاع، ولم يعمل له فصيلاً، ولم يحيط بخندق^(٢). والذي نراه انه بنى السور الذي ادركنا بعضه فكان يمتد من الناحية الشمالية من النهر الى باب سنجار، ويكون الميدان ظاهر السور كما يلاحظ ذلك في (مخطط ١) وعليه يكون ظاهر السور: دار الامارة والقلعة والميدان المذكور.

وفي العهد السلجوقي رمم السور وبنى عليه فصيل واحيط بخندق سنة ٤٩٨هـ / ١١٠٤م من قبل الوالي جكرمش^(٣)، وفي سنة ٥٠٢هـ / ١١٠٨م جدد جاولي السور واحكم ببناءه^(٤).

وفي العهد الاتابكي اتخذ عاد الدين زنكي الموصل قاعدة لدولته فغني بتحصينها فرمم السور واحكمه وزاد ما يقارب مثله وعمر خندقها وفتح الباب المعادي، كما حفر الميدان بسور من القلعة الى باب سنجار فكان الميدان وما فيه دار الامارة والقلعة داخل سورين. ولما قصد الخليفة المسترشد بالله العباسي الموصل ليستولي عليها سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م ترك عاد الدين الموصل وأبقى بها نصير الدين ابا سعيد جقر بن يعقوب الحمداني فاحكم هذا عمارة السور وحفر الخندق، ولما وصلها الخليفة وجدها منيعة فارتد عنها^(٥). ومن طريق ما يروى: ان جقر بعدما احكم السور ناداه مجنون نداء عاقل:

يتناول البحث دراسة خطط مدينة الموصل وما حوته من منشآت معمارية اساسية منذ تحريرها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب حتى عهد السيطرة العثمانية. ولسهولة العرض اتجه البحث الى دراسة كل خطة من خطط المدينة او منشأة من منشآتها المعمارية منذ قيامها وحتى نهاية فترة البحث ثم ينتقل الى الاخرى حتى تتكامل صورة الموصل باجزائها ومكوناتها كافة.

١- السور:

كانت الموصل عند تحريرها تشمل الحصن الغربي الذي كان فوق «تل قليعات» ومنازل العرب الساكنين بها في السهل الواقع غربي هذا التل وجنوبه. اما الحصن فكان قلعة حربية يحف بها سور له ابواب وحول هذه القلعة بيوت البهال ومن يتعامل مع الجيش.

وكان لمدينة الموصل سور محكم عند تحريرها فقد ذكر ابو زكريا الازدي عن الفتح: لما قدمت طلائع الجيش ومن انضم اليهم من اهل البلاد، لزمو ابواب الحصنين - الشرقي والغربي - واقر ربعي الافكل العنزلي الصلح معهم، وتم الفتح بالامان^(١).

ويبدو ان السور لم يكن على ما يرام قبيل العهد الاموي مما حدا بسعيد بن عبد الملك الذي تولى الموصل في خلافة والده ان يحفرها بسور^(٢)، وقام محمد بن مروان من بعده بتوسيعه بحيث احاط بالمناطق التي توسعت فيها المدينة وذلك في سنة ٨٠هـ / ٦٩٩م^(٣).

ولما تولى مروان بن محمد الموصل كانت قد

(١) باب الجسر: هو من الأبواب القديمة للمدينة يؤدي الى الجسر، وكان امامه ساحة واسعة هي «ساحة باب الجسر» تحف بها اسواق وخانات وقساريات، وبقي حتى الحرب العالمية الاولى فهدمه الاتراك^(١١).

(٢) باب المشرعة: يقع جنوب دور المملكة - قره سراي. والذي نراه ان باب شط المكاوي الذي هو على النهر والذي جددته مديرية الآثار هو في محل باب المشرعة، وكان يرتاده السقاؤون الذين ينقلون الماء^(١٢).

(٣) الباب الهادي: فتحه عماد الدين زنكي كما اسلفنا، ويؤدي من الميدان الى الرض الاعلى من المدينة، وكان يقع في الموضع التي تشغله الآن محطة تعبئة النفط المجاور لمطبعة جامعة الموصل.

(٤) باب سنجار: هو من اقدم الابواب في السور حيث ذكره الأزدي في حوادث سنة ١٢٩هـ / ٧٤٦م. والذي نراه انه من بناء مروان بن محمد عندما وسع سور الموصل وجده، وجد في فترات متباعدة ومن الذين جددوه بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م. ومن الصور والكتابات التي كانت على الباب والتي تعود الى بدر الدين لؤلؤ ما يأتي: فوق قنطرة الباب من الطرفين صورة سبع وامامه حيوان يشابه الارنب (رسم ١)



رسم ١- من التصاوير التي كانت فوق باب سنجار

وبين الصورتين المذكورتين على يمين حجر زاوية القنطرة - اي مفتاحها - صورة رجل متربع ضمن هلال. وفي قنطرة الباب لوح تذكاري من الرخام مكتوب عليها ما يأتي: امر بعمارة (هذه الدركاه المعمورة) مولانا بدر الدنيا والدين ابو الفضائل

هل تقدر ان تعمل سوراً يسد طريق القضاء النازل^(١٣)؟ وهكذا أصبح سور الموصل محكماً في القرن السادس الهجري، فقد أورد ابن جبير الذي زار الموصل سنة ٥٨٠هـ مانصه: «وهذه المدينة عتيقة ضخمة، قد كادت أبراجها تلتقي انتظاماً، لقرب مسافة بعضها من بعض، وباطن الداخل منها بيوت على بعض، مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله، كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلط بنيته، وسعة وضعه، وللمقاتلة في هذه البيوت حفظ ووقاية، وهي من المرافق الحربية^(١٤) فكانت الأبراج مستودعات للمقاتلين والعتاد، ولكل برج باب محكم يسد عند الحاجة.

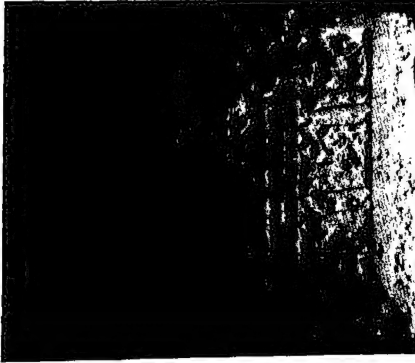
وعليه فقد ذكر بعض المؤرخين ان للموصل سورين: الأول هو السور العقيلي الذي جده عماد الدين، والسور الثاني الذي اقامه من القلعة الى باب سنجار فكان الميدان بين سورين وكان في السور تسعة أبواب (انظر مخطط ١).



مخطط ١ - قلاع الموصل ودور الأمانة فيها:

- ١ - الجامع الأموي ٢ - باب القلعة ٣ - باب السر ٤ - ابي قلعة (القلعة الداخلية) ٥ - باب الجسر ٦ - الجسر الخشبي ٧ - قصور الأتابكيين ٨ - قلعة الموصل (القلعة الأتابكية) ٩ - باب شط القلعة ١٠ - باب السر

القريبة من باب العراق تضمنت النص التالي : امر
بعمارة هذه الدركا المعمورة مولانا بدر الدنيا والدين
ابو الفضائل اعز الله انتصاره بتولي سعد الدين
سنيك البدري في ذي القعدة سنة احد واربعين
وستائة (صورة ١) (١٧) .



صورة ١- لوحة تذكارية مؤرخة سنة ٦٤١ هـ ، عثر عليها في جدار دار
أسعد العمري خارج السور قرب «باب جديد» ، وهي محفوظة في
المتحف الحضاري في الموصل .

ويشير هذا النص بوضوح الى تجديد باب
العراق في عهد بدر الدين ^{الزنجلي} وهو مماثل للنص
التذكاري للذي وجد على جاب ستجار كما اسلفنا .
من حيث المضمون والتاريخ ، ويظهر ان العاهل
المذكور امر بتجديد العديد من ابواب الموصل .

(٢٨) باب القصابين : وهو من «الابواب القديمة»
ذكره الازدي في حوادث سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٤ م .
والذي نراه ان باب القصابين كان يؤدي الى جنوب
المدينة محاذيا للنهر ، وادركنا سوق القصابين القديمة
الذي فيه تدبح المواشي في هذا الموقع على دجلة .

(٩) باب الجصاصة : والذي نراه انه يقع في نهاية
شارع نينوى في المحل الذي يسمى اليوم «رأس
الحجادة» فان اكوار الجص كانت تظاهر المدينة

اتابك سنة احدى واربعين وستائة» وفي سنة
١٢٣٧ هـ / ١٨٢١ م جدد بعض اقسامه احمد
باشا الجليلي .

ويقع الباب في اللحف الغربي من «تل
الكناسة» يقابل الطريق الذي يؤدي الى «حي
الزنجيلي» وهو الطريق الذي كان يسلكه الناس في
سفرهم الى الغرب ، اما الطريق الحالي الذي يمتد
من «تل الكناسة» الى «حي الثورة» ويستمر الى
الغرب فان السلطات البريطانية اتخذته بعد
احتلال الموصل سنة ١٩١٨ م واحدا من
مقراتها (١٣) . ويسمى ايضا باب الميدان لانه يؤدي
من ظاهر المدينة الى الميدان (١٤) . وهو من اكبر
ابواب المدينة فيه عدة غرف ومرافق واسطبلات
للجيش ونحوه ، ومخازن للعتاد وفوق هذا غرف
اخرى محكمة البناء والبروج يكون فيها الجيش ، وفي
الحرب العالمية الاولى هدم الباب سليمان نظيف بك
الوالي العثماني في الموصل ليبنى بانقاضه اسس
مدرسة في اللحف الغربي من «تل الكناسة»
ليتخذها مدرسة للصناعة لكن نقله الى بغداد حال
دون ذلك .

(٥) باب الكندة : والذي نراه انه كان في محل
«باب البيض» الحالي .

(٦) الباب الخفي : فتحه عز الدين مسعود الأول
في ٦ هـ / ١٣ م وكان يقع غربي المدينة بين باب
كندة وباب للعراق . وأعلمني الدكتور داؤد الجليلي
انه شاهد باباً بين باب البيض - باب كندة -
وباب العراق وذلك محل ان ينقض السور (١٥) .

(٧) باب العراق : يؤدي من المحلة المسماة باسمه
«محلة باب العراق» الى جنوب الطريق الذي
يسلكونه الى العراق ، وظاهر باب العراق «ترعة
غسان» والفضاء الذي يؤدي اليه يسمى «صحراء
عزاز» وكان للعزاز مرقد قرب الترعة فيها مقابر
كثيرة (١٦) .

ولقد نشر الدكتور احمد قاسم الجمعة لوحة
تذكارية من الرخام كانت مثبتة في جدار احد الدور

غربها ، ومن دروب الموصل التي تؤدي اليه : درب الجصاصة او درب الجصاصين فقد ذكره المقدسي في القرن الرابع للهجرة . / العاشر الميلادي .
هذه ابواب الموصل التي كانت في القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد^(١٨) . وفي سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م دمر المغول الموصل وهدموا سورها وابراجها مع ما هدموه من المدينة ، وتعاقب عليها الدول التركمانية وتيمورلنك وفتكوا بالمدينة فتكا ذريعا فجعلوها اشبه ماتكون بقرية .

٢. الشوارع :

من الصعب تعيين مواقع الشوارع والازقة التي كانت في الموصل في العصور التي مرت عليها ، فان اخبارها قليلة جدا ، فقد ذكر الازدي - مؤرخ الموصل - ٣٣٤هـ ، انه وضع كتابا بحث فيه عن القبائل والخطط التي كانت في الموصل منذ الفتح الاسلامي سنة ١٦هـ الى زمنه ، ولم نقف على ذكر لهذا المخطوط النفيس ، فانه من المصادر التي يرجع اليها .

وذكر الازدي في تأريخه عند كلامه على القبائل التي في الموصل بعض السكك والازقة ، ولكنه لم يعين مواقعها مثل : سكة خاقان وسكة السرى وسكة السند والسكة الكبيرة ، وسكة الصقر وسكة جلاع ، وغيرها .

ونجد في تاريخه اسماء بعض الشوارع ذكرها عرضا مع الحوادث ، مثل :

درب ايليا الطيب الذي كان يقابل مسجد بني اسباط الصيرفي وبيعة مارتوما ، وذلك في حوادث سنة ١٦٣هـ .

وذكر في حوادث سنة ١٨٨هـ : درب بني ميده الذي دخل منه والي الموصل خالد بن يزيد بن حاتم من قبل الرشيد ، وانكسر لواؤه عند دخوله الدرب ، والذي نراه انه كان يؤدي من الرض الاسفل جنوب المدينة الى المدينة^(١٩) .

وفي القرن الرابع للهجرة ذكر المقدسي بعض طرق الموصل^(٢٠) :

١- درب الديور الاعلى : كان يؤدي الى الرض الاعلى من الموصل وفيه الديور الاعلى .

٢- درب رحى امير المؤمنين : وهو على مانرى يؤدي الى النهر ، وعلى النهر رحى تسمى رحى امير المؤمنين - وان مدرسة كمال الدين بن يونس - جامع احمد باشا بن بكر افندي - تقع على شط الرحى - فلعلها كانت رحى امير المؤمنين .

٣- درب الدباغين : يؤدي الى الرض الاسفل من المدينة يكون على النهر ، لان الدباغين في اختلاف العصور يتخذون مدابغهم على النهر^(٢١) .

٤- درب باصلوثا - يث صلوثا - أي بيت الصلاة ، ولم يزل موقعه معروفا بهذا الاسم الى اليوم ، يقع على يسار الذهاب من شارع نبوي الى الموصل الجديدة قبل اجتياز سكة حديد القطار .

٥- درب جميل ولم نقف على نص يهدين الى موقعه .

٦- درب الجصاصين - درب الجصاصة يؤدي الى غربي المدينة لان اكوار الجص كانت في غربي المدينة .

اما درب بني ميده : وقد تكلمنا عنه ، وكذا درب ايليا الطيب ، وظل يعرف بهذا الاسم الى القرن الخامس للهجرة ، جاء ان الباطنية قتلوا ابي سقر البرسقي صاحب الموصل سنة ٥٢٠هـ ، كانوا يجلسون عند اسكاف في درب ايليا الطيب^(٢٢) .

وكان يفضل دور المملكة والقلعة طريق يمتد من اعلى البلد الى اسفلها ، والذي نراه انه كان يمتد من باب المشرعة - قرب عيسى ددة - الى المدرسة العزية - (الامام عبد الرحمن) الى مرقد الفتح الموصل - الشيخ فتحي - الى باب الميدان .

ومن شوارع الموصل القديمة : شارع النهر كان على نهر الحرق وقد غرسوا به الاشجار والرياحين فكان من متزهات المدينة^(٢٣) .

درب دَرَج: كان على مانرى يمتد من موقع شارع نينوى الى محلة التركمان الى محلة الخاتونية في الوقت الحاضر، وكان فيه دار الخالدين الشعارين، ورباط كمال الدين بن يونس^(٢٤).

٣. الخانات والفنادق :-

الموصل مدينة يلتقي بها عدة طرق تجارية ويزدهم في اسواقها التجار ومن يردوها من البلاد الاخرى، وهذا ما جعل المدينة كثيرة الحمامات والفنادق والخانات والساحات الواسعة التي تحيط بها القوافل المحملة بالبضائع.

ف نجد فيها ذكر الفنادق والخانات منذ القرن الاول الهجري، فان الحرين يوسف الاموي واولاده بنوا فنادق في الموصل، وقد صادرها اسماعيل بن علي بن عبدالله العباسي سنة ١٣٥ هـ عندما تولى الموصل، كما ان اسماعيل هذا بنى فنادق اخرى في الموصل منها فندق إسماعيل في سوق الطعام بالقرب من سوق الحشيش.

ومن الفنادق التي وقفنا على ذكرها فندق مساوروكذا خان عبدالرحمن بن موسى بن حمدان في سوق الحشيش ايضاً.^(٢٥)

وهذه الفنادق تزداد كلما تقدمت الحركة التجارية في البلد، وخاصة في القرن الرابع للهجرة وما بعده، ونجد البلديين الذين تكلموا على الموصل ينوهون بفنادق الموصل وحماماتها.

فالمقدسي عند كلامه عن الموصل يذكر عنها ان فيها فنادق حسنة وحمامات سرية، واسواق واسعة، ويذكر عند كلامه على سوق الاربعاء ان في كل ركن من أركانها فندق.

ويؤكد عنها ابن حوقل - وهو من اهل القرن الرابع ايضاً-: «ان بها من الفنادق والمحال والحمامات والرحاب والساحات والعمارات مادعت اليها سكان البلاد النائية فسكنوها».^(٢٦)

وهكذا اخذت الفنادق والخانات تزداد كلما لاقت التجارة رواجاً في البلد وخاصة في عهد الدولة الانابكية ٥٢١ - ٦٦٠ هـ / ١١٢٧ -

١٢٦١ م فكانت المدينة من المراكز التجارية في العالم، إذ ضاقت بسكانها وخرجوا الى الارياض التي تحف بها وعمروها، وصار بعضها كالمدينة في الخانات والفنادق والاسواق. وان ابن جبير الذي زار الموصل سنة ٥٨٠ هـ نزل في «الخان المجاهدية» في الرض الاسفل من الموصل.^(٢٧) فكان في المدينة عشرات الفنادق والخانات والقيساريات، وفي القرن السابع الهجري نكبت الموصل فقلصت عمارتها وحركتها فلا نجد ذكراً للخانات والفنادق فيها.

٤. الدور :-

والبحث عن الدور الاثرية التي أنشأت في الموصل خلال اربعة عشر قرناً لا يمكن الكلام عليها في المجال الذي حددته هيئة الموسوعة، ومع هذا نذكر نبذاً عن اهم الدور التي انشأت فيها وهي:

١- دار الامارة: أسسه عتبة بن فرقد السلمي سنة ١٧ هـ، بعد فتح الموصل بجانب المسجد الجامع، وهما في لحف تل قليعات، ولما تولى الموصل مروان بن محمد وسع الدار سنة ١٢٦ - ١٢٧ هـ، واتخذ مراً بين الجامع والدار، كما وسعت الدار في عهد الدولة العباسية.^(٢٨)

٢- قصر النقوشة: أسسه الحر بن يوسف الاموي سنة ١٠٦ هـ، والي الموصل، نقش جدرانه بالساج المزخرف، والفسافس الجميلة، وبلغه بالرخام، وبقي واسعاً جداً الى القرن السابع للهجرة.^(٢٩)

٣- قصر هشام بن عبدالملك: في الرض الاسفل من المدينة وحفه بمحاثق وأزهار وكان هذا في بخلافة والده.^(٣٠)

٤- قصر حرب: أسسه حرب بن عبدالله الرويدي سنة ١٤٥ هـ كان مع جعفر بن ابي جعفر المنصور والي الموصل. كان في الرض الاسفل من الموصل يشرف على قطائع بني وائل. وفيه ولدت زبيدة زوجة الرشيد. وفي القرن السابع للهجرة اتخذ

فيه ابو السعادات ابن الاثير رباطاً، وعكف فيه على التدريس والتأليف، وعرف برباط قصر حرب، وبذكر عزالدين بن الاثير انه جمع فيه كثيراً من تاريخه الكامل من هذا الرباط، وهو على ما ترى بجانب قرية الزكروبية^(٣١)

٥- قصر الخليفة المعتضد: قصد الموصل سنة ٢٨٦ هـ، ليقضي على ثورة بني شيبان فبنى له قصراً على تل توبة وكان من القصور الجميلة، وبعد هذا اهل امره وتداعى بنيانه.^(٣٢)

٦- دور المملكة: في الميدان، وهي التي تعرف بقاياها بـ (قره سراي)، اول من اتخذها الحمدانيون، وعني أبو تغلب بن ناصر الدولة بتوسيعها، وحفها بمحاث زيتها بالنافورات واحواض الماء والازهار والرياحين- كما اتخذها العقيليون داراً لامارتهم بعد الحمدانيين.

ولما اسس عماد الدين زنكي الدولة الانابكية، وسع الدار وزينها بالكتابات والتصاوير والزخارف والمرمر المطعم ونقش سقفها بالذهب، وحفها بمحاث واسعة، اقام بها تماثيل لحيوانات وطيور مختلفة حول الاحواض والنافورات.

وزاد في زخرفتها بمرالدين لؤلؤ عندما استولى على الملك سنة ٦٣١ هـ، وجعلها نضاهي قصور الخلفاء.^(٣٣)

٧- قصر سوتاي بيك: والي الموصل وديار بكر ٧٠٣-٧٣٢ هـ، اسس قصراً على التل المقابل لمسجد النبي دانيال والذي كان عليه دار محمد اغا ابن سليمان اغا الديوه جي، وعثرنا على قطعة رخام مكتوب عليها «عزملولانا السلطان الاعظم ابو سعيد بهادر خان^(٣٤) خلد (الله) دولته وثبت الله دوله) العادل سوتاي بيك»^(٣٥)

٥. الاسواق :-

والاسواق التي وقفنا عليها منذ الفتح الاسلامي الى نهاية الدولة الاموية سنة ١٣٢ هـ،

هي :

١- سوق الشعارين: ولم يزل يعرف بهذا الاسم، تباع به منسوجات الشعر، من غرائر، وبيوت الشعر، ومايتبعها مما يحتاجه الجيش والسكان.

٢- سوق السراجين: يقع جنوب المسجد الجامع. يقابل «باب جابر» احد ابواب المسجد الجامع، وان الخليفة المهدي العباسي عندما وسع الجامع سنة ١٦٧ هـ- ٧٨٣ م هدمه واضافه الى الجامع.

٣- سوق البزازين: ويعرف ايضاً بسوق الداخل، هدمه المهدي واضافه الى الجامع.

٤- سوق القتابين: يباع به اقتاب الابل ومايتبعها، يقع شرق سوق الشعارين، يمتد من مسجد الخلال الى الميدان،^(٣٥) ويسمى اليوم سوق التجارين.

٥- سوق الطعام: يجاور سوق الحشيش، جنوب تل قليعات، قرب موقع «سوق باب السراي» في الوقت الحاضر، وفي ولاية اسماعيل بن علي العباسي هدم بعض الاسواق ومنها سوق الطعام، وابنتي في مقبرة اهل الموصل عدة اسواق.

٦- سوق الحشيش: يجاور سوق الطعام.

٧- سوق الدواب: يقع بالقرب من مقابر قريش، يقابل قصر «المنقوشة» الذي بناه الحر بن يوسف الاموي، والي الموصل.

٨- سوق سعيد بن عبد الملك: انشأه عندما تولى الموصل في خلافة والده، وانشأ فيه مسجداً، وهو الذي يعرف اليوم بمسجد الرحاني^(٣٦)

٩- سوق الاربعاء: يقع على الارض الممتدة من باب الجسر الى سوق التجارين وهو فضاء واسع يجتمع به العمال، وبقي يعرف بهذا الاسم حتى القرن السابع للهجرة^(٣٧)

١٠- سوق السقط: يقع قبلي المسجد الجامع، هدمه المهدي العباسي عندما وسع الجامع^(٣٨)

١١- سوق الجسر: يقع في الجانب الشرقي من النهر يقصده اهل الجانب الشرقي من الزراع والفلاحين يعرضون به حاصلاتهم ، يبيعونها بالجملة^(٣٩)

ولما تولى اسماعيل بن علي العباسي الموصل سنة ١٣٤هـ = ٧٥١ ، رأى المدينة وما عليها من الاختلال وسوء الحال ، ولهذا نقل سنة ١٣٧هـ / ٧٥٤م أكثر اسواق المدينة الى مقبرة اهل الموصل ، ونقل المقبرة الى الصحراء ، وابنى مسجده الذي عرف فيها بعد «مسجد أبي حاضر» وسط الاسواق ، فتراجع الناس وصلح حال البلد . وعليه فمسجد اسماعيل هو الذي يعرف اليوم «بمسجد الشالجي» قرب «الجامع النوري» ، وعليه فكانت الاسواق قرب الجامع النوري^(٤٠) . وفي سنة ١٦٧هـ = ٧٨٣م ، امر المهدي العباسي عامله موسى بن مصعب بهدم الاسواق التي كانت تحف بالجامع وهي : سوق البزازين ، وسوق السراجين ، وسوق السقط ، وازادها الى الجامع^(٤١) .

وعلى مر السنين اخذت الاسواق تزداد وتتنوع باقبال اهل المدينة على اعمالهم فكانت الموصل في القرن الرابع للهجرة من المدن الكبيرة في عمارتها واقتصادها ، يقول عنها المقدسي : «حسنة الاسواق والفنادق»^(٤٢) .

ويقول عنها ابن حوقل : «وبها لكل جنس من الاسواق الاثنان والاربعة والثلاثة ، مما يكون في السوق الواحد مائة حانوت ، وزائد ، وكانت اسواقها جميلة مسقوفة ، وبها من الفنادق^(٤٣) والحمامات والرحاب والساحات والعمارات مادعت اليها سكان البلاد الاخرى فسكنوها»^(٤٤) .

لم نقف على اسماء الاسواق التي استحدثت ، وما ذكره ابن حوقل ان اسواقها كانت تعرف بالبضاعة التي تعرض بها ، ولربما كان لبعض البضاعة عدة اسواق ، كما كان في المدينة عدة

قيسريات كبيرة .

ومن الاسواق التي استحدثت بها «جارسوك»^(٤٥) والذي يعرف اليوم باسم «شهر سوق» يقول الجاحظ : اهل البصرة اذا التقت اربع طرق يسمونها المربعة ، ويسمونها اهل الكوفة «جهار سوق» اي الاربعة طرق .

وعليه «سوق الاربعة» الذي تقدم ذكره وهو على نهر زبيدة ، هو غير شهر سوك الذي تكلمنا عليه .

وفي عهد الدولة الانابكية ٥٢١ - ٦٦٠هـ ، صارت الموصل احدى مدن الدنيا العظام بعمارتها واقتصادها ، حتى ضاقت بالسكان فخرجوا الى الارياض المحيطة بها ، وكان بعض هذه الارياض كالمدينة ، فالريش الاسفل فيه الاسواق والقيسريات والخانات والمساجد والحمامات . ونزل ابن جبير عندما زار الموصل سنة ٥٨٠هـ = ١١٨٤م ، في الخان المجاهدي في الريش الاسفل . واما داخل المدينة فقد تضاعفت اسواقها وقيسرياتها فكان بها ٣٦ سوقاً كبيراً لكل بضاعة اربعة اسواق فاكثر وفيها قيسريات عديدة منها قيسرية بناها مجاهد الدين قيباز الرومي ، يقول عنها ابن جبير : «في سوقه قيسرية للتجار كأنها الخان العظيم ، تنغلق عليها ابواب حديد ، وتطيف بها دكاكين وبيوت بعضها على بعض ، قد جلى ذلك كله في اعظم صورة من البناء المزخرف الذي لامثيل له ، فما ارى في البلاد قيسرية تعدلها»^(٤٥) .

وقيسرية الجامع النوري ، ذكروا ان دكاكينها كانت (٦٦٩ دكاناً) ، وكان في الموصل قيسرية خاصة لبيع المسك دكاكينها (١٢ دكاناً) - وكان عدد دكاكين الاسواق : (٤٥١٥ دكاناً) ، فكانت الموصل من المراكز التجارية في العالم الاسلامي ، يقول عنها باقوت : «ماعدم شيء في بلد من البلاد الا ووجد في الموصل ، وفيها عشرات الخانات والفنادق والحمامات والقيسريات

والساحات هذه الاسواق اكثرها حول الجامع النوري كما ذكر ياقوت^(٤٦).

ومن اسواقها الجميلة سوق التركان في محلة الخاتونية وبجانبه محلة التركان التي كانت مضرب المثل بجمال بناياتها وتنسيقها^(٤٧).

وفي سنة ٦٦٠ هـ = ١٢٦١ م، دمرها المغول واعملوا السيف في اهلها، وقوضوا معالمها ثم تعاقبت عليها الدول التركانية وعاثوا في البلد، وفك الجوع والابوة بالسكان وصارت كما وصفها بعضهم: قرية ينعب اليوم في احيائها الخربة، فتقلصت عمارتها - واتخذ الحكام لهم حصناً على النشز الذي عليه حمام السراي، ونشأ حول الحصن بعض الاسواق والمحلات لبعضها اسماء تركانية ومن هذه الاسواق:

١. سوق السراجخانة: تعمل به سروج الخيل وما يتبعها، ولم يزل هذا السوق يعرف بالاسم نفسه.

٢. السوق الصغير: يقع شرقي سوق السراجخانة.

٣. سوق القصابين: على النشز الذي يقابل جامع الصفار في شارع الفاروق.

٤. جهاز سوق: وهو الذي تقدم ذكره وبقي على وضعه.

٦. الحمامات:

وعني المواصلة بانشاء الحمامات المريحة منذ القرن الاول للهجرة، ومن الحمامات التي وقفنا على ذكرها في القرن الاول للهجرة هي «حمام الجذالين» التي استحم بها الخليفة مروان بن محمد عندما كان في الموصل^(٤٨).

وزادت الحمامات بتوسع حركة التجارة فيها، فبنى اسماعيل بن علي العباسي سنة ١٦٦ هـ حمامات في الموصل. ثم زادت الحمامات على مر العصور، وقد اعجب المقدسي بحمامات الموصل وحسن تنظيمها وذكر ان فيها حمامات سرية وذلك في القرن الرابع للهجرة^(٤٩).

وذكر ابن حوقل عند كلامه على الموصل: «وبها من الفنادق والجمال والحمامات والرحاب والساحات مادعت اليها سكان البلاد النائية فقطنوها»^(٥٠).

وفي سنة ٦٦٠ هـ قبيل الغزو المغولي كانت الموصل في ازهى عصورها، وذكروا انه كان بها (٢٠٠) حماماً (١٠) اخرى للبنسات الابكار^(٥١). ثم نكبت الموصل ودمرت كثير من معالمها - ومنها الحمامات - فلم نقف على ذكرها.

٧. المقابر:

كانت المقابر العامة في الموصل ظاهر السور الذي بناه الامويون.

أما مقابر قریش فكانت تجاور قصر المنقوشة بين سوق الدواب وسدة المغاري - وهي ظاهر السور ايضاً، ودفن بها الحربي يوسف والي الموصل المتوفي سنة ١١٣ هـ - ٧٣١ م، وذهب بعضهم الى ان المقابر المذكورة كانت بجانب مشهد النبي جرجيس - جامع النبي جرجيس فيما بعد - ودفن في هذه المقابر كثير من اعلام الموصل وعلمائها وادركنا حول الجامع مقابر كثيرة لأسر موصلية^(٥٢). ولما تولى الموصل اسماعيل بن علي العباسي، نقل المقابر الى الصحراء، ونقل اسواق الموصل الى محلها، وبنى وسط الاسواق مسجداً - مسجد ابي حاضر - الذي يعرف اليوم بمسجد الشالجي،^(٥٣).

ومن المقابر التي وقفنا عليها:

١. مقبرة عمرو بن الحمق الخزاعي: وهو من انصار الامام علي كرم الله وجهه، وصارت المقبرة تعرف بمقبرة الست فاطمة وهي تقع في المدرسة النورية التي بناها نور الدين ارسلان شاه الاول، والتي عرفت فيما بعد بجامع الامام محسن^(٥٤).

٢. مقبرة الخنمسي: وهو من الصحابة الذين دفنوا في الموصل، قرب جامع الامام الباقر، وعليه قبة ويسميه المواصلة «الشيخ عامر» - ابا

الحوارين - فاذا مرضت فرس او حصان اداروها حوله ، ظناً منهم انه يشفيها ، ومن الخثعميين الذين دفنوا في الموصل : عبد الرحمن الخثعمي ، وعفيف بن كريم الخثعمي^(٥٥) .

٣. مقبرة الفتح الموصل : تقع في الميدان قرب باب سنجار ، دفن فيها الفتح بن وشاح الموصل المتوفى سنة ١٦٥ هـ ، وعرفت به ، ودفن فيها ايضاً الفتح ابن سعيد الكاري الموصل المتوفى سنة ٢٢٠ هـ ، وكان امام مرقد الفتح الموصل قبور واسعة كثيرة ، رفعت قبل سنوات واتخذت حديقة جميلة - وفي المرقد آثار وكتابات قيمة^(٥٦) .

٤. مقبرة العناز : العناز بن حاد المدني الثاني المتوفى سنة ١٩٧ هـ ، دفن فيها فنسبت اليه ، وقد رفعت المقبرة مع المسجد الذي كان بجانبها سنة ١٩٧٠ هـ ، وانشأوا على ارضها مدرسة^(٥٧) .

٥. مقبرة تل توبة : فوق تل توبة تجاور جامع النبي يونس عليه السلام ، ودفن فيها كثير من اعلام الموصل ورجالها منهم ناصر الدولة الحمداني المتوفى ٣٥٨ هـ وقرواش بن القلندر العقبلي المتوفى ٤٤٥ هـ ، وفخر الدولة بن جهمير الثعلبي المتوفى سنة ٤٨٣ هـ ، وغيرهم^(٥٨) .

٦. مقبرة المعافي بن عمران الموصل : محدث الموصل المتوفى سنة ١٨٤ هـ ، تقع ظاهر باب سنجار على الارض التي انشأ على قسم منها ملعب الادارة المحلية ، ودفن فيها كثير من اعلام الموصل منهم ابو تمام الشاعر المشهور المتوفى سنة ٢٣٢ هـ .

وصارت تعرف في العهد الاتاكي بمقبرة باب الميدان لانها تقع ظاهر هذا الباب - كما عرفت بمقبرة الشيخ قضيب البان الموصل المتوفى سنة ٥٧٣ هـ ، كان رباطه فيها ودفن به كما دفن فيها كثير من اعلام الموصل وعلمائها مثل عز الدين بن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ وغيره^(٥٩) .

وفي مقبرة باب الميدان مقبرة عامة تسمى «المقبرة السابلة» .

٧. مقبرة عمر بن محمد المولى - الملاء - شيخ نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ، كان له رباط فيها ، وعرفت المحلة باسمه محلة الشيخ عمر يعتقد اهل الموصل انه دفن فيها ، بينما يذكر ابن المستوفي انه دفن في مقبرة المعافي بن عمران ، وعند توسيع الشارع هدم المسجد ورفعت القبور من حوله في محرم سنة ١٣٩٤ هـ - شباط ١٩٧٤ م . ونقلوا القبر المزعم انه لعمر الملاء الى الجامع النوري^(٦٠) .

٨. تربة غسان : ظاهر باب الجديد قريبة الى تربة العناز ، ولعلها منسوبة الى غسان بن الربيع الازدي الموصل المتوفى سنة ٢٢٦ هـ ، ومن دفن فيها الشيخ يونس بن منعة المتوفى سنة ٥٧٦ هـ ، وابنه علامة الموصل كمال الدين المتوفى سنة ٦٣٩ هـ ، وغيرهما ، ودفن فيها شيخ علماء الموصل محمد الرضواني رحمه الله ، وفي سنة ١٩٧٠ م نقلت القبور ومسجد العناز وتربة غسان وأبقي قبر شيخ الموصل محمد الرضواني^(٦١) .

٩. مقبرة باب الحصاصة : تقع غربي ظاهر الموصل ومن دفن فيها ابن المستوفي مؤرخ أربل المتوفى سنة ٦٣٧ هـ - ١٢٣٩ م ، وغيره^(٦٢) .

١٠. مقبرة الجامع العتيق : أمام المسجد الاموي ومن دفن فيها أبو زكريا يحيى بن سالم بن مفلح البغداد المتوفى سنة ٦٠٩ هـ^(٦٣) .

١١. مقبرة الباب المعادي : تقع ظاهر الباب المعادي ، والذي نراه انها في موقع مشهد الطرح - المعروف بينجة علي - كان فيها مشهد واسع فيه آثار نفيسة تعود الى القرن الثامن للهجرة ، نقلت الى متحف بغداد ، ورفعت المارة وأنشئ على ارضها مدرسة ، ومن دفن فيها مجاهد الدين قباذ الرومي المتوفى سنة ٥٧٠ هـ^(٦٤) .

١٢. مقابر العلويين : ودفن العلويون موتاهم في عدة مراقد .

مقبرة عمرو بن الحمق الخزاعي : وقد تقدم الكلام عليها .

مقبرة في الامام عبد الرحمن: وهي في المدرسة العزية.

مقبرة ابن الحسن: الامام عون الدين.

مقبرة في مقام الست شاه زنان- والتي تعرف اليوم بام التسعة.

مقبرة في الامام يحيى بن القاسم: وغيرها (٦٥).

١٣. مقبرة العمرة: في جامع العمرة (٦٦).

٨. الاضرحة والمشاهد:

وفي الموصل أضرحة ومشاهد كثيرة باسماء رجال من الصالحين وهي على أنواع:

١. بعضها فيها قبور بعض الانبياء مثل قبر النبي يونس- عليه السلام- في جامع النبي يونس على تل توة في نينوى، وهو جامع كبير فيه آثار كثيرة جميلة مزينة بكتابات وزخارف متنوعة، وهو من الاماكن المقصودة (٦٧).

قبر النبي جرجيس في سوق الشعارين وهو من الجوامع الكبيرة في الموصل وفيه آثار مختلفة أهمها قبر من الرخام المزخرف وعليه كتابات جميلة بديمة وغير ذلك (٦٨).

قبر النبي شيت في جامع النبي شيت كان جامعا صغير المصلى (٦٩).

قبر النبي دانيال في مسجد النبي دانيال في محلة باب المسجد، جده اينجه بيرقدار سنة ١٢٥٨هـ.

٢. وبعضها كانت تكايا- اربطة- لبعض المشايخ ودفنوا بها بعد موتهم مثل:

ضريح الفتح بن سعيد الموصل المتوفى سنة ١٦٥ هـ والذي يعرف اليوم «بالشيخ فتحي»، وهو بناء قديم فيه كتابات مطعمة بالمرمر ترجع الى سنة ٧٨٤هـ وغيرها (٧٠).

ضريح الشيخ قضيبي البان الموصل- أبو عبد الله الحسين بن عيسى الموصل، ٤٧١-٥٧٣هـ / ١٠٧٨-١١٧٧م، يقع ظاهر باب سنجار (٧١).

ضريح الشيخ محمد الخلال المتوفى سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م يقع في سوق النجارين (٧٢).

ضريح الشيخ محمد بن علي الغزالي الموصل- ٦٠٥هـ / ١٢٠٨م، وهو في لحف تل الغزالي وفي داخله غرفة منحوتة بالصخر وفيها قد نحت ما يشبه السرير يظهر ان الشيخ الغزالي كان يبيت عليه (٧٣).

ضريح الشيخ عمر بن محمد الملاء- المولى- وهو الذي عهد اليه الملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي ببناء الجامع النوري في الموصل، وكان بملأ تنانير الحص بنفسه فسمي عمر الملاء، يقع ضريحه في محلة الشيخ عمر في مسجد صغير. ان عمر الملاء لم يدفن في هذا المسجد، كما توهم الناس، وانما دفن بمقبرة المعافي بن عمران الموصل، كما ذكر ابن المستوفي في تاريخ اربل: ١٥٧: ١.

والمدفون في هذا المسجد هو الشيخ عمر بن الشيخ قضيبي البان كما جاء في «جوهرة البيان في نسب الشيخ قضيبي البان». (مخطوط)

ضريح العنّاز يقع في مسجد العنّاز، وهو العنّاز ابن حماد الثاني المدني موقف هذه الجبنة- المقبرة- توفي سنة ١٩٧هـ، وفي سنة ٥٦٢هـ بنى على قبره مسجد محمد بن ابي طالب بن علي العلوي، وجدده سعد الدين سنبك البدري دزدار قلعة الموصل سنة ٦٧٥هـ (٧٤).

وفي الموصل مشاهد كثيرة لآبناء الامام علي بن ابي طالب رضي الله عنه، اقامها بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ليقاوم الحركة العدوية التي قام بها الشيخ شمس الدين حسن بن الشيخ عدي بن الشيخ صخر الاموي، واخذ يسمى في تأسيس دولة اموية تحت ستار من الطريقة العدوية، ولاقت حركته اقبالا، وكثر اتباعه وكان بدر الدين يخشى من قوة هذه الحركة فقاومها فخنق الشيخ حسن المذكور سنة ٦٤٤هـ.

واقام مشاهد لآبناء آل البيت: عني بحسن تخطيطها وزخرفتها بنقوش وكتابات جميلة

مطعمة بالمرمر الابيض وبالأجر المزليج ، والالواح الجسبية واتخذ فيها صناديق جميلة من الخشب زينها بنقوش وكتابات مختلفة واقام لها سدة وكان يتردد لزيارتها- هذه المشاهد من اجمل النباتات في الموصل ، يتجلى فيها جمال العارة والتزويق ، ولم يزل بعضها من اجمل ماوصل اليها ، ومن هذه المشاهد (٧٥) :

١- مشهد الامام يحيى القاسم يقع شمال المدينة قرب قلعة الموصل ، اقامه سنة ٦٣١هـ وهو من اجمل واروع النباتات في الموصل لما يحويه من آثار قيمة متنوعة .

٢- مشهد الامام عون الدين المعروف بابن الحسن : وهو يقع في محلة الامام عون الدين ، اقامه بدر الدين سنة ٦٤٦هـ ، يشبه في بنائه وتخطيطه وزخارفه مشهد يحيى بن القاسم .

٣- مشهد الامام الباهر (عبد الله بن الامام زين العابدين) وهو يقع في المحلة التي سميت باسمه .

٤- مشهد الامام زيد بن الامام محمد بن الامام زيد بن الامام زين العابدين السجاد بن الامام الحسين رضي الله عنهم جميعاً . واقام لأولو المشاهد في بعض المدارس الاتابكية مثل مشهد الامام عبد الرحمن الذي اقامه في المدرسة العزية التي بناها عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود ٥٧٦-٥٨٩هـ .

ومشهد الامام محسن الذي اقامه بدر الدين في المدرسة النورية التي بناها نور الدين ارسلان شاه ابن عز الدين مسعود الاول ٥٨٩-٦٠٧هـ . ومشهد الامام علي الاصغر الذي اقامه في المدرسة النظامية وهو يقابل الجامع النوري .

وفي أواسط القرن السابع للهجرة طغت موجة المغول في البلاد ، ومن بعدهم الدول التركمانية ، وهدموا بعض المشاهد ، وبعد ان اسلموا اخذوا يجددون بعض المشاهد التي كانت لابناء آل

البيت ، كما أنشأوا مشاهد غيرها . جددوا مشهد الامام الباهر سنة ٦٩٩هـ ، وزينه بالمرمر المزخرف وبالكتابات الجميلة . ونقلت بعض آثاره الى متحف بغداد .

وجددوا مشهد بنجة الامام علي وهي التي كانت تعرف «بالبنجة» ظاهر الباب العادي سنة ٦٨٦هـ ، وبعدها سنة ٨٠٨هـ ، وادركنا فيها محراباً نفيساً من المرمز ومدخل المشهد وكتابات اخرى مختلفة .

مشهد علي الهادي واتخذوا فيه صندوقاً من المرمز الجميل المزين بالكتابات والزخارف .

مشهد بنات الحسن في سوق الصاغة سنة ٧٤٨هـ ، فيه محراب كبير جميل مطعم بالمرمر الابيض نقلناه الى متحف الموصل .

مشهد دوسة علي في محلة باب المسجد وحفوا جدرانها بكتابات مطعمه وغير مطعمه (٧٦) .

جامع النبي يونس عليه السلام وسعه وجدد بناؤه ابراهيم الختني سنة ٧٦٧هـ ، واقام فيه محرابين جميلين من المرمز .

جامع النبي جرجيس : واتخذوا فيه صندوقاً كبيراً من المرمز فيه زخارف جميلة وكتابات متنوعة ، ومن آثاره مصراعاً باب الحضرة من الخشب ، وهو من اجمل الابواب التي وقفنا عليها .

الهوامش

- (١) فتح البلدان - للبلاذري : ٣٢٧ - ٣٢٨ ، الكامل لابن الاثير : ٢ : ٢٢١ - ٢٢٢ .
- (٢) أنظر عن سعيد بن عبد الملك : تأريخ الموصل لامي ذكرها الايزي : ٢ : ٢٥ .
- (٣) تاريخ البقري : ٣ : ١٧ - فتح البلدان : ٣٢٧ - ٣٢٨ .
- (٤) المعارف لابن قتيبة : ١٥٧ - الكامل لابن الاثير : ٦ : ٥٥٠ ، ٥٥١ .
- (٥) تاريخ الايزي : ٢ : ٢٥ - تأريخ البقري : ٣ : ١٧ .
- (٦) معجم البلدان لياقوت : ٨ : ١٦٩ .
- (٧) الباهر لابن الاثير : ١٧٨ - وفيات الاعيان لابن خلكان : ٢ : ١١٢ .
- (٨) الكامل لابن الاثير : ١٠ : ١٤٣ ، ١٥٩ .
- (٩) الكامل لابن الاثير : ١٠ : ١٧٢ .

- (٨) - (٩) الباهر: ٧٨- وفيات الاعيان: ١: ١١٤.
- (١٠) رحلة ابن جبير: ٢٢١.
- (١١) تأريخ الموصل للارزي: ٢: ١٣٣.
- (١٢) الكامل لابن الاثير: ١١: ٥٦- الباهر لابن الاثير: ٩٣.
- منية الادباء لياسين العمري: ١٢١.
- (١٣) تأريخ الموصل للارزي: ٢: ٩٢- جميع الكتابات المحررة في ابنة مدينة الموصل: ١٣٨ بحث ثرات الموصل (ص ٢٥- ٢٧).
- (١٤) وفيات الاعيان لابن خلكان: ١: ٤٤٤.
- (١٥) الباهر لابن الاثير: ١٨٩.
- (١٦) وفيات الاعيان: ٢: ١٣٤.
- (١٧) الدكتور احمد قاسم الجمعة: الآثار الرخامية في الموصل خلال المهديين الاتابكي والايلاخي، رسالة دكتوراه (غير منشورة) قدمت لجامعة القاهرة ٢، ص ٨٧٠.
- (١٨) احسن التقاسيم: ١٣٨.
- (١٩) انظر حوادث السنين المذكورة في تاريخه.
- (٢٠) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم: ١٣٨- ١٤٠.
- (٢١) تاريخ الموصل- لسعيد الديوبه جي: ١: ١٨٠- ١٨١.
- (٢٢) الكامل لابن الاثير: ٩: ٢٤١- ٢٤٢.
- (٢٣) انظر عن نبرالحرين يوسف تاريخ الموصل لسعيد الديوبه جي: ٤٣- ٤٥.
- (٢٤) وفيات الاعيان: ١: ٤٤١.
- (٢٥) انظر حوادث السنين المذكورة في تاريخ الموصل- لابي زكريا الارزي
- (٢٦) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم: ١٣٨، رحلة ابن حوقل: ١٩٥.
- (٢٧) رحلة ابن جبير: ١٨٧.
- (٢٨) جوامع الموصل- لسعيد الديوبه جي: ١٧، سومر: ٦: ٢١١- ٢١٨.
- (٢٩) تاريخ الموصل لسعيد الديوبه جي: ١: ٤٣.
- (٣٠) بحث في ثرات الموصل- لسعيد الديوبه جي ١٥٤.
- (٣١) بحث في ثرات الموصل: ١٥٦.
- (٣٢) بحث في ثرات الموصل: ١٥٧- ١٥٨.
- (٣٣) بحث في ثرات الموصل: ١٢٧- ١٣٣.
- (٣٤) بحث في ثرات الموصل: ١٢٠- ١٢١.
- (٣٥- ٣٩) انظر عن هذه الاسواق في تاريخ الموصل للارزي على التوالي: (٢: ٢٤٨، ٢٤، ١٩٧، ٣٦٣، ٣٣٢، سومر: ٧: ٢٢٧- ٢٢٨).
- (٤٠) الكامل لابن الاثير: ٥: ١٧٦.
- (٤١) تاريخ الارزي في حوادث سنة ١٦٧هـ.
- (٤٢) تاريخ الارزي: ٢: ٢٤.
- (٤٣) صورة الارض- لابن حوقل: ١٩٥.
- (٤٤) الموصل في العهد الاتابكي- لسعيد الديوبه جي ١١٢- ١١٣.
- (٤٥) الموصل في العهد الاتابكي ١٢٥ جوامع الموصل- لسعيد الديوبه جي ١١٢- ١١٣.
- (٤٦) جوامع الموصل: ٢١.
- (٤٧) تاريخ الموصل: ١: ٣٢٧- ٣٢٨.
- (٤٨) انظر حوادث سنة ١٣٢هـ في تاريخ ابني زكريا الارزي.
- (٤٩) احسن التقاسيم: ١٣٦.
- (٥٠) صورة الارض: ١١٤- ١١٥.
- (٥١) منية الادباء لياسين العمري (ص: ١٦٦).
- (٥٢) أنظر جامع التبي جريسي في: جوامع الموصل: ١٠٧- ١٢٨.
- (٥٣) تأريخ الموصل: ١: ٦٢، جوامع الموصل: ٥٠- ٥١.
- (٥٤) وقد عرفنا بقبيره وبالسلة فاطمة التي عرفت المقبرة باسمها يبحث نشرته في مجلة الجزيرة: السنة الاولى، العدد الخامس: ٩- ١٠.
- وانظر ايضا الموصل في العهد الاتابكي: ١٤٢- ١٤٤.
- ١٦٦- ١٦٩.
- (٥٥) الكامل لابن الاثير: ٣: ٢٠٩، ٤٠٥- ٤٠٦.
- الموصل في العهد الاتابكي: ١٦٦- ١٦٧.
- (٥٦) الزيارات للهرودي: ٧٠- الموصل في العهد الاتابكي: ١٦١- ١٦٠.
- (٥٧) الموصل في العهد الاتابكي: ١٦١- ١٦٢، منهل الاولياء: ٢: ١٠٤- ١٠٨.
- (٥٨) الموصل في العهد الاتابكي: ١٧٨- ١٧٩.
- (٥٩) الموصل في العهد الاتابكي: ١٧٦- ١٧٨.
- تأريخ الموصل: ١: ٣٥٧- ٣٥٨.
- (٦٠) الموصل في العهد الاتابكي: ١٦٣، تأريخ الموصل: ١: ٤٥٣.
- تأريخ الموصل لابن السنوسي: ١: ١٥٧.
- (٦١) الموصل في العهد الاتابكي: ١٧٥.
- (٦٢) تأريخ الموصل: ١: ٣٦٧.
- (٦٣) الموصل في العهد الاتابكي، ١٧٥، تأريخ الموصل: ١: ٣٦٥.
- (٦٤) الكامل لابن الاثير: ١١: ١٧٣، تأريخ الموصل: ١: ٣٦٦.
- (٦٥) أنظر المشاهد المذكورة في الموصل في العهد الاتابكي، وفي منهل الاولياء- الجزء الثاني، وفي تأريخ الموصل.
- (٦٦) أنظر جامع العمري في جوامع الموصل: ١٢٨- ١٤٠.
- (٦٧) جوامع الموصل- لسعيد الديوبه جي ٧٣- ١٠٧.
- (٦٨) جوامع الموصل: ١٠٧- ١٢٨.
- (٦٩) جوامع الموصل: ٢١٢- ٢١٩.
- (٧٠) منية الادباء: ١١٧.
- (٧١) جوامع الموصل: ٢٦٠- ٢٧٠.
- (٧٢) ترجمة الاولياء في الموصل الهدباء: ٨١- ٨٢.
- (٧٣) ترجمة الاولياء: ١٠٦- ١٠٧.
- (٧٤) منية الادباء: ١١٤.
- (٧٥) انظر مقدمة كتاب ترجمة الاولياء في الموصل الهدباء: ٦- ٩.
- (٧٦) ترجمة الاولياء في الموصل الهدباء لاحمد بن الخياط الموصل وغيره.

المشآت المعمارية

أ. د. عادل نجم عبو

العناصر التخطيطية والمعمارية تكاد تكون واحدة في المساجد فان لمساجد الموصل بعض الخصوصية الناتجة عن طبيعة المواد البنائية .

الجامع الأموي : كان أقدم المساجد الجامعة التي أقيمت في مدينة الموصل هو الجامع الذي عرف بالجامع الأموي (١٦ هـ / ٦٣٧م) وكانت القاعدة في صدر الاسلام أن لا يقام أكثر من مسجد جامع واحد في كل مدينة ، لذلك امتاز الجامع في الموصل بسعته خلال فترة تأسيسه وخلال مراحل التوسع التي حصلت فيه مادام ذلك المسجد هو المسجد الجامع الوحيد في المدينة حتى القرن السادس الهجري .

لم يبقَ من العناصر القديمة شيء يمكن الاستدلال من خلاله على تاريخه الأموي أو العباسي أو حتى الأتابكي عدا موقعه الذي تجمع الروايات على أنه شيد في منطقة الميدان ، في المنطقة المحيطة بالجامع المعروف حالياً بجامع المصني^(١) ولعل أقدم العناصر الباقية هي المئذنة المعروفة «بمئذنة الكوازين» ففيها من السمات ، خاصة أسلوب رصف الآجر ، ما يوحي بأنها ترجع الى العهد الاتابكي على الرغم من أنه كان للجامع مئذنة منذ العصر الأموي^(٢) . ولا يعرف موضعها على وجه الدقة خلال العصر الأموي ، ان كان موضعها في موضع المئذنة الحالية أم في موضع آخر^(٣) . إن موضع المئذنة من جامع المصني فضلاً عن مواضع ابواب المسجد وتنجيتها في الوقت الحاضر في ضوء المعلومات التاريخية المتوافرة يدل دلالة واضحة على المساحة المترامية الاطراف للمسجد^(٤) .

شُيد المسجد الجامع بالموصل من قبل هرثة بن عرفة البارقى الذي يرجع اليه فضل اختطاط المدينة وانزالها العرب .

تشكل العمارة أو الحركة العمرانية في منطقة الموصل خلال العصر العربي الاسلامي حلقة من سلسلة متواصلة من التطور المعماري في المنطقة بدأت حين استقر الانسان ومارس الزراعة في الالف السابع قبل الميلاد واستمر حتى الوقت الحاضر ، وان دراسة أي من حلقات هذه السلسلة يجب ان لا تتم بمعزل عن الحلقات الاخرى على الرغم من أن لكل حلقة خصوصيتها . فن يستعرض سلسلة التطور المعماري في المنطقة يلاحظ الوحدة والتواصل والانسجام الذي املته عوامل متعددة ، أبرزها الظروف الجغرافية بما تضمنته من مناخ ومادة بناء كما يلاحظ اضافة عناصر مبتكرة من حقبة لأخرى . ولعل ابرز ما يميز العمارة العربية الاسلامية في منطقة الموصل عن بقية الفترات يكن بالتحولات التي املها اختلاف اغراض الوحدات المعمارية . ففي الوقت الذي كانت الزقورة والمعبد والقصر تشكل الاغراض الرئيسية من العمارة في العهد الاشوري أصبح الجامع والمدرسة والرباط والزاوية ودار الامارة تشكل ابرز اغراض العمارة في العصر العربي الاسلامي وأن في دراستنا لهذه الوحدات دراسة للتطور المعماري في المنطقة خلال الفترة . وكانت المساجد ابرز اغراض العمارة الاسلامية واكثرها تأثيراً على الشكل المعماري .

المساجد :

هناك كما هو معروف المساجد والمساجد الجامعة ، وقد شهدت مدينة الموصل حتى القرن السابع ثلاثة مساجد جامعة هي الجامع الأموي أو الجامع العتيق والجامع النوري والجامع المجاهدي ومئات المساجد الصغرى ، إلا ان ما بقي من اصول هذه الجوامع والمساجد قليل . وعلى الرغم من ان

ويبدو أن عتبة بن فرقد الباهلي قد فتح الموصل ولم يول اهتماماً بتمصيرها بقدر اهتمامه بالفتوح مما دفع الخليفة عمر بن الخطاب بتوليته ارمينية وتولية عرفة الموصل^(٥) ولا يعرف بالضبط ان كانت اعمال عرفة فيما يتعلق بالجامع توسيعاً لأعمال عتبة أم أنها اختطاط للجامع جديد ودار اماراة

لقد مر الجامع بعد الفتح بسلسلة من اعمال التوسيع والترميم ليتلاءم مع الزيادة في حجم سكان المدينة ولقيت المدينة وثم الجامع القدر الكبير من الاهتمام في العصر الأموي وخاصة في أواخره حين تولاها مروان فهدم المسجد ووسعه^(٦) بحيث أصبح يتسع لأكثر من عشرين ألف مصلي كما يستدل على ذلك من خلال حوادث ثورة الموصل على واليها محمد بن صول سنة ١٣٣ هـ (٧٥٠م)^(٧) فشيدت في الجامع ضمن ما شيدت في جوامع اخرى في العصر الأموي المقصورة كما اضيفت للمسجد مثذنة اذ وردت روايات عن وجودها في السنة الاولى من الحكم العباسي^(٨).

ولعل اكبر توسيع حصل للجامع خلال العصر العباسي الأول كان على يد الخليفة المهدي^(٩)، مع أن الأزدي لم يعط من التفاصيل الزيادة في المسجد سوى المجنبات والمؤخر والصفاف الدائرة بالصحن^(١٠).

الا أن تلك الزيادة فيما يبدو كانت جزءاً من حركة معمارية شملت جميع اجزاء المسجد اذ لا يمكن التوسع بالصحن مع ابقاء بيت الصلاة على وضعه وخاصة اذا علمنا أن الباب الجنوبي للمسجد وهو الباب المتصل ببيت الصلاة قد هدم خلال هذه الزيادة وبذلك يمكن القول أن اكبر زيادة شهدتها المسجد هي تلك التي تمت على يد المهدي سنة ١٦٧ هـ وعلى الرغم من المكانة السياسية التي تمتعت بها الموصل خلال فترة حكم الاسرة الحمدانية والاسرة العقيلية فإنها شهدت خلال تلك الفترات فيما يبدو، تدهوراً معمارياً كما

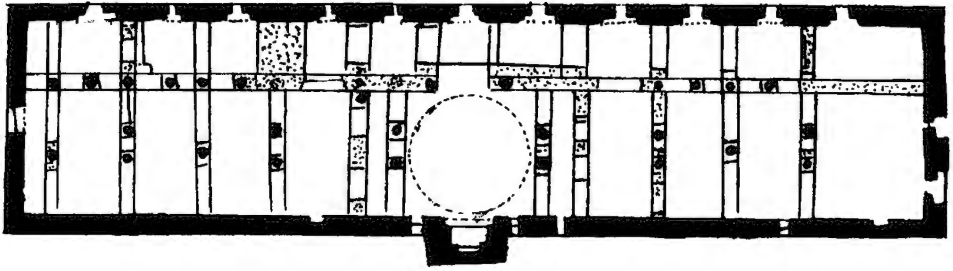
يستدل من وصف ابن حوقل^(١١) وابن الاثير^(١٢) لها، وشهدت المدينة اقصى ازدهار عمراني من تاريخها في عهد حكم الاسرة الاتابكية. ففي هامش كتب على احدى صفحات كتاب صورة الارض سنة ٥٦٠ هـ / ١١٦٤ م يذكر «اما في زماننا هذا فقد عمرت «الموصل» عمارة لم تكن قط مذ أسست، حتى أن العمارة قد استولت عليها ولم يبق بها موضع فامتدت العمارة الى خارج السور وصار في خارجها اسواق وحمامات وفنادق وغير ذلك من المرافق^(١٣) وحظي الجامع باهتمام الاتابكة فجدد بناؤه في عهد سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي وقد وصل النينا من عمليات التجديد هذه محرابه الذي نقل الى الجامع النوري^(١٤) ومع ما قبل من أن عملية تجديد المسجد لم تشمل جميع اجزائه^(١٥) فان توسع المدينة وازدهارها في تلك الفترة مع بقاء المسجد الجامع هو الجامع الوحيد لها يحتم تجديد المسجد بكامل مساحته إن لم يكن توسيعه. إلا أنه مع بناء مسجد جامع آخر وهو الجامع النوري عام ٥٦٨ هـ (١١٧٢م) وثالث خارج الاسوار وهو الجامع المجاهدي عام ٥٧٣ هـ (١١٧٧م) تضاءلت اهمية الجامع الأموي واصبح يعرف بالجامع العتيق، ويبدو أن قسماً من افئته اصبح مقابر تعرف بمقبرة الجامع العتيق. فبدأت تصلنا منذ بداية القرن السابع روايات عن دفن بعض المشاهير في تلك المقبرة فدفن فيها أحد المشاهير سنة ٦٠٩ هـ^(١٦) ودفن آخر سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦م)^(١٧) هذا وإن انشاء الجامعين الجديدين كان يتماشى مع انتقال المراكز السكنية للمدينة نحو جنوبها فانشئ الجامع النوري جنوبي المدينة وأنشئ الجامع المجاهدي في الرض الجنوبي خارج الاسوار، أما الاقسام الشمالية من المدينة فقد حُد من التوسع نحوها وجود الميدان، وهو منطقة عسكرية وكذلك وجود دار الامارة فاصبح الجزء الشمالي من المدينة شبه مهجور بحيث كان الجامع

العتيق ملجأ المتصوفة المتقطعين عن العالم من أواخر القرن السابع الهجري^(١٨).

الجامع النوري : كان الجامع النوري الذي أنشأه نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي عام ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) ثاني مسجد جامع يقام في مدينة الموصل. قبل أن موضعه كان مصلى للنصارى^(١٩) إلا أن هذا يتعارض مع النصوص التي أوردها المؤرخون المعاصرون لبنائه ، إذ كان موضع الجامع خربة واسعة في وسط البلد ، فأشار الشيخ عمر الملا على نور الدين بابتاعها ورفع بنائها جامعاً تقام فيه المَجْمَع والجماعات^(٢٠) . وقيل إن نور الدين ركب بنفسه إلى موضع الجامع فرآه وصعد منارة مسجد أبي حاضر فأشرف منها على موضع الجامع فأمر أن يضاف إلى الأرض التي شاهدها ما يجاورها من الدور والخوانيت وأن لا يؤخذ منها شيء بغير اختيار أصحابه وولى الشيخ عمر عمارته^(٢١) . إن إيراد ذكر مسجد أبي حاضر كنقطة دالة قريبة من الجامع يعطي الدلالة على أن الجامع النوري قد شيد في منطقة توسع المدينة ، إذ يذكر الأزدي في أحداث سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٤ م أن أسواق الموصل كانت حول جامعها وفي سوق الدناخل فنقلها إسماعيل بن علي إلى مقبرة أهل الموصل ونقل المقبرة إلى الصحراء خارج الدروب وابتنى المسجد المعروف بأبي حاضر الذي في وسط الأسواق ، وأبو حاضر مؤذنه وأغما نسب إليه لذلك وتراجع الناس إلى الموصل وأصلح إسماعيل حالها^(٢٢) .

يتفق المؤرخون على تأريخ البدء ببناء الجامع النوري وهو سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م^(٢٣) إلا أن هناك خلافاً على تاريخ الانتهاء من بنائه إذ أورد أبو شامة سنة ٥٧٣ هـ / ١١٧٧ م تاريخاً لأقامة الصلاة فيه^(٢٤) في حين أورد ابن الأثير سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م تاريخاً للفراغ من عمارته^(٢٥) ويبدو أن التاريخ الأخير هو الأصح ، فبعد أن أمر نور الدين

ببناء الجامع عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م عاد إلى الموصل ثانية عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م وصلى في الجامع الذي بناه في وسط البلد وتصدق بمال عظيم.... ويؤكد ابن الأثير هذا التاريخ في كتابه الباهر إذ يقول «حضر نور الدين الموصل.... وسلمت إليه فدخلها ثالث عشر جمادى الأولى من سنة ست وستين وخمسمائة وسكن القلعة وأمر سيف الدين غازي على الموصل..... وأمر ببناء الجامع النوري فبنى وأقيمت الصلاة فيه سنة ثمان وستين وخمسمائة^(٢٦) . ورتب نور الدين محمود في الجامع خطيباً ومدرساً ، إذ كان قد وصل الموصل سنة الفراغ من بناء الجامع الفقيه عماد الدين أبو بكر النوقاتي الشافعي من أصحاب الإمام محمد بن يحيى فسأله أن يكون مدرساً في ذلك الجامع وكتب له به منشوراً^(٢٧) . ولعل هذه الرواية هي التي دفعت بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأن هناك مدرسة مشيدة إلى جانب الجامع ، فقد ذكر الديوهجي أن نور الدين كان قد بنى مدرسة بجامعه مع اعترافه بأنه لم يبق للمدرسة ذكر بعد سقوط الدولة الأتابكية^(٢٨) . في حين أن الرواية لم تشر إلى ذلك ، إذ من المعروف أن التدريس كان يتم على شكل حلقات في الجامع وهو من الأمور الشائعة في ذلك العصر. وكانت كلفة الجامع حسب ما أورده ابن الجوزي ستين ألف دينار^(٢٩) . لابد للباحث في مخطط الجامع وعمارته أن يعتمد على وضعه قبل أن يهدم عام ١٩٣٩ م ليشيد على موضعه الجامع الحالي. ويبدو أن ذلك المخطط يمثل إلى حد كبير المخطط الأصلي للجامع ويتميز تخطيط الجامع بامتداده على طول جدار القبلة إذ يبلغ طوله ٦٥ متراً وعرضه ١٧ متراً تقريباً^(٣٠) (الشكل ١) ويبدو أن هذه المبالغة في زيادة الطول كانت سمة من سمات المساجد التي أنشأها نور الدين محمود إذ نلاحظها كذلك في جامع حماه الذي شيده نور الدين^(٣١) .



المعهد الانابكي
المعهد بعد الانابكي

شكل (١) مخطط الجامع النوري.

الاصلي في المصلى الصيفي^(٣٣). وان هذه الظاهرة المعمارية أي ظاهرة انغلاق بيت الصلاة ميزة تميزت بها جوامع الموصل واستمرت حتى الوقت الحاضر، وربما كان للظروف المناخية دورها في هذا التغير والابتعاد عن تخطيط الجوامع الأولى^(٣٤).

اما من الناحية المعمارية فقد احتوى الجامع على اعمدة رخامية صيغت بأسلوب خاص تميزت بها عمارة الموصل خلال العهد الانابكي وكان شكل هذه الاعمدة العام منشوراً رباعياً مقطعه العرضي بشكل مربع، وزواياه منحنيات، ويتوسط كلاً من اضلاعه اخدود يبرز من وسطه بروز شكل زاوية قائمة (الشكل ٢)، وقد عثر على مثل هذه الاعمدة في مبانٍ أخرى ترجع الى الفترة الانابكية مثل دير مار كوركيس والشيخ فتحي^(٣٥) ولهذا الاسلوب بدايات نفذت على الدعامات المشيدة بالآجر، فهي بذلك تقليد لانصاف الاعمدة القائمة على زوايا الدعامات الآجرية التي كانت بدورها تطويراً للاعمدة الرخامية الدقيقة القائمة على زوايا الدعامات الثمينة في جامع سامراء الكبير. ومن ابرز العناصر الزخرفية التي بقيت من الجامع، الواجهة الجبسية لمحرابه^(٣٦) التي نقلت الى المتحف العراقي. ان مثل هذه الزخارف الدقيقة التي تتضمن أطراً كتابية وزخارف نباتية لم تكن

وكان تخطيط الجامع يتكون من اسكوبين، اسكوب عريض يمتد على طول جدار القبلة بعرض ٨,٧٠ م واسكوب آخر ضيق يمتد موازياً له بعرض ٤ امتار تقريباً ويفصل بين الاسكوبين صف من الاساطين الرخامية وقسم العريض الى مربعات بواسطة اعمدة بشكل صفوف معترضة متعامدة في اتجاهها مع جدار القبلة من هذه المربعات المربعة التي تتقدم المحراب والمغطاة بقبة. اما الاسكوب الشمالي الضيق فقد قسم هو الآخر الى مربعات بعقود معترضة سدت هذه العقود في فترات متأخرة وحولت الى مداخل صغيرة وقد اضاعت تلك الاضافات والتميمات المتكررة اصالة التخطيط وروعته.

ولا يعرف على وجه الدقة إن كان للمسجد جنبات ومؤخر، الا أنه من المؤكد أنه كان يحتوي على مصلى صيفي اذ ان بيت الصلاة لم يكن يفتح على الصحن مباشرة بل هناك جدار تتخلله مداخل في الجانب الشمالي وربما يتقدم هذا الجانب رواق بدلالة العثور على عدد من الاعمدة هناك^(٣٧) فضلاً عن العثور على المحراب الصيفي، وقد كان هذا المحراب محراب المصلى الداخلي الا أنه استعيض عنه بمحراب آخر نقل من الجامع الأموي، مؤرخ من سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م ووضع محراب المصلى

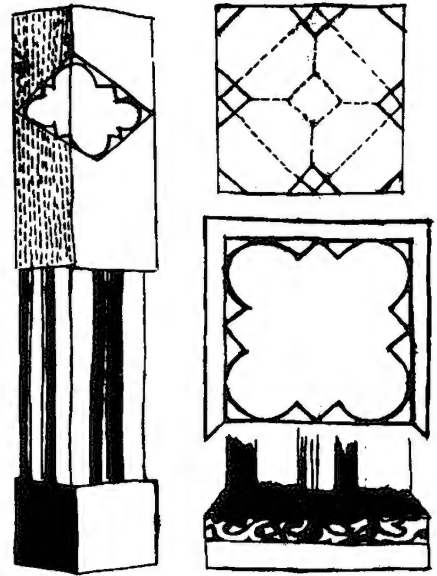
الكثير من العناصر المعمارية والزخرفية التي ظهرت فيها بعد في قباب الموصل.

ففكرة اقامة قبة على مربعة المحراب لم تكن معروفة في الجوامع الاولى في العراق مثل البصرة والكوفة واسط وجامع المنصور وجامع سامراء ، إلا أنها انتشرت آنذاك في بلاد المغرب العربي والاندلس حيث ظهرت في المسجد الجامع بالقيروان وجامع الزيتونة بتونس وفي المسجد الجامع بقرطبة (٣٩) وربما كان ذلك بتأثير من الجامع الأموي بدمشق الذي نلاحظ تأثيراته المعمارية واضحة على تلك المنطقة بصوامعها وقبابه وتخطيطه والكثير من الأمور الزخرفية الأخرى. ومع ذلك يمكننا ان نعد قبة الجامع النوري أقدم قبة قائمة تغطي مربعة المحراب في العراق.

الجامع المجاهدي : شيد هذا الجامع عام ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م بظاهر الموصل بباب الجسر من قبل مجاهد الدين قياز دزدار قلعة الموصل (٤٠) تلبية لاحتياجات المسلمين بعد توسع المدينة خارج اسوارها في الرض الاسفل اذ وصف ابن خلكان التوفى عام ٦٢٦ هـ الموصل فقال : وسورها يشتمل على جامعين تقام فيها الجمعة (٤١) .

ويقصد بهذين الجامعين ، الجامع الأموي والجامع النوري ، اذ اعتبر الجامع المجاهدي خارج اسوارها . وكان الجامع واحداً من عدة مشاريع قام مجاهد الدين بأشائها منها المارستان وجسر على دجلة ومدرسة ورباط ومكتب للايتام وقيسارية (٤٢) . وعرف الجامع في الفترات المتأخرة بجامع الخضر لاعتقاد الناس بوجود مقام الخضر فيه وسمي بالجامع الأحمر نسبة الى لون آجره .

واستمر بناء الجامع أكثر من ثلاث سنوات ، في سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م قارب الجامع الفراغ واقيمت فيه الصلوات الخمس والجمعة (٤٣) ويؤكد رواية ابن الاثير هذه من أن الجامع قد استخدم للصلوة قبل الانتهاء من بنائه تماماً نصاً



شكل (٢) مخطط لاعمدة من الجامع النوري

مقتصرة على الواجهة العليا لجبهة المحراب بل كانت جزءاً من مجموعة زخارف تزين بقية جوانب المحراب وان مثل هذه الزخارف نلاحظها في مواقع أخرى معاصرة مثل الواجهات الداخلية لأواوين دار الملكة الاتابكية وقره سراي (٣٧) فضلاً عن استخدام الجبس في تنفيذ زخارف بعض المحاريب (٣٨) والقباب إلا ان من المعروف أن الجبس يتأثر بعوامل الجو أكثر من غيره من المواد لذلك فان ما وصل الينا منه قليل جداً بالنسبة للزخارف المنقذة على غيره من المواد مثل حجر الكلس ورخام الموصل .

ومن العناصر المعمارية البارزة والاصلية في الجامع النوري هي القبة المغطاة لمربعة محرابه والتي هدمت مع الجامع عام ١٩٣٩ . وتمثل القبة اسلوباً معمارياً فريداً تميزت به عمارة الموصل فهي أقدم قبة مزدوجة وصلت الى عصرنا ، وجمعت هذه القبة

كتاباً نقله الينا نيبور الذي زار الموصل في القرن السابع عشر يشير الى أن الجامع قد اكتمل سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م^(٤٤) (١١٨٠م).

وتعطينا أوصاف الرحالة صورة كاملة عن تاريخه كما تعطينا، فضلاً عن الكتابات الباقية في بعض أجزائه، تصوراً عن المراحل التي مر بها الجامع. ففي سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م أي بعد افتتاح الجامع بقليل زار الموصل الرحالة ابن جبير فقال عنه «وللمدينة روض كبير فيه المساجد والحمامات والخانات والأسواق وأحدث فيه بعض امراء البلدة وكان يعرف بمجاهد الدين جامعاً على شط دجلة ما ارى وضع جامع احفل منه بناء، يقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه، وكل ذلك نقش في الآجر، أما مقصورته فتذكر بمقاصير الجنة ويظف به شبايك حديد تتصل بها مصاطب تشرف على دجلة لامقعد أشرف منها ولا احسن ووصفه يطول انما وقع الالاع بالبعض جرباً الى الاختصار»^(٤٥).

وفي القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي، زار الموصل الرحالة ابن بطوطة ووصف الجامع بعبارات مقتبسة من وصف ابن جبير له^(٤٦) ويستشف من وصفه للجامع أنه كان عامراً بالصلاة ولم يتخرب بعد الغزو المغولي.

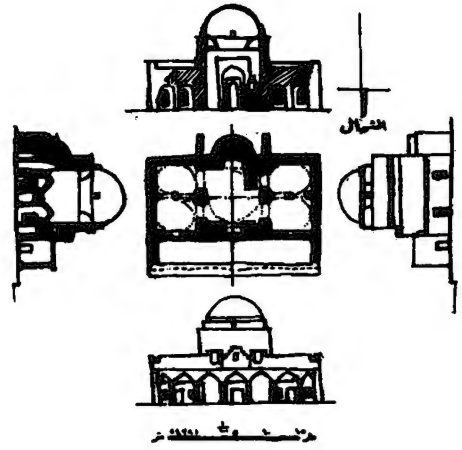
وفي عام ١١٠٥هـ (١٦٩٣م) زار الموصل تيفينوت وذكر الجامع المجاهدي وأبدى دهشته بالآجر المزجج الذي يغطي القبة^(٤٧) ثم مر الجامع بعدد من الترميمات والتجديدات إلا أنه لم تجر أية محاولة فيما يبدو لاعادة بنائه الاصيلي، إذ أن الجامع الحالي اصغر بكثير من الجامع الذي وصفه ابن جبير كما أنه لم يبق من روائعه الاصلية سوى المحراب والقبعة. وأن الترميمات التي تمت على الجامع كانت تهدف للحفاظ على ما تبقى منه بعد تخريبه، فقد جدد حسب أحد النصوص المثبتة فيه الآن سنة ١١٣٩هـ / ١٧٢٦م على يد علي باشا والي الموصل^(٤٨) ولعل هذا أهم تجديد للجامع بعد

هجرانه لفترة طويلة أثر تقلص حجم المدينة خلال الفترة المظلمة من تاريخ العراق. ويبدو أن التجديد قد شمل المنطقة المحيطة بالمحراب وقبة المحراب اي الاجزاء القائمة حالياً من المسجد وربما اجزاء أخرى أوسع، وقد احتفظ الجامع بعد هذا التجديد بالكثير من زخارفه وعناصره الأولى فعندما زار نيبور الموصل عام ١٧٦٦ شاهد زخارف وكتابات مرسومة على القبة من الداخل كما شاهد نص اتمام البناء وهو سنة ٥٧٦هـ / ١١٨٠م اذ يقول «وفي هذا الجامع كتابات كثيرة ومن ضمنها كتابات بالخط العربي المألوف اليوم وجميعها آيات من القرآن الكريم. وهذه الكتابات والنقوش الكتابية والتي تمثل أوراق الكرم والتزيينات الأخرى التي تغطي جدران الجامع قد عملت من الجص بطريقة جميلة جداً قلما يجد مثلاً المرء في هذه البلاد»^(٤٩).

ثم جرت بعد ذلك ترميمات عديدة لم تكن سوى محاولات للاحتفاظ بما بقي من الجامع مع ذلك فإن تلك المحاولات لم تفلح حيث أن الجامع بهيمته التي وصل بها الينا يختلف عن وضعه من خلال وصف ابن جبير ونيبور اذ كان بناؤه يمتد الى النهر بل وأن النهر قد جرف الكثير من اجزائه^(٥٠) حيث جرى تجديد له عام ١٢٠٧هـ / ١٧٩٢م^(٥١) وآخر عام ١٣١٩هـ / ١٩٠١م^(٥٢)، مع ذلك فان فترات الهجران التي تعرض لها الجامع والتجديدات قد ابقّت لنا شيئاً من معالمه الاصلية اذ لازال الجامع يحتفظ بجزء من جدار القبلة والمحراب وقبة المحراب بجواملها وجدرانها. وما تبقى من الجامع صغير نسبياً يتكون من بيت للصلاة يتقدمه رواق. يبلغ طول بيت الصلاة ٢٥ متراً وعرضه ١٠،١٥ متراً تقريباً^(٥٣). ويتكون من اسكوبين وثلاث بلاطات (الشكل ٣) تعترض البلاطة الوسطى وهي بلاطة المحراب الاسكوبين لتشكل قاعدة مربعة تقريباً ملائمة لاقامة القبة عليها.

أما القبة فانها تغطي مربعة المحراب شأنها في ذلك شأن قبة الجامع النوري . إلا أن الانتقال من القاعدة المربعة الى المئمنة يتم بواسطة اربع طاقات ركنية ، ويتخذ المقطع الرأسي للقبة شكل عقد مدبب منفرج وتعتبر هذه القبة اقدم القباب القائمة والمشيده على مربعة المحراب في العراق (٥٤) .

وقد حاول بعضهم تجريد هذا العنصر من اصلاته فنسب بناء القبة في تاريخ متأخر الى أحد أثرياء الموصل ويدعى ابن أسد وكانت هذه الدعوى نقلاً عن بعض شيوخ المدينة وللاعتقاد باختلاف طرز بناء الجامع عن الابنية الباقية من



شكل (٣) مخطط ومقاطع للجامع المجاهدي

العهد الاتابكي في الموصل واستناداً الى الشكل الخارجي للقبة (٥٥) . في حين ان من المعروف أن ليس هناك نمط أو طراز موحد لأبنية الموصل أو قبابها ، فهي تختلف بعضها عن بعض خاصة في مظهرها الخارجي . ولا نجد قبتين متشابهتين بالمظهر الخارجي عدا قبة الجامع المجاهدي والمدرسة الكالية التي سنأتي على ذكرها في الصفحات التالية (٥٦) مما يؤكد نسبتها الى فترة التأسيس .

ويعد محراب الجامع ، وهو الآخر من العناصر الاصلية في البناء من اكبر محاربي الموصل على الرغم من اعتقاد بعضهم أن قسمه العلوي فقط يرجع الى الفترة الاتابكية (٥٧) . ويمتاز بزخارفه الجسيمة الفريدة .

الى جانب هذه المساجد الجامعة الثلاثة ورد ذكر الكثير من المساجد لم يبق من آثارها شيء أو بقيت منها أمور لا يستدل من خلالها على حقيقة معالمها الاصلية مثل مسجد ابني خاضر ومسجد الخلال ومسجد خزرج ومسجد سعيد بن عبد الملك ومسجد ثقيف ومسجد جابر بن جبلة ومسجد باب سنجار وغيرها .

ويبدو من خلال تفحص التخطيط وبناءه أن مربعة المحراب هي الجزء الوحيد من بناء مجاهد الدين وجاءت بقية الاجزاء بما فيها الرواق الامامي نتيجة الترميمات والتجديدات اللاحقة اذ استخدم الرخام في بناء عقود جميع هذه الوحدات عدا عقود مربعة المحراب وان هذه الظاهرة المعارية لم تكن شائعة في الفترة الاتابكية بل نشأت بعد تلك الفترة ، والاسلوب الشائع في تلك الفترة هو اقامة العقود بالآجر أو الحجارة والجص على قالب خشبي ، اما عن شكل عقود الجامع المجاهدي سواء كانت الاصلية أو المضافة فانها مدببة منفرجة منازرة لمقطع القبة .

ومن الخصائص المعارية التي نلاحظها في هذا الجامع استخدام الاكتاف بدلاً من الاعمدة والأساطين . والاكتاف كتل ذات مقطع مستطيل أو مربع مشيدة بالآجر أو الحجارة والجص لتحمل العقود وهي ظاهرة امتازت بها العمارة العراقية في العصور القديمة واستمرت خلال العصر الاسلامي .

العراق فانه كان للموصل خصوصيتها في بناء المآذن وزخرفتها.

امتازت مآذن منطقة الموصل بارتفاعها الشاهق، هذا إذا أخذنا مثذنة الجامع النوري نموذجاً لها والتي يبلغ ارتفاعها مع القاعدة ٥٥ متراً^(٥٩). وتعد مثذنة سنجار اقدم نماذج القائمة في العراق ذات الابدان الاسطوانية حيث ان معظم المآذن التي وصلت الينا بعدها كانت بذلك الطراز بحيث اعتقد بعضهم بأنه اصبح منذ ذلك التاريخ الطابع المميز للمآذن العراقية هو البدن الاسطواني^(٦٠).

شيدت هذه المثذنة طبقاً للكتابة الباقية عليها سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٣ م ويبلغ ارتفاع الجزء الباقي منها اثني عشر متراً تقريباً ويتكون من جزئين قاعدة مثمنة يبلغ ارتفاعها سبعة امتار يعلوها البدن الاسطواني ويتخلل هذا البدن سلم حلزوني يبدأ من خلال مدخل في قاعدة البدن الاسطواني وقد اعتمد الآجر الخالي من الكساء الجصي وسيلة لتزيين الاجزاء الظاهرية من المثذنة اذ يكسوكل من الجوانب الثمانية غير المتصلة ببناء الجامع طاقة صماء استخدمت فيها الزخارف الآجرية ويعلو القاعدة المثمنة مقرنصات آجرية تبرز نحو الخارج لتشكل في اعلاها مراً يؤدي الى سلم المثذنة الحلزوني.

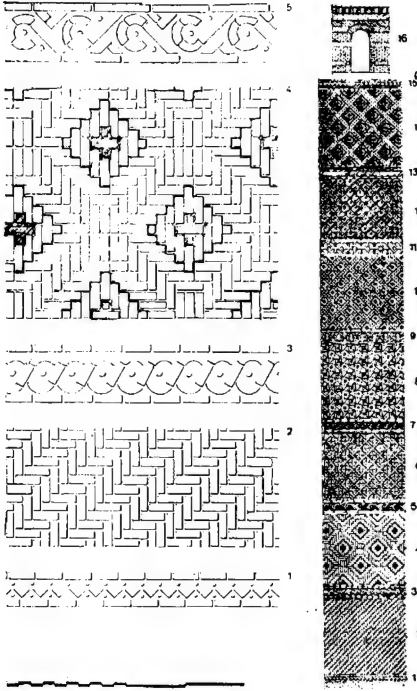
واستخدم الآجر ايضاً في تزيين بدن المثذنة ويبدو أن زخارفها كانت مشابهة الى حد ما لزخارف مثذنة الجامع النوري أي أنها كانت مكونة من عدة أنطقة زخرفية تفصل بعضها عن بعض افاريز زخرفية ضيقة ويظهر التطور في هذا النمط من المآذن في مثذنة الجامع النوري بالموصل التي شيدت مع الجامع عام ٥٦٨ هـ / ١١٧٣ م.

تتكون مثذنة الجامع النوري من قسمين: قاعدة منشورية مربعة شيد الجزء السفلي منها

اختلفت المآذن في اشكالها وطرزها باختلاف الاقاليم الاسلامية بين الصوامع المربعة لسوريا وشمال افريقيا، ومآذن مصر، ومآذن تركيا والمشرق ذات البدن الاسطواني المستدق^(٥٨).

اما في العراق فنلاحظ تنوعاً في أشكال المآذن منها الملوية والمثمنة والاسطوانية، وكانت المآذن ذات البدن الاسطواني المنتظم هي الاكثر شيوعاً. وكانت مآذن الموصل من هذا الطراز، مع ذلك فقد كان لها رغم قلة نماذجها خصائصها التمييزية. كان الآجر المادة الاساسية في تشييد مآذن الموصل خلال الفترة الاتابكية وهي الفترة التي ترجع اليها أقدم المآذن الباقية في منطقة الموصل. ولم يكن الآجر المادة الاساسية للبناء في منطقة الموصل، ولكن كان له استخدامات خاصة وذلك لطبيعته التي يمكن تلخيصها بما يأتي :

- ١- خفة الوزن التي تجعل منه مادة مناسبة لتشييد الاجزاء العليا من الأبنية، لذلك استخدم في اقامة العقود والقباب والمآذن.
 - ٢- امكان قبولية الآجر بالشكل وبالبحجم المطلوب بحيث يمكن استخدامه في بناء أدق الامور المعمارية من اعمدة وتيجان وعقود ومقرنصات، وهذا يعني امكان استخدامه للمنحنيات والتقرعات. ثم لاقامة القباب والمآذن والقبوات وغيرها.
 - ٣- سهولة الحفر على الآجر مما يجعل منه مادة مناسبة لتغطية المسطحات وتنفيذ الاشرطة الكتابية والافاريز الزخرفية الدقيقة فضلاً عن طواعيته من هذه الناحية في الأمور المعمارية.
- لهذه الاسباب كلها نلاحظ استخداماً فريداً للآجر في بناء المآذن ورغم أن هذه الصفات للآجر هي صفات عامة للعراق كله ورغم أن الآجر هو المادة الاساسية في البناء في القسم الجنوبي من



شكل (٤) تفاصيل لمثدنة الجامع النوري تقلدً عن عيسى سلمان وآخرين.

والواقع قرب النهاية الغربية للجسر الحديدي ومثدنة جامع الجويجي قبل هدمها والتي شيدت سنة ١١٠٧ هـ / ١٦٩٥ م والتي كانت تزينها زخارف آجرية نائنة^(١١) ومثدنة جامع العمرية^(١٢) في منطقة باب البيض التي شيدت كجزء من جامع سنة ٩٧٠ هـ / ١٥٥٩ م.

دور الامارة :

شيدت أول دار اامارة في الموصل بعد تحريرها عام ١٧ هـ / ٦٣٨ م الى جانب المسجد الجامع^(١٣) جرياً على اسلوب المسلمين في تخطيط المدن. اذ كان هذا المجمع من المسجد الجامع ودار الامارة يشكل نواة المدينة، وغالباً ماكان يتوسطها، تحيط به الاسواق والسكك والقطائع استناداً الى

بالحجارة والجص والعلوي بالآجر. أما القسم الثاني فهو البدن الاسطواني الذي يبلغ قطره ٥,٢٤ م يعلوه رقبة تنتهي برأس نصف كروي متوج بالهلل، ويبدو أن هذا الجزء قد تهدم واعيد بناؤه اكثر من مرة. وكان للمثدنة سلّان لا يلتقيان الا في شرفتها العليا. يبدأ السلّان من اول القاعدة المنشورية ويلتقي بأحدهما منفذ آخر يبدأ من منتصف القاعدة تقريباً وهي صفة غريبة في تشييد المآذن.

ولعل ابرز ما في هذه المثلثة اسلوب الزخارف الآجرية المغطية للبدن. والجزء العلوي من القاعدة المنشورية، اذ اعتمد الفنان على الاختلاف في رصف الآجر، بوضعه ومستوياته ليحصل على القمط الزخرفي لكل من الانطقة السبعة للبدن والوجوه الاربعة للقاعدة المنشورية (الشكل ٤) فاختلف رصف الآجر بين الافقي والقائم والمائل كما اختلفت مستويات الرصف بين السطحي والعميق والأعمق فاصبحت هناك عدة مستويات لتضفي من خلال الظلال اشكالها الزخرفية المختلفة.

والى الفترة الاتاكية ذاتها ترجع الزخارف الآجرية لمثدنة الجامع الأموي التي كانت تغطيها زخارف آجرية بنفس القمط الذي تغطي مثدنة الجامع النوري ومثدنة سنجار، إلا أن آجر تلك الزخارف قد اقتلع من قبل وحدات الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الأولى^(١٤).

وكان لهذا القمط من المآذن تأثيره على المآذن المعاصرة ولللاحقة في الموصل والمناطق المجاورة لها، وظهر هذا التأثير واضحاً في مثدنة اربيل التي شيدها مظفر الدين كوكبري جزءاً من جامع مهدم لم يبق منه سوى المثلثة^(١٥). ومن المعروف أن مظفر الدين كوكبري حكم اربيل في الفترة من ٥٨٠ هـ وحتى ٦٣٠ هـ. كذلك نلاحظ تأثيراته واضحة على بعض مآذن الموصل المتأخرة مثل مثدنة جامع الاغوات^(١٦) الذي شيد سنة ١١١٢ هـ / ١٧٠٣ م

الانتفاءات القبلية^(٧٧). وقد شيدت تلك الدار من قبل عتبة بن فرقد السلمي، وحين تولّى عرفة بن هرثة الباقى اماره الموصل سنة ٢٢هـ / ٦٤٢م قام بتوسيع المسجد ودار الامارة^(٧٨) ويبدو أن دار الامارة بقيت في موضعها من المسجد أي في الجانب القبلي من الجامع محاطة بالاسواق طيلة العصر الراشدي ومعظم العصر الأموي، اذ سكنها محمد بن مروان ووسعها حين تولّى الموصل من قبل اخيه عبد الملك بن مروان^(٧٩). وحين تولّى الحروب يوسف الموصل سنة ١٠٦هـ / ٧٢٤م بنى فيها داراً عرفت بالمنقوشة اتخذها دار اماره ومسكناً له ولاسرتة^(٨٠) ويبدو أن المنقوشة كانت دار اماره مؤقتة استخدمت في ولاية الحر بن يوسف وربما عادّ الولاة بعده الى دار الامارة القديمة قرب المسجد الجامع، اذ أن اولاد الحر بن يوسف استمروا في سكنى المنقوشة حتى سنة ١٣٥هـ / ٧٥٢م حين اخرجهم منها اسماعيل بن علي العباسي^(٨١) وقد بقيت هذه الدار حتى عهد ابن الاثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ اذ قال عنها «اما الان فهي تجاور سوق الاربعاء»^(٨٢) ولا تتوفر لدينا أية معلومات عن التفاصيل المعمارية لدور الامارة في العصر الأموي أو بداية العصر العباسي. بل ويسود الغموض دار الامارة وموقعها خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة رغم معرفتنا أن الحمدانيين شيّدوا دار اماره خاصة بهم^(٨٣) ولا بد انه كان لدار الامارة خلال تلك الفترة والفترة العقلية... اهمية خاصة مادام بالموصل «مسكن سلطان الجزيرة ودواوينها ومجتمعي اموالها وارتفاعها»^(٨٤).

ونلاحظ بعض الاريك في تعدد المباني التي يمكن أن تكون دار أماره ومواضعها في نص لابن الاثير اذ نقل لنا رواية عن والده يصف فيها اوضاع مدينة الموصل وخرابها خلال السنين الأولى لتولية عماد الدين زنكي لأمرها سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م فيقول «رأيت الموصل التي هي أم البلاد في أول

أيام الشهيد وأكثرها خراب. فكان الخراب من حلة الطبايين الى القلعة والى دور السلطنة..... وكان الجامع العتيق ايضاً بلا عمارة البتة. وكانت جميع اعمال المحال المجاورة للسور من سائر جهاته غير معمورة، وكان ادنى العمارة من السور ما يكون رمية حجر. وكان الناس لا يقدرّون على المشي الى الجامع غير يوم الجمعة لبعده عن العمارة، وأول من بنى بالقرب من دار المملكة الأمير ناصر الدين كوري بن جكروش فانه طلب من الشهيد أن يأذن له لبني داراً قريباً من خدمته فأجابه الى ذلك، وأمره أن يبني بمكان يكون بينه وبين القلعة مقدار حجر المنجنيق فبنى داره الأولى.... ثم بنى بعد ذلك داره الأخرى أقرب الى دار المملكة... فلما طالت الأيام الشهيدة وحسن البلاد ومنع المفسدين وكف ايدي الأقوياء، سارت سيرته في البلاد فقصده الناس واتخذوا بلاده داراً.... فلم تزل العمارة تكثر بالموصل وغيرها حتى لقد ذهب كثير من المقابر وبنيت دوراً وهو الذي أمر ببناء دور المملكة ولم يكن بها للسلطان غير الدار المعروفة بدار الملك مقابل الميدان فبنى هذه الدور جميعها^(٨٥). وهذا يمكننا أن نميز من هذا النص دور السلطنة ودار المملكة ودور المملكة والقلعة ودار الملك ولم يبقَ من هذه المباني شيء ولا تعرف مواضعها على وجه الدقة عدا دور المملكة أو دار المملكة المعروفة بقاياها اليوم بـ «قره سراي» والتي أمر ببنائها عماد الدين زنكي وأن ما تبقى من هذه الدار لا يمثل إلا جزء ضئيل من الاصل. اذ يبدو أنها كانت تشغل مساحة واسعة جداً، فحين شيد عز الدين مسعود مدرسته المعروفة بالعرية كانت مقابل دار المملكة^(٨٦) والمعروف أن بقايا هذه المدرسة تتمثل بمقام الامام عبد الرحمن^(٨٧) الواقع على مسافة تزيد عن ١٠٠ متر عن بقايا دار المملكة الآن.

يرد اسم بدر الدين لؤلؤ في أكثر من موضع على بقايا دار المملكة مع تاريخ بنائه للدار وهو سنة

٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م مما أوحى لبعضهم أنه هو الذي أنشأها^(٧٨) إلا أنه يمكن القول أن دار المملكة التي أنشأها عماد الدين زنكي توسعت على يد الأتابكة فكان كل منهم يضيف بناء فيها فتحول اسمها الى دور المملكة بدلاً من دار المملكة. وكانت الدار التي أنشأها بدر الدين لؤلؤ والمتثلة ببقاياها اليوم هي آخر تلك الدور، وربما كان قد أنشأها على انقاض أحد دور المملكة السابقة أو في ارض خالية من البناء، اذ يرد اسمه في نصين كتابيين مازالا قائمين على البناء، الأول على الواجهة المطلقة على النهر والمشيدة بالحجارة الهندمة، والنص الثاني ضمن شريط منفذ بالجبس في احد الايوانين الباقين. ويتضمن النص الأول تاريخ البناء وهو سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م. وعلى الرغم من ان ما تبقى من البناء لا يمثل الا جزء صغير من الاصل فانه يعطي بعض المدلولات عن طبيعة عمارة دار المملكة وكذلك عن العمارة في الموصل مادامت ببقاياها تعد من النماذج النادرة الباقية من فترة الحكم الأتابكي. اذ يبدو أن استخدام الزخارف الجصية النافرة كان من الامور الشائعة في ابنية الموصل الفخمة، الا ان قابلية مثل هذه الزخارف للتلف أدت الى عدم معرفتنا بالكثير من نماذجها الاصلية. كما ان وجود ايوانين وبقايا ايوان ثالث متصل بها من جهة الشمال يدل على كثرة استخدام عنصر الايوان في عمارة الموصل بل وان اختيار موضع الايوان الثلاثة في افضل بقعة من القصر، وهي المنطقة المطلقة على النهر، يعطي التصور بأن عنصر الايوان كان ابرز وحدة من وحدات العمارة خاصة وان عنصر الايوان كان حتى الاربعينات من هذا القرن ابرز جزء في عمارة الموصل والمنطقة المحيطة بها بل، وان الدلائل تشير الى أن نشأة الايوان كانت في هذه المنطقة^(٧٩).

المدارس:

شهدت منطقة الموصل منذ أواخر القرن

الخامس الهجري وحتى منتصف القرن السابع نشاطاً متميزاً في بناء المدارس شأنها في ذلك شأن بقية اجزاء المشرق الاسلامي. فقد وردت خلال هذه الفترة روايات عن وجود تسعة عشر مدرسة لم يصل اليها إلا القليل من بقايا بعضها، ويمثل الجدول رقم (١)^(٨٠) المدارس التي ورد ذكرها في المصادر التاريخية وكتب الوفيات ومؤسستها وتواريخ بنائها والمذاهب التي درست فيها واطرافها الحالية.

عند استعراضنا لهذه المدارس نلاحظ أن ما وصل اليها من بقاياها لا يكفي على الاطلاق لاعطاء صورة عن تخطيط المدارس في الموصل كما أن الروايات التاريخية لاتسعدنا بمعلومات عن التفاصيل المعمارية للمدارس وان ما يمكن أن نستنتج من هذه النصوص هي أمور يسيرة كاختيار موقع المدارس وبعض المعلومات عن سعتها والغرض من بناء بعض وحداتها. اذ يبدو أن شاطي النهر كان المكان المفضل لبناء المدارس، حيث يذكر ابن جبير في زيارته للموصل عام ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م هذه المدارس بقوله «وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة فتلوح كأنها القصور المشرفة»^(٨١) ويبدو أن أقدم هذه المدارس كانت، المدرسة الأتابكية العتيقة^(٨٢) والمدرسة الكمالية^(٨٣) والمدرسة المجاهدية^(٨٤) والمدرسة البرسقية^(٨٥) يضاف لذلك المدارس التي انشئت بعد زيارة ابن جبير مثل المدرسة البدرية^(٨٦) والمدرسة اليوسفية^(٨٧).

كذلك يبدو من خلال بعض النصوص أن لبناء المدارس تصميمًا خاصاً يختلف عن غيره من المباني العامة الأخرى رغم أن بعض المدارس اتخذت من دور سكن قديمة كمدرسة ام الملك الصالح^(٨٨). اذ يذكر ابن خلكان مسجد الأمير زين الدين صاحب اربيل فيقول: «وهذا المسجد رأيته وهو على وضع المدرسة وتعرف بالمدرسة الكمالية»^(٨٩) ومن المعروف أن المدارس في المشرق الاسلامي مهما اختلفت مواطنها فإنها كانت ذات

جدول رقم (١)

| اسم المدرسة | مؤسسا | سنة التأسيس | المذهب الفقهي | الملاحظات . |
|---------------------|---|----------------------------------|------------------|---------------------------------------|
| ١ النظامية | نظام الملك | قبل سنة ٤٨٥ هـ | الشافعي | ربما كان موضعها مزار علي الاصغر |
| ٢ الانابكية العتيقة | سيف الدين غازي | قبل ٥٤٤ هـ | الشافعي والحنبلي | مندثرة |
| ٣ الككالية | زين الدين علي بن بكتكين | قبل سنة ٥٦٣ هـ | الشافعي | تعرف بجامعة شبح الشط |
| ٤ الزينية | زين الدين علي بن بكتكين | قبل سنة ٥٦٣ هـ | الشافعي | مندثرة |
| ٥ الككالية القضيوية | كمال الدين الشهرزوري | قبل سنة ٥٧٢ هـ | الشافعي | مندثرة |
| ٦ ابن الشيرجي | الامير عز الدين | قبل سنة ٥٧٤ هـ | الشافعي | مندثرة |
| ٧ المجاهدية | مجاهد الدين قباذ | بحدود ٥٧٥ هـ | ؟ | مندثرة |
| ٨ ام الملك الصالح | زوجة نور الدين محمود | اواخر القرن السادس | ؟ | مندثرة |
| ٩ المهاجرة | علوان بن مهاجر | بعد ٥٨٥ هـ | الشافعي | مندثرة |
| ١٠ العزرة | عز الدين مسعود بن مودود | ٥٧٦ - ٥٨٩ هـ | الشافعي والحنبلي | بقي منها تربة عز الدين |
| ١١ النورية | نور الدين ارسلان شاه | ٥٨٩ - ٦٠٧ هـ | الشافعي | بقي منها تربة المؤسس |
| ١٢ النيسبية | ؟ | اواخر القرن السادس | الشافعي | مندثرة |
| ١٣ العلائية | ربما علاء الدين خرمشاه ابن عز الدين مسعود | بداية القرن السابع | ؟ | مندثرة |
| ١٤ القاهرية | عز الدين مسعود الثاني ابن نورالدين ارسلان شاه | ٦٠٧ - ٦١٥ هـ | الشافعي | مندثرة |
| ١٥ العمادية | ؟ | ربما بداية القرن السابع | ؟ | مندثرة |
| ١٦ الفخرية | ؟ | كانت قائمة في بداية القرن السابع | ؟ | مندثرة |
| ١٧ البدرية | بدر الدين لؤلؤ | قبل سنة ٦١٥ هـ | ؟ | بقي جزء منها يمثل مشهد يحيى بن القاسم |
| ١٨ أبناء بلدجي | محمود بن مودود بن بلدجي | قبل ٦٢٣ هـ | الحنبلي | مندثرة |
| ١٩ اليوسفية | آق سقر البرستي | ٥١٥ - ٥٢٠ هـ | ؟ | مندثرة |
| ٢٠ اليوسفية | ؟ | منتصف القرن السابع | الحنبلي | مندثرة |

الطلبة وقاعات الدرس والمسجد ، ويختلف وضع كل من هذه الوحدات من قطر اسلامي لآخر فالمسجد في مدارس بغداد كان يشغل جزءاً من

تصميم عام متقارب ، فإذا اخذنا المدارس في بغداد وفي بلاد الشام وفي مصر لوجدنا أن المدرسة بوجه عام تحتوي على فناء تنتظم حوله الأواوين وغرف

الجانب القبلي ويفتح على الصحن بياضكة ذات ثلاثة عقود ترتكز على دعائم كما هو الحال في المدرسة المستنصرية والمدرسة الشراية^(٩٠) وكذلك في المدارس السورية، فالسجود يشغل الجانب القبلي برمته ويفتح على الصحن بياضكة ذات ثلاثة عقود عموماً وخمسة عقود أحياناً^(٩١) أما عن الأواوين وتوزيعها فنلاحظ أن بعض المؤرخين يقرن عدد الأواوين بعدد المذاهب، فيفترض وجود أربعة أواوين في المدرسة المستنصرية ببغداد لأنها خصصت للمذاهب الفقهية^(٩٢) كما يفترض بعض المؤرخين وجود ايوان واحد في المدرسة الشراية التي انشئت للمذهب الشافعي على الرغم من عدم ملاحظتنا لمثل هذا التطابق بين عدد الأواوين وعدد المذاهب في المدارس الباقية في بغداد.

أما في مصر فقد احتوت مدارس العصر الأموي على أباوين تطورت فيما بعد إلى التخطيط المتقاطع ذي الأواوين الأربعة في العهد المملوكي^(٩٣). وظهر الايوان في المدرسة السورية دون وجود علاقة بعدد المذاهب التي شيدت المدارس من أجلها، فهناك مدارس كرسى لمذهبين ولم نجد فيها أكثر من ايوان واحد مثل المدرسة السلطانية بحلب^(٩٤) كما أن هناك مدارس للمذهب واحد واحتوت على أكثر من ايوان مثل المدرسة النورية والمدرسة العادلية بدمشق^(٩٥).

وهذا يمكن القول إن الايوان عنصر معماري استخدم بكثرة في العمارة الإسلامية ولم يكن ذا غرض محدد، فقد ظهر في المساجد والمدارس والقصور والربط والخانات كما استخدم في دور السكن واستمر استخدامه في دور السكن في الموصل والقرى المحيطة بها حتى منتصف القرن الحالي وارتبط اختفاؤه بانتشار استخدام مادة السمنت.

ومن العناصر المعمارية الأخرى التي استخدمت بالمدارس، الغرفات والحجرات وهو عنصر استخدم هو الآخر في جميع المباني العامة والخاصة عدا المساجد. أما في المدارس فقد كان يظهر في بعضها

وينعدم في بعض آخر، وذلك استناداً إلى طبيعة الوقف المخصص للمدرسة وحجمها ونظامها. فنلاحظ في المدرسة المستنصرية في بغداد غرفات وحجرات تكني لإيواء العدد المحدد للدراسة فيها وهم ستون لكل مذهب عدا طلبة الحديث ودار القرآن وربما الطب كذلك نلاحظ كفاية الغرفات والحجرات في المدرسة الشراية في بغداد للعدد المحدد من الطلبة.

أما في سوريا فنلاحظ أن بعض المدارس كانت تحتوي على غرفات وحجرات مثل المدرسة السلطانية بحلب^(٩٦) التي كانت مخصصة للمذهب الشافعي، إلا أن معظم المدارس السورية خاصة تلك التي في دمشق لم تظهر فيها الغرف لسكنى الطلبة والفقهاء فبعضها كانت مجرد مدارس صغيرة انشئت حول ضريح مؤسسها لوضع الضريح وسط أجواء قراءات القرآن وهناك مدارس أخرى متكاملة إلا أنها تخلو من غرف سكنى الطلبة والفقهاء^(٩٧).

أما في الموصل فمع كثرة ماورد إلينا من نصوص عن إنشاء مدارس فيها فإن التفاصيل عن وحداتها كانت محدودة، كما أن بقاياها لم تسعفنا هي الأخرى بالمعلومات المطلوبة عن شكل المدرسة ومحتوياتها ومع ذلك فقد وردت إشارات إلى سكنى الشيوخ في بعض المدارس^(٩٨) مما يوحي بوجود غرف خاصة في بنائها، فضلاً عن أن تحديد عدد الفقهاء وتخصيص الأوقاف لهم في بعض المدارس مثل المدرسة النورية يوحي بأن المدرسة قد احتوت على عدد كافٍ من الغرف والحجرات لسكنائهم، فيذكر أن نور الدين أرسلان شاه شيد في الموصل مدرسة وصفت بأنها من أحسن المدارس، ووقف عليها الوقوف الكثيرة وجعلها وقفاً على ستين فقيهاً من الشافعية^(٩٩) ولحققت بالكثير من المدارس ترب مؤسسها، وهذه التربة هي الجزء الباقي من تلك المدارس بحيث كان يعين في بعض المدارس قارئ للقرآن الكريم ليقراً على تربة المؤسس إضافة إلى قراءته القرآن عند استهلال الدروس والانتهاؤ

منها^(١٠٠).

لوح حجري يذكر سنة ١٤٧٥ يونانية (١١٦٤م/ ٥٥٩هـ)^(١٠١) يؤكد ذلك العناصر الممارية والزخرفية وخاصة الزخارف الرخامية المستخدمة في بناء الدير والمشابهة الى حد بعيد لتلك التي استخدمت في منطقة الموصل خلال العصر الأتابكي.

وجد عنصر القبة في الغرفة رقم ٤ في المخطط ٥ حيث سقت الغرفة بقبة وترية مرتكزة على قاعدة دائرية مسننة تنظمها ست عشرة حنية، ويتم الانتقال من القاعدة المربعة الى القاعدة الدائرية هذه بمجاميع من مقرنصات جسيبة ذات اشكال هندسية نجمية، أو مربعة أو معينة، وزينت المسطحات السفلى بزخارف بارزة من عناصر نباتية وكتابات لونت بلونين الأبيض والأزرق بعضها عربي وبعضها بالخط المعروف بالسطرنجيلي. وتذكر هذه الكتابات ادعية مثل «بالشكر تدمم النعم» أو أسماء القائمين بالبناء^(١٠٧) أما القبة ذاتها فيشكلها هيكل من أوتار تنطلق من مواضع التقاء الحنيات وتلتقي حول مركز القبة بحيث تشكل من التقائها نجمة ذات ستة عشر رأساً، وتكون هذه الأوتار الهيكل العام للقبة بحيث تركت التجاويف المحصورة بين الأوتار مفتوحة أحياناً دون أن يؤثر على بنائها، وبهذا يمكن القول إن هذه القبة تمثل أقدم القباب من هذا الطراز في العراق.

وهناك قبة أخرى من هذا الطراز تغطي الغرفة رقم ٦ في المخطط ٥ وهذه الغرفة مستطيلة يتوسط ضلعها الشرقي حنية الكنيسة، وقد سقت الحنية بنصف قبة كما سقت نهايتا الغرفة المستطيلة بقبوات نصف اسطوانية مدببة بحيث تشكل واجهات القبوتين وواجهة نصف القبة مع الجدار الغربي للغرفة فسحة مربعة وهي التي غطيت بالقبة. وتميزت هذه القبة بارتفاعها الذي يصل الى ١١,٣٠م^(١٠٨) اذ يعلو قمم القبوات ونصف القبة جدار يزيد ارتفاعه عن متر، يشكل القاعدة المربعة التي تستند عليها منطقة الانتقال، وتتكون منطقة الانتقال من القاعدة المربعة الى المثلثة من ثمانية

ويبدو أن شيوخ المدارس الاكفاء كانوا قلة بحيث ماأن يصل احدهم مدينة حتى ينشئ واليها له مدرسة، فقد شيد نورالدين محمود المدارس لابن الشيرجي بحلب وحماه وحمص وبعلي^(١٠١) كما وعد نورالدين ارسلان شاه أبا المعالي المعروف بالظهير ببناء مدرسة له^(١٠٢) وقد يعين شيخ للتدريس في جامع فحين اكتمل بناء الجامع النوري عام ٥٦٨هـ / ١١٧٢م وفد الموصل في تلك السنة الفقيه عبادالدين ابوبكر النوقاني فسأله نورالدين أن يكون مدرساً في ذلك الجامع وكتب له به منشوراً^(١٠٣).

القباب :-

على الرغم من أن عنصر القبة هو أكثر العناصر الممارية عرضة للتهدم والاندثار فإن ماوصل الينا من القباب أكثر من العناصر الأخرى، وهذا يرجع فيما نعتقد الى سبب رئيس يرتبط بالغرض من استخدامها اذ أن عنصر القبة استخدم جزءاً من تربة أو مسجد أو مشهد، ولهذا الأمور حرمة في نظر الناس تمنعهم من التجاوز عليها. ومع ذلك فإن أقدم القباب القائمة التي وصلت الينا من منطقة الموصل يرجع الى القرن السادس الهجري. ولنستعرض القباب القائمة في منطقة الموصل حسب تسلسلها التاريخي وحتى منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي مع البحث في تفاصيل طرزها والأهمية التاريخية لتلك الطرز.

قباب دير مار بهنام :

لايعرف بالضبط تاريخ انشاء الدير لأول مرة ولكن من المؤكد أنه شيد قبل الاسلام على الرغم من أن الشاشتي^(١٠٤) الذي عاش في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، والذي ذكر الديارات القريبة من الموصل لم يتطرق الى وجوده، إلا أن المبنى القائم حالياً والقباب موضوع البحث قد شيدت فيما يبدو خلال القرن الثاني عشر الميلادي^(١٠٥). ويحدد انشاء الدير نص كتابي على

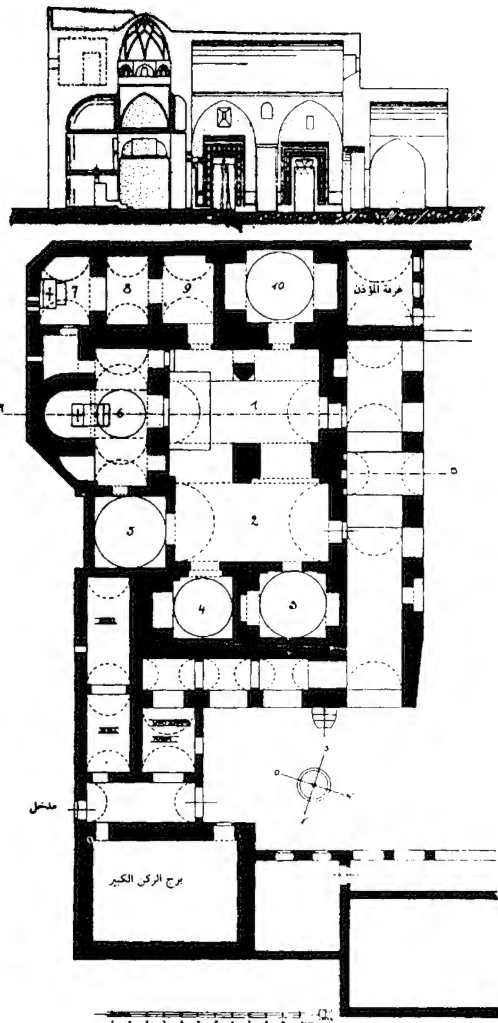
الغرفة رقم ٤ المذكورة آنفاً من حيث احتوائها على أوتار تشكل الهيكل العام للقبة إلا أنها أقل تعقيداً منها كما أن الثقل الكلي يتركز على قم العقود الثمانية المكونة لمنطقة الانتقال حيث يتفرع من قمة كل من هذه العقود زوج من الأوتار يتجه بإتجاهين مضادين ويلتقي كل منها مع الوتر الثاني الى جانبه والمضاد له بإتجاهه لتكون من التقاطع في قمة القبة نجمة ثمانية الرؤوس (١٠٩).

وكانت الغرفة رقم ١٠ بالمخطط ٥ هي الأخرى مغطاة بقبة تجمع في أسلوها بين الغرفتين ٤ و ٦ حيث يتم الانتقال الى القاعدة المربعة بطاقت ركنية وتُشكل هيكل القبة أوتار على غرار أوتار الغرفة رقم ٤ من حيث احتوائها على ستة عشر وتراً تنطلق من القاعدة ذات الست عشرة حنية بحيث شكلت تلك الأوتار في قمة القبة نجمة ذات ستة عشر رأساً، والقبة هذه غير قائمة حالياً حيث تهدمت. إلا ان الرحالة بروسير الذي زارها سنة ١٩٠٩ كان قد صورها ورسمها وأشار الى حالتها المهتدة بالتهدم (١١٠) وقد تهدمت فعلاً سنة ١٩١٣ واستعير عنها بقبة شيدت سنة ١٩٣٩ م (١١١).

قبة المدرسة الكعالية :

تكلمنا سابقاً على تاريخ المدرسة الكعالية ضمن حديثنا عن المدارس اما من الناحية المعمارية فلم يبقَ من المدرسة سوى غرفة مثمثة من الداخل وكانت تتصل من الخارج بأبنية أخرى ، والغرفة هذه مغطاة بقبة تعد من أقدم القباب القائمة في مدينة الموصل.

مما لاشك فيه أن البناء القائم حالياً يمثل بقايا المدرسة الكعالية ، إلا أن التخطيط المثلثي المثلثي الغريب دفع بعض الباحثين الى الاعتقاد بأنها كانت مكتبة تابعة للجامع الأموي (١١٢) كما يؤكد هزفيلد قدم البناء بقوله « من الصعوبة بمكان تحديد تاريخ البناء إلا أنه من المؤكد أن البناء أقدم مما هو عليه إقرانه من ابنية بدرالدين لؤلؤ..... ونستطيع الجزم بأنه يعود الى الفترة المتأخرة من عهد نورالدين (١١٣) ».



شكل (٥) مخطط رأسي لدير مار هنام. (عن برديسير)

عقود أربعة منها تقوم على زوايا القاعدة المربعة والأربعة الأخرى تقوم على محاورها، وملئت عقود الزوايا بمقرنصات منشورية الغرض منها الزينة وملء الفراغ فقط. يعلو منطقة الانتقال هذه اطار مثلثي يشكل القاعدة التي تتركز عليها أوتار القبة وان طراز تسقيف هذه القبة يشابه من حيث العموم طراز

بوساطة كوابيل رخامية عددها ٤٨ كابولاً موزعة بحيث يكون كابولان فوق كل عقد جصي وتحمل هذه الكوابيل رفاً رخامياً يشكل القاعدة الدائرية التي تركز عليها القبة. أما عن الشكل العام للقبة التي تمثل واحدة من أقدم قبتين من هذا الطراز فقد كان مقطعها بشكل عقد مدبب وهي بذلك قريبة في شكلها الخارجي من قبة الجامع المجاهدي المعاصرة لها تقريباً.



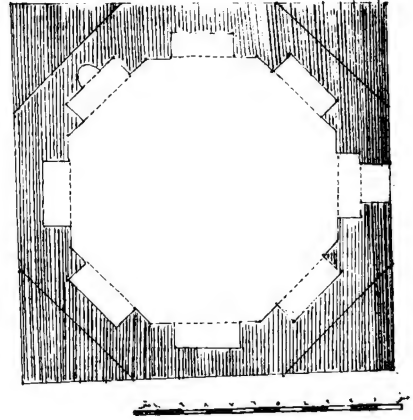
شكل (٧) تمخطط لزخارف جصية كانت فوق قبة المدرسة الكلاية.

قبة الجامع النوري :

سبق أن تحدثنا عن الجامع النوري وبنائه. وما دمنا نتحدث عن القباب فلا بد أن نذكر هنا القبة التي كانت تغطي مربعة محرابه (الشكل ١) والتي هدمت عام ١٩٣٩، إلا أن المعلومات التي قدمها الرحالة الأوروبيون عن القبة قبل هدمها والصور المحفوظة لدى دائرة الآثار تعطي صورة واضحة بعض الشيء عنها وعن أهميتها في بناء القباب في الموصل.

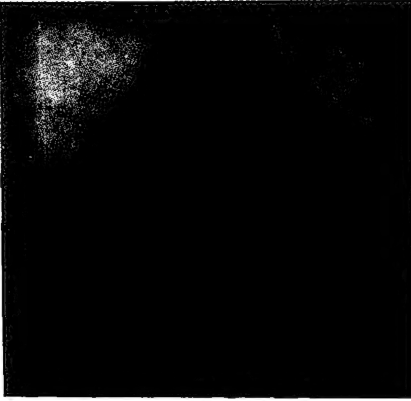
فالقبة كانت أقدم التماذج التي وصلت إلينا من القباب المزودة والمشيدة بمواد بناءية غير الخشب أو الرصاص أو القصب. وما زالت الموصل تحتفظ بنموذجين آخرين من هذا النمط من القباب سنأتي على ذكرهما. كما أن موضوع هذه القبة من الجامع يميزها عن غيرها من قباب الجوامع، فهي أقدم القباب القائمة على مربعة المحراب في العراق. فمن

ومخطط الجزء المتبقي من البناء فيه شيء من الغرابة عن المألوف في الموصل، إذ يتكون من غرفة مشتمة من الداخل يتوسط كلاً من اضلاعها دخلة مغطاة بعقد مدبب واتخذ من إحدى هذه الدخلات محراباً في حين أن البناء من الخارج مربع ربما لاتصاله بوحدات بنائية أخرى (الشكل ٦).



شكل (٦) مخطط بقايا المدرسة الكلاية

وقد شيد البناء بالأجر والجص وكسي بطبقة من الجص، وكانت قد نفذت على الجص زخارف تمثل عناصر معمارية من عقود وأعمدة، إلا أن الترميمات المتأخرة افقدت تلك الزخارف روعتها. ويتم الانتقال من القاعدة المشتمة الى الدائرية عبر مراحل، حيث يتم الانتقال الى القاعدة الستة عشرية بوساطة ثمانية عقود رخامية شيدت على زوايا القاعدة المشتمة وعلى ارتفاع تسعة امتار تقريباً. ثم يتم الانتقال الى قاعدة ذات ٢٤ ضلعاً متساوية بالطول، يشكل هذه القاعدة اطار معماري زخرفي من ٣٢ عقداً منفرجاً تقوم أرجل هذه العقود على رؤوس العقود الرخامية وعلى اعمدة نصفية ملتصقة بالجدران مشيدة بالجص رتبت بحيث يكون عمودان بين كل عقدتين رخاميتين (الشكل ٧). ولزيادة انتظام القاعدة الدائرية للقبة عمد المعمار الى مرحلة اخرى للانتقال الى هذه القاعدة وذلك



شكل (٨) قبة الجامع المجاهدي قبل الترميم.

الانتقال منها الى القاعدة المثلثة بطاقت ركنية مشيدة بقطع رخامية شبيهة بالعقود الرخامية في طاقات المدرسة الكالة ثم يبدأ تجريد القبة من القاعدة المثلثة تدريجياً دون وجود خط يميز بين القاعدة الدائرية والمثلثة. اما من الخارج فيتخذ مقطعها شكل عقد منفرج مدبب (١١٦).

قباب سنجار:

تضم مدينة سنجار عدداً من القباب تمتد تاريخها بين القرن السادس والقرن الثامن الهجري (١٢ - ١٤م). فالى الجنوب الشرقي من المدينة تقوم قبتان تعرفان باسم ويلاده ولا يعرف بالضبط ماذا تعني التسمية إلا أن الاعتقاد السائد بين سكان سنجار أن هاتين القبتين تضماني اولاد الست زينب فعرفتا بهذا الاسم.

من المعتقد أن القبة الجنوبية منها تمثل بقايا المدرسة العادية (١١٧) التي شيدها عماد الدين زنكي ابن مودود بن زنكي بن آقسنقر حاكم سنجار المتوفى سنة ١١٩٧ / ٥٩٤ وربما كانت تربة عماد الدين (١١٨) اذ أن الطراز المعاري للقبة ينسجم مع التاريخ المذكور فهي ذات تخطيط مشمن يتم الانتقال من القاعدة المثلثة الى الدائرية المسننة ذات ٢٤ رأساً بواسطة مقرنصات منشورية ذات اشكال مختلفة نجمية أو لوزية أو مثلثة أو مربعة

المعروف أن المساجد الجامعة الأولى في العراق لم تكن تحتوي على قباب مثل جامع البصرة وجامع الكوفة وجامع واسط وجامع المنصور في بغداد وجامع سامراء ، في حين نلاحظ أن موضع القبة كان بارزاً في جوامع بلاد الشام وشمال افريقيا والأندلس فظهرت القباب مغطية لمربعة المحراب في الجامع الأموي بدمشق وجامع القيروان وجامع الزيتونة بتونس وفي المسجد الجامع بقرطبة (١١٩) ونلاحظها ايضاً في جوامع سوريا في مختلف عهودها. فهل جاء ذلك التأثير من سوريا عن طريق نورالدين مؤسس الجامع والذي كان له مآثر معمارية كثيرة هناك قبل انشائه الجامع ؟.

تجمع قبة الجامع التوري الكثير من العناصر المعمارية والزخرفية التي انتشر استخدامها في قباب منطقة الموصل ، اذ تحتوي على الطاقات الركنية وسيلة للانتقال الى القاعدة المثلثة. وتتركز القبة على قاعدة دائرية مسننة ذات اربع وعشرين حنية على غرار تلك التي لاحظناها في دير ماربهنام وتلك التي سنشاهدها في بعض قباب سنجار وكذلك نلاحظ استخدام الأوتار في بناء انحناء القبة ، أما القبة الخارجية فتشبه في مظهرها مظهر القبة الخارجية لمشهد يحيى بن القاسم الذي شيد خلال القرن التالي. اذ أنها هرمية الشكل ذات ستة عشر وجهاً ، هذا فضلاً عن احتوائها على قبتين ، قبة داخلية زخرفية تحفظها قبة خارجية. ويبدو أن الفكرة انتشرت بعد ذلك فظهرت واضحة في قبة مشهد يحيى بن القاسم والإمام عون الدين.

قبة الجامع المجاهدي :

انتهى بناء القبة جزءاً من الجامع المجاهدي سنة ٥٧٥ / ١١٥٠م ويبدو أن القبة كانت تغطي مربعة المحراب على غرار قبة الجامع النوري وتمثل القبة الى جانب المحراب ، الجزء الوحيد الباقي من البناء الأصلي وقد شيدت بأجمعها اصلاً بالأجر وعرف الجامع بالجامع الأحمر نسبة الى لون آجره. تتركز القبة من الداخل على قاعدة مربعة يتم

تشبه الى حد كبير مقرنصات الغرفة ٤ في دير ماربهنام المشيدة سنة ٥٥٩ / ١١٦٣ م. ويتكون انحناء القبة أو هيكلها من أوتار تنطلق من نقاط التقاء الحنيات بعضها ببعض لتشكل من التقاءها في وسط القبة نجمة لها من الرؤوس مالقاعدتها من حنيات وتحتصر الأوتار فيما بينها فراغات لوزية ومعينية. ولا يعرف على وجه الدقة ان كانت هناك قبة خارجية تغطي القبة الزخرفية.

أما القبة الثانية فتبدو احدث بكثير من القبة الأولى على الرغم من احتوائها على نفس الاسلوب من المقرنصات اذ يتم الانتقال من القاعدة المربعة الى الدائرية بمقرنصات منشورية ذات مقاطع مربعة.

وعلى مرتفع يطل على مدينة سنجار من ناحيتها الشمالية الشرقية يقوم بناء ذي عدة وحدات يعرف بالست زنب أو «ستنا زنب» ويحمل البناء عدداً من النصوص الكتابية تمثل مختلف الأدوار المعارية التي مر بها البناء ، ويرجع أقدمها الى فترة التأسيس وهو سنة ٦٤٦ / ١٢٤٨ ويحمل نصاً آخر اسم بدرالدين لؤلؤ الذي أمر بالبناء فضلاً عن اسماء شخصيات تولوا الاشراف على البناء أو تنفيذة (١١٩).

ولعل أقدم اجزاء البناء القائمة هي غرفة المصلى التي كانت بالأصل مزينة بزخارف جصية على غرار الزخارف التي كانت تزين أولوين دار الامارة في الموصل ، إلا أن معالم تلك الزخارف قد طمست ولم يبقَ منها سوى تلك التي تزين المحراب الذي يعد بزخارفه من المحارب النادرة (١٢٠). ويغطي المصلى هذا قبة من القباب التي انتشرت في منطقة الجزيرة والتي يمكن أن نطلق عليها «قبة الجزيرة» اذ تتكون منطقة الانتقال فيها من مقرنصات منشورية معمولة من الجبس تعمل على تحويل القاعدة من المربعة الى الدائرية المسننة ذات ٢٤ حنية ، ويقوم من نقاط التقاء الحنايا بعضها ببعض زوج من الأوتار الجبسية ايضاً يتجه بإتجاهين متعاكسين بحيث تلتقي هذه الأوتار حول مركز القبة أو ضمنها وتحتصر الأوتار فيما

بينها تجاوير لوزية ومعينية.

إن المادة البنائية لهذه القبة وهي الجبس توحى بأنها لم تقوَ على مقاومة عوامل الظروف الخارجية ومن المؤكد أنها كانت مغطاة بقبة ثانية خارجية إلا أنها تهدمت (١٢١).

وكانت هناك قبة أخرى تمثل تطوراً لبعض جوانب هذا الطراز من القباب نلاحظه في قبة كانت على مقربة من سنجار تعرف بقبة بير زكر اذ كانت القبة برمتها تتكون من مقرنصات منشورية كل منها ذات قاعدة بشكل معين ومثل هذه القبة نلاحظها في ضريح نجم الدين في حدينة (١٢٢) ومن المعروف أن قبة بير زكر هذه تؤرخ من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي.

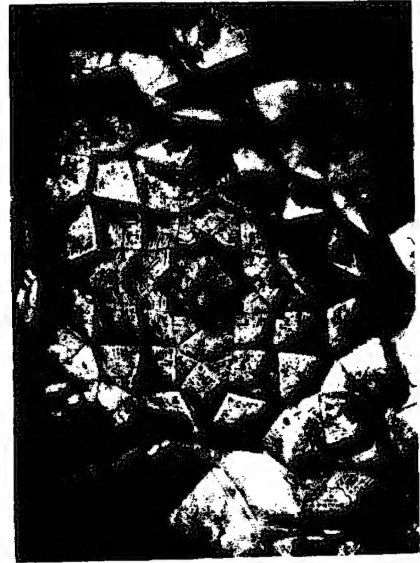
قباب بدرالدين لؤلؤ في الموصل :

عرف عن بدرالدين لؤلؤ اقامته للعديد من المشاهد ذات العلاقة بالاسرة العلوية ربما كان لمقاومة الحركة العدوية (١٢٣). ومن هذه المشاهد مشهد يحيى بن القاسم ومشهد الامام عون الدين ومشهد علي الهادي ومشهد الامام الباهر ومشهد أولاد الحسن ومقام الإمام عبدالرحمن (١٢٤) ومقام علي الاصغر بن الحنفية (١٢٥). وبعض هذه المشاهد كانت ذات قباب مازالت تحتفظ بالكثير من عناصرها الأصلية وبعضها الآخر اندثرت قبابها أو اعيد بناؤها في العصور اللاحقة. ومن ابرز القباب التي وصلتنا من عهد بدرالدين لؤلؤ والتي لازالت تحتفظ بمعظم عناصرها الأصلية قبتان : قبة مشهد يحيى بن القاسم وقبة مشهد الإمام عون الدين.

قبة مشهد يحيى بن القاسم شيدت طبقاً للنص الذي مازال باقياً على الصندوق الخشبي للضريح عام ٦٣٧ / ١٢٣٩ من قبل نورالدين لؤلؤ. شيدت القبة برمتها عدا اسسها بالآجر والجص وبأسس سمكية نسيباً. ربما كان البناء المتبقي جزءاً من المدرسة التي انشأها بدرالدين في الرض الأعلى والتي عرفت بالمدرسة البدرية (١٢٦) ولدينا من الدلائل ما يشير الى أنه اتخذ من البناء مقبرة له الى

جانب أو تحت اسم يحيى بن القاسم (١٢٧).
على أية حال أن ما بهما من هذا الموضوع هو
الأمر المعاري المتعلقة بالمشهد، إذ أن أهم ما يميز
بناء مشهد يحيى بن القاسم عن غيره من المباني هو
قبة الداخلية ذات المقرنصات الهندسية والازدواجية
في تركيب القبة وقبة الخارجية فضلاً عن الزخارف
الرخامية والآجرية والجصية التي تزين واجهاته
الخارجية وجزءه الداخلية.

شيدت القبة الداخلية من مقرنصات ذات
مسطحات مثلثة متراكبة لتنتهي في القمة بقبة
نجمية صغيرة ثمانية الرؤوس (الشكل ٩). تغطي



شكل (٩) قبة مشهد يحيى بن القاسم من الداخل.

هذه القبة الزخرفية قبة ثانية وبين القبتين فراغ،
والقبة الخارجية بشكل هرم ذي اثني عشر وجهاً
يرتكز على قاعدة مئمنة (الشكل ١٠) في شكلها
الهرمي والازدواجية في بناء القبة يمكن تصنيف قبة
يحيى بن القاسم ضمن مجموعة واحدة تضم ثلاث
قباب هي قبة الجامع النوري وقبة مشهد يحيى بن
القاسم وقبة الإمام عون الدين.



شكل (١٠) قبة مشهد يحيى بن القاسم من الخارج.

أما قبة الإمام عون الدين فلأنها ترجع هي
الأخرى إلى عهد بدران الدين لؤلؤ، إذ شيدت سنة
١٢٤٨ / ٦٤٦ وذلك استناداً إلى نص كتابي محفور
على الرخام يدور حول الجزء الأسفل من
الجدران (١٢٨).

يتكون المشهد من غرفة مربعة أبعادها ٨,٥٠ ×
٨,٥٠ م تقريباً ذات جدران سميكة نسبياً يبلغ
سمكها ٢,٦٠ م تقريباً وكما لاحظنا في مشهد يحيى
ابن القاسم شيد البناء هنا أيضاً بمادتين أساسيتين
هما الحجارة والجص للأجزاء السفلى من الجدران.
والآجر بالأجزاء العليا والقبة كذلك نلاحظ أن
القبة هي الأخرى مزدوجة تتكون من قبتين داخليه
قوامها مقرنصات هندسية متراكبة من سبعة
صفوف من المقرنصات تنتهي عند القمة بقبة نجمية
صغيرة ثمانية الرؤوس (الشكل ١١).

أما القبة الخارجية فلأنها هرمية مسننة ذات
اختلافات طولية بحيث يأخذ مقطعها العرضي شكل
نجمة اثنتي عشرة الرؤوس. وإن هذا التقطع من

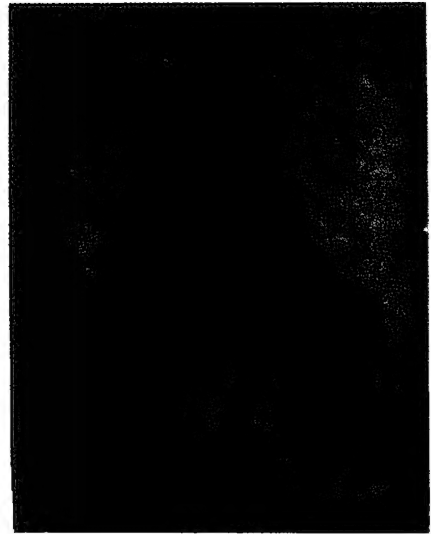
الهندسية النحاسية نفسها ليدل على مدى انتشار هذه الصناعة بل وعلى مدى اشتهار الموصل في صناعة النحاس وزخرفته .

ففي مجال العمارة الاسلامية يمكن القول إنه كان لمنطقة الموصل اسهاماتها في تطوير فن العمارة في انشاء القباب ، فكانت بذلك جزءاً من حركة تطويرية عامة شهدها العالم الاسلامي ، مع ذلك فقد كان لمنطقة الموصل خصوصيتها بحيث نجد ضمن هذه الحركة التطويرية انماطاً خاصة بمنطقة الموصل كعناصر القبة التي اطلقنا عليها «قبة الجزيرة» والتي تتكون بعامة من منطقة انتقال تستخدم فيها المقرنصات المنشورية الهندسية المعمولة من الجبس والتي تعمل على نقل أو تحويل القاعدة المربعة أو المثلثة الى قاعدة دائرية مسننة ذات ست عشرة حنية أو اربع وعشرين أو أكثر وينطلق من كل من نقاط التقاء الحنيات زوج من الأوتار الجسسية يتجه باتجاهين متضادين ليلتقيا مع غيرها من الأوتار المائلة وليتكون من تقاطعها جميعاً هيكل لانحناء القبة بحيث تحصر الأوتار فيما بينها تجاويف لوزية أو معينة .

ومثل هذه الخصوصية في قباب الموصل نلاحظها في بعض عناصر الانماط الأخرى من القباب مثل استخدام العقود الرخامية في تشكيل الطاقات الزكنية كما هو الحال في قبة المدرسة الكمالية والجامع المجاهدي من القرن السادس الهجري ومشهد الإمام الباهر ومشهد علي الأصغر ابن الحنفية من القرن الثامن (١٣٠) . ومثل هذه الخصوصية نلاحظها ايضاً واضحة في القباب المزدوجة التي تحدثنا عنها خلال بحثنا في قبة الجامع النوري وقبة مشهد يحيى بن القاسم وقبة مشهد الإمام عون الدين .

الكنايس والأديرة :

كانت منطقة الموصل من مناطق انتشار الديانة المسيحية قبل الإسلام شأنها في ذلك شأن مناطق أخرى من العراق مثل الحيرة . ربما كان ذلك جزءاً



شكل (١١) قبة مشهد الامام عون الدين من الخارج قبل الترميم.

القباب بعد أقدم انواع القباب المسننة أو الشعاعية حيث تطورت عنها قباب القرن الثامن الهجري وما بعده ، حيث ارتبط هذا النمط من القباب بالأضرحة الزيدية المقدسة فضلاً عن استمرار استخدامها في الأضرحة والمشاهد الاسلامية مثل قبة مشهد الإمام الباهر وقبة النبي دانيال . ويحتفظ المشهد فضلاً عن قبة ببعض الدلائل الأثرية الفريدة مثل محرابه الشبيه بمحراب مشهد يحيى بن القاسم والمكون من لوحين رخامين وضعا في زاوية القبلة . والباب الخشبي المصنوع بالنحاس المغطى بالزخارف الهندسية . ونلاحظ مثل هذا الباب في جزيرة ابن عمر الذي نشره الرحالة بروسير والذي ادعى انه جلب من إيران رغم أن الباب يحمل نصاً كتابياً يشير الى بدرالدين لؤلؤ (١٢٩) مما يشير الى ان صناعته كانت بالموصل وقد اغفل الرحالة الأوربي هذه المعلومات لجهله باللغة العربية .

وان وجود قطعتين لمثل هذا الباب في المنطقة تحملان اسم بدرالدين لؤلؤ وتحتويان على الزخارف

وتكمن أهمية هاتين الكنيستين باحتفاظهما بعناصرهما الأولى بحيث أمدتنا بصورة واضحة عن كنائس الموصل في القرنين السادس والسابع الميلادي ومن خلال تلك الصورة ومقارنتها بالكنائس القائمة حالياً في الموصل والتي مرت بأدوار تعميرية متعددة امكنا معرفة مدى أهمية الكنائس الأولى تلك على الكنائس الحالية. اذ نلمس تلك التأثيرات في كنائس كثيرة مثل كنيسة شمعون الصفا التي ضمت نقوشاً وزخارف من العهد الآتابكي وكتابات ترجع الى العصر الالخاني وكنيسة مار احودمة وكنيسة مار توما، ونرى تأثير ذلك ايضاً في كنائس قرقوش والقرى المحيطة بالموصل^(١٣٦).

واشتهرت منطقة الموصل بكثرة اديرتها إذ يرجع معظمها الى ما قبل الاسلام، وتميزت بعض هذه الأديرة بمواقعها المنبئة مثل دير مارمتي ودير الرئان هرمزد وتميز بعضها الآخر منها بوقوعها وسط أراضي زراعية خصبة مثل دير مار كوركيس ودير مار ميخائيل ودير مار بهنام، ودير سعيد. وقد أورد الشابشتي في دياراته ذكر معظم هذه الأديرة وأديرة اخرى مندثرة حالياً مثل الدير الأعلى في مدينة الموصل^(١٣٧).

الهوامش

- (١) الديوه جي، سعيد، «جوامع الموصل في مختلف العصور» (بغداد، ١٩٦٣) ص ١٣.
- (٢) الديوه جي، الموصل في العهد الآتابكي (بغداد، ١٩٥٨) ص ١٢٨.
- (٣) الديوه جي، «جوامع الموصل» ص ٧.
- (٤) المرجع نفسه ص ١١.
- (٥) البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٢٩.
- (٦) يستدل على هذا التوسع من خلال وضع الجامع في بداية العصر العباسي.
- (٧) الازدي ابو زكريا، تاريخ الموصل (القاهرة ١٩٦٧) ص ١٤٧-١٤٨.
- (٨) الازدي، تاريخ الموصل، ص ١٤٨.
- (٩) من المعروف أن عهد المهدي شهد نشاطاً معيارياً متميزاً تماماً كالنشاط المهاري الذي شهدته عهد الوليد في العصر الأموي.
- (١٠) الازدي، ص ٢٤٨.

من رد الفعل ضد الطبقة الحاكمة وديانتها الزرادشتية. وقد وصل اليها بعض من الكنائس والأديرة منها ما يرجع تأسيسه الى الفترة الاولى لانتشار الديانة المسيحية. وقد ورد ذكر لبعض أديرة منطقة الموصل لدى الشابشتي^(١٣١). ونتيجة لانتشار الديانة المسيحية في المشرق العربي أول الأمر فإن مبانيها الدينية من كنائس واديرة اشتقت شكلها وعناصرها المعمارية من اصول شرقية. فطرز الكنائس الذي عرف بالطراز البازيليكسي نشأ في المشرق وتطور هذا الطراز في سوريا وشمال العراق^(١٣٢) بل حتى الاسم بازيليكاً أو بالأحرى باسليقاً كان في الاصل ارامياً يعني «بيت السليقا»، والسليقة اسم مازال يطلق في منطقة الموصل على عملية سلق الحنطة قبل تحفيفها وجرحها لتحويلها الى البرغل ومشتقاته ويبدو أن عملية سلق الحنطة وتوزيعها كانت تعد في مثل هذه المباني العامة في سوريا فانتقلت بتصميمها واسمها الى اوربا. ومن المعروف ان مثل هذه التسميات اتخذتها الديانة المسيحية من حضارات قديمة اخرى فالكلمة المعبرة عن الكنيسة باللغة الفرنسية وهي eglise اكليز مشتقة من الجمعية العامة الأيشنية وهي اكليزيا هذا وكان لمنطقة الموصل مساهمات في تطوير هذا الطراز من الكنائس فمن المعروف ان هناك عشرات الكنائس ذات الطراز البازيليكسي في سوريا وقد كُثِفَ في منطقة الموصل حتى الآن عن اثنتين فقط من هذا الطراز تقع بقايا الاولى منها في قرية قصر سريج قرب قرية حكنه على مسافة ٦٠ كم تقريباً شمال غرب الموصل وترجع هذه الكنيسة الى القرن السادس الميلادي^(١٣٣). وكشفت البعثة الأثرية لجامعة الموصل بين ١٩٨٠ و ١٩٨٢ عن الكنيسة الثانية في قرية مصيفنة قرب زمار والتي شيدت في النصف الأول من القرن السابع الميلادي^(١٣٤).

وبوساطة هاتين الكنيستين انتقل الكثير من عناصر العمارة العراقية القديمة مثل الأكتاف^(١٣٥) والعقود وتقنيات الزخارف الجصية الى سوريا.

- (٤١) الحموي، ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله، معجم البلدان، (لايزيك ١٨٦٦ - ١٨٧٠) تراجع مادة (الموصل).
- (٤٢) ابن الأثير، الباهر، ص ١٧٧.
- (٤٣) ابن الأثير، الكامل، ج ١١، ص ٤٦١.
- (٤٤) نيبور، كارستن، رحلة نيبور إلى العراق في القرن السابع عشر، ترجمة الدكتور محمود الأمين (بغداد، ١٩٦٥) ص ١٠٩.
- (٤٥) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير (ط ١ مصر) ص ١٨١.
- (٤٦) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله، رحلة ابن بطوطة، (بيروت، ١٩٦٠) ص ٢٣٥.
- (٤٧) نقلًا عن Herzfeld und Sarre, Archäologische Reise II P. 236.
- (٤٨) حول هذا النص راجع، نيقولا ستيروني «مجموع الكتابات المحررة في أبنية الموصل» تحقيق سعيد الديوه جي (بغداد، ١٩٥٦) ص ١٥٨.
- (٤٩) نيبور، المرجع السابق، ص ١٠٩ - ١١٠.
- (٥٠) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ٩٢.
- (٥١) المرجع نفسه، ص ٩٤.
- (٥٢) المرجع نفسه، ص ٩٦.
- (٥٣) عيسى سلمان وآخرون، المرجع السابق، ج ١، ص ١٧٣.
- (٥٤) عيسى سلمان وآخرون، المعازير العربية، ج ١، ص ١٧٧.
- (٥٥) أحمد الصوفي، الآثار والمباني العربية والإسلامية في الموصل (موصل، ١٩٤٠) ص ٥٦.
- (٥٦) عبو، القباب العباسية، ص ٩٥ - ٩٦.
- (٥٧) التوتنجي، نجاة، المحارب العراقية، (بغداد، ١٩٧٦) ص ١٤١. وعن التفاصيل الزخرفية لهذا الحراب راجع، الجمعة، أحمد قاسم، محارب مساجد الموصل إلى نهاية حكم الأتابكة (رسالة ماجستير غير منشورة، القاهرة ١٩٧١) ص ٤٨ - ٥٤.
- (٥٨) للمزيد من التفاصيل راجع، أبو صالح الأثني، الفن الإسلامي، (دار المعارف، بيروت، ط ٢) ص ١٢٧ - ١٣١.
- (٥٩) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ٤٢.
- (٦٠) عيسى سلمان وآخرون، المعازير... ج ١، ص ١٥٠.
- (٦١) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ١٤.
- (٦٢) عيسى سلمان وآخرون، المعازير... ج ١، ص ١٨٠.
- (٦٣) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ١٧٨.
- (٦٤) المرجع نفسه، ص ١٤٩.
- (٦٥) المرجع نفسه، ص ١٣٢.
- (٦٦) الأزدي، ص ١٤٥.
- (٦٧) قارن ذلك مع تخطيط الكوفة والبصرة، عادل عبو، المدن العربية في القرن الأول الهجري، أداب الزايفين العدد ١٣ لسنة ١٩٨١ ص ٥٨٦ و ٥٩٠ و ٥٩٦ و ٦٠٠.
- (٦٨) الديوه جي، تاريخ الموصل، ج ١، ص ٥٠.
- (٦٩) البلاخري، انساب الاشراف (القدس، ١٩٣٣) ج ٥، ص ١٨٥. والبيهقي، احسد بن واضح، تاريخ البيهقي،

- (١١) ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي التميمي (ليدن، ١٩٣٨)، ص ١٩٥.
- (١٢) ابن الأثير عز الدين، الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل (القاهرة ١٩٦٣) ص ٧٧.
- (١٣) ابن حوقل، ص ١٩٥.
- (١٤) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ٣١ - ٣٣.
- (١٥) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ١٠ - ١١.
- (١٦) ابن العاد الحنيلي، ثلوث الذهب ج ٥، ص ٣٩.
- (١٧) ابن المستوفي، المبارك بن أحمد اللخمي، تاريخ أربل (بغداد، ١٩٨٠) ج ١، ص ٣٨٦.
- (١٨) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ١٢.
- (١٩) المنشيه البغدادي، رحلة المنشيه البغدادي (ترجمة وتحقيق عباس المزاري، بغداد ١٩٤٨) ص ٨٣.
- (٢٠) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين (القاهرة ١٢٨٧ هـ) ج ١، ص ١٨٩.
- (٢١) ابن الأثير الكامل في التاريخ (بيروت، ١٩٦٦) ج ١، ص ٣٦٤، ١١.
- (٢٢) الأزدي، تاريخ الموصل ص ١٦٦ - ١٦٧.
- (٢٣) أبو شامة ج ١، ص ١٨٩، ابن الأثير، الباهر، ص ١٧٠.
- (٢٤) أبو شامة ج ١، ص ١٨٨.
- (٢٥) ابن الأثير، الباهر، ص ١٥٣ - ١٥٤.
- (٢٦) ابن الأثير، الباهر، ص ١٥٣ - ١٥٤.
- (٢٧) أبو شامة، الروضتين، ج ١، ص ١٨٩.
- (٢٨) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ٤٧.
- (٢٩) ابن الجزري، أبو الفرج عبد الرحمن، المتظلم في تاريخ الملوك والاسم (حيدر اباد، ١٣٥٧ هـ) ج ١٠، ص ٢٤٩.
- (٣٠) عبو، عادل نجمة، القباب العباسية في العراق (رسالة ماجستير غير منشورة بغداد ١٩٦٧) ص ٨٩.
- (٣١) عن جامع حياه راجع «كامل شخصته» من مآثر نور الدين العمراني في حياة، الجامع النوري، الحوليات الأثرية السورية، العدد ١٥ (١٩٦٥) ص ٨٢ - ٨٩.
- (٣٢) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ٢٧.
- (٣٣) التوتنجي، نجاة، المحارب العراقية (بغداد، ١٩٧٦) ص ١١٢.
- (٣٤) سلمان عيسى وآخرون، المعازير العربية الإسلامية في العراق (بغداد، ١٩٨٢) ج ١، ص ١٥٣.
- (٣٥) Herzfeld, Ernst und Friedrich Sarre, Archäologische Reise im Euphrat und Tigris Gebiet (Berlin, 1911 - 20) Vol. II, P. 293.
- (٣٦) الديوه جي، جوامع الموصل ص ٣٠ - ٣١.
- (٣٧) مما لاشك فيه أن الكتابات والزخارف كانت بحالة أفضل حين زارها هرزفيلد في بداية القرن.
- (٣٨) قارن ذلك مع محراب الست زينب في سنجار (راجع ص ٦٢).
- (٣٩) عبو، القباب العباسية، ص ٩٠.
- (٤٠) ابن الأثير، الباهر، ص ١٧٧، وابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢، ص ٢٤٨.

(النخبة، ١٩٦٤) ج ٣ ص ١٧.

(٧٠) الأزدي، ص ٢٤ - ٢٥.

(٧١) المرجع نفسه، ص ١٥٧.

(٧٢) الديوبجي، تاريخ الموصل، ج ١، ص ٤٣.

(٧٣) الديوبجي، تاريخ الموصل، ج ١، ص ١٧٥.

(٧٤) ابن حوقل، أبو القاسم ابن حوقل التميمي، «صورة الأرض» (بيروت، ١٩٧٩)، ص ١٩٤.

(٧٥) ابن الأثير، الباهر، ص ٧٧.

(٧٦) المصدر نفسه، ص ١٨٩.

(٧٧) عبو، القباب العباسية، ص ١٨٢.

(٧٨) عيسى سليمان وآخرون، الهبات،، ج ١، ص ٦٣.

(٧٩) عادل عبو، «الاصول العربية للفنون القارسية وإداب الرافدين»، العدد ١٤ لسنة ١٩٨١ ص ١٢٩

(٨٠) استنتا باعداد هذا الجدول بالمعلومات الواردة لدى عبد الجبار حامد مدارس الموصل ودورها التعليمي في عصر الانباتكي، رسالة ماجستير (موصل، ١٩٨٠).

(٨١) ابن جببر، الرحلة، ص ١٨٢.

(٨٢) الديوبجي، تاريخ الموصل ج ١ ص ٣٤٥.

(٨٣) عبو، القباب العباسية، ص ٨٢.

(٨٤) الديوبجي، تاريخ الموصل، ج ١ ص ٣٤٩.

(٨٥) حامد، عبد الجبار، المرجع السابق ص ١٥٣.

(٨٦) الديوبجي، تاريخ الموصل، ج ١ ص ٣٥٠.

(٨٧) المرجع نفسه ص ٣٤٨.

(٨٨) ابن الأثير، الباهر ص ٧٧.

(٨٩) ابن خلكان، أحمد بن محمد، (القاهرة، ١٩٤٨) ج ٤، ص ٣٩٦.

(٩٠) عن خطط المدرسة المستنصرية راجع عبو، عادل نجم، المدرسة في العارة الأيوبية في سوريا، شوبر ٢٤ لسنة ١٩٧٤، ص ٩٧.

(٩١) المرجع نفسه ص ٧٩، ٨٠، ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٩٥.

(٩٢) K.A.C. Creswell, The Origin of the Cruciform Plan of Cairene Madrasas (B.I.F.A.O.) XXI, 1922, p.12.

(٩٣) Creswell, The Muslim Architecture of Egypt, (Oxford, 1952-59) II, p. 129.

(٩٤) Abbū, Adil N. The Ayyubid Domed Buildings of Syria Ph.D Ethesis, (Edinbwgrh, 1973) p. 247.

(٩٥) المرجع نفسه ص ٢٩٥.

(٩٦) Lauffray, J. "Une Madrasa Ayyoubide de la Syrie du Nord"

الحوليات الأثرية السورية العدد ٣، ١٩٥٣ ص ٥١

(٩٧) عادل عبو، المدرسة في العارة الأيوبية في سوريا (الحوليات الأثرية السورية، العدد ٢٤ لسنة ١٩٧٤) ص ٩٨.

(٩٨) عبد الجبار حامد، المرجع السابق ص ١٣٠.

(٩٩) ابن الأثير، الباهر، ص ٢٠١.

(١٠٠) عبد الجبار حامد، ص ١٣٩.

(١٠١) ابن خلكان وفیات الأعيان ج ٣ ص ٥٣ - ٥٦.

(١٠٢) عبد الجبار حامد، المرجع السابق ص ١١٨.

(١٠٣) أبو شامة، الروشتين، ج ١ ص ١٨٩.

(١٠٤) الشاشيني، أبو الحسن علي بن محمد والديارات، تحقيق كوركيس عواد (بغداد ١٩٦٦).

(١٠٥) بروسير، كوزاد، الباني الأثرية في شمال بلاد وادي الرافدين، ترجمة د. علي يحيى منصور، (بغداد ١٩٨١) ص ٢٨.

(١٠٦) الخوري، افرايم عبدال، اللؤلؤ النفيد في تاريخ دير مار يهناام الشهيد (الموصل ١٩٥١) ص ١٥٧.

(١٠٧) عبو، القباب، ص ٧٦ - ٧٧.

(١٠٨) بروسير، كوزاد، الباني الأثرية في شمال وادي الرافدين ص ٢٢.

(١٠٩) عبو، القباب، ص ٧٨.

(١١٠) بروسير، الباني الأثرية، ص ٢٢.

(١١١) افرايم عبدال، اللؤلؤ النفيد، ص ١٥٠.

(١١٢) داؤد الجلي، مخطوطات الموصل، (بغداد، ١٣٤٦ هـ) ص ٢٢.

Herzfeld, E and Sarre, F, Archäologische Reise Im Euphrat und Tigris Gebiet, (Berlin, 1911-1920) vol. II, P.234.

(١١٤) عبو، القباب، ص ٩٠.

(١١٥) ابن الأثير، الكامل ج ١١ ص ٤٦١.

(١١٦) للمزيد من المعلومات عن هذه القبة راجع عبو، القباب، ص ٩٧ - ٩٢.

(١١٧) عبو، القباب ص ١١٠.

(١١٨) المرجع نفسه ص ١١٤.

(١١٩) عن كتابات هذا البناء راجع Herzfeld op. cit, I, p. 10 - 11

Herzfeld, op. cit. : عن هذا المخراب راجع :

وراجع كذلك نجمة التوتونجي، المخراب العراقية، (بغداد ١٩٧٦) ص ١٨٣ - ١٨٠.

(١٢١) عن هذه القبة راجع، عبو، القباب، ص ١٦٨ - ١٧٣.

(١٢٢) عن قبة نجم الدين راجع، عبو، القباب، ص ١٢٣ - ١٢٥.

(١٢٣) الديوبجي، سعيد، تاريخ الموصل، ص ٣٦٠.

(١٢٤) المرجع نفسه ص ٣٦٢ - ٣٦٠.

(١٢٥) المرجع نفسه ص ٣٤٦.

(١٢٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣ ص ٨٢.

(١٢٧) حول هذا الموضوع راجع عبو، القباب، ص ١٤٧ - ١٤٨.

(١٢٨) عن هذا النص راجع سيوفي، المرجع السابق ص ٩٩.

(١٢٩) بروسير، المرجع السابق، ص ٤٤ لوح ٣٦.

(١٣٠) تفريخ قبة مشهد الإمام الباهرقية مشهد علي الأصغر من القرن الثامن الهجري يراجع حولها عادل عبو، القباب العباسية، ص ١٨٥.

(١٣١) الشاشيني، الديارات، ص ١٧٦، ١٨١، ٣٠٠، ٣٠٢.

جامعة الموصل في مصنفه ضمن كتاب وبحوث آثار سد صدام
وبحوث أخرى (الموصل ١٩٨٧) ص ١٣٣ - ١٥٥ .

Butler, op. cit. pp. 70-71 and p. 179 (١٣٥)

(١٣٦) عن هذه الكنائس راجع الديوهجي، الموصل في العهد
الآتابكي ص ١٧١ .

(١٣٧) الشابشي، الديارات، (تحقيق كوركيس عواد) بغداد
١٩٦٥م ص ١٧٦

(١٣٢) حول تطور الكنائس الأولى في سوريا راجع Butler

Early Churches of Syria

(١٣٣) عن هذه الكنيسة راجع A, "Qasr Serji", David Oates

Sixth Century Basilica in Northern Iraq, IRAQ

Vol. XXIV, PP. 78-89.

(١٣٤) عن هذه الكنيسة راجع، عيو، عادل نجم، نتائج تفتيات

المآذن

أ. د. أحمد قاسم الجمعة

الدالة في المساجد الاسلامية، علما بان المثلثة
كانت في بعض الاحيان تقي بغرضين اولها الدعوة
للصلاة، وثانيها اعطاء الاشارات في الليل كما هو
الحال في رباط سوسة الذي شيد سنة (٢٠٦هـ /
٨٢٦م)^(٥).

ولقد تعرضت المثلثة كغيرها من العناصر
المعمارية الاسلامية الى عملية الاستلاب والتجريد
الحضاري شأنها في ذلك شأن العناصر الاخرى
ولاسيما المتمثلة في المساجد فقد عدّ بعض
المستشرقين ان المثلثة مقتبسة من عناصر معمارية
مماثلة سادت في الطرز المعمارية الاجنبية السابقة
للاسلام إذ رأوا ان المآذن الاولى في الاسلام عبارة
عن ابراج رومانية استخدمها المسلمون في
الآذان^(٦) وربما استخدام برج المعبد بدمشق الذي
حوله الوليد الى المسجد المعروف بالمسجد الاموي
في الآذان ادى الى ذلك^(٧).

ونحن لاننكر عملية الاقتباس في بداية الامر،
فرمما كانت بعض المآذن المربعة من حيث الشكل
والتصميم متأثرة بعض الشيء بالابرار كمثلثة
القيروان التي تعد اقدم المآذن الاسلامية الماثلة
للعيان (١٠٥هـ / ٧٢٤م)^(٨) وإن كان كذلك فيعد
ذلك امتداداً للعارة العربية المحلية السابقة للاسلام
في سوريا وليس من الطرز المعمارية الاجنبية. ومع
ذلك فان مثلثة جامع القيروان أصابها تطور
ملحوظ بحيث تحورت من هيئة الجمود وخلو النسب

انضج فيما سبق من مباحث ان الموصل
اشتهرت بمميزات معمارية كثيرة شملت التخطيط
والتصميم والعناصر المعمارية. واكتسب بعضها
خصوصية معينة نتيجة التطور والابتكار الذي
أصابها، ويأتي في طليعة ذلك التراث المعماري الثر
من العناصر المعمارية المآذن التي نحن بصدد التطرق
اليها، وكذلك القباب الوترية التي سترد في بحث
لاحق.

ولم تكن الغاية من دراسة المآذن في الموصل
الناحية التوثيقية الوصفية فحسب وانما تتبع
تفاصيلها وتطورها وبيان أهميتها الوظيفية والفنية،
ومدى التأثير المتبادل بينها وبين مايناظرها من عناصر
سابقة ومعاصرة ولاحقة لبيان مدى التطور والابتكار
الذي أصابها.

فالمثلثة اتخذت عدة مسميات منذ نشأتها حتى
الوقت الحاضر ففي فجر الاسلام وردت كلمة
الطومار اي العاليي للدلالة على ذلك الاسطوان
المربع الذي كان في دار عبد الله بن عمر الكائن في
قبة المسجد النبوي الشريف يؤذن عليه بلال^(٩)،
وفي بداية العهد الاموي استعملت كلمة
الصومعة^(١٠) ولاسيما على المآذن في شمال
افريقيا^(١١)، كما شاعت كلمة المنارة في انحاء متعددة
من العالم الاسلامي^(١٢) واصبحت كلمتا المثلثة
والمنارة مترادفتين، فالمثلثة ترتبط بالآذان والدعوة
للصلاة، والمنارة تعبر عن أهم العناصر المعمارية

الاسلامية القائمة منها نجدها متمثلة بمثدنة الجامع النوري ومثدنة الجامع الاموي ومثدنة سنجانر.

أولاً/ مثدنة الجامع النوري بالموصل :

يتوسط الجامع النوري مدينة الموصل القديمة تقريباً، وقد بناه في الفترة (٥٦٦ - ٥٦٨هـ / ١١٧٠ - ١١٧٢م) نور الدين محمود صاحب الشام، ومر بأدوار معمارية متعددة في الفترات اللاحقة.

وما زال يعد من جوامع الموصل المهمة وذلك لاحتوائه على عناصر معمارية وفنية يعود بعضها الى عهد البناء الاول ومنها المثدنة، وأعمدة المصل المضلعة التي تشغل تيجانها الكتابات وزخارف التوريق العربية، ويرجع بعضها الآخر الى عهود سابقة كالحراب المثبت في مصلى الجامع الحالي (١٥٤٣هـ / ١١٤٨م).

وتقع المثدنة في الركن الشمالي الغربي من الجامع ومتصلة بمجدرانه علماً ان معظم مآذن العراق السابقة واللاحقة تقع في ذلك الركن كما هو الحال في المثدنة المظفرية في اربيل^(١٤)، ومثدنة جامع البصرة التي تعود الى اعمال المستنصر بالله (٦٢٤هـ / ١٢٢١م)^(١٥)، كما ان المثدنة الملوية في جامع سامراء الكبير من عهد المتوكل تقع هي الاخرى في الزاوية الشمالية الغربية للجامع^(١٦) الا انها غير ملصقة بمجدرانه وانما تقع خارج المسجد داخل زيادات مستحدثة وهي عبارة عن افنية طولية تشكل على جبهة الجامع وجانيبه بما يشبه السور وقد تأثرت بهذه الظاهرة بعد ذلك ملوية المي دلف شمال سامراء، ومثدنة الجامع الطولوني بمصر، ومثدنة الجامع الاعظم بسوسة في تونس^(١٧)

ويظهر ان وقوع المآذن في اركان المباني الدينية كانت انسب المواقع، ولهذا شاعت في مناطق اخرى من العالم العربي الاسلامي، ففي رباط

من مظهر التوازن الذي تمثل بالابراج السورية الآتفة الذكر واصبحت تجمع بين الانسجام والاتزان، ويلاحظ ذلك في تناسق نسب عرضها الى ارتفاعها ووضوح ارتكاز المثدنة وثباتها بتراجع الطوابق العالية التي تظهر على قاعدة المثدنة خفيفة الحمل ولكنها وثيقة التماسك بما تحتها والكل كتلة واحدة كاملة المظهر محدودة الشكل^(١٨).

كما زعم بعضهم أن المثدنة المصرية ماهي الا تقليد لمثارة الاسكندرية غير أن كريسول فند ذلك واثبت انها تطور طبيعي لشكل المثدنة التي بدأت في مصر^(١٩).

وما لاشك فيه أن فكرة المثدنة أصيلة في الاسلام فقد ارتبطت بصيغة الآذان الذي كان على الأرجح في السنة الاولى من الهجرة. ولما كانت الغاية من الآذان هي الاعلام بدخول وقت الصلاة والدعوة الى الجماعة فقد كان من الطبيعي ان يكون بصوت عال مسموع يؤدي الغرض الذي شرع من اجله. ومعلوم انه كلما كان الآذان من مكان مرتفع صار مسموعاً لمسافة أبعد، وهذا ماأشارت اليه المصادر التاريخية الموثوقة، حيث كان بلال يؤذن من اعلى بيت حول المسجد يعود لامرأة من بني النجار^(٢٠) وبعد ذلك من على مثدنة في دار حفصة بنت عمر التي تلي المسجد، وكان يرقى اليها بواسطة اقتاب (درجات)، وانه كان في دار عبد الله بن عمر اسطوان مربع في قبلة المسجد يؤذن عليه الذي ورد آنفاً. هذا وقد اعترف المستشرق سوفاجيه بأن هذه المثدنة الاولى في اول مسجد (يعني المسجد النبوي الشريف) قد اتخذت نموذجاً في جميع المساجد اللاحقة^(٢١)، وربما مثدنة جامع عمرو بن العاص بمصر التي بناها الوالي مسلمة بامر من الخليفة معاوية بن ابي سفيان سنة (٥٢هـ / ٦٧٣م) كما افاد القرطبي^(٢٢) تعد اول تلك المآذن التي بنيت خارج الحجاز.

وإذا تناولنا مآذن منطقة الموصل والجزيرة التي كانت الموصل حاضرتها خلال العصور العربية

سوسة بتونس (٢٠٦هـ / ٨٢١م) تقع المئذنة في الركن الجنوبي الشرقي^(١٨). وتتصب في مسجد الحاكم بالقاهرة من العصر الفاطمي مئذنتان في ركني المبنى من جهة المدخل^(١٩) ويرجع ذلك الى وجود المبنى خارج سور القاهرة مما اعطى المهندس المرونة في ايجاد التماثل والتوازن للمبنى، ومع ذلك يغلب وجود المئذنة في ذلك العصر فوق المدخل مؤكدة موقعه كما في مسجد الجبوشي (٤٧٨هـ / ١٠٨٥م) وجامع الاقر (٥١٩هـ / ١١٢٥م)^(٢٠) وانتقلت هذه الظاهرة الى مآذن العصر اليبوتي مثالها مئذنة الصالح نجم الدين (٦٤٠هـ / ١٢٤٢-١٢٤٣م) حيث تقع فوق المدخل^(٢١).

وتعد مئذنة الجامع النوري من المآذن النفيسة في العالم العربي الاسلامي من حيث الضخامة والارتفاع البالغ (٤٩,٤٥) متراً ووجود سلمين بداخلها وتغطيتها بالكامل بالوحدات الزخرفية باستثناء القسم الاسفل من قاعدتها صورة ١، ص ٢٤١.

فالمئذنة تتكون من قاعدة مكعبة منشورية طول ضلعها (٥,٧) أمتار وارتفاعها (١٩) متراً يعلوها بدن اسطواني طوله حتى الحوض (٢٤) متراً ويحيط قاعدته (١٦,٤٥) متراً وقطره من الاسفل (٥,٢٠) امتار ومن الاعلى (٣,٣٥) أمتار، علماً بأن القسم العلوي المتضمن الحوض والرقبة والقمة سقط مؤخرًا واعيد بناءه. والمتفحص للمميزات المعمارية والفنية المتمثلة بالمئذنة تتجلى له عبقرية الممار الذي قام ببنائها، والمامة بأساليب البناء، ومعرفته بالنواحي الهندسية، وخصائص المواد الانشائية، ومدى تأثير العوامل المناخية، وإدراكه للمميزات الفنية الزخرفية، هذا وتعد بعض تلك المميزات من المبتكرات المعمارية، وبعضها الآخر يعبر عن التواصل الحضاري.

قاعدة المئذنة المكعبة وقواعد المآذن الماثلة الاخرى ماهي الا تطور لتلك اللبنة التي بدأت في المسجد النبوي الشريف منذ عهد الرسول (ص)

فقد أورد ابن سعد بطبقاته الكبرى رواية مفادها أنه رُفِع شيء فوق ظهر المسجد يؤذن عليه. ويعني ذلك ان الأذان كان يؤدى من فوق مكان ارتفع عن مستوى سطح المسجد النبوي الشريف بوساطة بناء ارتفع عن نهاية جدار المسجد ليرقى عليه بلال حين يؤذن. ويمكن تصور ذلك على كونه كتلة بنائية من اللبن فوق ركن المسجد حيث يتيسر إقامتها، كما يمكن تصور الرقي إلى أعلى هذه الكتلة بوساطة اقناب (درجات) توضع فوق أحد اضلاع المسجد، وإذا اخذنا بنظر الاعتبار أن سمك جدار المسجد النبوي الشريف بعد توسعه في عهد الرسول (ص) كان بمقدار لبنتين مختلفتين وهو ما يعادل لبنة ونصف أمكن القول بان سمكه كان محدود (٨٠) سم وهو قدر يسمح باستغلاله لبناء كتلة مربعة القاعدة يمكن الرقي عليها للأذان^(٢٢).

اما الابتكار فيتمثل بالبدن الاسطواني لأن مئذنة النوري تعد أقدم المآذن الباقية ذات الابدان الاسطوانية. وقد ساد هذا الطراز بعد ذلك بصورة عامة ولا تعرف من المآذن التي بنيت بعدها بغير هذا الشكل حتى صار طابع مآذن العراق المميز هو ابدانها الاسطوانية^(٢٣)، ومن ابرز الأمثلة على ذلك المئذنة المظفرية في اربيل (٥٨٦-٦٣٠هـ / ١١٩٠-١٢٣٢م)^(٢٤) ومئذنة دافوق المعاصرة لها^(٢٥).

وربما تعدى تأثير ذلك الى تصاميم أبدان بعض مآذن العالم العربي الاسلامي الأخرى ولاسيما سوريا ومصر. ففي الوقت الذي كانت فيه سورية تمتاز بالمآذن المربعة كما في دمشق والمرة وحماة وحلب نجد تميز حلب منذ القرن (٨هـ / ١٤م) بالمآذن المثمنة الاضلاع والاسطوانية كما في مسجد الموازين (٧٩٧هـ / ١٣٩٧م) والسفاحية (٨٢٨هـ / ١٤٦٤م)^(٢٦). اما في مصر فتجلت بوادى تلك التأثيرات منذ العصر الفاطمي ومن أبرز أمثلتها مئذنتا مسجد الحاكم فمئذنته الغربية تمتاز بيدنها الثماني الاضلاع، في حين ان المئذنة الشمالية

في البدن . وهذا حقق الممار غايته المتعلقة بتخفيف الثقل ، فضلاً عن ان مضاعفة التجويف حقق فائدة ثانية وهي زيادة تماسك وشدة المواد البنائية بالمحور الوسطي للبدن وعدم اندفاعها نحو الخارج (٣٠) .

وقد انتقلت ظاهرة السلام المزوجة الى المئذنة المظفرية في اربيل لنفس الاسباب (٣١) ، كما تعدت العراق الى مصر في عصر المماليك حيث تمثلت في مئذنة خانقاه الامير قوصون بصحراء السيوطي سنة (٧٣٦هـ / ١٣٣٦م) (٣٢) كما يتنا في بحث سابق .

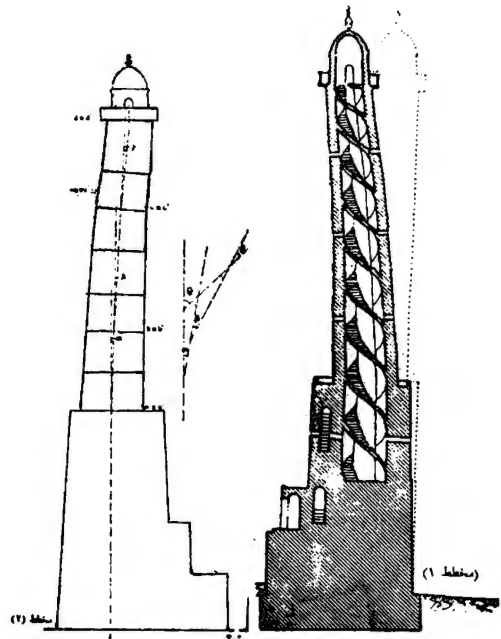
والسلام المزوجة الحزونية في مئذنة الجامع النوري تعد من الابتكارات الممارية المهمة التي لم نعهدها في المآذن قبل ذلك . فعلى الرغم من وجود سلمين في مئذنة عبد الرحمن الناصر في جامع قرطبة (٣٤٠هـ / ٩٥١م) فانها غير مزوجة احداهما على الاخر بصورة حلزونية كما هو الحال في مئذنة الجامع النوري بل ينقسم قلب مئذنة قرطبة الى قسمين مستقلين كل منهما مستطيل الشكل يفصل بينهما جدار ولكل قسم درج قائم بذاته يدور حول كتلة من البناء مستطيلة الشكل ولكل قسم باب مستقل قباب القسم الشرقي يفتح على صحن الجامع ، أما باب القسم الغربي فيفتح على الطريق المحاذي للجدار الشمالي للجامع ويتحد السلمان بأعلى السطح الذي ينتهي بقمة مقبية (٣٣) .

والجدير بالذكر ان بدن مئذنة الجامع النوري قد سقط القسم العلوي منه وهو يتضمن الحوض والرقبة والقمة واعيد تشييده فيما بعد بالجص والحجارة غير المهندمة كما ذكرنا .

وظاهرة سقوط القسم العلوي تمثل في مآذن أخرى في العراق مقاربة من حيث الفترة الزمنية ومشابهة لمئذنة الجامع النوري من حيث التصميم المماري والمواد الانشائية وهي مآذن سنجار والمظفرية وداقوق . وهذا يقود الى الاحتمال بوجود عامل مشترك ادى لذلك السقوط ، فقد يكون القسم الشمالي من العراق قد تعرض الى هزة ارضية

تتصف ببدنها الاسطوانى (٣٧) على الرغم من عدم تكامل نسب تلك المآذن بسبب قصر الأبدان ولكن استطالة الأبدان المضلعة في العصر الايوبي التالي أدت الى ذلك التكامل بين أجزاء المآذن (٣٨) ، هذا فضلاً عن اشغال تلك الأبدان بالمشاكبي ذات العقود المحارية (٣٩) .

وتنبه الممار الى ضرورة تخفيف ثقل المئذنة على القاعدة الناتج من ارتفاعها الشاهق وضخامتها المتناهية لذا عالج هذه الناحية باستحداث سلمين أحدهما يبدأ من القاعدة المكعبة والآخر من البدن الاسطوانى لابلتقيان الا في اعلى الحوض (مخطط ١) وعولجت مسألة الاضواء باستحداث عدة نوافذ



السلام المزوجة والانحاء في مئذنة الجامع النوري في الموصل
عن (د. غازي رجب)

الزخرفية القريبة من الارض الى التلف اكثر من الاجزاء العليا. كما زخرف البدن الاسطواني بسبعة أنطقة عريضة من الزخارف الهندسية المتنوعة التي تفصلها أسرطة رشيقة أخرى.

وإذا اخذنا بنظر الاعتبار تعرض مدينة الموصل خلال عمر المئذنة الذي ناهز الثمانية قرون الى هزات ارضية - ولو خفيفة - فضلاً عن المناخ القاري المتطرف المتمثل بالعراق بصورة عامة والموصل بصورة خاصة المؤثر بمواد البناء، وعلى الرغم من كل ذلك مازالت المئذنة تقاوم عاديات الزمن طيلة القرون المذكورة لجاز لنا ان نعتبر - مجازاً - المعار الذي نفذها مهندساً وجيولوجياً وفناناً بكل معنى الكلمة. (٣٧)

ولابد لنا ونحن في سبيل التعرض لهذه المئذنة الفريدة بمميزاتها المعمارية والفنية في العالين العربي والاسلامي ان نشير الى ظاهرة انحنائها نحو الشرق حتى سميت بالحديباء ادى الى اعتقاد بعضهم بوجود علاقة قوية بين هذه التسمية والتسمية ذاتها التي اطلقت على مدينة الموصل (مخطط ٢). والحقيقة انه ليس ثمة علاقة بين المئذنة والمدينة من هذه الناحية وانما دعيت الموصل القديمة بالحديباء لوقوعها على نشز منحذب من الارض ولاعوجاج نهر دجلة المار بها (٣٨).

وقد قيلت عدة آراء بالنسبة لانحناء مئذنة الجامع النوري مازالت تحتاج الى التوثيق. والغريب في الامر ان الرحالة العرب القدماء والاوربيين الذين زاروا ووصفوا الجامع من بعدهم كابن جبير الذي زار الجامع سنة (٥٨٠هـ / ١١٨٤م) وبوكتكهام الذي وصف الجامع سنة (١٢٣٢هـ / ١٨١٦م) لم يشيروا الى ميلان المئذنة. (٣٩)

ولايحتمل البت بصورة قطعية بامر حدوث ذلك الانحناء أهوي يعود الى عهد البناء الاول ام انه نتج في الفترات اللاحقة وعلى اية حال فإن الميلان

في فترة معينة ادى الى ذلك السقوط، ويحتمل أيضاً أن عاصفة هوجاء قوية جدا كانت السبب المباشر لذلك السقوط. ومهما يكن الحال فان أياً من المصادر التاريخية لا يذكر أية معلومات عن تاريخ هذا السقوط الفردي او الاجتماعي (٣٩).

وبالنسبة للمواد الانشائية فالمعروف أن مدينة الموصل خلال الفترات التاريخية استخدمت الرخام في تشكيل العناصر المعمارية، وتأطير بعضها الآخر الذي غلب على المواد الاخرى غير أن المعار تنبه الى تأثر هذه المادة بعوامل المناخ وبالذات الامطار التي تكثر في فصلي الشتاء والربيع، ولهذا اكثر من استخدامها في الاجزاء الداخلية للمباني. أما مادة الحلان المهندمة (٣٥) التي استعملت في اجزاء المباني الخارجية وعناصرها فعلى الرغم من قلة تأثيرها بعوامل الطبيعة مقارنة بالرخام (٣٦) فإن تماسك قطعها المهندمة بعضها ببعض لا يستقيم زمناً طويلاً في العناصر المعمارية العمودية التي لاتستند على جدران أو عناصر أخرى زمناً طويلاً بل تفكك على المدى القريب ومن الأدلة على ذلك مآذن مدينة الموصل التي بنيت من هذه المادة خلال الفترة العثمانية حيث دب التصدع والتفكك اليها، كما هو الحال في مئذنة جامع النبي جرجيس، ومئذنة جامع النبي شيت التي هدمت مؤخرًا وأعيد بناؤها للسبب نفسه.

وهكذا نجد أن المعار كان موقفاً حينها لجأ الى بناء المئذنة بالحجارة الكلسية غير المهندمة والجص كإداة رابطة ثم غلفها من الخارج بمادة الآجر التي تتميز بمقاومتها لعوامل الطبيعة فترة طويلة من الزمن وسهولة ترابط قطعها بواسطة المواد الرابطة، فضلاً عن خفة وزنها مقارنة بالمواد الاخرى كما اسلفنا.

ولم يهمل المعار النواحي الجمالية في مئذنة الجامع النوري وهو يعالج النواحي المعمارية، لذا عمد الى زخرفة القاعدة بمناطق هندسية تكتنفها وحدات من زخارف التوريق العربية المحورة باستثناء القسم الاسفل من المئذنة وذلك لتعرض وحداته

والتصدع قد ازداد مؤخراً مما حدا بالمؤسسة العامة للآثار والتراث الى إناطة صيانتها بمؤسسة ايطالية عملت على احدثات تقوب في اجزائها وإدخال قضبان حديدية بداخلها وضخها بالاسمنت ومع ذلك فان التصدع لم يتوقف بفعل تعدد موادها الانشائية الاصلية ومواد الصيانة اللاحقة وتباين تأثيرها بدرجات الحرارة المتفاوتة على مدار السنة.

والجدير بالذكر ان معظم المآذن الآجرية التي بنيت في العهود المتأخرة في الموصل تميل نحو الشرق على غرار ميل المئذنة الحلباء. ومن المستبعد ان يكون جميعها قد بنيت منذ الأصل بصورة ماثلة. وهذا يحمل على الاعتقاد بأن مادة الآجر او مواد الجص الرابطة التي تتخللها تختلف من حيث التقلص والتمدد والجفاف والتصلب من جهاتها المختلفة ولاسيما بين جهتي الشرق والغرب بفعل تفاوت درجات الحرارة الساقطة مما يساعد على ميلاتها قبل ان تصل المواد الى مرحلة التصلب النهائية^(١١).

ثانياً/ مئذنة الجامع الاموي :

يقع الجامع الاموي في منطقة رأس الكور في الجهة الشمالية الشرقية من مدينة الموصل القديمة وهو احوال جامع بني بالمدينة من قبل الوالي عتبة بن فرقد السلمي سنة (١٦هـ / ٦٣٧م) على عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رض) ، غير ان الاهتمام الكبير بالجامع الذي شمل التجديد والتوسيع واضافة كثير من العناصر المعمارية كالمقصورة^(١٢) والمئذنة^(١٣) من قبل مروان بن محمد الذي كان والياً على الموصل والجزيرة عام (١٢٦هـ / ٧٤٣م)^(١٤) قبل ان يلي الخلافة الاموية في العام التالي^(١٥) جعل البعض يسمونه بالجامع الاموي^(١٦) بل نسب بعض آخر الى هذا العاهل^(١٧). كما وسع ثانية في العصر العباسي بامر من الخليفة المهدي حيث هدمت بعض مرافقه

واضيفت اليه الاسواق والحوانيت المحيطة به سنة (١٦٧هـ / ٧٨٣م)^(١٨) ثم تداعت عمارة الجامع بعد ذلك نتيجة الحروب والاضطرابات السياسية اثناء تسلط العقيلين على الامور^(١٩).

ونال الجامع بعد ذلك الاهتمام في العصر الاتابكي في عهد الملك سيف الدين غازي الاول بن عماد الدين زنكي (٥٤١-٥٤٤هـ / ١١٤٦-١١٤٩م) حيث أعيد بناءه وجددت مئذنته.^(٢٠) ودب الخراب ثانية الى الجامع بعد تسلط المغول على الموصل سنة (٦٦٠هـ / ١٢٦١م)^(٢١) ، ومن بعدهم تيمورلنك^(٢٢) والقبائل التركمانية مما ادى للقضاء على معظم سكان المدينة ودمار مبانيها^(٢٣).

اتضح لنا مما تقدم ان اول ذكر لمئذنة الجامع الاموي هي التي استحدثت سنة (١٢٦هـ / ٧٤٣م) من قبل مروان بن محمد ولم تسعنا الروايات التاريخية ولا الأدلة الاثرية عن وجود مئذنة للجامع قبل هذا التاريخ وان كانت فكرة المئذنة وبوادرها الاولى وجدت في المسجد النبوي الشريف متمثلة بالمئذنة التي كانت في دار حفصة بنت عمر التي تلي المسجد ، والاسطوان المربع الكائن في قبلته كما اوضحنا في مقدمة البحث ، كما لم تسعنا الروايات والادلة المذكورة على تصميم مئذنة مروان وعلى ابة مئذنة في العراق من العهد الاموي ، وان ماتبقى من المئذنة الاثرية الحالية يشير الى احتمال عودتها للفترة الاتابكية .

واذا اخذنا بنظر الاعتبار تلك الابراج شبه الاسطوانية الكائنة في اركان اسوار المباني والتي تستند على قواعد مكعبة تماثل تصاميم المآذن الاسطوانية كما هو الحال في القصر الاموي في الشعبية بالبصرة^(٢٤) عندها نرجح ان تصميم مئذنة الجامع الاموي بالموصل كان على هيئة بدن اسطواناني يرتكز على قاعدة مكعبة (مخطط ٣) وان كانت كذلك فتعد هذه المئذنة اقدم مئذنة بالعالم العربي

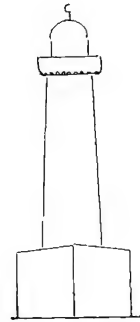
اما بقايا المئذنة الاثرية الكائنة في الجامع الاموي فن المرجح عودتها الى العصر الاتابكي (٥٤١-٥٤٤هـ / ١١٤٦-١١٤٩م) ^(٥٨) وهي عبارة عن بدن اسطواني مبني من الحجارة غير المهندمة والجص سقط قسمه العلوي (صورة ٢) وبما لاشك فيه انه كان ينتهي بقمة مقببة وحوض يستند على مقرنصات قريب من العنق على غرار مئذنتي سنجار والحدياء المعاصرتين تقريباً، اما القاعدة فلم تتمكن من معرفة هيتها هل كانت مضلعة على غرار مئذنة سنجار او المظفرية، ام كانت مكعبة على غرار مئذنة الحدياء. بسبب التصاق المباني الحالية بتلك القاعدة، وربما كان البدن وكذلك القاعدة قد غلظا بقطع الآجر المزخرف على غرار مئذنة الحدياء.



(صورة ٢) بقايا مئذنة الجامع الاموي في الموصل من عهد سيف الدين غازي (٥٤٣هـ / ١١٤٨م).

والثالث: مئذنة سنجار:

تعد سنجار من مدن الجزيرة المهمة خلال العصور العربية الاسلامية، وقد تحلقت فيها بعض النفائس الأثرية من مبان وعناصر معمارية كمشهد الست زينب، ومحارب كوكمت من القرن (١٧هـ / ١٣م)، ومئذنة سنجار (٥٩٨هـ / ١٢٠١م). وتقع المئذنة في الجنوب الغربي لمدينة سنجار.



(مخطط ٣) مخطط قنصل مئذنة الجامع الاموي في الموصل من عهد مروان بن محمد
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

الاسلامي يتخذ بدنأ اسطوانياً، كما اثرت بتصميم مئذنة الجامع النوري المكون من البدن الاسطواني والقاعدة المكعبة كما بينا. ونستبعد ان تكون مئذنة الجامع الاموي بالموصل قد ماثلت المآذن المكعبة التي شاعت في جامع دمشق ^(٥٩) وجامع عمرو بن العاص بالقاهرة ^(٥٦) والقبروان ^(٥٧) من العصر الاموي لان مثل هذا التصميم لم نعهده في مآذن العراق على الاطلاق.

أما موقع المئذنة فن المرجح انها كانت ملصقة في احد الأركان الامامية، ومن المعتقد انه الركن الشمالي الغربي قياساً بمعظم مواقع المآذن في العراق وأغلب المآذن في المناطق الاخرى من العالم العربي الاسلامي كما مر بنا في اثناء تناولنا لمئذنة الحدياء.

أما المادة الانشائية لمئذنة الجامع الاموي بالموصل فن المرجح ان المئذنة بنيت بالحجارة غير المهندمة والجص وغلفت بالاجر، لان هذه المواد تساعد على استدارة البدن اكثر من الحجارة المهندمة الكبيرة التي تستخدم في بناء المآذن والابرار المكعبة، وربما استخدمت بعض النواحي الزخرفية التي تعتمد على التلاعب بوضع قطع الآجر ومستوياتها لان مادة الآجر تساعد على ذلك.

البدن حيث تفتتح حنية ذات عقد مدبب في القسم السفلي منه مكونة مدخل السلم ويمتاز البدن بالرشاقة إذا ما قورن مع بقية المآذن العراقية الشائعة (٥٩).

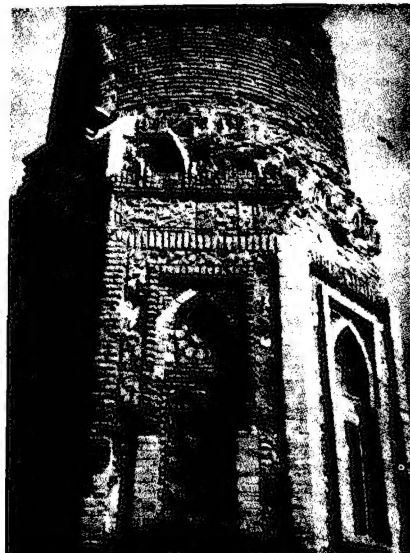
وإذا تناولنا المئذنة بالتحليل الأكاديمي من حيث موقعها وقياساتها وعناصرها المعمارية وميزاتها الفنية نجد أن موقعها كان يحتل الركن الشمالي الغربي للجامع قبل انهدامه استناد إلى التصاق وجهين من أوجه القاعدة الثمانية للمئذنة بجدار الجامع .

والطول الحالي للمئذنة البالغ (١٢) متراً بما فيه ارتفاع القاعدة البالغ (٧) أمتار لا يمثل الطول الحقيقي للمئذنة وذلك لفقدان البدن لقسمه العلوي ، وإذا اخذنا بنظر الاعتبار نسبة طول القاعدة إلى طول البدن وهي ٢ / ١ في مئذنة الجامع النوري بالموصل المعاصرة لها لا تنضج لنا أن الجزء المفقود من البدن بمحدود (٨) أمتار، فإذا أضفناه إلى الطول المتبقي وهو (١٢) متراً فيكون الطول التقريبي لها في الأصل هو (٢٠) متراً. كما أن المئذنة لا بد أن تكون قد انتهت بقمة كروية كما هو الحال في قم أغلب المآذن .

وبشأن العناصر المعمارية نجد أن تصميم مئذنة سنجار المتمثل بالبدن الأسطواني والقاعدة المثمنة الاضلاع المشغولة بالمشاكي المزدوجة يؤكد مبدأ التواصل الحضاري والابتكار الذي يتمثل بقاعدتها التي تعكس مئذنة عنة ذات البدن المثمن المنشوري المشغول بالمشاكي والنوافذ المقوسة وما يعزز ذلك التأثير نسبة مئذنة عنة إلى الربع الأخير من القرن الخامس الهجري وأن منطقة الموصل والجزيرة وشمالي الفرات كانت واقعة ضمن حكم العقيليين في تلك الفترة (٦٠)

وأبرز ما في قاعدة مئذنة سنجار ذلك الصف من الحنايا الصغيرة ذات العقود المدببة البارزة نحو الخارج . (مخطط ٤) ومن الجلي أن رؤوسها كانت تسند قاعدة شرفة أو مصطبة تدور حول بدن المئذنة وربما استخدمت للأذان أحياناً . وتمثل هذه الحنايا بداية للمقرنصات واستخدامها كمساند للآحواض أو

وقد تقوض الجامع الذي كان يضمها وعنى على أثره ولم يبق من مخلفاته سوى هذه المئذنة التي فقدت معظم جزئها العلوي . ولهذا دعيت المنطقة الواقعة فيها في الوقت الحاضر بمحلة المنارة (صورة ٣) .



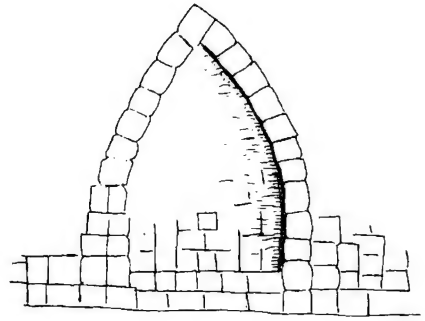
(صورة ٣) مئذنة سنجار (١٢٠١ هـ / ١٢٠١ م)

تصوير (يوسف ذنون)

وتعد من المآذن العراقية المهمة . ويتضح ذلك بكونها تتضمن عناصر وميزات معمارية وفنية فريدة ، بالإضافة إلى النص التذكاري الذي تحمله . وتتكون هيئتها الحالية من قاعدة ثمانية الاضلاع شغل كل ضلع بمشكاتين تعلو أحدهما الأخرى وتنتهي كل منها بعقدتين مزدوجتين عدا ضلعين يلتصق بهما جدار الجامع . ويتوج المشاكي نص تذكاري بخط الثلث على طريقة ابن البواب . ويليه صف من حنايا صغيرة مدببة العقود تبرز نحو الخارج .

ويعلو القاعدة بدن أسطواني كان يتوجه حوض بخرقه سلم حلزوني يدور داخله ويبدأ عند قاعدة

وبشأن الشريط الكتابي الكائن بين صف الحنايا وأعلى المشاكي السابقة للقاعدة نجده يتضمن النص التذكاري التالي : «بسم الله الرحمن الرحيم ... العبد الفقير الى ... الدين ... ابن زنكي بن اقسقر في شهر محرم سنة ثمان وتسعين وخمسمائة». والظاهر ان القسم التالف من النص كان يتضمن اسم الشخص الذي نهض ببناء الجامع الذي كان يضم المئذنة. ولدى استعراض من حكم سنجار في هذه الفترة اتضح انه قطب الدين محمد بن زنكي الذي ملك سنجار في الفترة (٥٩٤-٦١٦هـ / ١١٩٧-١٢١٩م) ^(٦١).



(مخطط ٤) حنية تعلو قاعدة مئذنة سنجار
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

ولم تقتصر الأهمية التاريخية لهذا النص على ذلك وإنما تكمن في كونه يمكن الباحثين من الاهتداء الى تاريخ كثير من العناصر الماثلة التي لاتحمل تاريخاً مدونا عن طريق الدراسة المقارنة.

وقد استخدم المعمار مادة الآجر والجص مادة رابطة في بناء المئذنة دون غيرها من مواد البناء المتوافرة كالرخام والحجارة الكلسية وذلك لقلة تأثر الآجر بالعوامل الطبيعية والظروف المناخية القاسية قياساً بالمواد الانشائية الأخرى، فضلاً عن سهولة ترابط قطعة بوساطة المادة الرابطة الجص، وخفة وزنه وقلة كلفته وسهولة الحصول عليه.

والراجح أنه كان مادة الآجر الأثر الكبير في اعتماد ابدان المآذن الاسطوانية حيث ان طبيعة قطعها وطريقة بنائها يساعد على ذلك أكثر من الحجارة المختلفة، وربما كان اعتماد هذه المادة في البناء وراء شيوع الابدان الاسطوانية في العراق قبل غيره من المناطق الأخرى وما يعزز ذلك ان أغلب المآذن ذات الابدان الاسطوانية استخدمت في بنائها مادة الآجر.

هذا ولم ينس المعمار الناحية الفنية الجمالية وهو يعالج الناحية المعمارية بدراية تامة ولذلك نفذ على يده شريطين من الزخارف الهندسية نفذت بطريقة اختلاف صفوف الآجر وقص العينات الزخرفية وترتيبها. بوضعيات فنية محدثة انواع مختلفة من

البروزات المصطبية التي تستعمل لأغراض التحلية أحياناً ثم تطورت فيما بعد واستعملت بصورة متقدمة ومركبة في عدد من المآذن اللاحقة حيث تستند عليها قواعد الاحواض ^(٦٢).

أما المشاكي المزدوجة التي تعلو بعضها بعضاً داخل الأوجه المضلعة لقاعدة المئذنة لأغراض فنية فقد أحدثت نوعاً من التجسيم بفعل تفاوت الظلال.

وما يجدر التنويه به شيوع العقود المزدوجة في واجهات بعض المباني العامة في القرن (١٧هـ / ١٣م) لغايات معمارية. فقد استحدثت في الأروقة التي تقدم الفضاءات الداخلية في الطوابق السفلى والطوابق التي تعلوها كما هو الحال في المدرسة المستنصرية (٦٢٥-٦٣١هـ / ١٢٢٧-١٢٣٤م) ^(٦٣).

وربما ان فكرة العقود التي تعلو بعضها بعضاً بترتيب مزدوج متأثرة بالعقود المزدوجة التي ابتكرت في مسجد قرطبة (١٦٩هـ / ٧٨٥هـ) وهي عقود فريدة في تاريخ العمارة لم يعرف لها نظير قبل ذلك ^(٦٣).

العناصر الزخرفية الهندسية، وتمثل ذلك أيضاً في الزخارف النجمية وأجزائها ومنها الاطباق النجمية الفريدة (٣٦).

وهكذا اتضح لنا من خلال البحث ان مآذن الموصل سواء الكاملة منها ام التي حققنا هيئاتها الاصلية على الرغم من محافظتها على التواصل الحضاري والوحدة التعبيرية للعمارة العربية الاسلامية فانها تميزت بمظاهر فنية فريدة، وعناصر معمارية مبتكرة.

الهوامش

- (١) احمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها (المختل)، القاهرة ١٩٦١م، ص ٢٧٦، الدكتور عبدالمعتمد عبدالعزيز رسلان: نشأة المئذنة، مجلة الدارة، العدد الاول، السنة الحادية عشرة، شوال ١٤٠٥هـ/ يونيو ١٩٨٥م، ص ١١.
- (٢) صالح لمعي مصطفي: التراث المعماري الاسلامي في مصر، بيروت ١٩٧٥، ص ٣٦.
- (٣) كمال الدين سامح: العمارة في صدر الاسلام، القاهرة ١٩٦٤م، ص ١٦٨، الدكتور طاهر مظفر العميد: آثار المغرب والاندلس، بغداد ١٩٨٩، ص ٢٦٠.
- (٤) ياسين بن خيرالله العمري: منية الادباء في تاريخ الموصل الحدياء، تحقيق سعيد الديوهجي، الموصل ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، ص ٣٦. لمعي: المرجع السابق، ص ٣٧.
- (٥) سامح: المرجع السابق، ص ١٧٥.
- (٦) رسلان: المرجع السابق، ص ٣.
- (٧) لمعي: المرجع السابق، ص ٣٧.
- (٨) احمد فكري: مسجد القيروان، القاهرة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، ص ١١٠، سامح: المرجع السابق، ص ١٦٨، جورج مارسيه: الفن الاسلامي، باريس ١٩٦٢م، ص ٨٠.
- (٩) فكري: المرجع السابق، ص ١١٠-١١٢.
- (١٠) لمعي: المرجع السابق، ص ٣٧.
- (١١) رسلان: المرجع السابق، ص ٦.
- (١٢) فكري: المختل، ص ٢٧٦، رسلان: المرجع السابق، ص ٤.
- (١٣) لمعي: المرجع السابق، ص ٣٦.
- (١٤) احمد قاسم الجمعة: المئذنة المظفرية في اربيل، مجلة الشمل، العدد الرابع، ربيع ثاني ١٣٩٩هـ/ آذار ١٩٧٩م، الموصل، ص ٦٨.
- (١٥) سلمان: المرجع السابق، ص ٥١.
- (١٦) لمعي: المرجع السابق، ص ٣٧، ٣٨.
- (١٧) احمد قاسم الجمعة: التأثيرات المعاصرة بين مصر والعراق خلال العصور الاسلامية من العهد العثماني، ادب

- الرافدين، العدد العشرون، الموصل ١٩٨٩م، ص ٨٦.
- (١٨) سامح: المرجع السابق، ص ١٧٥.
- (١٩) احمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها، مصر الفاطمي، القاهرة ١٩٦٥، ج ١، ص ٦٨.
- (٢٠) لمعي: المرجع السابق، ص ٣٨.
- (٢١) المرجع نفسه، ص ٣٩.
- (٢٢) رسلان: المرجع السابق، ص ٨-١٠.
- (٢٣) المرجع نفسه، ص ١٥٠.
- (٢٤) الجمعة: المئذنة المظفرية في اربيل، ص ٧٠.
- (٢٥) سلمان: المرجع السابق، ص ١٨٥.
- (٢٦) حسن عبدالوهاب: التأثيرات المعاصرة بين آثار سوريا ومصر، القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦٢م، ص ٢٥.
- (٢٧) فكري: المرجع السابق، ج ١، ص ٦٨.
- (٢٨) عبدالوهاب: المرجع السابق، ص ٢٥.
- (٢٩) لمعي: المرجع السابق، ص ٣٩.
- (٣٠) الجمعة: من نفائس الفن المعاصر في الموصل، ص ٥٦.
- (٣١) الجمعة: المئذنة المظفرية في اربيل، ص ٦٨.
- (٣٢) حسن عبدالوهاب: من روائع العمارة الاسلامية في مصر، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية، القاهرة ١٩٦٥، ص ٣٠٩.
- (٣٣) طاهر مظفر العميد: آثار المغرب والاندلس، بغداد ١٩٨٩م، ص ٢٦١.
- (٣٤) سلمان: المرجع السابق، ص ١٨٨.
- (٣٥) الحلان: نوع من الصخور الجيرية (كاربونات الكالسيم)، وهذه التسمية وان لم ننف على ذكرها في المعاجم اللغوية لربما جاءت من كلمة التحلية لان قطع الرخام بالموصل كانت ولا تزال تستخدم في تحلية العائز ولاسيما واجهاتها الخارجية بعد تزيينها وهندستها: الدكتور احمد قاسم الجمعة: الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الاتابكي والايلاخي، رسالة دكتوراه قدمت لجامعة القاهرة ١٩٧٥م، ج ١، ص ٢٢.
- (٣٦) احمد قاسم الجمعة: مدخل مزاركف (بنجة) علي بالموصل، آداب الرافدين، العدد التاسع عشر، ١٩٨٩م، ص ٩٨.
- (٣٧) الجمعة: من نفائس الفن المعاصر في الموصل، ص ٥٦.
- (٣٨) ازهر السالك وآخرون: استخدامات الارض، الموصل ١٩٨٥م، ص ١٦.
- (٣٩) ابن جبير: رحلة ابن جبير، القاهرة ١٣٢٦هـ/ ١٩١٨م، ج ٢، ص ٢١٤.
- (٤٠) Buckingham (J.S.), Travels in Mesopotamia, London, vol. 11, p.30.
- (٤١) الجمعة: المرجع السابق، ص ٥٦.
- (٤٢) سعيد الديوهجي: الجامع الامري، مجلة سور، المجلد ٦ لسنة ١٩٥٠، ص ٢١٢.
- (٤٣) ياسين بن خيرالله العمري: منية الادباء في تاريخ الموصل الحدياء، تحقيق سعيد الديوهجي، الموصل ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، ص ٣٦.

- (٥٤) الدكتور عيسى سلمان وآخرون: المهارات العربية الإسلامية في العراق (قصور ومشاهد)، بغداد ١٩٨٢، ج٢، ص ١٤، مخطط ١.
- (٥٥) عبدالوهاب: المرجع السابق، ص ٢٤.
- (٥٦) لمعي: المرجع السابق، ص ٣٦.
- (٥٧) فكري: المرجع السابق، ص ١١٠.
- (٥٨) الديوبهجي: جوامع الموصل، ص ١٤.
- (٥٩) سلمان: المرجع السابق، ص ١٤٧، ١٥٠.
- (٦٠) سلمان: المرجع السابق، ص ١٤٤-١٤٦، لوح ٢٤.
- (٦١) سلمان: المرجع السابق، ص ١٤٧، ١٥٠.
- (٦٢) الدكتور أحمد قاسم الجمعة: العناصر والمميزات المعمارية في المدرسة المستنصرية، الندوة العلمية للمستنصرية في التاريخ، بغداد ١٩٨٦م، ص ٦٥، لوحة ٤.
- (٦٣) فكري: المرجع السابق (المدخل)، ص ١٣.
- (٦٤) نبغولا سيوني: مجموع الكتابات المخررة لابنة مدينة الموصل تحقيق سعيد الديوبهجي، بغداد ١٩٥٦، ص ١٦٦.
- (٦٥) لم تدخل بتفاصيل تلك الخزاف لانها سنبحت ضمن الخزاف الآجرية في الموصل ضمن القرون التشكيلية.

- ١٩٥٥م، ص ٣٦.
- (٤٤) الأزدي: تاريخ الموصل، تحقيق دكتور علي حبيبة، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م، ج٢، ص ٥٦.
- (٤٥) المصدر نفسه، ص ٦٤.
- (٤٦) ابن جبير: المصدر السابق، ص ٢١٤.
- (٤٧) ياقوت الحموي: معجم البلدان، لأبيزك ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م، ج٢، ص ١٩٧.
- Bell (G.L.), Amurath to Amurath, London 1911, p. 259.
- (٤٨) الأزدي: المصدر السابق، ص ٢٤٨.
- (٤٩) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل، تحقيق عبدالقادر طليحات، القاهرة ١٩٦٣م، ص ٧٧.
- (٥٠) سعيد الديوبهجي: جوامع الموصل في مختلف العصور، بغداد ١٩٦٣م، ص ١٤.
- (٥١) ابن كثير: البداية والنهاية في التاريخ، القاهرة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م، ج١٣، ص ٢٣٤.
- (٥٢) ابن عرشاه عجائب القصور في اخبار تيمور، ١٣٠٥هـ / ١١٨٨.
- (٥٣) البليكي: ذيل مرآة الزمان، ج١، ص ٤٩٥.

الِقْبَابُ الْوَتْرِيَّةُ

أ. د. عادل نجم عبّو

في الجامع المجاهدي والمدرسة الكالية أو بصلية مثل قبة الامام عبد الرحمن أو هرمية مثل قبة مشهد يحيي بن القاسم أو هرمية ذات أنخايد مثل قبة الامام عون الدين والامام الباهر وبعض قباب سنجار^(١) والاضرحة اليزيدية المقدسة. والأهم من هذا كله هو التنوع في التراكيب المعمارية الداخلية لقباب الموصل، إذ أن هذه الاجزاء احتفظت بأوضاعها الاصلية التي شيدت عليها أحياناً على عكس الاجزاء الخارجية التي رمت وكسيت كثيراً نتيجة تعرضها للتغيرات الجوية مما أفقدها أشكالها التي كانت عليها فابتعدت كثيراً عن أصولها بحيث لايمكن تصور الشكل الأصلي لبعض هذه القباب. ومن بين هذه الطرز والأساليب المتنوعة لقباب الموصل من الممكن تمييز طراز أطلقنا عليه «القباب الوترية» أو قبة الجزيرة وذلك لانتشاره في منطقة الموصل والجزيرة المحيطة بها. إن المادة

ساهمت منطقة الموصل، كغيرها من الأقاليم الإسلامية، في تطوير المارة العربية الإسلامية بمختلف عناصرها ومنها القباب. وكما كان للموصل خصوصيتها في الجوانب الفنية والمعمارية كان لها خصوصيتها كذلك في بناء القباب وزخرفتها وتنبع هذه الخصوصية من عوامل كثيرة. منها ما يتعلق بمواد البناء المتوافرة ومنها مايتعلق بعوامل جغرافية فضلاً الى تأثير الموروث الحضاري للمنطقة.

على الرغم من أن القباب تمثل الاجزاء العليا من المباني التي تكون عرضة للسقوط والاندثار أكثر من بقية الاجزاء الاخرى فإن منطقة الموصل مازالت تحتفظ بعدد منها، اختلفت في أغراضها، فبعضها كانت لتسقيف أجزاء من مساجد وبعضها الآخر لمدارس أو أضرحة وغيرها. كذلك اختلفت طرز وأنماط هذه القباب في تركيبها ومظهرها الخارجي، بين قباب نصف دائرية مدبية مثل تلك المستخدمة

المستخدمة في بناء قباب هذا الطراز هي الجبس الأبيض المعروف بالموصل بالبياض والذي كان يُعد محلياً بحرق الرخام المعروف بالبكر، وهو الطبقات العليا من الرخام بأكوار خاصة ثم طحنه، وظلت هذه المادة تستخدم حتى منتصف القرن الحالي في بناء العقودات بأنواعها وفي لحام الفواصل بين قطع الرخام ويتميز هذا الجبس بسرعة تصلبه ونساعة بياضه.

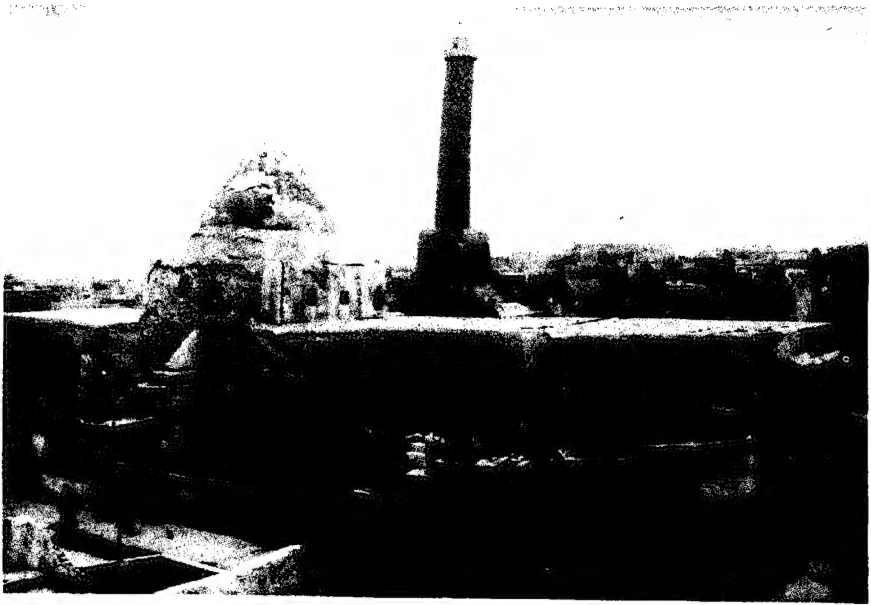
والقبة الجبسية من هذا الطراز تكون عادة زخرفية حشة مغطاة بقبة ثانية لحمايتها يتكون إحنائها نصف الكروي من هيكل من الاوتار المتقاطعة تنطلق من قاعدة قد تكون مسننة مكونة من حنيات عددها ست عشرة أو أربع وعشرون، وتتقاطع الأوتار حول مركز القبة لتشكل نجمة لها من الرؤوس بقدرما للقاعدة من الحنايا. ويتم الانتقال من القاعدة المربعة الى القاعدة المسننة أو المضلعة بواسطة سلسلة من المقرنصات المكعبة أو المنشورية ذات الاشكال المختلفة. وقد طرأت تغييرات وتحويرات على هذا الطراز الأساسي مع تقادم الزمن كما سئرى.

لنعرف على وجه الدقة تفاصيل نشوء هذا الطراز كما لنعرف بالضبط متى تكون نموذجه الأول، الا أن أقدم نماذجه التي وصلت إلينا ترجع الى النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وبمكنتنا أن نستخلص التطور والتحوير الذي طرأ على هذا الطراز من خلال عرضنا للنماذج الباقية منها وهي:

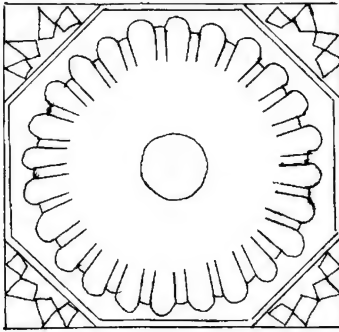
قبة الجامع النوري:

بدأ بناء الجامع النوري المعروف بالجامع الكبير عام ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م برعاية نور الدين محمود^(٢) وتم بناؤه وأقيمت الصلاة فيه سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م واستمر يستخدم مسجداً جامعاً الى جانب الجامع العتيق (الاموي) حتى شيد الجامع المجاهدي عام ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م فأصبح في المدينة ثلاثة مساجد جامعه^(٣).

يبدو أن الجامع قد احتفظ بمعظم أجزائه الأصلية قبل أن يهدم عام ١٩٣٩ (الشكل ١) فكانت مساحة بيت الصلاة ٧٠ × ٢٠ م قسمت الى أسكوبين أسكوب عريض يمتد على طول جدار القبة يبلغ عرضه ٨,٧٠ م وأسكوب ضيق يمتد بشكل مواز له عرضه ٤ م ويفصل بين الأسكوبين صف من الدعامات الرخامية وقد قسم الاسكوب العريض الى مربعات بوساطة أعمدة بشكل صفوف معترضة متعامدة في إتجاهها مع جدار القبة من هذه المربعات مربعة المحراب المسقفة بقبة^(٤) والتي تبلغ مساحتها ٩ × ٨,٧٠ م. ترتكز قبة المحراب إذن على جدار القبة من جهة الجنوب وعلى ثلاثة عقود قائمة على الدعامات من بقية الجهات الثلاث الأخرى وترتفع فوق العقود جدران لتشكل مع جدار القبة القاعدة المربعة للقبة^(٥). وعلى إرتفاع عشرة أمتار تقريباً تبدأ منطقة الانتقال المكونة من طاقات ركنية مركبة قسم داخل كل منها الى مجموعة من المقرنصات الصغيرة شبيهة بتلك التي استخدمت في قبة مشهد يحيى بن القاسم والامام عون الدين^(٦). تعمل منطقة الانتقال هذه على تحويل القاعدة الى مشنة (الشكل ٢ والشكل ٣) وتعلو القاعدة المشنة قاعدة أخرى دائرية مسننة تتكون من إلتقاء أربع وعشرين حنية نصف دائرية وتبرز من نقاط إلتقاء الحنيات بعضها ببعض أوتار تنحى نحو مركز القبة لتكون هيكلها إلا أن الترميمات المتلاحقة التي تلاحظ على الجدران الحاملة للقبة وعلى القبة نفسها قد أضاعت الكثير من معالمها بحيث يصعب معرفة تركيب هذه الأوتار ولكن حين مقارنتها بغيرها من القباب المعاصرة لها من نفس الطراز يمكن القول إنها كانت تلتقي حول مركز القبة العلوي لتشكل نجمة ذات أربعة وعشرين رأساً. أن طبيعة هذه القبة المشاشة لأنها مشيدة بالجبس يحتم كونها قبة زخرفية داخلية حيث شيدت فوقها قبة أخرى خارجية هرمية تقريباً ذات ستة عشر وجهاً وبين القبتين فراغ^(٧) وبذلك تكون هذه القبة أقدم القباب المزدوجة التي وصلت إلينا.



الشكل (١) الجامع النوري قبل هدمه



متر ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠

الشكل (٢) تخطيط قبة الجامع النوري من الداخل

الانطاكي ومار ابونيس الاسكندري وهي التي توفي فيها ما أغناطيوس مغريان المشرق، من بقرا هذا فليصل عليه^(١٠).

يمثل الشكل ٤ مخطط الكنيسة كما رسمه برويسر^(١١) في مطلع هذا القرن ولم تحصل أية

قباب دير مار بهنام :

يقع الدير على بعد ٣٥ كم جنوب شرق الموصل ولا يعرف بالضبط تاريخ إنشائه إلا أنه من المؤكد أن بداية تأسيسه ترجع لفترة ما قبل الاسلام ، وقد مر بناء الدير بعدة أدوار تعميرية^(٩) كان أبرزها ذلك الذي تم في العهد الأنابكي في الموصل فالى ذلك العهد يرجع بناء الكنيسة ذات الواجهة الرخامية والقباب موضوع البحث . فن النصوص القديمة التي ما زالت في الكنيسة والتي يرتبط بالجزء القائم منها نص مؤرخ من سنة ١٤٧٥ يونانية وهي سنة ١١٦٤ م أي ما يوازي ٥٥٩ هـ سنة تجديد المذبح ونقش هذا النص على حجارة في المذبح وبالخط السطرنجيلي ترجمته «بسم الله القدوس ، تجدد وكمل هذا المذبح بهمة الرهبان يوسف القسيس بالاسم وأبي الفضل وجبرائيل الشماسين والأخ حسن سنة ١٤٧٥ يونانية وهي سنة ٥٥٩ هجرية في عهد الابوين المفبوطيين بطريكتنا مار انثاسيوس



الشكل (٣) قبة الجامع النوري من الداخل قبل هدمها

صفوف متعاقبة من المقرنصات المنشورية (الشكل ٥ والشكل ٦) بأشكال مختلفة وذات قواعد مربعة أو معينية أو مثلثة أو نجمية وزينت الاجزاء السفلى من هذه المقرنصات بزخارف نباتية أو كتابات، وهذه الكتابات هي باللغة العربية أو السطرنجيلية^(١٣) وتعمل المقرنصات على تحويل القاعدة المربعة الى دائرية مسننة تتكون من إلتقاء ست عشرة حنية وتشكل التقاء الحنيات قواعد ينطلق من كل منها وتران يتجهان باتجاهين متعاكسين ليلتقي كل منها بالوتر المنطلق من القاعدة الثالثة من القواعد المجاورة له بحيث يتكون من التقاء بعضها ببعض نجمة ذات ستة عشر رأساً تشكل قبة القبة وينتج عن تقاطع الاوتار بعضها ببعض تجاويف عميقة ذات أشكال مختلفة، لوزية أو معينية غير منتظمة . ويبدو أن هذه التجاويف قد غطيت بكساء جصي هش بحيث أنه قد تساقط من بعضها ، وأصبحت تلك التجاويف مفتوحة نحو الخارج وأن هذه الظاهرة تدفنا الى الاعتقاد بوجود قبة أخرى كانت تغطي هذه القبة الزخرفية إلا أن تلك القبة الخارجية قد تهدمت.

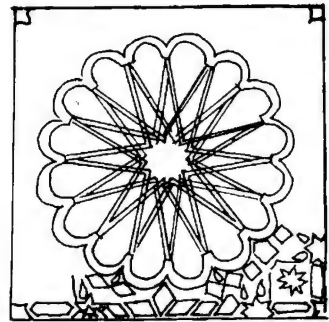


الشكل (٦) قبة الفرة ١ في دير مار بهنام من الداخل

هذا وقد شيدت القبة بأوتارها ومقرنصاتها المنشورية بالأجر والجبس ولونت في فترة متأخرة باللون الأزرق . والقبة الوترية الثانية في الدير هي القبة التي

تغييرات على المخطط منذ ذلك الحين كما لم يحصل إلا القليل من التغيير في التركيب المعماري . فقد كانت القبوات نصف الاسطوانية المدببة هي العنصر السائد في التسقيف وإستخدم عنصر القبة في عدد من الغرف بعضها هدم وأعيد بناؤه وإحتفظت غرف أخرى بقبابها الأصلية . فالغرف المرقمة ٣ و ٥ في المخطط مسقفة بقباب لاعلاقة لها بموضوع البحث لاختلاف طرز قبابها عن الطراز الذي نعينه ببحثنا ، فهي إما قباب أعيد بناؤها في فترة متأخرة أو أنها شيدت بالأصل على نمط مخالف للنمط المستخدم في بقية أجزاء الكنيسة وهو نمط القباب الوترية .

ويبدو أن قباب الدير كانت جميعها بالأصل وترية تستند على طاقات ركنية أو على مقرنصات منشورية معمولة من الجبس الا أن بعض هذه القباب تهدم فأعيد بناؤها بأنماط مختلفة^(١٤) . إحتفظت الغرفة رقم ٤ في المخطط بالجزء الأكبر من القبة التي كانت تغطيها ورغم الترميمات والاصباغ التي أجريت عليها فيما بعد وتعدّ هذه القبة النموذج المثالي للقباب الوترية .

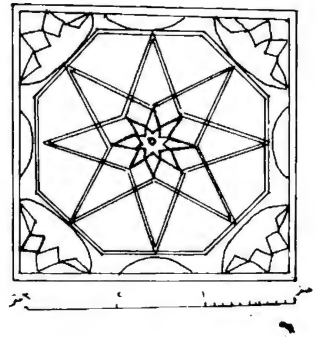


الشكل (٥) مخطط قبة دير مار بهنام

تغطي القبة منطقة مربعة تقريباً ٣,٦٠ × ٣,٤٥ م وعولجت إستطالة الغرفة بوضع رف يبرز بمقدار ١٥ سم على طول الجدار الجنوبي كما عولج الانتقال من القاعدة المربعة الى الدائرية بأربعة

تسقف المذبح أو ما يعرف بقدس الاقداس أو الغرفة ٦ في المخطط والغرفة هذه مستطيلة 8×3 م بتوسط جانبها الشرقي حنية نصف دائرية مغطاة بنصف قبة ، وسقف الجزء الأوسط من الغرف وهو الجزء الذي يتقدم الحنية بقبة ترتكز قاعدتها المربعة على أربعة عقود مدببة إثنان منها يشكلان واجهتي القبوات الجانبية ويمثل العقد الشرقي واجهة قبة الحنية ويعلو العقد الغربي مدخل الغرفة .

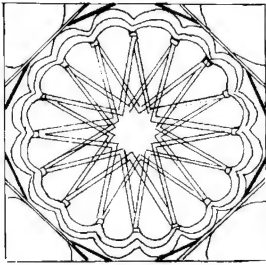
وتختلف منطقة الانتقال في هذه القبة عن تلك التي في الغرفة ٤ فهي تجمع بين الطاقات الركنية ، وهو الأسلوب التقليدي الشائع للانتقال الى القاعدة المثمنة وبين المقرنصات المنشورية ، إذ ملئت تجاوزيف الطاقات الركنية بمقرنصات منشورية الغرض منها زخرفي أكثر مما هو معماري . وتعمل الطاقات الركنية على تحويل القاعدة المربعة الى مثمنة ، وينطلق من وسط كل من أضلاع القاعدة المثمنة وتران يتجهان نحو منطقة المركز ليلتقيا بالأوتار الأخرى ولتشكلا بمجموعها نجمة ثمانية . هذا وقد شيدت القبة بالآجر وعملت أوتارها من الجبس (الشكل ٧) .



الشكل (٧) دير مار بهنام - مخطط قبة الغرفة ٦ من الداخل

وفضلاً عن هاتين القبتين كانت هناك قبة ثالثة تغطي الغرفة ١٠ في المخطط إلا أنها هدمت سنة ١٩١٣ وأستعوض عنها بقبة حديثة شيدت سنة

١٩٣٧^(١٤) . ويستفاد من الوصف الذي نقله بروسير الذي زار الدير سنة ١٩٠٩ بأنها كانت تجمع بين طرازي القبتين السابقتين^(١٥) وهذه الغرفة مربعة تقريباً 3.90×4.10 م بتوسط كل من جانبها الشرقي والغربي دخله عمقها 1.40 م وعرضها 2.90 م غطيت هذه الدخلات بعقود مدببة في حين سقفت الغرفة بقبة وترية يتم الانتقال من القاعدة المربعة الى المثمنة بواسطة أربع طاقات ركنية ثم تتحول القاعدة المثمنة الى ستة عشرية الاضلاع بواسطة رفوف وضعت على زوايا المثمن وتعلو القاعدة الستة عشرية هذه قاعدة دائرية مسننة ذات ستة عشر رأساً تتكون من إلتقاء ست عشرة حنية نصف دائرية وينطلق من كل من نقاط إلتقاء الحنايا ببعضها زوج من الاوتار يتجهان باتجاهين متضادين ويلتقي كل منها بالوتر الثالث المجاور له (الشكل ٨ والشكل ٩) . ويتكون من إلتقاء الاوتار نجمة ذات ستة عشر رأساً ، كما تحصر الاوتار بتقاطعها تجاوزيف لوزية أو معينة غير منتظمة وكانت مادة بناء الاوتار هي الجبس في حين استخدم الأجر فيها وراء الاوتار .



الشكل (٨) دير مار بهنام مخطط قبة الغرفة ١٠

قباب ويلاده في سنجار

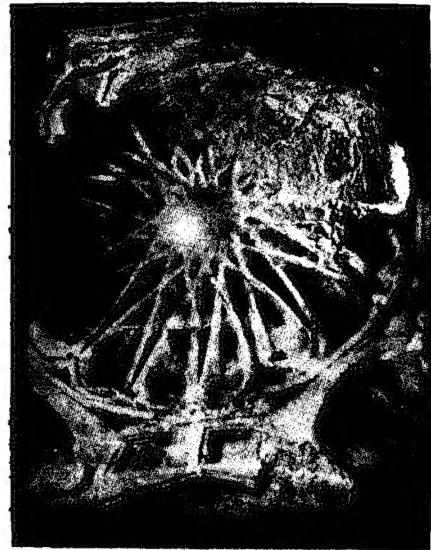
هناك مجموعة من القباب في سنجار استخدم في بنائها أسلوب القباب الورتية موضوع البحث . فعند مدخل مدينة سنجار والى يمين الطريق المؤدي إليها من الموصل تقوم قبتان لاتعرف هويتها على

ويعلو البناء قبة نصف كروية مدببة الرأس أبعدتها كثرة الترميمات والاكسية الحصية عن شكلها الأصلي^(٢٢). أما من الداخل فهي مشنة أيضاً طول ضلعها ٢,٨٠ م يتوسط كل من أضلاعها دخله قليلة العمق عدا القبلية منها فقد تميزت بعمقها لكونها المحراب. وحل المدخل محل الدخلة الشمالية الشرقية. والبناء الداخلي لهذه القبة هو الذي يميزها عن غيرها، ويعطينا الدليل على تاريخها وذلك من خلال مقارنتها بقبة الغرفة ٤ في دير مار بهنام إذ تتكون منطقة الانتقال فيها من أربعة صفوف من المقرنصات المنشورية المعمولة من الجبس وذات الاشكال أو القواعد المختلفة، نجمية، معينة، مثلثة أو مربعة لتنتهي هذه المنطقة بقاعدة دائرية مسننة مكونة من التقاء أربعة وعشرين حنية نصف دائرية (الشكل ١٠) وتشكل نقاط التقاء الحنايا قواعد لأنطلاق أوتار



الشكل (١٠) قبة ويلادة في سنجار من الداخل

مزدوجة يتجهان باتجاهين مختلفين ليلتقيان بالوتر السادس المجاور له والمغاير لاتجاهه (الشكل ١١) وتشكل هذه الاوتار من تقاطعها نجمة ذات أربعة وعشرين رأساً حول قمة القبة وتغصّر بتقاطعها تجاويف لوزية معينة ذات أحجام وأشكال مختلفة. إن العلاقة التركيبية بين هذه القبة وقبة الغرفة ٤ في دير مار بهنام تضع البنائين ضمن حقبة تاريخية واحدة ولدى مقارنة القبتين بالقباب اللاحقة يلاحظ حصول تطور بسيط في قبة ويلادة يكن بالقاعدة ذات الاربعة وعشرين رأساً، إذ أن هذا



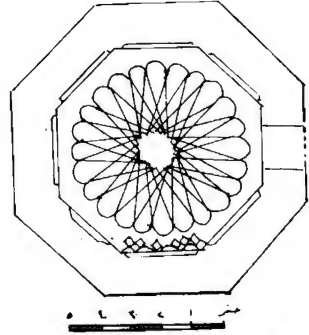
الشكل (٩) قبة الغرفة ١٠ في دير مار بهنام قبل مدحها تظل من بروسر وجه الدقة، تعرفان بأسم «ويلادة» ويستدل من طرزهما المعمارية أنها تعودان الى تاريخين مختلفين. فالجنوبية منها، وهي الأقدم برغم ما قيل من أنها كانتا في وقت ما متصلتين بياضكة أو ممر^(١٦) فإن الاسلوب المعماري لبنائهما يضعهما ضمن مباني أواخر القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي^(١٧). ونرى أنها من بقايا المدرسة العادية التي أنشأها عماد الدين زنكي المتوفى سنة ٥٩٤ هـ والذي ذكر عنه أنه بنى مدرسة للحنفية بسنجار^(١٨) فقد كانت تلك المدرسة بظاهر سنجار^(١٩) وربما كان البناء الباقي ذو القبة يمثل تربة عماد الدين زنكي مؤسس المدرسة^(٢٠). أما البناء الآخر ذو القبة والواقع الى الشمال بمسافة ١٢ م عن القبة السابقة فلا تعرف هويته على وجه الدقة، ولكن يمكن القول أنه من مباني القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي كما سنرى^(٢١).

تتكون القبة الجنوبية من بناء مشن مستقل ليس هناك ما يشير الى اتصاله ببناء آخر، يبلغ طول ضلعه من الخارج ٤ م يزينه من الخارج دخلات قليلة العمق متوجة بأنصاف قباب محارية مسطحة

الأخرى المؤرخة من القرنين السادس والسابع الهجري بحيث يمكن وضعها ضمن قباب القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي وما بعده، كما سنرى.

قبة الست زينب في سنجار

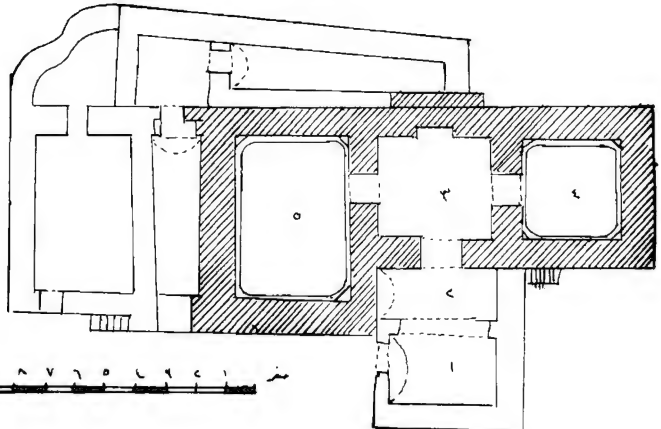
يقع البناء على تل مرتفع مشرف على المدينة القديمة من ناحيتها الشمالية الشرقية وينسب الى زينب ابنة الامام علي عليه السلام ، وأقدم تاريخ يحمله البناء هو سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م نُقِشَ على أسكفة أحد المداخل الملحقة بالبناء ذي القبة كما يحمل البناء في أكثر من موضع اسم الأمر بينائه ، بدر الدين لؤلؤ حاكم الموصل (٢٣) ٦٣١ - ٦٥٧ هـ (١٢٣٣ - ١٢٥٩) ومن المعروف أن بدر الدين لؤلؤ كان قد إستولى على سنجار سنة ٦٣٧ هـ / (٢٤) ١٢٣٩ م ويبدو من خلال الوضع الحالي للبناء أنه قد مر بعدة فترات تعميرية وقد غيرت هذه الترميمات المظهر الخارجي للبناء بحيث لم يبقَ منه سوى بعض الزخارف الرخامية والقبة المخروطية ذات الأخاديد التي تعلو غرفة الضريح (٢٥) ، وقد بنيت على أكثر الاحتمالات في وقت متأخر جداً ربما في القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي وأكثر الاجزاء إحتفاظاً بإصلاتها هي الغرفة ٣ (في المخطط ١٢) . والتي مازالت تحتفظ بالقبة الوترية المسقفة لها .



الشكل (١١) مخطط قبة وبلادة في سنجار

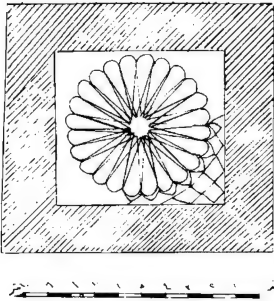
التمط من القباب قد إعتد المثلن أساساً لتكوين قاعدته المسننة وتتناسب مضاعفات المثلن طردياً مع التاريخ فكلما إزدادت مضاعفات المثلن كان ذلك يعني تاريخاً أحدث وإستناداً الى هذه القاعدة يمكننا وضع هذه القبة ذات القاعدة المسننة المكون من أربع وعشرين حنية أي من تقاطع ثلاثة مثلنات في نهاية القرن السادس الهجري أو بداية القرن السابع (١٢ - ١٣ م) .

أما القبة الثانية ، الشمالية ، فتبدو أحدث بكثير وذلك من خلال مقارنتها بقباب أخرى مثل قبة الست زينب ٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م ففرقناها منشورية بشكل مكعبات منتظمة كما في قبة الست زينب في سنجار وأوتارها مسطحة قليلة البروز بل وحتى تركيب الاوتار يختلف عن تركيبها في القباب



الشكل (١٢) مخطط مشهد زينب في سنجار

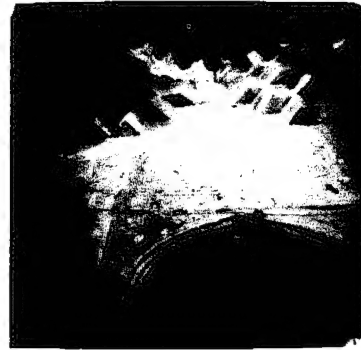
معظمها بحيث لم يبقَ منها سوى زخارف المحراب والشريط الكتابي الذي يدور حول القاعدة المربعة للقبّة (٣٠) (الشكل ١٣) ويلاحظ أن في الزخارف الجصية لهذا البناء علاقة بالزخارف الجصية لأواوين دور المملكة «قره سراي» في الموصل والتي ترجع هي الأخرى لفترة حكم بدر الدين لؤلؤ. ويستمر استخدام الجص في بناء القبّة أيضاً إذ شيدت



الشكل (١٤) مخطط قبّة ست زينب من الداخل

القبّة ومنطقة إنتقالها بالجس وكسيت من الخارج بقبة ثانية وكانت هناك في الاصل قبة أخرى وبين القبتين فراغ ، إلا أن القبّة الخارجية قد تهدمت فيما يبدو فأستعير عنها بكساء سميك وخشن للقبّة الجصية (الشكل ١٥) اما منطقة إنتقال القبّة من القاعدة المربعة الى القاعدة الدائرية فيتم عن طريق ثلاثة صفوف من المقرنصات المنشورية ذات القواعد المربعة أو المعينية (الشكل ١٣ و ١٤) تعمل هذه المقرنصات على تكوين قاعدة دائرية مسننة تتشكل من التقاء ٢٤ حنية وتمثل نقاط التقاء الحنايا بعضها ببعض مراكز لانطلاق أوتار جصية ، زوج من الاوتار من كل رأس يتفرعان باتجاهين مختلفين ليلتقي كل منهما بالوتر المنطلق من القاعدة المجاورة والمعاكس لاتجاهه ولتكون من التقاء نجمة ذات أربعة وعشرين رأساً تحيط بقمة القبّة. وتحصّر هذه الاوتار من إنتقائها تجاويف لوزية. ويبدو أن هذا التركيب من الأوتار

يجتاز المرء قبل الدخول الى هذه الغرفة غرفتين تشكّلان مجازاً لها ، ويبدو أن هاتين الغرفتين قد أضيفتا في تاريخ لاحق للبناء الأصلي. أما الغرفة رقم ٣ في المخطط فهي مربعة تقريباً ٣,٣٠ × ٣,٦٥ م يتوسط ضلعها القبلي محراب مجوف زين بزخارف جصية تعد من النماذج النادرة في تلك الفترة (٢٦) (الشكل ١٣) ويتوسط كل من

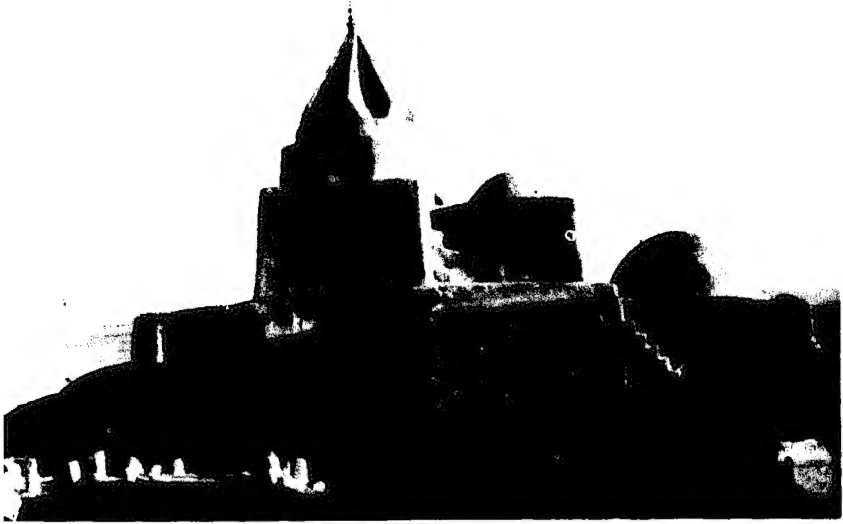


الشكل ١٣ قبّة ست زينب من الداخل

الضلعين الشرقي والغربي مدخل شيدت أركانها بقطع من رخام الموصل وغطى بعقد مدبب مشيد من صنج معشقة شبيهة بمشيلات لها في دير مار بهنام (٢٧) وهذان المدخلان يؤديان الى غرفتين ذهب هرتسفيلد الى أنها مضافتان الى البناء الأصلي (٢٨) في حين أن جميع الدلائل تشير الى أن أسس بناء الغرف الثلاث المرقمة ٣ و ٤ و ٥ في المخطط ١٢ ترجع الى تاريخ التأسيس في العهد الاتابكي وأن الاجزاء العليا فقط أي القباب في الغرفتين ٤ و ٥ قد جددتا في فترة لاحقة في حين احتفظت الغرفة ٣ بقبتها الداخلية الأصلية (٢٩).

بهذا يمكن القول إن الغرفة ٣ كانت مصلى لبناء المشهد الذي يضم غرفة الضريح وهي (٥) في المخطط وغرفة أخرى هي ٤ في المخطط لا تعرف وظيفتها على وجه الدقة.

ويبدو أن غرفة المصلى (٣ في المخطط) كانت مكسوة من الداخل بزخارف جصية إندرثت



الشكل (١٥) مشهد ست زينب في سنجار من الخارج

تطورها من خلال النماذج التي أعقبتها، فأقرب النماذج التي ظهرت بعد العصر العباسي كانت قبة في دير مارماتي على مسافة ما يقرب من ٢٠ كم الى الشرق من مدينة الموصل على المنحدرات الشديدة لجبل مقلوب^(٣١) وقد جرت ترميمات على الدير في منتصف القرن التاسع عشر أضاعت الكثير من معالمة عدا الغرفة المعروفة بأسم غرفة المحراب التي حافظت على وضعها الأصلي^(٣٢)، والمسقفة بقبة من طراز القباب الوترية، إذ يتم الانتقال من القاعدة المربعة الى القاعدة الدائرية عن طريق أربع مجاميع من المقرنصات المنشورية ذات القواعد المربعة أو المعينية وضعت على زوايا القاعدة المربعة تشبه الى حد كبير مقرنصات الست زينب وتعمل مجاميع المقرنصات هذه على تحويل القاعدة المربعة الى مشمنة وبوضع رفوف مسطحة على زوايا القاعدة المشمنة تتحول الى ستة عشرية الاضلاع ويغطي سطح القبة أوتار نُظِمَتْ بحيث ينطلق من كل من

والتجاويف والمقرنصات المنشورية قد عملت للزخرفة وبذلك فإن قبة الست زينب هذه تؤثر بداية التحول من الاستخدام المعماري للأوتار الى الاستخدام الزخرفي كما سنرى.

قباب ما بعد العصر العباسي :

من الطبيعي أن الطرز المعمارية والفنية لا تبدأ ببداية عصر سياسي ما أو تنتهي بنهايته بل تنمو وتتطور بعيداً عن الحدود الدقيقة للفترات السياسية مع الأخذ بنظر الاعتبار التأثير الذي تركه بعض الانماط السياسية على ذلك التطور. فأقدم نماذج القباب الوترية مثلاً ترجع الى منتصف القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي ولم تكن تلك النماذج هي الأولى من هذا الطراز، فمن المؤكد أنها كانت تطويراً عن نماذج أقدم منها لا تعرف على وجه التأكيد تاريخ نشوئها، وقد لاحظنا تطور هذا الطراز حتى منتصف القرن السابع من خلال النماذج التي ذكرناها سابقاً، ويمكننا أن نتبع



الشكل (١٦) صورة لقبة غرفة الهراب في دير ماروني نقلاً عن لوح ٢٤ من برويسر

ضريح بير زكريا في سنجار من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ولدنيا من بداية القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي قبة من الطراز ذاته ، بعيدة الى حد ما عن مدينة الموصل ولكنها واقعة ضمن مدى التأثير الحضاري لها ، تلك هي قبة ضريح أحمد أبو الريش في عنه والذي كان اميراً على عنه في سنة ١٠٢٦ هـ / ١٦١٦ م كما هو مثبت في النص الذي يحمله البناء^(٣٥)

وتغطي القبة بناء الضريح المربع تقريباً ٧,١٠ × ٧,١٥ م، سمك جدرانها ٨٠ سم استخدمت للانتقال من القاعدة المربعة الى القاعدة الدائرية طاقات ركنية ملئت بمحارات معمولة بالجيس ، أما القبة ذاتها فإنها نصف كروية الشكل من الداخل والخارج زينت من الداخل بأوتار عملت بالجيس على غرار الاوتار في قباب منطقة الموصل والجزيرة^(٣٦) الا أنها أصبحت هنا أقل بروزاً عن مسطح القبة بحيث غدت رسوماً بالجص تبرز قليلاً عن السطح الداخلي للقبة أي أن الاوتار أصبحت زخرفية بحثة لا هدف معماري لها على الاطلاق .

ونلاحظ مثل هذا التحول في تركيب القباب الوترية في قبة أخرى من قباب القرن الحادي عشر

رؤوس القاعدة الستة عشرية الاضلاع زوج من الاوتار يتقاطع بعضها مع بعض لتشكّل في الوسط نجمة ذات ستة عشر رأساً (الشكل ١٦) ويبدو أن هذه الاوتار سطحية قليلة البروز مما يدل على أنها وضعت لأغراض زخرفية وتقليداً للقباب الوترية ومقارنة هذه القبة بعناصرها المعمارية والزخرفية بقبة الست زينب في سنجار والقباب اللاحقة من القرن العاشر الهجري يمكن وضعها ضمن المنجزات المعمارية للقرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي .

وهناك قبة صغيرة في مشهد الامام الباهر في الموصل والمؤرخ من نهاية القرن السابع الهجري ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م، تغطي هذه القبة غرفة صغيرة ملحقة بمجاز المشهد من ناحية الغرب إذ استخدمت في تكوينها المقرنصات المنشورية فقط^(٣٣) .

واستخدم مثل هذا الاسلوب المعماري في قباب أخرى مقاربة في تاريخها لمشهد الامام الباهر مثل قبة ضريح نجم الدين في حديثه التي شيدت في أواخر القرن السادس أو بداية القرن السابع الهجري والتي استخدمت المقرنصات المنشورية فيها حتى قبتها^(٣٤) . كما استخدم نفس الاسلوب في قبة

المجري / السابع عشر الميلادي في الموصل هي قبة جامع السلطان ويس في منطقة باب المسجد ^(٣٧) . شيدت هذه القبة وجامعها سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨١ م وتغطي الجزء الأكبر من مصلى الجامع ، وصفها الديوه جي بأنها «قبة واسعة على شكل نصف كرة تستند على مقرنصات من الجص وتزين القبة من داخلها زخارف جسيمة على شكل أضلاع متقاطعة تتجمع في أعلى القبة فتؤلف شكلاً هندسياً جميلاً» ^(٣٨) .

وهناك قبة أخرى لثبة مجهولة التاريخ في منطقة باب سنجار تعرف بالشيخ ابراهيم في الأرض المنخفضة الممتدة الى الشمال الشرقي من قبر ابن الأثير وهي غرفة منفردة مغطاة بقبة وتتقدمها من ناحيتها الشرقية سقيفة . وشيدت القبة بالحجارة غير المهندمة والجص ويتم الانتقال من القاعدة المربعة الى الدائرية بوساطة طاقات زكنية ملئت تجاوبها بمقرنصات منشورية مطولة قليلاً ، أما القبة نفسها فقد كسيت من الداخل بطبقة من الجبس الأبيض وزخرفت بأوتار قليلة البروز على غرار أوتار القباب الوترية التي كانت شائعة في القرنين السادس والسابع إلا أنها زخرفية بمحة شبيهة بقبة السلطان ويس ويمكن تحديد تاريخ هذه القبة إستناداً الى التطور الحاصل في هذا النمط من القباب محدود القرن الحادي عشر المجري / السابع عشر الميلادي .

ويبدو أن هذا الطراز قد إنتشر بعد القرن الحادي عشر في بيوت الموصل . ففي حديثه عن قبة جامع السلطان ويس يتحدث الديوه جي عن طرازها فيقول : «أذكرنا في دور محلة باب المسجد عدة غرف فوقها سقف مزخرف بنفس الزخارف التي باطن هذه القبة» ^(٣٩) وقد شاهدت غرفة سقفت بقبة مشيدة بهذا الاسلوب في محلة باب السراي في بيت العبدال قرب المدرسة الاحمدية . وبحودود القرن الثاني عشر حلت الاصباغ الزرق في تزيين القباب والسقوف والاجزاء الداخلية محل الزخارف الجصية النافرة .

وهذا يمكن القول أن في القرن السادس المجري / الثاني عشر الميلادي ظهر في الموصل والمنطقة المحيطة بها طراز من القباب يعتمد الاوتار في تكوينها ولم تكن الموصل المنطقة الوحيدة التي عرفت القباب الوترية فقد ظهر هذا الطراز من القباب في اقاليم أخرى من العالم الاسلامي مثل ايران وأرمينية والأندلس الا ان التركيب المعاري للاوتار في هذه الاقاليم يختلف عنه في منطقة الموصل ، وبذلك فمن الصعب تحديد الموطن الاصلي لنشوتها إلا أن أقدم هذه النماذج مجتمعة تتمثل في قباب المسجد الجامع بقرطبة ^(٤٠) مع ذلك فقد أقرح بعضهم إيران موطناً أصلياً لنشوء هذا الطراز ^(٤١) برغم قلة النماذج الايرانية وتأخرها تاريخياً عن النماذج الأخرى .

والذي نراه أن الفكرة قد نشأت أساساً من محاولة الممار العربي لتقسيم الفضاء الواسع للقبة شأنه في ذلك شأن بقية الفنون حيث كان الفنان العربي يكره المساحات الواسعة المسطحة فعمد الى تقسيمها الى وحدات صغرى وقسم الوحدات الصغرى الى أصغر وهكذا حتى غطى جميع الفراغات بالتقاطعات الهندسية أو التوريق والناصر النباتية أو بالاشرطة الكتابية ^(٤٢) . وحصل مثل هذا الأمر في معالجة الممار العربي لفضاء القبة سواء في منطقة الموصل أو غيرها وذلك عن طريق الأوتار فأختلف تركيب الأوتار وتقاطعاتها من منطقة لأخرى لذلك كان لكل منطقة خصوصيتها في هذا المجال ، فنطقة الموصل ، تأثرت بها منطقة أرمينيا الى حد كبير ، إعتمدت الأوتار المشيدة بالأجر والمغطاة بالجبس والتي تشكل الهيكل العام للقبة وكانت تلك الاوتار معارية في وظيفتها وزخرفية بمظهرها فأصبحت مرور الزمن زخرفية وابتعدت على نحو تدريجي عن وظيفتها المعارية ^(٤٣) . وأمكنا من خلال هذه القاعدة التحديد النسبي لتواريخ القباب المجهولة فضلاً عن الامور الأخرى . وبناء على ما تقدم يمكن القول إن القباب الوترية في منطقة الموصل قد إعتمدت الامور الآتية :

١- استخدام الجبس الابيض المعروف بالموصل «بالبياض» مادة لبناء القباب من الداخل.

٢- استخدام المقرنصات المنشورية للانتقال من القاعدة المربعة أو المثلثة الى القاعدة الدائرية أو القريية من الدائرية.

٣- كانت القباب بالاصل مزدوجة ، قبة داخلية زخرفية معمولة من الجبس وأخرى خارجية ، ويبدو أن القباب الخارجية قد تهدمت فكسيت القباب الداخلية من الخارج بطبقة سمكية من المواد البنائية.

٤- تستند القباب الداخلية على قواعد دائرية مسننة تتكون من التقاء حنيات نصف دائرية ببعضها يبلغ عددها ست عشرة حنية او اربعاً وعشرين او اثنتين وثلاثين.

٥- ينطلق من كل من نقاط التقاء الحنايا زوج من الاوتار يتجهان باتجاهين متضادين ويلتقيان مع الاوتار المجاورة لها لتشكيل حول سمّت القبة نجمة لها من الرؤوس ما للقاعدة المسننة من حنايا.

٦- ان التطور الذي حصل في هذا الطراز من القباب كان ضمن الخصائص العامة المذكورة آنفاً ، فالمقرنصات المنشورية تحولت من التعددية الهندسية للقواعد الى المربعة او المعينية وهو ملاحظناه في الفرق بين مقرنصات قباب القرن السادس وقباب القرن السابع ثم حصل تطور آخر هو الجمع بين الطاقات الركنية والمقرنصات المنشورية فاستخدمت الطاقات الركنية للانتقال الى القاعدة المثلثة ثم ملئت تجاويف تلك الطاقات بمقرنصات منشورية مطولة كما هو الحال في قبة الشيخ ابراهيم من القرن الحادي عشر/ السابع عشر الميلادي ومثل هذا التطور نلاحظه في الاوتار التي تحولت مع مرور الزمن من اوتار ذات غرض معماري الى أوتار زخرفية قليلة البروز عن سطح القبة

٧- ولابد ان نشير هنا الى ظاهرة تتعلق بتطور هذا

القط من القباب وتساعد على تحديد تواريخها ، اذ ان القاعدة المسننة التي ترتكز عليها الاوتار قد اعتمدت المثلث ومضاعفاته . فأقدم القباب كانت ذات ست عشرة حنية مثل الغرفة ٤ في دير مار بهنام والجامع النوري اي انها تتكون من تقاطع مثلثين ثم تطورت في القرن السابع لتصبح ذات اربع وعشرين حنية اي من تقاطع ثلاثة مثلثات مثل الست زينب وويلادة وتطورت فيما بعد لتصبح ذات اثنتين وثلاثين حنية اي من تقاطع اربعة مثلثات في مراحل تطورها الاخيرة مثل قبة ابو الريش في غنة من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي -٨- ان المنطقة الجغرافية التي انتشر فيها طراز القباب الوترية كان مركزها مدينة الموصل وامتدت جنوباً حتى منطقة غنة وشرقاً حتى كركوك حيث ظهرت في داقوق قبة تحمل تأثيرات هذا الطراز ووصلت غرباً حتى منطقة سنجار وشمالاً حتى ارمينيا اذ ظهرت في ارمينيا قباب وترية من هذا النوع (٤٥).

الهوامش

- (١) عن هذه القباب راجع ، عبو ، عادل نجم ، القباب العباسية في العراق (رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى جامعة بغداد ١٩٦٧) ص ٨١ ، ٩٢ ، ١١٠ ، ١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٦٨ ، ١٨٤ .
- (٢) ابن الأثير عز الدين ، الكامل في التاريخ (القاهرة ١٢٩٠) ج ١١ ص ١٤٧ .
- (٣) المرجع نفسه ، ج ١١ ص ١٤٧ وراجع أيضاً ابن الاثير ، عز الدين ، التاريخ الباهر في الدولة الاتاكية في الموصل (القاهرة ، ١٩٦٣) ص ١٥٣ - ١٥٤ .
- (٤) عن تاريخ الجامع راجع ، الديوب جبي ، سعيد ، جوامع الموصل في مختلف العصور (بغداد ، ١٩٦٣) ص ١٨ - ٣٠ .
- (٥) عن تفاصيل تخطيط المسجد الجامع راجع ، عبو ، القباب العباسية ، ص ٨٩ وراجع أيضاً عيسى سلمان وآخرون ، المعابر العربية الاسلامية في العراق (بغداد ١٩٨٢) ص ١٥٢ وما بعدها .
- (٦) بما ان القبة قد هدمت منذ سنة ١٩٣٩ لذا فإننا نستند في وصفنا على كتابات من شاهدها مثل سعيد الديوب جبي ، جوامع الموصل ص ١٧ - ٤٠ وكذلك احمد الصوفي ، الآثار واللبناني العربية والاسلامية في الموصل (الموصل ١٩٤٠) ص

- ٣٩-٤٦ وعلى الصور الملتقطة لها قبل الهدم.
- (٧) عبو، القباب العباسية، ص ١٥٢، ١٦٦.
- (٨) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ٢٩.
- (٩) عن الجوانب المعاصرة للدير راجع كوزاد برويسر، المباني الأثرية في شمال بلاد الرافدين (ترجمة علي يحيى منصور، بغداد ١٩٨٩) ص ٢٠-٣٠ وعن تطور الأدوار المعاصرة للدير راجع عبدال، أفرام، اللؤلؤ الضيعة في تاريخ دير مار يهنايم الشهيد (الموصل، ١٩٥١) ص ١٥٧ وما بعدها.
- (١٠) عبدال، المرجع السابق، ص ١٥٧.
- (١١) برويسر، المرجع السابق لوح ٧ وقد تم رسم الخط سنة ١٩٠٩.
- (١٢) عبو، القباب العباسية، ص ٧٥.
- (١٣) عن هذه الكتابات راجع عبدال، المرجع السابق، ص ١٦٣.
- (١٤) عبدال، المرجع السابق ص ١٥٠.
- (١٥) برويسر، المرجع السابق ص ٢٢ واللوح ٦.
- (16) C.R. Reitlinger, *Medieval Antiquities West of Mosul, IRAQ, vol. V Part 2*, P. 151.
- (١٧) عن تحديد هوية هذا البناء راجع عبو، القباب العباسية. ص ١١٣-١١٤.
- (١٨) ابن الأثير، الباهر، ص ١٩١.
- (١٩) سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان (حيدرآباد- ١٩٥١) ج ٨ ص ٦٠٧-٦٠٨.
- (٢٠) عبو، القباب العباسية، ص ١١٤.
- (٢١) نفس المرجع ص ١١٠.
- (٢٢) نفس المرجع ص ١١١.
- (٢٣) E. Herzfeld, und F. Sarre, *Archaeologische Reise Im Euphrat und Tigris Gebiet, Vol. I* (Berlin, 1911) PP. 10-11.
- (٢٤) أبو الفدا، غياث الدين إسماعيل بن محمد بن عمر، المختصر في تاريخ البشر (مصر المطبعة الحسينية) ج ٢، ص ١٧٣.
- (٢٥) عن هذه الأدوار التعميرية راجع عبو، القباب العباسية، ص ١٦٨ وما بعدها.
- (٢٦) عن زخارف هذا الهراب راجع Herzfeld, op. cit. II.P. 312ff.
- (٢٧) عبو، القباب العباسية، ص ١٦٩.
- (٢٨) Herzfeld, op. cit. II, P. 309.
- (٢٩) عبو، القباب العباسية، ص ١٦٩.
- (٣٠) نفس المرجع ص ١٧٠.
- (٣١) برويسر، المرجع السابق ص ٣٢-٣٥.
- (٣٢) برويسر، المرجع السابق، ص ٣٣.
- (٣٣) عبو، القباب العباسية، ص ١٨٥ وراجع عن هذا المجموع، الديوه جي سعيد، جوامع الموصل، ص ١٨٧-١٩٥.
- (٣٤) عن هذا البناء راجع عبو، القباب العباسية، ص ١٢٣-١٢٥ وراجع أيضاً طه باقر وقواد سفر المرشد الى مواطن الآثار والحضارة (بغداد ١٩٦٠-١٩٦٦) الرحلة الأولى، ص ١٨.
- (٣٥) بافرويسر، المرشد، الرحلة الأولى، ص ٢٥.
- (٣٦) عبو، القباب العباسية، ص ٩٩ وكذلك ص ٢٣٣.
- (٣٧) عن هذا المسجد راجع، الديوه جي، جوامع الموصل، ص ١٦٥-١٧٠.
- (٣٨) المرجع نفسه ص ١٦٧.
- (٣٩) الديوه جي، جوامع الموصل، ص ١٦٧.
- (٤٠) A.U. Pope "Persian Architecture" (Thames and Hudsan 1965). P. 258.
- (٤١) نفس المرجع والصفحة.
- (٤٢) أحمد فكري، الدخول الى مساجد القاهرة ومدارسها (القاهرة ١٩٦١) ص ٤٥.
- (٤٣) Pope, op. cit. p. 258.
- (٤٤) عن هذا البناء راجع عبو، القباب العباسية ص ١١٩-١٢٢.
- (٤٥) Pope op. cit. p. 258.

الدلالات المعمارية وتحذيرها الحضاري

أ. د. احمد قاسم الجمعة

بالوحدة التعبيرية التي اتصفت بها العمارة العربية الاسلامية.

ولابد من بيان الدلالات المعمارية والفنية لموضع الموصل وتخطيطها ومبانيها بدراسة تحليلية تفصح عن اسرارها ومكنوناتها المنظورة وغير المنظورة وبيان مدى نجاحها في تأدية وظائفها والعوامل التي ادت الى

انضغ لنا مما تقدم ان الموصل كانت ذات موضع وتخطيط مميز خلال العصور العربية الاسلامية وزخرت بمبان سكنية ودينية وخدمية لبث متطلبات الانسان المختلفة نتيجة تصاميمها وعناصرها المعمارية والفنية الفريدة التي امتازت بها المدينة عما سواها على الرغم من عدم احتلالها

(رض) لدى بنائها^(٨) .

وهذا الترابط العضوي بين الوحدات الثلاث لنواة المدينة العربية الاسلامية يعود لاهميته العامة لسكان المدينة كافة بخلاف بعض الخصوصيات التي تتعلق بالاحياء السكنية^(٩) . فالمسجد كان يؤدي وظائف متعددة وذلك لشمولية تعاليم الدين الاسلامي لكل انماط الحياة من دينية وثقافية وسياسية وعسكرية واقتصادية واجتماعية^(١٠) . اما دار الامارة فتتضح اهميتها لا لكونها تمثل سكنا للوالي فقط بل لكونها تحتوي على مؤسسات الدولة المالية والادارية فاصبحت تمثل سلطة الدولة وهيبتها^(١١) . في حين ان الاسواق على الرغم من كونها تمثل النشاط الاقتصادي قد ادت دوراً اضافيا في الحياة الاجتماعية والسياسية معاً^(١٢) .

ومن المرجح ان التخطيط المذكور لوحدات المدينة قد استمد اصوله من النهج الذي احده الرسول (ص) في المدينة المنورة اول عاصمة للمسلمين لدى هجرته اليها حيث بني مسجده وبيته ومنها كانت تدار أمور المسلمين، كما نقل السوق القديم الى غرب المسجد وربما تأثر هذا بدوره بتخطيطات بعض المدن العربية قبل الاسلام ولا سيما في شبه الجزيرة العربية كما هو الحال في قرية «الفاوه» عاصمة مملكة كندة . وبهذا كان المسلمون ينهلون من تراث محلي ترعرع في جزيئهم^(١٣) .

وعلى الرغم من اتساع الموصل وتطورها خلال العصور العربية الاسلامية فإن الاسواق بقيت ملازمة للمساجد حتى بعد نقلها من منطقة لاخرى تلبية لحاجة عموم السكان ولازمت المدن العربية الاسلامية .

اما خطط مدينة الموصل السكنية فروعيت فيها الناحية الاجتماعية فكانت مقسمة الى احياء وميادين ومحلات تسمى باسماء القبائل القاطنة فيها او المهن والاماكن : كحي خزرج وحي تغلب وحي كندة وحي طلي وحي المشاهدة وحي ثقيف

تشكيل عناصرها والمشكلات البيئية والانشائية التي عالجتها والتطور الذي اصابها ومدى حفاظها على التواصل الحضاري على الرغم من قفرتها الزمنية الطويلة للافصح عن الفكر المعاري في تلك الفترة ومدى رفته للحضارة الانسانية .

فوضع الموصل القديم على الجانب الايمن لنهر دجلة مختلف الارتفاع حيث ينحدر تدريجياً من الشمال نحو الجنوب ، علاوة على الانحدار التدريجي وهيئات مصطبة باتجاه الشرق والجنوب الشرقي كل ذلك ترك بصماته على المنظور الافقي للمدينة وتركز مبانيها باتجاه النهر وسهل عملية تصريف مياه الامطار والمياه الثقيلة باتجاه مجرى دجلة^(١٤) ، وابتعد خطر المياه الجوفية على اسس المباني ، كما أن لظاهرة تركيز كثافة المباني باتجاه النهر اهمية كبرى تكن في أن النهر اصبح واسطة لربط المدينة مع ظهيرها من المدن الممتدة خطياً مع امتداده وذا تأثير واضح في مناخ المدينة المحلي^(١٥) ، كما ان النهر يعد مصدراً رئيساً لموارد المدينة المائية منذ العهد الاموي عندما قام الوالي الحارث بن يوسف بتحويل النهر الى المدينة الذي كان محاذياً لسور نينوى من الغرب واكماله الوليد بن تليد عام (١٢١هـ / ٧٣٨م)^(١٦) .

وبخصوص مباني الموصل فقد حظيت داخل المركب العام منها بنمط قطاعي لا مركزي يلتقي بنواة مركزية^(١٧) تتكون من المسجد الجامع يجاوره دار الامارة^(١٨) ثم تجاورهما الاسواق ويلي ذلك الاحياء السكنية^(١٩) .

والتغير المذكور في تخطيط المدينة الذي حدث لدى تمصير المدينة بعد تحريرها عام (١٦هـ / ٦٣٧م) جاء لينسجم مع السمات العامة لتخطيط المدينة العربية الاسلامية فقد كان محوراً المسجد الجامع ودار الامارة التي تحف بها الاسواق ويلي ذلك الاحياء السكنية كما هو الحال في امصار البصرة والكوفة والفسطاط^(٢٠) . وهو التخطيط الذي اوصى باتباعه الخليفة عمر بن الخطاب

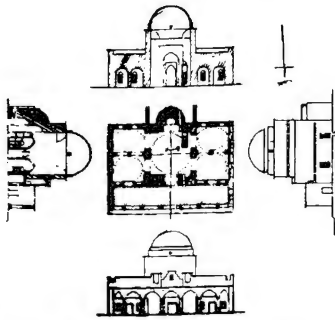
ومحلة الحصاصين ومحلة الطبايين^(١٤).

وعلى الرغم من التقسيمات لمعظم الاحياء فانها شكلت خطوة جديدة في سبيل بناء مجتمع جديد يتجه نحو الشعور القومي لتوحيد الامة لانه اخذ يحس احساسا وجدانيا اكثر شمولاً من الاحساس بالقبيلة ولاسيما بعد ان تابعت مظاهر الاختلاط بين القبائل حيث استقرت في المدن واختلطت بعضها ببعض^(١٥).

واذا تناولنا تخطيطات المباني والفضاءات المعمارية نجدها هي الاخرى ادت وظائفها عبر الاجيال المتعاقبة على الوجه الاكمل لان المعمار اخذ النواحي المتعلقة بحياة السكان كافة بنظر الاعتبار وذلك المشكلات التي صادفتها.

ويبدو ان المسجد الجامع كان خلال العهد الراشدي يتكون من مصلى مستطيل وأروقة جانبية ومؤخرة تحيط بصحن مكشوف مقارنة بما كانت عليه مساجد العراق خلال القرون الخمسة الاولى. ثم حدث بعض التطور في تخطيط جوامع القرن (١٢٠هـ / ١٢م) وما بعده كما في الجامع النوري والجامع المجاهدي لاسباب مناخية فالأروقة في الجامع النوري اخذت تتقدم المصلى وتفتح عليه بعد اختفاء الأروقة الجانبية والمؤخرة، وغدا بيت الصلاة يتكون من قسمين الامامي منها يتخذ هيئة البوائك المفتوحة على الصحن ويمثل المصلى الصنفي والقسم الآخر مغلق البلاطات يمثل المصلى الشنوي. وتخطيط الجامع المجاهدي لا يختلف كثيراً عن الجامع النوري اذ ينقسم بيت الصلاة فيه وهو يتكون من ثلاث بلاطات - الى مصلى شتوي كبير ومصلى صيفي اصغر منه. والملاحظ ان سملك جدران بلاطة المحراب يبلغ ضعف سملك بقية الجدران بسبب انشائي وهو تهيئة قاعدة قوية تتحمل ثقل القبة الكبيرة التي تعلو تلك البلاطة من جهة ولأن المعمار اراد في الوقت نفسه ان يجعلها مربعة فزاد سملك جدرانها من الداخل للمحافظة على استقامة

جدران المصلى من الخارج من جهة اخرى في حين تمثلت الاستطالة في البلاطتين الأخرتين، وهذا تم الحفاظ على وحدة الاساكيب والبلاطات والتناسق بينها على الرغم من عدم تواصل العقود المستعرضة التي تحدد الاساكيب اذ المفروض ان تكون ثلاثة ولكن تم الاستغناء عن العقد الاوسط منها فقد خلت بلاطة المحراب من مثل هذا العقد الذي لم تعد له ضرورة بعدما اصبحت بلاطة المحراب مربعة تعلوها قبة لها اقية نصف أسطوانية مثل البلاطتين المجاورتين^(١٦). (مخطط ١).



مخطط (١) تخطيط الجامع المجاهدي (الخير) في الموصل - ٥٧٢هـ - ١١٧٦ - ١١٨٠م.

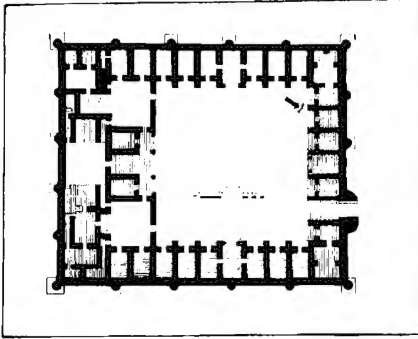
من (د. عيسى سلمان واخرون)

والجدير بالذكر ان تخطيط بيت الصلاة بصورة مستطيلة بموازاة حائط القبلة جاء تمشياً مع السنة النبوية التي تؤكد زيادة اجر المصلين بالصفوف الاولى حيث ان التخطيط المذكور للمصلى يعد افضل تخطيط يساعد على تلك الزيادة.

اما دار الامارة فلم تسعفنا المصادر التاريخية بمعلومات عن تخطيطه، كما لم يترك الزمن بعضاً من مخلفاته، ولكن اذا اخذنا بنظر الاعتبار ان سمات دور الامارة في الامصار متقاربة ان لم تكن متشابهة، ويعزى ذلك الى تماثل الوظائف والوحدة التعبيرية في العارة العربية الاسلامية، عندها نرجح ان تخطيط دار الامارة بالموصل كان على غرار

ما بين الجو الخارجي الشمس والجو الداخلي في الظل والانعناء الذي يساعد على ذلك مع زيادة قوة وتماسك في المبنى.

وفي ما يتصل بقصور الموصل كقصر المنقوشة من العصر الاموي فقد اسهب المؤرخون في وصف زخارفه وفسيفسائه غير انهم لم يتعرضوا الى تخطيطه^(٢١) ولكن من المرجح انه كان على غرار القصور الاموية في العراق والشام كقصر الشعبية (مخطط ٢) والتي تماثل



مخطط (٢) تخطيط القصر الاموي في الشعبية بمنطقة البصرة.

عن (مسئل)

بدورها الى حد كبير دور الامارة المنوه عنها، حيث تمثل الطراز الحيري ذي الكمين باجنحتها واحيطت بأسوار ضخمة للحماية^(٢٢). وخلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي حدث بعض التطور في قصور الحكام في الموصل، فقد اخذت تتسم بالضخامة وبتعدد الطوابق وضخامة الاواوين كما هو الحال في قصر بدر الدين لؤلؤ (دور المملكة) لاسباب وظيفية ومناخية^(٢٣). (صورة ١).

اما الدور السكنية في الموصل فلم تصل البنا نماذج منها خلال العصور العربية الاسلامية، كما لم يتطرق المؤرخون الى وصفها، غير ان ورود ذكر للاشخيم في الدور من قبل الازدي لدى تعرضه الى حوادث عام (١٣٣هـ / ٧٥٠م)^(٢٤) يؤكد

تخطيط نظيرها في الكوفة التي كانت تتكون من فناء مربع الشكل تقريبا تحيطه جدران سميكة مدعومة بأبراج دفاعية من الخارج على شاكلة الاسوار لأسباب امنية لأن دور الامارة كما مر بنا تمثل سلطة الدولة ومقر مؤسساتها المالية والادارية فضلاً عن سكنى السولاة وان المرافق المعمارية فيها كانت تتبع الطراز الحيري الذي تمثل في تخطيط دور الامارة والقصور في العراق ولفترة طويلة بعد تحريره^(١٧)، ويعتمد عادة على ايوان يرتفع بارتفاع المبنى. ووجود غرفة او اكثر على كل من جانبيه بصورة متناظرة وهو المعروف بالطراز الحيري ذي الكمين وذلك لسيادته في العراق بقصور الحيرة قبل الاسلام، ثم شاع خلال العصر الاسلامي في المباني السكنية والادارية منذ العهد الاموي. وبلغ اقصى تطوره في العهد العباسي واستمر في البيوت السكنية الى فترات لاحقة^(١٨). وربما يمتد هذا الطراز بجذوره الى نظام المباني الثلاثية الاجزاء الذي ظهر في شمال العراق منذ الالف الخامسة قبل الميلاد^(١٩).

والجدير بالذكر ان الافنية التي تتوسط المباني عادة والاواوين التي تمثل محور الطراز الحيري اعتمدت لاسباب مناخية وانشائية ووظيفية فالفناء تستمد منه اغلب المباني حاجاتها من التهوية والانارة وكان بمثابة مرشح للهواء من الغبار والأتربة ويساعد على اختزان الدفء شتاءً عند غلق المداخل والفتحات، كما يلطف الجو صيفاً لدى السماح لتيارات الهواء في الانطلاق بعد فتح تلك المداخل والفتحات هذا فضلاً عن نفقه الاجتماعي بحجبه سكان المبنى، ولا سيما النسوة عن انظار المارة، كما انه يتماشى مع نفسية العربي والشرقي المعتاد على الجو المفتوح^(٢٠).

وبعد الايوان بمثابة فناء مسقف يستخدم في المناسبات الخاصة ولا سيما في فصل الصيف لانه يساعد على تلطيف درجات الحرارة بفعل التيارات الهوائية التي تحدث نتيجة اختلاف درجات الحرارة

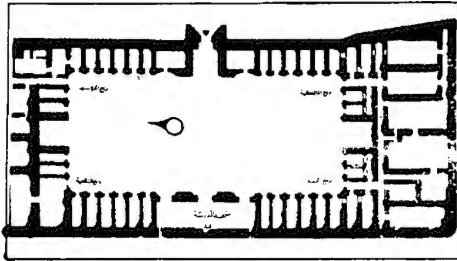
استمرار الطراز الحيري في اجنحة تلك الدور لان الاشخيم يقع عادة في الفراغ المتخلف بين الانحناءات الخارجية للاواوين والغرف الجانبية لها وان استمرار هذا الطراز يدل على مدى معالجته للظروف المناخية والخدمية (٢٥).

اما اسواق الموصل التي كانت من اهم الاماكن للممارسات التجارية فمن المرجح انها كانت على غرار الاسواق التراثية التي مازالت ماثلة بقاياها في الموصل حيث يتميز تخطيطها بالامتداد الطولي المتمثل بوحدات متناظرة من الحوانيت الملاصقة بعضها لبعض تنتظم على جوانب ممرات غير واسعة، كما تميزت الدكاكين بمحدودية المساحة وعقودها المفتوحة على تلك الممرات. وهذا التصميم الذي يرجع بأصوله الى العهد الآشوري كان ناجحاً من حيث تأدية الغرض وهو البيع اليومي وليس الخزن، لأن البضائع كان يتم تخزينها في الخانات القريبة منها، كما عالج الحيز المكاني المحدود لأنه ادى الى زيادة عدد الحوانيت (٢٦).

والخانات والفنادق فقد ادت وظيفتين، وهما اقامة المسافرين وخزن البضائع فقد ادت وظيفتها آنذاك على أفضل وجه حيث كانت تتكون من صفوف من الغرف المنتظمة حول الأفنية المكشوفة لخزن البضائع ويكون بعضها مقراً للتجار والمسافرين. وقد يضاف اليها احيانا بعض الطوابق العلوية والسراديب لخزن بضائع اصحاب الحوانيت المجاورة. كما تتميز مداخلها بوجود مجازات طويلة تحف بها بعض الحوانيت لبيع وعرض بعض البضائع والسلع (٢٧).

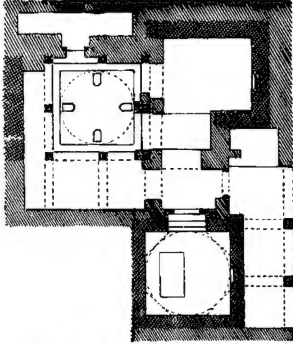
وكانت الحمامات العامة التي اشتهرت بها مدينة الموصل تتبع التصميم التقليدي المغلق الذي يضمن الانتقال التدريجي من الجو البارد الى الجو الدافئ ثم الحار وبالعكس، وهذا ادت الحمامات وظائفها على الوجه الامثل لانها اخذت تخطيطاتها بنظر الاعتبار النواحي الوظيفية والمناخية والصحية.

اما المدارس فعلى الرغم من تميز الموصل بكثرتها ولا سيما خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي فإن المصادر التاريخية وحتى الخلفات الالثرية لم تسعفنا بمعرفة تخطيطها الاصلي لان المتبقى منها لا يعدو غرضاً او اجزاء قليلة كالمدرسة العزية (٥٧٦ - ٥٨٩ هـ / ١١٨٠ - ١١٩٣ م) والمدرسة السورية (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ / ١١٩٢ - ١٢١٠ م) (٢٨) ومنها ما مرّ بأدوار معارية متعددة ذهبت بمعالمها الاصلية كالمدرسة النظامية (٤٠٨ - ٤٨٥ هـ / ١٠١٧ - ١٠٩٢ م) (٢٩) ومع ذلك فما لاشك فيه ان تخطيط المدارس في الموصل اتبع التخطيط التقليدي والمميزات العامة الذي اعتمدته غالبية المدارس خلال العصور العربية الاسلامية وهو الملائم للغرض العلمي والديني آنذاك والموافق للنواحي الاجتماعية والنفسية والمعالج للنواحي المناخية فقد اعتمدت جدار القبلة كقاعدة لتخطيطها (٣٠) (مخطط ٣) لأن بيت الصلاة يعد من الاقسام المهمة في المدرسة. ويفتح بمدخله الى صحن واسع ليكون مكملاً له لاستيعاب المصلين في بعض المناسبات والافاق ومنها صلاة الجمعة والعديد وتتنظم المرافق الاخرى للمدرسة على بقية



مخطط (٣) تخطيط المدرسة المستنصرية في بغداد (١٢٣١ هـ / ١٨٤٤ م) عن (مديرية الآثار العامة)

الى بعضها مقبرة جانبية كما هو الحال في مزار الامام عون الدين (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) (مخطط ٤) واحيانا يلحق بالمقصد مصلى للجامعة كما يلاحظ في مقصد الشيخ فحشي حوالي (٥- ٦هـ / ١١- ١٢م) (٣٤) (مخطط ٥).



مخطط (٥) تخطيط مقصد الشيخ فحشي في الموصل

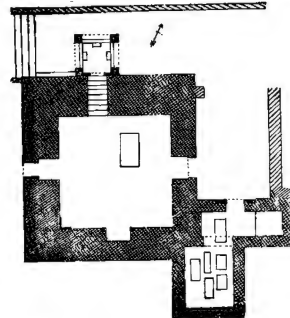
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

وبالنسبة للمستشفيات (البيمارستانات) ومكاتب الائتام والربط في الموصل التي ذكرتها المصادر التاريخية فلم يصل الينا شيء منها الا انه يمكن القول بان الفناء المكشوف الذي يتوسطها يعد المحور المعماري لها ، كما ان اجنحتها كانت تتبع الطراز الحيري بالنسبة للمستشفيات والمكاتب لانه يعالج المشكلات المناخية ويساعد على التوبة الضرورية التي تؤخذ بنظر الاعتبار ولاسيما في المباني الصحية ، كما أنه من المرجح انها احتوت على بعض المخازن والمطابخ والحمامات نظرا للتواجد فيها لمدة ليست بالقصيرة ولاسيما مكاتب الائتام (٣٥) في حين نرجح ان الربط التي اتخذت مقرات للزهاد والصوفية بغية التبعد كانت تخطيطاتها تأخذ بنظر الاعتبار تأدية الوظائف الدينية والعلمية والسكنية واحيانا الدفاعية فضلاً عن حل المشكلات المناخية (٣٦).

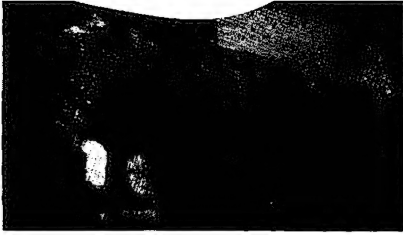
وبعد ان تطرقنا الى الدلالات المعمارية المتمثلة في تخطيط الموصل ومبانيها خلال العصور العربية الاسلامية لا بد من التنويه بتلك الدلالات

الجهات ، وتتألف عادة من ايوان اكبر ويتخلل احدها المدخل الرئيس ويحف بكل ذلك بصورة متناظرة قاعات وحجرات وغرف تتوزع في طابق او طابقين (٣١) بيد أنها تتميز باختلاف اشكالها واتساعها لكي تتناسب والغرض الذي تؤديه ، فغرف الطلبة تقع حول الصحن او تشرف عليه وتتقدمها الاروقة عادة وتتميز بصغر حجمها واستقلاليتها وعدم انفتاحها على بعضها لتلائم مجاميع محددة من الطلبة في حين نجد قاعات التدريس والمطالعة وغرف النظار والمدرسين والمشرفين والمكتبة والمطالعة تقع في احد الجوانب خلف غرف الطلبة بعد فصلها عنها بمجاز يرجع ذلك الى تحقيق الهدوء الذي تتطلبه طبيعة وظائفها في حين نجد بعض المباني الخدمية ومنها المخزن والحمام والمرافق الصحية والمطبخ تتمركز في الاركان لتحقيق الاستقلال الخدمي كما هو الحال في المدرسة الشرايبة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م) (٣٢) والمدرسة المستنصرية في بغداد (٦٣١هـ / ١٢٣٤م) (٣٣).

اما المزارات والمراقد فقد وصل الينا بعضها بصورة كاملة يفصح عن تخطيطه وان اتسم بالبساطة فقد اقتصر عادة على غرفة مربعة تضم القبر كميزاريحي بن القاسم (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) ويرجع ذلك الى كون الزيارات لهذه المباني لاتكون جماعية وانما فردية ولفترة قصيرة للتبرك ، ويضاف



مخطط (٤) تخطيط مزار الامام عون الدين (ابن الحسن) في الموصل
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة) (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م).



صورة (١) بقايا دور الملكة (قره سراي) في الموصل (١٦٣٠هـ / ١٢٣٢م).

الخدمية الأخرى قد استخدمت بصورة عامة لوقاية الابنية التي تتقدمها من الحر الشديد صيفاً والبرد القارس والأمطار شتاءً والانتقال امام المشتلات والاجنحة التي تحف بالافنية بحرية تامة^(١١) علماً بأن الأروقة ظهرت في العراق القديم منذ عصر حسونة^(١٢) واستمرت خلال العصور التالية :

وبالنسبة للمآذن فعلى الرغم من ظهورها في المساجد منذ العصر الأموي في المسجد الجامع فإن مثذنة الجامع النوري (٥٦٦ - ٥٦٨ هـ / ١١٧٠ - ١١٧٢ م) تعد النموذج الكامل والوحيد خلال العصور العربية الإسلامية وتمثل في الوقت نفسه تطوراً مهماً في تصميم المآذن فباستثناء ارتفاعها الشاهق وضخامتها المتناهية فقد احدث المعمار داخلها سلمين احدهما يبدأ من القاعدة المكعبة والاخر من البدن الاسطواني ليلتقيان الا في الاعلى (مخطط ٦) وذلك لأسباب انشائية فقد عالج المعمار بذلك مسألة تحقيق الثقل على القاعدة كما ان ذلك ادى الى زيادة تماسك وشدة المواد البنائية بالمحور الوسطي للمثذنة وعدم اندفاعها نحو الخارج^(١٣) . وقد تأثرت بذلك ونفس الاسباب المثذنة المظفرية في اربيل (٥٨٦ - ٦٣٠ هـ / ١١٩٠ - ١٢٣٢ م) . كما انتقل تأثير ذلك الى بعض مآذن مصر من العصر المملوكي كما هو الحال في مثذنة خاتناه الأمير قوصون (٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م)^(١٤) . هذا وتتجلى أهمية المثذنة بالعمل على اتساع الدائرة التي يصلها صوت المؤذن بالإضافة الى كونها شاخصاً

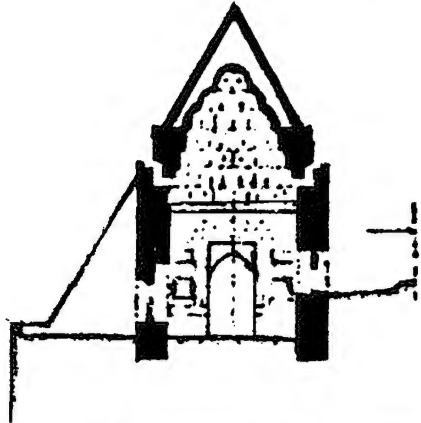
المعمارية الكامنة في عناصرها المعمارية كالفناطر والعقود والمآذن والقباب والمدخل والمحاريب والأزرق الجدارية والأعمدة والبنيات .

فالفناطر التي كثرت في الموصل منذ القرن الاول الهجري/ السابع الميلادي فقد كان لها دلالات وفوائد انشائية ومناخية واجتماعية وامنية حيث أدت الى تماسك حيطان الدور المتقابلة الواقعة على الطرق والأزقة وحماية المارة من اشعة الشمس بالصيف والأمطار بالشتاء وساعدت على ربط الدور التي تتخللها تلك الطرق وادت الى انتقال اهل الدار بأمان وحرية تامة^(١٥) .

اما العقود التي ظهرت نماذجها الكاملة منذ العهد السومري في العراق في مدينة اريدو^(١٦) فقد تطورت وتعددت انواعها في مدينة الموصل خلال العصور العربية الإسلامية حسب طبيعة وظيقتها في المبنى والقضاء المعماري التابعة له ، فقد استخدم العقد المدبب في الفضاءات المعمارية التي تحتاج الى ارتفاع بيّن كالأواوين في حين أن الاماكن التي تحتاج الى الارتفاع الكبير والانتساع البين في نفس الوقت قد استخدمت فيها العقود المدببة المنفرجة ، كما يلاحظ ذلك في اواوين قصر بدران الدين لؤلؤ(صورة ١) الا انه لم يستخدم العقد نصف الدائري الا في الفتحات الصغيرة كالثشبايك او الاماكن المراد الحد من ارتفاعها كبعض الفناطر والسراديب والأروقة المشرفة على الأفنية لانه من العقود التي لا تساعد على الارتفاع عادة^(١٧) ، ولابد من التنويه بأن المعمار في الموصل لم يجهز استخدام هذا النوع من العقود الا في الحالات الضرورية لان تماسك قطعه وارتكاز بعضها على بعض لم يستمر طويلاً ، لأن ذلك احجار تقوسه يخضع مباشرة لجاذبية الارض التي تعمل على اسقاطها من اماكنها آجلاً^(١٨) .

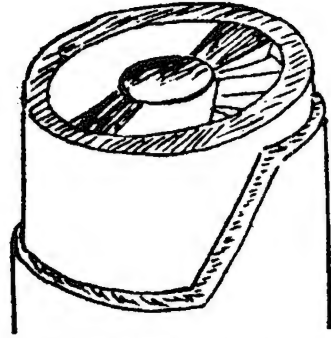
والأروقة التي تتقدم الغرف وبعض المشتلات في الدور والمدارس وبعض الخانات والمباني

القبة فاصبحت شبه مخروطية او القبة نصف الكروية المخروطية كما هو الحال في الجامع النوري (٥٦٦-٥٦٨ هـ / ١١٧٠-١١٧٢ م) حيث ان حدوث الاستطالة كان محاولة لانسجام ارتفاع القبة مع مثانة الجامع الشاهقة. وفي القرن (١٧ هـ / ١٣ م) شاعت القباب المخروطية المزودة التي تتكون من قبتين داخلية مقرنصة وخارجية مضلعة يحصران بينها فراغاً كما هو الحال في قبة كل من مزار الامام يحيى بن القاسم (٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) (مخطط ٧) ومزار الامام عون الدين (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م)^(٤٨) ، ووجود الفراغ في القبة المزودة ادى الى تقليل الثقل وساعد على عملية العزل الحراري ، علماً بأن قبة الصخرة (٧٢٢ هـ / ٦٩١ م) تعد من اول الامثلة على القباب المزودة في الاسلام^(٤٩).



مخطط (٧) قبة مزار يحيى بن القاسم المزودة (٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م).

ولقد كان المعمار الموصلي موفقاً في معالجاته لمساقط الابنية غير المربعة وتحويلها الى مربعة للتوفيق بينها وبين مسقط القبة الدائري بعد تحويله الى مثنى بواسطة المقرنصات والخنيات الركنية ، ومن امثلة ذلك وضع بروز افي في الجانب الضيق لقاعدة القبة التي تعلو احدى الغرف في دير ماربهنام قرب الموصل ، أو يتم الانتقال مباشرة الى



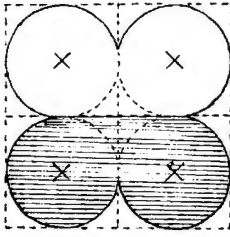
مخطط (٦) سلام مثانة الجامع النوري في الموصل (٥٦٦-٥٦٨ هـ / ١١٧٠-١١٧٢ م).

عن (الكثير)

معياراً يشير الى مكان الجامع او المسجد.

والقباب التي ترجع بأصولها الى السطوح المقبية في العراق التي ابتكرت منذ العصر السومري^(٤٥) فقد كثر اعتمادها في تسطيح مباني الموصل لتحقيق العديد من الاغراض يأتي في مقدمتها المعالجات المناخية والانشائية ، فهي تحد من الضغط الحراري بالصيف لعدم تعرض سطحها بالكامل لأشعة الشمس خلال النهار ولنشاط حركة الهواء ما بين جزئها الداخلي المظلل والجزء الخارجي المشمس^(٤٦). وتساعد على تخفيف القوى الضاغطة على الأسس والجدران التي تتركز عليها ، كما تكون السقوف المقبية اكثر تماسكاً من السقوف المستوية ، هذا فضلاً عن اهمية القباب الخصوصية بالنسبة للمباني حيث تضمني على البناء قدسية وتعطيه نوعاً من الشموخ والعظمة ، فالتعمر الحاصل في سقف القبة يقود الانسان الى التأمل قلماً يجده المرء في السقوف المسطحة ، وفي الحمامات يعوق النقب عملية تكاثف الابخرة^(٤٧).

وقد اعتمد في الموصل نوعان من القباب: الاول القباب نصف الكروية استخدمت فوق بلاطة عارِب الجوامع لانها تعمل على زيادة المساحة التي تغطيها، ومثالها قبة الجامع المجاهدي (صورة ٢، ص ٢٣٧). وفي القرن (٦٦ هـ / ١٢ م) حدثت استطالة في قبة



مخطط (١٠) تخطيط مقطع عمود ركني بالجامع النوري في الموصل
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

وعلى الرغم من كون تعدد هياكل تلك
الاعمدة لم تقتضها الناحية المعمارية ، غير ان اهمية
ذلك تكمن بالناحية الفنية المتمثلة بالتلاعب ببعض
جزئيات الابدان الركنية ووجود البروزات اللوزية
وانعدامها ، فضلاً عن الميزة الفنية الرائعة المتمثلة
بتيجانها الكأسية حيث تظهر للناظر من كل ركن
على هيئة كأس مقلوب نتيجة اتصال رؤوس
العناصر الكأسية في تلك الاركان في حين تظهر من
كل وجه على هيئة كأس معتدل. (المخطوطان ١٢، ١١).
وتعد التيجان الكأسية من الابتكارات المعمارية
خلال العصور العربية الاسلامية ، ومن اقدم
امثلتها الصريحة والواضحة ما وجد في سامراء ولا سيما
في الجوسق الخاقاني (٢٢١هـ / ٨٣٥م) (٥٢)
وربما كانت بعض التيجان الشبيهة بالكأسية التي
ظهرت منذ العصر الاموي في الشام مرحلة تمهيدية
لهذه التيجان (٥٣).

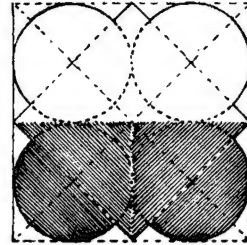
وبالنسبة للاعمدة المضلعة التي وجدت انفس
امثلتها في الجامع النوري من عهد بنائه الاول
فتتكون من ابدان ثمانية ضخمة خالية القواعد
وذات تيجان مكعبة يتكون كل منها من ثلاث
حطات مختلفة المساحات والقطاعات من مستوية
ومقعرة شغلها الكتابات وزخارف التوريق العربية
(الاراسك) (٥٤) (صورة ٣، ص ٢٣٧).

وتكمن الاهمية الانشائية والوظيفية لأبدان هذه
الاعمدة في كون ضخامتها ساعد على حمل العقود
المديبة الكبيرة التي تعلوها ، كما ان تعدد اوجها

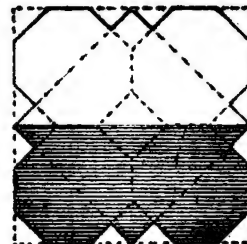
القاعدة الدائرية أو القريبية منها وذلك على حساب
مقرنصات منطقة الانتقال فتصبح هذه المقرنصات
ضيقة في الجوانب العريضة وشديدة البروز في
الجوانب الضيقة كما في قبة الست زينب في
سنجار (٥٥).

وبخصوص الاعمدة والبندات فقد زخرت
الموصل بالعديد من انواعها خلال العصور العربية
الاسلامية اهمها : الاعمدة ذوات الهياكل المزوجة
والاعمدة المضلعة والبندات.

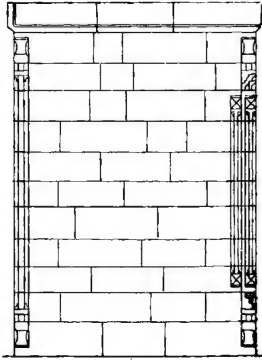
اما الاعمدة ذوات الهياكل المزوجة فعلى الرغم
من تكون كل منها من قطعة رخامية واحدة فانها
نحتت على هيئة اربعة انصاف ركنية متناظرة او
مضلعة يفصل فيما بينها اخاديد غائرة تتخللها احيانا
بروزات لوزية وفق اساس هندسي دقيق وتعد
الاعمدة التي تحف بمحراقي الخنفة والشافعية
بالجامع النوري ومصلى مرقد الشيخ فتحي من
انفس نماذجها ، ومن المرجح عودتها الى القرنين
(٥ - ٦ هـ / ١١ - ١٢ م) (٥٦) (المخطوطات ٨ ،
٩ ، ١٢).



مخطط (٨) تخطيط عمود ركني في الجامع النوري في الموصل.



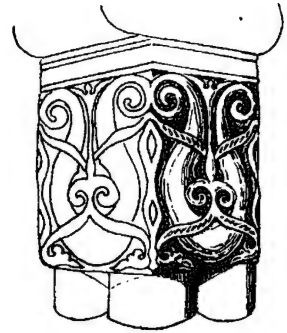
مخطط (٩) تخطيط عمود ركني بمرقد الشيخ فتحي في الموصل.
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)



مخطط (١٣) بدنة من كنيسة مارأشعيا في الموصل يحدود نهاية القرن
(١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م) او القرن (١٤٨٠ هـ / ١٩٦٤ م).

تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)
ومن اقدم الامثلة على الدعامات التي تحف
بأركانها اعمدة رشيقة اخرى تلك الدعامات الثماني
التي تحف باربعة أوجه منها اعمدة اسطوانية اخرى
اصغر منها في الجامع الكبير سامراء (٥٦) ثم وجدت
بعد ذلك في جامع ابي دلف على هيئة دعائم
مستطيلة يكتنف كل ركن من اركانها عمود رشيق
اسطواني الهيئة ، كما وجدت دعائم مائلة في الجامع
الطولوني بمصر (٥٧) وتبعها امثلة اخرى في مشهد آل
طباطبا بالقرافة الصغرى بالقاهرة (٥٨) وتعدتها الى
العهد الفاطمي حيث وجدت امثلتها في جامع
الحاكم (٥٩) . وفي المغرب العربي وجدت في
المسجد الجامع بقرطبة من عهد المستنصر (٦٠) .
وبهذا تعد الدعامات المذكورة واعمدتها الركنية من
الابتكارات المهمة لدى العرب المسلمين في مجال
العارة والفنون .

واذا تناولنا فتحات مباني الموصل من مدخل
وشبابيك نجد ان المدخل التي وصلت الينا منذ
القرن (١٢٠٦ هـ / ١٢٨٠ م) وما بعده فان معظمها يعود الى
مدارس بالاصل كمدخل المدرسة العزية (٥٧٦ -
٥٨٩ هـ / ١١٨٠ - ١١٩٣ م) (٦١) او مزارات كما
هو الحال في مدخل حضرة مزار الامام عون الدين
(٦٦٤ هـ / ١٢٤٨ م) (٦٢) ، كما يعد الشباك الذي



مخطط (١١ ، ١٢) تخطيطان لاسام عمود ركني بالجامع التوري في
الموصل .

تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

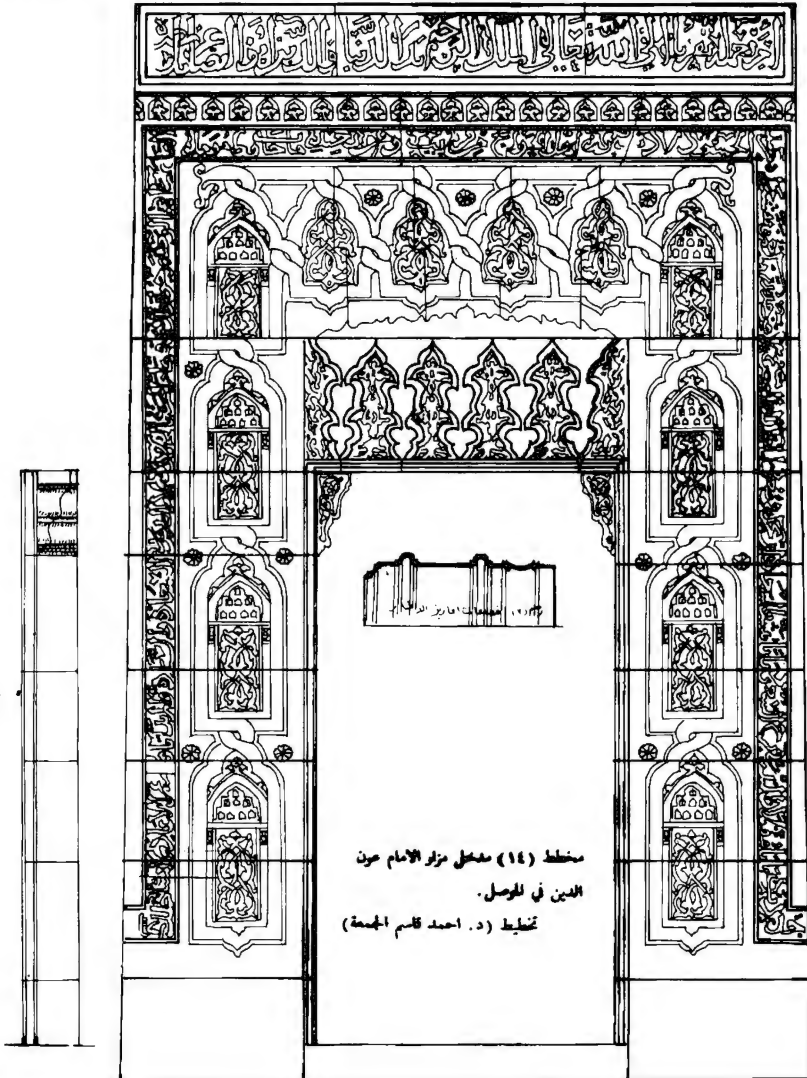
ساعد على اتكاء المصلين قبيل الصلاة وهذب
رؤوس زواياها الحادة التي تنجم عنها بعض المخاذير في
اثناء الاصطدام بها ولاسيما من قبل المكفوفين
وضاعفت تلك الالوجه المتعددة مدى الرؤية بين
المصلين . هذا وساعد انعدام القواعد الى انتظام
صفوفهم وزيادة نسية في عددهم .
وبخصوص البدنات فقد تمثلت في هياكل
الكنائس من الفترة الابلخانية كما هو الحال في
كنيسة مارأشعيا .

وعلى الرغم من تميز هذه البدنات ببضخامتها
وتكسيها المستطيل فانها تختلف من حيث الاركان
فبعضها يتميز بوجود غور في كل ركن من اركانها
الاربعة يتخلله عمود صغير يتكون من نصف مضلع
يعلوه ، تاج كأسي (مخطط ١٣) واحياناً
مقرنصات مركبة . وهناك بدنات اخرى خلت من
تلك الاعمدة الركنية الرشيقة (٥٥) لانها استحدثت
لغايات وظيفية بحتة .

وتجلى الاهمية الانشائية والوظيفية لهذه
البدنات في أنها من انجح العناصر المعارية الهيئة
لحمل الاقمية الطويلة التي تغطي هياكل
الكنائس ، في الوقت الذي لاتعوق فيه اقامة
المراسم الكنسية .

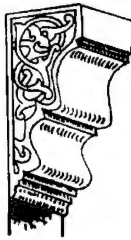
والتصميم المذكور للمداخل لم يقتصر على الموصل وإنما وجدت أمثله في مناطق أخرى من المشرق العربي الاسلامي خلال القرن (١٢هـ / ١٢٠٥م) وما بعده ومثالها مدخل التربة العادية (١٢٠٥هـ / ١١٦٩م) ^(٦٤) والتربة الفرثية (١٢٢١هـ / ١١٢٤م) بدمشق ^(٦٥) ، ومدخل تربة الثعالبية (١٢١٣هـ / ١٢١٦م) بالقاهرة ^(٦٦) ،

يعود الى نهاية القرن (١٣هـ / ١٣٠٠م) في جامع الامام الباهر من اقدم الشبائيك المتخلفة في الموصل ^(٦٣) . ويتكون المدخل الموصل بصورة عامة من اطار مستطيل يحف بفتحة تعلوها عتبة مصنجة ترتكز على كابلين ويعلوها عقد منبسط يتوجه شريط زخرفي ونص تذكاري في بعض الأحيان ، بالإضافة الى العتبة السفلى . (مخطط ١٤)



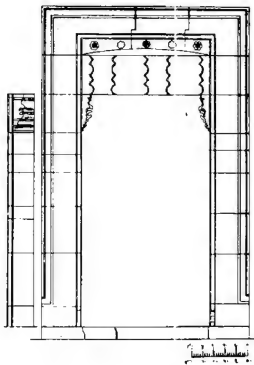
مخطط (١٤) مدخل منزل الإمام عون الدين في الموصل .
تخطيط (د. أحمد قاسم الجمعة)

أخذت تجمع بين الوظيفتين المعمارية والفنية.
(مخطط ١٦).



مخطط (١٦) كابل مدخل مزار الإمام عون الدين في الموصل.
تخطيط (د. أحمد قاسم الجمعة)

ومن الصفات المهمة للمدخل الموصول صغر حجمها وعدم بروزها عن الجدار المثبتة فيه ووجود السقائف التي تتقدمها أحياناً لأسباب مناخية وذلك لأن أطرافها الرخامية تتأثر بمياه الأمطار التي تكثر بالموصل في فصلي الشتاء والربيع. وقد عوض المعمار عن تلك الضخامة باشغال بعض أطر المداخل وأجزائها بحلل من الكتابات والزخارف ولاسيما خلال الفترة الأتابكية كما هو الحال في مدخل حضرة مزار الإمام عون الدين. (مخطط ١٤) ولكن بعد سيطرت المغول على الموصل عام (٦٦٠هـ / ١٢٦١م) وانحسار الناحية الفنية خلت المداخل من تلك الزخارف والكتابات على الرغم من بقائها على نفس التصميم السابق (١٩).
(مخطط ١٧).



مخطط (١٧) مدخل جامع جمشيد في الموصل بحدود منتصف القرن ١٢٨٨
تخطيط (د. أحمد قاسم الجمعة)

ومداخل بعض الكنائس في جزيرة ابن عمر (٦٧) مما يؤكد الوحدة التعبيرية في العمارة العربية الإسلامية. والصنوج المعشق في العتبات له أهمية انشائية حيث يزيد من ترابط الصنجات ببعضها ببعض وزيادة المثانة لأن العتبة لو كانت من قطعة حجرية واحدة فمما لاشك فيه أنها ستعرض للكسر بسهولة، كما أن العتبة المصنجة حدث من ارتفاع المدخل لأنها أدت إلى الاستعاضة عن العقود المدببة والمقوسة الأخرى، في حين حقق العقد المنبسط تخفيف الثقل عن العتبة عندما وزعه على جانبي الأطار.

وعلى الرغم من ظهور الصنوج المعشقة في الطرز السابقة للإسلام فإن المعمار في العصور العربية الإسلامية لم ينقل الشكل على علاته بل جعله من حيث الجوهر أقوى تماسكاً ومن حيث المظهر أبداعاً شكلاً وتنوعت هيئات الصنوج بحيث غدت الغازا يصعب حلها ومعرفة سبل تنفيذها.

والكوابيل اقتضتها الناحية الانشائية وهي اسناد العتبة العليا من الأسفل في كل جانب. وعلى الرغم من وجود الكوابيل في الطرز السابقة للإسلام فإنها كانت ذات هيئة بسيطة ولم تستخدم إلا للأغراض المعمارية فقط. (مخطط ١٥). وقد



مخطط (١٥) كابل بيرطلي.
تخطيط (د. أحمد قاسم الجمعة)

تمكن المعمار خلال العصور العربية الإسلامية من تطويرها حتى بلغت أقصى درجات تعقيدتها الفني وتطورها بالموصل خلال القرن (١٣هـ / ١٣م) (٦٨) بفعل كثرة التفرعات والمنحنيات والزوايا الحادة والقائمة في واجهاتها الداخلية وزخارف التوريق العربية التي شغلت سطوحها الخارجية. وبهذا

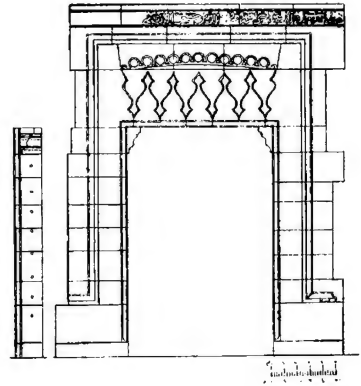
وهناك نوع ثالث يتكون من اطارين مزدوجين احدهما داخلي يحف بالفتحة والثاني خارجي يحيط بالاطار الاول والعتبة العليا في آن واحد بعد انعدام الكوابيل وبعد شباك مسجد الإمام ابراهيم المعاصر للشباك السابق من اهم الأمثلة على ذلك. (مخطط ٢٠).

وفضلاً عما تقدم فهناك نوع آخر من الشبائيك يعلو فتحته عقد مدبب مسنن ويحيط بكل من الفتحة والعقد اطار بارز وبلي ذلك اطار آخر يعلوه عقد على نفس غرار العقد السابق يتركز من كل جانب على عمود، ولهذا اكتسب هذا النوع من الشبائيك صفة الازدواجية. ويشاهد ذلك في شباك الحائط الشمالي لعرفة بيت الخدمة في كنيسة مارأشعيا^(٧١).

وبخصوص المحارب فقد تعددت انواعها من مجوفة ومسطحة ومزوية بفعل تنوع وخصوصية المباني المثبتة فيها، فالجوامع والمساجد الجامعة استخدمت فيها المحارب المجوفة بغية توفير صف اضافي الى صفوف المصلين عند دخول الإمام، وليعمل المحارب على ترديد صوته. ويعد محراب الجامع المجاهدي (٥٧٢- ٥٧٦ هـ / ١١٧٦- ١١٨٠ م) من ابرز الأمثلة على ذلك في الموصل وذلك لضخامته وتعدد تجاويفه المتراجعة، (المخططان ٢١، ٢٢) علماً بأن تجاويف محارب المدينة تنوعت لأسباب معمارية وفنية واعتبارية، غير انه من اهم الهياكل الفريدة للمحارب المجوفة في الموصل هو محراب مزار بنجة علي حيث يتكون من تجويف وسطي كبير يحف به تجويف او طاقة من كل جانب اصغر منه، (مخطط ٢٣) ومن امثلته النادرة الاخرى في العالم العربي الاسلامي محراب مسجد الحاكم بالقاهرة (٣٨٠- ٤٠٣ هـ / ٩٩٠- ١٠١٢ م) ومحراب المدرسة الظاهرية في حلب (٦١٣ هـ / ١٢١٦ م)^(٧٢).

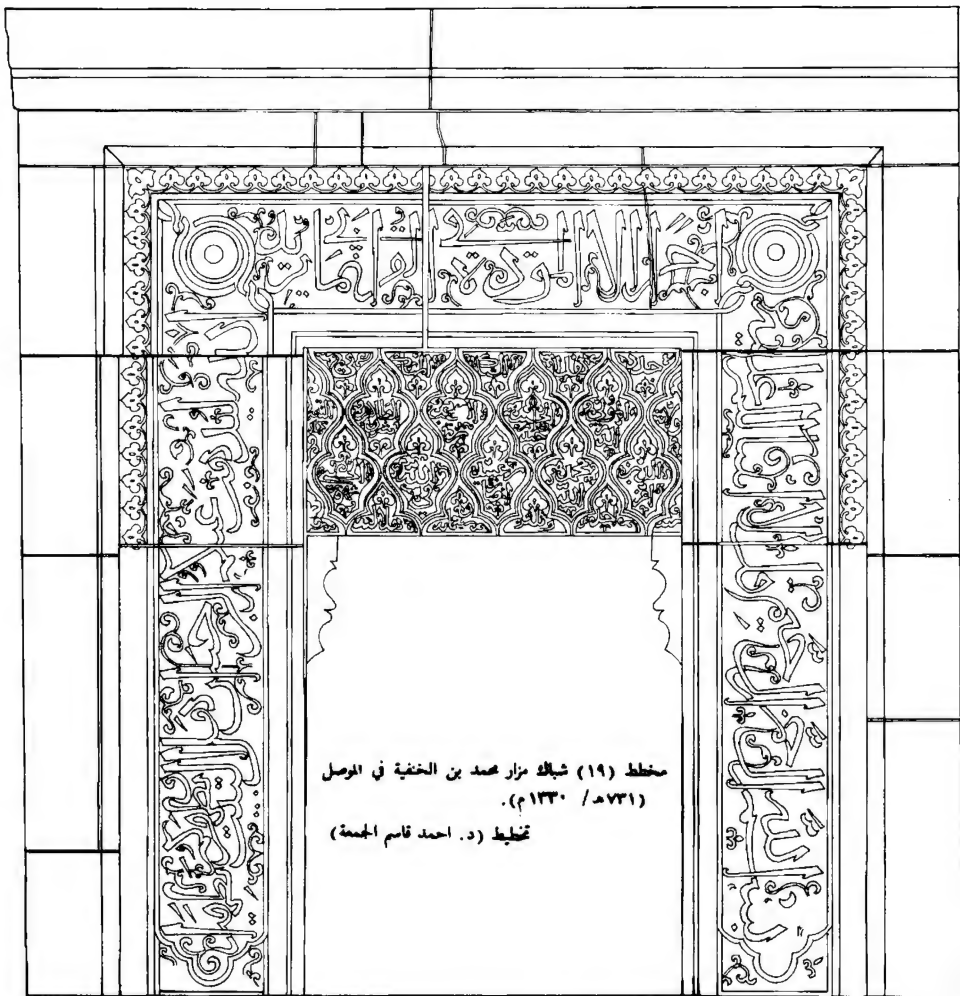
وكثرت في الموصل المحارب المسطحة ابضاً ولاسيما في المدارس وبعض مصليات المراقدة بصورة

أما الشبائيك التي وصلت اليها من مباني الموصل فيرقى اقدمها الى الفترة الابلخانية وعلى الرغم من الهيئة المستطيلة التي تجمعها فإن هناك اختلافات فيما بينها من حيث حجمها وبعض عناصرها المعمارية. وهذه الاختلافات لم تكن لها ضرورة وظيفية او معمارية وانما كانت لأغراض فنية. فمنها ما كان يماثل المداخل من حيث الحجم والتصميم والميزات الفنية ويتكون كل منها من اطار مستطيل يحف بفتحة تتوجها عتبة مصنجة ترتكز على كابل من كل جانب ويعلو كل ذلك عقد منبسط والذي ميز هذه الشبائيك عن المداخل هو نصوصها التذكارية والثقوب الموجودة في الجوانب الداخلية لاطارها والسطح السفلي لعتبته العليا التي كانت تستخدم لوضع القضبان الحديدية فيها وخبر مثال على ذلك شباك جامع الإمام الباهر^(٧٣) وشاع مثل هذا النوع في النصف الأخير من القرن (٧ هـ / ١٣ م) (مخطط ١٨).



مخطط (١٨) شباك جامع الإمام الباهر في الموصل، من نهاية القرن (١٣ هـ / ١٣ م). تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

أما النوع الآخر فهو اصغر حجماً غير ان العتبة العليا تتميز بعرضها البين وذلك لانعدام العقد المنبسط الذي يعلو العتبات عادة وخبر مثال على ذلك شباك حضرة مزار محمد بن الحنفية. ٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م) (مخطط ١٩).

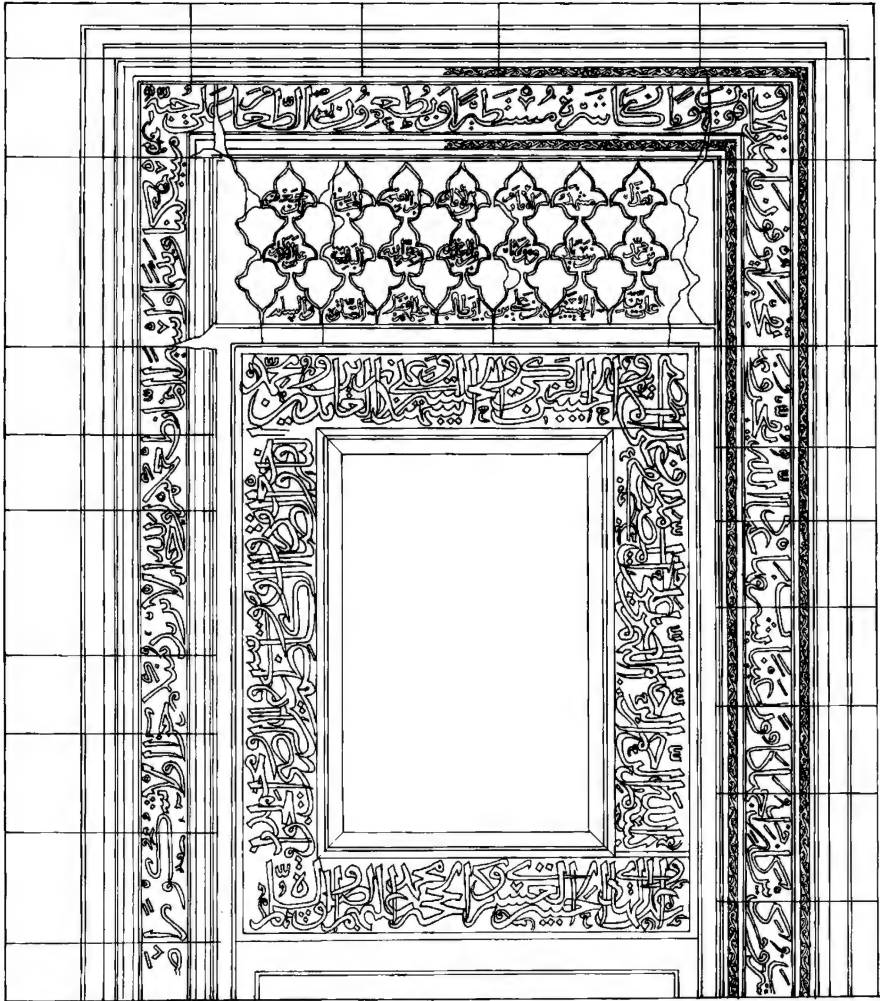


مخطط (١٩) شباك مزار محمد بن الخنفة في الموصل
(١٣٣٠ هـ / ١٣٣٠ م).

تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

الابتكارات المعمارية الإسلامية في الموصل وتكون كل منها من قطعتين مسطحتين ومتناظرتين تلتقيان في زاوية المبنى الممثلة لجهة القبلة وهي الجهة الجنوبية الغربية ليشكل بعضها مع بعض المحراب الذي يتخذ شكل الزاوية القائمة ومنها محرابان هما: محراب مزار يحيى بن القاسم (٦٣٧ هـ / ١٢٢٩ م)، ومحراب مزار الامام عون الدين (٦٤٦ هـ / ١٢٤٨ م) (مخطط ٢٥) هذا وعلى الرغم من ندرة هذه المحاريب فقد وجد أحد امثلتها

عامة لعدم وجود جميع متسبي المدارس بداخلها خلال اوقات الصلاة لذا انتفت الحاجة الى الصفوف الاضافية ومثالها محراب المدرسة النورية (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٠ م) (٧٣). وينطبق الشيء نفسه على المراقد لأن زيارتها تتسم بقلة الزيارات الجماعية، ومن امثلة محاربيها الفريدة محراب مرقد الشيخ فتحي حوالي القرن (٥٥ هـ / ١١ م) (٧٤) (مخطط ٢٤). وهناك نموذج آخر من المحاريب التي تعد من



مخطط (٢٠) شباك جامع الامام ابراهيم في الموصل . منتصف القرن
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة) . (١٤ / ٨٨م).

ومن العناصر المعمارية الاخرى التي ميزت مباني
الموصل خلال العصور العربية الاسلامية هي الأزر
المغلقة للجدران منذ العهد الأموي كما هو الحال في
قصر المنقوشة الذي شغلت أزره بالزخارف
والفسيفساء^(٧٦) . غير أن انفس ماوصل الينا من
تلك الأزر من الناحية المعمارية والفنية هي تلك
القطع الرخامية المغلفة لاحدى الغرف المتبقية من

٣٣٣

في مصر بجامع السيدة عائشة بالقلعة^(٧٥) .
ووجود مثل هذه المحارب المتزوية في مزارات
الموصل يرجع الى الحيز المكاني المحدود لأضرحتها ،
ولهذا اتخذت المحارب الزاوية القبلية فيها واتسام
الزيارات بالفردية وان الصلاة فيها تكون للتبرك
عادة ، ولهذا انتفت الحاجة الى الأنواع الاخرى من
المحارب ولا سيما المجموعة منها .

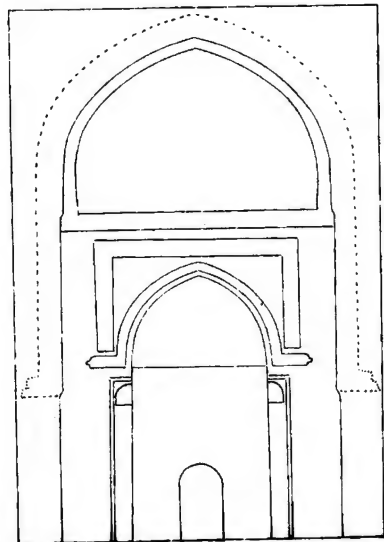
على جدران السرايب وغرف الطوابق الأرضية من المباني لأن الرطوبة لا توجد إلا في الجدران السفلى للمباني ولا يتعدى ارتفاعها أربعة أمتار عن مستوى الطريق بأي حال من الأحوال^(٧٩) ، أما الفائدة الانشائية الأخرى لتلك الأزر فهو بلاشك كان لحماية الأجزاء السفلى للجدران من عوامل التعرية والاحتكاك من جراء الاستخدام. هذا وإن الأزر الجدارية في منطقة الموصل أصبحت من السمات المميزة للمباني ولاسيما القصور الملكية منذ العهد الآشوري لنفس الأغراض^(٨٠) .

وبعد فلا بد من التطرق الى الدلالات المعمارية ومعالجاتها للمواد الانشائية في الموصل خلال العصور العربية الاسلامية للعلاقة التصميمية بينها وبين المباني المنفذة بها .

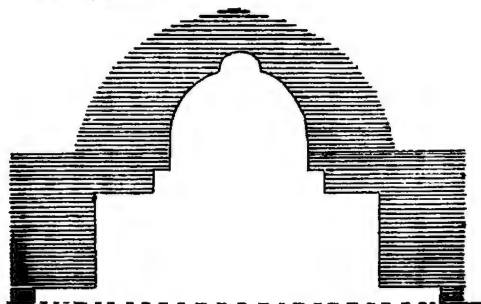
ويأتي في مقدمة تلك المواد الجص والحجارة ، فقد ورد ذكر لرصف طرق الموصل بالحجارة منذ العهد الأموي^(٨١) . وبما لاشك فيه ان الحجارة المذكورة كانت من الاحجار الكلسية لتوفرها في الموصل ومطابقتها للعمل ، وندره الأنواع الاخرى من الصخور ولاسيما النارية منها .

وتشير المصادر التاريخية إلى ان الجص والحجارة كثر استخدامهما في مباني الموصل ولاسيما في الفنادق والحمامات والأسواق منذ عهد بني حمدان (٢٩٣ - ٣٦٧ هـ / ٩٠٥ - ٩٧٨ م)^(٨٢) .

فالحجارة الكلسية والجص من المواد التي تمتاز بإبصارها البطيئ للحرارة مع قابليتها الكبيرة على الاحتفاظ بها ، ولهذا ساعدت في معالجة الظروف المناخية المتطرفة في الموصل. فخاصية الإيصال البطيئ للحرارة تعالج مشكلات المناخ صيفاً حيث تكون درجة الحرارة مرتفعة وتبلغ أقصاها وقت الظهيرة ولفترة زمنية بعدها مما يسبب ضغوطاً حرارية على المباني ، لذا فإن الأحجار تعمل على تأخير تسرب الحرارة الى الداخل لوقت تبدأ درجة الحرارة بالخارج بالتدني. أما خاصية الاحتفاظ بدرجة الحرارة مدة طويلة ساعدت على معالجة المناخ شتاءً لأنها تعد مصدراً للاشعاع الحراري



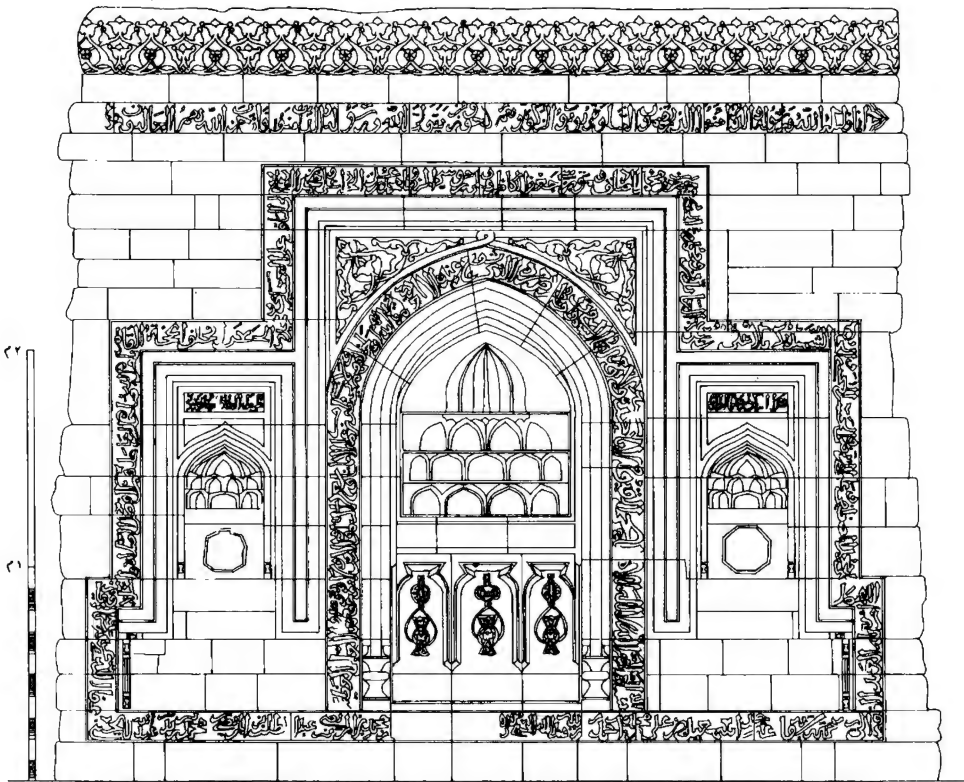
مخطط (٢١) تخطيط واجهة عراب الجامع المجاهدي في الموصل
٥٧٢ - ٥٧٦ هـ / ١١٧٦ - ١١٨٠ م .
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)



مخطط (٢٢) مسقط اثنى عراب الجامع المجاهدي في الموصل .
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

المدرسة النورية (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٠ م) حيث شغلت بالزخارف الهندسية والنباتية المنزلة بالرخام الأبيض^(٧٧) ، (مخطط ٢٦) كما يجب التنويه بالأفاريز الجدارية ذات الزخارف النباتية المبطنة لأسفل جدران حضرة مزار الإمام يحيى بن القاسم^(٧٨) .

وتتجلى أهمية هذه الأزر علاوة على أهميتها الجمالية الى معالجاتها البيئية ، حيث أنها تحفظ الجملوان من الرطوبة الأرضية ، ولهذا اقتصررت عادة



مخطط (٢٣) تخطيط محراب كف (بنجة) علي في الموصل (٦٨٦هـ /
١١٨٧م).

تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

ولعدة اجيال ، والذي بدوره يسهل عملية العزل الحراري ، هذا فضلاً عن ان هذه الأحجار لاتساعد على نقل الصوت بالدرجة نفسها التي نلاحظها في المواد الاخرى ، كما انها اقل قابلية للتمدد والتقلص جراء التبدلات الحرارية^(٨٤) .

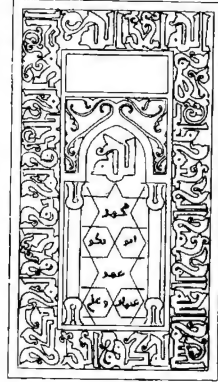
أما الحص فهو خير مادة للربط بين الحجارة من حيث سرعة جفافه وقوة تماسكه ، كما ان لونه

داخل المباني وخارجها خلال الليل مما يحد من برودة الطقس^(٨٣) . ويمكن الحصول على حرارة معتدلة . هذا فضلاً عن ان الحجارة غير المهندمة المستخدمة في البناء تترك بينها الفراغات في اثناء بنائها مما يساعد على عملية العزل الحراري .

ومن المزايا الاخرى لهذه الأحجار ولاسيما الانشائية منها هي زيادة سمك الجدران اكثر من المواد الاخرى ويؤدي الى استدامة المباني طويلاً

المقوسة التي امتازت بها العمارة الموصلية كالقباب والاقبية والاواوين .

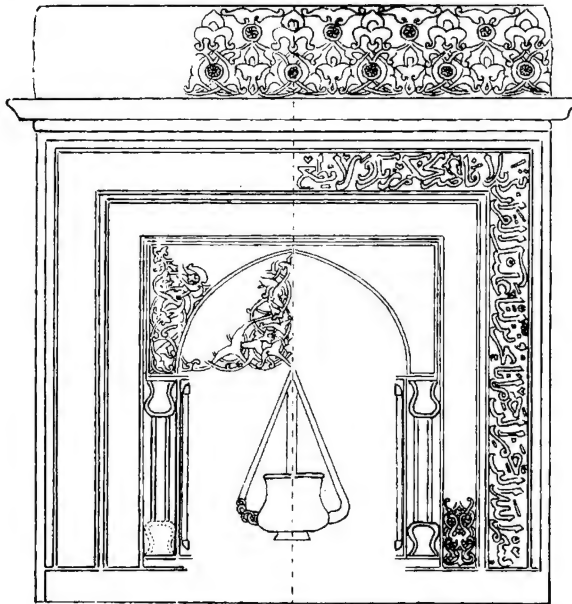
وأكثر المعار الموصلية من استخدام مادتي الحلان والرخام الموصلية في تشكيل العناصر المعمارية ولا سيما تأطير فتحات المداخل والشبابيك والطاقات وتغليف اسفل الجدران الداخلية وتحلية المباني وتبليط الارضيات ، ذلك لكثرة وجودهما في منطقة الموصل ومطاوعتهما للعمل وصلاحيتهما للبناء اذا ما أحسن استخدامهما ووضعهما في الأماكن المناسبة .



مخطط (٢٤) تخطيط محراب الشيخ ضحي في الموصل .
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

فالمعار أكثر من استخدام الحلان وهو الحجارة الكلسية المهندمة في الأجزاء الخارجية والمكشوفة من المباني في حين تركز استعمال الرخام الموصلية على الأقسام الداخلية لأن تأثر حجر الحلان بالأحوال الجوية المباشرة وخاصة الأمطار اقل نسبياً مما هو بالنسبة للرخام الموصلية على الرغم من دخول عنصر الكالسيوم في تركيب كلتا المادتين . فتأثير الأمطار

الأيض وملامسه الناعم لدى استخدامه في الملاط يعد بمثابة مادة عاكسة لأشعة الشمس صيفاً . هذا واستخدمت التورة في بناء اسس المباني لما لها من قوة التصلب وشدة التماسك مما يؤدي الى متانة وقوة تحمل تلك الأسس^(٨٥) . ومن ناحية اخرى فإن الجص والحجارة تساعد على بناء السقوف



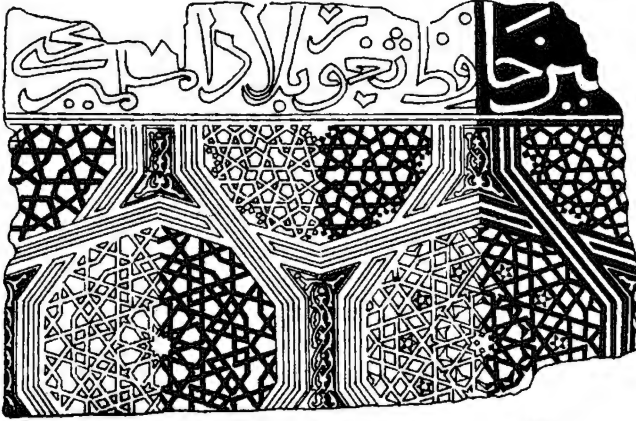
مخطط (٢٥) تخطيط محراب مزار عون الدين في الموصل (٦٤٦هـ /

١٢٤٨م)

تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

وقلة الوزن ، تلك التي تحتاج اليها المباني التي يراد لها ان تستديم طويلاً ، علاوة الى كون الطوب يساعد على تشكيل السقوف المقوسة لأنه يمكن تقديم قطعة الطوب قليلاً نحو الداخل في كل مدماكين متقابلين وهكذا نحو الأعلى حتى تلتقي في قمة السقف. ومن أهم مباني الموصل التي بنيت بالطوب الجامع المجاهدي (٥٧٢ - ٥٧٦هـ).

على الحلان يكون كيميائياً لأن المياه تذيب كمية من غاز ثاني اوكسيد الكربون الكائن في الجو فيتحول الى محلول مخفف من حامض الكاربونيك الذي يعمل بدوره على اذابة مقادير من التكوينات الجيرية في الحلان على المدى البعيد على حين يكون تأثير الأمطار على الرخام الموصل فيزيائياً أكثر من كونه كيميائياً.



مخطط (٢٦) نطاق من الزخارف الرخامية المطعمة في المدرسة النورية (الامام عمن) في الموصل (٥٨٩ - ٦٠٧هـ / ١١٩٢ - ١٢١٠م).
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

(١١٧٦ - ١١٨٠م) ومزار الإمام يحيى بن القاسم (٦٣٧هـ / ١٢٢٩م)، كما استخدم الطوب كإداة اضافية واقية لمادة البناء الاصلية وهي الحجارة الكلسية غير المهندمة في العناصر المعمارية الشاحصة كما هو الحال في تغليف بدن مثذنة الجامع النوري وذلك لأن الطوب اقل تأثراً بالقلبات الجوية ، كما انه من المواد المساعدة على الزخرفة سواء التلاعب بمستويات قطعه او نحت العينات الزخرفية عليها مباشرة (٨٧).

وللأغراض الآتفة الذكر استخدم الطوب منذ العهود القديمة في العراق واكد عليه معماريو الدولة الكلدانية في عهد نبوخذنصر بشكل كبير في اقامة المباني ، والى نفس الأسباب وجدنا معمار الأخيضر

وعلى الرغم من محدودية التأثير الكيميائي على الرخام الموصل وذلك لكون مادة الجبس الداخلة في تركيبه لا تتأثر بالحوامض الآ في حالة سخونتها فإن رخاوتها وقلة صلابتها اذا ما قورنت بصلادة حجر الحلان جعلت تأثير الرطوبة ومختلف انواع المياه كبيراً بحيث يفوق ذلك التأثير الذي يتعرض له الحلان (٨٦).

ومنذ القرن السادس والسابع طالعنا بعض المباني والعناصر المعمارية التي يدخل في بنائها الطوب وان كانت الغلبة للحجارة الكلسية. ويرجع استخدام الطوب الى معالجاته المناخية والانشائية المهمة فهو مادة أكثر عزلاً حرارياً من الحجارة ، واقل تمدداً وتقلصاً منها ، فضلاً عن تميزه بالخفة

في العصر العربي الاسلامي يشيد بالحجارة الجدران في البهو الرئيسي في حين بنى السقف بالطوب (٨٨) . وهكذا اتضح لنا من خلال الدراسة التحليلية للناحية المعمارية في الموصل والكشف عن مدلولاتها المنظورة وغير المنظورة خلال العصور العربية الاسلامية انها حققت وظائفها المعمارية والفنية على الوجه الأكمل بفعل معالجاتها الانشائية والمناخية واعتماد افضل التخطيطات والتصاميم والعناصر المعمارية والمواد البنائية التي تلائم الامور الانشائية وتعالج المشكلات المناخية والبيئية في الوقت الذي استمرت في تطورها وازدادت المبتكرة وحافظت على جذورها المحلية والعربية السابقة للإسلام . وهذا دللت على الفكر المعماري الأصيل للعرب المسلمين في فترة من ازدهي حقبة الحضارة .

المواش

- (١) الدكتور ازهري السالك وآخرون : استخدامات الأرض بين النظرية والتطبيق (دراسة تطبيقية عن مدينة الموصل الكبرى حتى عام ٢٠٠٠)، جامعة الموصل ١٩٨٥م ، ص ٢٣ ، ٢٤ .
- (٢) المرجع نفسه ، ص ٥ .
- (٣) الأزدي : تاريخ الموصل ، تحقيق الدكتور علي حبيبة ، القاهرة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م ، ج ٢ ، ص ٢٥ ، ابن حوقل : صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٣٨م ، ص ٢١٤ .
- (٤) السالك : المرجع السابق ، ص ١٨ .
- (٥) ابن الأثير : اسد الغابة في اخبار الصحابة ، طهران ١٣٧٧هـ ، ج ٢ ، ص ٢٦٦ .
- (٦) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٦٧ .
- (٧) الدكتور عبدالرحمن الانصاري : (قرية) الفاو صورة للحضارة العربية قبل الاسلام في المملكة العربية السعودية ، جامعة الرياض ١٤٠٢هـ ، ص ٢٣ .
- (٨) الدكتور عيسى سلمان وآخرون : المآثر العربية الاسلامية في العراق ، ج ١ (تخطيط مدن ومساجد) ، بغداد ١٩٨٢م ، ص ٢٥ .
- (٩) الدكتور احمد قاسم الجمعة : الميزات والتصاميم المعمارية التراثية في الموصل ، مجلة آداب الراغبين ، العدد السادس عشر لسنة ١٩٨٦م ، ص ٣٢١ .
- (١٠) صالح لمي مصطفى : المدينة المنورة وتطورها العمراني وتراثها المعماري ، بيروت ١٩٨١م ، ص ١٢ .
- (١١) الدكتور عيسى سلمان وآخرون : المآثر العربية الاسلامية في العراق ، ج ٢ (قصور ومشاهد) ، بغداد ١٩٨٢م ، ص ١٢ .

- (١٢) مصطفى الموسوي : العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية ، بغداد ١٩٨٢م ، ص ٢٢٥ .
- (١٣) الانصاري : المرجع السابق ، ص ٢٣ .
- (١٤) الدكتور احمد قاسم الجمعة : اصالة المعالجات المعمارية التخطيطية في الموصل خلال العصور العربية الاسلامية ، مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ١٩٨٦م ، ص ٨ ، ١٠ .
- (١٥) الموسوي : المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٥ .
- (١٦) سلمان : تخطيط مدن ومشاهد ، ص ١٥٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، الجمعة : المرجع السابق ، ص ١١ ، ١٢ .
- (١٧) المرجع نفسه ، ص ١٢ ، ١٣ .
- (١٨) الدكتور احمد قاسم الجمعة : الميزات والتصاميم المعمارية التراثية في الموصل ، ص ٣٢٩ .
- (١٩) الدكتور مؤيد سعيد : الأصل العراقي القديم للعمارة الاسلامية في العراق ، مركز احياء التراث العربي بجامعة بغداد ١٩٨٦م ، ص ٥ .
- (٢٠) الدكتور احمد قاسم الجمعة : المظاهر المعمارية والفنية في الموصل منذ صدر الاسلام حتى الوقت الحاضر ، محافظة نينوى بين الماضي والحاضر ، الموصل ١٩٨٦م ، ص ١٣٢ .
- (٢١) الأزدي : المصدر السابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .
- (٢٢) الدكتور احمد قاسم الجمعة : القصر الأموي بالشعبية في منطقة البصرة ، ندوة دور البصرة في التراث العلمي العربي ، مركز احياء التراث العربي بجامعة بغداد ، البصرة ١٩٨٩م ، ص ٤ .
- (٢٣) الجمعة : اصالة المعالجات المعمارية التخطيطية في الموصل ، ص ١٣ .
- (٢٤) الأزدي : المصدر السابق ، ص ١٤٨ .
- (٢٥) الجمعة : المرجع السابق ، ص ١٤ .
- (٢٦) المرجع نفسه ، ص ١٥ .
- (٢٧) المرجع نفسه ، ص ١٦ .
- (٢٨) احمد قاسم الجمعة : محارب مساجد الموصل الى نهاية حكم الانابكة ، رسالة ماجستير مقدمة الى جامعة القاهرة ١٩٧١م ، ص ٦٦ ، ٦٧ ، ١٢٦ .
- (٢٩) المرجع نفسه ، ص ١٨٣ ، ١٨٦ .
- (٣٠) الدكتور احمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ، القاهرة ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م ، ج ٢ ، ص ١١٨ - ١٢٢ .
- (٣١) الجمعة : اصالة المعالجات المعمارية التخطيطية في الموصل ، ص ١٧ .
- (٣٢) الدكتور احمد قاسم الجمعة : الميزات والعناصر المعمارية في التاريخ الشراعية في بغداد ، ندوة بغداد في التاريخ ، قسم التاريخ ، كلية التربية الاولى بجامعة بغداد ، بغداد ١٩٩٠م ، ص ٤ ، ٥ .
- (٣٣) الدكتور احمد قاسم الجمعة : العناصر والميزات المعمارية في المدرسة المستنصرية ، ندوة المستنصرية في التاريخ ، اتحاد المؤرخين العرب والجامعة المستنصرية ، بغداد ١٩٨٦م ، ص ٣٩ ، ٤٠ .
- (٣٤) الجمعة : اصالة المعالجات المعمارية التخطيطية في الموصل ،

- (٥٧) شافسي : المرجع السابق ، ص ٤٠٣ ، شكل ٢٣٤ و ٢٣٥ .
- (٥٨) حسن عبدالوهاب : مميزات العارة الاسلامية في مصر ، المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، القاهرة ١٩٦٣ م ، ص ١٧٧ .
- (٥٩) حسن عبدالوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ، القاهرة ١٩٤٦ م ، ج ١ ، ص ٣٥ .
- (٦٠) مانويل جويث : الفن الاسلامي في اسبانيا ، ترجمة الدكتور لطفي عبدالديمق والدكتور محمد عبدالعزيز سالم ومراجعة الدكتور جمال محمد حمزة ، مصر ١٩٦٨ م ، ص ١٠٩ .
- (٦١) الجمعة : المرجع السابق ، ص ٤٢٧ .
- (٦٢) المرجع نفسه ، ص ٤٤٥ .
- (٦٣) المرجع نفسه ٦٢٣ ، ٦٢٨ .
64. Abbu (A.N.), The Ayyubid Domed Buildings of Syria, Thesis, Edinurgh University 1973, Vol.2, Fig.19
65. Ibid., Fig.90.
66. Greswell (K.A.C.), The Muslim Architecture of Egypt, Oxford Vol.11, pl.27 a.c.
- (٦٧) الدكتور احمد قاسم الجمعة : مدخل مزار بنجة علي ، مجلة آداب الرافدين ، العدد ١٩ لسنة ١٩٨٩ م ، ص ١٠٢ .
- (٦٨) المرجع نفسه ، ص ١٠١ .
- (٦٩) المرجع نفسه ، ص ١٠٧ .
- (٧٠) المرجع نفسه ، ص ١٠٨ .
- (٧١) الجمعة : الآثار الرخامية ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
- (٧٢) الدكتور احمد قاسم الجمعة : الحراب ورحلة اربعة عشر قرناً ، المنهل ، العدد التخصص لسنة ١٤٠٧ هـ ، ص ٢٧٢ .
- (٧٣) احمد قاسم الجمعة : محارب مساجد الموصل الى نهاية حكم الأتابكة ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة القاهرة ١٩٧١ م .
- (٧٤) المرجع نفسه ، ص ١٢٦ ، رسم ١٢٧ .
- (٧٥) الجمعة : الحراب ورحلة اربعة عشر قرناً ، ص ٢٧٤ .
- (٧٦) الأزدي : المصدر السابق ، ص ٢٦ ، ٢٧ .
- (٧٧) الجمعة : الآثار الرخامية ، ص ٧٨٦ ، ٧٨٧ .
- (٧٨) المرجع نفسه ، ص ٨٠٤ .
- (٧٩) جيوثاني مزارى : الرطوبة في المباني التاريخية ، ترجمة ناصر عبدالواحد ، المركز الاتحادي لصيانة الممتلكات الثقافية في الدول العربية ، بغداد ١٩٨٤ م ، ص ٨ .
- (٨٠) الدكتور طارق مظلوم : نماذج من طرق الحفاظ على بعض الفترات الفنية في العارة العراقية القديمة (المحافظة على الجدران) ، مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ، بغداد ١٩٨٦ م ، ص ٧ .
- (٨١) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م ، ص ٣٧٠ ، عقد الحان في تاريخ اهل الزمان ، مخطوط لمؤلف مجهول ، نسخة مصورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ ، ج ١١ .
- (٨٢) الاصطخري : مسالك المالك ، لندن ١٩٢٧ م ، ص ٧٣ .
- (٨٣) محمد بلرالدین الخولي : المآثر المناخية والعارة العربية ، ص ١٧ ، ١٨ .
- (٣٥) المرجع نفسه ، ص ١٧ .
- (٣٦) المرجع نفسه ، ص ١٨ .
- (٣٧) الجمعة : المميزات والتصاميم المعارية التراثية في الموصل ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٤ .
- (٣٨) طه باقر : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، ج ١ ، ص ١٠٢ .
- (٣٩) الجمعة : اصالة المعالجات المعارية التخطيطية في الموصل ، ص ٢١ .
- (٤٠) ماجد عبدالله الشمس : العارة العربية قبل الاسلام ، مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ١٩٨٦ م ، ص ٨ .
- (٤١) الجمعة : المميزات والتصاميم المعارية التراثية في الموصل ، ص ٣٣٤ .
- (٤٢) فؤاد سفر : حفريات حسونة ، سومر ، م ١ لسنة ١٩٤٥ م ، ص ٣٤ .
- (٤٣) الدكتور احمد قاسم الجمعة : من نفائس الفن المعاري في الموصل ، مجلة الشعب ، العدد ١ ، حزيران ١٩٧٨ م ، الموصل ١٩٧٨ م ، ص ٥٦ .
- (٤٤) الدكتور احمد قاسم الجمعة : الثلاثة المظفرية في اربيل ، مجلة الشعب ، العدد ٤ ، آذار ١٩٧٩ م ، الموصل ١٩٧٩ م ، ص ٧٨ .
- (٤٥) باقر : المرجع السابق ، ص ٢٧٥ .
- (٤٦) محمد بلرالدین الخولي : المآثر المناخية والعارة العربية ، جامعة بيروت العربية ، ١٩٧٥ م ، ص ٣٤ .
- (٤٧) الدكتور احمد قاسم الجمعة : القباب العربية وتطورها خلال العصور العربية الاسلامية ، مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ، بغداد ١٩٨٩ م ، ص ٣٢٨ .
- (٤٨) عطا الحديثي وهناء عبدالخالق : القباب المحروطة في العراق ، بغداد ١٩٧٤ م ، ص ٥٧ ، ٦٦ .
- (٤٩) Creswell (K.A.C.), Early Muslim Architecture, 2nd. Ed. Vol.I, Part 1, Oxford 1969, P. 93, Fig. 33.
- (٥٠) عادل نجم عبو : القباب العباسية في العراق ، رسالة ماجستير غير منشورة ، مقدمة لجامعة بغداد ١٩٦٧ م ، ص ١٩٥ ، ١٩٦ .
- (٥١) الدكتور احمد قاسم الجمعة : الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الأتابكي والایلخاني ، رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت لجامعة القاهرة ١٩٧٥ م ، ص ٦٨٦ .
- (٥٢) الدكتور فريد شافسي : العارة العربية في مصر الاسلامية ، م ١ ، القاهرة ١٩٧٠ م ، ص ٤١١ .
- (٥٣) الدكتور فريد شافسي : الأخشاب المزخرفة في الطراز الأموي ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، م ١٤ ، ج ٢ لسنة ١٩٥٢ م ، ص ٨١ ، ٩٣ .
- (٥٤) الجمعة : المرجع السابق ، ص ٧١٧ .
- (٥٥) المرجع نفسه ، ص ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٣ .
- (٥٦) ربيع القيسي : جامع الجمعة في سامراء تخطيطه وصيانه ، مجلة سومر ، م ٢٥ لسنة ١٩٦٩ م ، ص ١٤٨ ، مخطوط ٢ .

الفنون الزخرفية

الزخرفة الرخامية

أ. د. أحمد قاسم الجمعة

رفعت الموصل الحضارة الانسانية بمعطيات كبيرة في المجالات كافة ومنها الفنون التشكيلية والتطبيقية والفرعية التي نفذت على المواد المختلفة. وقلاً يخلو متحف من المتاحف العالمية من مآثر الموصل الفنية ولاسيما المعدنية منها. والذي يعني في مجال البحث تلك الفنون الزخرفية المنفذة على الرخام في الموصل خلال العصور العربية الاسلامية التي تعد في مقدمة الفنون التشكيلية والتطبيقية التي اشتهرت بها الموصل ومنطقتها.

وسيتطرق البحث الى الفنون والزخارف الرخامية من حيث مادة الرخام المنفذة عليها وخصائصها وطبيعة وكيفية صناعتها وتقنياتها لعلاقة ذلك بالناحية الزخرفية وانواع الزخارف ومواضيعها واسلوب تنفيذها والاتجاهات والمنطقات والمظاهر والمميزات الفنية والعناصر الزخرفية والتأكيد على تسلسلها الزمني والعوامل المؤثرة في ذلك وتتبع اصولها والتأثيرات المتبادلة بينها وبين الفنون المحلية والاجنبية لبيان مدى تطورها.

وقد كان الرخام من المواد المهمة التي استخدمها الانسان منذ عصوره الاولى وحتى عهود متأخرة، اذ قلما نجد طرازاً معمارياً أو فنياً قد خلا منه. ونخصّص الموصل فهو يعد من اكثر المواد التي

اعتمدت في عمارتها ومخلفاتها الاثريّة، فاذا استثنينا المنائر والقباب التي بنيت من الآجر ومن الحجارة احياناً فإن ما تبقى لدينا عندئذ يشكل الرخام مادته الرئيسة. ويرجع ذلك الى وفرته في منطقة الموصل وجبالها ومطاولته للعمل وسهولة تفصيله حسب الاشكال والاحجام المطلوبة اكثر من المواد الاخرى.

ويراد بالرخام من الناحية الجيولوجية الصخر المتحول الناتج من بعض الصخور الجيرية (اللايمستون)^(١) بفعل الضغط والحرارة^(٢). ومن اشهر انواعه هي الكالساييت (كاربونات الكالسيوم) وحياتانيايدخل عنصر المغنيسيوم في تركيب الكاربونات حيث ينتج الدولومايت (كاربونات الكالسيوم والمغنيسيوم المزدوجة)^(٣). ومن الناحية التجارية يراد بالرخام اية صخور كربونية تأخذ صقلاً جيداً أو الصخور الجيرية التي تتعرض لظاهرة التشقق مما يؤدي الى تحولها الى انواع متعددة الاشكال والالوان^(٤).

ونخصّص رخام الموصل الذي اطلق عليه هذا الاسم مجازاً والذي يدعى محلياً بـ (الفغش) أو (المرم) فهو من مادة الجبس اي (كبريتات الكالسيوم المائية)^(٥)، وبهذا أصبح يعني دلالات تجارية أكثر مما هي جيولوجية ولهذا سمي بالرخام

الموصل، وسماه بعضهم بالرخام الجصي^(١٠) أو المرمر^(١١) لكي يمكن التفريق بينه وبين مفهوم الرخام الحقيقي من الوجهة الجيولوجية.

والجدير بالذكر ان هناك نوعاً آخر من الصخور نحت منه كثير من المخلفات المعمارية والفنية في الموصل يدعى محلياً بـ (الحلان) وهذه التسمية - وان لم نقف على ذكرها في المعاجم التي وقعت بين ايدينا - لربما جاءت من كلمة (التحلية) لان الحلان كان ولا يزال يستخدم في تحلية العائر. وهو من الصخور الجيرية (كاريونات الكالسيوم) وبهذا يختلف عن الرخام الموصل، بعض الشيء وان كان عنصر الكالسيوم يدخل في تركيب المادتين.

وقد ادخلنا الحلان ضمن البحث وذلك لوجود بعض التشابه بينه وبين الانواع الاخرى من الرخام من ناحية التركيب وطريقة العمل والاستخدام في النواحي المعمارية والفنية، الا انه كان يستخدم بكثرة في الاجزاء الخارجية من المعائر، والاحواض التي يكون تأثيرها بالاحوال الجوية مباشراً وخاصة الامطار اقل نسبياً مما هو الحال بالنسبة للرخام الموصل وذلك لان مقاومة الحلان لتلك الاحوال تفوق مقاومة الرخام الموصل^(١٢).

ويتصف الرخام الموصل بالليونة وقابليته للصقل الجيد ومطاوعته للعمل لكون هذه الصفات متمثلة بمادة الجبس المتكون منها. اما الحلان الموصل فيتصف بالليونة ايضاً بحيث يمكن استخدامه في العناصر المعمارية والزخرفية لانه صنف من الصخور الجيرية التي تمتاز بالرخاوة ومع ذلك فهو اكثر مقاومة لعوامل التعرية ومؤثراتها من الرخام الموصل (الجبس) كما اسلفنا.

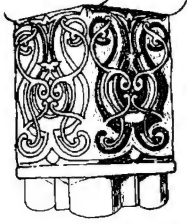
ومن الخصائص الاخرى للحلان والرخام الموصل تأثير مياه الامطار فيها وان كان ذلك التأثير يختلف فيما بينهما من حيث الكيفية والمقدار. فالحلان يكون تأثير الامطار عليه كيميائياً لان الامطار تذيب مقادير من غاز ثاني اوكسيد الكربون الموجود في

الجو فتحوله الى محلول مخفف من حامض الكاربونيك يعمل على اذابة مقادير من التكوينات الجيرية المكونة لحجر الحلان على المدى البعيد^(١٣). أما الرخام الموصل فيكون تأثير الامطار عليه فيزيائياً اكثر مما هو كيميائياً لان مادة الجبس المكونة له لاتتأثر بالحوامض الا في حالة تسخينها^(١٤)، ولكن رخاوتها وليونتها وقلة صلابتها اذا ماقيست بصلادة مادة الحلان من ناحية ثانية جعلت تأثير مختلف انواع المياه عليها بما في ذلك مياه الامطار كبيراً بحيث يفوق ذلك التأثير الذي يصيب الحلان، وادى ذلك الى فقدان بعض الآثار والزخارف الرخامية لمعلمها الفنية بصورة نهائية تقريباً. ومن امثلة ذلك معالم وزخارف محراب مزار الست نفيسة من القرن (١٣هـ / ١٣م)^(١٥).

وكان لصفة الرخام الموصل المذكورة تأثير كبير على الطابع المعماري والفني في الموصل فقد كان لها الدور الرئيس فيها. فقد كانت من الاسباب المهمة في توجيه عناية الفنان الى الاقسام الداخلية من المعائر ليزينها بالأسرطة الكتانية والزخرفية في حين بدت الواجهات الخارجية بسيطة خالية من المعالم الفنية من زخارف وكتابات باستثناء واجهة مزار يحيى ابن القاسم التي زينت بالزخارف المتنوعة والكتابات نتيجة استخدام الآجر فيها إذ يكون اقل تأثيراً بعوامل التعرية والتجوية من الرخام الموصل. وتعدى تأثير تلك الصفة للرخام الموصل الواجهات الى المداخل الخارجية أيضاً فبدت على العموم بسيطة تتكون من فتحة غير واسعة يحف بها اطار غير عريض يقع في مستوى الجدار عادة. وفي حالة توشيح أطر بعض المداخل بالأسرطة الزخرفية والكتانية فكانت تقدمها سقائف لحفظها من مياه الامطار كما هو الحال في مدخل حضرة مزار الامام عون الدين^(١٦).

وبالنسبة للزخرفة المنفذة على المخلفات الرخامية في الموصل فتزخر بانواع متعددة من هندسية ونباتية

الجويجاني ، ومسجد شمس الدين والحراب المنقول الى كنيسة مارتوما^(١٤) ، وتيجان الاعمدة الركنية في الجامع النوري^(١٥) والذي يعد امتداداً لاسلوب سامراء (تخطيط ١).



مخطط (١) تاج عمود من الجامع النوري في الموصل.
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة).

فالخفر المشطوف تمثل في طراز سامراء الثالث^(١٦) وامتد بعد ذلك الى المناطق الأخرى من العراق ، والعالم العربي الاسلامي ولاسيما في مصر منذ العصر الطولوني متمثلاً في بعض التحف الخشبية المحفوظة بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة ومتحف كلية الاداب بجامعة القاهرة^(١٧).

أما الخفر البارز الرأسي فشمل معظم العناصر الزخرفية في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي وما بعده في الموصل ومنطقتها ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك زخارف محراب الجامع الاموي وزخارف تيجان الاعمدة الثمانية في الجامع النوري والاشربة الزخرفية المبطة لغرفة مزاريجي بن القاسم . والنحت البارز ظهر في العراق منذ عصر فجر السلالات^(١٨) وقطع شوطاً كبيراً في العصر الاكدي حيث ثبتت دعائم مدرسة تمثلت في وصولها الى المنهجية الواقعية في التعبير^(١٩) . ووصل في العصر البابلي القديم في عهد حمورابي الى مرحلة كبيرة من دقة التنفيذ . وفي العصر الاشوري القديم نفذ النحات عمله باسلوب المزج بين النحت البارز والمجسم الذي ظهرت بوادره في مسلة حمورابي^(٢٠) . وخلال العصر الاشوري الوسيط ولد فن قومي له اساليبه وبميزاته ومواضيعه^(٢١) ثم

ومعمارية وكتابية وسيتم التطرق الى اساليب تنفيذها ، وانواعها المختلفة .

ولتنوع الزخارف الرخامية وعناصرها من حيث الاغراض والخصائص فقد تعددت اساليب تنفيذها . وقد طغى على تلك الاساليب اسلوبان هما : اسلوب الحفر أو النحت ، واسلوب التزليل (التطعيم) .

اما الاسلوب الاول فيتم عن طريق صقل سطح القطعة الرخامية المراد زخرفتها ثم ترسم الوحدات الزخرفية المطلوبة . ونتيجة لتدقيقنا في الآثار الرخامية الباقية في الموصل اتضح لنا أن العناصر الزخرفية كانت تحدد بحزوز خفيفة - في الاغلب - تم بوساطة ازاميل خاصة . ويشاهد ذلك بوضوح على اطار احد مداخل مصلى جامع جمشيد من القرن الثامن الهجري .

وبعد عملية تحديد العناصر تأتي عملية حفر العناصر التي تتخذ طرقاً متعددة حسب نوعية الزخرفة ذاتها ، فاذا أريد أن تكون بارزة ذات مستوى واحد يتم حفر الارضيات التي تتخلل العناصر ، أما اذا كانت الزخرفة ذات مستويات متعددة فيتم رسم عناصر المستوى العلوي أولاً ثم تحفر الارضيات ، وبعدها تحدد عناصر المستوى الذي تحته وتحفر ارضياتها وهكذا . ومن اهم الامثلة للعناصر الزخرفية المتعددة المستويات تلك التي نفذت على عقد محراب الجامع الاموي بالموصل (٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) فقد كانت تتكون من أربعة مستويات وعلى عمق يناهز سبعة سنتيمترات^(٢٢) . (صورة ١ ، ص ٢٣٧) .

وشاعت ثلاثة انواع من الحفر هي : الحفر المشطوف ، والحفر البارز الرأسي ، والحفر الغائر . فالخفر المشطوف تمثل في أغلب زخارف العناصر المعمارية التي يرجع معظمها الى القرن الخامس الهجري . ومنها محارب المدرسة العزية (مزار الامام عبد الرحمن حاليا) ، وجامع

ارتقى النحت البارز في العصر الآشوري الحديث زمن آشور بانيبال فته ووصلت بعض المنحوتات الى اقوى التعابير الفنية (٢٢). وما لاشك فيه ان النحت المذكور كان الركيزة والخلفية الحضارية لفن النحت والزخرفة البارزة التي وصلت إلى اقصى مراحل تطورها في منطقة الموصل خلال العصور العربية الاسلامية من حيث اسلوب التنفيذ وتعدد المستويات والعناصر الزخرفية المبتكرة كما في عقد محراب الجامع الاموي (صورة ١)

أما النحت الغائر فقد تمثل في زخارف بعض العناصر المعمارية بالموصل إلى جانب النحت البارز احيانا كما هو الحال في زخرفة صدر محراب مزار محمد ابن الحنفية ومحراب مرقد الشيخ فتحي (٢٣).

وقد تمثل النحت الغائر في تنفيذ الكتابة المسارية في العراق منذ منتصف الالف الثالث قبل الميلاد، ثم امتد بعد ذلك ليشمل المواضيع المنفذة على الاختام الاسطوانية التي بدأت صنعها في العراق منذ منتصف الالف الرابع قبل الميلاد (٢٤).

وأما اسلوب التنزيل (التطعيم) الذي نفذت بواسطته بعض الاعمال الزخرفية في الموصل فقد وصلتنا امثلة كثيرة من الزخارف المنزلة على الرخام في الموصل. وقد تبينت ثلاث طرق اساسية من المواد المنزلة على الرخام سادت بعض مخلفات المدينة الرخامية معظمها يرجع الى الفترة الانابكية وبعض المخلفات التي تسبقها، كما ان بعضها الآخر امتد الى الفترة الابليخانية.

فالطريقة الاولى: تتضمن تنزيل عينات مزخرفة من الرخام الابيض على ارضية من الرخام الاسمر. وهناك بعض الامثلة النادرة يحدث العكس فيها وهو تنزيل الرخام الاسمر على ارضية من الرخام الابيض. وتم طريقة التنزيل المذكورة بحفر الاماكن المراد تنزيلها حفراً يبلغ عمقه حوالي سنتيمتر ونصف وبعد ذلك تسوى ارضية الحفر وتعد مواد التنزيل بقدر حجم المساحة المحفورة وتلقى بداخلها.

ومن رصد الآثار المنزلة الباقية بهذه الطريقة تبين لي ان المادة التي تستعمل في لصق الزخارف المنزلة هي (البياض) وقلنا نجد اثراً من الآثار المنزلة بهذه الطريقة لم تظهر عليه آثار البياض الذي تم اللصق به، وان احد المعمرين المشتغلين بمعالجة الرخام ذكر ان هناك مواد اخرى غير البياض كانت تستعمل في اللصق وادعى انها مركبة من بعض المواد الكيميائية.

وقد سادت طريقة تنزيل الرخام المزخرف على ارضية من الرخام الآخر المغاير باللون وبلغت أوجها خلال العهد الانابكي وكانت متميزة بالمستوى العالمي من الدقة ومهارة التنفيذ وبراعة الأداء وحسن اختيار العناصر الزخرفية المنفذة الى درجة ان الشخص المتمعن بها والملمس لها لا يتمكن من تفريقها عن الارضية المنزلة عليها الا باختلاف لون الرخام الذي شكلت منه الوحدات المنزلة عن لون رخام الارضية، وخير مثال على ذلك الشريط الزخرفي المبطن لاحدى غرف المدرسة النورية (٥٨٩-٦٠٧هـ / ١١٩٢-١٢١٠م) ويعد هذا الشريط من أندر ما وصل الينا من النماذج الرخامية المنزلة في جميع الفنون القديمة والحديثة على مر العصور (صورة ٢، ص ٢٣٧)

وقد امتدت هذه الطريقة الى فترة السيطرة الابليخانية ولكن مستواها أخذ بالانحطاط نتيجة نزوح معظم الفنانين امام الزحف المغولي الى الاقطار الاخرى كمصر مثلاً مما أدى الى ظهور الطريقة الثانية في التنزيل وهي حفر الارضية الرخامية المراد تنزيلها كما سبق، الا ان الحفر لم يكن منتظماً كالسابق ونزلت زخارفه بمادة البياض بدلا من مادة الرخام الابيض، ويرجع ذلك الى سهولة هذه العملية، اذ ان الفنان يعد العملية منتهية بانتهاء الحفر لأن الخطوة التي تليها هي ملء هذه الحفر بواسطة البياض، وهذا لا يحتاج الى جهد أو دقة ويمكن لأي شخص القيام به. ومن

الامثلة لهذا النوع من التنزيل زخارف الشريط الكتابي الذي يبطن غرفة مزار يحيى بن القاسم وكذلك زخارف الشريط الكتابي المنفذ على اطار الشباك الشرقي لمزار محمد بن الحنفية والشريط الدائر على اطار شباك مسجد الامام ابراهيم (النصف الاول من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي).

وفي تقديرنا ان طريقة تنزيل الزخارف الجبسية على ارضية من الرخام قد سبقت الطريقة الاولى المتمثلة بتنزيل زخارف من الرخام على ارضية من الرخام المغاير باللون باعتبار مقتضيات التطور، لذلك يمكن ترجيح ارجاع صدر محراب مزار الامام محمد بن الحنفية المنزل بزخارف جبسية الى ما قبل الفترة الانابكية ومحدود القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي (٢٥).

وقد اكتشفنا طريقة ثالثة فضلاً عن الطريقتين السابقتين وهي تنزيل الرخام بزخارف من الآجر المزجج او (القاشاني) ومن امثلتها النادرة القطعة الرخامية المكتشفة في المنطقة المحصورة بين موقع القلعة الرئيسة (باشطابيا) ودور المملكة (قره سراي) وتنسب الى اواخر الفترة الانابكية ومحدود منتصف القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي (٢٦).

وظهرت بوادر التنزيل على الحجارة ومنها الرخام في الفنون القديمة السابقة للإسلام من محلية كالسومورية والاشورية والاجنبية كالكيشية والفرعونية وانتقلت الى الفن العربي الاسلامي منذ العهد الاموي ثم عمت بعد ذلك معظم ارجاء العالم الاسلامي وان كانت تتفاوت من حيث الشبوع والاتقان.

أما بوادر التزجيج فقد ظهرت هي الأخرى في الدراق منذ العهد السومري ثم امتدت الى الفنون الأخرى من محلية وأجنبية كالفن الآشوري والبابلي والعللامي والفرعوني. وفي العصر الاسلامي وجد

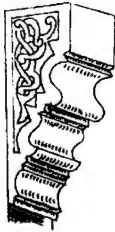
التزجيج في العراق منذ عصر سامراء، وشاع بعد ذلك في كساء العائز وعناصرها في مشرق العالم الاسلامي، وطالعا بعد ذلك في المغرب العربي منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي كما هو الحال في محراب جامع القيروان في تونس (٢٤٨هـ / ٨٦٢م)، وربما وفدت طريقة التزجيج الى تلك الربوع من العراق حيث يقال أن اسماعيل ابن يوسف النحوي المعروف بالطلاء المنجم هو اول من ادخل الطلاء العراقي (التزجيج) بالقيروان، ثم امتد بعد ذلك ليشمل الجزائر والمغرب وبلاد الاندلس وصقلية (٢٧).

وبغية ايضاح الرؤية الفنية للزخارف الرخامية في الموصل ومنطقتها ومواكبة تطورها خلال العصور العربية الاسلامية سيتم تناول انواعها المختلفة من نباتية وهندسية ومعمارية وكتابية من حيث: مواضيعها وكيفية تكوينها ومنطقاتها الفنية، وبميزاتها ومظاهرها، وعناصرها الزخرفية، ومقارنتها بما يمثّلها في الفنون المحلية والاجنبية السابقة والمعاصرة لبيان مدى اصالتها وابتكارها. وسيكون الاعتماد على الناحية التحليلية لاستخلاص ذلك من خلال الخلفات الرخامية المنحرفة والابتعاد قدر الامكان عن الناحية الوصفية التي تبعد البحث عن الناحية الاكاديمية وتوقع الباحث في معظم الاحيان بالتكرار الملل للقارئ والمتتبع ولاسيما بالنسبة للمخلفات الاثريّة المتشابهة.

أولاً/ الزخارف النباتية :

على الرغم من شيوع الزخارف النباتية في الفنون السابقة للإسلام فان العرب المسلمين اهتموا بها اهتماما كبيرا فقد طوروها وابتكروا صورا جديدة من التوريق لم تكن معروفة من قبل حتى أن الفرنج اطلقوا عليها اسم الارابيسك Arabesques لان اصالة فكرة تكوينها وتشكيلها عربية (٢٨).

وقد اقتبس الغرب تلك الانواع المبتكرة من الزخارف حتى ان أرنولد يشير الى ذلك بقوله : اننا



مخطط (٢) كابل من مدخل مزار محمد بن الحنفية في الموصل.
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

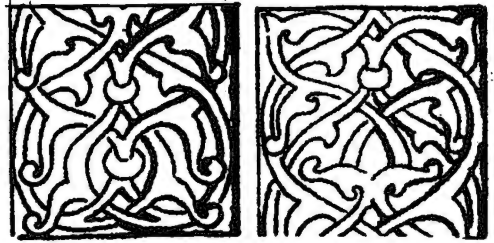
للجامع النوري (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي) (٣٤).

والجدير بالذكر أن مبدأ التناظر التمثيلي يعد من أهم المواضيع والمميزات للزخرفة العربية الاسلامية، أما حركة الاغصان فعلى الرغم من كونها ذات طابع هلنستي (٣٥) فقد تطورت وبلغت أقصى تعقيدها الفني في العصور الاسلامية. وخير مثال على ذلك زخرفة عقد محراب الجامع الاموي الآنف الذكر بالموصل فالمتتبع لسير حركة الاغصان الحلزونية للزخرفة والعناصر التي تحملها وهي تنطلق في اتجاهاتها المتعددة يخال بأن الحياة قد دبّت فيها. والزخرفة المذكورة لاتدل على اقصى ماوصل اليه العرب والمسلمون من الدقة الفنية في مجال الزخرفة النباتية فحسب وانما تدلل على اوج ما بلغته صناعة الرخام في مدينة الموصل، وخاصة اذا ما علمنا بان هذه الزخرفة نفذت على اربعة مستويات يعلو بعضها بعضاً وعلى عمق يناهز السبعة سنتمترات بحيث نتج عنه تجسيم عجيب وتدرج في الظلال (٣٦). كما اسلفنا (صورة ١).

وهناك موضوع زخرفي آخر يعتمد في تكوينه على حركة الاغصان الافعوانية التي تؤدي في اثناء التواءاتها مناطق بيضوية وشبه دائرية تتخللها العناصر الفنية المختلفة التي انبثقت من الاغصان نفسها ويلاحظ ذلك بصورة جلية في الحطات المزخرفة لتيجان الاعمدة الثمانية في مصلى الجامع النوري (٥٦٦ - ٥٦٨ هـ / ١١٧٠ - ١١٧٢ م) (٣٧).

مدينون بهذه الزخارف للعرب في القرون الوسطى (٣٨).

وبالنسبة للمواضيع والتكوينات الفنية للزخارف الرخامية في الموصل فقد تعددت وتنوعت حسب العناصر والمساحات المخصصة لها، فمنها ما اعتمد على مبدأ التناظر التمثيلي بمعنى ان يبدأ الموضوع الزخرفي من الوسط مكوناً محوراً زخرفياً ثم تمتد الزخرفة يمينا وشمالا متشابهة في الخصائص والعناصر والمستويات واساليب التنفيذ ويتجلى ذلك في معظم الزخارف ولاسيما التي تشغل بواطن العقود (٣٩) والمشكاوات والجامات والمناطق المختلفة، وفي الفترات كافة (٣٩) (رسم ١). وهناك بعض



رسم (١) جملة مزخرفة من مدخل جامع الامام الباهر في الموصل من القرن (٥٧٢ هـ / ١١٣ م).
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

الزخارف تعتمد في تكويناتها على امتداد الاغصان على هيئة انحناءات والتواءات حلزونية يتقاطع بعضها مع بعض في اثناء انقلاباتها في اتجاهاتها المطلوبة بحيث تبدو للتناظر متعددة المستويات. ويتضح ذلك بصورة جلية في زخرفة كوابيل المداخل وتواشيج وكوشات بعض عقود الفتحات والمحاريب التي ترقى الى القرنين السادس والسابع الهجريين / الثاني والثالث عشر الميلاديين (٣٢).

(مخطط ٢) وأحيانا يجمع الموضوع الزخرفي بين التناظر التمثيلي والانحناءات الالتوائية للاغصان، وقد تمثل ذلك في معظم زخارف عقود العناصر المعمارية خلال القرنين المذكورين، وخير مثال على ذلك عقد محراب الجامع الاموي (٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م) (٣٣) (صورة ١) ومحراب المصلى الصفي

(رسم ٢) والزخارف المؤطرة لشباك مسجد الامام ابراهيم منتصف القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي (٣٨). وفي بعض الاحيان يبدأ الموضوع بمحور من الناظر التمثيلي ثم تمتد على ميمته



رسم (٢) شريط زخرفي من احد تيجان اعمدة مصلى الجامع النوري في الموصل (٥٦٦ - ٥٦٨ هـ / ١١٧٠ - ١١٧٢ م).

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

وميسرته الاغصان ذات الحركات الافعوانية المذكورة. ويلاحظ ذلك في زخارف بعض حطات الاعمدة الآتفة الذكر بمصلى الجامع النوري (٣٩) (رسم ٣).



رسم (٣) شريط زخرفي من احد تيجان اعمدة مصلى الجامع النوري في الموصل

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

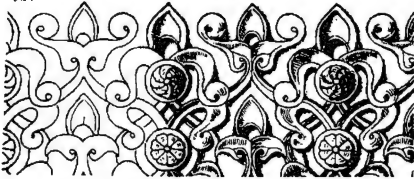
وفي موضوع زخرفي آخر يعتمد في تكوينه على مبدأ تكرار وتناوب العناصر النباتية المتجانسة بعد ارتباط بعضها ببعض من الاسفل باغصان رشيقة منحنية على هيئة الاقواس المقلوبة ويلاحظ ذلك بصورة جلية في زخارف الحطات العليا والسفلى لتيجان اعمدة مصلى الجامع النوري (٤٠) (رسم ٤) والشريط المؤطر لكتابة اطار شبك غرفة الحضرة في مزار الامام محمد بن الحنفية (٧٣١ هـ / ١٣٣٠ م) (٤١).



رسم (٤) شريط زخرفي من احد تيجان اعمدة مصلى الجامع النوري في الموصل

والجدير بالذكر ان المواضيع الزخرفية الآتفة الذكر التي تعتمد حركة الاغصان الافعوانية وكذلك

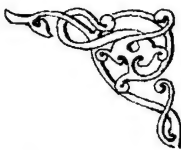
مبدأ تكرار وتناوب العناصر النباتية المتشابهة وجدت في الفنون السابقة للاسلام من محلية واجنبية ثم شاعت في الفنون العربية الاسلامية (٤٢) بعد أن اصابها التطور، ومن الامثلة على ذلك في الموصل ظهور موضوع جديد يعتمد بتكوينه على تراكب وازدواجية العناصر الزخرفية للشريط الواحد، فعلى الرغم من اعتياده على مبدأ تكرار وتناوب العناصر وارتباطها من الأسفل باغصان نباتية فإن بعض الانصال للعناصر المتدايرة تستطيل وتمتد نحو الاعلى لتحمل عناصر عليا اضافية تتخذ هي الاخرى مبدأ التكرار والتناوب، ويلاحظ ذلك بكل وضوح في الاشرطة الزخرفية لبعض حطات تيجان اعمدة مصلى الجامع النوري (٤٣)، وكذلك في الشريط الزخرفي المبطن للجدران الداخلية في غرفة مزار يحيى ابن القاسم (٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) (٤٤) (رسم ٥).



رسم (٥) نطاق زخرفي يطن اسفل جدران مزار يحيى بن القاسم في الموصل (٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م).

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

واخيرا نجد موضوعاً زخرفياً آخر متمثلاً في كوشات المقرنصات الركنية في اعناق اعمدة مصلى الجامع النوري يتكون من عنصر كاسي او نصف دائري من الاغصان يقع موازياً للضلع القائم في كل كوشة ثم تنبثق منه العناصر الزخرفية نحو الخارج والاعلى لتشغل المساحة المخصصة لها (٤٥) (رسم ٦).



رسم (٦) زخرفة احد تيجان اعمدة مصلى الجامع النوري في الموصل. رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

أما الخصائص والمميزات الزخرفية العامة فقد تنوعت هي الأخرى وبأني في مقدمتها :

تضالّل الارضيات بين العناصر واقتصارها على ما يشبه القنوات الخلزونية ، وقصر العروق والاعصان وتلاصق العناصر بعضها ببعض واشتركاها في الاطراف ووجود بعض التعرق النخيلي في الاوراق والانقسام البسيط في الاعصان وتنفيذه بواسطة الحفر المشطوف . وقد تمثل ذلك في بعض زخارف العناصر المعمارية التي يرقى معظمها الى القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وما قبله كما هو الحال في زخارف كوشات الاقواس في محاريب المدرسة الغزية (مزار الامام عبد الرحمن حاليا) وجامع الجوبجاني والمحراب المثبت في كنيسة مارتوما^(٤٧) وتيجان الاعمدة الركنية في الجامع النوري^(٤٨) (رسم ٧) .

وفي القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي بدت ارضيات العناصر الزخرفية بالاتساع التدريجي وصغرت وظهرت بوادر الحفر الرأسي واصبحت الاعصان طويلة ورشيقة وتسير بالتواءات



رسم (٧) تحليل زخرفة قوس محراب جامع الجوبجاني في الموصل
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

والتفافات وتعددت مستوياتها وانعدم القطاع المقعر والحزمن تلك الاعصان والعناصر وحل محله القطاع المحذب ، ومن امثلة ذلك زخرفة عقد محراب الجامع الاموي^(٤٩) (صورة ١، ص ٢٣٧) ومحراب مزار الامام زيد بن علي^(٥٠) . وفي حالات نادرة تمثل القطاع المسطح في الزخرفة كما هو الحال في زخارف محراب مسجد ملا احمد^(٥١) .

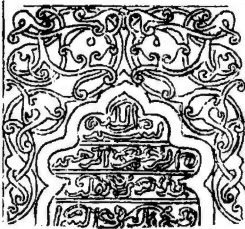
وفي القرن السابع ازدادت مساحة الارضيات الزخرفية وقلت رشاقة العناصر وكبر حجمها مما ادى

الى قلة المستويات عما كانت عليه في القرن السابق ، واختفى القطاع المحذب بعد أن حل محله الغور داخل الاوراق والانقسام داخل الاعصان وتنفيذ الزخرفة بواسطة الحفر البارز الرئيس كما هو حاصل في زخرفة الشريط المبطن لغرفة مزار يحيى بن القاسم^(٥٢) (رسم ٥) ، وحدث تطور في انشطار بعض الاعصان حيث تكونت ثقب داخلها لتسمح بدخول اغصان اخرى من خلالها ويتضح ذلك في زخرفة كوشة قوس محراب المزار المذكور^(٥٣) .

ومن المظاهر الأخرى ظهور بعض التحوير في الزخارف النباتية التي تعود الى القرن الخامس الهجري وما قبله كما هو الحال في زخارف تيجان الاعمدة الركنية في الجامع النوري^(٥٤) ثم ازداد التحوير في القرن السادس الهجري بصورة كبيرة بحيث فقدت اغلب العناصر صفاتها النباتية وطبعت بالطابع الهندسي وتحول بعضها الى ما يشبه المثلثات والاقواس المغلقة ، كما يلاحظ في زخرفة محراب الجامع الاموي^(٥٥) (صورة ١) ، وامتد ذلك الى بعض زخارف القرن السابع وان كان اقل مما كان عليه التحوير في القرن السابق ، ومثال ذلك زخارف كوشة قوس محراب مزار الامام عون الدين^(٥٦) .

وهناك ظاهرة خروج العناصر النباتية من بعضها إذ تمثلت في زخارف القرنين الرابع والخامس لكنها كانت متلاصقة بعضها مع بعض بصورة عامة^(٥٧) (رسم ٧) الا ان تلك الظاهرة بدت جلية في القرن السادس الهجري عند ما خرجت العناصر من بعضها بعد امتداد طرف من العنصر لكي يصبح عرقا ينبت منه عنصر آخر يتحول طرفه الى عرق لعنصر ثالث . وهكذا كما في زخرفة محراب مزار زيد بن علي^(٥٨) (رسم ٨) ، وامتد ذلك الى القرن الذي تلاه وان كانت معظم العناصر تخرج من اغصان تكونت بالاصل من اندماج غصنين يعودان بالاصل الى نصلي عنصرين متقابلين او متدابرين^(٥٩)

واضحاً منذ عصر سامراء^(٦٦) ونضجت من خلال زخارف التوريق العربية التي اختص بها. كما ان خروج العناصر النباتية من المزهريات وما شابهها فتعود بأصولها أيضاً الى الفنون القديمة ولاسيما الاغريقي والهلنستي^(٦٧). في حين نجد أن ظاهرة قصر العروق بين العناصر وتلاصقها وخروجها من بعضها بصورة تكاد تكون مباشرة ظهرت لأول مرة في طراز سامراء الثالث^(٦٨). في حين ان تحوير العناصر النباتية تحويراً شديداً هو من اهم الظواهر الفنية المبكرة في الفن الاسلامي مما يعد من أبرز سمات التوريق العربي (الاراسك).



رسم (٨) تحليل زخرفة قوس محراب مزار زيد بن علي في الموصل من القرن (٨٦١ / ١٢ م). رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

وتتمثل بزخارف الموصل الرخامية العديد من العناصر بعضها يعد امتداداً للفنون السابقة للإسلام وبعضها الآخر تطوراً عنه علاوة على بعض العناصر المبكرة ومن اهم تلك العناصر:

- ١- المرواح النخيلية وانصافها: وكانت ذات هيئات وقطاعات متعددة فالمرواح التي سبقت القرن السادس الهجري كانت معرقة^(٦٩) في حين تمثل القطاع المحذب والرشاقة في مرواح ذلك القرن^(٧٠) (الرسم ٩-١٢). وفي القرن السابع الهجري تميزت



الرسم (٩-١٢) مرواح نخيلية من تيجان اعمدة مصل الجامع النوري في الموصل من القرن (٨٦١ / ١٢ م). رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

المرواح بتضخم الانصال وقصرها وزيادة التفعر داخلها^(٧١) (الرسم ١٣-١٦). علماً

(رسم ٥). وشاع في القرن السابع الهجري أيضاً ظاهرة اجتماع انصاف الاوراق الثنائية المتدايرة لتكوين اوراق نخيلية ثلاثية كاملة ذات انصال عليا تتخذ هيئة العناصر اللوزية المجوفة. وفي بعض الحالات نجد أن العناصر النباتية تنبثق من عناصر مزهرية الشكل، مثال ذلك العنصر المزهري الذي يعلو المحور الزخرفي لتاج احد الاعمدة الركنية في مصل الجامع النوري^(٥٩) (مخطط ١)

هذا وقد اتخذت بعض العناصر ولاسيما الكأسية والجناحية قيعاناً مجوفة في القرنين الخامس والسادس الهجريين^(٦٠) (الرسم ٢١-٢٨). ثم تطورت تلك القيعان في القرن الذي تلاه الى هيئات دائرية مغلقة كما في زخرفة شريط غرفة مزار يحيى بن القاسم^(٦١) (رسم ٥).

ولابد من التطرق الى اصول بعض المظاهر الزخرفية في الموصل لبيان مدى اصالتها وتطورها، فالتفعر النخيلي ذو طابع هلنستي^(٦٢)، في حين ان انقسام الاغصان على نفسها ذو طابع بيزنطي^(٦٣) ثم دخلت هذه الظواهر الى الفن الاسلامي منذ العهد الاموي. الا أن التطور قد أصابها بحيث نضجت وغدت أكثر تجسماً. كما ان حركة الاغصان وأنحناءاتها الالتوائية ذات طابع هلنستي^(٦٤) كذلك، الا أن تعقيدها الفني قد زاد وتعددت التواءاتها واتجاهاتها في العصر الاسلامي الى درجة انها حيرت كبار علماء الفنون من المستشرقين كما هو الحال بالنسبة لزخرفة عقد محراب الجامع الاموي حيث يقول هرزفيلد بخصوصها مانصه: كيف كان يمكن لامرئ ان يفكر في هذا الامر المعقد ان يصممه...»^(٦٥) (صورة ١). أما ظاهرة خروج بعض العناصر من بعض بعد استطالة احد اطرافها فقد وجدت هي الاخرى في فنون الشرق الاوسط قبل الاسلام وخاصة في زخارف بلاد الشام، ثم تمثلت في الفن الاسلامي بصورة



الرسم (٢٥-٢٨) عناصر زخرفية جناحية من عناصر معمارية في الموصل قبل القرن (١٢/٥٦م).

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

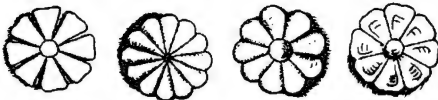
الفنون السابقة للإسلام من محلية واجنية (٧٦) الا انها كانت تقليداً للطبيعة، في حين دخلت العهد الاسلامي منذ العصر الاموي بعد ان انتابها التحوير حتى غدت عنصراً زخرفياً بحتاً بعيداً عن الطبيعة (٧٧) (الرسم ٢٩-٣٢).



الرسم (٢٩-٣٢) اوراق غنب زخرفية من عناصر معمارية في الموصل قبل القرن (١٢/٥٦م)

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

٦- الوردات المفصصة : وقد وجدت في زخارف الموصل منذ منتصف القرن السابع الهجري . ومن المرجح ان الاصل الطبيعي لهذه الوردات هو وردة الاقحوان التي تكثر في منطقة الموصل في موسم الربيع . ونظرا لكثرتها في الفن الاشوري سماها هرزفيلد الوردة الآشورية (٧٨) (الرسم ٣٣-٣٦).



الرسم (٣٣-٣٦) وردات زخرفية مفردة من مباني الموصل الاثرية.

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

٧- الوردة المكورة الحلزونية : وجدت هي الاخرى في الموصل في القرن السابع الهجري وما بعده وتختلفها فصوص حلزونية ذات مركز موحد . ويظهر انها ترجع باصولها الى عصور ما قبل التاريخ وذلك لوجودها ضمن زخارف فخار حسونة ثم عمت بعد ذلك معظم الفنون القديمة (٧٩).



الرسم (١٣-١٦) مراوح نخيلية على عناصر معمارية في الموصل من القرن (١٣/٥٧م)

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

بأن هذه العناصر كانت شائعة في الفنون السابقة للإسلام.

٢- عناصر نباتية محورة تتخذ هياث دائرية ذات قيعان كأسية وتنبثق من محيطاتها الخارجية براعم محالتي كروية الشكل ، وهي من العناصر المتكررة في الموصل خلال القرن السادس الهجري كما في زخارف عقد محراب الجامع الاموي ومحراب مزار زيد بن علي (٧٣) (الرسم ١٧-٢٠).



الرسم (١٧-٢٠) عناصر زخرفية من محراب مزار زيد بن علي في الموصل من القرن (١٢/٥٦م).

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

٣- العناصر الكأسية وانصافها : وهي من العناصر التي تمثلت في الزخرفة الاسلامية منذ عصر سامراء (٧٣) (الرسم ٢١-٢٤).



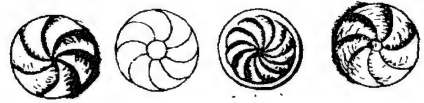
الرسم (٢١-٢٤) عناصر زخرفية كأسية من عناصر معمارية في الموصل من القرن (١٢/٥٦م) وما قبله .

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

٤- الاوراق الجناحية المحورة ذات القيعان المجوفة ، وجدت في زخارف القرن الخامس الهجري وتعود باصولها الى العناصر التي شاعت في زخارف سامراء (٧٤) (الرسم ٢٥-٢٨).

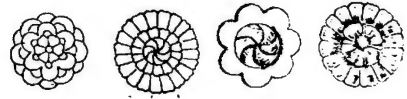
٥- اوراق غنب محورة متعددة الانصال (٧٥) . وقد استخدمت ورقة الغنب عنصراً زخرفياً في

معظم الفنون القديمة^(٧٩) (الرسوم ٣٧-٤٠).



الرسوم (٣٧-٤٠) وريدات زخرفية مفردة من مباني الموصل ال اثرية.
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

٨- الوريدات المركبة وهي الوريدات التي تكتنف بعضها بعضاً ، وقد ظهر معظمها في زخارف الموصل في القرن الثامن الهجري كما في زخارف الصندوق الرخامي لقبر مزار الامام علي الهادي وهي الاخرى ضمن الوريدات التي شاعت في الفنون السابقة للإسلام ثم ظهرت في الفن الاسلامي منذ العهد الاموي^(٨٠) (الرسوم ٤١-٤٤).



الرسوم (٤١-٤٤) وريدات زخرفية مزدوجة من مباني الموصل ال اثرية.
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

٩- عناصر هلالية تتخللها الاغصان التي تحمل الاوراق النخيلية عادة. وهي من العناصر المبتكرة التي ظهرت في الموصل منذ منتصف القرن السابع الهجري^(٨١) (رسم ١٣).

ثانياً/ الزخارف الهندسية :

عرفت الزخارف الهندسية في جميع الفنون القديمة السابقة للإسلام تقريباً ، غير انها كانت ساذجة لاتتعدى غالباً الخطوط المضفورة المبسطة والخطوط المنكسرة ، وكانت تستخدم أطراً وأشربة مبسطة ولم يجارها التطور بالرغم من طول الفترة التي عاشتها في كنف تلك الفنون حتى دلت على فقر في الخيال بهذا الخصوص .

وبعد ظهور الاسلام حاول الفنان اخراجها من ذلك الجمود وتلاعب بعناصرها وطورها تطويراً

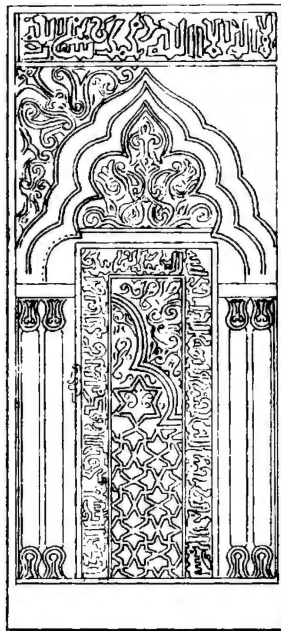
كبيراً حتى اصبحت من اهم المظاهر الزخرفية للفن الاسلامي .

وفي الموصل وصلت الينا بعض الآثار الرخامية المزخرفة بالزخارف الهندسية منذ القرن الخامس وما بعده ذات نمط مميز من حيث الموضوع والتكوين ومن حيث العناصر والمميزات الفنية ، وعلى الرغم من كون اغلبها يعد امتداداً لما سبقه من فنون محلية واجنبية قديمة فان التطور والابتكار اصاب معظمها بحيث طبعها بالطابع الموصل الاصيل . فن حيث الموضوع الفني اعتمدت على تقسيم السطوح الى مناطق متعددة واشكال هندسية متنوعة تكونت نتيجة مد الخطوط الهندسية المستقيمة في اتجاهات متعددة وتقاطعها وانكسارها وتعشيق بعضها ببعض بأوضاع مختلفة وعلى وفق اسس هندسية دقيقة . وقد نفذت باساليب متعددة منها النحت البارز والغائر والمشطوف والتنزيل .

ومن امثلة تلك الزخارف الهندسية التي تعود الى القرن الخامس الهجري زخارف صدر محراب المدرسة العزية (مزار الامام عبد الرحمن حالياً) حيث تكونت من تداخل وانكسارات الخطوط مكونة مناطق رباعية بارزة فوق الارضية الغائرة تشغلها زخارف نباتية محورة بطريقة الشطف ، وهذا اصبحت تجمع ما بين الزخارف الهندسية والنباتية في آن واحد^(٨٢) (مخطط ٣) . والميزة الفنية لهذه الزخارف انها نفذت بطريقة ماهرة عجيبة بحيث حيرت قسماً من الذين كتبوا عنها ووقعت القسم الآخر في هفوات . فبعضهم خالها زخارف نباتية محورة^(٨٣) وبعض ظنها كتابات كوفية واورد مائنه : « ربما ذهب الحدس الى انها كتابة كوفية قد تفنن فيها الصانع متجاوزاً الحد حتى اضاع مفاتيحها على الراغبين »^(٨٤) . وبعد تتبع الاساس الهندسي لهذه الزخرفة اتضح لي انها تتكون من تداخل صفي من النجيات الرباعية بصورة افقية وعمودية تتوجها

واعتمدت في تكوينها على تقسيم المساحة المخصصة الى خطوط أفقية وأخرى مائلة متوازية وتقاطعها تنتج الزخرفة المطلوبة، ومن أهم عناصرها المعينات وانصافها والنجوم السداسية والنجوم الرباعية المحورة والمضلعات السداسية وانصافها (٨٧).

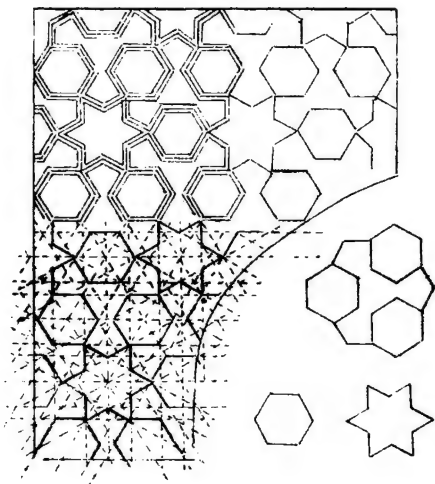
وهناك زخرفة مماثلة من حيث التكوين والعناصر وهي زخرفة كوشة عقد محراب مسجد الشيخ ذياب من نهاية القرن السادس الهجري او بداية القرن التالي حيث تكونت هي الأخرى من تقاطع الخطوط الهندسية مع بعضها مكونة النجيات والمعينات السداسية التي شغلها الزخارف النباتية (٨٨) غير ان الخطوط هنا عريضة ومقسومة من الوسط على نفسها (رسم ٤٨). كما انه على الرغم



مخطط (٣) تخطيط محراب المدرسة العزية في الموصل.

تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

نجمة سداسية (٨٩) (الرسوم ٤٥-٤٧)، وهناك زخرفة

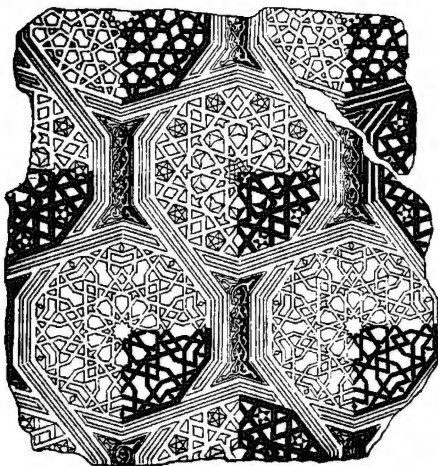


رسم (٤٨) زخرفة كوشة محراب جامع الشيخ ذياب في الموصل.
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

من كون المعينات والنجيات السداسية تشبه نظائرها في زخرفة المحارب السابقة ولاسيما في مرقد الشيخ فتحي فانها تختلف عنها في طريقة التنفيذ، ففي تلك المحارب تتكون المعينات والنجيات المتعددة



هندسية مماثلة لها من حيث التكوين في القسم الاعلى لصدر محراب جامع الجويجاني المعاصر لمحراب المدرسة العزية حيث تتكون هي الأخرى من استخدام الخطوط المنكسرة والمتداخلة لتكوين مناطق هندسية بارزة شغلها زخارف نباتية محورة نفذت بوساطة الحفر المشطوف الا انها اقل تعقيدا، وتعد النجيات الثماني من عناصرها المهمة (٨٩). وهناك زخرفة مماثلة من حيث التكوين في صدر محراب غرفة مرقد الشيخ فتحي المعاصر للمحاربين السابقين الا ان زخرفته نفذت بالحفر الغائر



رسم (٤٩) تحليل زخرفة قطعة من الرخام المنزل من المدرسة النورية في الموصل (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٠ م).

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

المهجري. فقد نزلت ارضية الشريط بالوحدات الهندسية والنباتية داخل المناطق بطريقة عجيبة تحير الالباب الى درجة ان الشخص المتمعن بها والمتلمس لها لا يتمكن من تفريقها عن الارضية المنزل على الا باختلاف لون الرخام الابيض الذي شكلت منه الوحدات المنزل، وقد تعدى التنزيل تلك الوحدات الى الاشكال الهندسية الكائنة في داخلها. وهذا يكون الفنان الموصلي قد اكتشف طريقة عمل الموزائيك بوسائله البسيطة قبل عصرنا الحاضر بحوالي الثمانية قرون^(٩١).

والشريط الرخامي المنسوب الى المدرسة البدرية (٦٠٧ - ٦١٥ هـ / ١٢١٠ - ١٢١٨ م) يعد المثال الآخر لدقة الزخارف الرخامية المنزل وتطورها حيث يماثل شريط المدرسة النورية من حيث التكوين والتنفيذ واغلب العناصر والمظاهر الفنية^(٩٢).

وحصل نوع من الانحسار بزخرفة الموصل الهندسية المنزل منذ النصف الثاني من القرن السابع المهجري بسبب الغزو المغولي للموصل عام (٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م) ومن الامثلة على ذلك

الرؤوس من تقاطع النجيات الرباعية بعضها مع بعض بحيث تكون نجمة سداسية في الوسط ومعينات سداسية في اطرافها، بمعنى ان تكون اطراف النجمة السداسية اطراف مشتركة للمعينات المجاورة لها، في حين انه في محراب مسجد الشيخ ذياب ظهر اسلوب جديد لم يجعل الاطراف مشتركة وانما جعل المعينات تبدأ من رؤوس النجوم، وقد مهدت هذه الوضعية لظهور عنصر زخرفي مغلق يتكون محطه من اطراف النجوم والمعينات المجاورة له، فبذا كأنه يتكون من ثلاثة معينات خماسية الاطراف ضلعها الداخلي مفتوح ومعين سداسي في المركز ثلاثة من اضلاعه مفتوحة^(٩٣).

وقد بلغت الزخارف الهندسية في الموصل اقصى درجات الدقة والتعقيد الفني في الشريط الرخامي البطلن لاحدى غرف المدرسة النورية (٥٨٩ - ٦٠٧ هـ / ١١٩٣ - ١٢١٠ م) فزخارفه تتكون من مناطق مزدوجة من المضلعات تكتنفها وحدات هندسية متنوعة كالاطباق النجمية والنجوم المتعددة الرؤوس والمعينات والمثلثات والاطباق المضلعة التي نتجت بفعل تداخل وتقاطع وامتداد الخطوط المستقيمة والمنكسرة على وفق اساس هندسي دقيق. وقد اطرت المناطق بخطوط عريضة تحصر بينها مناطق ذات رؤوس نجمية بوضعية عمودية شغلت بزخارف التوريق العربية^(٩٤) (رسم ٤٩).

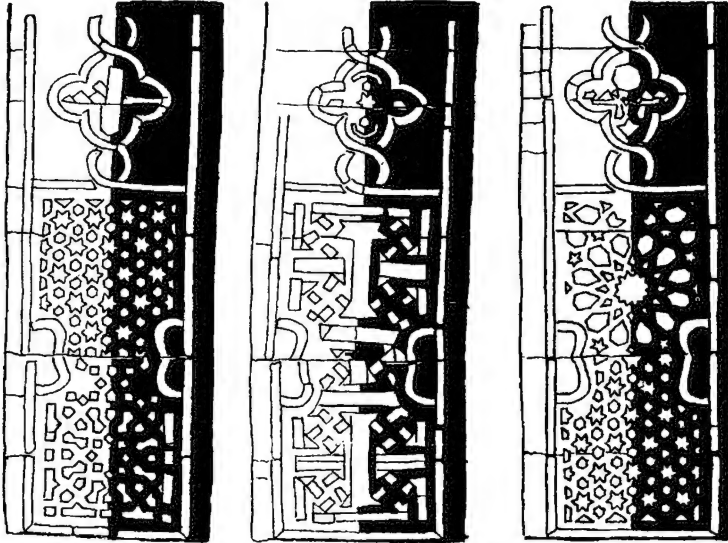
والمعجزة الفنية لهذه الزخارف ان المتبع لخطوط الوحدات الهندسية التي تكتنف المناطق تراءى امام عينيه اشكال معينة ثم سرعان ما تلاشى لتستبد اشكال اخرى مغايرة يختلف بعضها عن بعض خلال المنطقة الواحدة. والشريط يعد في الوقت نفسه من اندر التحف الرخامية التي نفذت زخارفها الهندسية والنباتية باسلوب التنزيل الذي بلغ اوج تطوره في الموصل في القرن السادس والنصف الاول من القرن السابع

الزخرفة المنزلقة على صدر محراب مزار بنات الحسن من نهاية القرن السابع الهجري حيث انها اقل دقة في التنفيذ من الزخارف الماثلة في كل من المدرسة النورية والمدرسة البدوية وان كانت متماثلة من حيث اغلب العناصر كالاطباق المضلعة والنجمية والنجيمات فضلاً عن شيوع عناصر اخرى كالمناطق الرباعية المقصصة والصلبان المعقوفة وما يشبه حرف (في) اللاتيني والحلقات الرباطية (١٣) (الرسوم ٥٠-٥٢).



رسم (٥٣) اطار من الزخارف الهندسية المتداخلة من محراب مسجد شمس الدين في الموصل.

رسم (د. احمد قاسم الجمعة) من انكسار الخط عدة مرات وبوضعيات مختلفة منها الاقنية والمائلة مكونة زوايا حادة ومتفرجة (١٥) (رسم



رسم (٥٠-٥٢) تحليل زخارف زخامية منزلقة في صدر محراب بنات الحسن في الموصل من القرن (١٣/١٧ م).

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

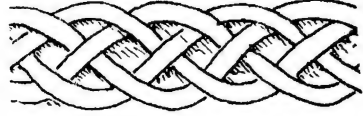
(٥٤). وهناك شريط آخر مكون تداخل الخطوط المقصورة المنفذ على اطار مدخل المدرسة العزية



رسم (٥٤) زخارف هندسية منكسرة من محراب المدرسة العزية في الموصل.

(٥٧٦ - ٥٥٨٩) (رسم ٥٥) علاوة على شيوع بعض الأشربة المكونة من المعينات المتتابعة كما في زخارف صدر محراب مزار بنات الحسن (١٧).

والجدير بالذكر ان جميع الزخارف الهندسية الآتفة الذكر سواء كانت منحوتة بالنحت البارز أو الغائر ام منفذة بالتزليل استخدمت لتغطية مساحات معينة للعناصر المعمارية. ومع هذا فنجد الى جانبها زخارف من الخطوط الهندسية استخدمت كاطارات لتحديد بعض العناصر واجزائها كما هو الحال في الشريط الخارجي لمحراب مسجد شمس الدين (حوالي القرن الخامس الهجري) المكون من امتداد وتداخل وانكسارات



رسم (٥٥) زخارف هندسية مصفورة من مدخل المدرسة العزية في الموصل.

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)
ولا بد من التنويه بأهم العناصر التي تمثلت
بزنارف الموصل الهندسية على الرخام المعروفة مدى
أصالتها وتواصلها الحضاري.

١- الخطوط المصفورة: تعد هذه الخطوط من
أكثر الخطوط الهندسية في معظم الفنون، فقد
وجدت في العراق منذ العهد السومري (٩٨) وامتدت
الى العصور اللاحقة، كما شملت معظم الفنون
الآخري القديمة (٩٩). وبعد ظهور الاسلام تمثلت
في الفنون في مختلف بقاع العالم الاسلامي منذ
العهد الأموي وما بعده (١٠٠) (رسم ٥٥).

٢- الحلقات الرابطة (الانشوطات): انتشرت
هذه العناصر الهندسية في الفن البيزنطي أكثر من
الفنون الآخري السابقة للإسلام وربما تعود بأصولها
الى الخطوط المصفورة (١٠١). ويرجع الفضل
للرب المسلمين الذين اوصلوا هذه الزخارف الى قمة
نضجها وطبعوها بالطابع العربي الاسلامي (١٠٢)
حتى غدت من العناصر الزخرفية البارزة منذ العهد
الأموي وما بعده (١٠٣) (رسم ٥٧).



رسم (٥٦) زخارف من المعينات المتابعة من مباني الموصل الآرية
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

٣- الأطباق النجمية: تعد هذه الأطباق من أهم
المبتكرات الزخرفية في الفن العربي الاسلامي منذ
القرن السادس الهجري حيث ظهرت في المنبر
الخشبي في المسجد الأقصى (٥٦٤ - ٥٧١ هـ /
١١٦٨ - ١١٧٥ م) (١٠٤) ثم عمت بعد ذلك
مناطق متعددة من العالم الاسلامي حيث تمثلت
في التحف الخشبية (١٠٥) وجلود المصاحف (١٠٦)
أكثر من الخلفات الأثرية الآخري (رسم ٤٩).

٤- الأطباق المضلعة: تعتمد هذه العناصر في
تكوينها على تداخل المضلعات الكاملة والنصفية
وتعشيقها وقد ظهرت بهيئاتها الكاملة في الموصل منذ
القرن السادس الهجري، كما وجدت في بعض انحاء
الأقاليم الشرقية من العالم الاسلامي أكثر مما هو
ملاحظ في اقاليمه الغربية (١٠٧) (رسم ٥٢).

٥- المضلعات ذات المركز النجمي والمحيط
المشترك: تكونت نتيجة تداخل وتقاطع ست
نجمات رباعية حول مركز واحد ومحيط مشترك.
وكان لهذه العناصر الفضل الأكبر في ابتكار العرب
المسلمين للطبق النجمي لأنها تمثل بالحقيقة أطباقاً
نجمية ناقصة وذلك لانعدام عنصر اللوزة من جهة
ولأن المضلعات التي تدور حول النجمة المركزية لم
تتخذ بعد عنصر المعينات (الكندات) وهي من
الأجزاء المهمة التي يتكون منها الطبق
النجمي (١٠٨).

٦- العنصر الهندسي الشبيه بالحرف اللاتيني في
(T): على الرغم من ظهور هذا العنصر ضمن
العناصر الهندسية المتزلة على الرخام بالموصل في
القرن السابع الهجري فإنه كان من العناصر البارزة
على التحف المعدنية الموصلية خلال ذلك القرن ثم
امتد فيما بعد الى بعض المناطق العربية الاسلامية
ولاسيما مصر في العهد المملوكي (١٠٩) (رسم ٥١).

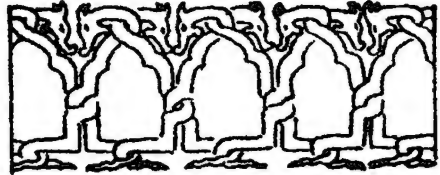
٧- الصليب المعقوف: يعد من العناصر الزخرفية
الهندسية التي لازمت فنون الانسان منذ العصر
الحجري الحديث في العراق كما هو الحال في زخارف
فخارسامراء. وشمل بعد ذلك معظم الفنون القديمة
من محلية واجنبية. وكان للصليب المعقوف في بعض
تلك الفنون دلالات خاصة ومنها أنه يرمز للشمس
او الحظ السعيد، وورثه الفن الاسلامي بعد ذلك
في مختلف المناطق وعلى العديد من الخلفات
الأثرية ولاسيما المعارية منها (١١٠) (الرسم السابق).

المعشقة ، وستتطرق الى العناصر المذكورة بشيء من التركيز مؤكداً الناحية الفنية الجمالية التي استجذبت خلال العصور العربية الاسلامية واضيفت الى وظيفتها المعمارية الاصلية .

١- العقود والأقواس : ظهرت بوادر التقويس في مباني العراق القديم قبل غيره من المناطق لأسباب انشائية ومناخية وبعد العقد المكتشف في اريدو من العهد السومري^(١١٣) من التماذج الكاملة للعقود ثم عمت العقود والسطوح المقوسة بعد ذلك الطرز المعمارية القديمة .

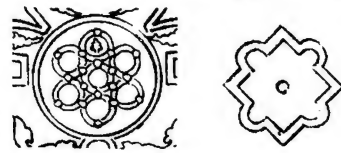
والطور الذي حدث في العصور العربية الاسلامية هو تنوع العقود والأقواس وتعدد نماذجها حسب طبيعة المباني ، وتعدى ذلك إلى وظائفه عندما اضيفت الناحية الفنية إليها . ومن أمثلة ذلك ما نشاهده على مخلفات الموصل الرخامية منذ القرن الخامس الهجري هو نصف القوس المفصص المحفور على صدر محراب مزار الامام عبد الرحمن (مخطط ٣) ، فقد لجأ الفنان الى ذلك لكي يضيء على المحراب ميزة فنية فريدة من نوعها من ناحية وليخرج عن ظاهرة التناظر التمثيلي من ناحية اخرى ، وليس ضيق المساحة كما يتبادر للناظر لكون المساحة تكفي لعمل قوس نصف دائري او مدبب مثلاً ، كما لم يكن قصور في تفكير الفنان كما تصور البعض^(١١٤) ، لأن الفنان الذي اخرج هذه التحفة الأثرية النفيسة للمحراب التي بلغت اوج الرقي الفني والدق السليم لم يكن عاجزاً أمام هذا القوس ، وإذا علمنا وجود حالة مشابهة تماماً في احد المحارب المكتشفة في سامراء لاتضح لنا ان التشابه مرجعه فكرة واحدة وان التنفيذ بهذه الصورة^(١١٥) كان متعمداً . وهناك قوس مفصص كامل منحوت على صدر محراب جامع الجويجياتي المعاصر للمحراب السابق وكان لأغراض فنية زخرفية ايضاً^(١١٦) . ومن الأمثلة النادرة للأقواس الزخرفية تلك الأقواس الرشيقة المتقاطعة المنفذة على صدر المشكاة الوسطية لشاهد قبر مزار الامام علي الهادي من نهاية القرن السابع او

٨- المعينات المتابعة : لقد وجدت مثل هذه الزخارف الهندسية في معظم الفنون القديمة ولاسيما على الأواني الفخارية ثم انتشرت بعد ذلك في مختلف مناطق العالم^(١١٧) الاسلامي وعلى مختلف المواد والمخلفات الأثرية لسهولة تنفيذها (رسم ٥٦) .



رسم (٥٦) زخارف معيارية وحلقات رابطة من مدخل جامع الامام الباهر من القرن (٨٧ / ٩١٣ م) .
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

٩- المناطق المفصصة والدائرية : ومنها مناطق رباعية الفصوص وبعضها سداسي الفصوص ، ولعل اهم المناطق المفصصة تلك التي ظهرت في الفن الاسلامي منذ عصر سامراء ثم امتدت الى الزخارف الرخامية في الموصل في القرن الخامس الهجري وانتقلت الى مصر خلال العهد الفاطمي ثم انتقلت الى صقلية ومنها الى الفن البيزنطي وتتكون من فصوص رباعية تفصلها رؤوس ثلاثية بارزة كما هو الحال في زخارف محراب مزار محمد بن الحنفية^(١١٨) (رسم ٥٨ ، ٥٩) .



رسم (٥٨ ، ٥٩) مناطق زخرفية مفصصة من مباني الموصل الأثرية .
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

ثالثاً/ الزخارف المعيارية :

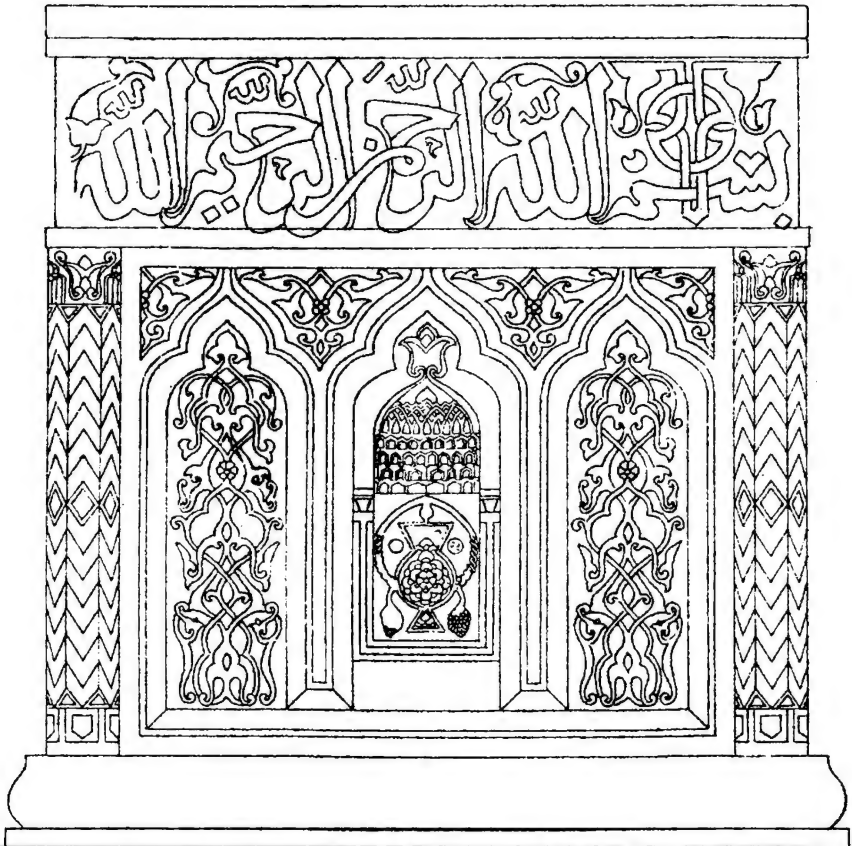
ويقصد بها الزخارف المستمدة اصولها من العناصر المعمارية لتأدية غرض زخرفي تزييني بعد ان فقدت غرضها المعماري وقد يجوز في بعض الأحيان تأدية الغرضين في آن واحد كالعقود والأقواس والمقرنصات والمحاريب والمشكاوات والصنوج

بداية القرن الثامن الهجري^(١١٧) (مخطط ٤).

وتعد الأقواس المفصصة المقصوفة من العناصر الزخرفية المبكرة في العصور العربية الاسلامية وخاصة في القرن السابع الهجري ومن امثلتها في الموصل تلك الأقواس المنحوتة في اسفل العتبات العليا ذات الدلايات في مدخلي مدفن مزار الامام عون الدين ، وكنيسة المارحوديني ، بالإضافة الى مدخل قدس الأقداس في كنيسة مارجهنام الى الجنوب من الموصل^(١١٨).

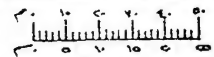
ومن العقود الزخرفية الفريدة تلك العقود المدببة

الصغيرة التي رتبّت بوضعية افقية متتالية واستخدمت بصورة عامة في تنويحات المداخل خلال القرنين السابع والثامن الهجريين غير انها في القرن السابع شغلت بورقة نخيلية ثلاثية ذات أنصال كبيرة مقعرة كما في مدخل حضرة مزار الامام عون الدين ومدخل كنيسة المارحوديني^(١١٩) (رسم ٦٠)، في حين ان التي تعود للقرن الثامن شغلت بورقة نخيلية تتميز بصغر وتعدد انصالها وقطاعها المدب كما في مدخلي الرجال والنساء في كنيسة شمعون الصفا^(١٢٠).



مخطط (٤) تخليط شاهد ارجل صندوق القبر الرخامي في مزار الامام علي الهادي في الموصل.

تخليط (د. احمد قاسم الجمعة)





رسم (٦٠) عقود زخرفية متتالية من مباني الموصل الأثرية من القرن (١٣/٥٧ م).

المحلب كما في مدخلي الرجال والنساء في كنيسة شمعون الصفا^(١٢٠) (رسم ٦١).

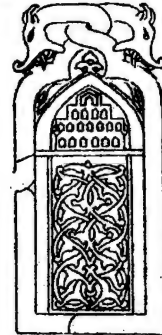


رسم (٦١) عقود زخرفية متتالية من مباني الموصل الأثرية من القرن (١٤/٥٨ م).

رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

٢- المحاريب والمشكاوات الزخرفية : لقد تمثلت

هذه العناصر على بعض أطر مداخل ومحاريب وصناديق القبور الرخامية في الموصل خلال القرن السابع بصورة خاصة وتتخذ هيئة المناطق الهندسية التي تتصل بعضها ببعض بواسطة الحلقات الرابطة ويعلو بعضها بعضاً عندما تكون بوضعية عمودية في حين انه في الأوضاع الأفقية ترتب بصورة متتالية . ومن الأمثلة على المحاريب الزخرفية ماوجد مائلاً على مدخل حضرة مزار الامام عون الدين ومدخل جامع الامام الباهر (مخطط ٥) ومحراب



مخطط (٥) احدى المشاكي الزخرفية في اطار مدخل جامع الامام الباهر في الموصل من القرن (١٣/٥٧ م).

تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

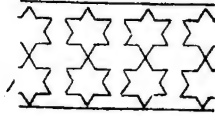
المصلى الصيفي للجامع النوري . ومدخل كنيسة ماربرهام بجوار الموصل ومحراب كوكمت في سنجار. أما المشكاوات فكانت على هيئة مناطق مستطيلة تنتهي بأقواس ثلاثية عادة كما يلاحظ في مدخل بيت الشهداء الشامي في كنيسة مارأشعيا ومجنيات صندوق القبر الرخامي في كل من مزار الامام علي الهادي وجامع النبي جرجيس من القرن الثامن الهجري^(١٢١) (مخطط ٤).

وعلى الرغم من وجود بعض المناطق الهندسية المشابهة لمشكاوات الموصل في بعض مناطق العراق^(١٢٢) والأقطار العربية^(١٢٣) والمناطق الاسلامية^(١٢٤) الا ان المحاريب الزخرفية اقتصت بها مدينة الموصل ومنطقتها .

٣- الصنوج المعشقة : لقد استخدمت الصنوج المعشقة في تشكيل العقود والعتبات العليا للفتحات من مداخل وشبابيك لتأديتها نفعاً معمارياً لأن الشكل المزور يزيد من ترابط القطع المصنجة مع بعضها حيث يرتكز البارز لكل صنجة على الجزء الداخلى من التي تليها وهكذا^(١٢٥) . ومن بعد تؤدي الى زيادة المتانة^(١٢٦) .

وعلى الرغم من ظهور الصنوج المعشقة في الطرز السابقة للإسلام كالطرز الروماني والبيزنطي^(١٢٧) فإنها كانت بسيطة وتؤدي غرضاً معمارياً بحتاً . وانتقلت هذه العناصر الى العمارة العربية الاسلامية وتعدت وظائفها المعمارية الى الوظائف الزخرفية الجمالية مما ادى الى تعدد هيئاتها ، وأصبح من المتعذر حصرها ، فقد حدث التعقيد في اشكالها بحيث اصبحت اشبه مانكون بالالغاز يصعب على المرء معرفة كيفية تنفيذها^(١٢٨) .

ومن اشكالها المهمة في الموصل خلال العصور العربية الاسلامية والتي يرجع معظمها الى القرنين السابع والثامن الهجريين حيث تؤدي الغرضين المعماري والزخرفي في آن واحد ..



رسم (٦٥) صنوج مشقة نجبية من مداخل الموصل الآتية.
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

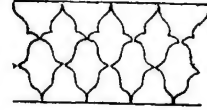
وقد شاعت في مداخل القرن الثامن الهجري في الموصل كمدخل بيت الخدمة في كنيسة شمعون الصفا والمدخل الشمالي في كنيسة ماربهنام.

٤- المقرنصات : وجدت المقرنصات داخل بعض عقود المحاريب والمشكاوات الرخامية في الموصل على هيئة حطات متعددة من الكوى الصغيرة المتعددة الأشكال كما هو الحال في المشكاوات المؤطرة لكل من مدخلي مزار الإمام عون الدين وجامع الباهر^(١٣١) وكذلك مشكاة شاهد الرأس في الصندوق الرخامي في مزار الامام علي الهادي^(١٣٢). ولما كانت هذه المقرنصات قد استمدت هيئاتها من العناصر المعمارية وهي العقود وأنها تؤدي غرضاً زخرفياً بحتاً، لذا اصبحت من الزخارف المعمارية المهمة التي ابتكرت من قبل العرب المسلمين (مخطط ٤ ، ٥).

رابعاً/ الزخارف الكتائية :

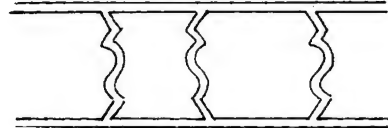
على الرغم من تأدية الخط العربي لمضمون النصوص المدونة فيه فإنه يؤدي غرضاً فنياً جمالياً آخر، وبعد ذلك من اهم الصفات التي ينفرد بها عن خطوط الأقوام الأخرى. وفي النصوص والأشرطة الكتائية في الموصل الكائنة على العناصر المعمارية الرخامية تمثلت الزخرفة والزينة الخطية بأبهى صورها وعادة تتخلل الفراغات الكائنة بين الحروف ولاسيما القائمة منها وهذا ينطبق على الزينة الخطية المتمثلة بالوردة الخطية التي تشبه الرقم (٧) والشكل الهلالي المفتوح والمعلق والحروف التوضيحية، علاوة على الزخرفة الخطية بوساطة الزخارف النباتية المختلفة والهندسية في حالات نادرة^(١٣٣) (الرسم ٦٦ - ٨٠)، وأحياناً تكون

أ) الصنجات الكأسية : وهي ذات هيئات كأسية تعلوها اقواس ثلاثية الفصوص كما في المدخل الجانبي لمصلى جامع جمشيد، وربما ترجع هذه الهيئات بأصلها الى بعض الزخارف الجصية المناظرة لها في سامراء (رسم ٦٢).



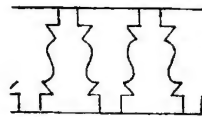
رسم (٦٢) صنوج مشقة كأسية من مداخل الموصل الآتية.

ب) الصنجات القنديلية : ويتميز هذا النوع باتخاذ شكل القنديل تجاوره صنجات مخروطية نتجت من تجاور اطراف الصنجات السابقة. كما هو موجود في عتبة مدخل جامع الباهر (رسم ٦٣).



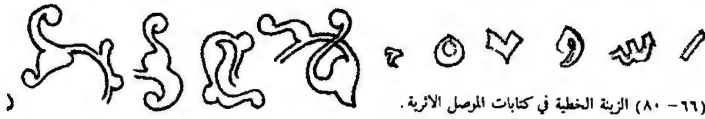
رسم (٦٣) صنوج مشقة قنديلية من مداخل الموصل الآتية.

ج) الصنجات السندانية : يتخذ هذا النوع من الصنجات هيئة سنادين الحدادة ومن امثلة ذلك صنجات مداخل جامع عمر الأسود واحد المداخل الجنوبية في كنيسة ماربهنام جنوب الموصل (رسم ٦٤).



رسم (٦٤) صنوج مشقة سندانية من مداخل الموصل الآتية.
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

د) الصنجات الهندسية : لقد استحدثت هيئاتها من الأشكال والخطوط الهندسية بعضها كان على هيئة النجيات الرباعية المتصلة لتولد بينها صفوفاً أخرى من النجيات الثمانية (رسم ٦٥).



رسم (٦٦ - ٨٠) الزينة الخطية في كتابات الموصل الأثرية .



رسم (٨١) كتابة على مهادر زخرفي من محراب الجامع الأموي في الموصل .
رسم (د) احمد قاسم الجمعة

فقد امتازت الزخارف النباتية التي وصلت إلينا من القرنين الرابع والخامس الهجريين / العاشر والحادي عشر الميلاديين بقصر العروق وانعدامها أحياناً ، وتلاصق العناصر بعضها ببعض وتنفيذها بواسطة الحفر المشطوف وتضاؤل الأرضيات . ومن أهم عناصرها الأوراق الكأسية والنخيلية والجناحية وأوراق العنب . وفي القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي تميزت الزخرفة باستطالة الاغصان ورشاقها والتواءاتها الحلزونية وقطاعاتها المحدبة والمستوية وتعدد مستوياتها وتحويرها الشديد عن الطبيعية ، وكانت الأوراق اللوزية والنخيلية وانصافها من أكثر العناصر شيوعاً . ولم يقف التطور عند هذا الحد بل استمر حتى طالعنا في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي بلون آخر من ألوان الزخرفة التي تميزت بقلّة المستويات الزخرفية وكبر العناصر وزيادة الأرضية بينها وقلة رشاقة الاغصان وزيادة عرضها وانقسامها على نفسها وحدوث التقعر داخل العناصر الذي اكسبها نوعاً من التجسيم ، حيث كثرت عناصر الوريدات والأوراق النخيلية الثلاثية وطغت المواضع الزخرفية المتمثلة بظاهرة التناوب والتتابع مع حركة الاغصان الالتوائية في الاشرطة الزخرفية على ظاهرة التناظر التمثيلي . وبعد هذا آخر المطاف للتطور الزخرفي في الموصل حيث أخذ بالانحسار كما ونوعاً بعد ذلك

الزخارف النباتية بمثابة مهادر للنصوص الكتابية ومن أجمل الأمثلة على ذلك الشريط الكتابي بخط الثلث الكائن في صدر محراب الجامع الأموي (١٣٤) والأشرطة المائلة المدونة على تيجان اعمدة مصلى الجامع النوري (١٣٥) (رسم ٨١) .

الخلاصة :

اتضح لنا من خلال البحث ان الرخام الموصل كان في مقدمة المواد الانشائية التي استخدمت في اعمال الزخرفة على الرغم من كونها مادة اساسية في البناء وذلك لمميزاته المساعدة على ذلك . وتبين انه كان من مادة الجبس التي تختلف عن المفهوم الجيولوجي للرخام وان ذلك كان له تأثير على طبيعة الزخرفة التي حدث بالفنان والمعمار الى زخرفة الأجزاء الداخلية للمباني والعناصر المعمارية في داخلها والعدول عن اعتماد زخرفة الأجزاء الخارجية بهذه المادة لتأثرها بمياه الأمطار .

وتبين ان الزخرفة الرخامية في الموصل من خلال ما تبقى منها خلال العصور العربية الاسلامية انها كانت في تطور مستمر وابتكار العديد من العناصر والمظاهر الفنية بلغ اوجه في القرنين السادس والسابع الهجريين بفعل الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي والاجتماعي ، غير ان الانحسار بدأ بعد التسلط الأجنبي منذ سيطرة المغول على الموصل عام ٦٦٠هـ / ١٢٦١م .

نتيجة الغزو المغولي والتسلط الاجنبي.

وبخصوص الزخرفة الهندسية فكانت هي الاخرى مجالاً للتطور والابتكار أيضاً، حيث كانت تقوم على أسس هندسية دقيقة ويعتمد تكوينها الفني على تقسيم السطوح الى مناطق متنوعة تكونت بفعل مد الخطوط الهندسية المستقيمة في اتجاهات متعددة وتقاطعها وانكسارها بأوضاع مختلفة. وقد بلغت اقصى درجات الدقة والتعقيد الفني في الزخرفة المنزلة على الشريط المبطن لاحدى غرف المدرسة النورية (٥٨٩-٦٠٧ هـ). ثم بدأت الزخارف الهندسية بالانحسار من حيث النوعية والكمية بعد ذلك بفعل التسلط الاجنبي شأنها في ذلك شأن الزخارف النباتية.

اما الزخارف المعمارية فكانت هي الأخرى تسير نحو التطور ثم اصابها التدهور بعد القرن السابع الهجري للأسباب المذكورة وبالنسبة للزخارف الكتابية فقد قلت منذ النصف الاول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي بفعل سيادة خط الثلث على طريقة المستعصمي التي تمتاز بترابك الكلمات وقلة الفراغات بينها التي كانت تشغل بالزخرفة والزينة الخطية في الاشرطة الكتابية المنفذة وفق طريقة ابن البواب بخط الثلث التي سادت خلال القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين.

المواش

- (١) Wiley (J.) and Sons, Physical Geography, 2nd. Ed., New York 1960, P. 283.
- (٢) الدكتور حسن صادق : الجيوبولجا، ط٣، مصر ١٣٥٠ هـ، ١٩٣١ م ص ٣٨.
- (٣) الدكتور محمد عز الدين حلمي: علم الماد، القاهرة ١٩٦٤ م ص ٢٢٨.
- (٤) الدكتور محمد متولي: وجه الأرض، القاهرة، ص ٧١.
- (٥) الفريد لوكانس: المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة الدكتور زكي اسكندر ومحمد زكريا غنيم، القاهرة ١٩٤٥، ص ١٠٢، ١٢٧.

- (٦) البستاني: دائرة المعارف، بيروت ١٨٨٤ م، ٨م، ص ٥٧٤.
- (٧) لوكانس: المرجع السابق، ص ١٠٢.
- (٨) الدكتور احمد قاسم الجمعة: الآثار الرخامية في الموصل خلال العهدين الاتابكي والايلاخي، رسالة دكتوراه غير منشورة قدمت للجامعة القاهرة ١٩٧٥، ص ١٨-٢٢.
- (٩) صادق: المرجع السابق، ص ٧٣.
- (١٠) البستاني: المرجع السابق، ٨م، ص ٥٧٤.
- (١١) احمد قاسم الجمعة: محارب مساجد الموصل الى نهاية حكم الاتابكة، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت للجامعة القاهرة ١٩٧٠ م، ص ٣٢٤.
- (١٢) الجمعة: الآثار الرخامية، ص ٢٧. الدكتور احمد قاسم الجمعة: مدخل مزار (بنجة علي)، اداب الراقدن، العدد ١٩ لسنة ١٩٨٩ م، ص ٩٨، ٩٩.
- (١٣) الدكتور احمد قاسم الجمعة: من نفائس الفن المعاري في الموصل، مجلة الشعب، العدد الاول، الموصل ١٩٧٨ م، ص ٥٨.
- (١٤) الجمعة: محارب مساجد الموصل، ص ٩٧، ١٠٣، ١٢١، ١٦٦.
- (١٥) الجمعة: الآثار الرخامية، ص ٦٧٥.
- (١٦) Rice (D.T.), Islamic Art, Thames and Hadson 1965, pl.26.
- (١٧) الدكتور زكي محمد حسن: اطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية، شكل ٣١٥، ٣١٧.
- (١٨) الدكتور وليد الجادر: تحت من عصر فجر السلالات حتى العصر البابلي الحديث، حضارة العراق، بغداد ١٩٨٥ م، ج ٤، ص ١٨.
- (١٩) المرجع نفسه، ص ٤١.
- (٢٠) المرجع نفسه، ص ٦٩.
- (٢١) المرجع نفسه، ص ٢١.
- (٢٢) المرجع نفسه، ص ٨٩.
- (٢٣) الجمعة: محارب مساجد الموصل، ص ١١١.
- (٢٤) الجادر: المرجع السابق، ص ٢٠.
- (٢٥) الجمعة: المرجع السابق، ص ٢٤١، ٢٤٢.
- (٢٦) الجمعة: الآثار الرخامية، ص ٤٠.
- (٢٧) المرجع نفسه، ص ٣٥٥-٣٥٩.
- (٢٨) الدكتور احمد فكري: مساجد القاهرة ودارسها، المدخل، ص ١٢٦، حاشية ١.
- (٢٩) Arnold (T.) and Guillaume (A.), The Legacy of Islam, 8th. Ed., London 1965, P.176.
- (٣٠) الجمعة: المرجع السابق، ص ٤٥١، ٩١٠، الرسوم ٤٢، ٥٧٠، ١٨٤.
- (٣١) الجمعة: محارب مساجد الموصل، ص ٣٠، ٢٩١، رسم ١٤، ٢٨٢، ٢٠٥، رسم ٥٧٤.
- (٣٢) المرجع نفسه، ص ٩، رسم ٣٦: الجمعة: الآثار الرخامية، ص ٢٨٣، الرسوم ١٠٠٩-١٠١٧.
- (٣٣) الجمعة: محارب مساجد الموصل، ص ٦، رسم ١٣، ١٤.

- (٣٤) المرجع نفسه، ص ١٠٩، رقم ٢٨٢.
- (٣٥) الدكتور فريد الشافعي : زخارف وطرز سامراء ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، ١٣ م ، ٢٥ لسنة ١٩٥١ م ، ص ٢.
- (٣٦) الجمعة : من نقائس الفن المعاري في الموصل ، ص ٥٧ ، ٥٨.
- (٣٧) الجمعة : الآثار الرخامية ، ص ٢٦٣ ، رسم ٩٢٩-٩٣٢.
- (٣٨) المرجع نفسه ، ص ٦٥ ، رسم ١٠٣.
- (٣٩) المرجع نفسه ، ص ٢٦٤ ، رسم ٩٣٣-٩٣٥.
- (٤٠) المرجع نفسه ، ص ٢٧٤ ، رسم ٩٧٣.
- (٤١) المرجع نفسه ، ص ٦٣ ، رسم ١٠٠.
- (٤٢) المرجع نفسه ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٩.
- (٤٣) المرجع نفسه ، ص ٢٧٤ ، رسم ٩٧٥.
- (٤٤) المرجع نفسه ، ص ٢٢٨ ، رسم ٧١٤.
- (٤٥) المرجع نفسه ، ص ٢٨٣ ، رسم ١٠٠٩-١٠١٧.
- (٤٦) الجمعة : محارِب مساجد الموصل ، ص ٧٤ ، ٧٥ ، رسم ٦١ ، ص ٩٥ ، رسم ١٠٨.
- (٤٧) الجمعة : الآثار الرخامية ، ص ٦٧٦ ، رسم ١٢٤ ، ١٢٦ ، ١٢٩.
- (٤٨) الجمعة : من نقائس الفن المعاري في الموصل ، ص ٥٨ ، رسم ٤.
- (٤٩) الجمعة : محارِب مساجد الموصل ، ص ٧٧ ، رسم ١٩٧.
- (٥٠) المرجع نفسه ، ص ١٥١.
- (٥١) الجمعة : الآثار الرخامية ، ص ٢٢٨ ، رسم ٧١٤.
- (٥٢) الجمعة : محارِب مساجد الموصل ، ص ٩٧ ، رسم ٢٥٩.
- (٥٣) الجمعة : الآثار الرخامية ، ص ٢٧٧ ، رسم ١٢٤.
- (٥٤) الجمعة : محارِب مساجد الموصل ، ص ٦ ، رسم ١٤.
- (٥٥) المرجع نفسه ، ص ١٠٣ ، رسم ٢٦٩.
- (٥٦) المرجع نفسه ، ص ٢٣٥ ، رسم ٧٧ ، ١١٠.
- (٥٧) المرجع نفسه ، ص ١٧٧ ، رسم ١٩٧ ، ٢٠٠.
- (٥٨) المرجع نفسه ، ص ١٠٢ ، رسم ٢٦٨.
- (٥٩) الجمعة : الآثار الرخامية ، ص ٧٧ ، رسم ١٢٤.
- (٦٠) الجمعة : محارِب مساجد الموصل ، ص ٧ ، رسم ٢٣ ، ص ٣٤ ، رسم ٧٩.
- (٦١) الجمعة : الآثار الرخامية ، ص ٢٢٨ ، رسم ٧١٤.
- (٦٢) شافعي : الأخشاب المخزقة في الطراز الأموي ، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة لسنة ١٩٥٢ م ، ١٤ م ، ٢٤ ، ص ٨٥.
- (٦٣) المرجع نفسه ، ص ٦٩.
- (٦٤) شافعي : زخارف وطرز سامراء ، ص ٢.
- (٦٥) Herzfeld (E.), *Archaeologish Reise in Euphrat and Tigris Gebiet*, Berlin 1911 – 1920, vol.11, p. 222.
- (٦٦) شافعي : زخارف وطرز سامراء ، ص ١٣.
- (٦٧) Shafi'i (F.), *Simple Calyx in Islamic Art (Study in Arabsque)*, p. 75.
- (٦٨) شافعي : زخارف وطرز سامراء ، ص ٣.
- (٦٩) الجمعة : محارِب مساجد الموصل ، ص ٧٩.
- (٧٠) المرجع نفسه ، ص ٣٢.
- (٧١) المرجع نفسه ، ص ٣٣٧.
- (٧٢) المرجع نفسه ، ص ٣٣ ، ١٧٨.
- (٧٣) المرجع نفسه ، ص ٢٣٨.
- (٧٤) المرجع نفسه ، ص ٧٤ ، ٧٥.
- (٧٥) المرجع نفسه ، ص ٦٦ ، رسم ١٦١.
- (٧٦) Parrot (A.L), *Ninavah and Babylon, France 1961*, p. 66 Fig. 71.
- (٧٧) Creswell, *Early Muslim Architecture*, vol. 11, p.133.
- (٧٨) الجمعة : الآثار الرخامية ، ص ١٠٠.
- (٧٩) المرجع نفسه ، ص ١٠٣.
- (٨٠) المرجع نفسه ، ص ١٠٥.
- (٨١) المرجع نفسه ، ص ٢٣١ ، رسم ٧١٧.
- (٨٢) الجمعة : محارِب مساجد الموصل ، ص ١٣٧ ، صورة ٢١.
- (٨٣) بشير فرنسيس وناصر النقشبدي : المحارِب القديمة في القصر العباسي ، سور ، م ٧ لسنة ١٩٥١ م ، ص ٢١٨.
- (٨٤) سليمان الصائغ : تاريخ الموصل ، لبنان ١٩٥٦ م ، ج ٣ ، ص ١٥٨.
- (٨٥) الجمعة : محارِب مساجد الموصل ، ص ٣٨ ، رسم ١٠٣-١٠٦.
- (٨٦) المرجع نفسه ، ص ١٣٩ ، صورة ٢٣ ، ٢٤ ، رسم ١٠٨.
- (٨٧) المرجع نفسه ، ص ٤٤ ، رسم ١٢٢ ، ص ١٤٠ ، صورة ٢٥.
- (٨٨) المرجع نفسه ، ص ٢٩ ، رسم ٥٩ ، ص ١٣٢ ، صورة ١٣.
- (٨٩) المرجع نفسه ، ص ٢٩ ، رسم ٥٩ ، ص ٤٤ ، صورة ١٢٢.
- (٩٠) الجمعة : الآثار الرخامية ، رسم ١١٦٨ - ١١٧٠.
- (٩١) الجمعة : من نقائس الفن المعاري ، ص ٥٩.
- (٩٢) المرجع نفسه ، رسم ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩.
- (٩٣) المرجع نفسه ، رسم ٨٧ ، ١٢٤٢ - ١٢٤٤.
- (٩٤) الجمعة : محارِب مساجد الموصل ، ص ٧١ ، رسم ١٧٤ ، ص ١٥٣ ، صورة ٤٢.
- (٩٥) المرجع نفسه ، ص ١٣٧ ، صورة ٢٠.
- (٩٦) الجمعة : الآثار الرخامية ، ص ٢٨ ، رسم ٤٦.
- (٩٧) المرجع نفسه ، ص ٥٤ ، رسم ٨٧.
- (٩٨) King (L. W.), *A history of Sumer and Akkad*, London 1916, P. 110.
- (٩٩) Gardner (P.), *The principles of Greek Art*, New York 1933, P. 166; Frankfort (H.), *The Art and Architecture of Ancient Orient*, London 1963, P. 102, Fig. 39.
- (١٠٠) محمد الشامي : أضواء على الآثار الإسلامية ، تونس ١٩٦٦ ، لوحة ٣١.
- (١٠١) شافعي : العارة العربية في مصر الإسلامية ، ص ١٥١ ، شكل ٩٨ ، ٢١٧.
- (١٠٢) المرجع نفسه ، ص ١٥١ ، ١٥٢.
- (١٠٣) Greswell, *Early Muslim Architecture*, Oxford 1969, Vol. I, P. 417, Fig. 458.

- (١٢١) المرجع نفسه، ص ٩١، ٩٢.
- (١٢٢) الدكتور عبد العزيز حميد: عازة الأريمن في تكريت، سومر ٢١ لسنة ١٩٦٥م، ص ١٣٩، ١٤٠.
- Ahmad (M.), The Mosque of Amr Ibn AL - AS (١٢٣) at Fustat, Cairo 1939, Fig. 2.
- Hill (D.) and Grabar (D.), Islamic Architecture (١٢٤) and its Decoration A. D. 800 - 1500, London 1964, Fig. 3.
- (١٢٥) شافعي: المعارة العربية في مصر الإسلامية، م ١، ص ٢٠٩.
- (١٢٦) الدكتور محمد حماد: الانشاء والمعارة، ط ١، القاهرة ١٩٦٤م، م ١، ص ١٩٧.
- Creswell, A Short Account of Early Muslim (١٢٧) Architecture, Penguin and Pelican Book 1958, P. 121.
- (١٢٨) شافعي: المرجع السابق، م ١، ص ١٨.
- (١٢٩) الجمعة: الآثار الرخامية، ص ٦٩.
- (١٣٠) المرجع نفسه، ص ٧٠، ٧١.
- (١٣١) المرجع نفسه، ص ٩٥.
- (١٣٢) المرجع نفسه، ص ٩٠٣، رسم ١٨٠.
- (١٣٣) المرجع نفسه، ص ١٦١.
- (١٣٤) الجمعة: محارِب مساجد الموصل، م ٢، ص ١٣، رسم ٤١.
- (١٣٥) المرجع نفسه، ص ٣٥٩ - ٣٦٥، رسم ١٢٤٠ - ١٣٦٠.

- (١٠٤) شافعي: مميزات الاختشاب للزخرفة في الطرازين العباسي والفاطمي في مصر، ص ٩٠.
- (١٠٥) أكرم ساطع: المدرسة الظاهرية في حلب، الحريات السورية، م ١٥ لسنة ١٩٦٥م، ص ٥١.
- (١٠٦) الدكتور عبد اللطيف إبراهيم: جلد مصحف بدار الكتب المصرية، مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة، م ٢٠، عدد ١ لسنة ١٩٥٨م، ص ١٩٩.
- (١٠٧) الجمعة: الآثار الرخامية، ص ٤١٧ - ٤١٨.
- (١٠٨) المرجع نفسه، ص ٢١٧.
- (١٠٩) المرجع نفسه، ص ٢١٨.
- (١١٠) المرجع نفسه، ص ٢١٨ - ٢٢٢.
- (١١١) الصفحة نفسها.
- (١١٢) الجمعة: محارِب مساجد الموصل، ص ١٩٤.
- (١١٣) طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، بيروت ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م، ج ١، ص ٢٧٥.
- (١١٤) نجاه يونس: المحارِب العراقية، ص ١١٩.
- (١١٥) الجمعة: المرجع السابق، ص ٨١.
- (١١٦) المرجع نفسه، ص ٨٩.
- (١١٧) المرجع نفسه، ص ٩٠٣، ٩٠٨، رسم ١٨٠، ١٨١.
- (١١٨) المرجع نفسه، ص ٩٢، رسم ٤٤، ٤٦.
- (١١٩) المرجع نفسه، ص ٩٤، الرسم ٤٢، ٤٦، ٥٠.
- (١٢٠) الصفحة نفسها، رسم ١٢٦٢، ١٢٦٤.

الزخرفة الآجورية

أ. د. أحمد قاسم الجمعة

تكمن في الغرض الجمالي الفني الذي كانت تؤديه تلك المسامير الملونة وتثبيتها على الجدران بهيئات تزيينية هندسية، فضلاً عن فائدتها المعمارية المنطوية في المحافظة على الجدران من التلف والتآكل. وهكذا حقق الفنان العراقي القديم فائدتين بعمل واحد^(١). أما العلاقة الانشائية فتتمثل بكون تلك المسامير الفخارية والقوالب الآجورية صنعت من مادة الطين المفخور. وإذا أخذنا ذلك بنظر الاعتبار نجد أن الآجر كإداة له صلة وثيقة بالفخار الذي ظهر في العصر الحجري الحديث لأول مرة في الطبقات الخمس العليا لقرية جرمو^(٢) باعتباره هو الآخر من الطين المفخور. وفي العصر البابلي الحديث كان للآجر دور كبير

تعد الزخارف الآجورية من الفنون التشكيلية والتطبيقية المهمة في الموصل منذ القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. وعلى الرغم من أنها ذات صلة وثيقة بأنواع الزخارف الأخرى من رخامية وجصية من حيث العناصر والمميزات الفنية إلا أنها ذات خصوصية معينة تكمن في اختلاف طبيعة المادة المنفذة عليها.

وإذا تتبعنا الجدور التاريخية للزخارف الآجورية من الناحية الفنية والمادة الانشائية وتثبيتها نجد أنها ترجع بأصولها إلى الفن والمعارة السومرية منذ عصر الوركاء بحدود ٣٥٠٠ - ٣٠٠٠ قبل الميلاد متمثلة بتلك المجموعات من المسامير الفخارية برووس ملونة ترزين جدران بعض المباني الدينية. والعلاقة الفنية

في زخرفة المباني وتمثل ذلك ببوابة عشتار^(٣) وشارع الموكب^(٤).

ويظهر أن الزخارف الآجرية المتطورة كانت من المبتكرات العراقية في العصر الاسلامي منذ القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي. ومن أقدم الأمثلة على ذلك زخارف بعض واجهات حصن الأخيضر المطلة على الفناء الرئيس منه. وباب بغداد بمدينة الرقة (القرن الثاني الهجري ايضاً)^(٥)، وانتشرت بعد ذلك في المناطق الأخرى من العراق وبعض الاقاليم الاسلامية التي تستعين بالآجر في البناء منذ مطلع القرن الرابع الهجري على الأقل. ومن الأمثلة على ذلك مشهد السلطان اسماعيل الساماني بمدينة بخارى في اقليم ماوراء النهر (٣٠١ - ٣٣٢ هـ / ٩١٣ - ٩٤٣ م)، ثم طالعنا الزخارف الآجرية بعد ذلك في مشهد امام الدور (نهاية القرن الخامس الهجري)، وربما الزخارف الآجرية في مشهد الامام حمزة بمدينة زيربوش الايرانية تعود الى نفس المعمار الذي نهض ببناء مشهد امام دور، وذلك لورود اسم المعمار نفسه في النص التذكري في واجهة كلا البنائين وهو (أبو الفرج العراقي)، وهذا يدل على مدى الشهرة التي كان يتمتع بها المعمارون العراقيون والرغبة في اتباع الاساليب المماراة والفنية العراقية في الاقاليم الاسلامية المجاورة^(٦).

وبشأن منطقة الموصل التي تمثل الموصل بورتها الحضارية فقد بلغت الزخارف الآجرية فيها مع جملة الزخارف الأخرى من رخامية وجصية قمة التطور الذي أصاب الفنون فيها في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي. ولأجل ذلك سنتناول الزخارف الآجرية - موضوع بحثنا - من حيث المادة الانشائية وتصنيعها واساليب تنفيذها والمظاهر الفنية والعناصر الزخرفية وتتبع جذورها لبيان مدى اصالتها.

فبخصوص المادة الانشائية وطريقة تهيئتها: نجدتها تختلف في الآجر المهيأ للزخارف والاعمال

الفنية عما هي عليه في الآجر المستخدم في البناء فعلى الرغم من كون كلا النوعين يمر لدى صنعه بعمليات العجن والتشكيل والتجفيف والفخر غير أن النوع الأول المستخدم في الزخرفة يحتاج الى عمليات مكثفة من حيث التخمير، والتنقية من الشوائب، والتخلص من الاملاح أكثر من حاجة النوع الثاني اليها.

فمادة الطين التي يصنع منها الآجر ذات خصائص متعددة مناسبة لعمله واستخداماته منها: المطاطية والمسامية والتصلب. فالخاصية الأولى تساعد على تشكيل الطين الطري بسهولة حسب القوالب والاشكال المطلوبة للآجر وبقاء تلك الاشكال على وضعها في حالة جفافها وتصلبها. أما الخاصة الثانية فقد نتجت عن احتواء الطين على بعض الحبيبات المعدنية الصلبة كالرمل التي تساعد بدورها على تجفيف الطين وعدم تشققه خلال الحرق والفخر، كما أن الخاصة الثالثة تحافظ هي الأخرى على الشكل المهيأ عند الفخر^(٧).

وعلى الرغم من اختيار الصانع التطبيقين الطينية الجيدة لصناعة الفخار المستخدم في الزخرفة إلا أنه يستوجب مرورها بعدة عمليات حتى تصبح صالحة للامعال الفنية ومنها تعرض الطين المستخرج من الأرض مباشرة للجو لمدة كافية من الوقت حتى يتم نضجه بفعل عملية التفسخ التي تؤدي الى صفر حبيباته وتجانسها، وتقضي على ظاهرة تعدد طبقاته^(٨).

وتأتي بعد ذلك عملية تنقية الطين من الشوائب لان الشوائب تعد بمثابة عناصر غريبة تؤدي الى تصدع القوالب والاشكال الطينية لدى فخرها بفعل تباين تقبل الحرارة من قبل الطين والشوائب التي يحتويها لتباين كثافتها وصلابتها.

وما لاشك فيه أن عملية تنقية الطين من الشوائب خلال العصور العربية الاسلامية في الموصل كانت مشابهة للعملية ذاتها التي كانت

واخيراً تأتي عملية فخر الطينة المقولبة بوساطة اكوار أو أفران مغلقة الى درجات حرارة لمدة تكفي لاجداث التغيرات الكيميائية والفيزيائية بعد طرد ماء التبلور من الطينة الذي ينقلها من الوضع الضعيف الذي يسهل تفتتها الى الوضع المفخور الصلب المهيأ للأعمال الخزرفية^(١٣).

ولابد من التعرض الى العمليات الاضافية التي تجرى على الفخار المزجج الذي استخدم في الاعمال الفنية والزخرفية في بعض المباني الأثرية خلال فترة البحث. ومفادها طلاء القطع الفخارية المهيأة للترجيح ببطقة رقيقة جداً من الطين النقي تعرف باسم القشرة او البطانة للحصول على سطح منتظم، وبعد الجفاف تدخل الكورة التي تتراوح حرارتها ما بين (١٠٠٠ - ١١٠٠) درجة مئوية حسب نوعية الطينة ولدة (١٠) ساعات ثم تترك داخل الكورة لكي تبرد بشكل طبيعي وبعدها تستخرج من الكورة وتطلى بمادة زجاجية سائلة. وبعد أن تجف قليلاً تعاد القطع المزججة الى الكورة مرة ثانية تحت حرارة تتراوح ما بين (٩٦٠ - ١٠٢٠) درجة مئوية ولدة (١٠) ساعات أيضاً لتحويل ذلك السائل الى طبقة زجاجية ثابتة فوق القطع للحصول على قراميد ذات ترجيج احادي اللون^(١٤).

اما الأساليب المتبعة في تنفيذ الخزارف الآجرية فقد تعددت وذلك لتعدد أنواع الخزارف المنفذة. ومن أهم تلك الاساليب :-

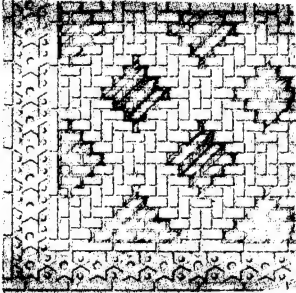
الاسلوب الاول يعتمد على التلاعب بأوضاع قطع الآجر وصفوفها من افقية وعمودية ومائلة احياناً، ويتمثل بصورة عامة بالخزارف الهندسية ولاسيا الاطر والأشرطة المحيطة بالمواضيع الزخرفية الاخرى وحياناً تعدى العملية اختلاف ترتيب القطع الآجرية الى الاختلاف والتدرج في مستوياتها لكي يضي ذلك نوعاً من الظلال والتجسيم.

مستخدمة لدى الصناع التطبيقيين في عمل الآجر والاواني الفخارية الى وقت قريب والتي كانت تتم بوضع الطين غير النقي في أوان كبيرة مفتوحة تعرض لأشعة الشمس ويسكب عليه كمية من الماء فينكون مزيج خفيف ويحرك فتسقط الشوائب الثقيلة كالحجارة في قعر الاواني وتطفو الشوائب الخفيفة فيسهل رفعها من فوق سطح المزيج، وبعد جفاف المزيج نوعاً ما يغرف بوعاء صغير ويسكب في اناء كبير آخر على ان يترك القسم الاسفل من المزيج الذي يحتوي على الشوائب الثقيلة. وتعاد العملية عدة مرات حتى يتم غسل الطين وتخليصه من الشوائب ويكون صالحاً لصناعة الفخار^(١٥) كما أن الغسل بالماء وتبديله يؤدي الى فائدة اخرى وهي تخليص الطين من الاملاح. وبعد ذلك تنقع الطينة المتقاة بالماء وتترك لعدة ايام حيث يساعد الماء خلال تلك الفترة الى تحلل ذرات الطينة وبناء شرائح خالية من الفراغات، كما ان التحلل البكتيري يساعد على اعطاء الطينة مرزنة كافية تسهل عملية ملء القوالب المعدة للفخر بفعل تخمرها لمدة مناسبة^(١٦).

وتأتي بعد ذلك عملية العجن لما لها من أهمية كبيرة في صناعة الآجر المعد للزخرفة ويتضمن اضافة الماء بصورة تدريجية للطينة حتى تصبح لزجة ومتجانسة بعد أن أدى ذلك الى طرد الفقاعات وحال دون حدوث الشقوق فيها^(١٧).

وبهذا أصبحت الطينة مهيئة للتشكيل حسب الأشكال المطلوبة بوساطة قوالب خاصة من الخشب، وبغية التخلص من الماء الذي تحتويه الطينة المقولبة قبل الفخر يُصار الى تجفيفها بصورة بطيئة لان السرعة في التجفيف تعمل على خروج الماء الموجود في الطينة بسرعة ويؤدي ذلك الى تقلص الاشكال وتشققها ثم تلفها، لذلك يعمد الفخاريون الى وضع تلك الاشكال في الظل وتركها عدة ايام لتجف استعداداً للفخرها^(١٨).

الزخارف الأخرى فالقاعدة محلاة من الجوانب الأربعة بزخارف متنوعة العناصر والتنفيذ نظراً لاختلاف تحلية كل جانب عن الجوانب الأخرى فتشكيلة الجانب الشرقي عبارة عن زخارف حصرية تتخذ هيئة المعينات نتجت من التلاعب في صفوف الآجر والتفاوت بمستوياته مما أضفى على الزخرفة نوعاً من التجسيم، وقد اطرت الزخرفة بشريط مشغول بنجيات متصلة تتمركز دوائر في وسطها وتفصل بينها حبيبات مكورة. وقد نفذت الوحدات بقص الآجر بأشكال معينة ومرتبطة حسب التصميم المعد للزخرفة ومستوى وجه النجوم والدوائر متساو وبارز قليلاً عن مستوى ارضية الاطار. (رسم ١).



رسم (١) زخرفة الجانب الشرقي لقاعدة مئذنة الجامع النوري في الموصل
عن (د. عيسى سلمان)
والزخرفة الحصرية تعتمد في تنفيذها على
رصف الآجر بترتيب يجعل المظهر العام لواجهة
المنطقة المزخرفة شبيهة بنسيج الحصار^(١٥).

والزخرفة المذكورة في الآجر لم تكن معروفة قبل الاسلام كما لم تعرف بالعصر الأموي وإنما ظهرت لأول مرة في مطلع العصر العباسي^(١٦). واقدّم نماذج الزخارف الحصرية في العمارة الاسلامية وجد في باب بغداد بمدينة الرقة (القرن الثاني الهجري) في سوريا، (مخطوط ١). ثم طالعنا في العراق في الحنايا المطلة على ساحة الرحبة المركزية في قصر الأخيضر (النصف الثاني من القرن الثاني

اما الاسلوب الثاني فيعتمد على نحت وقص الوحدات الزخرفية وتجميعها بعضها الى بعض بترتيب هندسي ويتمثل ذلك بصورة عامة في المقرنصات والأشكال الهندسية.

أما الاسلوب الثالث فخلاصته حفر الزخارف على القطع الآجرية ويتركز ذلك في الزخارف النباتية أكثر من الزخارف الهندسية.

وهناك اسلوب رابع يعتمد على الجمع بين اسلوبين او أكثر من الاساليب المذكورة لتنفيذ الزخرفة المطلوبة.

واخيراً اسلوب التزييج الذي يعتمد على تزييج المواضيع والوحدات الزخرفية سواء المنفذة باسلوب واحد او أكثر من الأساليب السابقة.

وسوف نتناول تطور الأساليب المذكورة وتقنياتها لدى التعرض الى انواع الزخارف الآجرية الكائنة في مباني الموصل وعناصرها المعمارية خلال العصور العربية الاسلامية حفاظاً على الوحدة الفنية لتلك الزخارف في المبنى والعنصر الواحد، وللعلامة الصميعة بين أنواع الزخارف والأساليب المنفذة بوساطتها التي اثرت ايجابياً على تطور كل منها.

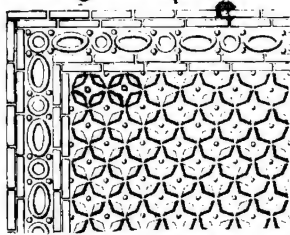
واذا عدنا الى حصر الزخارف الآجرية في الموصل ومنطقتها خلال تلك العصور نجدتها متمثلة في مئذنة الحدباء في الجامع النوري والجامع المجاهدي ومئذنة سنجار ومزار يحيى بن القاسم ومزار الامام عون الدين، ودير ماربهنام.

اولاً/ مئذنة الجامع النوري بالموصل (٥٦٦-٥٦٨ هـ / ١١٧٠-١١٧٢ م):

تعد الزخرفة الآجرية في مئذنة الجامع النوري التي شملت البدن والقاعدة باستثناء قسمها السفلي من أنفس النماذج الزخرفية التي استخدمت في تحلية المآذن الاسلامية من حيث تنوعها، وتعدد اساليب تنفيذها، ومظاهرها الفنية.

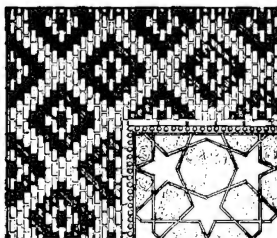
وقد غلبت الزخارف الهندسية على غيرها من

مستوى الأرضية وجميعها بمستوى واحد. والإطار على بزخرفة منفذة بنفس التقنية. وتتضمن دوائر وأشكالاً بيضوية وحبيبات دائرية مرتبة بإسلوب التتابع والتناوب. (رسم ٣). وأبدع زخارف قاعدة



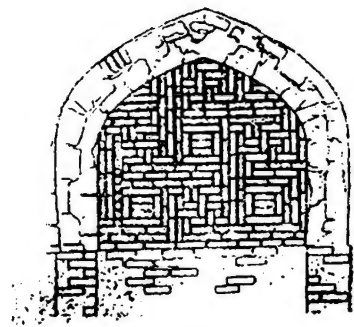
رسم (٣) زخرفة الجانب الشمالي لقاعدة مثانة الجامع النوري في الموصل عن (د. عيسى سلمان)

المثانة هي المائلة على الجانب الغربي التي نفذت بواسطة الجمع بين طريقة التلاعب بمستويات قوالب الآجر والتلاعب بأوضاعها وقص اجزاء الوحدات الزخرفية وترتيبها حسب المطلوب حيث الأشكال المعينة المنخفضة التي تحيط بوحدة زخرفية مربعة تتوسط الجانب وتتألف من معينات واطباق نجمية معمولة بطريقة قص ونحت الآجر^(١٨). (رسم ٤) و (رسم ٥) وطريقة الجمع بين الاسلوبين المذكورين ظهرت بوادرها في العراق منذ القرن الخامس الهجري كما في مبنى ضريح الإمام محمد الدوري^(١٩).



رسم (٤) زخرفة الجانب الغربي لقاعدة مثانة الجامع النوري في الموصل عن (د. عيسى سلمان)

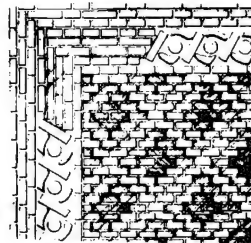
وتتجلى أهمية الطبقي النجمي في مثانة النوري باعتباره أول مثال واضح المعالم لهذا اللون من الزخارف الهندسية يظهر على الآجر، وان اعتقد بعضهم أن أقدم بوادره على الآجر وجد على باب



مخطط (١) زخرفة حصرية من باب بغداد في الرقة

المجري). وقطع الفنان قوالب الآجر الى اشكال متنوعة غرزها بين صفوف الآجر وكون منها زخارف بدیعة نراها في ضريح اسماعيل الساماني في بخارى (القرن الرابع الهجري) في الاتحاد السوفيتي حالياً^(١٧).

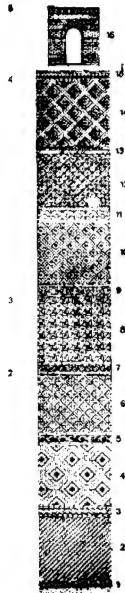
وتتكون تشكيلة الجانب الجنوبي من زخارف حصرية على هيئة معينات غائرة، وهذه التشكيلة الزخرفية ناتجة عن التفتن في رصف الآجر. اما الاطار فزخارفه تتكون من دوائر تحف بها خطوط منحنية وتفصلها خطوط مائلة تمثل بالأصل خطوطاً مضفورة وعملت من آجر مقصوص وهي مستوية الوجهه أيضاً وبارزة عن مستوى الأرضية اي ارضية الشريط. (رسم ٢).



رسم (٢) زخرفة الجانب الجنوبي لقاعدة مثانة الجامع النوري في الموصل عن (د. عيسى سلمان)

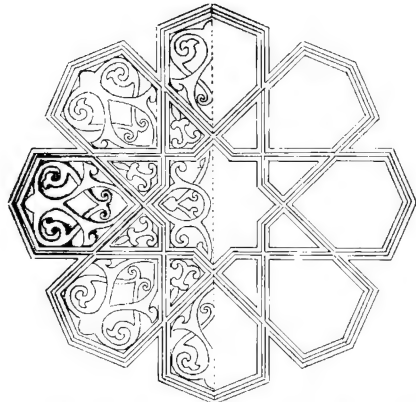
فعبارة عن نجميات رباعية ذات مراكز كروية تحلفت بينها من جراء ترتيبها هيئات أخرى من النجميات الرباعية وقد نفذت بطريقة قص ونحت الآجر بأشكال معينة وتبرز وجوه الوحدات الزخرفية عن

اشكال معينة. أما زخارف الأنطقة فنتاجة عن
التفنن في صف الآجر ومستوياته في اغلب
الحالات (مخطط ٢)



مخطط (٢) الأنطقة والأشرطة الزخرفية
على بدن منة الجامع النوري في الموصل
عن (مرويلد)

فتألف حشوة الشريط الأول من سلسلة من
معينات متتابعة قائمة على رؤوسها ومثبتة على ارضية
جصية ، (رسم ٦). وزخرفة النطاق الأول حصيرية
تتحرك من اليسار الى اليمين بصورة لولبية (٢٣).
(رسم ٧). وتعد هذه الزخرفة نقلة نوعية في تطور
الزخارف الآجرية فلم تعد بسيطة تقتصر على
اختلاف بسيط في رصف الآجر ينتج عنه مايشبه
نسيج الحصير كما هو الحال في مشهد الإمام محمد
الدوري ، بل صارت صفوف الآجر المرصوفة اقلياً
تتكسر بزوايا مختلفة الى الأعلى والى الأسفل
لتشكل زخارف هندسية متناسقة مركبة .
أما الشريط الثاني فشغول بسلسلة ملتوية من
الخطوط المصفورة تشغل فراغات حلقاتها دوائر
صغيرة. (رسم ٨) والنطاق الثاني مشغول بتشكيلة
من معينات غائرة غوراً خفيفاً نفذت ياتقان ، (رسم

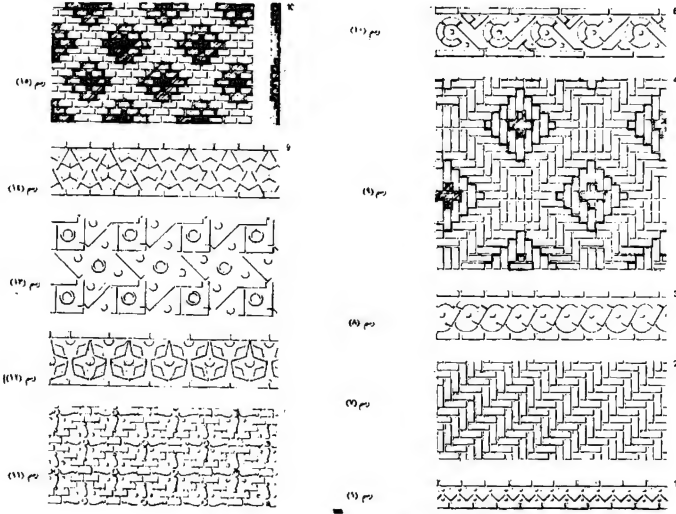


رسم (٥) طبق نجسي على الجانب الغربي لقاعدة منة الجامع النوري في
الوصل ،
رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

الظفرية (الموسطاني) في سور بغداد (اوائل القرن
السادس الهجري) (٢٠).

وزينت الوجوه المستوية في هذه التشكيلة
بزخارف نباتية تشغل الأشكال الهندسية بطريقة
النقش الغائر ولكن بمستوى خفيف جداً. ولهذا
الزخارف النباتية أهميتها الفنية الخاصة وذلك
لظهورها لأول مرة في الزخرفة الآجرية خلال
العصور العربية الاسلامية. وتعد الأساس لتلك
الزخارف من التوريق العربي (الأرابيسك) التي
تمثلت في المباني اللاحقة من دينية ومدنية منذ القرن
السابع وما بعده كالمدرسة المستنصرية (٦٢٥-
٦٣١هـ / ١٢٢٧-١٢٣٤م) (٢١) ، والمدرسة
الشرابية (القصر العباسي) في بغداد (٦٢٨هـ /
١٢٣٠م) (٢٢) ، ومزار يحيى بن القاسم بالموصل
(٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) الذي ستتعرف على زخارفه
فيما يلي من صفحات .

أما بدن منة الجامع النوري فهو كذلك قد
زين بحل من الزخارف الهندسية تتصف بتنوع
اشكال وحداتها فهي تربو على عشرة انواع تتباين
في مستوياتها وتقنياتها ، وزعت هيئة سبعة انطقة
مقاربة في سعتها وتفصلها ثمانية اشرطة ضيقة وتتميز
حشوات الأشرطة عن تشكيلات الأنطقة بأنها
عملت بطريقة تركيب آجر مقصوص ومنحوت في



الرسم (٦ - ١٥) الأنطقة والأشرطة الزخرفية على بدن مثثلة الجامع التوري في الموصل

عن (د. عيسى سلمان)

المستوى، (رسم ١٥) ويفصله عن النطاق السادس شريط مشغول بأشكال معينة محاطة بمضلعات ثمانية. (رسم ١٦) وزين النطاق السادس بنجوم رباعية ذات رؤوس بيضوية يفصلها بعضها عن بعض دوائر صغيرة. (رسم ١٧) والشريط السابع مشغول بخطوط مضفورة ومستقيمة. (رسم ١٨) أما النطاق السابع فمشغول بزخارف حصرية معينة الشكل. وتتميز وحداتها بكبر الحجم والإنخفاض البين الذي أضفى عليها طابع التجسيم. (رسم ١٩) وربما تعتمد الفنان بذلك لكي يتمكن الناظر إليها من تلمس معالمها بسهولة على الرغم من بعدها عنه، ويتوج كل ذلك الشريط الثامن الذي يناظر الشريط الأول في زخرفته (رسم ٢٠، ٦).

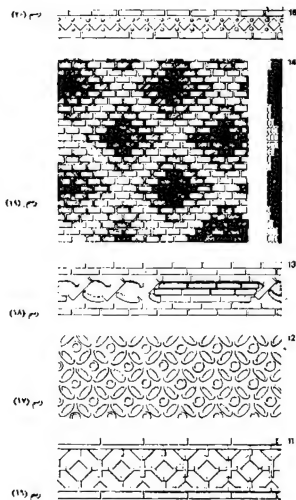
وهذا النوع الفني الذي أحدثه الفنان في زخارف مثثلة الجامع التوري من حيث تعدد الأشكال والحشوات وإماليب التنفيذ لم يقتصر على تحقيق الغرض الفني بل عالج مسألة التكرار الزخرفي الممل بالنسبة للسطوح الواسعة، كما حقق

٩) ويفصل هذا النطاق عن الذي يليه الشريط الثالث الذي تتكون زخارفه من اشكال ملتوية على هيئة عصي ذات رؤوس دائرية تتمركز فيها بروزات كروية وربنت بطريقة متناوبة مرة تتجه الرؤوس نحو الأعلى والاخرى نحو الأسفل. (رسم ١٠). ومعينات النطاق الثالث ذات حواف بارزة وكل معين مشغول بنجمة رباعية لوزية الأطراف على مستوى اخفض من مستوى حواف المعينات. (رسم ١١) وشغل الشريط الرابع بسلسلة من وحدة زخرفية تتألف من نجميات رباعية الأطراف. (رسم ١٢) أما زخارف النطاق الرابع فعمول بطريقة قص الآجر في اشكال معينة للحصول على تشكيلات مقصوفة اذا ماربت بالشكل المطلوب. والزخرفة هنا تتألف من نجميات ومربعات تتصل مع بعضها البعض في اطراف معينة وتزين النجوم خمس دوائر. (رسم ١٣) في حين ان زخرفة الشريط الخامس هي من وحدات او اشكال هندسية متداخلة. (رسم ١٤) والنطاق الخامس على بزخارف حصرية معينة الشكل متباينة

الوظيفية والمعمارية حيث وصلنا من مخلفاته التي ترجع الى عهد بنائه الأول قبته الحالية ، ومحرابه الضخم الذي يعد اكبر محراب أثري في العراق ولا زال عقده المشغول بالزخارف الجبسية التي سيرد ذكرها في بحث لاحق من التفاسير المعمارية والفنية النادرة كل ذلك يدل على ان الجامع لم تقتصر زخارفه الآجرية على ذلك النطاق المحيط بالقبة وانما شملت تزئين أقسامه الأخرى ولا سيما الجدران الداخلية. وما يؤكد ذلك ما ذكره الرحالة ابن جبير عند زيارته الموصل سنة (٥٨٠هـ /

١١٨٤م) وتعرضه للجامع حيث قال : « .. ما أرى وضع جامع أحفل منه ببناء ، يقصر الوصف عنه وعن تزئينه وترتيبه ، وكل ذلك نقش في الآجر » (٢٦) . وان كان كذلك فما لاشك فيه أن زخارفه الآجرية كانت تغلب عليها الزخارف الهندسية التي تعتمد على تقسيم المساحات المخصصة الى أشكال هندسية من نجمة او مضلعة أو ما شابه ذلك بتداخل بعضها ببعض أو انكسار الخطوط وتقاطعها وفق ترتيب هندسي سابق واشغال تلك الأشكال الهندسية بزخارف التوريق العربية شأنها في ذلك شأن الزخارف الماثلة التي ظهرت بوادرها في الجانب الغربي لمئذنة الجامع النوري ونضجت في زخارف مزار يحيى بن القاسم . أما الزخارف الحصرية التي يعد الآجر من اهم المواد المطاوعة لتنفيذها فستبعد وجودها على جدران الجامع المجاهدي لأنها تقتصر على زخرفة المآذن عادة كما هو الحال في مئذنة الجامع النوري .

واذا عدنا الى النطاق الزخرفي المستخدم في تحلية القبة من الخارج نجده يتكون من الزخارف المعمارية المكونة من حنايا صغيرة بترتيب هندسي ، وقد شغلت بقطع من الآجر المزجج بلون أزرق شذري فظهرت القبة وكأنها مطوقة باكلیل أو قلادة من حجر الشذر. (صورة ١ ، ص ٢٣٧) ويرجح بعضهم أن القبة قد غطيت بكاملها من الخارج بهذا اللون



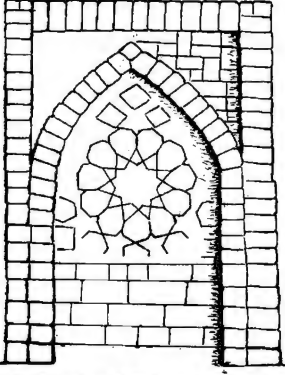
الرم (١٦ - ٢٠) الانقطة والأشرطة الزخرفية على بدن مئذنة الجامع النوري في الموصل

عن (د. عيسى سلمان)

الانسجام الفني للزخرفة عندما جعل جميعها من الزخارف الهندسية بيد ان زخرفة كل نطاق تختلف عن زخرفة النطاق الذي يسبقه أو الذي يليه (٢٥) . وهكذا خطت هذه الزخرفة خطوات كبيرة في التطور والابتكار الذي أصاب الزخارف الآجرية خلال العصور العربية الاسلامية واثرت في نظائرها اللاحقة .

ثانياً/ زخرفة الجامع المجاهدي (٥٧٢ - ٥٧٦هـ / ١١٧٦ - ١١٨٠م) :

شيد الجامع المجاهدي من قبل مجاهد الدين قايماز سنة (٥٧٢ - ٥٧٦هـ / ١١٧٦ - ١١٨٠م) وهو أول جامع يشيد في الرض الأسفل على الضفة اليمنى لدجلة خارج نطاق أسوار الموصل القديمة بعد توسع المدينة نحو الجنوب . وعلى الرغم من عدم تحلف زخارف آجرية فيه باستثناء نطاق الزخارف المعمارية الذي يحيط بالقبة من الخارج في منطقة اتصالها بالبدن بيد أن تشييد الجامع برتمه بمادة الآجر المطاوعة للأعمال الزخرفية ، وكذلك أهميته



مخطط (٣) مشكاة من قاعدة مثانة سنجار (١٢٠١ هـ / ١٩٨٨ م).
تخطيط (د. أحمد قاسم الجمعة)

هيئات الخطوط المنكسرة بوضعيات عمودية وأفقية
(رسم ٢١).

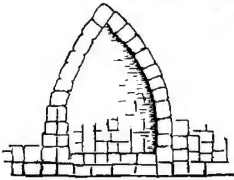


رسم (٢١) شريط من الزخارف الهندسية على بدن مثانة سنجار.

رسم (د. أحمد قاسم الجمعة)

وعلى الرغم من رجوع هذا النوع من الزخارف
المنكسرة باصوله الى الفنون السابقة للإسلام (٣٣)
فإن أبدع نماذجها في العصر الإسلامي وجدت في
قصر الحويصلات في سامراء (٣٤)، وحفريات
الفسطاط بمصر (٣٥).

ولم تقتصر زخرفة مثانة سنجار على الزخارف
الهندسية بل تعدتها الى الزخارف المعمارية، وما
الحنايا الصغيرة ذات العقود المدببة البارزة الى
الأمام والتي تعلو القاعدة الا دليل على ذلك حيث
تمثل بداية للمقرنصات وتعدت غرضها الوطني
كمساند الى شرفة او مصطبة كانت في المثانة الى
القرص الجمالي. (مخطط ٤).



مخطط (٤) احدى حنيات بدن مثانة سنجار

تخطيط (د. أحمد قاسم الجمعة)

من الآجر المزجج (٣٨)، غير أن ذلك احتمال بعيد
إذ من المعروف أن اكساء القبة برمتها بالآجر المزجج
يراد به بشكل اساس فائدة عارية أولاً ثم الجانب
الجمالي ولكي تؤدي القراميد المزججة هذا الغرض
المعماري كان لزاماً على المعمار أن يضع بعضها الى
جنب بعض بدون أن يترك فراغاً، وهذا مالا يتفق
مع وضعية القراميد الموجودة في قبة الجامع
المجاهدي (٣٩).

والجدير بالذكر أن القبة الخضراء بقصر معاوية
بالشام طليت باللون الأخضر، وتأثرت بذلك القبة
الخضراء بقصر الحجاج في واسط. وعلى الأرجح
امتد ذلك التأثير الى القبة الخضراء بقصر المنصور
بيغداد (١٤٦ هـ / ٧٥٢ م) (٣٠)، وربما كان
الطلاء من الآجر المزجج باللون الأخضر (٣١). وإذا
كان كذلك فيعني ان ترجيح القباب من الخارج قد
ظهر منذ العهد الأموي خلال العصور العربية
الإسلامية، وامتد الى العهد العباسي والعهود
اللاحقة (٣٢).

ثالثاً/ زخارف مثانة سنجار (١٢٠١ هـ / ١٩٨٨ م)

لقد تمثلت الزخرفة في كل من قاعدة وبدن
المثانة فأما زخارف القاعدة فتركزت داخل
المشاكبي والأطر المحيطة بها واهم عناصرها اطباق
نجمية من احدى عشر رأساً تشغل اقواس المشاكبي
وانصاف اطباق تشغل الاطر التي تحف بها وقد
نفذت بتقنية خاصة مفادها نحت وقص الأجزاء
المكونة للطبق النجمي ثم تجميع بعضها الى بعض
في الأماكن المخصصة لها سلفاً وتثبيتها بالجبص.
أما كوشات المشاكبي وصدورها فقد شغلت
بزخرفة حصيرية نفذت بطريقة التلاعب بأوضاع
قطع الآجر بجهات افقية وعمودية. (مخطط ٣).

ولم تقتصر الزخرفة الهندسية على زخرفة مشاكبي
القاعدة في مثانة سنجار بل تعداها الى البدن
الاسطواني حيث زينت بأنطقة من الزخارف تتخذ

وابعد/ زخارف مزار يحيى بن القاسم (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) :

يقع مزار يحيى بن القاسم في الجهة الشمالية من مدينة الموصل القديمة على الضفة اليمنى لنهر دجلة بين دور المملكة (قره سراي) والقلعة الرئيسية (باشطابيا).

ويعد المزار احد المباني النفيسة المتخلفة من العصور العربية الاسلامية من الناحية المعمارية والفنية حيث تعود معظم مخلفاته الأثرية الى عهد بنائه الأول (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م) من قبل بدرالدين لؤلؤ وتشمل القبة المحروطة المزودة التي تعلو غرفته ، والمحراب الكائن في زاوية القبلة ، وصندوق القبر الخشبي الذي يتوسط المبنى والزخارف الآجرية التي تشغل واجهته وجدرانه ، والشريط الرخامي البارز المبطن للأجزاء السفلى من الجدران الداخلية . وأخيراً الشريط الكتاني المتوج له والذي يرجع الى عهد تجديد المزار سنة (٧١٩هـ / ١٣١٩م) (٣٦).

ومن اهم السمات الفنية في مزار يحيى بن القاسم هي غلبة الزخارف الآجرية على الزخارف الرخامية التي كانت قد عمت المباني والعناصر المعمارية والمخلفات الأثرية الاخرى التي يدخل الرخام في تشكيلها. (٣٧)

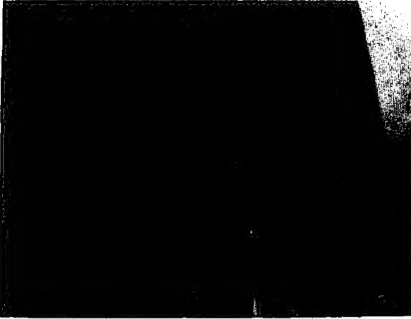
وقد تركزت تلك الزخارف في واجهته الشمالية وجدرانه من الداخل والخارج وتعتمد في تكوينها على تغطية المساحات المخصصة لها الى اشكال هندسية كان القاسم المشترك في تكوينها هو امتداد وتداخل وتقاطع الخطوط المنكسرة والمستقيمة والنجوميات الرباعية والمضلعات. وفي معظم الأحيان تكون بدورها عناصر رئيسية كبيرة في المركز على شكل نجوم ومضلعات كاملة أو اجزاء منها تدور حولها عناصر مماثلة اصغر منها او اشكال اخرى مثل المثلثات والمعينات بصورة متناوبة حسب الموضوع الزخرفي . ويتكرر العنصر المركزي احياناً والعناصر

المحيطة به لكي يغطي المساحة المخصصة للزخرفة برمتها .

وقوام الوحدات الزخرفية هي الأشكال النجمية والطبقية المضلعة والتي تعتمد في اساسها الهندسي على الدائرة واقطارها فضلاً عن خطوط اخرى تكون النجمة في الغالب العنصر الرئيس في الزخرفة ويتحدد عدد رؤوسها بنصف عدد انصاف اقطار الدائرة (٣٨) .

فزخرفة الواجهة الشمالية تمثلت في العقد الذي يعلو المدخل المتوسط لها والمشكاتين الكائنتين على جانبيه . والشريط المؤطر للنص التذكاري الذي يعلو كل مشكاة ، فقد قسم العقد أفقياً الى قسمين بشريط رفيع مكون من مربعات مزججة واخرى مزخرفة رتبت بإسلوب التتابع والتناوب . وقد أطر العقد من الخارج بإطار من الزخارف المكونة من تداخل عدة خطوط متشابكة بطريقة التخرم . وعلى الرغم من التلف الذي دب الى زخرفة القسم العلوي من العقد فإن بقاياها تدل على انها تتكون من طبق نجمي كبير في الوسط ، ويشغل كل ركن من ركني العقد من الاسفل وكذلك منطقتي احنائه من الأعلى ربع طبق نجمي . وقد زججت العناصر اللوزية في الطبق وارباعه ، وهذا ويحيط بكل ذلك نجمة متعددة الرؤوس تدور حولها مضلعات من الخارج وتشغل المساحات المتخلفة بينها وحدات متنوعة من المعينات والمثلثات والمضلعات والأشكال الثمانية والرباعية . اما الاطر المشتركة لتلك الوحدات الزخرفية فتتميز ببروزها وعرضها البين وازدواجيتها لوجود خط غائر يوسطها ، في حين أن القسم السفلي لقوام زخرفته نجوم سباعية ومضلعات ثمانية وأشكال مروحية ثلاثية الرؤوس واشكال رباعية ذات رؤوس نجمية ، وتكونت من تقاطع وانكسار الاطر المحيطة بها التي تمتاز ببروزها وتزجيجه ورشاقها اذا ماقيست بعرض اطر وحدات القسم العلوي المزودة (صورة ٢) .

تمثلت في حشوة مستطيلة بوضعية افقية تعلو فتحة الشباك الذي يتوسطه . واعتمدت في تكوينها على مبدأ التناظر التمثيلي فهناك محور للزخرفة تمثله وحدة هندسية رباعية واخرى سداسية بوضعية رأسية ويعلو ذلك مضلع سداسي وآخر نصف ثنائي مشغول بزخارف تكونت من تداخل مضلعات كاملة ونصفية وشغل كل جانب من جانبي الحشوة برقع طبق نجمي زخرفت وحداته بالتوريق العربي . وهناك مضلع سداسي في كل من جانبي كوشة عقد الشباك نفذ بداخل الأيمن منها كلمة (الحمد) والأيسر كلمة (لله) على أرضية من الزخارف المحرمة . وقد اطرت الحشوة ودائرة عقد الشباك وجوانبه بإطار مكون من تقاطع غصنين يكونان في اثناء سيرهما مناطق بيضوية تشغل بأوراق نخيلية أحادية الاتصال ذات قيعان مجوفة بهيئات متعاكسة وتفصل بين منطقة واخرى اشكال معينة (صورة ٤) .



صورة (٤) زخرفة الشباك الشرق لمزارع يحيى بن القاسم من الخارج

أما زخرفة الجدار الغربي من الخارج فهي عبارة عن حشوة مربعة كبيرة على كل جانب من جانبي الشباك شغلت بقطع مربعة من الآجر البارز حفر على كل منها عنصر رباعي . وتم تنفيذها بأسلوب النسيج الحصري الذي يعتمد على اختلاف وضع القطع وبروزها عن الأرضية المنفذة عليها بترتيب هندسي نتج عنه عدة وحدات متشابهة تتكون

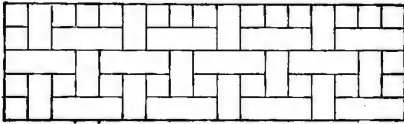


صورة (٢) زخرفة قوس مزارع يحيى بن القاسم من الخارج .

وكل مشكاة من مشكاتي الواجهة قد انقسمت بدورها الى قسمين بشرط مماثل تماماً للشريط الذي قسم العقد الذي يعلو المدخل . فالقسم العلوي المشتعل على قوس المشكاة اعتمد في تكوين زخرفته على مبدأ التناظر التمثيلي . ومن وحداته الزخرفية المضلعات الخماسية والسداسية المطولة والنجمات السباعية والمثلثات . أما القسم الأسفل المشتعل على صدر المشكاة فتماثل زخرفته زخرفة القسم الأسفل من العقد الذي يعلو المدخل من حيث الوحدات الزخرفية واطرها الرشيق المزججة باللون الأزرق ، كما شغلت كوشة قوس المشكاة بتقاطع ثلاثة خطوط عريضة يتوسط كل منها شريط مزجج باللون نفسه . هذا وقد شغلت جميع الوحدات الهندسية في الواجهة بزخارف التوريق العربي المتميزة برشاقها والمنفذة بوساطة الحفر ، اما الوحدات فنفذت بواسطة نحتها وتثبيتها في الأماكن المخصصة لها بوساطة الجص . وهناك شريط مؤطر لحشوة النص التذكاري الكائن في اعلى كل مشكاة والمكون من تقاطع وتداخل اربعة خطوط رشيق نتج من جرائها مناطق شبه مستطيلة تفصل بينها مناطق رباعية (صورة ٣ ، ص ٢٣٧) . وبشأن زخرفة الحائط الشرقي من الخارج فقد

الشباك الشرقي من الخارج الذي مر ذكره .

والجدير بالذكر أن المناطق المستطيلة التي يعلو كل منها فتحة المدخل وأحد شبايك المبنى قد نفذت عليها زخارف حصرية بمستوى الأرضية الكائنة عليها ، وقد اعتمدت في تكوينها على الاختلاف في حجم ووضع القطع الآجرية وتعدد ألوانها والتناوب في صفها أفقياً وعمودياً . (رسم ٢٣) أما تلك المناطق التي تعلو المستطيلات الرأسية الجانبية فقد تركت صماء خالية من المعالم الزخرفية .



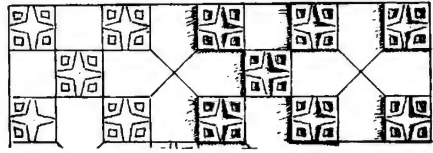
رسم (٢٣) منطقة من الزخارف الحصرية لتشكل شبك من شبايك مزار يحيى بن القاسم من الداخل .

رسم (د. أحمد قاسم الجمعة)

وعلى الرغم من التناظر الذي شمل تقسيم الجدران الداخلية الى مستطيلات رأسية والتي بدورها قسمت الى مناطق افقية محاطة بإطار زخرفي نجد هناك نوعاً من الاختلاف والتناظر في آن واحد بالنسبة لنوعية الزخرفة المنفذة عليها ، ويمكن ذلك في التماثل الزخرفي المنفذ في كل جدارين متقابلين بصورة عامة عما هو عليه الحال في الجدارين الآخرين من حيث طبيعة المناطق واسلوب التنفيذ ، وشكل الوحدات الزخرفية .

ففي الجدار الشمالي شغلت كل جانب من جانبي كوشة عقد المدخل منطقة سداسية الأضلاع زخرفت بمضلع سداسي في المركز يدور حوله ستة مضلعات مائلة في أركان المنطقة المضلعة التي تضمها تفصل بعضها عن بعض وحدات ثلاثية الأزواج تنبثق من تقاطع ستة مضلعات سداسية مطولة ، وشغلت هذه الوحدات الهندسية بزخارف رشيقة من التوريق العربي . عدا المضلع المركزي في المنطقة التي شغلته كلمة (الحمد) وفي المضلع المائل في الجهة الاخرى كلمة (لله) . (رسم

الواحدة منها من قطعة بارزة في الوسط تتصل بكل زاوية من زواياها قطعة مائلة . وقد تختلف بين تلك الوحدات اثناء تكرارها مناطق اخرى متعامدة بمستوى الأرضية . (رسم ٢٢) وهناك قطع من الآجر المزجج باللون الأخضر مثبتة بالجدار الغربي بصورة غير منتظمة مما يؤكد بأنها ثبتت بغير أماكنها الأصلية وربما كانت بالأصل بقايا نطاق يمتد على الجزء العلوي للجدران .



رسم (٢٢) زخرفة الجدار الغربي لمار يحيى بن القاسم من الخارج (١٢٣٩/هـ - ١٢٣٧م)

رسم (د. أحمد قاسم الجمعة)

وبالنسبة للجدار الجنوبي فهو خال من الزخرفة في الوقت الحاضر وفيه عقد مسدود ربما كان يحف بشباك في بداية الأمر على غرار الشباكين في الجدارين الشرقي والغربي ثم سدت فتحته لأسباب انشائية خلال الترميمات المتعاقبة .

وإذا تناولنا الزخرفة الآجرية في داخل المبنى نجدها تركزت على الجدران الأربعة وكوشات عقود المدخل والشبايك التي تتخللها بإستثناء الأجزاء السفلى منها التي شغلها شريط من الزخارف الرخامية النافرة وشريط كتابي متوج له كما اسلفنا في بحث سابق .

وتتماز الجدران الداخلية بتناظر المساحات المخصصة للأعمال الزخرفية والجمالية الاخرى . فقد قسم كل جدار منها الى ثلاثة مستطيلات رأسية ، ثم قسمت المستطيلات الجانبية بدورها الى عدة مناطق مستطيلة . أما المستطيلات الوسطى فقد تحللها في الجدار الشمالي المدخل وتحللها الشبايك في الجدران الاخرى . وقد تم التقسيم المذكور بأشرطة زخرفية تماثل ذلك الشريط المؤطر لزخرفة

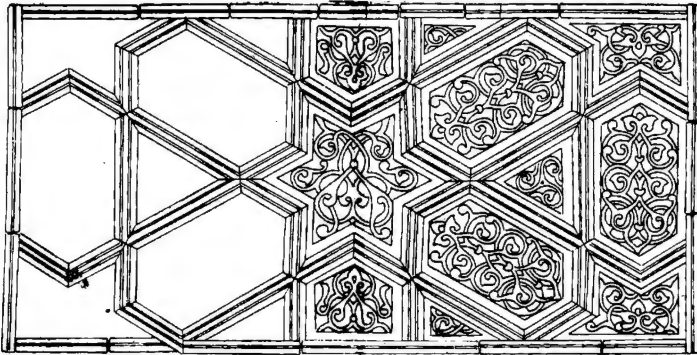


رسم (٢٤) منطقة زخرفية تشغل كوشة عقد مدخل مزار يحيى بن القاسم
من الداخل رسم (د. أحمد قاسم الجمعة)

وتوجد في وسط كل من المستطيل الجانبي
الأيمن والأيسر حشوة مستطيلة من الزخارف
الهندسية تكونت من تداخل ست نجيمات رباعية
كونت في الوسط نجمة سداسية تدور حولها
مضلعات سداسية مطولة بالإضافة الى المثلثات
واجزاء النجوم في الزوايا شغلتها زخارف التوريق
العربية. (رسم ٢٥) وتوجد الى الأسفل من الحشوة

(صورة ٥، ص ٢٣٧). ومن المحتمل انه كانت في
الجانب الأيسر حشوة ماثلة انطلاقاً من مبدأ التناظر
التشبيلي الذي اعتمد في زخرفة الجدران، وإن
الحشوة الأخيرة طمست معالمها في الفترات
اللاحقة.

اما زخارف الجدار الجنوبي فتماثل زخرفة الجدار
الشمالي من حيث زخرفة كوشة عقد الشباك المسدود
الذي يتوسطه والحشوات المستطيلة والمربعة الكائنة
على جانبيه داخل المستطيلات الطولية الجانبية على
الرغم من وجود بعض الاختلافات في التفاصيل.
فزخرفة كوشة عقد الشباك التزمت بمبدأ التناظر
التشبيلي فشملت في كل جانب جزء من طبق نجمي
تحف بؤرته النجمية بدائرة العقد وجزء آخر بقمته،
كما زينت قسمه العلوي نصف نجمة سداسية.
(رسم ٢٦) اما الحشوة المستطيلة الكائنة على يمين
كوشة العقد في المستطيل الطولي فتماثل زخارفها تماماً
زخارف مثيلتها في الجدار الشمالي. في حين ان
الحشوة الكائنة على يسار الكوشة داخل المستطيل

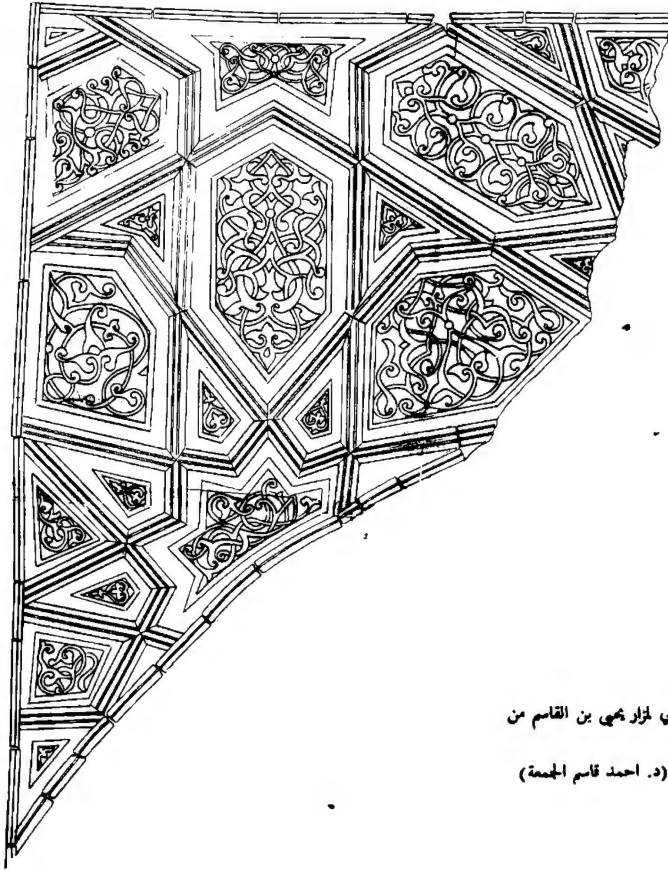


رسم (٢٥) حشوة زخرفية على الجدار الشمالي لمزار يحيى بن القاسم من الداخل

تخطيط (د. أحمد قاسم الجمعة)

الجانبي تكونت زخرفتها الهندسية من تداخل
انصاف نجيمات رباعية تنج عنها وحدات هندسية
تتضمن نجمة سداسية وانصافها ومضلعات سداسية
مطولة ومعينات ومثلثات. (رسم ٢٧) وإلى الأسفل

المعنى حشوة مربعة أخرى زخرفت بمضلع مركزي
ثماني تدور حوله ثمانية مضلعات أخرى تحصر بينها
وحدات من النجمات غير المنتظمة التي شغلت
بنص تذكاري وزخارف التوريق العربية.



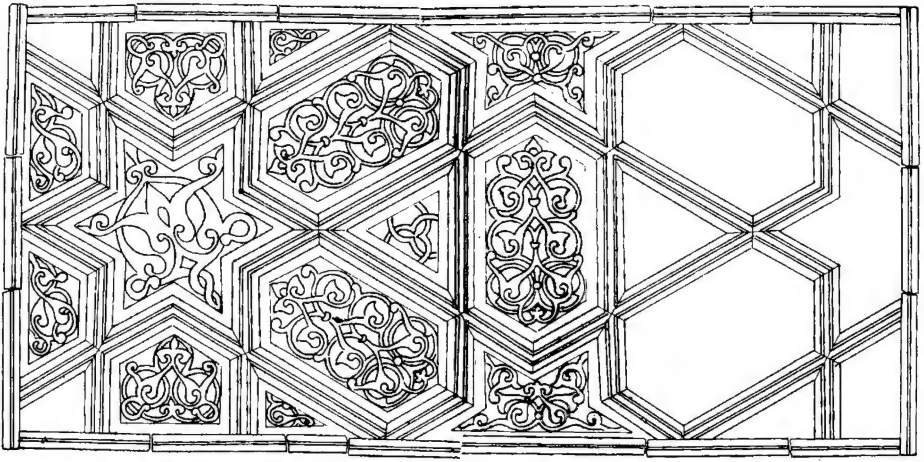
رسم (٢٦) زخرفة كوشة عقد الجدار الجنوبي لمزار يحيى بن القاسم من الداخل
تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

زخرفة الجدارين السابقين الشمالي والجنوبي هي استبدال الحشوات التزيينية المستطيلة والمربعة الكائنة في المستطيلات الجانبية للمدخل والشباك بمشاكبي تزيينية .

فزخرفة الجدار الشرقي تمثلت بكوشة عقد الشباك وثلاث مشكاوات في كل من المستطيلين الكائنين على جانبيه ، بالإضافة الى وجود مشكاة في كل جانب من جانبيه الداخليين ، وكذلك زخرفة صدره الكائن في أعلى الفتحة . وقوام زخرفة كوشة العقد من كل جانب وحدات هندسية تكونت من جزء لطبق نجمي وامتداد بعض

من هذه الحشوة التزيينية حشوة مربعة اخرى شغلت بطبق نجمي كامل من اثني عشر رأساً . (رسم ٢٨) وهناك بقايا حشوة ثالثة الا ان زخارفها قد طمست تحت الشريط الرخامي المبطن للجدران من الأسفل . ومن المرجح ان الجهة التي كانت مشغولة هي الاخرى بمحوتين مماثلتين تطبيقاً للتناظر التمثيلي . هذا وشغلت الوحدات الهندسية في كوشة العقد والحشوات التزيينية بزخارف التوريق العربية المحفورة عليها .

أما زخرفة كل من الجدارين الشرقي والغربي من الداخل فتناظرة والاختلاف الجوهري بينها وبين

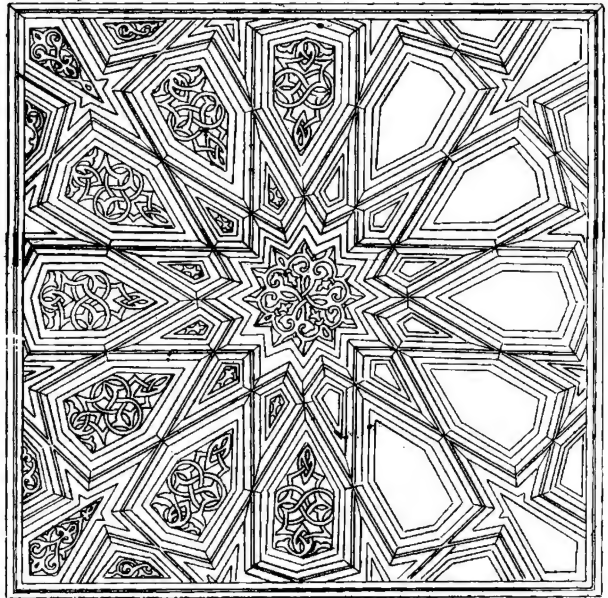


رسم (٢٧) حشوة زخرفية على الجدار الجنوبي لزار يحيى بن القاسم من الداخل

تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

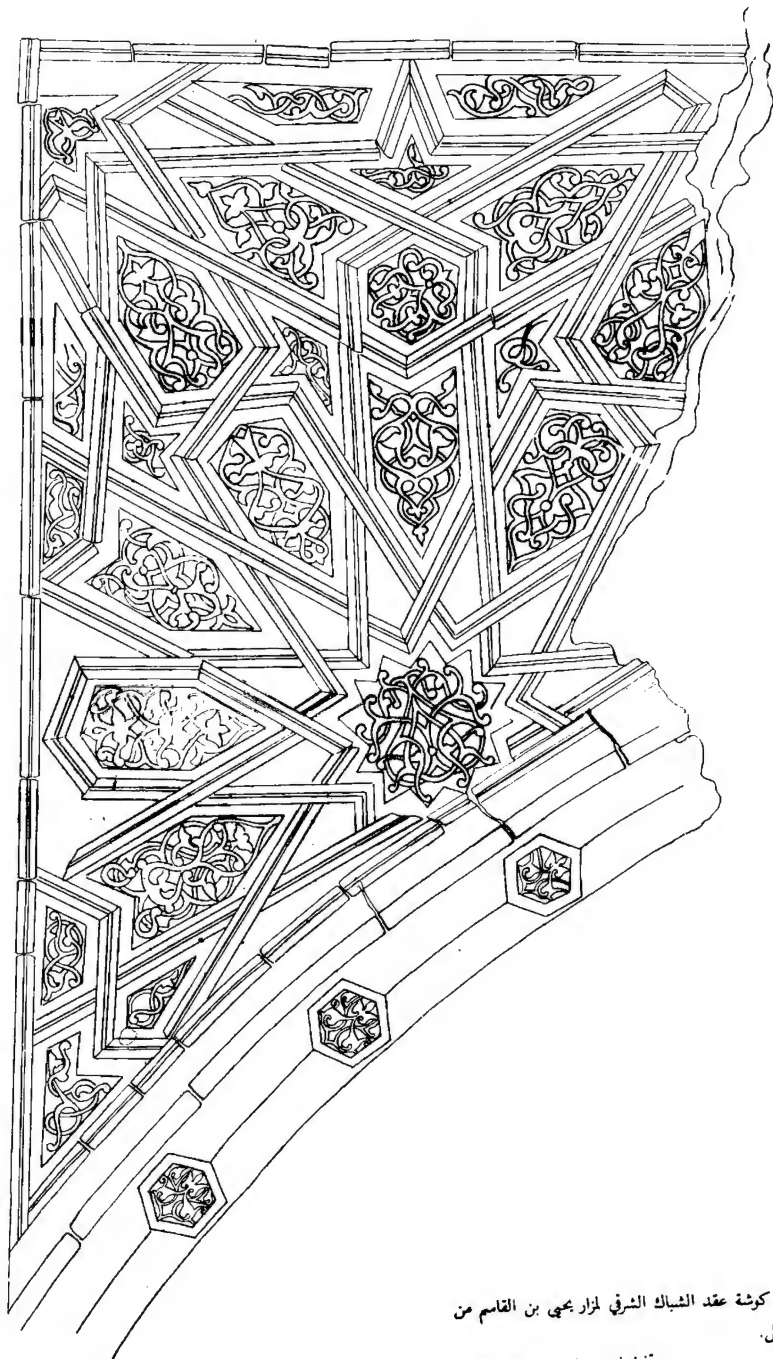
نجمات وأشكال هندسية أخرى (رسم ٣٠)،
والمشكاة الوسطية من كل جانب تكونت وحداتها
الهندسية من تداخل نجومات رباعية نتج عنها نجمة
سداسية ومضلعات سداسية ومعينات ومثلثات.

اضلاعه من الأعلى. (رسم ٢٩) أما زخارف
المشكاتين الجانبيتين العلويتين فتكونت من تداخل
انصاف نجومات رباعية بوضعية افقية ومتعاكسة مما
أدى الى تكوين مضلعات سداسية وانصاف



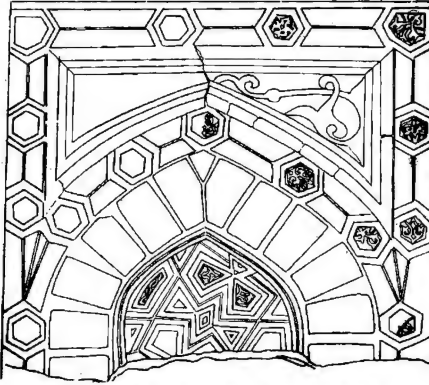
رسم (٢٨) طبق نجمي على الجدار الجنوبي
لزار يحيى بن القاسم في الموصل.

تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

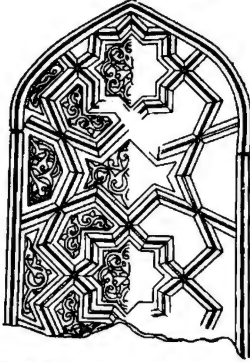


رسم (٢٩) زخرفة كوشة عقد الشباك الشرقي لمزار يحيى بن القاسم من
الداخل.

تخطيط (د. احمد قاسم الجمعة)

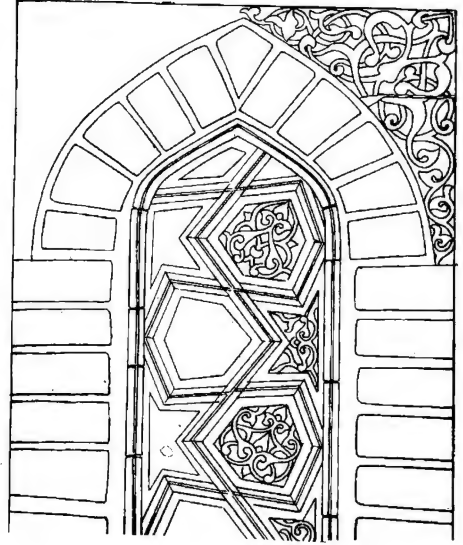


رسم (٣١) زخرفة إحدى المشاكبي السفلية المغلفة على الجدار الشرقي لآزار يحيى بن القاسم من الداخل.



رسم (٣٢) زخرفة مشكاة مغلفة على الجانب الداخلي للشباك الشرقي لآزار يحيى بن القاسم من الداخل. تخطيط (د. أحمد قاسم الجمعة)

ومختصص صدر الشباك فتمثلت فيه زخرفة مستقلة من زخارف التوريق النباتية التي نفذت بمستويين وتعتمد في تكوينها على التناظر التثلي وأهم مظاهرها الفنية حركة الأغصان الحلزونية وقلة رشاقته ووجود الحزوز داخلها والتقرعات داخل الاتصال وخروج العناصر من بعضها أحياناً، ومن أهم عناصرها الأوراق النخيلية والهيئات الدائرية ذات القيعان المجوفة، وهذه الزخرفة من حيث التكوين الزخرفي والعناصر ربما تأثرت بزخارف عقد محراب الجامع الأموي (٥٤٣هـ / ١١٤٨م) وإن كانت الأخيرة أكثر تعقيداً ورشاقة ومتعددة المستويات (صورة ٦، ص ٢٣٧).

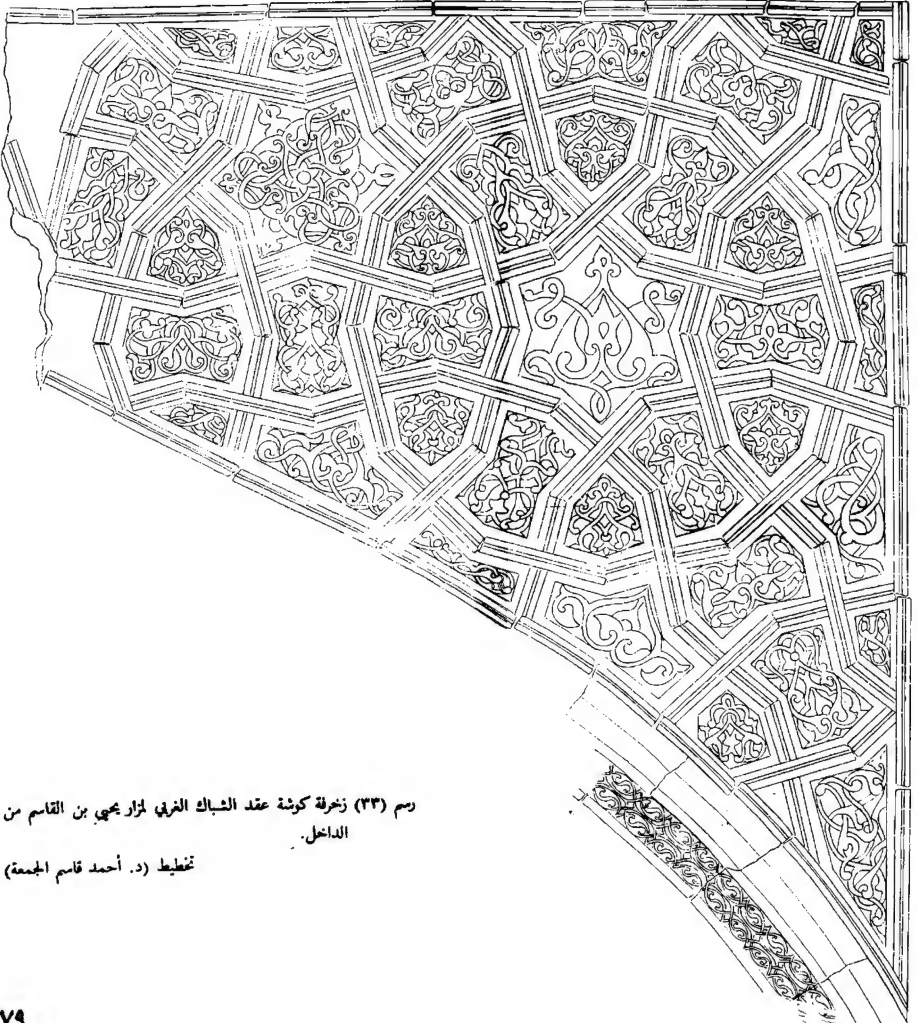


رسم (٣٣) زخرفة إحدى المشاكبي العلوية المغلفة على الجدارين الشرقي والغربي لآزار يحيى بن القاسم من الداخل. تخطيط (د. أحمد قاسم الجمعة)

وقد شغلت وحدت المشاكبي المذكورة بزخارف التوريق العربية المحفورة، وزخرفة كوشات عقود المشاكبي من كل جانب بزخارف التوريق العربية وتتميز بتنفيذها على مستويين وكثرة الالتفافات الحلزونية للأغصان وخروج الوريقات والبراعم منها في أثناء انطلاقها. كما شغلت الوحدات الهندسية في المشاكبي بزخارف من التوريق العربية (الرسم السابق). أما المشكاة السفلى من كل جانب فتكونت زخارفها من تداخل الخطوط العريضة المزدوجة وتكوين بعض الوحدات الهندسية ومن أهمها انصاف المضلعات والأشكال المروحية الثنائية والثلاثية (رسم ٣١). وبالنسبة لزخرفة مشكاة كل جانب داخلي من الشباك فتكونت هي الأخرى من تداخل النجيمات الرباعية والخطوط المنكسرة محدنة وحدات هندسية أهمها النجوم الثمانية والمضلعات والمثلثات التي شغلت بزخارف التوريق العربي (رسم ٣٢).

ذلك الى استحداثات نجمة مركزية . ووحدة سداسية تتصل بكل رأس من رؤوس النجمة ويفصل بينها وحدات ثمانية الأضلاع تتساوى كل اربعة اضلاع متقابلة من اضلاعها . وحفت بها من الخارج وحدة مماثلة ولكن بوضعية رأسية وقد زخرفت جميع الوحدات الهندسية المذكورة بزخارف التوريق العربية (رسم ٣٣) .
واذا استثنينا الاطار المسطح الذي يحف بدائرة

أما الجدار الغربي فلم يبق من معالم المشكاتين السفليتين أي اثر ولهذا شملت زخرفته المشاكي الأربع الباقية وكوشة عقد الشباك . فبخصوص زخرفة المشاكي فإنها تماثل نظائرها في الجدار الشرقي المقابل . أما كوشة العقد فقد اعتمدت زخرفتها على التناظر التمثيلي حيث تكونت في كل جانب من تقاطع مضلع كبير ذو اثنتي عشر ضلعا مع ستة انصاف مضلعات من نفس النوعية وادى



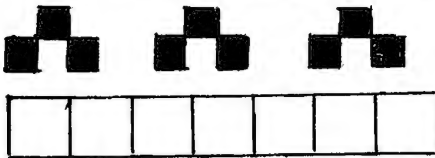
رسم (٣٣) زخرفة كوشة عقد الشباك الغربي لمزار يحيى بن القاسم من الداخل.
تخطيط (د. أحمد قاسم الجمعة)

مسقط دائري للقبّة التي تعلوها. فقد ارتكزت كل طبقة من المقرنصات فوق رؤوس الطبقة التي في اسفلها، ثم شغلت بزخارف معينة الشكل رتبت بصورة متناوبة وبهذا أصبحت العناصر المذكورة تؤدي غرضاً زخرفياً فضلاً عن الغرض المعماري.

خامساً: زخارف مزار الإمام عون الدين (١٢٤٦هـ / ١٢٤٨م):

يقع مزار الإمام عون الدين في الجنوب الشرقي لمدينة الموصل شيدته بدرالدين لؤلؤ سنة (٦٤٦هـ / ١٢٤٨م) وينظر مزار الإمام يحيى بن القاسم من حيث هيئة قبته المخروطية المزدوجة ومحاربه المترو وصندوق قبره الخشبي. وهذه المخلفات الأثرية بالإضافة الى مدخل الحضرة ومدخل المدفن تعود الى عهد البناء الأول.

والذي يعيننا منه تلك القراميد الآجرية التي استخدمت للأغراض الجمالية على الرغم من فقدان معظمها. فهناك في الجدار الشمالي صفا من اثني عشرة قريمة مستطيلة ذات لون شذري تعلو المدخل ويعلوكل قريمة ثلاث قطع مربعة رتبت على هيئة معين (رسم ٣٤). وفي الجزء العلوي من هذا الجدار وإلى جهة الغرب قليلاً يوجد صف من سبعة قراميد مربعة أكبر من سابقتها يعلوكل منها ثلاثة مربعات رتبت على هيئة مثلث. وفي الجدار الشرقي بقايا شريط يتكون من ثلاث معينات متتابعة وربما كان الشريط يدور حول الجدران الأربعة للزائر ثم سقطت معظم قطعه بمرور الزمن، كما أن في الجدار الشرقي أيضاً كسرتين من القراميد تحف بحنية نافذة شكلها غير محدد (٣٩).



رسم (٣٤) قراميد مزججة من مزار الإمام عون الدين (ابن الحسن) في الموصل ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م.

عن (فاروق محمد علي)

عقد الشباك الشرقي والمشكاة السفلية من كل جانب الذي تحلته مضلعات سداسية مزخرفة نجد أن دائرة بقية العقود وكوشاتها قد أطرت بشرط منحوت من الزخارف النباتية المحورة الذي يتكون من تقاطع أربعة اغصان رشيقة تحدث في اثناء انطلاقها مناطق لوزية بفعل اندماجها وابتعادها وتتخلل تلك المناطق اوراق نخيلية احادية الانصال ذات قيعان مجوفة (رسم ٣٣). أما الوحدات الهندسية التي تشغل كوشات العقود وصدور المشكاوات والحشوات التزيينية فذات اطر مشتركة تتميز ببروزها وعرضها البين وازدواجيتها على نفسها نتيجة الحزوز التي تتخللها. وقد شغلت تلك الوحدات والأشكال الهندسية بزخارف التوريق العربية التي تتميز برشاقتها وقطاعها المحدث وتحويرها الكبير عن الطبيعة وخروجها من الأغصان التي تمتد بالتواءات حلزونية وتعدد مستوياتها واعتماد التناظر التمثيلي في تكوين بعضها. وأهم عناصرها المراحل النخيلية والبراعم والأوراق والقيعان المجوفة.

وعلى الرغم من كل ما تقدم قلنا نجد تطابقاً تاماً في زخارف التوريق في الوحدات المتشابهة العائدة لحشوة او كوشة واحدة وهذا يدل على التنوع الكبير الذي يعزى الى سعة الخيال لدى الفنان والابتعاد عن التكرار الممل على الرغم من التمسك بالانسجام والقواسم المشتركة للزخرفة، بالإضافة الى استخدام العديد من الفنانين الذين نفذوا الألوان الزخرفية المتنوعة في مزار يحيى بن القاسم.

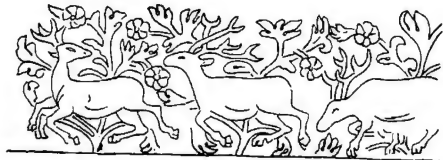
ولم تقتصر الزخارف الآجرية في المزار على الزخارف الهندسية والتزاوج بينها وبين زخارف التوريق العربية وانما تعداها الى الزخارف المعمارية المتضمنة مقرنصات القبّة الداخلية حيث تكونت من طبقات متعددة من الحنايا الصغيرة ذات العقود المدببة والتي تتفاوت في حجمها ودرجة بروزها وهيئة بسبب وظيفتها المعمارية التي ساعدت على تحويل المسقط شبه المربع لقرفة المزار الى

سادساً: زخارف دير مارينام

الهوامش

- (١) الدكتور طارق مظلوم: نماذج من طرق الحفاظ على بعض الفترات الفنية في العراة العراقية القديمة، دورة اصاله المباحث العراقية التخطيطية عند العرب، مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ١٩٨٦، ص ٢.
- (٢) الدكتور تقي الدين: الفخارية في عصور ما قبل التاريخ (حضارة العراق) بغداد ١٩٨٥، ج ٣، ص ١٥.
- (٣) Ceram (C.W.), A picture History of Archaeology, 2nd. Ed. London 1958, p. 253;
- (٤) الدكتور عبدالعزيز حميد: الزخرفة في الآجر (حضارة العراق)، بغداد ١٩٨٥م، ج ٩، ص ٤٠٥.
- (٥) Creswell (K.A.C.), A short Account of Early Muslim Architecture, 1st. Pub. Pelican Books 1958, p. 197;
- علاء الدين احمد العاني: المشاهد ذات القباب القروية في العراق، بغداد ١٩٨٢م، ص ١٢٥، حميد: المرجع السابق، ص ٤٠٩، الدكتور غازي رجب: الأجر في زخرفة العائر في العراق في العصر العباسي، مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد، بغداد ١٩٨٩م، ج ١، ص ٣٥٠.
- (٦) حميد: المرجع السابق، ص ٤٠٩.
- (٧) زكية عمر علي: الخزف الاسلامي الحزق حتى نهاية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، رسالة دكتوراه مقدمة الى كلية الآداب بجامعة بغداد ١٤١١هـ / ١٩٩٠م، ص ١٩، ٢٠.
- (٨) يمينيكون (م.د): فن الفخار صناعة وعلا، ترجمة عدنان خالد واحمد شوكت بغداد ١٩٧٤م، ص ٢٤، ٢٥.
- (٩) عبدالنبي التبري الشال: الخزف ومصطلحاته الفنية، القاهرة ١٩٦٠م، ص ٢٩.
- (١٠) نورين (ف.ه): الخزفيات للفنان الخزاف، ترجمة سعيد حامد الصدر ومراجعة عبدالحاميد بحيري، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١٨٩، علي: المرجع السابق، ص ٢٣، ٢٤.
- (١١) علي: المرجع السابق، ص ٢٤.
- (١٢) المرجع نفسه، ص ٢٦.
- (١٣) يمينيكون: المرجع السابق، ص ١١١.
- (١٤) فاروق محمد علي: القراميد العائرة في العراق الى نهاية القرن السادس عشر، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الآداب بجامعة بغداد ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م، ص ٧-٦.
- (١٥) الدكتور سعاد ماهر: الحصر في الفن الاسلامي، القاهرة، شكل ٢.
- (١٦) حميد: المرجع السابق، ص ٤٠٨.
- (١٧) رجب: المرجع السابق، ص ٣٥٠.
- (١٨) سلمان: المرجع السابق، ص ١٦٤، ١٦٦.
- (١٩) رجب: المرجع السابق، ص ٣٥٠، ٣٥١.
- (٢٠) الدكتور غازي رجب: (المرجع السابق، ص ٣٥٤).
- (٢١) خالد خليل حمودي الأعظمي: الزخارف الجدارية في آثار بغداد، بغداد ١٩٨٠م، ص ٧٩.

يقع الدير على بعد (٣٥) كم جنوب شرق الموصل وهو من الأديرة القديمة بمنطقة الموصل الذي يعود الى القرون الاولى للميلاد ويتضمن العديد من المعالم الأثرية المهمة من مداخل وطاقات وزخارف رخامية وتصاوير جبسية وغيرها. والذي يعنينا منه تلك القطعة الأجرية المزججة المثبتة حالياً في جدار الرواق إلى يمين الداخل الى كنيسة الدير. وقوام زخرفتها ثلاثة ايائل في حالة جري وفزع اذ يلتفت الحيوان الأول الى الخلف للترقب، كما تتميز الحيوانات بقرها من الطبيعة فضلاً عن قوة التعبير وتأكيد الفنان على الحركة الدائرية وتحميد حالة الرعب والاضطراب المسيطر عليها مما يدل على مهارة الفنان والممامه بعلم التشريح وطبيعة الحيوانات. هذا وقد نفذ المشهد على مهاد من الزخارف النباتية ولونت الأيائل ومهادها الزخرفي بلون ابيض في حين لونت الأرضية بلون ازرق داكن (رسم ٣٥).



رسم (٣٥) ايائل على قريمة مزججة من دير مارينام في منطقة الموصل عن (د. أحمد قاسم الجمعة) والملاحظ ان وجود هذه القريمة بوضعها المفرد توحي بأنها دخيلة في موضعها الحالي، وربما كانت تمثل قطعة من شريط من القراميد كان يزين هذا الموضع، أو ربما كانت في مكان آخر ثم نقلت الى موضعها الحالي وقد يجوز انها لا تعود الى الدير أصلاً (٤٠). والمميزات الفنية للحيوانات المثلثة عليها ومهادها الزخرفي واسلوب تنفيذها يوحي بعودة القريمة الى النصف الأول من القرن (٧هـ / ١٣م) (٤١).

Gardner (P.), The Principles of Greek Art, New York 1933, P.231, Fig.71.

(٣٤) مديرية الآثار القديمة : حفريات سامراء ، بغداد ١٩٤٠م ، ج ١ ، لوحة ٣٣ .

(٣٥) علي بهجت والير جبريل : حفريات الفسطاط ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م ، لوحة ٢٢ .

(٣٦) احمد قاسم الجمعة : محارب مساجد الموصل الى نهاية حكم الأتابكة ، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة لجامعة القاهرة ١٩٧١ م ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣٧) هذا وسبق التطرق الى الآثار المذكورة من معارية وبنية في مباحث سابقة عدا الزخارف الآتية التي نحن في مجال التطرق اليها .
(٣٨) خلال العصور العربية الاسلامية .

(٣٨) الأعظمي : المرجع السابق ، ص ٦٤ .

(٣٩) فاروق : المرجع السابق ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٤٠) المرجع نفسه ، ص ٨٢ ، ٨٣ .

(٤١) الجمعة : الآثار الزخامية ، ص ١٤٩ .

(٢٢) المرجع نفسه ، ص ٦٣ .

(٢٣) سلمان : المرجع نفسه ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢٤) المرجع نفسه ص ١٦٨ .

(٢٥) الدكتور احمد قاسم الجمعة : من نفائس الفن المعاري في الموصل ، مجلة الشعب ، العدد الأول ، حزيران ١٩٧٨ م ، ص ٥٦ .

(٢٦) ابن جبير : رحلة ابن جبير ، بيروت ، ص ١٦٨ .

(٢٧) سلمان : المرجع السابق ، ص ١٧٩ .

(٢٨) عادل نجم عبو : القباب العباسية في العراق ، رسالة ماجستير غير منشورة قدمت لجامعة بغداد ١٣٨٥ هـ / ١٩٦٧ م ، ص ٩٧ .

(٢٩) فاروق : المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٣٠) الدكتور احمد قاسم الجمعة : القباب العربية وتطورها خلال العصور العربية الاسلامية ، مركز احياء التراث العلمي العربي بجامعة بغداد ١٩٨٩ م ، ص ٢٣٤ .

(٣١) عبو : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٣٢) تطرقنا الى اصول التزييج في الفنون القديمة والاسلامية لدى تناولنا الزخارف الزخامية .

الزخرفة الجصية

أ. د. عبد العزيز حميد صالح

تمهيد

يكسبون الجدران الداخلية للفاعات والغرف بطبقة رقيقة من الجص الابيض الجيد ثم يرسمون فوقه بعد أن يجف رسومات بالالوان المائية ، وذلك منذ عصر (جمدة نص) على الاقل^(٢) . ونرى انه لا بد من تنبيه القارئ الكريم الى ان الحفائر الاثرية قد كشفت في قلب شبه جزيرة العرب في الآونة الاخيرة عن موقع يعرف بقرية الفاو موقع عاصمة دولة كندة العربية القديمة يتميز بمبان ذات جدران كثيرة منها مكسوة بطبقة سميكة من الجص الابيض الجيد رسم فوقها بالالوان المائية وابتقان بالغ رسوماً نباتية متنوعة واشكال آدمية وصور حيوانات متنوعة^(٣) .

اما ما يتعلق بالحفر على الجص والنقش فيه فقد مارسه العراقيون القدماء ، حيث ترقى اقدم التماذج التي وصلت الينا منها الى القرن الثالث قبل الميلاد

لا ندري متى بدأ الانسان في مزاوله زخرفة البناء ، غير اننا نعتقد ان ذلك يعود الى عصور موعلة في القدم وخاصة في بلاد الرافدين حيث صار لهذا الضرب من الزخرفة مكانة مرموقة عند قدماء العراقيين . ويكني ان نشير الى تلك الزخارف المعارية الرائعة التي كشفت عنها معاقل المتقنين في بعض معايد مدينة الوركاء التي ترقى الى الالف الرابع قبل الميلاد^(١) ، حيث ان واجهاتها قد زينت بضرب من ضروب الفسيفساء وذلك بغرس مخاريط الفخار الملونة بالاصباغ المختلفة مما نتج عنها تشكيلات من الزخارف الهندسية المتنوعة والتي تعتبر بحق اقدم انواع الفسيفساء المكتشفة في العالم لحد الان .

وبالنسبة للزخرفة على الجص فقد كان العراقيون القدماء رواداً فيه كذلك . فكانوا في بادئ الامر

ولعلنا لا نكون مغالين اذا قلنا ان اقصى ما بلغته الحضارة العربية من تقدم كان في العصر العباسي حيث عمت الخيرات في حواضر الاقاليم العربية الاسلامية بعامة وفي بغداد بخاصة . فانصرف الناس الى بناء الدور المريحة الكبيرة والقصور المنيفة وعلى تزيينها وزخرفتها بكل ما وهبهم الله من ذوق وما اوتي الصانع من حذق ومهارة وذكاء .

وشهدت مدينة سامراء العاصمة الكبرى الثانية للدولة العباسية نهضة عمرانية كبيرة ايضاً حتى باتت في بحر بضع سنوات تضاهي بغداد نفسها من حيث العمران والتقدم ان لم تزد عليها . فقد اقبل الناس اقبالا منقطع النظير على بناء الدور والقصور وتزيينها بجميع ضروب الزخرفة والزينة وخاصة الزخارف الجصية حتى بلغت الاستعانة بها درجة من الشيوع اصبحت معها خاصة متميزة من خواص تلك المدينة .

لقد قسم الباحثون الزخرفة في سامراء الى ثلاث مجاميع او طرز متميزة وذلك حسب عناصر كل مجموعة منها واصولها الزخرفية .

الطراز الاول هو اقدم الطرز الثلاثة واقربها الى زخارف الحيرة من حيث العناصر والوحدات الزخرفية من جهة وطريقة تنفيذها من جهة اخرى . الاساس فيها تفريعات نباتية تخرج او تنبت من جوانبها عناقيد واوراق العنب نفذت على نحو بعيد بعض الشيء عن صدق تمثيل الطبيعة ووضعت بعامة ضمن اطر ومدايات (الشكل ١) ^(٨) .

ولا شك في ان للتطور العمراني السريع لسامراء ، وثم ازدياد الطلب على الزخارف الجصية اثرأ واضحاً في تعجيل تطوير الزخرفة وذلك بايجاد طراز جديد لا يختلف عن طراز سامراء الاول من حيث الاعتماد على اغصان واوراق عناقيد العنب الا انه اكثر بساطة وابعد عن الاشكال الطبيعية للعناصر النباتية . (الشكل ٢) ^(٩) .

على الاقل ، هي تلك التي اكتشفت على جدر بعض مباني مدينة بابل العظيمة ^(١٠) .

كما وجدت زخارف جصية منقوشة على جدران القصر الكبير المعروف بقصر الاووين في مدينة آشور ، وهو القصر الذي يعود تاريخ بنائه الى القرن الاول او القرن الثاني الميلادي . ويلاحظ هنا ان الزخارف الجصية قد تطورت وتقدمت الى درجة كبيرة . ومثلها الزخارف الجصية المكتشفة على جدر معبد (كاربوس) بمدينة الوركاء في جنوب العراق والذي يرقى الى القرن الاول الميلادي ^(١١) .

وتشهد العمارات التي ترقى الى العصر الاسلامي المبكر التي كشفت عنها الحفائر الاثرية المنظمة في بعض المواقع الاثرية في وسط وجنوب العراق وخاصة في منطقة البصرة على استعانة الفنانين بالزخارف الجصية في زخرفة المباني والتي تنم عن تقدم كبير وواضح في هذا الحقل من حقول الفنون .

فما كشفت عنه معاول المتقنين في خرائب البصرة القديمة بناء يعتقد انه القصر الذي شيده لنفسه عبيد الله بن زياد عامل الامويين على البصرة ^(١٢) . وقد لوحظ ان الاقسام السفلية من القاعات الرئيسة فيه مزينة بالزخارف الجصية والتي تغلب عليها عناصر نباتية قريبة جداً من اشكالها الطبيعية . وهي في هذا تشبه الى حد كبير الزخارف الجصية التي وجدت تزين عدداً من القصور الاموية في الجهة الغربية من بادية الشام وخاصة الصرح المعروف بقصر هشام في خربة المفجر الواقعة خرابه قرب مدينة اربحا في فلسطين ^(١٣) .

كما كشفت الحفائر الاثرية في الحيرة العربية قرب الكوفة عن عدد كبير من الدور السكنية ترقى الى اواخر العصر الاموي او بداية العصر العباسي شغلت الاقسام السفلية من بعض جدرانها الداخلية بزخارف جصية لا تختلف الا قليلا عما وجد في قصر عبيد الله بن زياد في البصرة .

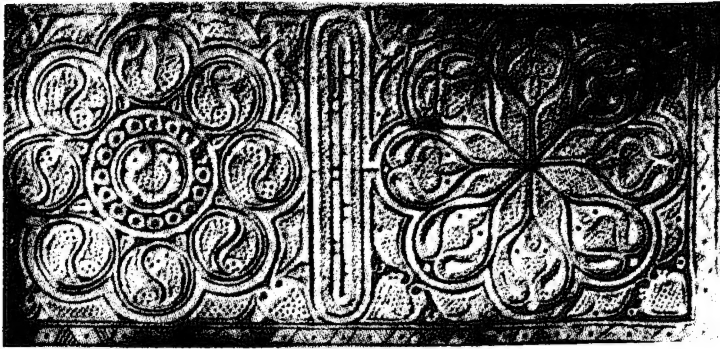
والتقنية. فن مميزات هذا الطراز الجديد الاعتماد على عناصر نباتية أخرى غير ورقة وعناقيد العنب وهي المروحة النخيلية ومشتقاتها ومنها ان العناصر الزخرفية لم تعد تحشر ضمن اطر او داخل مداخلات او حشوات كما هو واقع الأمر مع زخارف الطرازين الاول والثاني ، بل جعلت تلك العناصر والتركيبات في وحدتين تتكرران بالتبادل وبشكل مستمر مما يذكرا بزخارف المنسوجات (الشكل ٣). وما يتميز به هذا الطراز ايضاً هو اتباع الفنانين لتقنية جديدة في ابراز وتجسيم الزخرفة في الجص على نحو مغاير لما كان مألوفاً في كل من الطرازين الاول والثاني وهو ما يعرف بطريقة القطع المائل Bevelled Style حيث نجد ان العناصر الزخرفية يلتقي بعضها ببعض في خطوط منباعدة الى الداخل دون الاستعانة بخلفيات مميزة واضحة وعميقة.

ولم تحض بضعة عقود على تشييد مدينة سامراء حتى انتشرت الاساليب الجديدة للزخرفة في الجص في الاقاليم العربية الاسلامية مثل مصر والشام



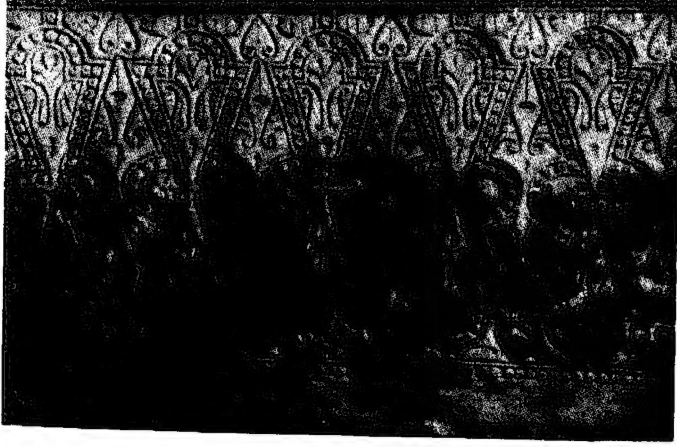
الشكل (١) زخارف الطراز الاول في سامراء *

وفي حوالي منتصف عصر سامراء وربما ايام خلافة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٧ - ٨٦١ م) ابتدع الصانع طرازاً زخرفياً ثالثاً يختلف عن الطرازين السابقين من حيث العناصر الزخرفية



الشكل (٢) زخارف جصية من طراز سامراء الثاني

* يرجى الملاحظة بان الاستاذ ارنست هرتفسلد قد رتب طرز سامراء الثلاثة ترتيباً مغايراً لما يجده القارئ الكريم في هذا البحث. فقد اعتبر ماسميناء نحن طراز سامراء الثالث: الطراز الذي يعتمد بشكل اساس على المزاوح النخيلية والقطع المائل في الحفر (الطراز الاول). ونسب الذي حمل هرتفسلد، كما يبدو، على هذه التسمية، ان اغلب ما كشفته معاول المتبحرين في سامراء كان من هذا النوع حتى انه سماه بـ (طراز سامراء المتمين). اما عن الطراز الذي يعتمد بشكل رئيس على تفرعات العنب من اوراق وعناقيد وحوائق واغصان، فضلاً عن الخلفيات العميقة والذي سميناه بـ (طراز سامراء الاول) فقد اعتبره هرتفسلد (الطراز الثالث). ويبدوان السبب في ذلك هو انه اقل الطرز الثلاثة المكشوفة خلال التنقيبات ال اثرية في سامراء كعبة. لقد سرنا نحن في القسم الجديد لزخارف سامراء المصعبة على خطى الاستاذ كرسويل.



الشكل (٣) زخارف الطراز الثالث في سامراء

وغيرها من الاقاليم .

اما في العراق فيبدو ان اساليب سامراء قد امتدت الى الكثير من المدن فيه غير انه لم نجد بعد من العائر الاثرية الشاخصة في هذا الاقليم ما يرقى الى اواخر القرن الثالث او القرن الرابع الا ما كشفته الحفائر الاثرية في مدينة البصرة القديمة في الالونة الاخيرة من الدور التي ترتقي الى النصف الثاني من القرن الثالث او اوائل القرن الرابع الهجري زين العديد من قاعاتها واولويتها وحجراتها الداخلية بزخارف مشابهة جدا لما عرفته سامراء من الطراز الثاني^(١٠).

ومن الامثلة على انتشار طرز سامراء في العراق ايضاً تلك التي وصلت اليها من تربة خربة تعرف بـ (المشهد) قرب مدينة عنه في اعالي الفرات والذي يرتقي الى القرن الخامس او السادس الهجري (١١-١٢ م). وتمثل اللوحات الجصية هنا عقوداً ذات زخارف محفورة وبارزة وحنايا او محاريب تعتمد الزخرفة فيها كما هو الامر مع طراز سامراء الثالث على المرواح النخيلية الكاملة والمقلوبة والمركبة فضلاً عن انصاف المرواح نفذت بالقطع المائل وهي في هذا تشابه الى حد بعيد مع زخارف الطراز الثالث في

سامراء (الشكل ٤) (١١).

وعلى الرغم من ان الزخارف هنا قريبة جداً لما عرفناه في سامراء فانها أخذت بالابتعاد رويدا رويدا



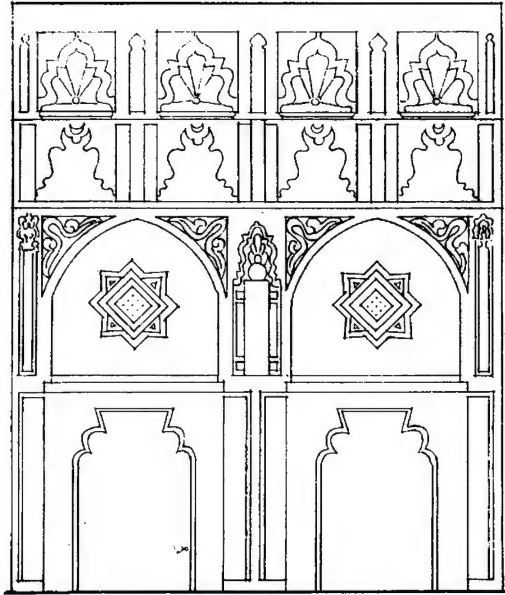
الشكل (٤) لوح جصي مزخرف من مدينة (عنه) ترتقي الى النصف الثاني من القرن السادس الهجري

عن اساليب سامراء ، وان كانت قد حافظت على طريقة القطع المائل في الحفر كذلك في الاعتماد على المرواح النخيلية وتركيباتها . غير ان الصناعات لم يكتفوا في هذه المرحلة بالزخارف التقليدية بل استعانوا الى جانب ذلك بعناصر جديدة ربما من أهمها الوحدات العمارة كالاعمدة المندمجة المتداخلة والمتراكبة والتي غالباً ما كانت تتوج بعقود مفصصة

الامير مسلم بن قريش المستوفي سنة ٤٨٧ هجرية (١٠٨٥ م) ^(١٢). وعلى الأرجح ان البناء قد تكامل بعد وفاته بسنوات قليلة وربما كان ذلك في نهاية القرن الخامس او مع بداية القرن السادس الهجري ^(١٣).

وما يميز هذا المشهد زخارفه الجصية التي لم تقتصر كما كان عليه الامر في سامراء على اسافل الجدران بل صارت تغطي جدرانه الداخلية كلها

او عقود مقصوفة تجمع بين انصاف الدوائر والزوايا القائمة او الحادة فضلا عن الاعتماد على الحنايا المحارية الشكل ، هذه الحنايا التي تحولت في العمارة الاسلامية فيما بعد الى ما يعرف بالدلايات او المقرنصات (الشكل ٥). ولا شك ان افضل الامثلة على ذلك واقدمها هو ما نجده في البناء المعروف بمشهد امام الدور او تربة محمد بن موسى أبن جعفر، المشهد الذي امر ببنائه شرف الدولة



الشكل (٥) صورة تخطيطية للواجهة الجصية الداخلية لمشهد امام الدور

الزخرفة الجصية في الموصل

واذا انتقلنا الى الزخرفة في الحصص في القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢ - ١٣ م) وبخاصة في مدينة الموصل وضواحيها نلاحظ ان الصنائع ما زالوا يعتمدون على العناصر المعمارية في زخارفهم الا انهم استعانوا الى جانب ذلك بالزخارف النباتية المتطورة والتي تعرف بالرقش العربي او التوشيح Anabesque. وربما ان افضل الامثلة على الزخرفة في الحصص التي وصلت اليها من هذه المدينة والتي

تقريبا بما في ذلك باطن قبته المخروطة المفصصة. ومن المباني الاخرى التي تتشابه الى درجة كبيرة مع مشهد امام الدور من حيث الزخارف الجصية خرائب مدرسة الاربعين في تكريت التي ترتقي الى النصف الاول من القرن السادس الهجري ^(١٤) لقد وجد ان مسجد المدرسة ومدخلها وبعض قاعاتها واواوينها مزينة بزخارف جصية تتشابه الى درجة كبيرة مع زخارف مشهد امام الدور المار ذكره.

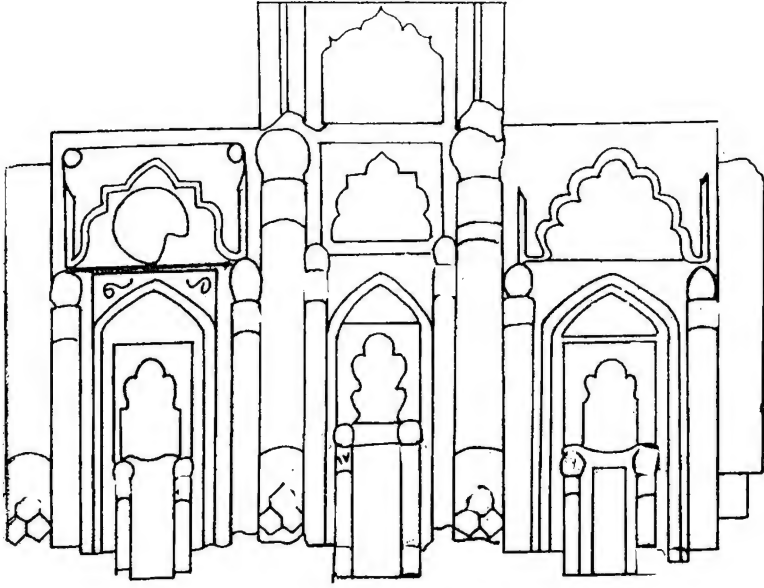
ترجع الى القرن الاخير من العصر العباسي مسجدان جامعان شهيران وهما الجامع الكبير والجامع المجاهدي .

ويعرف الاول ايضا بالجامع النوري نسبة الى الأمر بتشيد السطان نور الدين محمد بن زنكي صاحب الموصل (٥٤١ - ٥٦٩ هـ / ١١٤٦ - ١١٧٥ م) والذي اقيم صرحه بين سنتي ٥٦٦ - ٥٦٨ هجرية . وقد خضع هذا الجامع الى تجديدات واصلاحات عبر القرون غير انه مما يؤسف له حقا ان التجديد الذي تم في سنة ١٩٤٤ م كان جذريا حيث لم يبق من اقسامه القديمة الشاحصة غير مثنته الشهيرة التي تعرف بالحلباء وبعض الزخارف الجصية التي ستطرق اليها والكتابات المنزلة على الرخام التي نقلت الى المتحف الحضاري ببغداد ، فضلا عن الاعمدة الرخامية ذات الابدان المضلعة والتيجان الموشاة بزخارف التوريق العربية والآيات القرآنية^(١٥) اما المحراب الاصلي للجامع النوري فمن المرجح انه كان من الجبس على هيئة مشكاة ذات عقد مقرنص ولم يصل الينا غير صورته الفوتوغرافية^(١٦) في حين ان المحراب الرخامي الذي نقل الى المتحف الحضاري في بغداد من المرجح عودته الى القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي من عهد بدر الدين لؤلؤ استنادا الى تخطيطه وميزاته المعارية والزخرفية والكتابية الشبيهة بمخلفات ذلك العهد^(١٧) . في حين ان المحراب الموجود حاليا في الجامع قد نقل اليه من مسجد قديم وهو محراب اثري جميل مؤرخ من سنة ٥٤٣ هجرية (١١٤٨ م) ثبت عليه اسم صانعه ويتميز بزخارفه الجميلة وشريط كتابي بخط كوفي مزهر نقش على مهد من الزخارف النباتية الدقيقة . ويدل التاريخ المثبت على هذا المحراب انه منقول من جامع آخر سبق زمن تشييد بناء الجامع النوري بقليل . ويظن بعض المختصين انه منقول اصلا من الجامع الاموي في الموصل .

ولابد ان نوضح للقارئ الكريم ان الجدران الاصلية للجامع الكبير قد هدمت بشكل كلي لتشيد بدلا عنها جدران جديدة اقيمت كما يبدو على نفس الاسس القديمة^(١٨) ومن البديهي ان التجديد شمل جدران بيت الصلاة ايضا ، هذه الجدران التي كانت مزينة بالزخارف الجصية الرائعة التي قلما نجد ما يماثلها في العمارات التاريخية القديمة ، وان كانت قد تناقصت بسبب اعمال التجديد المستمر . فعندما جدد بيت الصلاة في سنة ١٩٤٤ م نقص ما تبقى منها ونقل اغلبها الى بغداد حيث اعيد تركيبها على شكل جداريتين معروضتين في احدى قاعات المتحف العراقي .

لقد كانت هاتان الجداريتان في الاصل تعلق بعض اقسام الجدار القبلي من بيت الصلاة . كان موضع التحفة الكبيرة منها فوق المحراب الرئيس تماما ، اي في منتصف جدار القبلة . ويبلغ عرض ما تبقى منها ، وهو المعروض في المتحف العراقي ، حوالي خمسة امتار ونصف ، في حين ان اعلى ارتفاع لها يقارب خمسة امتار .

وقوام الزخرفة فيها ثلاثة صفوف شاقولية من عقود صماء غير نافذة ، يضم الصف الأوسط منها اربعة عقود متراكبة ترفعها اعمدة مندمجة مزخرفة (الشكل ٦) . الأسفل عقد مفصص يتميز بخصوصية معينة قلما نجدها في الفنون الزخرفية الاسلامية التي ترجع الى العصر العباسي قوامه تركيبة كتابية بخط كوفي مسلسل غير منقوط وهي عبارة : "فسيكفيكم الله" وهي جزء من الآية القرآنية الكريمة السابعة والثلاثين بعد المائة من سورة البقرة وهي "فإن آمنوا بمثل ماآمنتم به فقد اهتدوا وان تولوا فأنا هم في شقاق فسيكفيكم الله وهو السميع العليم" (الشكل ٧) . ويستند العقد على عمودين شغلا بزخرفة هندسية متكررة نجد مايشابهها وبشكل متكرر في التحف البرزنية المكثفة بالفضة التي اشتهرت بها مدينة الموصل في



الشكل (٦) صورة تخطيطية للجزء الأكبر من الزخارف الجصية للجامع الكبير في الموصل.

مقتبس من كتاب : نصوص في المتحف العراقي ، المجلد الثامن .

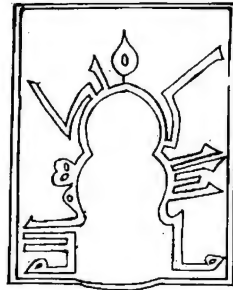
عقد مدبب يشغله شريط من الأغصان المتموجة والحلزونية تنبت منها مراوح نخيلية وأوراق كأسية . ويزين كوشات هذا العقد كتابة كوفية مضفورة صعبة القراءة ربما تتكون من تكرار وقلب كلمة (محمد) .

أما العقد الثالث فهو من النوع المفصص المتطور الذي يجمع بين انصاف الدوائر والخطوط المستقيمة التي يتصل بعضها ببعض بزوايا قائمة او حادة . ويلاحظ انه قد نقشت داخل هذا العقد كلمة بخط كوفي مضفور غير واضحة القراءة ربما تقرأ لفظة الجلالة (الله) او (لله) .

العقد الرابع ، وهو الأعلى في الترتيب ، من النوع المفصص أيضاً وتقتصر زخارفه على اغصان والتواءات تخرج او تنبت منها انصاف مراوح نخيلية وأوراق كأسية وأوراق مدببة صغيرة .

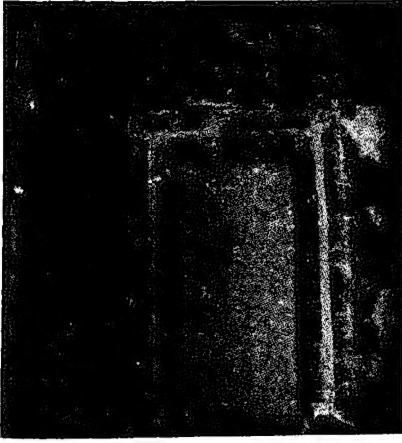
هذا بالنسبة الى الجزء الوسطي من هذه الجدارية ، اما الجزءان الواقعان الى اليمين واليسار

القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢-١٣م) . وشغلت الساحة المحصورة بين هذين العمودين كتابة بخط كوفي مربع يضم اسماء وتعايير قريبة الى قلوب المسلمين تقرأ هكذا :
”محمد ابو بكر عمر علي حسن حسين رضوان الله



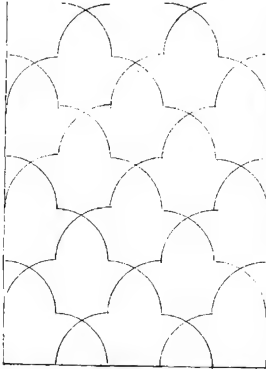
الشكل (٧) شريط كتابي على شكل قوس مفصص ضمن الزخارف الجصية للجامع الكبير في الموصل .

عليهم اجمعين“ .
العقد الذي يليه اي الذي فوق العقد الأسفل



الشكل (٨) الزخرفة الجصية التي كانت تحيط بنافذة من نوافذ بيت الصلاة في الجامع الكبير بالموصل.

مدينة توصل اليها الصانع عن طريق رسم ارباع دوائر تتقاطع ضمن نظام هندسي خاص (الشكل ٩) ويلاحظ ان اطر تلك الحشوات قد شغلت بأغصان ملتوية تثبت منها اوراق نباتية صغيرة لوزية مدينة الرأس (الشكل ١٠). في حين نجد مراوح نخيلية مفصصة وأوراق كأسية رتبت بنسق أخاذ قد شغلت ساحات تلك الحشوات (الشكل ١١).



الشكل (٩) التقسيم الهندسي للزخارف الجصية المحيطة بنافذة بيت الصلاة في الجامع الكبير بالموصل.

د. عبدالعزيز حميد

فتشابهان وفي الوقت نفسه لا يختلفان الا في القليل من التفاصيل عن زخارف الجزء المركزي ، مع ذلك فإنه لم تصل اليها من الجانبين سوى ثلاثة عقود متراكبة بدلاً من اربعة . ومن الاختلافات البسيطة التي يمكن ملاحظتها ان المساحة الواقعة بين العمودين السفليين مشغولة بعناصر نباتية بدلاً من النقوش الكتابية . كما ان ساحة العقد المفصص العلوي والواقع الى اليمين مشغولة بمحشوة دائرية الشكل نقشت في داخلها الكلمتان الكريمتان (الله محمد) بخط كوفي مضفور ومكررة عدة مرات . في حين ان الجزء المشابه من العقد الواقع الى اليسار غفل في الوقت الحاضر من الزخرفة ، ولا شك انها كانت مشغولة في الأصل بالزخرفة ذاتها وربما قد سقطت من الجدار قبل زمن طويل من تاريخ نزوعها من موضعها الأصلي ونقلها الى بغداد .

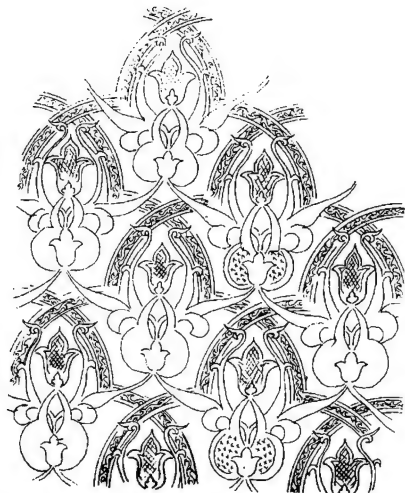
تتميز هذه الجدارية ايضاً بأن ارضياتها اي الخلفيات الواقعة بين العناصر الزخرفية قد طليت بصبغة زرقاء داكنة . ونحن لاندرى متى تم التلوين وليس من المستبعد ان ذلك قد تم بعد تشييد الجامع الكبير وحفر الزخارف الجصية بأمد طويل . القطعة الثانية من زخارف الجامع الكبير الجصية التي وصلت اليها عبارة عن زخرفة كانت تحيط بنافذة من نوافذ بيت الصلاة من جهته القبلية والتي كانت تقع الى يمين المحراب . ان النافذة التي تحيط بها الزخارف مستطيلة ارتفاعها ١,٥٤ متراً وعرضها ٠,٧٥ متراً . غير ان مقدار ما بقي من الزخرفة المحيطة بها متباين . ففي الوقت الذي نجد عرض ما هو موجود منها في الجانب الأيسر ٦٢ سنتيمتراً ، نجد ان ما بقي منها في الجانب الأيمن لا يزيد عن ٣٥ سنتيمتراً . كما ان عرض الزخرفة الممتدة باتجاه السقف هو ٨٠ سنتيمتر ، في حين لم يبق شيء منها من جهتها السفلية (الشكل ٨) . ان قوام الزخرفة في هذه الجدارية ان جاز لنا تسميتها بذلك حشوات او مداليات ذات رؤوس

خاصة فيما يتعلق بالزخارف الجصية في مدينة الموصل فهو بلا ريب الجامع المجاهدي (الجامع الأحمر) الذي فرغ من بنائه في سنة ٥٧٦ هجرية (١١٨٠ م) وذلك بعد تشييد الجامع الكبير (النوري) بست سنوات فقط^(١٩). ومن المعروف ان مجاهد الدين قياز مدبر دولة الأتابكة الانكية ايام حكم السلطان سيف الدين غازي الثاني (٥٦٥ - ٥٧٦ هجرية / ١١٦٥ - ١١٨٠ ميلادية) هو الذي امر ببنائه وعلى نفقته الخاصة.

غير انه اذا كان ماوصل الينا من الزخارف الجصية في الجامع الكبير في الموصل لايشكل الا جزءاً يسيراً مما كان يزين في الأصل الواجهات الداخلية لمجدران بيت الصلاة، فإننا لم نخط بأي شيء منها في الجامع المجاهدي باستثناء المحراب الجصي الكبير الذي يتوسط جدار القبلة في بيت الصلاة. مع ان هذا الجامع قد بهر الرحالة المغربي الشهير احمد بن جبير عند زيارته للموصل في سنة ٥٨٠ هجرية (١١٨٤ م) حيث يكتب بأنه لم ير "وضع جامع احفل منه وبنائه، بقصر الوصف عنه وعن تزيينه وترتيبه"^(٢٠).

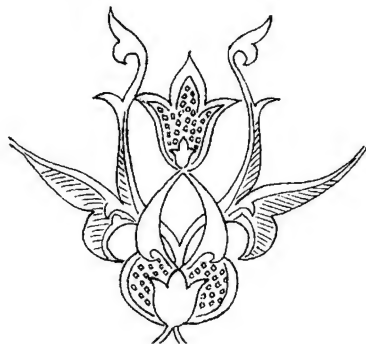
ومهما يكن من امر زخارف الجامع المجاهدي فإنه لمن حسن الحظ ان يصل الينا المحراب الرئيس فيه والذي يعد أكبر المحاريب الاسلامية قاطبة حيث ان ارتفاعه يصل الى مايزيد قليلاً على ستة امتار ونصف المتر وسعة حنيته تصل الى حوالي خمسة امتار، اما عمقه فهو أكثر قليلاً من ثلاثة امتار (الشكل ١٢).

وعلى الرغم من انه لم تبق من زخارفه الأصلية سوى تلك التي تشغل الجزء العلوي المحاري منه فإن زخارفه تشهد على مدى تطور وتقدم صناعة الزخرفة الجصية في الموصل في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي)، فهي تفوق اية زخارف جصية تصل الينا من العراق عبر العصر العباسي



الشكل (١٠) صورة تحليلية للزخارف التي كانت تحيط بناظلة بيت الصلاة في الجامع الكبير بالموصل.

د. عبدالعزيز حميد

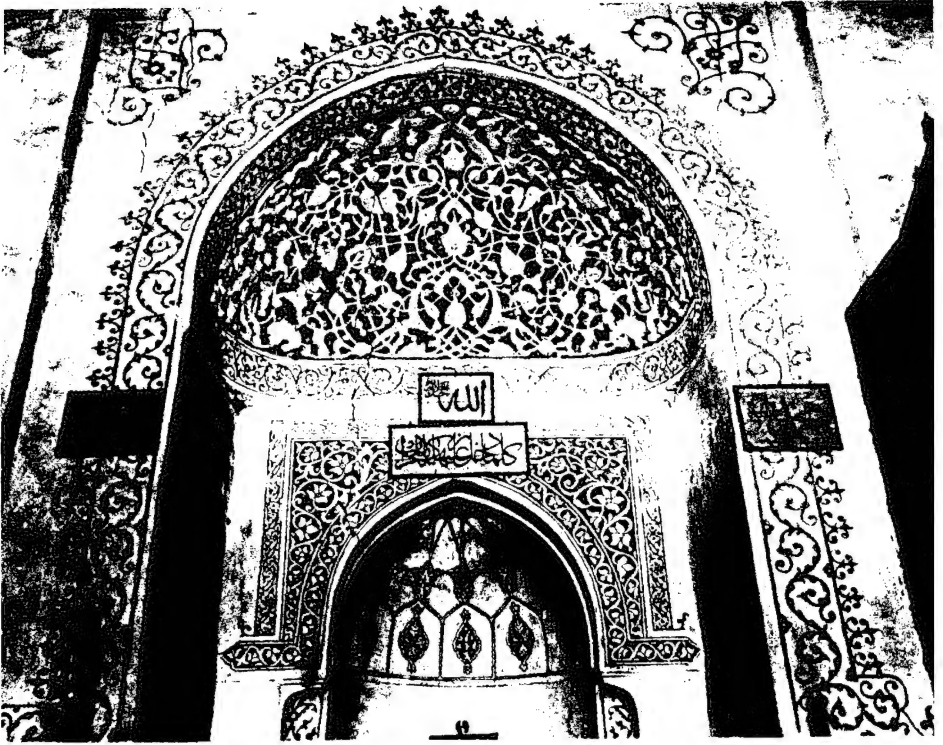


الشكل (١١) مروحة نخيلية مفلوكة ومركبة ضمن الزخارف الجصية للجامع النوري في الموصل.

د. عبدالعزيز حميد

كما يلاحظ ان الفنان قد استعان بالكثير من الوحدات الهندسية الدقيقة والتبانية وبشكل خاص في زخرفة الاطر والأشرطة التي تحيط بالنافذة. وهنا ايضاً نجد ان الفنان قد عمد الى التركيز على موضوع التفاوت الواضح في المستويات والى العناية الفائقة بالتفاصيل الدقيقة.

اما البناء الأثري والترابي الثاني الذي له اهمية



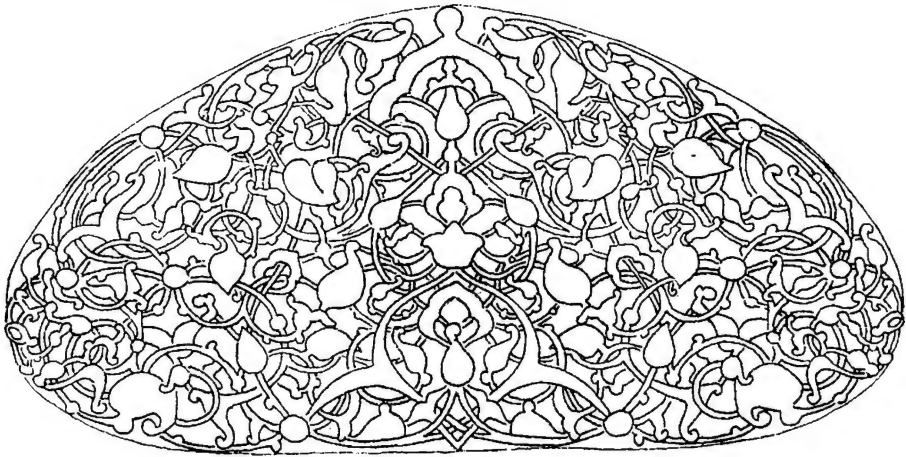
الشكل (١٢) حراب الجامع المجاهدي في الموصل

نباتية دقيقة افغوانية الحركة تنفرع منها مراوح نخيلية صغيرة واوراق كأسية واخرى لوزية الشكل فضلاً عن عدد كبير من انصاف المراوح النخيلية الصغيرة لتغطي السطح الزخرفي بأكمله وبشكل اخاذ لايسطيع المتفرج الا ان يعجب من المهارة الفنية الفائقة التي وهبها الله سبحانه وتعالى للفنان الذي صنعها. فالزخارف هنا وكما سبق ان ذكرنا تمثل قمة ماتوصل اليه الفنانون العرب المسلمون من الابداع والتوفيق في التوزيع الزخرفي.

ومن العارات الاخرى التي وصلت اليها وتضم شيئاً من الزخارف الجصية من التي ترجع الى القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) في الموصل هي ماتبقى من دور المملكة والتي تعرف بقاياها اليوم

الطويل سواء اكان ذلك في دقتها او توافقها وانسجامها، او في التناسق والتأليف الزخرفي، خاصة ونحن نعلم ان الجص مادة هشّة غير طيّعة سريعة الجفاف لاتصلح تماماً لاطهار المهارات والقابليات الفنية العالية (الشكل ١٣).

ان زخارف حراب الجامع المجاهدي هي من افضل ماوصل اليها من نماذج في الرقش العربي Arutesque المتكامل في النقش على الجص. وقوام الزخرفة فيه مروحة نخيلية ثلاثية الفصوص تشغل الجزء الوسطي من السطح الزخرفي، نقشت فوقها واسفلها مروحتان نخيليتان بسيطتان شببيتان بكوزي صنوبر. وتبنت من هذه المراوح النخيلية الثلاث ياّتجاه الجانبين وبشكل متناظر تفرّيعات



الشكل (١٣) تحليل زخرفة المقعد العلوي لغراب الجامع المجاهدي بالموصل (٥٧٢-٥٧٦ هـ)

تحليل (د. احمد قاسم الجمعة)

لا تختلف في شيء عن الرقش العربي الذي عرفناه في العمارات الاسلامية المعاصرة لها. وهناك ايضاً على جدار آخر من جدران الكنيسة في الدير صورة بالجص النائي لاخته سارة ومشاهد جصية اخرى لبعض الموضوعات الدينية المسيحية.

ولابد ان نشير في ختام البحث الى أنه لم يصل الينا من زخارف مدينة الموصل وما حولها الا قدر ضئيل جداً. فإن غالبيتها العظمى قد زالت، إما نتيجة هدم المباني كلياً او بسبب التجديدات المتلاحقة على الأبنية مع الأسف الشديد.

الهوامش

- (١) بسمجي، فرج، كنز المتحف العراقي، بغداد، ١٩٧٢، ص ١٥٢-١٥٣.
- (٢) سعيد، مؤيد، العارة من عصر فجر السلالات الى نهاية العصر البابلي الحديث، حضارة العراق، ٣/ ١٠٠.
- (٣) الأنصاري، عبدالرحمن الطيب، قرية الفاو صورة للحضارة العربية قبل الاسلام في المملكة العربية السعودية، الرياض، ١٩٨٢، ص ٢٤.
- (٤) الصاخي، واثق، العارة في العصر السلوقي والقرني، حضارة العراق، ٣/ ١٩٧.
- (٥) المصدر نفسه، ٣/ ٢٠٨.
- (٦) سلمان، عيسى، وآخرون، العارات العربية الاسلامية في

ياسم (قره سراي). ونحن نعلم ان الذي جددها هو عاد الدين زنكي (٥٢١- ٥٤١ هـ / ١١٢٧- ١١٤٦ م) وقد عني بزخرفتها بمختلف انواع الزخارف الجصية والتذهيب. وما تزال هناك بعض الزخارف الجصية وكتابات بالجص النائي ونحط الثلث تشير الى ان بدر الدين لؤلؤ (٦٣١- ٦٥٧ هـ / ١٢٣٣- ١٢٥٩ م) قد اعاد عازتها وعني بزخرفتها وتزيينها ايضاً وذلك بإشراف مولاه سنبك البدري^(٢١).

ولم تكن الزخارف الجصية في منطقة الموصل في العصر العباسي مقتصرة على العمارات الاسلامية فحسب بل نجد امثلة رائعة منها في الكنائس والاديرة المسيحية. ربما من افضل الأمثلة على ذلك الزخارف الجصية الجميلة التي لا تزال تزين بعض جدران الكنيسة في دير ماربهنام وهو من الديارات الكبيرة للسريان في ظاهر الموصل والذي يبعد عنها بحوالي ٣٥ كيلومتراً باتجاه الجنوب.

لقد مثل في الزخارف الجصية في هذا الدير صورة للقديس ماربهنام ممتطياً صهوة جواده منقوشاً على ارضية من التفرعات النباتية الدقيقة والتي

- (١٤) حميد، عبدالعزيز، عمارة الأرميين في تكريت ، مجلة سومر، مجلد ٢١ ، ١٩٦٥ ، ص ١٣٨ .
- (١٥) الجمعة : احمد قاسم : محارب مساجد الموصل الى نهاية حكم الالاتكة رسالة ماجستير (غير منشورة) القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٨٧ .
- (١٦) المرجع نفسه ، ص ٣٠١ .
- (١٧) حميد، عبدالعزيز، المرجع السابق ص ٦٩ .
- (١٨) التنخي، نجاة يونس محمد، المحارب العراقية منذ بداية العصر الاسلامي الى نهاية العصر العباسي ، بغداد ١٩٧٦ ، ص ١٠٤ .
- (١٩) ديوجي سعيد ، تاريخ الموصل ، الموصل ، ١٩٨٢ ، ١ / ٣٢٨ .
- (٢٠) رحلة ابن جبير، طبعة بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ١٨٨ .
- (٢١) ديوجي سعيد ، مصدر سابق ، ١ / ٣٦٤ .
- (٧) Bramki, D.C., A Guide to the Umayyad Palace at Khirbat al - Mafjar, Amman, 1956, pp. 9 - 10.
- (٨) سفر، فؤاد، التحريات الأثرية في مناطق مشاريع الري الكبرى في العراق ، مجلة سومر ، المجلد ١٦ ، ١٩٦٠ ، ص ١٠ .
- (٩) Hamceed, A.A., Some Aspects in the Evolution of Samarra Stucco Ornament, Sumer, (21), 1965
- (١٠) حسن ، زكي محمد، الفن الاسلامي في مصر ، القاهرة ، ١٩٣٥ ، ١ / ٤٨ - ٤٩ .
- (١١) الغفاري ، داخل مجهول ، مدخل اللور والقصور الاسلامية في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، رسالة ماجستير غير مطبوعة ، جامعة بغداد ، ١٩٨٧ ، ص ١٠٤ .
- (١٢) سلمان ، عيسى وآخرون ، نصوص في المتحف العراقي ، بغداد ، ١٩٧٥ ، ٨ / ٤٤ - ٤٧ .
- (١٣) حميد، عبدالعزيز، الزخرفة في الجص ، حضارة العراق ، ٩ /

الفنون التطبيقية

المسوجات والملابس

أ. د. احمد قاسم الجمعة

وزخارفها وطريقة ارتداؤها ، وملابس كل طبقة في المجتمع من الخلفاء ورجال الادارة ورجال الدين وغيرهم^(١) .

والبحث في موضوع المسوجات والملابس في الفترات الماضية لم يكن سهلاً ، وذلك لكون المسوجات والملابس المصنوعة منها قابلة للتلف اكثر من غيرها من المخلفات المادية ، كما أنها تتأثر بالظروف الجوية القاسية ، كما هو الحال في مناخ العراق القاري المطرف ، فضلاً عن تعرضها للحالات الطارئة كالحريق ، وامكان نقلها من مكان لآخر بسهولة ، والاحتفاظ بها من قبل الاشخاص بعيداً عن المتاحف الحضارية . وقد أدى كل ذلك الى ندرة ما وصل اليها منها خلال

تعد المسوجات والألبسة من أهم الصناعات والفنون التطبيقية في الحضارة ، لأنها من المتطلبات الضرورية التي لا يمكن للانسان الاستغناء عنها ، وتعد من الأدلة المادية البارزة على المستوى الذي بلغته الحضارة ، وعلى الطبقات الاجتماعية وتمايزها ، والثروة ومدادها ، وهي تدل على مدى رقي الصناعات المحلية وازدهار التجارة ومستوى المعيشة ، كما تدل على الأذواق وتطورها . ولأجل ذلك لقيت الالبسة وما يتعلق بها من مسوجات ومواد تدخل في صناعتها اهتماماً من العلماء وخاصة أهل اللغة وأصحاب المعاجم ومؤلفي كتب الأدب وفقه اللغة وكتاب التراجم والمؤرخين ، فأوردوا فصولاً للملابس وأنواعها وانسجتها والوانها

العصور العربية الاسلامية التي تجعل اقلام الباحثين عاجزة عن اعطاء الصورة الكاملة عنها .

ولاجل ذلك اقتصر مصادر البحث على المراجع العربية على الرغم من اقتضاب المعلومات الواردة منها ، وعلى الرسوم المنقذة على المنمنات والتحف الأثرية من معدنية وفخارية وعناصر معمارية بالموصل ، كما سنأخذ بنظر الاعتبار الملابس التراثية التي تختلف بالموصل ومناطقها ، وقد ورد ذكر مايمثلها منذ صدر الاسلام في العراق وبعض الاقاليم الاسلامية انطلاقاً من مبدأ التواصل الحضاري والوحدة التعبيرية للفنون الاسلامية على الرغم من الخصوصية الفنية للأقاليم المختلفة .

ويعد العراق من أهم بقاع العالم التي نشأت فيها بوادر الحضارة الانسانية ومنها الزراعة وتدجين الماشية ذات العلاقة الوثيقة بالنسوجات ، لأن المنسوجات القطنية والكتانية تعتمد على المنتجات النباتية في حين تعتمد المنسوجات الصوفية والحريرية على المنتجات الحيوانية .

وسيوافك البحث بوادر صناعة النسيج والملابس المتعلقة بها في منطقة الموصل في العصور السابقة للإسلام مدخلاً للموضوع ، ثم التعرض بصورة تفصيلية لصناعة المنسوجات ، والملابس من حيث المواد الخام وعملية النسيج ، ونوعية الملابس وطرق صنعها خلال العصور العربية الاسلامية .

فقد اشتهرت بلاد الجزيرة التي تعد قسماً مهماً من منطقة الموصل في تلك العصور بإنتاج المنسوجات القطنية منذ العهد الاشوري الحديث ، فقد ورد اقدم نص مسماري يشير الى زراعة القطن في وادي الرافدين يعود الى عهد سنجاري بحدود (٦٩٤ ق. م) ، وسمى الآشوريون القطن بالشجرة التي تحمل الصوف^(١) .

ويرى البعض ان زراعة القطن دخلت المنطقة منذ ذلك العهد عن طريق الهند^(٢) ، في حين يرى البعض الآخر أن دخوله كان عن طريق مصر^(٣) .

أما الكتان فعرف هو الآخر في بلاد وادي الرافدين منذ العصر السومري^(٤) وصنعت منه الملابس التي اقتصرت على الآلهة والملوك وبعض الكهنة ، مما يوحي بندرتة وأهميته ، وفي العصر البابلي نسجت منه الأزر الرجالية والنسائية^(٥) ، وورد ذكره في العهد الآشوري في رسائل الفترة السرجونية واقتصر على افراد القصر وكبار شخصياته^(٦) .

وعرف الصوف لدى العراقيين منذ عصور ما قبل التاريخ واستخدمه سكان وادي الرافدين في نسج الملابس ، وعرفوا أنواعاً مختلفة من الأغنام^(٧) ، وتمكن الآشوريون من التمييز بين الخراف التي تربي من اجل لحومها عن تلك المخصصة لإنتاج كميات جيدة من الصوف^(٨) . وفي الفترة السرجونية عرف التعبير الذي يشير الى الاغنام بصورة عامة ، وبه ما يشير الى الخراف والماعز ، وكذلك عرف التعبير الرمزي وهو (الاسود) اشارة الى الماعز و(الايض) اشارة الى الخراف . كما اوضحت قوانين حمورابي أهمية الأصواف المستخدمة في الصناعة ومراحلها المختلفة^(٩) . واشتهرت بابل بتصدير الأصواف الجيدة الى الخارج^(١٠) .

وبالنسبة للحرير فقد كانت خيوطه معروفة في مصانع النسيج الآشورية ولهم معرفة واسعة بصناعته^(١١) .

والمعروف أن الموطن الأصلي للحرير هو الصين ، ومنها انتشر الى انحاء العالم ، وكانت بلاد وادي الرافدين منذ القدم حلقة وصل بين الشرق والغرب تمر بها القوافل التجارية الصينية بما فيها الحرير ، كما أن المناخ في العراق يساعد على نمو اشجار التوت^(١٢) التي تعيش عليها ديدان القز المنتجة لخيوط الحرير . ولهذا كان المسلمون ينسجون خيوط الحرير ، وتسمى قبل غزها القز وبعد الغزل الابريسيم وبعد خصلها بالصوف الخز وبعد الصبغ يسمونه الحرير^(١٣) .

مرحلة ندف الالياف بواسطة الورث المشدود والمندق الخشبي لتفتيتها وفصل بعضها عن بعض ، وبعدها تتم مرحلة تمشيط الالياف لتسويتها وتحسين نوعيتها بالمشط الذي يتكون من قاعدة خشبية شبه بيضوية ثبتت فيها مسامير مدببة .

وللحصول على خيوط ناعمة صالحة للنسيج تتم عملية غزل الألياف بمغزل خشبي يتكون من قطعتين عادة هما جسم المغزل ، ويكون مخروطياً تلف عليه الخيوط المغزولة ، والأخرى قرص دائري مثقوب من الوسط يركز عليه جسم المغزل الغاية منه تعيين حركة المغزل وارتيكاز الخيوط المبرومة وتصنع من الخشب . ولقد وجد المغزل منذ العصور القديمة بشكله الحالي ، فالنصوص الاكديّة والآشورية تذكر المغزل من الفخار والمعادن الى جانب المغزل الخشبي^(٢٠) ، كما وجدت رسوم لمغازل مماثلة بأحد مقابر الأسرة الثالثة عشرة ببني حسن في مصر^(٢١) .

ولقد اتخذ علماء الآثار من طريقة برم الخيوط المغزولة دليلاً ملموساً على نسبة أية قطعة نسيج مجهولة المصدر ، واتخذوا نظرية مفادها ان الخيوط المغزولة سواء كانت من القطن أم الصوف او الكتان مايرم منها جهة اليسار كان مصرياً ، ويرمزون اليه بالحرف (S) اللاتيني ، وان الخيوط المغزولة جهة اليمين تكون اسبوية ، ويرمزون اليها بالحرف (Z) ، وعلى هذا الأساس يرمز الى هيئة الفتلة في اغلب منسوجات وادي الرافدين بالحرف (Z)^(٢٢) . وبعد الغزل تلف الخيوط بالدولاب الخشبي والسريس أو الطاغ المخروطي الشكل المعمول من القصب . وتنطبق نفس المراحل التي ذكرناها على ألياف الصوف مع بعض الاختلافات الطفيفة منها انعدام عملية الخلج بالنسبة للصوف لانعدام البذور فيه ويجوب غسله قبل تمشيطه .

اما الكتان فكان هو الآخر يمر بمراحل متعددة منها : قلع نبات الكتان قبل أن يجف بغية الحصول

واستمر انتاج القطن والكتان والصوف والحزير في منطقة الموصل خلال العصور العربية الاسلامية ، وقد دلّ على ذلك ازدهار صناعة النسيج المعتمدة عليها والازياء المصنوعة منها . التي بلغت أوجها في نهاية العصر العباسي في الفترة الاتابكية ، وغدت من اعظم مراكز انتاج النسيج في العالم آنذاك^(١٥) . فقد اورد سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان انه كان في الموصل سنة (٦٥٦هـ / ١٢٥٨م) ، وهو أواخر الدولة الاتابكية تسعائة وثمانى خانة للحياكة وخمسة وسبعون الف جومة^(١٦) واذا كان معدل ما تنتجه الجومة الواحدة في اليوم خمسة أمتار من النسيج المحاك فيكون مجموعة ما تنتجه الموصل في ذلك العهد ثلاثمائة وخمسة وسبعون الف متر مربع في اليوم^(١٧) .

ومن المرجح ان المراحل التي اعتمدت بتهيئة الألياف للنسيج وعملية الحياكة التالية والأدوات المستخدمة في ذلك في منطقة الموصل خلال العصور العربية الاسلامية كانت مشابهة الى حد كبير لتلك العمليات المماثلة التي كان الصناع التطبيقيون يزاولونها في الموصل الى حد قريب ومازالت الأدوات المستخدمة في ذلك يحتفظ ببعضها متحف التراث الشعبي في كلية الآداب بجامعة الموصل كالمغزل ، الطاغ ، والسريس ، والمخلجة والمشط والنول (الجومة) ، والدولاب .

ومن مميزات صناعة النسيج آنذاك تدريب العمال وتدريبهم في سلم المهنة وكانت هذه المفاهيم شائعة قديماً^(١٨) فقد كان يتم تعليم الصناع حرفة النسيج على أيد محترفة تتفنن المهنة جيداً منذ العهد البابلي والآشوري ، أما تنظيمهم فكان يتم ضمن منظمات شبه نقابية يرأسها شخص فدير يلقب بنقيب أو كبير النساكين^(١٩) .

ومن المراحل الاولى التي تجعل ألياف القطن مهيأة للنسيج ، وهي عملية الخلج التي تتم بتنظيف الألياف وفصلها عن البذور بواسطة المخلجة ، وتليها

على خيوط ناعمة ودقيقة ، كما تؤدي هذه العملية الى سهولة تبييضه خلال مراحل التصنيع . وقد استخدم مشط خاص لذلك ، وبعد هذه المرحلة تجمع الاغصان على شكل حزم ، وتترك تحت أشعة الشمس للعمل على جفافها وبياض لونها ، ويجعل خيوطها ممتدة بشكل مستقيم ، ثم يتم الحصول على نسيج ناعم ورقيق ، ثم تليها مرحلة اخرى هي تعرض الاغصان للتفتيح ، وذلك بعد مرحلة التجفيف الاولى ، والهدف من ذلك هو فصل الخيوط من اجزاء الغصن ومن العوالق الترابية وبعد عملية التفتيح المذكورة تجفف الخيوط من جديد بواسطة الشمس أيضاً ، تليها مرحلة تعرض فيها باقات الخيوط المجففة الى دق أو ضرب . وعملية تمشيط ثانية الهدف منها التخلص من بقايا العوالق الخشبية الجافة . ويحصل بعدها على خيوط كنانة جاهزة للنسيج . وتعرض الخيوط أحياناً الى عملية تخليص أخرى من كل العوالق ومنها الألوان الطبيعية وينتج من هذا الحصول على خيوط ذات لون ثلجي ، وتكون ذات ليونة واكثر لمعاناً ، وان تكرار تمشيط هذه الخيوط يسهم اكثر فاكثراً في جعلها اكثر صفاء ونقاءً . وقد وصف ابن البلخي (٥٠٠هـ / ١١١٦م) والمقدسي بعض المراحل السابقة (٢٣) .

وبعد هذه العمليات المتعاقبة تصبح خيوط المواد الخام جاهزة للنسيج الذي يتم بالنول (الجومة) الذي يتكون بدوره من إطار خشبي يركب إما بشكل أفقي أو عمودي ، وتكون أبعاده حسب سعة القطعة المنسوجة وتركب في جهة الخيوط المكونة لسدى النسيج وترتب خيوط اللحمية بتداخلها مع خيوط السداة بإبرة كبيرة من العظم تطورت الى ما يعرف بالمكوك اليوم . وقد شاع استخدامها في شمال العراق حتى وقت قريب . والنول العمودي يتكون من عمودين قائمين المسافة بينهما حوالي نصف المتر . وهناك عمودان

اثنين يريطان العمودين الرئيسيين وتكون المسافة بين هذين العمودين الأفقيين حوالي ٢,٨٠ م ، وضمن الفراغ الحاصل ترتب الخيوط المكونة لاسدية النسيج . وتقرر خيوط اللحمية بالمكوك الذي يكون طويلاً ومديباً ويصنع من الخشب في العادة . ولترتيب خيوط اللحمية وتماسكها استخدم مشط حديد ذو قبضة خشبية أو قطعة خشبية ثقيلة لانجاز العملية .

ويركب النول الأفقي على الارض ، ويستخدم مدوس في الحفرة المعمولة تحت الجومة المركبة على سطحها . وتندل في هذه الحفرة رجلا النساج لاستخدامها في تحريك المدوس . وتعد هذه الطريقة اكثر تعقيداً من النول العمودي . ويتميز هذا النول بإمكان نسج قطع المنسوجات الكبيرة والسميكة ومنها العباءات والسجاد والبسط (٢٤) . والجدير بالذكر أن النول عرف في وادي الرافدين منذ العصر السومري (٢٥) ، وامتد الى العهدين البابلي والآشوري (٢٦) ، وأغلب الظن ان النول العمودي هو الذي شاع في وادي الرافدين منذ أقدم العصور (٢٧) . وفي مصر ظهرت رسوم الأنوال في مقابر الأسرة الحادية عشرة وكانت الأنوال في بداية الامر أفقية واستمرت كذلك حتى دخول الهكسوس مصر حيث استبدلت بالأنوال الرأسية (٢٨) .

ولقد برز في الموصل عدد من اعلام الصناعات الذين مارسوا عملية النسيج خلال العصور العربية الاسلامية ، حتى أنها ارتبطت بهم أو أصبحت أحد ألقابهم وغلبت على اسمهم ، ومثال ذلك الشيخ خير النساج أو الشيخ النساج الذي عاش قبل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي (٢٩) . وكانت هناك عمليات أخرى تعالج بها المنسوجات الموصلية بعد نسجها وحياكتها ، وهي عملية الدق التي تزال ما علق بها من شعر أو خيط وما الى ذلك ، ويكسب النسيج نعومة ولمعاناً ،

وكان للدق خانات ومنها خان الدقاقين الذي كان يقع في محلة حمام المنقوشة من الموصل القديمة. ومن مشاهير الدقاقين هو ابو الفرج الدقاق في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي^(٣٠).

وتعقب عملية الدق مرحلة القصر التي تلازم المنسوجات والثياب البيض عادة لتزيد من نضاعة بياضها. ولزيادة جمال المنسوجات والملابس الموصلة في العصور العربية الاسلامية تنقش بزخارف مختلفة تطبع عليها بقوالب خشبية محفور عليها تلك الزخارف^(٣١) وتطرز بعض الثياب بخيوط ذهبية. وقد اثرت طريقة النقش الموصلي بمناطق اخرى من العالم كبلاد فارس. ومن النقاشين المشهورين في الموصل خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي عز الدين النقاش الموصلي (٦٤٢ - ٧١٠ هـ / ١٢٤٤ - ١٣١٠ م) الذي ادخل هذه الصناعة الى تبريز بعد هجرته اليها في اعقاب نكبة الموصل على يد المغول عام (٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م)^(٣٢). كما اشتهرت الموصل برفو الملابس والمنسوجات التي تصيبها بعض الثقوب لأي سبب كان، ومازالت هذه المهنة ماثلة في المدينة حتى الآن، ومن الرفاقين المشهورين السري الرفاء الموصلي والذي كان من الأدباء المشهورين في زمانه وعاصر سيف الدولة الحمداني^(٣٣).

وقد اشتهرت الموصل بمنسوجات عالية الجودة من الناحية التقنية والفنية حتى ارتبطت باسمها وانتشرت شرقاً وغرباً آنذاك فضلاً عن انتشارها في عدد من الاقاليم الاسلامية.

ويأتي في مقدمة ذلك نوع من النسيج انفردت به الموصل خلال القرون الوسطى وأصبحت له شهرة عالمية عرف عند الأوربيين باسم الموسلين Muslim أو (الموصلي) نسبة الى الموصل. والموسلين ينسج من الحرير الخالص أو من الحرير والقطن، وله ألوان متعددة، ويطرز بالكتابات المختلفة

والزخارف النباتية بخيوط الذهب والفضة، وتتخذ له حواشي مقصبة، وكان هذا النسيج من أتمن ماترتديه نساء الملوك والأمراء وأعيان الناس^(٣٤). ويبدو أن هذا النوع من النسيج كان في الموصل قبل العهد الاتابكي، حيث ورد ذكره في كتاب الف ليلة وليلة^(٣٥). وقد شاهد هذا النسيج في الموصل السائح الاوربي ماركوپولو في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي^(٣٦).

والجدير بالذكر أن لفظة (طرز) أطلقت على ذلك الشريط المتضمن كتابة منسوجة أو مطرزة، كما أطلقت على المنسوجات المزخرفة بهذه الطريقة كما هو الحال في نسيج المسلمين، وكذلك شملت المصانع التي تنتج هذه المنسوجات. وكان لإنشاء دور الطراز في الاقاليم الاسلامية أهمية كبرى عند الخلفاء في العصرين الأموي والعباسي، ونسجت بتلك المصانع التي كان بعضها مقاماً في قصور الخلفاء انفسهم ثياب فاخرة عملاقة بأشرطة الطراز، وجرت عادة الخلفاء على خلع الثياب المطرزة على كبار اصحاب الوظائف مرة في السنة - في الأقل -، وعدت هذه الخلع بمثابة الاوسمة في العصور الحديثة، وكان ينقش اسم الخليفة في شريط الطراز تسجيلاً لحكمه وسلطانه^(٣٧)، ولقد خضعت دور الطراز في العصور الاسلامية لرقابة حكومية مشددة، وربما كان الغرض منها هو حماية المواطنين من الغش في صناعة النسيج، ومع ذلك فاشراف الدولة على معامل النسيج يرجع الى ما قبل الاسلام، فهناك دلائل تفيد أن مثل هذا الاشراف كان متبعاً لدى البابليين والآشوريين وكذلك عند الرومان والبيزنطيين^(٣٨).

ولقد اشتهرت الموصل بنوع آخر من المنسوجات وهو النسيج القطني الرقيق المعروف بـ (الشاش)، فقد انتجت كميات كبيرة منه وكان يتخذ منه سراة القوم واغنياؤهم عمام يزينون بها رؤوسهم، فاذا ما وصفوا رجلاً بحسن البزة أوضحوا أن على رأسه

شاشاً موصلياً ، وقد ورد ذكره في كتاب الف ليلة وليلة وما يدل على أنه انتج منذ العصر العباسي الاول . وكان هذا النسيج مشهوراً بدقته ومئاته ونصاعة يياضه وكان من المنسوجات التي يتأداها الملوك^(٣٩) . وكان يصدر الى مختلف البلدان سواء كان ذلك داخل العالم الاسلامي او خارجه .

ويورد الرحالة ماركوپولو أن النسيج الموصل المذكور كان يصدر الى الصين ، وما أن ماركوپولو كان قد زار الصين في العصر المغولي فهذا يدل على أن شهرة الموصل في المنسوجات قد استمرت لفترة طويلة بعد سيطرت المغول على الموصل . وعرف الشاش الموصل في مصر وسوريا وشمال افريقيا واتخذت منه العمام والطاقيات أو أن يلف حول القلائس . وقد استمر الأمر كذلك في القرن السابع عشر ومابعده فيورد لنا الرحالة نيبور أن اهل اليمن كانوا يلفون حول طاقيتهم قطعة كبيرة من القماش الموصل المسمى بـ (الشاش)^(٤٠) .

والجدير بالذكر أن غزو المغول للموصل أدى الى هجرة الصناع الموصليين ومنهم العاملون في حقل النسيج ، فقد نشروا هذه الصناعة في المناطق التي هاجروا اليها ، ومن امثلتهم عز الدين أبو الفضل الحسن بن الحسين بن يوسف النقاش الموصل (٦٤٢ - ٧١٠هـ / ١٢٤٤ - ١٣١٠م) الذي سكن تبريز ويوسف بن عبد الكريم بن هبيل الموصل الذي اتخذ من اليمن دار اقامة له^(٤١) .

ومن المنسوجات الأخرى التي اشتهرت بها الموصل منذ القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي هي الستور والمسوح ، حيث كانت تحمل من الموصل الى بغداد^(٤٢) . والمسوح عبارة عن كساء مخطط من النسيج الصوفي يفرش ويستتر به^(٤٣) . وفي العهد الاتاكي بلغت صناعة مسوح الموصل من الدقة بحيث أصبحت مضرب الأمثال في الجودة والانتان وتناسق الألوان ، وتوسعت تجارته وكان يعرف بالمقارم ، وربما طرزت حواشيه بغزل

القطن^(٤٤) ، ومازالت بقاياها موجودة عند اهل الموصل ويسمونه بالجاميم^(٤٥) ، كما اشتهرت الموصل بنسيج القطيفة^(٤٦) المعمول من الوير وتحاط منه ملابس النساء ذات الخملة الجيدة والألوان الزاهية .

ولابد ونحن في مجال التعرض لنسيج الموصل ان نشير الى غزل شعر الماعز ونسجه ، وهو من الحرف القديمة في الموصل حيث يرد ذكر سوق الشعارين منذ القرن الاول الهجري . وقد شكلت من شعر الماعز المنسوج بيوت الشعر المستخدمة في البادية ، وكذلك غرائر الشعر التي ينقل بها الفلاحون غلالهم وتستديم لعدة سنين^(٤٧) . كما استفاد الموصلون من وبر الحبال فنسجوا منه انسجة دقيقة الصنع ناعمة الملمس خيطةت منها البرد وبعض الملابس الأخرى التي يرتديها الرجال في الشتاء عادة^(٤٨) .

وقد استفاد اهل الموصل من الياف اغصان القنب لبعض اعمال الحياكة ، وكان النبات يعالج بطريقة خاصة لتهيئة الالياف لهذا الغرض ، ومفادها قلع الاغصان عند نضوجها وقبل أن تجف يربط بعضها ببعض على هيئة حزم ، وتوضع في ماء الانهار بعد وضع كميات من الحجارة فوقها لكي لايجرفها الماء ، وبعد مرور شهر تقريباً تستخرج الاغصان وتجرد من الألياف المحيطة بها ثم تغسل وتجفف وتمشط ، وبهذا تكون مهياًة لأعمال النسيج والحياكة وتستخدم في عمل الحبال وبعض المنسوجات الخشنة .

هذا وكان للنسيج الموصل بأنواعه المختلفة ، ولاسيما الموسيلين منه رواج في التجارة سواء اكان ذلك بين الاقاليم الاسلامية أم البلدان الاجنبية ، فكان يصدر الى مصر وسوريا ويشتره التجار البنادقة ويصدرونه غربا الى انحاء اوربا ، كما كان يصدر شرقا الى الهند والصين وشمالاً الى ارمينيا وربما عن طريق الهند انتقل الى بعض المدن البريطانية في القرن السابع عشر^(٤٩) .

أما ألبسة الموصل خلال العصور العربية الإسلامية فعلى الرغم من تعددها وخصوصية بعضها فإن معظم معلوماتنا المستقاة عنها ترجع الى نهاية العصر العباسي في الفترة الاتابكية وجاءت عن طريق المنمنات المصورة على المخطوطات والصور المنقذة على النقود والتحف المعدنية والفخارية وبعض العناصر المعمارية .

وقد تنوعت تلك الملابس بسبب طبيعة الاقشة المصنوعة منها والفئات التي كانت ترتديها واستعمالها لأقسام البدن المختلفة للانسان كالرأس والبدن والقدم بالنسبة للرجال والنساء .

وتعد العامة في مقدمة ألبسة الرأس من حيث الاهمية والقدم بالنسبة للعراقيين والعرب بصورة عامة ، فقد وجدت منذ العهد السومري وشاعت في العهد الاشوري واصبحت من الالبسة المهمة لطبقة الكهنوت^(٥٠) .

وفي العصر الاسلامي ازدادت أهميتها حيث ورد عن الرسول (ص) انه قال (فرق ما بيننا وبين المشركين العائم على القلائس)^(٥١) وقيل بانها تيجان العرب^(٥٢) . ولأجل ذلك اصبحت العامة لباساً ملازماً للخلفاء في معظم الاحيان^(٥٣) . وكان الفقهاء في الاندلس يلبسون العامة بصورة عامة^(٥٤) .

وقد امدتنا الرسوم المنقذة على التحف الاثرية بأشكال متعددة للعائم في الموصل واسيا خلال القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي واكثرها شيوعاً هي النوع المعروف لدى المعاجم بالكوار او المكورة ، لأنها تتكون من عدة لفات ، وينسدل أحد طرفيها المساة بالذوابة أو العذبة الى الأمام او الخلف أو الاعلى ومثال ذلك العائم التي ظهرت في مصورات المخطوطات المنسوبة للموصل كمخطوط خواص العقاقير (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)^(٥٥) (صورة ١، ص ٢٣٨) .

وربما شاع هذا النوع تيمناً بالعامة المائلة التي

كان الرسول (ص) يتعمم بها ، فقد شوهد على المنبر وعليه عمامة سوداء ، قد أرخى طرفيها بين كتفيه^(٥٦) ، كما ان هذا النوع وجد بمائمه منذ العصر السومري في العراق كما هو الحال في عائم تماثيل جوديا^(٥٧) .

وهناك نوع آخر من عائم الموصل يتألف من شريط ضيق من القماش يلف حول الجزء المتمم لها وهو ماسمي بالقننسة ، مما يمكن من مشاهدة تلك القلائس من خلالها على نحو واضح ، ويبدو أن هذا النوع كان اكثر شيوعاً لدى الحرفيين كالصيادين ، كما يشاهد ذلك في مصورة بمخطوط الترياق للجالينوس من الموصل (٥٩٥هـ / ١١٩٩م)^(٥٨) (صورة ٢، ص ٢٣٨) .

والعامة في العادة بيضاء اللون معمولة من الشاش الموصل ولكنها تعمل ايضا من اقشة اخرى وبألوان متعددة^(٥٩) ، اما طريقة لبسها فكانت تختلف باختلاف الاشخاص والطبقات ، فقد تلبس مباشرة او تلبس على القلائس أو تعمم على الشاشيات^(٦٠) .

وقد وردت عدة اسماء للعامة ذات علاقة بلفها على الرأس والوجه منها اللثام اي جعل العامة على القم واصطلاح الثلثي وهي العامة التي تحيط الرقبة من الامام وتحت الحنك . وذكر ايضا الزوقلة للعامة المرخي طرفيها ، فاذا اديرت على الرأس ولم يسدل أطرافها ولم تلف على الرقبة فانها (القفداء)^(٦١) ، ومن أعطية الرأس ذات العلاقة بالعامة هي التخفيف والرصافية فالتخفيف تشبه العامة الى حد كبير وان كانت اصغر منها ، ولهذا عدها بعضهم عامة صغيرة واطلق لفظ التخفيف الكبيرة على العامة الكبيرة^(٦٢) . واعتبرها البعض الآخر ضرباً من الطاقية^(٦٣) .

وبالنسبة للرصافية فقد وجدت على رأس شخص في مخطوط خواص العقاقير المنسوب الى الموصل على الأغلب (٦٢١هـ / ١٢٢٤م) ، وربما



رسم (٢) قلنسوة بصلية من احدى جامات شمعدان لحامي من صناعة ابن جلدك الموصل (١٢٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) عن (د. صلاح الدين)

إن القلائس المتقدمة تنصف بكونها ملابس ، وهي تخلو من الطيات مما يوحي بأنها صنعت من نوع من المواد غلب عليه الصلابة مثل اللباد او من قماش سميك مبطن من الداخل مما جعلها تأخذ شكلها المذكور^(٧٠) ، كما صنع بعض القلائس من جلد الماعز^(٧١) .

وهناك نوع من القلائس الموصلية البصلية غطيت بالفراء . وتمثل ذلك في صور المخطوطات والتحف المعدنية ومنها مخطوط الترياق (٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م)^(٧٢) (صورة ٢) . وإبريق شجاع بن منعة الموصل (٦٢٩ هـ / ١٢٣٢ م)^(٧٣) . وتوجد قلائس



رسم (٣) قلنسوة كروية من احدى جامات ابريق احمد الذكي الموصل (٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م) المحفوظ بمتحف كليفلاند. رسم (د. أحمد قاسم الجمعة)

اخرى واطئة واقل فخامة تغطي جانبي الرأس ويلاحظ ذلك في صور شمعدان محمد بن فتوح الموصل القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي^(٧٤) (رسم ٤) . ويبدو ان هذا النوع من القلائس كان من الازياء العسكرية التي اتخذت في العصر العباسي^(٧٥) .

التسمية اشتقت من رصافة بغداد وهي شبيهة بالعمامة الى حد بعيد حيث تتألف من عدة لفات ، وتتدل منها عذبة طويلة تنسدل في طيات الى اكثر من نصف الظهر. أما طريقة لفها فهي على هيئة طويلة رأسية ، وتقطع هذه اللفات لفة اخيرة عرضية ذات خطوط بعضها عريض وبعضها ضيق تحصر بينها دوائر كبيرة ، وبعض آخر خطوط متقاربة وذلك باللون الذهبي . اما لون الرصافية فتجمع بين الاحمر الغامق والاخضر المائل للزرقة ،^(٧٤) (رسم ١) .



رسم (١) رصافية في تصويره من كتاب خواص العقاقير عن (د. صلاح العيادي)

اما القلنسوة التي وجدنا بعض العلاقة بينها وبين العمامة فهي الاخرى من ملابس الرأس المهمة^(٧٥) التي تشترك فيها الرجال والنساء على حد سواء . وقد تعددت انواعها في الموصل فمنها ما كان على هيئة بصلية طويلة . كما هو الحال في احدى جامات شمعدان من صناعة ابن جلدك الموصل (٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م)^(٧٦) (رسم ٢) وعلى العتبة العليا لمدخل كنيسة المارحوديني من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي^(٧٧) . وهناك كروية تعرف بالقلائس الطاقية كما يلاحظ في ابريق احمد الذكي الموصل^(٧٨) . (رسم ٣) . والجلدير بالذكر ان القلائس الطويلة استعملت منذ العهد الاموي^(٧٩) .

فئات قليلة من المجتمع وتتخذ هيئة الدن وطولها شبران وقد وجدت على احدى جامات ابريق احمد الذكي النقاش الموصل (١٢٢٣/هـ ٦٢٠م).
 واصبحت من ألبسة القضاة واصبحت لها أهمية كبيرة لديهم لانها تضمني عليهم شيئاً من الهيبة والوقار. وطول الدنية وانعدام طياتها وكونها ملساء



رسم (٦) طويلة في صورة في مخطوط كتاب الترياق (٥٩٥/هـ ١١٩٩ م) المحفوظ في المكتبة الاهلية ببغداد.
 عن (د. صلاح البيدي) يرجح عملها من مادة سمكية تلائم هذه الصفات المذكورة كمادة اللباد (٨٢).

ومن الألبسة الاخرى للرأس الكوفية وهي عبارة عن منديل مربع يلبس ، وقد وجدت على احدى جامات ابريق شجاع بن منعة الموصل (٨٣) (رسم ٧). واشتق اسمها من اسم الكوفة التي كان اهلها في العصر العباسي خير من كان يصنعها. (٨٤)

ويعد التاج من لباس الملوك ، واحيانا يرتديه رجال الحاشية والقصر ، وقد وجد في منطقة



رسم (٧) كوفية في احدى جامات ابريق نحاسي من صناعة الموصل (٦٢٩/هـ ١٢٣٢ م) المحفوظ في المتحف البريطاني بلندن.
 عن (د. صلاح البيدي)

الموصل منذ العهد الآشوري. وفي العصر الاسلامي. (٨٥) وجدت نماذج للتاج المتعدد الحنايا متمثلة على بعض النقود والمخطوطات المنسوبة للموصل تعود للقرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي منها مخطوط الترياق (٨٦) وقد ضرب بالموصل سنة (١٢٢٣/هـ ٦٢٠م) (٨٧).
 ويعد البخق والنقاب والخار والمقنعة من ألبسة



رسم (٤) قلنسوة واطلة في احدى جامات شمعدان نحاسي من صناعة محمد بن فوج الموصل القرن (١٢٣/هـ ٦٢٠م).
 عن (د. صلاح البيدي)

وهناك انواع اخرى من القلانس وجدت في الموصل خلال العصر العباسي اتخذت مسمياتها من هيئاتها المختلفة منها الككة والشاشية والدنية والطويلة .

فالكة هي القلانس المدورة ، وقد وجدت في احدى الجامات المنفذة على شمعدان ابن جلدك الموصل (٧٩) وابريق الذكي الموصل (٧٧). اما الشاشية فتعني قطعة من الشاش الموصل (٧٨) (رسم ٥)، وهي على نوعين الأول يخلو من



رسم (٥) شاشية على تحفة خزفية بجلود القرن (١٢٣/هـ ٦٢٠م).
 عن (د. صلاح البيدي)
 الأشرطة الملتفة حولها ، وكان الامراء وكبراء القوم يتخذونها لأنفسهم ، اما النوع الثاني يحاط بالأشرطة ويستخدم من قبل الخدم والأتباع . ونستنتج من صلابتها انها كانت تبطن لكي تستقيم ولا تصيبها الليونة. (٧٩) اما القلانس الطويلة فقد وجدت في جامعة على قاعدة شمعدان من صناعة الموصل وعلى مصورة من مخطوط الترياق (رسم ٦). ويرتدي الطويلة عادة الفلاحون والصيداؤون وبعض العمال (٨٠). ويبدو من شكلها ان صنعت من قاش سميك يؤهلها لهيأتها الطويلة وتمتظ باستقامتها. (٨١) وبخصوص الدنية فهي من القلانس التي لم تتمكث طويلاً ، واقتصرت على



رسم (١٠) نقاب في احدى جامات ابرق نحاسي من صناعة الموصل
(١٢٢٩ هـ / ١٧٣٢ م) المحفوظ في المتحف البريطاني ر

عن (د. صلاح العبيدي)

أما ملابس البدن في الموصل خلال العصور
العربية الاسلامية فقد تنوعت هي الأخرى من
حيث الاشكال والألوان والمواد المصنعة منها ،
فبعضها استعمله الرجال والنساء على حد سواء
وبعضها اختص بالرجال دون النساء او العكس ،
كما ان بعض الملابس استخدمت ملابس داخلية
وخارجية للبدن في الوقت نفسه .



رسم (١١) قناع في تصوير من مخطوط الترياق

منتصف القرن (١٧ هـ / ١٣ م) المحفوظ في المكتبة الاعلى في فينا .

عن (د. صلاح العبيدي)

فن الملابس المشتركة بين الرجال والنساء
هي : القميص والازار والغلالة والسروال والتبان .
فالقميص من الملابس الداخلية ويمتاز بوجود كمّين
واسعين يهبطان الى المعصم ، ويتدلّى من حاشيته
الى منتصف الساقين .^(١٤) وكان القميص من
الملابس المحببة لدى المسلمين تيمناً باللغة النبوية
الشريفة ، فقد روي عن ام سلمة قالت : (كان
احب الثياب الى رسول الله (ص) القميص)^(١٥) .
وذكر المؤرخون أن قميص رسول الله (ص) كان
قصيراً وقصير الكمين يصل الرسغ^(١٦) . ويرجع
القميص بأصوله وشكله الى العصور القديمة في
منطقة الموصل فقد كان زياً للرجال عند

الرأس الاخرى التي لبسها النساء في الموصل
خلال العصور العربية الاسلامية حيث وجدت على
عدد من مصورات المخطوطات والمتحف المعدنية
الموصلية . فالبخنق هو برقع صغير تلبسه المرأة
وتغطي به رأسها ما قبل وما دبر من غير وسطها ،
وقد وجد في تصويره لمخطوط الترياق^(٨٨) (رسم
٨) . والخار هو القماش الذي يغطي مقدمة العنق



رسم (٨) بخنق في تصوير من مخطوط الترياق حوالي القرن (١٧ هـ /
١٣ م) المحفوظ في المكتبة الاعلى في فينا .

عن (د. صلاح العبيدي)

ويستر الذقن والفم ويتعلق بقمة الرأس^(٨٩) وقد
وجد ضمن احدى جامات طلست احمد الذكي
النقاش الموصلية^(٩٠) (رسم ٩) . والنقاب الذي



رسم (٩) غمار وقلنسوة في احدى جامات طلست نحاسي من صناعة احمد
الذكي الموصلية (٦٣٦ - ٦٣٨ هـ / ١٢٣٨ - ١٢٤٠ م) المحفوظ في
متحف اللوفر بباريس .

عن (د. صلاح العبيدي)

وجد على احدى جامات ابرق الشجاع الموصلية ما
هو إلا برقع يثقب منه موضع العين^(٩١) (رسم ١٠) .
أما المقنعة او القناع فقد وردت بعض أمثله في
مخطوط الترياق^(٩٢) (رسم ١١) ، وطلست احمد
الذكي الموصلية^(٩٣) .



رسم (١٣) إزار وتيان في إحدى جامات شمعدان نحاسي من صناعة احمد الذكي الموصل (١٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) المحفوظ في متحف بوسطن.
عن (د. صلاح العبيدي)

يتخذونه لباساً خارجياً يلبسه فوق الثياب لدى الخروج من البيوت عند الزيارة. (١٠٢) ومنهن من ليسن ازارين مختلفين في الألوان (١٠٣). ومن أشهر الازر آنذاك الازار الموصل الم معمول من الحرير المزركش بالذهب وحاشيته من قصب (١٠٤) بيد ان بعض ازر الطبقات الشعبية والحرفية نسجت من القطن والكتان وربما من القنب (١٠٥). ويلبس الازار بأشكال مختلفة، فيروي عن الرسول (ص) قوله: (إذا كان ازارك واسعاً فتوشع به وإذا كان ضيقاً فأتر به) (١٠٦). ولم يقتصر لبس الازار على ستر العورة فحسب بل وجدناه يضي على صاحبه الهبة والوقار. وما يدلل على أهمية الازار اتخاذه من بين الخلع التي يخلعها الخليفة على من يشاء من رجاله وغيرهم. وكان اللباس الرسمي لقضاة قرطبة (١٠٧)، وأحياناً يستعمل ازاران في آن واحد، يكون اولها لأسفل الجسم، والآخر لاعلاه. (١٠٨) وعلى هذا الأساس فرق دوزي بين الازار والمترز، فالاول يدل على الغطاء الكبير او الرداء الواسع الذي يلتف به نساء الشرق، كما انه يعني نوعاً من الثياب لتغطية الأرداف والعورة. في حين أن المترز يعني قطعة القماش التي تستر العورة او تلبس من السرة الى اسفل (١٠٩).

وقد وضعت ضوابط لارتداء الازار منذ صدر الاسلام منها عدم دخول الحمامات الا بالازر فقد

الآشوريين، وله كان قصيران وفتحة للرقبة ويختلف بالطول (٩٧).

والقمصان التي وصلت الينا على الآثار الاسلامية هي الأخرى مختلفة الطول، وتميز بعضها بفتحات جيوبها الامامية، كما تميز بعضها الآخر بوجود الازرار فيه (رسم ١٢). ووصل الينا من الموصل قصان طويلة تصل الى اسفل الركبتين وتحتها سروال يصل الى اعلى القدمين كما هو الحال في تصويره احدى جامات ابريق الشجاع الذكي الموصل. (٩٨)



رسم (١٢) قبص في تصويره من مخطوط مقامات الحريري (١٢٣٤ هـ / ١٢٣٧ م) المحفوظ في المكتبة الاهلية بباريس.
عن (د. صلاح العبيدي)

اما الازار فهو من الملابس الخارجية والداخلية للبدن لدى الرجال والنساء، فقد وجدت الأزر في تصاوير بعض المخطوطات والتحف المعدنية الموصلية من القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ففي احدى جامات صينية لبدراالدين لؤلؤ يشاهد شخصاً يرتدي ازاراً يبلغ طوله مستوى الركبتين، كما وجد الازار على نفس الغرار على طست الذكي النقاش الموصل. (٩٩) وفي مخطوط الترياق وجد الازار مسبلاً على وسط شخص بعد عقده من الاعلى (١٠٠) (رسم ١٣). ويطلق على هذه العقدة (الحجزة) (١٠١). وقد عرف الازار منذ عصور ما قبل الاسلام واستمر الى عهد متأخر، ولكن الاهتمام به زاد في العصر العباسي ولاحقاً من قبل النساء حيث

روي عن الرسول (ص) قوله : (ستفتح لكم أرض العجم وستجدون فيها بيتاً يقال لها الحمامات فلا يدخلها الرجال الا بالآزر).^(١١٠) كما امر برفع الازار وعدم إيساله ويتضح ذلك من الحديث الشريف : (ارفع ازارك الى نصف الساق فاذا آيت فالى الكعبين وإياك واسبال الازار فانها من الخيلة وان الله لا يحب المخيلة)^(١١١) .

والغلالة تسمى الشعار والغطاية ايضاً^(١١٢) . وفي حالة تكونها من قطعتين تدعى الربطة^(١١٣) . وقد عملت الغلائل في الموصل من نسيج ناعم رقيق من القطن^(١١٤) . وقد لبستها الطبقات المختلفة في المجتمع العباسي وكانت من جملة الخلع التي يخلعها الخلفاء الى غيرهم^(١١٥) .

اما السروال فهو الآخر يعد من ألبسة البدن الداخلية للرجال والنساء . والحكمة من استعماله ستر العورة ما بين السرة والركبة . والمعروف عن السروال الموصلي أنه كان يصنع في الغالب من قماش صوفي يلبسه المترفون فوق السروال القطني في الشتاء ، وربما نقشت اطرافه السفلى بالابرسم^(١١٦) . والسروال ما له حجرة وساقان يتم صنعه بالتفصيل والحياكة^(١١٧) . (رسم ١٤) .



رسم (١٤) سروال ووشاح في غرة مخطوط كتاب الترياق (٥٩٥هـ / ١١١٩م) المحفوظ في المكتبة الاهلية بباريس.
عن (د. صلاح العبيدي)

وقد وجد السروال على الآثار الموصلية من نهاية العصر العباسي ضمن التماوير التي وجدت على بعض العناصر المعيارية^(١١٨) والتحف الفخارية^(١١٩) والمعدنية^(١٢٠) ، ويتميز بطوله الذي يصل القدمين .

والتبان يعد من السراويل القصيرة لستر العورة ، وهو لباس مشترك بين الرجال والنساء . وقد وجدت امثله ضمن الرسوم المكفنة على بعض التحف المعدنية في الموصل من العهد الاتابكي في نهاية العصر العباسي (رسم ١٣) . ومثالها صينية في مدينة ميونخ عليها رجل يرتدي تباناً يتميز بطوله الذي يصل الى ما فوق مستوى الركبتين وهو من النوع الفضفاض وربما صنع من قماش رخيص الثمن^(١٢١) . وهناك تبان امرأة وجدت ضمن رسوم طست الذكي الموصلية وهو من النوع القصير الذي يصل الى اعلى الركبتين^(١٢٢) .

ومن ملابس البدن الخارجية الاخرى التي اوردها المؤرخون او التي ظهرت على المخطافات الأثرية في الموصل خلال العصور العربية الاسلامية هي : الجبة والطيلسان والبث والقباء والمنطقة .

فالجبة وردت ضمن تماوير المخطوطات المنسوبة للموصل ، ومنها مخطوط خواص العقاقير (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) وهي من الجباب الفضفاضة ذات لون بنفسجي^(١٢٣) (صورة ٣، ص ٢٤٣) . والجبة عبارة عن رداء مفتوح يلبس فوق القفطان^(١٢٤) او القميص^(١٢٥) . والقفطان بدوره يكون مفتوحاً من الجهة الأمامية ومزمر من ناحية الصدر وعديم الياقة وله كمان قصيران يصلان الى المرفقين ، وقد يتدلى حتى يبلغ منتصف الساقين ، بل يهبط اكثر من ذلك ويتم صنعه من الاطلس والقטיפه والخممل والحرير^(١٢٦) .

والجبة تعد من نوعية الملابس المفصلة والمخططة ، وكانت ذات اكمام ضيقة في بداية الامر ثم توسعت فيما بعد ، وأصبحت من السعة بحيث

أما البت فهو كساء شبه البطيلسان يصنع من صوف غليظ على العموم (١٣٦) كما دخل الخبز في صناعته لانه من صفاته ان يتخذ من هذين النوعين من النسيج (١٣٧). ولم يقتصر على الرجال فقط وإنما التحفت به النساء أحياناً (١٣٨).

وهيئة البت الموصلي وردت على احدى نسخ مخطوط الترياق (٦٢١هـ / ١٢٢٤م) حيث يشاهد طبيب قد وضع البت على الرأس فوق قلنسوة مدببة الشكل وقد غطى أعلى الجسم، ويتدل على الظهر حتى القدمين تقريباً، وقد أحاط بالرقبة من امام ليتدل احد طرفيه من فوق ذراعه اليمنى والى الاسفل وحتى القدمين حيث ينتهي بنهاية مثلبة الشكل، اما الطرف الآخر فيتدل من خلف ظهره (١٣٩) (رسم ١٦).



رسم (١٦) بت في تصوير مخطوط كتاب الترياق (٦٢١هـ / ١٢٢٤م) المحفوظ في معرض فريد. رسم (د. احمد قاسم الجمعة)

والقباء من الألبسة الخارجية للرجال وان شاركت المرأة الرجل به في بعض الاحيان (١٤٠) واستعمل منذ عهد الرسول (ص) وعم استعماله في العصر الاموي (١٤١) وأصبح من جملة الملابس الرسمية لرجال الدولة العباسية (١٤٢). ويتصف بطوله الذي يصل الارض ومقلاً من الامام بازرار ومقور في موضع الرقبة (١٤٣) (رسم ١٧) وكان مشقوقاً من الخلف وله اكام ضيقة في بداية الامر

تسع لحمل بعض الاشياء فيها سواء بالنسبة للرجال ام النساء (١٢٧). وكان المجتمع العباسي قد ورث الجبة عن اسلافه، فيروى عن الرسول (ص) انه كان يلبس جبة طيالة مكفوفة الجيب والكمين والفرجين بالديباج (١٢٨). واصبحت للجبة ضوابط معينة ومنها عدم السماح بالدخول الى الخليفة الا بعد ارتداء الجبة والعمامة السوداء (١٢٩). وقد اختلفت الجبة من حيث الهيئة والقماش، فجبة الاغنياء تمتاز بطول ذيلها وتتخذ من قماش غالي الثمن (١٣٠) ومنه الخبز والحريس والقطن والصوف (١٣١).

والطيلسان ضرب من الثياب التي تلف الملابس الداخلية كالقميص والسروال وهو بعكس الجبة خال من التفصيل والخياطة (١٣٢). وتتخذ هيئة كساء مدور فوق الكتف او فوق الرأس ويتدل على الجبين فيغطي نصف الوجه (١٣٣) (رسم ١٥) وقد لبسه الرسول (ص) واقتدى به القضاة والفقهاء (١٣٤). وعد مظهراً من مظاهر الهيبة والوقار وكان يستعمل كخلع ولبسه الخلفاء عند حضورهم في المجالس وفي الموكب (١٣٥).



رسم (١٥) طيلسان في تصوير مخطوط مقامات الحريري (٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) المحفوظ في المكتبة الاهلية بباريس. عن (د. صلاح العيني)

وعلى الرغم من ندرة وجود الطيلسان على المتعلقات الأثرية في الموصل فان أهميته وشيوع استعماله في العصور العربية الاسلامية يوحى باستعماله خلال تلك العصور.

أحياناً (الحياسة) (١٥١). وكانت في بعض المناطق في الموصل تصنع من الفضة المطلية بالذهب وأحياناً من الذهب الخالص (١٥٢). وهناك منطقة وجدت على عملة لبدر الدين لؤلؤ تتكون من عدة رقائق صغيرة مستديرة الشكل تتصل ببعضها (١٥٣). وهناك مصورة لمنحوتة على مدخل كنيسة المارحوديني بالموصل يظهر فيها الأمير وقد تمتطى بحزام تدل أطرافه نحو الأسفل (١٥٤) (رسم ١٧). والرداء هو الآخر ورد ضمن الثياب التي شاعت بالموصل واستخدم من قبل الرجال والنساء، ومن أمثلته على الآثار رداء لامرأة منقوش على إبريق الذكي الموصل ويتميز بأكمامه الطويلة وفتحة



رسم (١٨) عامة وجواب في تصويره من مخطوط خواص العقابر (١٢٢١/١٢٢٤) المحفوظ في متحف المتروبوليتان. عن (د. صلاح البيدي) الواسعة، ومحيط بالكين عند الذراعين شريطان مزخرفان (١٥٥) يسمى كل منها عضادة وهي أحد مميزات مدرسة الموصل في التصوير (١٥٦). وقد تفنن القوم في العصر العباسي في تفصيل وتخيطة وزخرفة الأردية حيث كانت مطرزة الحواشي بزخارف نباتية. (١٥٧)

ومن ملابس القدم في الموصل خلال العصور



رسم (١٧) قباء في صورة منحوتة على الفضة العليا للدخل كنيسة المارحوديني في الموصل، من القرن (١٣/١٤) (رسم د. أحمد قاسم الجمعة) غير أنها أخذت بالاتساع في عصر المعتصم واستحدثت شق في بعضها وانعدم الشق في خلفية بعضها الآخر (١٤٤).

واطلقت تسمية القباء العربي الاسلامي على هذا القباء تمييزاً له عن القباء التركي (١٤٥). وتتميز الأقبية التترية بوجود كمرين يلفان الصدر من اليسار الى اليمين وكان هذا بعكس الأقبية التركية التي تلف من اليمين الى اليسار (١٤٦).

ويروى ان ملك الموصل سيف الدين غازي بن زنكي (٥٤١-٥٤٤هـ / ١١٤٦-١١٤٩م) أمر بلبس الأقبية التترية ثم القباء الاسلامي فوق ذلك وأمر ان يشد القباء الاسلامي بالمنطقة (١٤٧). ومن أمثلة الأقبية الموصلية على الآثار ذلك القباء الذي وجد ضمن تصويره لمخطوط التبراق يتميز بزخرفته وفخامته مما يوحي بأنه أحد الأزياء المتقاة للأمرأه ورجال البلاط. وقد طرزت فتحة وفتحة الكمين باللون الذهبي (١٤٨) (صورة ٢، ص ٢٣٨) وكان القباء يصنع بصورة عامة من الصوف والأطلس والحرير وله لون ابيض عادة ويزين بأشرطة باللونين الأحمر والأزرق (١٤٩).

اما المنطقة فتعد من الملابس الرسمية وقد ارتداها الموظفون في دار الخلافة (١٥٠)، وتسمى

الهوامش

- (١) الدكتور صالح احمد علي، الالبسة العربية في القرن الاول المجري، مجلة الجمع العلمي العراقي، المجلد ١٣، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٦م، ص ٤٣، ٤٤.
- (٢) الدكتور وليد الجادر، الحرف والصناعات اليدوية في العصر الآشوري المتأخر، بغداد ١٩٧٢م، ص ١٠٦.
- (٣) سعيد الديوهجي، أعلام الصناعات الموصلة، الموصل ١٩٩٠هـ / ١٩٧٠م، ص ٣٤.
- (٤) فريال داود المختار، المنسوجات العراقية الاسلامية، بغداد ١٩٧٦م، ص ١١.
- (٥) Lutz (H.F.), Textiles and Costumes Among the People of the Ancient Near East, Leipzig 1932, P.62.
- (٦) الجادر، المرجع السابق، ص ١٢١، فريال، المرجع السابق، ص ١١٢.
- (٧) الجادر، المرجع السابق، ص ١١٩.
- (٨) المرجع نفسه، ص ١٢٩-١٣٠.
- (٩) المرجع نفسه، ١٣٨.
- (١٠) المرجع نفسه، ص ١٣١، ١٣٢.
- (١١) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، القاهرة، ج ٢، ص ١٥.
- (١٢) الجادر، المرجع السابق ص ١٠٤، ١٠٥.
- (١٣) فريال، المرجع السابق، ص ١٥.
- (١٤) الدكتور مصطفى جواد، الصناعات والفنون القديمة، مجلة غرفة تجارة بغداد لسنة ١٩٤١م، ص ٨٥٧، فريال، المرجع السابق، ص ٣٨.
- (١٥) سعيد الديوهجي، الموصل في العهد الأتابكي، بغداد ١٩٥٨م، ص ٤٦.
- (١٦) الديوهجي، أعلام الصناعات الموصلة، ص ٣٩، الجادر، اللباس الشعبية في العراق، سلسلة الفنون (١)، بغداد، ص ١٧.
- (١٧) المرجع والصفحة نفسها.
- (١٨) الدكتور نوري خليل البرازي، الصناعة ومشاريع التصنيع في العراق، القاهرة ١٩٦٦-١٩٦٧م، ص ٢٧.
- (١٩) الجادر، المرجع السابق، ص ٣٥، فريال، المرجع السابق، ص ١٠.
- (٢٠) المرجع نفسه، ص ١٥.
- (٢١) نجمة كامل حسين، تأريخ الأزياء وتطورها، القاهرة، ج ١، ص ١٠.
- (٢٢) Kuhnel (E.) Catalogue of Dated Tiraz Fabrics, Umayyad Abbasid Fatimid, Washington 1952, P.102;
- (٢٣) فريال، المرجع السابق، ص ١٦.
- (٢٤) الجادر، المرجع السابق، ص ١١٢-١١٤.
- (٢٥) الجادر، المرجع السابق، ص ١١٥، ١١٦.

العربية الاسلامية الجوارب والنعال والخف. فالجوارب وجدت في صورة لبدر الدين لؤلؤ في مخطوط الاغاني (٦١٥-٦١٦هـ / ١٢١٨-١٢١٩م)^(١٥٨) وتتميز بطولها المتوسط حيث تمتد حتى وسط الساق تقريباً وارضية الجوارب حمراء ومزخرفة بزخارف مذهبة وعملت من قماش غالي الثمن على الأرجح^(١٥٩).

أما أحذية الرجال فيتضح من التصوير التي وجدت على المخطوطات المنسوبة للموصل أنها كانت على نوعين: فالنوع الاول تمثل في مخطوط خواص العقاقير^(١٦٠) (صورة ١) وهو عبارة عن احذية قصيرة وذات فتحة واسعة حيث يظهر النصف الاعلى من القدم مكشوفاً تشبه الى حد ما احذية الرجال الاعتيادية في الوقت الحاضر^(١٦١) (رسم ١٦). والنوع الثاني تمثل في صورة لبدر الدين لؤلؤ في مخطوط الاغاني للاصفهاني^(١٦٢). ويتميز بوجود ساق طويلة تشبه ما يعرف في أيامنا بالجزمة^(١٦٣). كما شاع الخف في العصر العباسي واستعمل من قبل اكثر الطبقات وخلا من الكعبين. وكان من تقاليد ذلك العصر الا يتزع الموظفون بدار الخلافة الخفاف اثناء الواجب والمخالف يعرض نفسه للعقاب الصارم^(١٦٤).

أما معلوماتنا عن لباس القدم لدى النساء فقليلة ومنها الخف، كما لبسن النعال من الجلود والنسيج احياناً^(١٦٥).

وهكذا اتضح لنا مما تقدم ان الموصل اشتهرت خلال العصور العربية الاسلامية بانواع من المنسوجات والملابس التي نالت شهرة واسعة ليس على نطاق الوطن العربي والعالم الاسلامي وإنما على نطاق بقاع اخرى من العالم. وعلى الرغم من حفاظها على التواصل الحضاري بيد أنها تدلل على التطوير والابتكار الذي اصاب قسماً منها بفعل التنوع والتقنية المستخدمة بها.

- (٦٠) المقرري، الخطط والآثار في مصر والقاهرة، القاهرة ١٩٧٠م، ج٢ ص ٥.
- (٦١) الجادر، المرجع السابق، ص ٧٨.
- (٦٢) ماير، الملابس الملكية، ترجمة صالح الشبتي ومراجعة الدكتور عبدالرحمن فهمي محمد، مصر، ص ٣١.
- (٦٣) دوزي، المرجع السابق، ص ١٣٢.
- (٦٤) العبيدي، المرجع السابق، ص ٩٨، ٩٩.
- (٦٥) ابن منظور، المرجع السابق، ج ٧، ص ٦٤.
- (٦٦) Rice (D.S.), Inlaid Brasses Work shop of Ahmed Al— Dhaki Al— Mausili, Ars Orientalis 1957, 11, PP.283—326, Pl.14B.
- العبيدي، المرجع السابق، ص ١٣٩، لوحة ٥٦، شكل ١٥٠.
- (٦٧) الدكتور احمد قاسم الجمعة: الآثار الرخامية في الموصل خلال المهدين الآتابكي والايلاخي، رسالة دكتوراه قدمت لجامعة القاهرة ١٩٧٥م، ص ١٢٣.
- (٦٨) Rice, op. cit., P.294, Fig. 14,
- العبيدي، المرجع السابق، ص ١٤٠، شكل ٥٢.
- (٦٩) صبيحة رشيد رشدي، الملابس العربية وتطورها في العصور الاسلامية، ط١، بغداد ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ٤١.
- (٧٠) العبيدي، المرجع السابق ١٤١.
- (٧١) دوزي، المرجع السابق، ص ٢٩٧.
- (٧٢) ايتكهاوزن، المرجع، ص ٩١.
- (٧٣) صلاح الدين العبيدي، التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي، بغداد ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م، ص ٦٢، لوحة ١٢د.
- (٧٤) العبيدي، الملابس العربية، ص ١٤٤، لوحة ٦٢، شكل ٦٠.
- (٧٥) المرجع نفسه، ص ١٤٥.
- (٧٦) المرجع نفسه، ص ١٥٢، لوحة ٢١، شكل ٥٠.
- (٧٧) Rice, op. cit., P.292.
- (٧٨) دوزي، المرجع السابق، ص ٢٠٢، العبيدي: المرجع السابق، ص ١٠٠.
- (٧٩) المرجع نفسه، ص ١٠٢.
- (٨٠) المرجع نفسه، ص ١١٠، لوحة ٣٣، ٣٢، شكل ٢٩، ٣٠.
- (٨١) المرجع نفسه، ص ١١٢.
- (٨٢) المرجع نفسه، ص ٩٤-٩٦.
- (٨٣) المرجع نفسه، ص ١٥٤، لوحة ٧٢، شكل ٧١.
- (٨٤) الجادر، الأزياء في العراق، بغداد ١٩٨٩م، ص ٩١.
- (٨٥) الجادر، الحرف والصناعات اليدوية، ص ٢٥٩.
- (٨٦) الدكتور حسن الباشا، التصوير الاسلامي في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩م، ص ١٥٠، ١٥١، شكل ١٥.
- (٨٧) العبيدي، التحف المعدنية، ص ٦٤، شكل ١٥.
- (٨٨) العبيدي، الملابس العربية، ص ١٥٩، لوحة ٣٥، شكل ٧٦.
- (٨٩) دوزي، المرجع السابق، ص ١٤٠.

- (٢٥) Lutz, op. cit., P.63
- (٢٦) ديورات، المرجع السابق، ج٢، ص ٢٠٢.
- (٢٧) قرال، المرجع السابق، ص ١٨.
- (٢٨) سند الخادم، الصناعات الشعبية في مصر، مصر ١٩٥٧م، ص ٤٧، ٤٨.
- (٢٩) الهروي، الاشارات الى معرفة الزيارات، دمشق ١٩٥٤م، ص ٧١، الديوبجي: اعلام الصناعات الموصلية، ص ٥٨.
- (٣٠) المرجع نفسه، ص ٥٢.
- (٣١) المرجع نفسه، ص ٤٢.
- (٣٢) المرجع نفسه، ص ٥٤.
- (٣٣) المرجع نفسه، ص ٥٦، ٥٧.
- (٣٤) الديوبجي، الموصل في العهد الآتابكي، ص ٤٦، الجادر: الملابس الشعبية في العراق، ص ١٨، الدكتور عبدالعزيز حميد، النسوجات، حضارة العراق، بغداد ١٩٨٥م، ج٩، ص ٢٧٤.
- (٣٥) الديوبجي، المرجع السابق، ص ٤٦.
- (٣٦) م.س ديمان، الفنون الاسلامية، ترجمة احمد محمد عيسى، مراجعة الدكتور احمد فكري، القاهرة ١٩٥٨م، ص ٦٣.
- (٣٧) ديمان، المرجع السابق، ص ٢٤٩.
- (٣٨) حميد، المرجع السابق، ص ٢٦١.
- (٣٩) الديوبجي، المرجع السابق، ص ٤٨.
- (٤٠) حميد، المرجع السابق، ص ٢٧٤.
- (٤١) الديوبجي، اعلام الصناعات الموصلية، ص ٤٧.
- (٤٢) المرجع نفسه، ص ٣٥.
- (٤٣) الجاحظ، البصرة بالتجارة، مصر ١٣٥٤هـ، ص ٣٣.
- (٤٤) الديوبجي، المرجع السابق، ص ٣٥.
- (٤٥) الديوبجي، الموصل في العهد الآتابكي، ص ٤٧.
- (٤٦) المرجع نفسه، ص ٤٦.
- (٤٧) الديوبجي، اعلام الصناعات الموصلية، ص ٥٠.
- (٤٨) المرجع نفسه، ص ٤٩.
- (٤٩) الديوبجي، الموصل في العهد الآتابكي، ص ٥٠.
- (٥٠) الجادر، الحرف والصناعات، ص ٢٦٣.
- (٥١) ابوداؤد، صحيح سنن المصطفى، بيروت، ج٢، ص ١٧٨.
- (٥٢) ابن منظور، لسان العرب، مصر، ج١٥، ص ٣٢٠، الجاحظ، البيان والبيان، القاهرة ١٩٣٨م/ ٣، ص ٦٢.
- (٥٣) العبيدي، الملابس العربية الاسلامية، ص ١١٥.
- (٥٤) دوزي، المعجم المفضل باسماء الملابس عند العرب، ترجمة الدكتور اكرم فاضل، بغداد ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ص ٢٥١.
- (٥٥) ايتكهاوزن، فن التصوير عند العرب، ترجمة الدكتور عيسى سلمان وسليم طه التكريتي، بغداد ١٩٧٤م، ص ٦٨، ٧١.
- (٥٦) ابوداؤد، ج٢، ص ١٧٨.
- (٥٧) الجادر، المرجع السابق، ص ٢٦٣.
- (٥٨) ايتكهاوزن، المرجع السابق، ص ٩١، العبيدي: المرجع السابق، ص ١٨٧، لوحة ٣٥، شكل ٣٨.
- (٥٩) دوزي، المرجع السابق، ص ٢٥١.

- (٩٠) العبيدي، المرجع السابق، ص ١٦٤، لوحة ٨١، شكل ٨٣.
- (٩١) المرجع نفسه، ص ١٥٦، لوحة ٧٢، شكل ٩٨.
- (٩٢) المرجع نفسه، لوحة ٣٥، شكل ٩٢.
- (٩٣) المرجع نفسه، لوحة ٨١، ٨٣.
- (٩٤) دوزي، المرجع السابق، ص ٣٠٠.
- (٩٥) إيروادو، المرجع السابق، ج ٢، ص ٣٢.
- (٩٦) الجادر، الأزياء الشعبية، ص ٣٨.
- (٩٧) تحفة كامل حسين، تأريخ الأزياء وتطورها، القاهرة، ج ١، ص ٦٨.
- (٩٨) العبيدي، المرجع السابق، ص ٢٠٣، ٢٠٥.
- (٩٩) Rice, op. cit., P.306, Pl. 6a
- (١٠٠) العبيدي، الملابس العربية، ص ١٨٦.
- (١٠١) صبيحة، المرجع السابق، ص ٥٤.
- (١٠٢) الجادر، المرجع السابق، ص ١٣.
- (١٠٣) ابن الجوزي، اخبار الحمقى والمغفلين، بغداد ١٩٦٦م، ص ١٧٧.
- (١٠٤) الجادر، المرجع السابق، ص ١٨.
- (١٠٥) العبيدي، المرجع السابق، ص ١٨٥.
- (١٠٦) الدكتور احمد صالح العلي، الالبسة العربية في القرن الاول الهجري، مجلد ١٣، ص ٤٨.
- (١٠٧) العبيدي، الملابس العربية، ص ١٨٣.
- (١٠٨) المرجع نفسه، ص ١٨٦.
- (١٠٩) دوزي، المرجع السابق، ص ٤٠.
- (١١٠) إيروادو، المرجع السابق، ج ٢، ص ١٧٠.
- (١١١) المرجع نفسه، ج ٢، ص ١٧٩.
- (١١٢) الجادر، الأزياء، ص ١٣.
- (١١٣) ابن الجوزي، المرجع السابق، ص ١٧٧.
- (١١٤) الجادر، المرجع السابق، ص ١٨.
- (١١٥) العبيدي، المرجع السابق، ص ١٨٥.
- (١١٦) الجادر، المرجع نفسه، ص ٣٦.
- (١١٧) العبيدي، المرجع السابق، ص ١٩٦.
- (١١٨) الجمعة، المرجع السابق، ص ١٢٢.
- (١١٩) الدكتور طلعت الياور، الحجاب الفخارية المكتشفة في قلعة باشطاية، آداب الوافدين، ص ٩٢.
- (١٢٠) العبيدي، المرجع السابق، ص ٢٠٥، لوحة ٧١.
- (١٢١) المرجع نفسه، ص ١٩٠.
- (١٢٢) المرجع نفسه، ص ٢١٥، لوحة ١١٩.
- (١٢٣) إيتكهاوزن، المرجع السابق، ص ٦٩.
- (١٢٤) دوزي، المرجع السابق، ص ٩٤.
- (١٢٥) صبيحة، المرجع السابق، ص ٥٧.
- (١٢٦) دوزي، المرجع السابق، ص ١٣٤.
- (١٢٧) الجادر، الأزياء، ص ٧١.
- (١٢٨) إيروادو، ج ٢، ص ١٧٥.
- (١٢٩) جرجي زيدان، تأريخ القطن الاسلامي، ج ٣/ ٦٠٩.
- (١٣٠) الشابنتي، العيارات الى معرفة الزنرات، بغداد ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م، ص ٢٩، العبيدي: الملابس العربية، ص ٢٤١.
- (١٣١) صبيحة، المرجع السابق، ص ٥٩.
- (١٣٢) العبيدي، المرجع السابق، ص ٢٦٩.
- (١٣٣) الجاحظ، البيان والتبيين، ج ٣، ص ٢٨٧.
- (١٣٤) صبيحة، المرجع السابق، ص ٦٠.
- (١٣٥) الجادر، الأزياء، ص ٦٨، ٦٩.
- (١٣٦) ابن سيدة، التخصيص، بيروت، ج ٤، ص ٧٩.
- (١٣٧) العبيدي، المرجع السابق، ص ٣١.
- (١٣٨) صبيحة، المرجع السابق، ص ٥٠.
- (١٣٩) العبيدي، المرجع السابق، ص ٢٣١، لوحة ١٣٠.
- (١٤٠) المرجع نفسه، ص ٣٠٥.
- (١٤١) جرجي زيدان، تأريخ القطن الاسلامي، القاهرة ١٩٣٥م، ج ٣/ ص ٦٠٩.
- (١٤٢) صبيحة، المرجع السابق، ص ٥٦.
- (١٤٣) دوزي، المرجع السابق، ص ٢٨٥.
- (١٤٤) صبيحة، المرجع السابق، ص ٥٦.
- (١٤٥) الجادر، الأزياء، ص ٤٧.
- (١٤٦) ماير، المرجع السابق، ص ٤١.
- (١٤٧) الجادر، المرجع السابق، ص ٤٧.
- (١٤٨) إيتكهاوزن، المرجع السابق، ص ٩١، العبيدي: المرجع السابق، ص ٢٨٥.
- (١٤٩) ماير، المرجع السابق، ص ٤١.
- (١٥٠) العبيدي، المرجع السابق، ص ٢٩٤.
- (١٥١) ماير، المرجع السابق، ص ٣٥، الجادر: المرجع السابق، ص ٤٧.
- (١٥٢) المرجع نفسه، ص ٤٧.
- (١٥٣) العبيدي، المرجع السابق، ص ٢٩٥، لوحة ١٥٣.
- (١٥٤) الجمعة، الآثار الزخامية في الموصل، ص ١٢٢.
- (١٥٥) العبيدي، المرجع السابق، ص ٣٠١.
- (١٥٦) الجمعة، المرجع السابق، ص ١٢٢.
- (١٥٧) العبيدي، المرجع السابق، ص ٢٦٣.
- (١٥٨) إيتكهاوزن، المرجع السابق، ص ٦٥.
- (١٥٩) العبيدي، المرجع السابق، ص ٣١٥.
- (١٦٠) إيتكهاوزن، المرجع السابق، ص ٧١.
- (١٦١) العبيدي، المرجع السابق، ص ٣١٦، لوحة ٣٨.
- (١٦٢) إيتكهاوزن، المرجع السابق، ص ٦٥.
- (١٦٣) العبيدي، المرجع السابق، ص ٣١٧، لوحة ١٧.
- (١٦٤) المرجع نفسه، ص ٣١٩، ٣٢٠.
- (١٦٥) المرجع نفسه، ص ٢٣٣.

الدكتور صلاح حسين العبيدي

كان يبعث في كل سنة الى مشهد علي (رض) قنديلاً ذهباً زنته الف دينار^(٢).

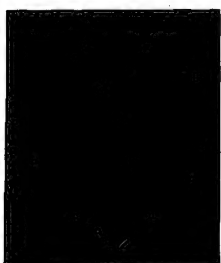
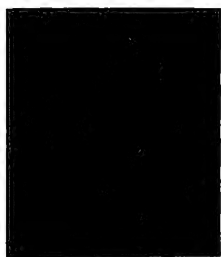
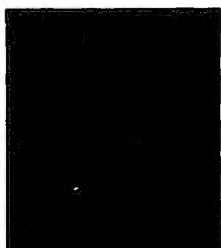
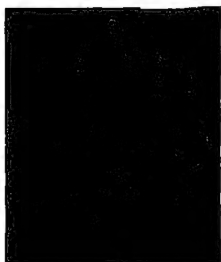
لقد وصلت الينا مجموعة من التحف المعدنية تؤيد اشتغال الموصل والموصلين بصناعة المعادن وهي علب واباريق وشماعد وطشوت وآلات فلكية وزهريات وصناديق وغيرها موزعة على معظم متاحف العالم ولكنّها يتعذر علينا تناول دراستها في هذا البحث الا اننا سنشير الى نماذج منها ليطلع القارئ على الصورة التي كانت عليها هذه الصناعة. ففي متحف بناكبي بأثينا علة من البرونز مؤرخة في سنة ٦١٧هـ - ١٢٢٠م من صناعة [اسماعيل بن ورد الموصل] والعلبة بيضوية الشكل وتزين العلبة زخارف قوامها عناصر كتابية وهندسية ونباتية مكفّنة بالفضة. ويزين بدن العلبة كتابة دعائية كما تتضمن اسم الصانع وتاريخ الصناعة ونص الكتابة «نقش اسمعيل بن ورد الموصل تلميذ ابراهيم بن مواليا الموصل وذلك في شهر جمادى الاخر سنة سبع عشرة وستمائة». وعلى سطح الغطاء الداخلي نجد كتابة أخرى بخط النسخ تتضمن اسم الصانع ايضاً تقرأ كالآتي «نقش اسمعيل بن ورد الموصل»^(٣).

وفي المتحف البريطاني بلندن علة دائرية الشكل وهي مصنوعة من النحاس الأصفر وزخارفها وكتابتها مكفّنة بالفضة والكتابة التي تزين هذه القطعة كتابة تتضمن اسم بدر الدين لؤلؤ^(٤) وألقابه.

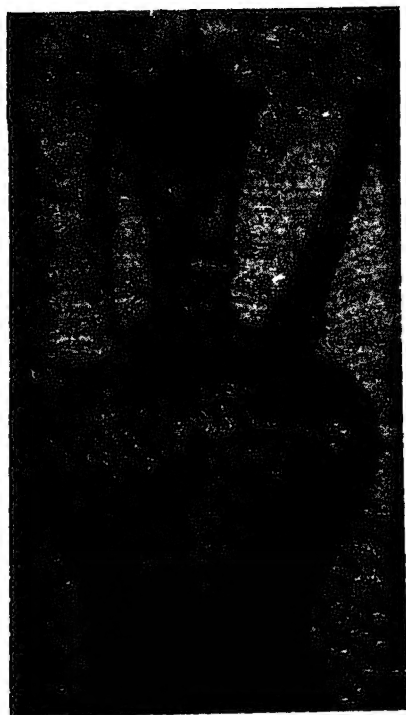
وننتقل الآن الى الحديث عن نوع آخر من التحف المعدنية الموصلية وهي الأباريق، وأقدم هذه الأباريق ابريق احمد الذكي الموصل الذي يحمل تاريخ صنعه وهو سنة ٦٢٠هـ - ١٢٢٣م (شكل ١) وهذا الابريق معروض الآن في متحف

لقد حققت الموصل خلال العصر العباسي مكانة متميزة تجلّت في نشاطها الحضاري والفني والاقتصادي والصناعي والثقافي وتبوأت الموضع الذي وضعها في مركز حضاري حقق لها الشهرة التي تستحقها والحركة الصناعية والفنية التي ازدهرت في رحابها، حتى أصبحت من أهم المراكز على امتداد قرون متعددة، ولا بد أن يكون هذا الجهد الفني والصناعي نابعاً من نشاط أهلها وقدرتهم الفنية وبراعتهم في اتقان الحرف والصناعات التي اقترنت باسماء صناعاتها وأماكنها وأخذت شهرتها في نطاق الصناعات المعروفة بعد ان بقيت مهارة الموصلين في الصناعة مثار إعجاب الامم وهم يقفون على فنونها الزخرفية ويطلعون على البراعة الفذة في مختلف الصناعات، والتحف المعدنية تقف في مقدمة هذه الصناعات، فقد ترك الفنانون والصناع نتاجاً ضخماً من التحف المعدنية وهي نتاج ضخّم دخلت فيه الزخارف الخطية والنباتية والهندسية ورسمت الكائنات الحية التي وجدوا فيها تعبيراً مناسباً، وقد امتاز كل فن من هذه الفنون بالدقة والبراعة والتنوع وجمال الزخرفة وهي تجمع الى كونها سلعة للاستعمال اليومي أنها في كثير من الاحيان يضفي عليها الجانب الفني. وقد وصلت صناعة التحف المعدنية على ايدي الموصلين الى درجة عظيمة من الاتقان وساروا بها قدماً ولم يقفوا عند انتاج مادرجوا عليه بل اخذوا يبتكرون طرقاً جديدة في الزخرفة، فقد طفت شهرة مدينة الموصل على جميع المراكز الصناعية الاخرى، يقول الرحالة ابن سعيد في رحلته الى الجزيرة والعراق والموصل سنة ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م «ان مدينة الموصل كانت فيها صنایع جمّة لاسیاً أواني النحاس المطعم التي كان يحمل منها الى الملوك»^(٥). ويقول ابن كثير في حوادث سنة ٦٥٦هـ - ١٢٥٨م ان بدر الدين لؤلؤ

بالفضة. ويزين الرقبة عدد من الأشرطة الأفقية
منها شريط يحتل أسفل الرقبة عليه كتابة نسخة
على خلفية نباتية تتضمن اسم الصانع وتاريخ
صناعة الأبريق يقرأ كالآتي «عمل عمر بن الحاجي
جلدك غلام أحمد الذكي النقاش الموصل في سنة
ثلاث وعشرين وستماية»^(١).



الشكل (٢)



الشكل (١)

كليفلاند وهو مصنوع من النحاس الأصفر تزيينه
زخارف وكتابات مكفنة بالفضة. ومن النصوص
الكتابية المهمة في هذا الأبريق النص الذي يحتل
أسفل الرقبة وهو يتضمن اسم الصانع وتاريخ
صناعة هذا الأبريق ونصها «عمل أحمد الذكي
النقاش الموصل في سنة عشرين وستماية والعز
لصاحبي»^(٥).

أما البدن فإنه يضم عدداً من الأشرطة الأفقية
وهي ذات رسوم آدمية وحيوانية وزخارف نباتية
وكتابية. أما الرسوم الأدمية والحيوانية فإنها تمثل
موضوعات مختلفة مثل الطرب والغناء والرقص
والصيد ورعاة الماشية.

وهناك أبريق لا يختلف في شكله عن الأبريق
السابق (الشكل ٢) معروض الآن في متحف
المتروبوليتان، وسطحه غني بالزخرفة التي كفت

وبدن هذا الابريق كروي الشكل تغطي سطحه زخرفة نباتية دقيقة .

وفي المتحف البريطاني بلندن ابريق مصنوع من النحاس الاصفر (الشكل ٣) وزخارفه وكتابات مكفنة بالفضة والنحاس الأحمر. ورقبة هذا الابريق عليها حلقة بارزة تقسمها الى جزئين عليه كتابة نسخية منقوشة على أرضية من الزخارف النباتية ونص الكتابة تقرأ كالآتي «نقش شجاع بن منعة الموصلي في شهر الله المبارك شهر رجب في سنة تسع وعشرون (عشرين) وستماية بالموصل»^(٨) .

ويحتوي البدن على أشرطة أفقية تضم رسوماً آدمية وحيوانية ورسوم طيور وزخارف نباتية وهندسية فضلاً عن الزخارف الكتابية، وهي تشكل موضوعات مختلفة منها نافخ مزار وعازف قيثارة، وشخص على جواد ومجلس طرب وموسيقى، وشخصان يركبان جملاً، وامرأة تنظر في مرآة، ومجلس عرش يضم شخصاً يجلس على كرسي وصياد على فرسه يصوب سهمه نحو حيوان.

وفضلاً عما تقدم فان أحد اشرطة البدن يضم مجموعة من الرسوم الآدمية والحيوانية الطبيعية منها والخرافية وكذلك رسوم طيور بأوضاع متداخلة ومقاربة على شكل مجاميع تفصل بينها عشر حليات هندسية كبيرة. ويلاحظ في رسوم هذا الشريط مدى النجاح والتوفيق الذي اصابه الفنان من حيث الحركة والدقة ولاسيما رسوم الحيوان والطير حيث رسمها بأوضاع مختلفة وحركات بارعة في وضع الجري والقفز والجلوس (شكل ٤).

وثمة ابريق محفوظ في متحف هامبرج بألمانيا (الشكل ٥) عليه كتابة تشير الى انه من صناعة احمد المعروف بالذكي النقاش الموصلي في سنة اربعين وستماية. ومن المؤسف ان هذا الابريق فقد صنبوره الذي كان يحتمل ان يكون مستقيماً واستبدل به آخر منحني لايناسب مظهر الابريق والحلقة العليا من رقبة الابريق مضافة اليه حديثاً، ولكن اسوأ ما أصاب الابريق هو فقدانه التام للتكفيت الأصلي الذي كان عليه. ومن يتمعن في

اما الزخرفة الرئيسة التي تزين البدن فتألف من شريط عريض يتكون من عشر دوائر رباعية الفصوص. وتشغل تلك الدوائر زخارف نباتية دقيقة نصفها مزهر والنصف الآخر ينتهي برؤوس آدمية وحيوانية. وفضلاً عن ذلك نجد رسوماً تمثل مجموعة من الصيادين بمسكون رماحاً طويلة (الشكل ٢). ويشبه الأباريق السابقة ابريق في مجموعة كيفوريان بنيويورك مصنوع من النحاس الاصفر المكفئ بالفضة. وتمتاز زخرفة هذا الابريق باقتصرها على العناصر النباتية والكتابية وتحتوي رقبة الابريق على زخرفة نباتية وكتابية تفصل بينها حلقة بارزة وعند اسفل رقبة الابريق شريط عليه كتابة نسخية تقرأ «عمل قاسم بن علي غلام ابراهيم بن مواليا الموصلي وذلك في رمضان سنة تسع وعشرين وستماية»^(٧).



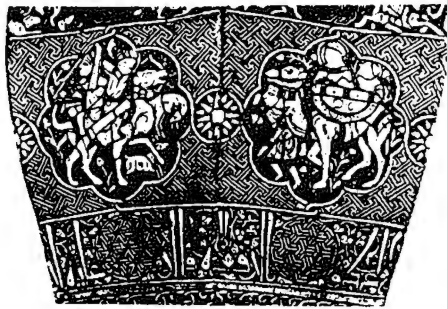
(الشكل ٣)



A



B



C



الشكل (٤)



الشكل (٦)

يوسف النقاش الموصل في سنة اربعة (اربع) واربعين
وستاية (١١).

اما الزخارف فتشمل على عناصر هندسية
ونباتية ، اما الهندسية فتضم اشخاصاً يؤدون اعمالاً
مختلفة بعضهم يعزف بالآلات موسيقية وبعض آخر
يمتطي صهوة جواده ، ومنهم من يحمل اسلحة
مختلفة كالقوس والسهم والرمح يصطادون بها
حيوانات مثل الاسد والدب (١٢).

وفي متحف اللوفر بباريس ابريق من صناعة
ابراهيم بن مواليا الموصل ، والابريق الحالي لا يمثل
الشكل الأصلي الذي كان عليه الابريق عند
صنعه ، ويبدو أن الصنبور والمقبض والقاعدة في
هذا الابريق قد اضيفت اليه بتاريخ لاحق على
تاريخ صنعه لأنها تبدو غريبة عنه .

وبدن الابريق مقسم الى عدد من الأشرطة
الزخرفية تضم زخارف قوامها رسوم آدمية وحيوانية
فضلا عن الزخارف الهندسية والكتائية ، ومن
أشرطة البدن المهمة الشريط الذي يؤلف الجزء
العلوي من البدن ، حيث يضم اسم الصانع
مصحوباً ببعض الدعوات التقليدية وهي تقرأ
كالآتي « العز والنصر والاقبال والعمر والجود والمجد
والافضال والكرم والحلم والعفو اشيء حفت بها
عمل ابراهيم بن مواليا » (١٣).

زخارف هذا الابريق يلاحظ ان التجريد كان هو
الصفة الغالبة في رسومه . والزخرفة التي تحلي الابريق
يمكن تقسيمها الى مجموعتين رئيسيتين وموضوعاتها
تجمع بين موضوعين مناظر البلاط ومناظر دينية ،
والمناظر الدينية تمثل رسوم القديسين المسيحيين
وهي تحتل المناطق الرئيسة ، اما المناطق الطولية
فتزينها مناظر صيد ومناظر البلاط ، وتعرض الرقبة
عشرة اشكال رأسية كل شكل منها مزين بعدد من
الاشربة ذات الزخارف المختلفة ، وعند أسفل رقبة
الابريق شريط ضيق زال معظم تكيفته ، نقش
الصانع عليه اسمه الى جانب تاريخ الصناعة يقرأ
كالآتي « عمل احمد المعروف باللكمي النقاش
الموصل في سنة اربعين وستاية » (١٤).



الشكل (٥)

اما زخارف البدن فموضوعة داخل أربعة أشرطة
تمثل موضوعاتها رسوم مناظر البلاط والصيد والى
جانب الموضوعات السابقة تشاهد موضوعات
مأخوذة من المسيحية (١٥).

وفي متحف بلتيمور في امريكا ابريق من عمل
صانع موصل هو يونس بن يوسف ، وهو مصنوع
من النحاس الأصفر وكتابات وزخارفه مكفنة
بالفضة (الشكل ٦).

اما الكتابة فتتضمن اسم الصانع وتاريخ
صناعة الابريق ونصها « عمل يونس ابن (بن)



الشكل (٨)

واحد منها رسوم زوج من الطيور، يلي ذلك من الاعلى شريط يزينه عدد من عقود مفصصة يضم قسم منها اشكالاً آدمية منفردة في حالة وقوف تتبادل مع القسم الآخر التي تضم رسوم زوج من الطيور متقابلة اما فوهة الابريق فزودة بغطاء مزين من الخارج والداخل بزخارف مختلفة ، ويضم محيط الغطاء الخارجي شريطاً عليه كتابة نسخية من الدعوات والتمنيات لصاحب الابريق^(١٤) أما السطح الداخلي للغطاء فيزينه شريط يضم كتابة باسم الصانع نصها «عمل علي بن عبدالله العلوي النقاش الموصل» اما بدن الابريق فيضم رسوماً آدمية وحيوانية وزخارف نباتية وهندسية فضلاً عن الكتابات.

ومن التحف المعدنية الموصلية التي وصلت إلينا ايضاً شمعدانات أقدمها شمعدان معروف في متحف بوسطن بأمريكا (شكل ٨) يحمل توقيع صانعه وتاريخ صنعه ، كفتت زخارفه بالفضة ، والبدن على هيئة هرم ناقص ويغطي سطحه زخرفة متنوعة تمثل ثلاثة انواع من الموضوعات ، فالنوع الاول يتضمن صور الحكام الذين يجلسون على عروشهم وبين

اما الاشرطة الاخرى فانها تحتوي على مجموعة آدمية وحيوانية ومن بين الرسوم الآدمية شخص يجلس على عرشه في حين ظهر الى يساره ويمينه مجموعة من الاشخاص في اوضاع وحركات مختلفة ، بعضهم يقود فهداً او كلباً وآخر يداعب كلباً ومن بين الاشخاص من يحمل اسلحة كالسيف والرمح .

وفي مكان آخر من البدن شريط هو من أعرض الأشرطة مقسم الى عشرة أقسام على شكل محاريب يحتل كل واحد منها زوجين من الاشخاص يجدها جالسين مرة وواقفين مرة اخرى.

وللمنصر النباتي مكانة في هذا الابريق اذ تمثل زخارف على شكل فروع نباتية تمثل زخرفة الارابيسك ، او فروع نباتية حلزونية الشكل.

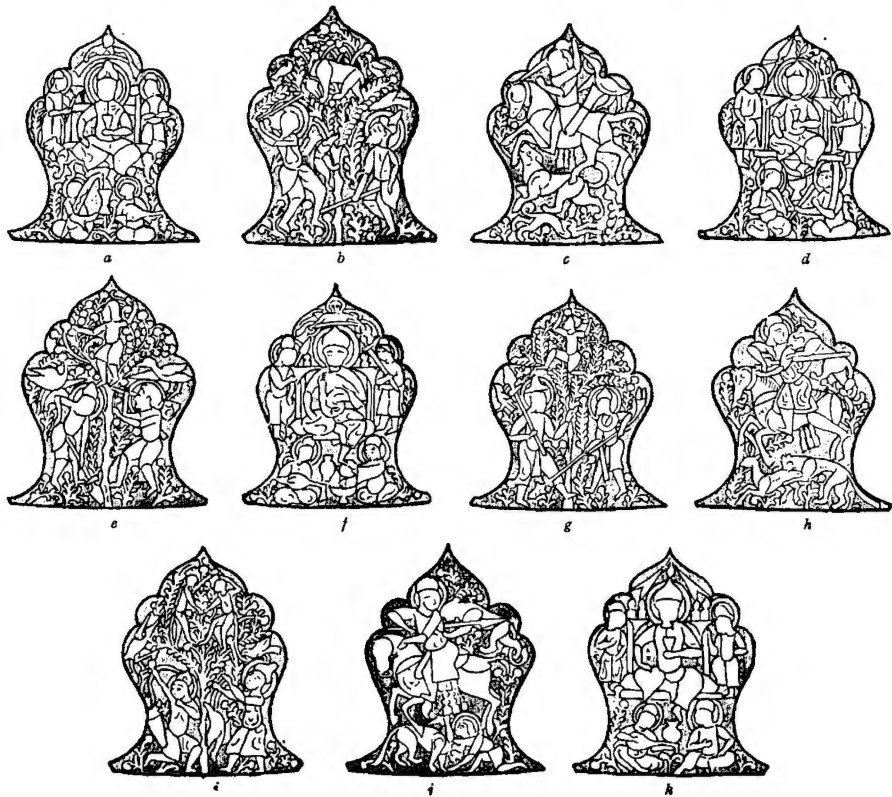


الشكل (٧)

وفي متحف (دالم) في برلين الغربية ابريق من انتاج صانع موصل يدعى علي بن عبدالله العلوي الموصل ، والابريق مصنوع من البرونز المكثت بالفضة والذهب وشكله العام لا يختلف عن شكل الابرارق التي سبق الحديث عنها (الشكل ٧) وتتصل رقبة هذا الابريق بكفه بواسطة شكل يشبه الحافة البارزة وهي ذات احد عشر فصاً يضم كل

السوفيتي شمعداناً برونزياً مكفثاً بالفضة ، وقد فقد معظم هذه الفضة ، لذا فالتا لانكاد نرى غير آثار قليلة لزنخارفه المكفثة. والشمعدان المذكور يعود الى بدرالدين لؤلؤكما هو ثابت من نصوصه^(١٧). ويزين بدن الشمعدان زخرفة قوامها رسوم اشخاص جالسين بأوضاع مختلفة على أرضية ذات زخارف

اتباعهم والنوع الثاني يشمل مناظر البساتين التي يظهر فيها مجموعة من الفلاحين وهم يؤدون اعمالهم المعتادة في الحراثة وقطف الاثمار. اما النوع الثالث فيشتمل على مناظر للصيد ، نشاهد فيها الصيادين وهم يصطادون الحيوانات والطيور بالاسلحة المعروفة مثل القوس والسهم والرمح^(١٨) (شكل ٩)



الشكل (٩)

دقيقة تمثل موضوعات مألوقة في الفن الاسلامي من طرب وصيد وشراب وغناء فضلاً عن كتابة نسخية على خلفية ذات زخرفة نباتية تتضمن اسم بدرالدين لؤلؤ^(١٨) وألقابه.

ومن مقتنيات متحف الفنون الزخرفية بباريس شمعدان من النحاس الاصفر المكفث بالفضة وشكله العام لا يختلف عن الاشكال السابقة

اما ربة الشمعدان فترينها زخارف موضوعية داخل اشربة ، وعند اسفل الربة شريط عليه كتابة نسخية تقرأ « عمل الي (ابن) بكر بن الحاج جلدك غلام احمد بن كامل المعروف بالذكي النقاش الموصل في سنة الثنتين وعشرين وستماية والبقاء لصاحبه^(١٩) ».

ويملك متحف الهرماتاج في ليننجراد بالاتحاد

(الشكل ١٠) اما زخارفه الرئيسة ورسومه فان الغالب عليها موضوعات دينية مسيحية وأخرى غير دينية وزخارف نباتية وهندسية.



الشكل (١٠)

ومن نصوصه الكتابية المهمة النص الذي يدور حول أسفل رقبته الشمعدان اذ جاء فيه اسم الصانع وتاريخ الصناعة وهو «عمل داؤد بن سلامة الموصل في سنة ستة واربعين وستماية بالخير والثناء»^(١٩).



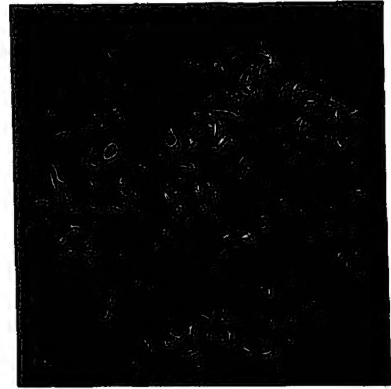
الشكل (١١)

ومن بين معروضات متحف الفن الاسلامي بالقاهرة شمعدان (الشكل ١١) من النحاس الاصفر المكفت بالفضة ويزين بدن الشمعدان

عدد من الاشرطه ثلاثة منها رئيسة ، العلوي والسفلي فيها رسوم آدمية بأوضاع وحركات متباعدة تمثل مجلس طرب وشرب ورقص اما الشريط الثالث فيحده من اعلى واسفل صف من زخرفة مؤلفة من حبات اللؤلؤ يحتوي على ست دوائر كبيرة متعددة القصوص يربط بعضها ببعض شريط عليه كتابة نسخية من النوع الكوفي المصفور^(٢٠) . ويحيط بالشريط الكتابي المذكور من اعلى واسفل عدد من الدوائر تضم رسوماً ذات موضوعات مختلفة ، ففي الدائرة الاولى شخص في مجلس شراب وطرب يحتل مركز الصورة يحف به من الخمين والشمال تابع . في حين يحتل القسم الامامي من الدائرة ثلاثة من الموسيقيين يعزفون على قيثارة ودف وناي على التوالي ، وفي الدائرة الثانية شخص يجلس القرفصاء يحتضن سيفه ، وفي الدائرة الثالثة فارس يمتطي جوداً يصوب سهمه نحو حيوان يطعن خنزيراً برياً . وفي الدائرة الرابعة صياد على جواده يحمل سيفاً بيده اليمنى وحيواناً خرافياً بيده اليسرى.^(٢١) اما الدائرتان الخامسة والسادسة فتمثلان موضوعاً واحداً حيث نرى في مركز كل دائرة رسم طيرين ينقض احدهما على الآخر ، ويلاحظ في هاتين الدائرتين ظاهرة جديدة في فن التكفيت وهي ان الارضية المحيطة بالطيرين قد كفتت بالفضة في حين تركت رسوم الطيور خالية من التكفيت بخلاف ما هو متبع وشائع في ميدان هذه الصناعة اي ان الرسوم هي التي تكفت دون الارضية وليس لدينا مثال آخر استعملت فيه هذه الطريقة في التكفيت في اي مدينة اخرى^(٢٢) وهذا يعزز قدرة الصانع الموصل على تطوير صناعته وتقديم كل ما هو جديد ومبتكر ورقبة الشمعدان على هيئة اسطوانة يدور حول اسفلها شريط من كتابة نسخية تقرأ كالآتي «عمل الحاج اسماعيل نقش محمد ابن (بن) قنوح الموصل المطعم اجير الشجاع الموصل النقاش»^(٢٣) وعمدان النص المتقدم بثلاثة اسماء من صنّاع

معادن الموصل وهم: الحاج اسماعيل، ومحمد بن فتوح، والشجاع. اما الاسم الأول على ما يبدو فهو الصانع الذي طرق الخامة النحاسية وشكلها. اما الشخص الثاني فيبدو ان مهمته قد اقتصر على نقش وتطعيم زخارف وكتابات الشمعدان المذكور، اما الشخص الثالث ربما يشير الى الصانع الذي صنع الابريق المحفوظ في المتحف البريطاني حيث كان ابن فتوح يعمل اجيراً عنده.

والآن بعد أن عرفنا العلب والاباريق والشمعدان الموصلية بقي علينا ان نتحدث عن الصواني والطرسوت والآلات الفلكية والزهرات والصداديق. اما الصواني فأهمها اثنتان باسم بدرالدين لؤلؤ احدهما محفوظة في متحف الفنون الشعبية في ميونيخ والاخرى في متحف فكتوريا والبرت بلندن. اما صينية ميونيخ فهي من النحاس الاصفر المكثت بالفضة وهي دائرية الشكل نقشت زخارفها ضمن ثمان دوائر ذات مركز واحد، وفي المركز اربعة اشكال آدمية لها جسم اسد مجنح، تحيط بها تسعة حيوانات خرافية^(٢٤) (شكل ١٢)



الشكل (١٢)

ويحيط بتلك الدائرة شريط ضيق يتبعه شريط اخر يضم مجموعة من الاشكال الدائرية يمثل كل واحد منها رسوم اشخاص يمثلون موضوعات شاعت في الفن العربي الاسلامي خلال القرن ١٣ هـ / ١٣ م منها: موضوع الصيد والطرب والرقص والغناء فضلاً عن موضوع فريد يمثل مصارعة بين شخصين، وعلى حافة الصينية شريط عليه كتابة بخط النسخ تتضمن اسم بدرالدين لؤلؤ^(٢٥) وألقابه. اما الصينية الثانية فهي كما قلنا معروضة في متحف فكتوريا والبرت بلندن، وهي الاخرى دائرية الشكل مصنوعة من النحاس الاصفر وزخارفها وكتاباتنا مكثت بالفضة وتمتاز بقلعة زخارفها قياساً الى التحف التي مررنا بها في صفحات سابقة، والصينية مزينة بأربع دوائر اكبرها الدائرة الوسطى وتحتل وسط الصينية، وفي مركز تلك الدائرة رسوم ثلاثة اشكال آدمية لها جسم اسد مجنح كما هو الحال في الصينية السابقة وحافة الصينية تتألف من شريط عليه كتابة بخط النسخ يدور حول تلك الحافة تتضمن اسم بدر الدين لؤلؤ^(٢٦) وألقابه.

اما الطرسوت التي وصلت الينا من انتاج الموصل فأقدمها طست من صناعة علي بن عبدالله العلوي الموصل (شكل ١٠) محفوظ في متحف دالم ببرلين الغربية وهو مكثت بكفيتاً غزيراً بمادتي الذهب والفضة. والزخرفة التي تغطي داخل الطست ذات موضوعات متنوعة موضوعة داخل اشكال هندسية منها رسوم اشخاص متوجين مع موسيقيين ومنها فارس يصطاد طيراً وآخر يطعن حيواناً بسيف، تصل بين تلك الاشكال الهندسية اشربة تضم كتابة نسخية تقرأ كالآتي: «العز والبقاء والبر والعتاء والعلو والعلاء والجود والسخا والمجد والنور والصفاء والصبر والرضاء والحلم والحياة والدهر والوفاء والنصر على الاعداء لصاحبه ابداً»^(٢٧) والى اسفل واعلى تلك الاشربة الكتابية عشرون



الشكل (١٣)

كتابة نصها «أنا كاشف الاسرار في بدايع من حكمة
وغرائب وغيوب ولكن بسطت اديم خدي صاغراً
وجعلته عرض الترابي» (٣٠).

والى يمين تلك الكتابة نجد نصاً آخر يمكن
قراءته كالآتي «أنا ذو البلاغة والمحدث صامتاً ومنطقي
الترغيب والترهيب يخص اللبيب ضميره فايته
فكان اعضاءي خلقن قلوب» (٣١).

وعند مركز منتصف القطعة تقريباً كتابة
اخرى تقرأ «وقد وضع هذا الكايوه ليعلم منها
محاكاة صور الاشكال من صور المنازل طالعة
وغارية ثم يقع الحكم عليها والله اعلم» (٣٢).

اما القطعة الثانية فهي تختلف في كتاباتها
وزخارفها عن القطعة الاولى، ويمكن مشاهدة
شريط عليه كتابة دعائية بخط النسخ على خلفية

دائرة مفصصة تضم جميعاً موضوعاً واحداً يمثل
شخصاً يجلس القرفصاء ويمسك بيده هلالاً، وهو
من الموضوعات الشائعة في التحف المعدنية
الموصلية. ويحتل مركز قاع الطست شكل يشبه
الطبق الشمسي تحيط به دائرة عليها ستة اشكال
دائرية الشكل تضم رسوماً من المحتمل انها تعبر عن
الابرار السماوية. ويتبع الدائرة السابقة دائرة اخرى
تحتوي على اثني عشرة دائرة وتضم كل دائرة من
تلك الدوائر صوراً مختلفة. وفي مكان من رقبة
الطست الخارجي نقش الصانع اسمه بالخط
النسخي على خلفية خالية من كل زخرفة ونص
الكتابة «عمل علي ابن (بن) عبدالله العلوي
النقاش الموصل» (٣٨).

اما قاعدة الطست الخارجية فان الصانع لم
يتركها دون زخرفة، وتحتل مركز القاعدة دائرة تضم
عنصراً هندسياً على خلفية ذات زخارف نباتية دقيقة
ويحيط بتلك الدائرة شريط ذو اربعة اقسام تضم
كتابة بالخط الكوفي.

وكما امتدت يد الصانع الموصل الى انتاج
الأباريق والطسوت والشاهد والصواني فقد امتدت
ايضاً الى انتاج الادوات الدقيقة التي لها علاقة
بالفلك. وفي المتحف البريطاني بلندن تحفة
مصنوعة من النحاس الاصفر وهي غنية بالكتابات
التي يبدو منها ان لها علاقة بالفلك. والتحفة مكفنة
بالذهب وتألف من قطعتين متداخلتين بعضهما مع
بعض وهي مستطيلة الشكل (الشكل ١٣).

فالقطعة الاولى اطارها الخارجي ذو زخرفة
نباتية تدور حول ذلك الاطار وعلى السطح يمكن
مشاهدة تسع عشرة دائرة وكل دائرة من تلك
الدوائر تشير الى كتابات لها علاقة بالفلك والى
الجهة الثن كتابة نسخية مكفنة بالفضة تتضمن اسم
الصانع وتاريخ الصناعة، ونصها كالآتي «صنعه
محمد بن خنلخ الموصل في سنة ٦٣٩هـ» (٣٩). في
حين نجد على الزاوية السفلى من الجهة اليسرى

من فروع نباتية دقيقة. وفي مركز القطعة يمكن مشاهدة دائرة صغيرة تتضمن كتابة نسخية تقرأ «توفي محمد بن المختسب البخاري» (٣٣)

اما الزهريات فقد وصلت الينا منها زهرية مصنوعة من النحاس الاصفر ذات زخارف مكفنة بالفضة مؤرخة سنة ٦٥٧ هـ - ١٢٥٩ م والزهرية ذات بدن كروي ورقبة طويلة ويستقر البدن على قاعدة صغيرة، وهي من انتاج صانع موصل مشهور هو «علي بن حمود الموصل» الذي وصلنا من عمله مجموعة من التحف المعدنية تتألف من ثلاثة قطع من بينها الزهرية التي نحن بصدد دراستها (شكل ١٤)



الشكل (١٤)

وتغطي الزخرفة جميع السطح الخارجي للزهرية والمؤلفة من ارضية قوامها اشكال هندسية من حرف (T) المعقوف المزودج تحصر عليها ثماني دوائر مفصصة تصل بينها من الجانبين دوائر صغيرة نجدها على الحافة العليا والسفلى لتلك الدوائر

تشتمل على مجموعتين من المناظر اربعة منها مناظر صيد، في اثنين منها فارس يحمل قوساً وفي الدائرتين الاخرتين فارس يحمل بازاً، اما الدوائر الاربعة الباقية فتزينها مجموعة من الموسيقيين.

واذا ما انتقلنا الى الزخرفة المثلثة على رقبة الزهرية امكننا مشاهدة ثماني دوائر بيضوية الشكل مدببة من اعلى واسفل وعلى كل دائرة من تلك الدوائر نجد شخصاً واقفاً على ارضية تغطيها زخرفة نباتية، وعلى دائرة اخرى نجد شخصاً واقفاً يحمل كتابة نصها «عمل علي بن حمود» (٣٤) وعلى الحافة العليا لرقبة الزهرية كتابة تتضمن اسم الصانع وتاريخ الصناعة والشخص الذي امر بعمل الزهرية نصها «عمل علي بن حمود النقاش الموصل في سنة سبعة وخمسين وستاية برسم حفظاً (م) ابن تودرة» (٣٥).

ولقد ظلت مدينة الموصل في طليعة المدن المنتجة للتحف المعدنية المكفنة خلال القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ومن مدينة الموصل انتقلت تلك الصناعة الى مدن اخرى مثل دمشق والقاهرة على ايدي من هاجر من صناعها الى المدن المذكورة، ونجد الادلة الكافية على هذه الهجرة في عدد من التحف المعدنية المصنوعة في دمشق والقاهرة، حيث قامت الصناعة في اول الامر على اكتاف صناع الموصل وكان من الطبيعي ان ينقل هؤلاء الصناع الاساليب التي ألفوها في بلادهم، لذلك كانت التحف التي صنعوها في تلك المدن لا تختلف في معظم الاحيان عن تلك التحف التي كانت تنتج في مدينة الموصل بحيث اصبحنا نجد صعوبة في معظم الاحيان في تمييز التحف المعدنية المصنوعة في مدينة الموصل نفسها عن تلك التي صنعت في غيرها الا اذا كان على التحفة ما يشير الى مكان صنعها.

ومن التحف التي صنعها صناع الموصل في دمشق ابريق مصنوع من النحاس كما يقرأ النص المثبت على رقبة الابريق. والابريق محفوظ في متحف

في العصر المملوكي واشتركوا في ضرب التتر عام ٦٨٠هـ - ١٢٨١م.

ومن التحف المعدنية التي وصلت إلينا من صناعة عيال الموصل في دمشق شمعدان علي بن كسيرات الموصل وهو محفوظ في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة ، واسم الصانع جاء منقوشاً على رقية الشمعدان «عمل علي ابن كسيرات الموصل سنة سبع وتسعين وستاية بدمشق المحروسة خلد الله

الولفر بباريس ، ويزدان بزخارف وكتابات قد كفتت بالفضة وهو من «نقش حسين بن محمد الموصل بدمشق المحروسة سنة سبع وخمسين وستاية»^(٣٦) وقد صنع هذا الابريق لأحد سلاطين الأيوبيين كما تشير الكتابة المنقوشة على بدنه ونصها «عز لمولانا السلطان الملك الناصر العالم العادل المجاهد صلاح الدنيا والدين الي المظفر يوسف بن الملك العزيز محمد بن غازي»^(٣٧) (الشكل ١٥).



الشكل (١٦)

مالكها»^(٤٠) (الشكل ١٧).

وتشير احد النصوص الكتابية التي تزين هذا الشمعدان الى انه قد اوقف على محراب الجامع الطولوني بالقاهرة ونص الكتابة هي «العبد الفقير الى الله تعالى شادي بن شيركوه أثابه الله الكثير، تقرب بوقفيته على جامع ابن طولون في المحراب»^(٤١).

والتحفة المعدنية الثالثة التي صنعت في دمشق على ايدي صانع موصل هي طست معروض في متحف كلستان (شكل ١٨) بطهران والصانع



الشكل (١٥)

وفي متحف كلستان بطهران ابريق من صناعة علي بن حمود الموصل الذي صنع لنا الزهرة التي مرزنا على دراستها في صفحات سابقة. والابريق مصنوع من النحاس المكث ومن اهم النصوص الكتابية التي تزين رقية الابريق كتابة محفورة ومكفنة تقرأ كالآتي «نقش علي بن حمود الموصل في سنة ثلاثة وسبعين وستاية»^(٣٨) (الشكل ١٦).

وعلى رقية الابريق نص آخر يشير الى الأمير الذي صنع له هذا الابريق وهو «اتمشي السعدي»^(٣٩) أحد الأفراد الذين عاشوا في مصر

اما انتاج الموصليين من التحف المعدنية في مدينة القاهرة فهي الأخرى متنوعة ، من اقدمها شمعدان من البرونز المكثت بالفضة والذهب مؤرخ سنة ١٢٦٨هـ - ١٢٧٠ م معروض الآن في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة .

والبدن اسطوانة تتوسطها خمس دوائر مفصصة وفي مركز كل واحدة منها يمكن مشاهدة دائرة صغيرة عليها زخرفة هندسية من النوع الذي شاع ظهوره على التحف التي انتجت في مدينة الموصل كما يحلي الرقبة زخرفة مؤلفة من فروع نباتية تنتهي برؤوس حيوانات وطيور مختلفة ، وقد رأينا مثل هذا العنصر الزخرفي على تحف موصلية ، وطبيعي أن نجد على التحف القاهرية مثل هذه الموضوعات التي وجدناها على التحف الموصلية ، لأن الصناعة تقريباً واحدة والصانع واحد .

وفضلاً عما تقدم فإن البدن تزينه كتابات كوفية ذات نهايات مزهرة كما نجد رسوم حيوانات وطيور من بينها رسوم فيلة وابقار وحيوانات ذات اجنحة .



الشكل (١٧)

الذي انتجه من صناع الموصل المشهورين وهو علي بن حمود الموصلية^(١٢) الذي انتج لنا الزهرية والابريق اللذين مررنا على دراستها في صفحات سابقة بما يدل على غزارة انتاج هذا الصانع والمقدرة الفنية التي يتمتع بها والمكانة التي كانت عليها مدينة الموصل .



الشكل (١٨)

اما الرقبة فمبارة عن اسطوانة يدور حول اسفلها شريط غير محدد من كتابة نسخية نصها «نقش محمد بن حسين الموصل رحمة الله عليه بمصر المحروسة في سنة ثمان وستين وستماية هجرية والعز والبقاء»^(١٣) (شكل ١٩).



الشكل (١٩)

والنخبة الثانية من انتاج الموصلين في القاهرة عبارة عن شمعدان معروض في متحف الفن الاسلامي بالقاهرة وهو من صناعة «علي بن حسين بن محمد الموصل في شهر سنة احد وثمانين وستماية»^(١٤) وهو مصنوع من النحاس المطروق وزخارفه وكتابات مكفنة بالفضة ، وشكله العام لا يختلف عن شكل الشاعد السابقة ، ويزين البدن زخارف مؤلفة من اشكال هندسية على شكل حرف (T) المزودج الذي ظهر على التحف الموصلية ، كما يغطي البدن زخرفة قوامها رسوم آدمية وحيوانات وطيور وموضوعات تمثل الصيد والشرب والموسيقى وهي لا تختلف عما وجدناه في معظم التحف التي انتجها صناع الموصل في مدينتهم ، وهذا يؤكد انتشار الصناعة الموصلية باساليبها وزخارفها وطرق صناعتها في معظم اقطار العالم الاسلامي .

والقطعة الثالثة من انتاج صناع الموصل في مدينة القاهرة صينية معروضة في متحف المترو بوليتان وهي دائرية الشكل مصنوعة من النحاس الاصفر المكفت بالفضة (شكل ٢٠) . ويدور حول محيط مركز الدائرة الوسطية شريط يضم رسوماً آدمية كبيرة بمنحنته تتبادل مع رسوم أصغر منها ، ويحيط بالدائرة المركزية شريط عريض يحتوي على كتابة نسخية تقرأ كالآتي «عز لمولانا السلطان الملك المؤيد العالم العادل المجاهد المرباط المثار هزير الدنيا والدين داود عز نصره»^(١٥) .

ويلى الشريط السابق شريط آخر غير متصل يحتوي على كتابة نسخية تتضمن اسم الصانع الى جانب اسم صاحب هذه الصينية وألقابه ، وتقرأ الكتابة المذكورة كالآتي «عز لمولانا السلطان الملك المؤيد العالم العادل المجاهد المرباط المثار هزير الدنيا والدين داود بن سلطان الاسلام والمسلمين مظهر العدل في العالمين ابن مولانا السلطان الملك المظفر نقش احمد بن حسين الموصل بالقاهرة»^(١٦) .

والقطعة الأخيرة من القطع القاهرية التي وصلت الينا وعليها توقيع صانع موصل هي



الشكل (٢٠)

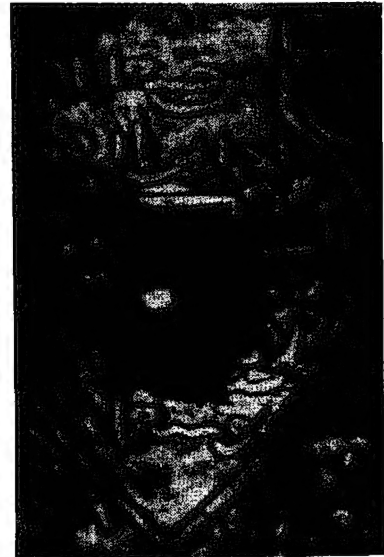
صندوق مصحف مؤرخ سنة ٥٧٢٣ هـ - ١٣٢٣ م محفوظ في مكتبة الجامعة الازهرية .

والصندوق مصنوع من الخشب ومصنع من الخارج بصفائح من النحاس الأصفر مثبتة بمسامير وهو مربع الشكل والصندوق مزود بغطاء وهو يرتكز على أربع قوائم قصيرة في كل زاوية من زواياه الأربع .

يحتل بدن الصندوق شريطاً يضم كتابة بالخط النسخي تتضمن اسم أحد سلاطين المماليك في مصر وألقابه .

أما محيط الغطاء فيتألف من اشربة ذات أرضية نباتية عليها كتابة بالخط النسخي من «سورة النور»^(٤٧) .

أما الحافة السفلى لغطاء الصندوق فتتألف من شريط يحتوي على زخرفة قوامها فروع نباتية متموجة محورة عن الطبيعة بينما نجد حول الحلقة البارزة التي تغلق في الصندوق كتابة بالخط النسخي تتضمن اسم الصانع وتاريخ صناعة الصندوق نصها «من صنعة أحمد بن بارة الموصل في شهر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة»^(٤٨) (شكل ٢١) .



الشكل (٢١)

يتبين مما تقدم ان التحف المعدنية الموصلية تنصف بميزات مشتركة من حيث الشكل العام ومادة الصناعة والاسلوب المتبع في التكفيت او التطعيم فضلاً عن اشتراكها في الزخارف وفي التوزيع العام لهذه الزخرفة على السطح الخارجي للتحف المعدنية ويمكن تلخيص ذلك بالنقاط الرئيسة الآتية :

١- شكل التحف :

اشتملت التحف المعدنية الموصلية على علب وأباريق وشعاع وطسوت وصواني ومزهريات وهي ذات أشكال مختلفة ، فالعلب الموصلية التي وصلت الينا بعضها مستطيل الشكل وبعضها الآخر دائري وتكون عادة مزودة بغطاء مثبت بالبدن . أما الأباريق الموصلية فان شكلها العام يتألف من بدن كروي ورقبة يتصل بها المقبض عند الفوهة وصنبور يخرج من كتف الأبريق بصورة مستقيمة . وهي اما ان تكون مقلعة الشكل او تكون غير مقلعة والذي وصل الينا من دمشق كان من النوع الاول .

أما الشمعدانات سواء المصنوع منها في الموصل او في دمشق او في القاهرة فان اشكالها تتألف من بدن على هيئة مخروط ناقص يتصل بها من الأعلى عمود على اسطوانة تتوجها من الأعلى ما يعرف بالشعاع .

أما الطست الموصلية فان شكله العام يتألف من اسطوانة ذات فوهة واسعة وقاعدة مستوية ، ويتميز بالعمق وهو بهذا لا يختلف عن شكل الطست المصنوع في القاهرة من قبل صناعات الموصل . وإذا ما انتقلنا الى المزهريات الموصلية فان شكلها يتألف من بدن كروي ذي قاعدة مستديرة ، تقوم على عتق ضيق اما الفوهة فتكون مستقيمة الشكل .

الموضوعات الزخرفية :

توزيع الزخرفة العام على سطح الاناء في اغلب التحف الموصلية وكذلك الدمشقية والقاهرية التي

أ- الرسوم الآدمية :

اشتملت معظم التحف الموصلية على الرسوم الآدمية وكان توزيع تلك الرسوم يتم في أغلبها على شكل صف واحد وأحياناً على صفين وذلك في أشرطة افقية او في دوائر مفصصة وتمتاز تلك الرسوم بتنوع الشخصيات ، فمن رسوم أمراء او حكام الى رسوم خدم وفلاحين ورعاة . وتمتاز تلك الرسوم بالبعد عن الواقع ويتضح لنا ذلك مثلاً في التركيز على الشخص الرئيس في الصورة دون سائر أشخاص الصورة الآخرين كان يظهره لنا اكبر حجماً او يظهر لنا اهتمام أولئك الاشخاص به . وشاهد في الصورة في اغلب الأحيان وهو يمسك بيده كأساً .

ومن الخصائص الأخرى التي تظهر على الرسوم الآدمية رسم الحالة حول رؤوس الاشخاص وهي ميزة امتازت بها تصاوير المدرسة العربية .

ويغلب على بعض الرسوم أيضاً شيء من الحيوية بفضل التعبير بالحركات والاشارات هذا فضلاً عن اننا نجد فيها تنوعاً في رسم الرجل اذ نجده أحياناً ذا لحية وأحياناً لا لحية له .

ب- الزخارف الكتابية :

اما الزخارف الكتابية فقد استخدمت على التحف الموصلية لغرض تسجيل اسم الصانع او اسم صاحب التحفة مقروناً ببعض الألقاب والعبارات الدعائية فضلاً عن تسجيل تاريخ صناعة التحف واستخدموا نوعين رئيسيين من الكتابة ، الخط الكوفي والخط النسخي ونجد في معظم الأحيان أن كلا النوعين يمثل على التحفة الواحدة وذلك أحياناً في التنوع وكان النوع الاول يستخدم في أغلب الأحيان في كتابة العبارات الدعائية ، أما النوع الثاني وهو النسخي فكان يستخدم بصورة عامة في كتابة اسماء الصانع وتاريخ ومكان الصناعة ، وكانت تكتب في أغلب الأحيان في الجزء الاسفل من رقبة الابريق او الشمعدان ، ولم يقتصر الصانع

صنعها الموصليون هو تقسيم السطح الى اشربة افقية او دائرية ذات عرض متفاوت تتخللها عدد من الدوائر تكون عادة متعددة الفصوص او دائرية الشكل حيث تضم تلك الأشرطة والدوائر والرسوم المختلفة .

وتتميز بعض التحف الموصلية بوجود رسم شخص يجلس القرفصاء يحمل بين يديه رسم هلال ، وقد وجد مثل هذا الرسم أيضاً على بعض التحف القاهرية .

وكانت الموضوعات المثلة على التحف الموصلية اوسع واكثر تنوعاً من غيرها حيث اشتملت تلك التحف على موضوعات مختلفة منها موضوعات تمثل بعض مظاهر الحياة اليومية كالحقول والمراعي وهي تظهر على القطع المبكرة ، كما اشتملت بعض التحف ايضاً على موضوعات دينية مسيحية .

اما موضوع الصيد فقد كان يمثل بطرق شتى فيشاهد مثلاً الصيادون يصطادون من على صهوة جوادهم او من على الارض .

كما ظهرت على بعض التحف الموصلية طريقة أخرى في صيد الطيور الصغيرة ، وهي الصيد بوساطة انبوبة الفخ .

اما موضوع الطرب فعالمياً ما يمثل لذاته او يرتبط في بعض الأحيان بموضوع العرش ، وذلك في أشرطة او في دوائر وفي معظم الأحيان يشاهد المطربون والموسيقيون متقابلين في حالة الرقص او العزف ، وقد استعملت آلات موسيقية مختلفة من قيثارة الى عود الى دف الى دبكة .

ومن المظاهر التي تظهر على التحف الموصلية اهتمام الصانع بمعظم زخارف التحفة سواء أكانت تلك الزخارف رئيسية ام ثانوية . وسواء تحتل تلك الزخرفة مكاناً بارزاً من التحفة أو في مكان غير بارز . واغلب الظن ان هذا الافراط في الزخرفة يرجع الى طموح الصانع في الحصول على تقدير أعلى ثم رفع القيمة المادية للتحفة . وقد استخدم الفنان في الزخرفة الرسوم الآتية :

الاحيان .

وقد اشتملت بعض رؤوس الطير على حالة على رأسها ورسم الحالة حول رؤوس الطيور وجدت في بعض تصاوير المدرسة العربية ويشاهد ايضاً على بعض التحف الموصلية فروع نباتية تنتهي برؤوس طيور وحيوانات .

الزخارف النباتية :

اما الزخارف النباتية على التحف الموصلية فقد كان يتنوع في ادائها . ويغلب على معظمها التحوير . وبعدها عن الطبيعة وتستخدم الزخارف النباتية عنصراً زخرفياً في معظم الأحيان وكانت تلك الزخارف توضع على اشربة ضيقة بهيئة فرع نباتي متموج تخرج منه أوراق واوراد كما امتازت معظم التحف الموصلية بوجود فروع نباتية صغيرة تتخلل الرسوم الاخرى . وتجدها مثل هذه الفروع النباتية على بعض تصاوير المدرسة العربية . ويبدو أن الغرض من وجود مثل تلك الفروع النباتية على تلك التحف هو ملء الفراغات التي بين تلك الزخارف كما استخدمت الزخارف النباتية ايضاً كأرضية تقوم عليها الموضوعات المختلفة ، يتميز هذا النوع من الزخرفة بشدة الالتفاف وكانت تعطى لها ذات الهمية التي تعطى للرسوم والزخارف الاخرى .

ومن المميزات التي امتازت بها التحف الموصلية هو استخدام الزخارف العربية (أرابيسك) وهي في بعض الاحيان تغطي سطح الاناء تقريباً او توضع داخل دوائر أو عقود او على اشربة . كما كانت الزخارف النباتية ترسم لذاتها عنصراً اساسياً من عناصر الموضوع اي انه لم يقصد منها الزخرفة فقط .

وكانت جذوع الاشجار ترسم محورة عن الطبيعة على هيئة اشكال قيعية متداخلة بعضها ببعض ، وهي تذكرنا بأسلوب بعض تصاوير المدرسة العربية . وقد فطن الصانع الموصلي في رسم الزخارف النباتية . فكانت تشاهد احياناً فروع نباتية تنتهي برؤوس آدمية وحيوانية وطيور كما مر بنا سابقاً .

الموصلي على الاشكال العادية من الكتابة للنوعين المذكورين بل نجده يتصرف في ذلك كأن يستخدم حروفاً كتابية تنتهي اطرافها برسوم آدمية وأحياناً نجد خطأ كوفياً من النوع المصفور المتداخل وكانت معظم تلك النصوص الكتابية تقوم على ارضية ذات فروع نباتية .

ج - الزخارف الهندسية :

تتميز الزخرفة الهندسية على التحف الموصلية بأنها كانت متنوعة ، وأهم ما امتازت بها تلك التحف هو أن الوحدة الزخرفية التي تضم مختلف الرسوم والزخارف الاخرى كانت تقوم في بعض التحف على ارضية هندسية قوام اشكالها حرف (T) المعقوف المزدوج وحياناً تكون تلك الاشكال الهندسية على هيئة زخرفة مشتملة الأضلاع .

وهناك نوع آخر من الزخرفة الهندسية ظهرت ايضاً على بعض التحف الموصلية وهي ذات اشكال أشبه ماتكون بالحرف اللاتيني (Y) المتداخل بعضه ببعض بهيئة مقلوقة كما ترين التحف الموصلية زخارف هندسية قوام اشكالها الحرف اللاتيني (Z) والحرف (Y) وغالباً ماتوضع على دوائر دائرية الشكل .

د - الرسوم الحيوانية :

التحف المعدنية الموصلية غنية برسوم الحيوان والطيور وقد اشتملت تلك التحف على رسوم الخيل والغزلان والأرانب والأسود والفهود والفيلة والقرود وكلاب الصيد والجمال والخنازير ومن الطيور الطاووس والاوز والصقر والطيور الصغيرة الاخرى فضلاً عن رسوم الحيوانات الخرافية كآلي الهول والحصان المجنح والأرنب المجنح والاسد المجنح كما رسموا الطير ذا الوجه الآدمي .

وقد اتخذوا تلك الحيوانات عناصر للزخرفة ، وقد امتازت الرسوم الحيوانية على التحف الموصلية بالدقة وكانت توضع في أغلب الأحيان على اشربة ضيقة وهي تسير بعضها وراء بعضها الآخر وتوضع على دوائر وتشاهد متقابلة في كثير من

طريقة الزخرفة

كان التكفيت الطريقة السائدة في زخرفة التحف المعدنية الموصلية حيث نجد الصانع الموصلية يولي ذلك أهمية كبيرة بحيث يغطي التكفيت سطح الاناء كله في معظم الاحيان. وقد استعملت مواد الفضة والنحاس الاحمر والذهب وكذلك المادة السوداء في تكفيت التحف المعدنية المصنوعة في مدينة الموصل، وكان الصانع يستخدم مادة او اكثر في تكفيت التحفة الواحدة كأن يستخدم الفضة والنحاس الاحمر او الفضة والذهب.

نخلص مما تقدم الى أن فن صناعة التحف المعدنية لم ينل عند امة من الامم من العناية والتقدير بقدر ما ناله عند الموصلين، ولني رواجاً عظيماً عند الجمهور مما جعل أثر ذلك ينعكس على ابداع الفنانين، فكانت هذه الحصلة الطيبة من مختلف التحف المعدنية التي ابداع في صنعها صانعوها، وقد برهنت الفاذج التي تمثلنا بها بان هذا الفن كان كبيراً ومنتشراً في معظم انحاء العالم الاسلامي. وسيتبقى هذا الفن، فن صناعة التحف المعدنية الاسلامية الموصلية شاهداً على ازهى عصور الحضارة العربية وأعرق التراث العربي.

المواامش

(١) Muhamad Rashid Al-Feel: Iraq and AL-Jazira as described by ibn Said al-Maghribi. Baghdad 1962. p 4.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢١٤.

(٣) Rice, Inlaid brasses From the Workshop of Ahmad al-Dhaki al-Mausili - Ars orientalis II, pp 283 - 329. 1957.

(٤) العبيدي، صلاح: التحف المعدنية الموصلية في العصر العباسي مطبعة الماروف - بغداد (١٣٨٩هـ - ١٩٧٠م) ص ٣٠.

(٥) المرجع السابق ص ٣٣

(٦) Rice: Inlaid brasses From al-Dhaki p. 278.

(٧) Ibid. p 317.

(٨) Wiet: Gaston Catalogue General du Musee Arabe du Caire Objects en cuivre. Institut Francais d'Archeologie orientale, Le Caire 1932 p. 171.

وانظر العبيدي، صلاح، المرجع السابق ص ٥٥.

ComBe, Et Sauvaget, J. and Wiet. (٩)

Repertoire, Chronologique D'Epigraphie Arabe. Institut Francais D'Archéologie Orientale Le Caire. 1931 - 1950. XI, p 29.

Rice: Inlaid brasses From al-Dhaki, p 312. (١٠)

العبيدي، صلاح، التحف المعدنية الموصلية ص ٧٠.

Repertoire: XI, p 176. (١٢)

العبيدي، صلاح، التحف المعدنية الموصلية ص ٧٢.

Rice: Studies in Islamic Metalwork II. p72 - 73 (١٤)

وانظر العبيدي، صلاح. المرجع السابق ص ٧٦.

العبيدي، صلاح، المرجع السابق ص ٨١.

المرجع السابق ص ٨٥.

Rice: the Oldest Dated Mosul, candlestick (١٧)

Butrlington Magazine XCL. pp. 334 - 40. 1949 p.

339.

(١٨) العبيدي، صلاح - المصدر السابق ص ٩١.

(١٩) المرجع السابق ص ٩٢.

Repertoire: XI, P. 194 (٢٠)

وانظر العبيدي، صلاح المرجع السابق ص ٩٨.

(٢١) العبيدي، صلاح، التحف المعدنية ص ١٠٠.

(٢٢) المرجع السابق ص ١٠٠ - ١٠١.

(٢٣) المرجع السابق ص ١٠٢.

(٢٤) المرجع السابق ص ١٠٣.

(٢٥) المرجع السابق ص ١٠٦.

Repertoire: XII p 40. (٢٦)

Repertoire: XII p 38. (٢٧)

Kuhnel: Zwei Modulbronzen p. 6. (٢٨)

Kuhnel: Zwei Modulbronzen, gen p6. (٢٩)

سعيد ديوه جي: الموصل في العهد الأتابكي ص ٥٨.

(٣١) العبيدي، صلاح، التحف المعدنية ص ١٢٨.

(٣٢) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٣٣) المرجع السابق ص ١٢٨.

(٣٤) المرجع السابق ص ١٢٩.

Wiet L; Epigraphic Arabs L, Exposition d' Art (٣٥)

persan. p 36.

Ibid: p 36 (٣٦)

(٣٧) العبيدي، صلاح، المرجع السابق ص ١٣٤.

(٣٨) المرجع السابق ص ١٣٥.

Wiet: L'Exposit d, Art. p. 39. (٣٩)

Ibid: p. 39. (٤٠)

(٤١) العبيدي، صلاح، المرجع السابق ص ١٤٢.

(٤٢) المرجع السابق ص ١٤٢ - ١٤٣.

(٤٣) المرجع السابق ص ١٤٥.

Wiet: Objets en Cuivre. p. 48. (٤٤)

وانظر العبيدي، صلاح، المصدر السابق ص ١٥١.

Repertoire: XIII p, 5 (٤٥)

وانظر العبيدي، صلاح، المرجع السابق ص ١٥٤.

(٤٨) العبيدي، صلاح، المصدر السابق ص ١٥٩ - ١٦٠.
(٤٩) عبد الوهاب، حسن، توثيقات الصناعات على الآثار الإسلامية
المجمع العلمي المصري ١٩٥٥. ص ٥٥٦.

(٤٦) العبيدي، صلاح، المصدر السابق ص ١٥٦.
Mayet: Islamic Metal workers and their works (٤٧)
Geneva. 1959. p.29.

الحجَابُ الفَخَّارِيَّةُ

أ.د. عبدالعزيز حميد صالح

تمهيد

فقد كشفت الحفائر الأثرية التي جرت في الكوفة والحيرة في العراق عن مجاميع كبيرة من الفخار غير المطلي والتي ترتقي إلى عصر إسلامي مبكر مزينة ببعض ضروب التحزير مثل الموضوعات الهندسية البسيطة كالخطوط المتقاطعة والمثلثات المتجاورة والدوائر المتراسة وغيرها (الشكل ١). كما عثر على العديد من المقابض والعري الخاصة بالأواني الفخارية ترقى إلى نهاية العصر الأموي وبداية العصر العباسي مزينة بفنائل طينية ملصقة عليها وقد صور بعضها على هيئة طيور أو حيوانات مختلفة الأشكال^(١).

لم يصل إلينا - مع الأسف - من هذه الآنية الفخارية سوى بعض المقابض والعري فلا ندري إن كانت جزاراً صغيرة أو أنها لجرار ضخمة أم حباب. والحُب (بضم الحاء) الحجرة الضخمة أو الخابية وجمعه حباب وحبية وأحباب^(٢)، والذي يسمى أيضاً بالزير والحلب في العادة يوضع على قاعدة خشب كبيرة في ركن من أركان الفناء الداخلي للمنزل لايحرك أو ينقل من موضع لآخر لثقله. ولاهمية الحباب حيث يشرب منه أفراد العائلة وضيوفهم فقد عمد الناس إلى العناية بها عناية خاصة. فكان من ذلك الاهتمام بنظافتها وتغطيتها بقطعة رقيقة من النسيج الأبيض النظيف لمنع دخول التربة إليها ولتبع الذباب وبقية الحشرات من الاقتراب منها. كما عمد الكثير من المترفين من الناس إلى شراء حباب خاصة ثمينة

لاندري كم انقضى من الوقت بين اختراع الفخار وادخال ضروب الزخرفة عليها. ربما تم ذلك في الألف الخامس قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل. كان التحزير البسيط أول ضرب من ضروب الزخرفة تلت ذلك الألوان والأصباغ المختلفة. وذلك قبل أن يخطو الخطوة الكبرى في زخرفة الفخار وهو اكتشاف البطانة الزجاجية أو ما يعرف بفن التزجيج Glazing.

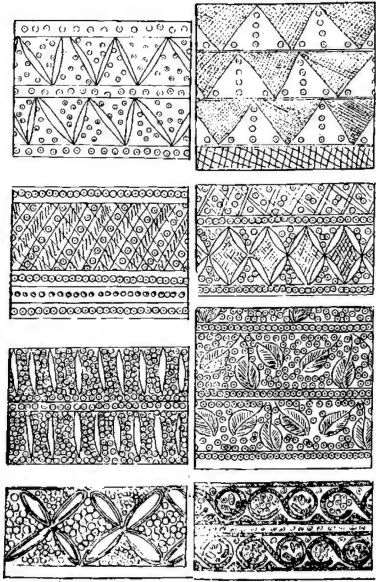
وصحيح أن تزجيج الفخار قد ظهر في العراق في القرون السابقة للميلاد، غير أن هذا لا يعني أن إنتاج الأواني الفخارية غير المزججة قد توقف أو صارت له أهمية ثانوية. بل بالعكس فلم تقل نسبة الفخار غير المطلي عن ثمانين أو تسعين في المائة من مجموع الانتاج الكلي للفخار عبر العصور المختلفة، بما في ذلك أوج ماوصل إليه إنتاج الفخار المزجج في النصف الثاني من العصر العباسي. والسبب في ذلك يعود إلى أن الجزء الأكبر مما كان ينتج من فخار في سائر الأقاليم كان يستخدم أوعية للماء أو لحزن المواد الغذائية الجافة مثل الحبوب وغيرها. أما الأوعية التي لا يرغب أن ينضج ما فيها مثل تلك التي تستخدم لحفظ الزيوت والخل والمواد العطرية أو الخمور فهي على العموم لا تشكل إلا نسبة ضئيلة من الآنية الفخارية.

وإذا كانت أغلبية الأواني الفخارية في العصر الإسلامي خلوا من التزجيج أو ما يسمى أحياناً بالدهان أو الطلاء فإنها لم تكن دوماً بلا زخرفة.

يبدأ الخزافون بدأً من إيجاد طريقة أخرى للزخرفة لا تسد معها المسام. فلم يعمدوا الى الاستعانة بالبطانة الزجاجية بل أخذوا بضرب آخر من ضروب الزينة التي منها الزخارف البارزة التي عرفت في اللغات الاوربية الحديثة بالباربوتين Barbotine والتي ظهرت بداياتها، كما سبق ان ذكرنا، وذلك في أواخر العصر الاموي او مطلع العصر العباسي، حيث وجدت كسر فخارية قليلة مزينة بهذا النوع من الزخارف خاصة عرى الجرار ومقابضها في حفائر الكوفة والحيرة وغيرها من المواقع الاثرية في العراق.

ولابد من ان ننوه هنا ان اللصق والاضافة في زخرفة الفخار كما بينا ترقى بأصولها الى الفنون المحلية التي سبقت العصور الاسلامية، فقد عرفت في حضارة العراق القديم حيث عثر في موقع اور وغيره من المواقع العراقية القديمة على دمي فخارية مزينة بفتائل طينية ترجع الى عصر العبيد في الالف الرابع قبل الميلاد^(٣). غير ان استخدام الفتائل الطينية الزخرفية كان على نطاق محدود جداً. فقد عرفت قبل الاسلام ايضاً في العراق في زخارف الجرار الكبيرة المزججة كما انه لم نجد مايدل على الاستعانة بها في الجرار والآنية الفخارية غير المزججة. لذلك لا يمكن لاحد ان يدعي أن زخرفة الباربوتين كانت معروفة حقاً على النحو الذي صارت عليه في الفنون الاسلامية منذ مطلع العصر العباسي. ومن الامور التي لا بد ان نشير اليها انه لم نجد مايدل على ان صناعة الحباب الباربوتينية قد عرفت، او على الاقل قد مارسها الفخارون في الاقاليم العربية والاسلامية خارج العراق وبعض مدن الجزيرة مثل الموصل وسنجار، اذ لم يتم العثور حتى الآن على مايدل على مثل تلك الممارسة.

ان الحباب العراقية التي ترجع الى بداية العصر العباسي خالية من الزخارف المتميزة يغلب عليها «التصنيع»^(٤). والتصنيع زخرفة بسيطة يتم الحصول عليها بضغط اصابع اليد، واحياناً راحة



(الشكل ١) رسوم تخطيطية لتخريزات هندسية وزبانية بسيطة على كسر فخارية غير مزججة ظهرت في حفائر عراقية من موقع الكوفة وهي ترقى الى أواخر العصر الاموي او بداية العصر العباسي.

مزينة بضروب مختلفة من الزخارف، حتى صار امتلاك هذا النوع من الحباب تقليداً متعارفاً عليه بالنسبة الى الاغنياء من الناس شأنه في هذا شأن التحف الفنية التي تدخل البهجة والمسرّة الى اصحاب البيت وزوارهم.

ان الزخرفة التي اتبعها الخزافون في الحباب تختلف اختلافاً بيناً عن تلك التي اتبعوها في زخرفة الاواني والجرار الفخارية الصغيرة. فلم يستعينوا هنا بالطلاء او التزجيج. ويعود ذلك الى ان المطلوب في الحباب الكبيرة الخاصة بشرب الماء على مسامها ان تكون مفتوحة اذ عن طريق المسام المنتشر على سطح الحباب يترشح جزء يسير من الماء المحفوظ داخل الحب بشكل مستمر. ونتيجة التبخر للماء الراشح من المسام تنخفض درجة الماء داخل الحب الى اقل من درجة حرارة الجو المحيط به. وهكذا فلم

اليدين، على السطح الخارجي للجب وهو لم يزل طرياً فترك الاصابع وراحة اليد بصمات واضحة على الجب. وتكاد تكون هذه الزخرفة البسيطة واحدة في كافة الجباب التي وصلت اليها من المنطقة الوسطى في العراق، سواء تلك التي وصلت كاملة او على شكل كسر واجزاء من جب. لقد وجدت كسر بعض هذه الجباب في ضواحي مدينة بغداد^(٥). كما عثر على العديد منها في منطقة النهران. واذا كانت بداية الزخرفة بالتصنيع ترجع الى بداية العصر العباسي او حتى من قبل ذلك فنحن متأكدون انه قد استمر انتاجها الى القرن الثالث الهجري على الاقل.

وفي القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) كثر استخدام الزخارف الباروتينية في الجباب. فظهرت في زخارف الجباب صور لحيوانات او طيور خرافية او اشكال ادمية بدائية وبعض العناصر الزخرفية الاخرى. في شكل فتائل او حبال من الصلصال تلصق على البدن. والجباب الباروتينية التي ترجع الى تلك الحقبة الزمنية خشنة الملمس بعض الشيء وتكثر فيها الشوائب (الشكل ٢).



(الشكل ٢) كسرة من فخار الباروتين عثر عليها في حفائر سامراء، ترجع الى القرن الثالث الهجري.

ان الغالبية العظمى من هذا النوع من الفخار وجدت في موقع سامراء ومدينة تكريت وضواحيها. فلم يكشف عن كسر لهذا النوع في اماكن اخرى، اللهم الا القليل النادر جداً كشفت عنه معاول المقيمين في منطقة الموصل وسنجار.

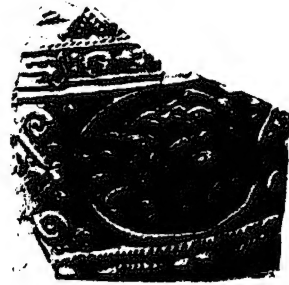
لقد كشفت الحفائر الاثرية في سامراء وتكريت عن جباب كاملة ذات ابدان كروية الشكل تقريباً لها عرى كبيرة لا تقل عن اربع. لقد رتب الزخارف على البدن في هذه الجباب داخل اطر عريضة، الثلث السفلي منها شريط عريض تشغله رسوم بدائية لطيور مثل الوز والبط او حيوانات كبيرة مثل الايائل والغزلان والاسود، فضلاً عن رسوم حيوانات خرافية، في حين يزين بعضها الآخر اشكال ادمية اهمها رسوم لنساء يتراوح عددهن بين الاربعة والخمسة يرتدين الملابس الطويلة.

ويرى بعض المختصين في الفنون الاسلامية ممن كتبوا في فخار الباروتين ان هناك احتمالاً كبيراً في كون مدينة تكريت وضواحيها الموطن الاصلي لهذا النوع من الجباب الباروتينية^(٦). وان صح هذا الاحتمال فان ذلك يعني ان تلك الجباب الكبيرة المزخرفة كانت تنقل من تكريت الى سامراء غير ان انتاج الجباب الباروتينية ان كانت فعلاً موجودة في سامراء وما حولها - فان تلك الصناعة ربما تكون قد توقفت تماماً في القرن الرابع الهجري بسبب ما آلت اليه سامراء من اندثار وخراب. في حين ان مدينة تكريت ظلت عامرة بأهلها وزاهرة لقرون عديدة بعد ذلك.

فقد وجدت جباب باروتينية كبيرة فيها وحواليها ترجع في تاريخ صناعتها الى القرنين الخامس والسادس الهجريين على الاقل.

وتشهد جباب الباروتين التي كانت تنتج في تكريت في القرنين الخامس والسادس الهجريين تطوراً ملحوظاً من حيث الشكل والزخرفة واسلوب الصناعة عما كانت عليه في القرنين الثالث والرابع. فقد صارت الجباب بيضوية الشكل بعد ان كانت كروية تقريباً كما صار لكثرها سياج على الكنف اشبه بالشرفات المستنة الخاصة بالقلاع والحصون في العمارة الاسلامية. كما استخدم لأول مرة في الجزء العلوي من البدن، اي تحت سياج الكنف مباشرة

شريط زخرفي شبه كتابي لم يكن مستخدماً ما يشبهه في حجاب القرن الثالث والرابع . اما عن الزخارف الرئيسية فيها فهي حيوانات نافرة ذات اجسام ممثلة وكأنها تتحرك وبوضعية جانبية. لقد وضعت رسوم هذه الحيوانات داخل اطارات او في حشوات بيضوية او مستطيلة الشكل ، او ضمن ما يشبه العقد نصف الدائري (الشكل ٣). وكثيراً ما نلاحظ ان هناك ربطاً او عصابة متطابقة مشدودة على رقاب بعض تلك الحيوانات الممثلة في نقوش



(الشكل ٣) كسرة من فخار الباروتين مزينة برسوم حيوانات نافرة ذات اجسام ممثلة داخل اطارات بيضوية الشكل. عثر عليها في منطقة الموصل ومحفوفة في المتحف العراقي.

هذه الحباب. كما يلاحظ ايضاً ان معظم زخارف الحباب تنتهي من جهته السفلية بشريط يضم في داخله غصناً متموجاً غليظاً جداً كأنه جبل محزن وضعت بين تموجاته اقراص دائرية الشكل ربما ترمز الى الاوراق النباتية. وليس من المستبعد ان هذا العنصر النباتي المحور الى درجة كبيرة هو تطور للاغصان المتموجة المعروفة التي تنتهي بأنصاف المراوح النخيلية او الاوراق الكأسية الكثيرة الاستعمال في الزخارف العربية الاسلامية الخاصة بالقرنين الثالث والرابع الهجريين. لقد نفذت هذه الزخرفة بطريقة الضغط بالقالب ، اي ليست عن طريق لصق الفتائل اي حبال الصلصال او الاقراص الباروتينية المعروفة ، او عن طريق صب الصلصال الرائب اي شبه السائل عن طريق

القمع على سطح الحب لغرض الحصول على الزخارف المطلوبة. ان الضغط داخل القالب على سطح الآنية الكبيرة تذكرنا بطريقة مماثلة كانت معروفة واستمرت استعمالها حتى القرن السادس عشر الميلادي على الاقل بالنسبة للخزف المزجج الاسلامي. ان من احسن الامثلة على الحباب من هذا النوع حب محفوظ اليوم في متحف برلين ذكر ان المنقب المعروف زاره Sarre اقتناه في بغداد سنة ١٩٠٧ ميلادية (الشكل ٤).

الحباب الفخارية في الموصل

وفي القرنين السادس والسابع الهجريين (١٢-١٣م) شاعت صناعة الحباب المزخرفة الباروتينية الى درجة كبيرة في منطقة الموصل وتعدتها الى سنجار. لقد عثر هناك على الكثير من هذا الفخار على شكل كسراو حباب كاملة. ومن دراسة تلك المجاميع الباروتينية يتبين لنا انها مرت بمرحتين اساسيتين من مراحل التطور في المرحلة الاولى إذ نلاحظ ان اغلب الحباب اسطوانية الشكل تقريبا



(الشكل ٤) حب اقتناه المنقب المعروف زره في مدينة بغداد سنة ١٩٠٧ يربقي الى القرن الرابع او الخامس الهجري محفوظ في متحف برلين.

المختصون من المستشرقين في تفسير كثرة وجود رسوم الشخص المتخصر في حجاب الموصل وسنجاز التي تعود الى القرنين السادس والسابع الهجريين مذاهب شتى. فمنهم من يرى انها من مخلفات العصور السابقة للإسلام وهي تمثل بعض الآلهة الوثنية القديمة ، ومنهم من يعتقد انها ترمز الى بطل من الابطال الاسطوريين لاغير^(٨) . ومن دراسة الرسوم الكثيرة للشخص المتخصر على العديد من الحجاب نلاحظ ان للشخص المتخصر في جميع هذه الرسوم مناكب عريضة وخصر ضيق جدا . وان للأشخاص مسحة بدائية ، فالعيون واسعة جدا وفي بعض الرسوم دائرية تماما ، في حين انها في بعض الرسوم لوزية الشكل (الشكل ٦) .

ان رسوم الشخص المتخصر على حجاب



(الشكل ٦) حب من صناعة الموصل في القرن السادس الهجري محفوظ في المتحف العراقي.

الباربوتين هي ليست دائما رسوم رجال فان بعضها رسوم نساء ، كما هو واضح من رقية الحب التي وصلت الينا من الموصل والمحفوظة في المتحف العراقي ببغداد (الشكل ٧) وذلك من شكل الوجه وشعر الرأس المسترسل على الجسم والصدر وغير ذلك . في حين أن رسوم الرجال من صور الشخص المتخصر يتميز بقصر شعر الرأس والشعر الغزير الذي يعلو صدورهم العارية (الشكل ٨) . ومنها يكن

ذات رقية ضيقة نسبيا ولها عرى كبيرة تعلوها تيجان مخروطية مرتفعة ارتفاعا ملحوظا . ولجميع هذه الحجاب ستارة كبيرة وهي عبارة عن لوح مستطيل الشكل به عروتين متجاورتين من عرى الحب وحافته السفلى بخط التقاء الكتف بالبدن^(٩) . وصار الخزافون يضعون لمعظم ستائر هذه الحجاب عقودا . لقد كانت هذه العقود بادئ ذي بدء بسيطة في اشكالها وذلك على شكل اقواس نصف دائرية تثبت على الستارة او على رقية الحب . لقد اهتم الخزافون اهتماما كبيرا بالعقود الزخرفية هذه في حجابهم فاستعملوا العقود المدببة والعقود المفصصة . بعضها ذو خمسة فصوص نصف دائرية متساوية وبعضها ذو فصوص غير متساوية (شكل ٥) .

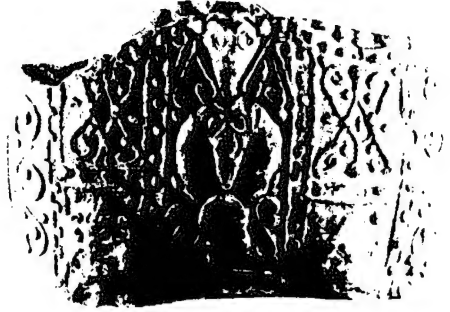


(الشكل ٥) حب من صناعة الموصل في القرن السادس الهجري محفوظ في المتحف العراقي.

اما عن التشكيلات الزخرفية فهي كثيرة ومتنوعة ، اهمها تكرار صورة شخص محور بعض الشيء عن صدق تمثيل الطبيعة يقف متخصرا ، اي انه يرفع ذراعيه بعض الشيء لتستريح راحته على جانبيه عند موضع التقاء بدنه بالحوض . وقد رسم وسط اوبين التواءات وحلزونات زخرفية بسيطة نفذت بوساطة فتائل الصلصال المنصقة على بدن الحب حول صورة الشخص المتخصر . وقد ذهب

يصل البنا حتى ولا حب واحد كامل لنستدل منه على شكل تلك الحباب بدقة كافية . ومع ذلك فيمكننا القول ان اشكالها لاختلف كثيرا عن اشكال الحباب الاخرى التي كانت تصنع في الموصل وسنجار في العصر الانابكي فهي اقرب الى الاستطالة منها الى الشكل الكروي ، والساترة فيها اكثر تطورا وارتفاعا واكثر تعقيدا عما هو معروف منها في الانواع السابقة وعلى الرغم من ان معظم الحباب قد فقدت قواعدها ولاسيما التي اكتشفها هيئة تنقيبات جامعة الموصل في موقع القلعة الرئيسة (باشطاية) بالموصل فان الثور على بعض اجزاء تلك القواعد يوضح انها كانت على هيئة مخروطية واسعة من الاعلى لدى اتصالها بالطن ، وتنتهي بصورة مخروطية ، وقد احتوى بعضها على اضافات بارزة من الطين على هيئة مستطيل تنتهي قاعدته برأس مثلث متساوي الساقين . وما لاشك فيه ان هذه الاضافات في القواعد كانت تستخدم لارتكاز الحباب على الحوامل ولا نعلم عددها ولكن الشيء الذي تتمكن ان تثبت هو ان الحب لايمكن ان يتركز على الحامل باقل من ثلاث اضافات ، كذلك لوحظ وجود قطع مضافة الى قواعد بعض الحباب من الداخل ، وربما كان ذلك لزيادة سمك القاعدة ، وما يؤكد ذلك ان الاضافات المذكورة لم تستحدث الا في القواعد القليلة السمك^(١) .

ونجد في هذا النوع ولأول مرة الزخارف المخرومة ان التخريم في الحباب غير المدهونة ، اي غير المزججة ، هو بلا ادنى ريب اسلوب جديد في زخرفة الحباب الباروتينية . ومن البديهي ان يكون التخريم مقتصر على الساترة فقط وليس في البدن والا لما بقي شيء من الماء في تلك الحباب . وقد تركزت زخرفة تلك الحباب في المنطقة الامامية (الساترة) والمنطقتين الجانبيتين وتركزت كل من المنطقتين الخلفيتين صماء الا من زخارف بسيطة ، ويساعدنا ذلك على معرفة وضعية الحب ومكان وجوده في المبنى ويدعو الى الاعتقاد انه كان يوضع في واجهة المباني او قريبا من الجدران التي



(الشكل ٧) كسر من رقة حب عثر عليه في سنجار محفوظ في المتحف العراقي من صناعة القرن السادس الهجري.

من أمر فانه ليس من المستبعد ان هذه الرسوم اصولا قديمة قد تعود الى الحضارات العراقية القديمة التي تسبق الاسلام توارثتها الاجيال وبقيت ضمن الثروة الزخرفية في شمال العراق حتى اواخر العصر العباسي .



(الشكل ٨) كسرة من حب عثر عليها في مدينة سنجار محفوظة في المتحف العراقي.

ان رسوم الشخص المتخصر هي ليست الرسوم الوحيدة في هذه الحباب فهناك رسوم لرؤوس نسائية وبشكل خاص على الساترة وفوق المقابض . كذلك هناك رسوم لبعض الحيوانات المفترسة كالأسد والتمر وغيرها ، يحيط بها جميعا مجاميع من الحلزونات التي ترمز الى بعض العناصر النباتية المختلفة .

وانه لمن المتفق عليه بين المختصين في الفنون الاسلامية ان هذه الحباب هي اكثر الحباب الباروتينية جمالا من بين جميع ما انتج منها في العراق عبر العصور الاسلامية المتعاقبة رغم انه لم

الخيول المنحثة او ضرب من ضرب التنين الذي يعرف بالقطروس . وكثيرا ما نجد على هذه الحباب كتابات دعائية بخط الثلث مثل عبارات (العز لصاحبه) او (العز الدائم والاقبال الشامل والعمر السالم لصاحبه) كذلك (العمر السالم والجد الصاعد لصاحبه) وهي لا تختلف هنا عما نجده من عبارات دعائية على التحف المعدنية الموصلية (الشكل ١٠) .



(الشكل ١٠) رقة حب محفظة في متحف برلين عليها زخارف كتابية وزخارف نباتية متنوعة ونغم صورة رجل يحاول ان يمسك بمحصان خرافي مجتج ذي قرن واحد. ترتقي الى اواخر القرن السادس او اوائل القرن السابع الهجري .

ومن بين الزخارف التي تظهر على هذه الحباب المشاهد المختلفة والتي كثيرا ما نلاحظ ما يماثلها في تراويق المخطوطات الخاصة بالمدرسة العربية كذلك زخارف التحف المعدنية التي اشتهرت بها مدينة الموصل في القرنين السادس والسابع . ومن اكثر المشاهد ترددا في حباب الباروتين مشاهد الانس والطرب والشرب . فغالبا ما نجد اميرا او سلطانا يجلس مترعا وهو يحمل بيده البني كأسا وقد رسم اما منفردا تحيط به العناصر الزخرفية النباتية ، او يقف الى جانبه عدد من الاتباع او المغنيين والموسيقيين . ومن هؤلاء الموسيقيين من يعزف على العود او من يضرب على الطبلية او الدف او ينفخ في الناي . كما يلاحظ ان بعض الاتباع يحملون

تكون صدر الغرف او جوانبها وليس وسطها وهذه الحالة لا يرى الشخص المار او المستخدم للحب سوى واجهته وجوانبه فيخال ان الاناء مزخرف برومته . وقد يجوز ان الفنان ترك المنطقتين الخلفيتين على حالهما ليساعد على قلب الحب بوساطة العروة الخلفية الظاهرة وتفرغه من محتوياته لدى تنظيفه (١١) .

ان زخارف هذه الحباب كثيرة ومتنوعة فهي تجمع بين العناصر النباتية والحيوانية والاشكال الادمية والنصوص الكتابية . ويغلب على الزخارف النباتية الاغصان الملتوية والحلزونية المنتهية بانصاف مراوح تحيلية متقابلة او متدبرة ، وهي تذكرنا بما هو معروف منها في زخارف الرقش العربي المتطور والذي انتشر انتشارا كبيرا في الزخرفة الاسلامية منذ القرن الخامس الهجري في الاقل . والى جانب ذلك هناك رسوم للاشجار المحورة عن الطبيعة تحويرا كبيرا مثل النخيل واشجار السرو .

اما بالنسبة الى رسوم الحيوانات فان هناك العديد منها . ومن اهمها رؤوس النسور والاسود والطيور المختلفة التي نجدها منفردة او مزدوجة متقابلة او متدبرة ، فضلا عن رسوم الحيوانات الخرافية مثل الكائنات التي لها رأس طير وجسم امرأة وهو مخلوق خرافي يعرف بالخطاف (الشكل ٩) . او حيوانات خرافية لها جسم أسد ورأس بشري او



(الشكل ٩) رقة حب عثر عليها في الموصل من صناعة القرن السادس او اوائل القرن السابع الهجري محفظة في المتحف العراقي .

الفاكهة ليقدموها الى الامير الجالس. وما تجدر ملاحظته هنا انه من الصعوبة بمكان ان نميز في هذه الرسوم بين الرجال والنساء وذلك لبساطة الرسوم من جهة ولعدم وجود الشارب او اللحية عند الجميع من جهة اخرى. وما تجدر ملاحظته ايضا على هذه الرسوم ان الجميع بما فيهم الامير الجالس يرتدون ملابس متشابهة باستثناء رجال الحرس الذين يحملون بأيديهم اسلحتهم مثل السيوف والرماح ويضعون على رؤوسهم عمام مشدودة على قلانس طويلة ويحيط برقابهم المغافر (الشكل ١١). وما يلاحظ ان الامير الجالس في هذه الرسوم كذلك بقية الاتباع يرتدون الاقبية.



(الشكل ١١) رقية حب من صناعة سنجار في اواخر القرن السادس او اوائل القرن السابع الهجري محفوظة في المتحف العراقي.

والقباء كما هو معروف، رداء خارجي للرجال ذو لفتتين ويزرر من جهته الامامية، ويكون في العادة مقورا عند موضع الرقبة وله كمان قصيران ضيقان في الوقت نفسه. وهو على انواع منه الطويل الذي تصل حافته السفلية الى اخمص القدمين ومنه القصير الذي لا يتجاوز في طوله منتصف الساقين. وجميع الاقبية التي يرتديها الرجال المرسومون على هذه الحباب من النوع الاخير.

لقد كان القباء معروفا منذ ايام الرسول صلى الله عليه وسلم على الاقل فقد كان هو نفسه يرتدي الاقبية احيانا (١١). وصار للقباء اهمية كبيرة بوصفه

لباساً خارجياً للرجال في العصر العباسي حيث اتخذ زياً رسمياً لرجال الدولة، فقد لبسه الخلفاء والامراء والوزراء والقواد والجند. وقد جرت العادة ان يلبس الخليفة قباء أسود عند جلوسه للناس. كما كان من عادة الخلفاء ان يبارحوا القصر الى المسجد الجامع في اول يوم من ايام عيد الفطر المبارك في موكب مع رجال الدولة وكلهم بالاقبية السوداء (١٢). وقد لبس القباء كذلك العلماء وخطباء المساجد والحجاب. ليس هذا فحسب بل صار لكل طبقة من هؤلاء اقبية تختلف عن اقبية الطبقة الاخرى سواء كان ذلك في الشكل ام اللون ام النسيج الذي اتخذت منه تلك الاقبية (١٣)، اما عن الاقبية التي نلاحظها في الرسوم المنقوشة على حباب الموصل وسنجار فان النخى فيها تغطي الجانب الايسر منها وبشكل مائل بحيث تمر من فوق الصدر وتستمر الى خلف الظهر تقريبا من تحت الابط الياسر، وتبدو فتحة الرقبة عند الصدر على هيئة رقم سبعة (٧). كما ان بعض اكمام الاقبية في هذه الرسوم طويلة تصل الى الرسغ وبعضها قصيرة تصل في طولها الى منتصف الساعد. ويلاحظ انه يزين حافة الاقبية ونهاية الاكمام حواشي في شكل اشربة زخرفية قوامها دوائر صغيرة متلاصقة وهو مانسيه اصطلاحا بزخرفة اللآلي المنضودة، مما يدل على ان النسيج المصنوع منه تلك الحواشي تختلف عن قماش القباء نفسه. وليس من المستبعد ان تكون تلك الحواشي من الديباج او الحرير الخالص (الشكل ١٢). ويرى الدكتور صلاح العبيدي ان النسيج الداخلى في خياطة الاقبية التي يرتديها الاشخاص المثلون في رسوم هذه الحباب الباروتينية هو من الخز وهو نسيج يحصل عليه من غزل القطن والحرير سويا او الحرير المخلوط بمخيوط الصوف (١٤).

ويلاحظ في رسوم هؤلاء الاشخاص والمقصود بهم بلاشك امراء او سلاطين أنهم يشدون حول وسطهم مناطق من قماش سميك تتدلى من نهايته

وإذا انتقلنا الى لباس الرأس نجد انه يغلب عليه القلنسوة المحلاة بالفراء. ولا فرق بين القلانس التي تلورؤوس الامراء الجالسين الذين لهم الصدارة في تلك المصورات الباروتينية او الاشخاص التابعين مثل الموسيقيين او المغنين وغيرهم. والواقع ان القلانس المحددة بالفراء او من الفراء الخالص، اي المصنوعة كلياً من جلود الثعالب الثمينة كانت لباساً يستخدمها الخلفاء والامراء في العصر العباسي خاصة في النصف الثاني منه. ويذكر ابن جبير عند زيارته لبغداد في سنة ٥٨٠ هجرية (١١٨٥م) انه شاهد الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥-٦٢٢هـ / ١١٨٠-١٢٢٥م) صاعداً في زورق في نهر دجلة وهو «اشقر اللحية صغيرها سنه نحو الخمس والعشرين سنة لابساً ثوباً ايضاً شبه القباء برسوم ذهب فيه وعلى رأسه قلنسوة مطوقة بوبر اسود من الاوبار الغالية المتخذة للباس الملوك ربما هو الفتك»^(١٥)، والفتك هو نوع من انواع جلود الثعالب الثمينة النادرة. ويرى بعض المختصين في التصوير الاسلامي ان المنمنمة المصورة في غرة مخطوطة (مقامات الحريري) التي خطها وزوق تصاورها يحيى بن محمود بن يحيى الواسطي في سنة ٦٣٤ هجرية (١٢٣٧م) والمحفظة في المكتبة الوطنية بباريس والتي تمثل رجلاً مهيباً يضع على رأسه قلنسوة فراء ويحيط به عدد من الاتباع ورجال الحاشية ماهي في واقع الامر الا صورة خاصة بالخليفة الناصر لدين الله نفسه^(١٦).

وما يدعم الرأي في ان قلانس الفراء كانت ألبسة الرأس عند الخلفاء والسلاطين في العصر العباسي وبشكل خاص في مدينة الموصل، ما تشهد به بعض المنمنات التي زوقت على الاغلب في مدينة الموصل في النصف الاول من القرن السابع الهجري، منها بعض اجزاء نسخة مصورة مخطوطة كتاب الاغانى لابي الفرج الاصفهاني مؤرخة من سنة ٦١٦ هجرية (١٢١٨-١٢١٩م). فان غرة الجزء السابع عشر من هذه النسخة والمحفظة في مكتبة ايا صوفيه في استانبول



(الشكل ١٢) ربة حب من صناعة الموصل في القرن السادس اوائل القرن السابع الهجري عطفة في المتحف العراقي.

ذبا لتان طولتان مما يجعله اشبه بالزئار. والقليل منهم من يشد حول وسطه منطقة مرصعة بحلقات ربما من ذهب. او ان تلك المناطق عبارة عن سلاسل من حلقات كبيرة من معدن ثمين متداخلة او مربوطة بعضها ببعض ربما تزيناها بعض الاحجار الكريمة (الشكل ١٣).



(الشكل ١٣) ربة حب من صناعة الموصل في القرن السادس اوائل القرن السابع الهجري

مشابه تماما لما جاء منها في نقوش حباب الباروتين الموصلية او حباب سنجار^(١٩). وهكذا فانه يمكننا القول باطمئنان إن اقتناء القلائس ذات الفراء ليس بميسور الا للخلفاء والامراء والسلطين وذوي الشأن وذلك لارتفاع ثمنها وندرتها.

ومن الرسوم الادمية الأخرى الصورة في المشاهد ضمن زخارف حباب الباروتين من هذا النوع الموسيقيون الذين يعزفون على الآلات المختلفة واللواتي اغلبهن كما يبدو من النساء. والدليل على ذلك ان لجميع هؤلاء صفائر طويلة تنسدل على جانبي اجسادهن او خلف ظهورهن، حتى ان بعض هذه الصفائر تصل الى اخصص القدم تقريبا. كذلك لرشاقة اجسادهن وعدم وجود الشارب او اللحية. كما ان هناك خارا قد ضرب على وجه واحدة منهن. ويلاحظ ان من بين الموسيقىات من تضرب على الدف، كما هو واضح في نقوش رقة حب عثر عليه في سنجار ومحفوظ في المتحف العراقي (الشكل ١٤). واخرى تضرب على قيثارة



(الشكل ١٤) رقة حب عليها مشاهد غناء وموسيقى محفوظة في متحف الموصل. لتشتت اسماع امير يجلس القرفصاء ويحمل بيده المثنى كأسا كما هو واضح في جزء علوي من حب وجد ايضا في سنجار ومحفوظ هو الاخر في المتحف العراقي ببغداد (الشكل ١٥):

ونحن نعلم ان القيثارة آلة موسيقية عراقية قديمة ترجع الى العصر السومري واستمرت قيد الاستعمال حتى يومنا هذا في العراق وفي غيره من الاقاليم عبر

تزويقة الشخص الرئيس فيها امير مهيب يحيط به عدد من الاتباع ورجال الحاشية يحمل بيده قوسا وتعلو رأسه قلنسوة محددة بفراء ذات لون بني غامق. لقد نقشت ضمن شريط في اعلى كميّ قبائه عبارتان، التي اعلى كم الذراع المثنى (بدر الدين) وفي اليسرى (لؤلؤ عبد الله). وقد ذهب بعض المتخصصين استنادا الى هاتين العبارتين ان الشخص في الصورة هو سلطان الموصل الاتابكي الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ المتوفى سنة ٦٥٧ هجرية (١٢٥٩م)^(١٧). غير اننا نعلم ان بدر الدين لؤلؤ لم يتول سلطنة الموصل الا في سنة ٦٣١ هجرية (١٢٣٣م). نعم قد يكون هناك احتمال ان المخطوط قد انجز له عندما كان مديرا للدولة ايام سلطنة ناصر الدين محمود (٦١٦ - ٦٣١ هـ / ١٢١٩ - ١٢٣٣م) غير ان احتمال كون العبارتين قد اضيفتا الى المنمنمة ايام تولي بدر الدين لؤلؤ شؤون السلطنة هو الأرجح.

ويظهر هذا النوع من القلائس المحددة بالفراء على رؤوس العديد من الامراء والحكام في تراويق المخطوطات الخاصة بالمدرسة العربية بالتصوير، منها في نسخة مصورة من مقامات الحريري مؤرخة من سنة ٦١٩ هجرية (١٢٢٣م) محفوظة في المكتبة الاهلية بباريس، حيث يلاحظ في منمنمة من منمنات هذه المخطوطة حاكم مدينة مرو يضع على رأسه قلنسوة من هذا النوع النادر الثمين^(١٨). كذلك نشاهد مثل هذه القلنسوة في منمنمة تزين مخطوطة كتاب الترياق لجالينوس المحفوظة في دار الكتب الوطنية بباريس والمؤرخة من سنة ٥٩٥ هجرية (١١٩٩م) حيث يلاحظ فيها امير يحمل بيده المثنى كأسا ويضع على رأسه قلنسوة من هذا الطراز المنسوب الى الموصل.

وتظهر القلائس المحددة بالفراء في العديد من نقوش التحف المعدنية الموصلية المكفنة بالفضة، حيث يلاحظ في نقوش عدد من هذه التحف الموزعة اليوم في المتاحف العالمية على رسوم لامراء تعلو رؤوس الكثير منهم قلائس محددة بالفراء

بشكل خاص في مدينة الموصل وسنجاز لتباع في نفس هاتين المدينتين الكبيرتين او المدن القريبة منها. وليس من المستبعد ان القليل من تلك الحباب كانت ترسل الى مدينة بغداد عن طريق النهر لتباع هناك.

وعلى الرغم من وجود نماذج لهذه الحباب في سنجاز فإنه من الراجح ان موطن صناعتها الرئيس هو الموصل وذلك لان مدينة الموصل هي المركز الاداري والاقتصادي للسلطات السياسية المتعاقبة في حكم شمال العراق والجزيرة، ولكثرة النماذج المكتشفة فيها، علاوة الى كونها مركزاً لصناعات اخرى كالصناعات المعدنية والملابس، وربما انتقلت هذه الصناعة من الموصل الى مناطق اخرى كسنجار وبلاد الشام.^(٢٠)

وفي سنة ٦٥٦ هجرية (١٢٥٨ م) استولى الغزاة المغول على حاضرة الخلافة العربية الاسلامية، وقد تبعتها الموصل في سنة ٦٦٠ هجرية (١٢٦٢ م). وكان من نتيجة ذلك ان تفرق الحذاق من اصحاب الصناعات في الموصل شذراً

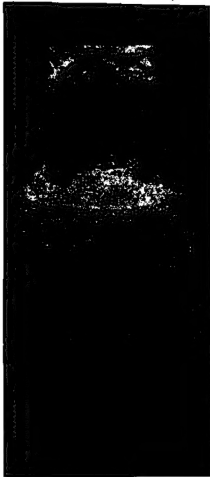


(الشكل ١٥) رقة حب باربوتيني عليه طرب يمثل اميراً متربعاً يحمل بيده التي كاساً تجلس الى جانبه جارية ترف على آلة القيثارة محفظة في التحف العراقي.

العصور المتلاحقة. اما الدف فهو آلة موسيقية بسيطة استخدمت في العراق القديم منذ اقدم العصور وربما عرفتها كل الامم والشعوب بلا استثناء او تمييز.

وعلاوة على زخارف التوريق العربية والرسوم البشرية والحيوانية فقد شاعت على حباب الموصل بعض الزخارف الهندسية ومنها الخطوط الهندسية المتكرسة والمتقاطعة والاشكال الكثرية والمعينات المتتابعة والاتواص المتصلة المتسلسلة والخطوط المنحنية.

وقبل ان نختم كلامنا على هذا النوع من الحباب الباربوتينية نرى من المفيد ان نقول بان التشابه الكبير بين الموضوعات في رسوم هذه الحباب وبين بعض موضوعات تزاويق المخطوطات المزوقة في شمال العراق وبشكل خاص مدينة الموصل، كذلك على نقوش التحف المعدنية المكفنة بالفضة الثينة والتي ليس لدينا ادنى شك في انها من صناعة الموصل او عملت على ايد صناع موصليين كما تشهد بذلك النقوش الكتابية التي تحملها هذه التحف. كل هذا يؤكد لنا ان هذا الضرب من الحباب الباربوتينية هي صناعة خاصة بشمال العراق وانها كانت تتج



(الشكل ١٦) حب كبير كامل مزين بزخارف مطبوعة بسيطة ونجد عند الرقة شريط من الكتابة بخط النسخ يضم بيتين من الشعر يرقى الى القرن الخامس الهجري. محفوظ في التحف العراقي.

مذر، فانتقل العديد منهم الى دمشق وقسم منهم الى بلاد مصر حيث نقلوا الى سوريا ومصر اساليب الصناعة الموصلية الخالصة^(٢١). اما في الموصل نفسها فقد آلت تلك الصناعات الى الاقوال التدريجي بسبب هجرة الصناع المهرة الحاذقين من جهة والى قلة الطلب على البضاعة الغالية الثمن من جهة اخرى بسبب الركود الاقتصادي العنيف الذي صار اليه العراق نتيجة التسلط الاجنبي الذي لا يرحم. فلم يكن نصيب صناعة الحجاب الباروتينية المزخرفة بأحسن من حال بقية الصناعات الرئيسة الاخرى مثل صناعة المنسوجات والتحف المعدنية والاختشاب المزخرفة وغيرها من الصناعات التي كانت قد اشتهرت بها بلاد الجزيرة وغيرها من الاقاليم التي رزحت تحت حكم المغول البغيض.

وهكذا ففي النصف الثاني من القرن السابع عشر والنصف الاول من القرن الذي اعقب ذلك زالت البهجة والبراعة والدقة من زخارف الحجاب الباروتينية في العراق والجزيرة فلم تعد الفتائل الباروتينية قيد الاستعمال ولم يستعمل القمع الا في القليل النادر، فصار معظم الزخارف في الحجاب تنجز عن طريق التحزيز او الطبع. ولم تختف مشاهد الغناء والموسيقى ومجالس البلاط فحسب بل اختفت كذلك كل الاشكال الادمية والحيوانية وحتى النباتية من رسوم هذه الحجاب الا في القليل النادر جدا. فلم تعد نجد سوى الالتواءات الزخرفية البسيطة والعناصر المحززة وبعض الزخارف الكتابية التي ظلت تزين كتف بعض تلك الحجاب. كذلك تحولت العقود المفصصة الجميلة التي كنا نجدها في الستارة المثبتة على كتف الحجاب الى عقود بسيطة غير مفصصة ووجودها قليل جدا. ومن اشهر الحجاب التي ترجع الى هذه الفترة حب محفوظ في المتحف العراقي يرتقي الى القرن الثامن الهجري يضيوي الشكل ارتفاعه ٩٥ سنتمترا وقطر بدنه ٥٥ سنتمترا له خمس عرى ثلاث منها مزدوجة. وهو مزين بزخارف مطبوعة بسيطة (الشكل ١٦).

ونجد عند الرقبة شريط من الكتابة بخط النسخ يضم بيتين من الشعر وهما ..

انا حب (للماء) في شفاء

ورواء للوارد الظمآن

نلت هذا عند الكرام بصبري

يوم ألقيت في لظا النيران

وفي القرون التي تلت القرن الثامن الهجري لم

يعد للحجاب الباروتينية وجود. فصارت جميع الحجاب بسيطة خالية من كل ضرب من ضروب الزخرفة مع ان الاستعانة بالحجاب لم يكن بأقل منها في العصور التي شهدت ازدهار الحضارة العراقية في ظل الاسلام والاسرة العباسية.

الهوامش:

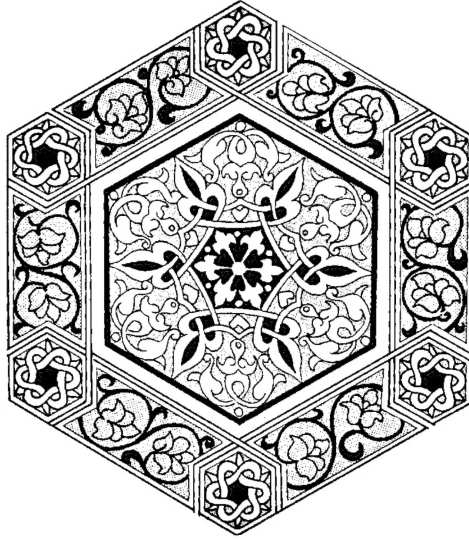
- (١) محمد علي مصطفى، تقرير ابي عن التقيب في الكوفة، مجلة سومر، الجزء الاول، المجلد العاشر، ١٩٥٦، ص ٨٤.
- (٢) ابن منظور، لسان العرب، ٩٥/١.
- (٣) Parrot, A., Sumer, U.S.A., 1960, Fig56-59.
- (٤) خليل قبطان، الحجاب العراقية المزخرفة منذ فجر الاسلام حتى القرن الثامن الهجري، رسالة ماجستير على الالة الكاتبة، جامعة بغداد، ١٩٧٠، ص ٢٢.
- (٥) المصدر السابق، ص ٤٣.
- (٦) المصدر السابق، ص ٣٤.
- (٧) المصدر السابق، ص ٥٩.
- (٨) Habson, R.L., A Guide to the Islamic Pottery of the Near East, London, 1932, p. 32.
- (٩) طلعت الياسر: دراسة للحجاب الفخارية المكتشفة في موقع باسطاييه بالموصل، آداب الراقدين، العدد ٤ لسنة ١٩٧٢، ص ٨٠-٨١.
- (١٠) المرجع نفسه، ص ٨٦.
- (١١) البخاري، صحيح البخاري، خمس ١١، ادب ٨٢ وصحيح مسلم، زكاة ١٢.
- (١٢) التوحي، نشوار المحاضرة، ٩٠/٨.
- (١٣) صلاح العبيدي، اللباس العربية الاسلامية في العصر العباسي الثاني، بغداد، ١٩٨٠، ص ٢٨٣.
- (١٤) المرجع السابق، ص ٢٠٠.
- (١٥) ابن جبير، الرحلة، ص ٢٢٨.
- (١٦) عيسى سليمان وآخرون، حضارة العراق، ٤٨٦/٩.
- (١٧) Ettinghausen, R., Arab Painting, London, p. 58.
- (١٨) زكي محمد حسن، اطلس الفنون الزخرفية والتصوير

الاسلامية ، شكل ٨٦٩ .

(١٩) Rice, D.S., Inlaid Brasses from the Workshop of Ahmad of Dhakiof Mousili, Ars Orientalis, vol.z, 1957, Fig. 40 – a.

(٢٠) قبطان، المرجع السابق، ص ٧١ ، ٩١ .

(٢١) عبد العزيز حميد وآخرون، حضارة العراق، ٩ / ٣٠٥ .



«من روائع الزخرفة العربية الاسلامية للخطاط علي بن محمد بن زيد الحسيني الموصل، وهي جزء من التذهيب الذي زين به الرزمة الشريفة التي كتبها في الموصل بين سنتي ٧٠٦ - ٧١٠ هـ / ١٣٠٦ - ١٣١٠ م». انظر ص ٢٣٠

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٧٢٧ لسنة ١٩٩١



دار الكتب للطباعة والنشر
جامعة الموصل

